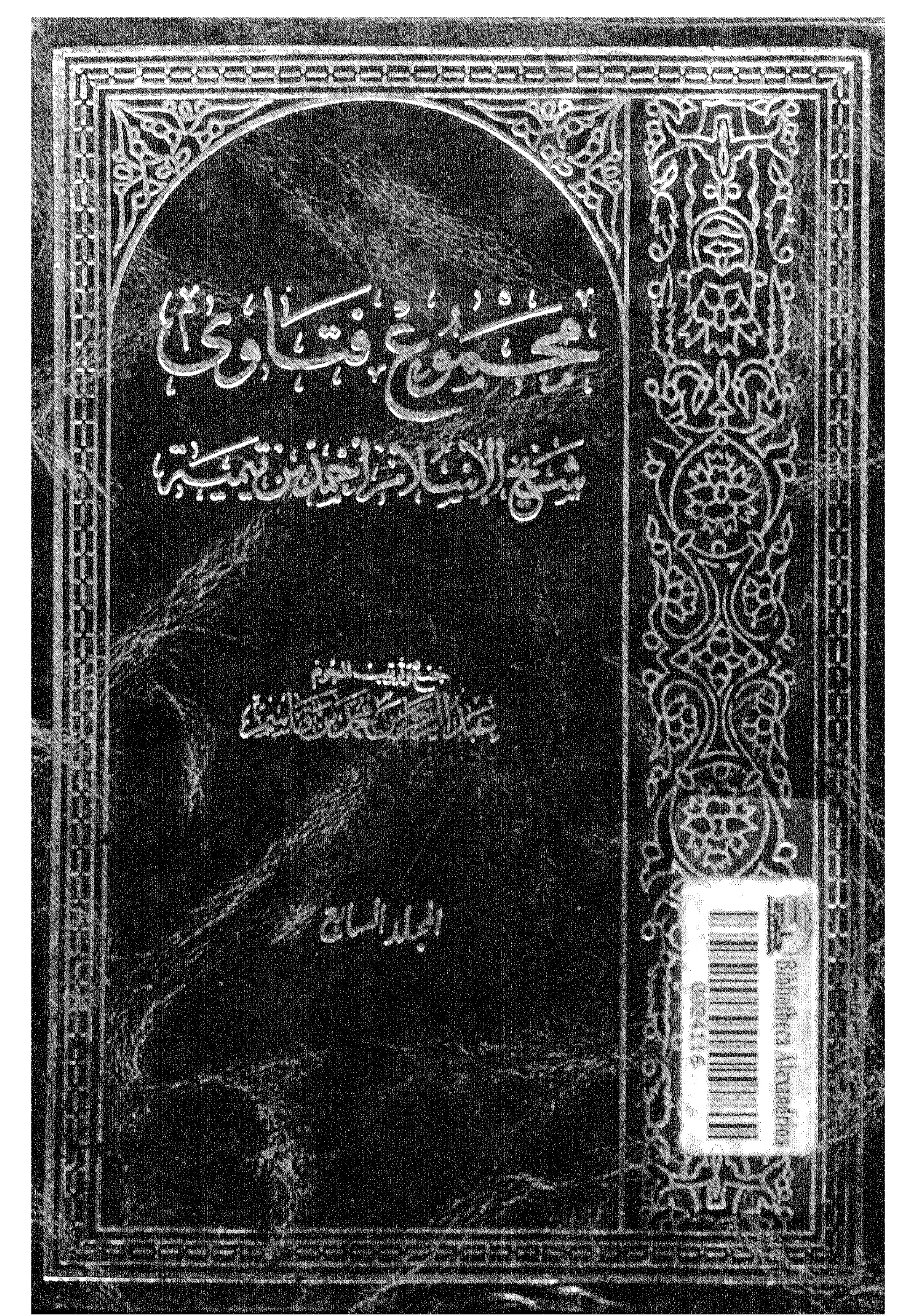

مجموع فتاوى
شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
جمع وترتيب المرحوم
عبد الرحمن بن محمد بن قاسم
المجلد السابع







مجموع فتاوى

شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

قدس الله روحه

١٠

جمع وترتيب المرحوم

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم

بمساعدة ابنه محمد

المجلد السابع



كتاب
الأيمان



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

قال شيخ الاسلام :

احمد بن تيمية قدس الله روحه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له ، ونشهد ان محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

اعلم ان « الايمان والاسلام » يجتمع فيهما الدين كله وقد كثر كلام الناس فى « حقيقة الايمان والاسلام » ، ونزاعهم ، واضطرابهم ؛ وقد صنفت فى ذلك مجلدات ؛ والنزاع فى ذلك من حين خرجت الخوارج بين عامة الطوائف .

ونحن نذكر ما يستفاد من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، مع ما يستفاد من كلام الله تعالى، فيصل المؤمن الى ذلك من نفس كلام الله ورسوله ، فان هذا هو المقصود . فلا نذكر اختلاف الناس ابتداء ؛ بل نذكر من ذلك ـــ في ضمن بيان ما يستفاد من كلام الله ورسوله ـــ ما يبين ان رد موارد النزاع الى الله والى الرسول خير وأحسن تأويلاً ، واحسن عاقبة في الدنيا والآخرة .

فنقول : قد فرق النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام ، بين مسمى « الاسلام » ومسمى « الايمان » ومسمي « الاحسان » . فقال : « الاسلام : أن تشهد ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا » . وقال : « الايمان : ان تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

و « الفرق » مذكور في حديث عمر الذي انفرد به مسلم ، وفي حديث ابي هريرة الذي اتفق البخاري ومسلم عليه ، وكلاهما فيه : ان جبرائيل جاءه في صورة انسان اعرابي فسأله . وفي حديث عمر : انه جاءه في صورة أعرابي .

وكذلك فسر « الاسلام » في حديث ابن عمر المشهور ، قال : « بني الاسلام على خمس : شهادة ان لا إله الا الله ، وان محمداً عبده ورسوله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » .

وحديث جبرائيل يبين ان « الاسلام المبني على خمس » هو الاسلام نفسه

ليس المبنى غير المبنى عليه؛ بل جعل النبي صلى الله عليه وسلم الدين ثلاث درجات: اعلاها «الاحسان» واوسطها «الايمان» ويليه «الاسلام»، فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسناً، ولا كل مسلم مؤمناً، كما سيأتي بيانه — ان شاء الله — فى سائر الأحاديث، كالحديث الذي رواه حماد ابن زيد، عن ايوب عن ابى قلابة، عن رجل من اهل الشام، عن ابيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «أسلم تسلم. قال: وما الاسلام؟ قال: ان تسلم قلبك لله، وان يسلم المسلمون من لسانك ويدك. قال: فأى الاسلام افضل؟ قال: الايمان. قال: وما الايمان؟ قال: ان تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، وبالبعث بعد الموت. قال: فأي الايمان افضل؟ قال: الهجرة. قال: وما الهجرة؟ قال: ان تهجر السوء. قال: فأي الهجرة افضل؟ قال: الجهاد. قال: وما الجهاد؟ قال: ان تجاهد، او تقاتل الكفار اذا لقيتهم، ولا تغلل، ولا تجبن». ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عملان هما افضل الأعمال، الا من عمل بمثلهما — قالها ثلاثا — حجة مبرورة، او عمرة» رواه احمد، ومحمد بن نصر المروزي.

ولهذا يذكر هذه «المراتب الأربعة» فيقول: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من امنه الناس على دمائهم واموالهم، والمهاجر من هجر السيئات، والمجاهد من جاهد نفسه لله». وهذا مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله بن عمرو، وفضالة بن عبيد وغيرهما باسناد جيد، وهو في «السنن» وبعضه فى «الصحيحين».

وقد ثبت عنه من غير وجه انه قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من امنه الناس على دمائهم واموالهم » . ومعلوم ان من كان مأموناً على الدماء والأموال ؛ كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده ، ولو لا سلامتهم منه لما ائتمنوه . وكذلك فى حديث عبيد بن عمير ، عن عمرو ابن عبسة .

وفى حديث عبد الله بن عبيد بن عمير ايضاً ، عن ابيه عن جده ، انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما الاسلام ؟ قال : اطعام الطعام ، وطيب الكلام . قيل : فما الايمان ؟ قال : السماحة والصبر . قيل : فمن افضل المسلمين اسلاماً ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده . قيل : فمن افضل المؤمنين ايماناً ؟ قال : احسنهم خلقاً . قيل فما افضل الهجرة ؟ قال : من هجر ما حرم الله عليه . قال : اي الصلاة افضل ؟ قال : طول القنوت . قال : اي الصدقة افضل ؟ قال : جهد مقل . قال : اي الجهاد افضل ؟ قال : ان تجاهد بمالك ونفسك ؛ فيعقر جوادك ، ويراق دمك . قال اي الساعات افضل ؟ قال : جوف الليل الغابر » .

ومعلوم ان هذا كله مراتب بعضها فوق بعض ؛ والا فالمهاجر لابد ان يكون مؤمناً ، وكذلك المجاهد ، ولهذا قال : « الايمان : السماحة والصبر » . وقال فى الاسلام : « اطعام الطعام ، وطيب الكلام » . والأول مستلزم للثانى ؛ فان من كان خلقه السماحة ، فعل هذا بخلاف الأول ؛ فان الانسان قد يفعل ذلك تخلقاً ، ولا يكون فى خلقه سماحة وصبر . وكذلك قال : « افضل المسلمين

من سلم المسلمون من لسانه ويده » . وقال : « افضل المؤمنين إيمـاناً احسنهم خلقاً » . ومعلوم ان هذا يتضمن الأول ؛ فمن كان حسن الخلق فعل ذلك .

قيل للحسن البصري : ما حسن الخلق ؟ قال : بذل الندى ، وكف الأذى وطلاقة الوجه . فـكف الأذى جزء من حسن الخلق .

وسـتأتى الأحاديث الصحيحـة بأنه جعل الأعمال الظاهرة من الايمان كقوله : « الايمان بضـع وسبعون شعبة ، اعلاها قول لا إله الا الله ، وادناها إماطة الأذى عن الطريق » . وقوله لوفد عبـد القيس : « آمركم بالله وحده ، اتدرون ما الايمـان بالله وحده ؟ شهادة ان لا إله الا الله وحده لا شريك له ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وان تؤدوا خمس ما غنمتم » .

ومعلوم انه لم يرد ان هذه الاعمال تـكون إيماناً بالله بدون إيمـان القلب ؛ لمـا قد اخبر فى غير موضع انه لا بد من ايمـان القلب ، فعلم ان هذه مع إيمان القلب هو الايمان ، وفى « المسند » عن انس ، عن النبي صلى الله عليه وسـلم انه قال : « الاسلام علانيـة ، والايمان فى القلب » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجسد مضغة ، اذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، واذا فسدت فسد لها سـائر الجسد ، الا وهي القلب » . فمن صلح قلبه صلح جسده قطعاً ، بخلاف العـكس .

وقال سفيان بن عيينة : كان العلماء فيما مضىٰ يكتب بعضهم الى بعض بهؤلاء الـكلمات : من اصلح سريرته ؛ اصلح الله علانيته . ومن اصلح ما بينه

وبين الله ؛ اصلح الله ما بينه وبين الناس . ومن عمل لآخرته ؛ كفاه الله امر دنياه . رواه ابن ابى الدنيا فى « كتاب الاخلاص » .

فعلم ان القلب إذا صلح بالايمان ؛ صلح الجسد بالاسلام، وهو من الايمان؛ يدل على ذلك انه قال فى حديث جبرائيل : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » . فجعل «الدين» هو الاسلام ، والايمان ، والاحسان . فتبين ان ديننا يجمع الثلاثة، لكن هو درجات ثلاث: «مسلم» ثم «مؤمن» ثم «محسن» كما قال تعالى : (ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم لنفسه . وهكذا من أتى بالاسلام الظاهر مع تصديق القلب ؛ لكن لم يقم بما يجب عليه من الايمان الباطن ؛ فانه معرض للوعيد ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

واما « الاحسان » فهو أعم من جهة نفسه ، واخص من جهة اصحابه من الايمان . «والايمان» اعم من جهة نفسه ، واخص من جهة اصحابه من الاسلام . فالاحسان يدخل فيه الايمان ، والايمان يدخل فيه الاسلام، والمحسنون اخص من المؤمنين ، والمؤمنون اخص من المسلمين ؛ وهذا كما يقال : فى « الرسالة ، والنبوة» فالنبوة داخلة فى الرسالة ، والرسالة اعم من جهة نفسها ، واخص من جهة أهلها ؛ فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا ؛ فالأنبياء اعم ، والنبوة نفسها جزء من الرسالة ، فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة ؛ فانها لا تتناول الرسالة .

والنبي صلى الله عليه وسلم فسر «الاسلام والايمان » بما اجاب به؛ كما يجاب عن المحدود بالحد ، إذا قيل ما كذا ؟ قيل : كذا ، وكذا . كما فى الحديث الصحيح ، لما قيل : ما الغيبة ؟ قال : « ذكرك اخاك بما يكره » . وفى الحديث الآخر : « الكبر بطر الحق وغمط الناس» . وبطر الحق : جحده ودفعه. وغمط الناس : احتقارهم وازدراؤهم .

وسنذكر — ان شاء الله تعالى — سبب تنوع أجوبته ، وانها كلها حق .

ولكن (المقصود) ان قوله : « بنى الاسلام على خمس» ؛ كقوله : « الاسلام هو الخمس» كما ذكر في حديث جبرائيل ؛ فان الأمر مركب من اجزاء ، تكون الهيئة الاجتماعية فيه مبنية على تلك الأجزاء ومركبة منها ؛ فالاسلام مبنى على هذه الأركان — وسنبين إن شاء الله — اختصاص هذه الخمس بكونها هي الاسلام، وعليها بنى الاسلام ، ولم خصت بذلك دون غيرها من الواجبات ؟

وقد فسر «الايمان» فى حديث وفد عبد القيس بما فسر به الاسلام هنا، لكنه لم يذكر فيه الحج ، وهو متفق عليه فقال : « آمركم بالايمان بالله وحده ، هل تدرون ما الايمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة ان لا إله إلا الله ، وان محمداً رسول الله ، واقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وإن تؤدوا خمس ما غنمتم ، او خمساً من المغنم».

وقد روى فى بعض طرقه : « الايمان بالله ، وشهادة ان لا إله إلا الله » .

لكن الأول اشهر . وفى رواية أبى سعيد : « آمركم بأربع ، وانهاكم عن اربع : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » . وقد فسر ـــ فى حديث شعب الايمان ـــ الايمان بهذا وبغيره ، فقال : «الايمان بضع وستون او بضع وسبعون شعبة ، افضلها قول لا اله الا الله ، وادناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان » .

وثبت عنه من وجوه متعددة انه قال : « الحياء شعبة من الايمان » من حديث ابن عمر ، وابن مسعود ، وعمران بن حصين . وقال ايضاً : « لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين» . وقال : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» . وقال : «والله لا يؤمن ، والله لايؤمن، والله لا يؤمن . قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه» . وقال :« من راى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فانلم يستطع فبقلبه ، وذلك اضعف الايمان» . وقال : « ما بعث الله من نبي الا كان فى أمته قوم يهتدون بهديه ، ويستنون بسنته . ثم انه يخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ؛ فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل » وهذا من افراد مسلم .

وكذلك في افراد مسلم قوله : « والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، او لا ادلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ :

افشوا السلام بينكم » وقال فى الحديث المتفق عليه من رواية ابي هريرة ، ورواه البخاري من حديث ابن عباس، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . ولاينتهب النهبة يرفع الناس اليه فيها ابصارهم وهو مؤمن » .

فيقال « اسم الايمان » تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الاسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرها ، وتارة يذكر مقروناً ؛ اما بالاسلام كقوله فى حديث جبرائيل : « ما الاسلام وما الايمان » ؟ وكقوله تعالى : (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) . وقوله عز وجل : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) . وقوله تعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) .

وكذلك ذكر الايمان مع العمل الصالح ؛ وذلك فى مواضع من القرآن ، كقوله تعالى : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . واما مقروناً بالذين اوتوا العلم ، كقوله تعالى : (وقال الذين اوتوا العلم والايمان) وقوله : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات) . وحيث ذكر الذين آمنوا فقد دخل فيهم الذين اوتوا العلم ؛ فانهم خيارهم ، قال تعالى: (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا) . وقال : (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك ، وما انزل من قبلك) .

ويذكر ايضاً لفظ المؤمنين مقروناً بالذين هادوا والنصارى والصابئين ، ثم يقول : (من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فالمؤمنون فى ابتداء الخطاب غير الثلاثة ، والايمان الآخر عمهم ؛ كما عمهم فى قوله : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، اولئك هم خير البرية) . وسنبسط هذا ان شاء الله تعالى .

(فالمقصود هنا) العموم والخصوص بالنسبة الى ما فى الباطن والظاهر من الايمـــان . واما العموم بالنسبة الى الملل ؛ فتلك « مسألة اخرى » . فلما ذكر الايمان مع الاسلام ؛ جعل الاسلام هو الاعمال الظاهرة : الشهادتان ، والصلاة والزكاة ، والصيام ، والحج . وجعل الايمـــان ما فى القلب من الايمان بالله ، وملائـكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . وهكذا فى الحديث الذي رواه احمد ، عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : «الاسلام علانية ، والايمان فى القلب » .

واذا ذكر اسم الايمان مجرداً ؛ دخل فيه الاسلام والأعمال الصالحة ، كقوله فى حديث الشعب : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، اعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق » . وكذلك سائر الاحاديث التى يجعل فيها اعمال البر من الايمان .

ثم ان نفي « الايمان » عند عدمها ؛ دل على أنها واجبة ، وان ذكر فضل ايمان صاحبها ــ ولم ينف إيمانه ــ دل على انهـــا مستحبة ؛ فان الله ورسوله

لا ينفي اسم مسمى امر ــ امر الله به ، ورسوله ــ إلا إذا ترك بعض واجباته كقوله : « لا صلاة إلا بأم القرآن » . وقوله : « لا إيمان لمن لا امانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » ونحو ذلك .

فأما إذا كان الفعل مستحباً فى « العبادة » لم ينفها لانتفاء المستحب ، فان هذا لو جاز ؛ لجـــاز ان ينفي عن جمهور المؤمنين اسم الايمان والصلاة والزكاة والحج ؛ لأنه ما من عمل إلا وغيره افضل منه ، وليس احد يفعل افعال البر مثل ما فعلها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بل ولا ابو بكر ولا عمر . فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه ؛ لجاز ان ينفى عن جمهور المسلمين من الاولين والآخرين ، وهذا لا يقوله عاقل .

فمن قال : ان المنـــفي هو الـــكمال ، فان أراد انه نفي « الــكمال الواجب » الذى يذم تاركه ، ويتعرض للعقوبة ؛ فقد صدق . وان أراد انه نفي « الــكمال المستحب » فهذا لم يقع قط فى كلام الله ورسوله ، ولا يجوز ان يقع ، فان من فعل الواجب كما وجب عليه ، ولم ينتقص من واجبه شيئاً ؛ لم يجــز ان يقال : ما فعله لا حقيقة ولا مجازاً . فاذا قال للأعرابى المسيء فى صلاته :« ارجع فصل فانك لم تصل » . وقال لمن صلى خلف الصف ــ وقد امره بالاعادة : « لا صلاة لفذ خلف الصف » كان لترك واجب . وكذلك قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله ، اولئك هم الصادقون) يبين أن الجهـــاد واجب وترك الارتياب واجب .

والجهاد ــ وان كان فرضاً على الكفاية ــ فجميع المؤمنين يخاطبون به ابتداء فعليهم كلهم اعتقاد وجوبه ، والعزم على فعله اذا تعين ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو ؛ مات على شعبة نفاق » رواه مسلم . فأخبر أنه من لم يهم به ؛ كان على شعبة نفاق .

« وايضاً » فالجهاد جنس تحته انواع متعددة ، ولا بد ان يجب على المؤمن نوع من انواعه . وكذلك قوله : (انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، اولئك هم المؤمنون حقاً) . هذا كله واجب ؛ فان التوكل على الله واجب من اعظم الواجبات ، كما ان الاخلاص لله واجب ، وحب الله ورسوله واجب . وقد امر الله بالتوكل فى غير آية اعظم مما امر بالوضوء والغسل من الجنابة ونهى عن التوكل على غير الله ، قال تعالى : (فاعبده وتوكل عليه) . وقال تعالى : (الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . وقال تعالى : (ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . وقال تعالى : (وقال موسى : يا قوم ان كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) .

وأما قوله : (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً) . فيقال : من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الايمان الثابتة فيه ، بحيث اذا كان الانسان مؤمناً ؛ لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له

واذا لم يوجد ؛ دل على ان الايمان الواجب لم يحصل في القلب ، وهذا كقوله تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابنـــاءهم او اخوانهم او عشيرتهم ، اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) . فأخبر انك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله فان نفس الايمان ينافي موادته كما ينفي احد الضدين الآخر ، فاذا وجد الايمان انتفى ضده ، وهو موالاة اعداء الله ، فاذا كان الرجل يوالي اعداء الله بقلبه ؛ كان ذلك دليلاً على ان قلبه ليس فيه الايمان الواجب .

ومثله قوله تعالى فى الآية الأخرى : (ترى كثيراً منهم يتـولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم انفسهم ان سخط الله عليهم وفى العذابهم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون) . فذكر « جملة شرطية » تقتضي انه إذا وجد الشرط وجـد المشروط بحرف «لو» التى تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط ، فقال : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم اولياء) . فدل على ان الايمـان المذكور ينفي اتخاذهم اولياء ويضاده ، ولا يجتمع الايمان واتخاذهم أولياء فى القلب . ودل ذلك على ان من اتخذهم اولياء ؛ ما فعل الايمان الواجب من الايمان بالله والنبي، وما انزل اليه .

ومثله قوله تعالى : (لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ، بعضهم اوليـاء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم) . فانه اخبر فى تلك الآيات ان متوليهم لايكون

مؤمناً . واخبر هنا ان متوليهم هو منهم ؛ فالقرآن يصدق بعضه بعضاً .قال الله تعالى : (الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) الآية . وكذلك قوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله؛ وإذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) : دليل على ان الذهاب المذكور بدون استئذانه لا يجوز وانه يجب ان لا يذهب حتى يستأذن ، فمن ذهب ولم يستأذن كان قد ترك بعض ما يجب عليه من الأيمان ؛ فلهذا نفى عنه الايمان ، فان حرف «انما» تدل على اثبات المذكور ونفي غيره .

ومن الأصوليين من يقول : ان « إن» للاثبات و« ما » للنفي ، فاذا جمع بينهما دلت على النفي والاثبات ، وليس كذلك عند اهل العربية ، ومن يتكلم في ذلك بعلم ، فان «ما » هذه هي الكافة التي تدخل على ان وأخواتها فتكفها عن العمل ؛ لأنها انما تعمل اذا اختصت بالجمل الأسمية ، فلما كفت بطل عملها واختصاصها ، فصار يليها الجمل الفعلية والاسمية ؛ فتغير معناها وعملها جميعاً بانضمام « ما » اليها وكذلك كأنما وغيرها .

وكذلك قوله تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما اولئك بالمؤمنين . واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين ، أفي قلوبهم مرض ام ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله ،بل اولئك هم الظالمون ، إنما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان

يقولوا سمعنا واطعنا ، واولئك هم المفلحون) . فان قيل : اذا كان المؤمن حقاً هو الفاعل للواجبات التارك للمحرمات ؛ فقدقال : (اولئك هم المؤمنون حقاً) ولم يذكر الا خمسة أشياء . وكذلك قال فى الآية الأخرى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون) . وكذلك قوله : (ان الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) .

قيل عن هذا جوابان :

(احدهما) : ان يكون ما ذكر مستلزماً لما ترك ؛ فانه ذكر وجل قلوبهم اذا ذكر الله . وزيادة ايمانهم اذا تليت عليهم آياته مع التوكل عليه ، واقام الصلاة على الوجه المأمور به باطناً وظاهراً ، وكذلك الانفاق من المال والمنافع؛ فكان هذا مستلزما للباقى ؛ فان وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه . وقد فسروا (وجلت) بفرقت . وفى قراءة ابن مسعود : (اذا ذكر الله فرقت قلوبهم) . وهذا صحيح ؛ فان « الوجل فى اللغة » هو الخوف ، يقال : حمرة الخجل وصفرة الوجل . ومنه قوله تعالى : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون) قالت عائشة : « يارسول الله ! هو الرجل يزني ويسرق ويخاف ان يعاقب ؟ قال : لا يابنة الصديق ! هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف ان لا يقبل منه » .

وقال السدى فى قوله تعالى : (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) : هو

الرجل يريد ان يظلم او يهم بمعصية فينزع عنه . وهذا كقوله تعالى : (واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) وقوله : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) . قال مجاهد وغيره من المفسرين : هو الرجل يهم بالمعصية ، فيذكر مقامه بين يدي الله ؛ فيتركها خوفاً من الله .

واذا كان « وجل القلب من ذكره » يتضمن خشيته ومخافته ؛ فذلك يدعو صاحبه الى فعل المأمور ، وترك المحظور . قال سهل بن عبدالله : ليس بين العبد وبين الله حجاب اغلظ من الدعوى ، ولا طريق اليه اقرب من الافتقار ، واصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله . ويدل على ذلك قوله تعالى : (ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) . فأخبر ان الهدى والرحمة للذين يرهبون الله .

قال مجاهد وابراهيم : هو الرجل يريد ان يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب . رواه ابن ابى الدنيا ، عن ابن الجعد ، عن شعبة ، عن منصور ، عنهما ، فى قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) . وهؤلاء هم اهل الفلاح المذكورون فى قوله تعالى : (اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون) . وهم «المؤمنون» وهم « المتقون» المذكورون فى قوله تعالى: (آلم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) كما قال فى آية البر : (اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) . وهؤلاء هم المتبعون للكتاب ، كما فى قوله تعالى : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) . واذا لم يضل فهو متبع مهتد ،

واذا لم يشق فهو مرحوم . وهؤلاء هم اهل الصراط المستقيم الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين . فان أهل الرحمة ليسوا مغضوباً عليهم . واهل الهدى ليسوا ضالين فتبين ان اهل رهبة الله يكونون متقين لله ، مستحقين لجنته بلا عذاب . وهؤلاء هم الذين أتوا بالايمان الواجب .

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) والمعنى انه لا يخشاه الا عالم ؛ فقد اخبر الله ان كل من خشي الله فهو عالم ، كما قال فى الآية الأخرى : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . والخشية أبداً متضمنة للرجاء ، ولولا ذلك لكانت قنوطاً ؛ كما ان الرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان امناً ؛ فأهل الخوف لله والرجاء له هم اهل العلم الذين مدحهم الله . وقد روي عن ابي حيان التيمي انه قال : « العلماء ثلاثة » : فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله ، وعالم بالله عالم بأمر الله . فالعالم بالله هو الذي يخافه ، والعالم بأمر الله هو الذى يعلم امره ونهيه ، وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « والله اني لأرجو ان اكون اخشاكم لله واعلمكم بحدوده » .

واذا كان اهل الخشية هم العلماء الممدوحون فى الكتاب والسنة ، لم يكونوا مستحقين للذم ، وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات ، ويدل عليه قوله تعالى :

(فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) . وقوله : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) . فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف ، وذلك إنما يكون لأنهم ادوا الواجب فدل على ان الخوف يستلزم فعل الواجب ؛ ولهذا يقال للفاجر : لا يخاف الله. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) .

قال ابو العالية : سألت اصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ، وكذلك قال سائر المفسرين . قال مجاهد : كل عاص فهو جاهل حين معصيته . وقال الحسن وقتادة وعطاء والسدى وغيرهم : انما سموا جهالاً لمعاصيهم ، لا انهم غير مميزين. وقال الزجاج : ليس معنى الآية انهم يجهلون انه سوء ؛ لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءاً ؛ وانما يحتمل امرين .

(احدهما) : انهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه . والثاني : انهم اقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة ، وآثروا العاجل على الآجل ؛ فسموا جهالاً لايثارهم القليل على الراحة الكثيرة، والعافية الدائمة . فقد جعل الزجاج «الجهل» إما عدم العلم بعاقبة الفعل ، واما فساد الارادة ؛ وقد يقال : هما متلازمان ، وهذا مبسوط فى الكلام مع الجهمية .

والمقصود هنا ان كل عاص لله فهو جاهل ، وكل خائف منه فهو عالم

مطيع لله ؛ وانما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله ، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص . ومنه قول ابن مسعود ، رضي الله عنه : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً . وذلك لأن تصور المخوف يوجب الهرب منه ، وتصور المحبوب يوجب طلبه ، فاذا لم يهرب من هذا ، ولم يطلب هذا ؛ دل على انه لم يتصوره تصوراً تاماً ؛ ولكن قد يتصور الخبر عنه ، وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر عنه . وكذلك اذا لم يكن المتصور محبوباً له ولا مكروهاً ؛ فان الانسان يصدق بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره ، ولا يورثه ذلك هرباً ولا طلباً . وكذلك اذا اخبر بما هو محبوب له ومكروه ، ولم يكذب المخبر بل عرف صدقه ؛ لكن قلبه مشغول بأمور اخرى عن تصور ما أخبر به ؛ فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب .

وفى الكلام المعروف عن الحسن البصرى ، ويروى مرسلاً عن النبى صلى الله عليه وسلم : « العلم علمان » فعلم فى القلب ، وعلم على اللسان . فعلم القلب هو العلم النافع ؛ وعلم اللسان حجة الله على عباده » .

وقد أخرجا في « الصحيحين » عن ابي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ، طعمها طيب وريحها طيب . ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة ، طعمها طيب ولا ريح لها . ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة ، طعمها مر ولا ريح لها » . وهذا المنافق الذى يقرأ القرآن يحفظه ويتصور معانيه ، وقد يصدق انه

كلام الله وان الرسول حق ، ولا يكون مؤمناً . كما ان اليهود يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وليسوا مؤمنين ، وكذلك ابليس وفرعون وغيرهما . لكن من كان كذلك ؛ لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة ، فان ذلك يستلزم العمل بموجبه لا محالة ؛ ولهذا صار يقال لمن لم يعمل بعلمه : انه جاهل كما تقدم .

وكذلك لفظ « العقل » — وان كان هو فى الأصل : مصدر عقل يعقل عقلاً ، وكثير من النظار جعله من جنس العلوم — فلا بد ان يعتبر مع ذلك انه علم يعمل بموجبه ، فلا يسمى « عاقلاً » الا من عرف الخير فطلبه ، والشر فتركه ؛ ولهذا قال اصحاب النار : (لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير) . وقال عن المنافقين : (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) . ومن فعل ما يعلم انه يضره ؛ فمثل هذا ما له عقل . فكما ان الخوف من الله يستلزم العلم به ؛ فالعلم به يستلزم خشيته ، وخشيته تستلزم طاعته . فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه ، وهذا هو الذي قصدنا بيانه اولاً . ويدل على ذلك ايضاً قوله تعالى : (فذكر ان نفعت الذكرى ؛ سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى) .

فأخبر ان من يخشاه يتذكر ، والتذكر هنا مستلزم لعبادته ، قال الله تعالى : (هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر الا من ينيب) . وقال : (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) . ولهذا قالوا فى قوله

(سيذكر من يخشى) : سيتعظ بالقرآن من يخشى الله . وفي قوله (وما يتذكر إلا من ينيب) : انما يتعظ من يرجع الى الطاعة . وهذا لان التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره : فان تذكر محبوباً طلبه ، وان تذكر مرهوباً هرب منه . ومنه قوله تعالى : (سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون) . وقال سبحانه : (انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب) . فنفى الانذار عن غير هؤلاء مع قوله : (سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون) . فأثبت لهم الانذار من وجه ، ونفاه عنهم من وجه : فان الانذار هو الاعلام بالخوف . فالانذار مثل التعليم والتخويف ، فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه ، وآخر يقول : علمته فلم يتعلم . وكذلك من خوفته فخاف فهذا هو الذي تم تخويفه . واما من خوف فما خاف ؛ فلم يتم تخويفه . وكذلك من هديته فاهتدى ؛ تم هداه ، ومنه قوله تعالى : (هدى للمتقين) . ومن هديته فلم يهتد — كما قال : (واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) — فلم يتم هداه ، كما تقول : قطعته فانقطع وقطعته فما انقطع .

فالمؤثر التام يستلزم اثره : فمتى لم يحصل أثره لم يكن تاماً ، والفعل اذا صادف محلاً قابلاً تم ، والا لم يتم . والعلم بالمحبوب يورث طلبه ، والعلم بالمكروه يورث تركه ؛ ولهذا يسمى هذا العلم : الداعي ، ويقال : الداعي مع القدرة يستلزم وجود المقدور ، وهو العلم بالمطلوب المستلزم لارادة المعلوم المراد ، وهذا كله انما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها ، واما مع فسادها فقد يحس الانسان باللذيذ فلا يجد له لذة بل يؤلمه ، وكذلك يلتذ بالمؤلم لفساد الفطرة و « الفساد

يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعاً ، كالممرور الذى يجد العسل مراً ؛ فانه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليــه للمرة التى مازجته وكذلك من فســد باطنه ، قال تعالى : (وما يشعركم انها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب افئــدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) .

وقال تعالى : (فلمــا زاغوا ازاغ الله قلوبهم) . وقال : (وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم) . وقال فى الآية الاخرى : (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم) . و « الغلف » : جمــع اغلف وهو ذو الغلاف الذي فى غلاف مثــل الاقلف ، كأنهم جعلوا المـانع خلقة ، اى خلقت القلوب وعليها اغطية ، فقال الله تعــالى : (بل لعنهم الله بكفرهم) وطبــع الله عليها بكفرهم (فلا يؤمنون إلا قليــلاً) . وقال تعالى : (ومنهم من يستمع اليــك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم : ماذا قال آنفاً ، اولئك الذين طبــع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم) .

وكذلك قالوا : (يا شعيب ما نفقه كثيراً ممــا تقول) قال : (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) اى لافهمهم ما سمعوه . ثم قال : ولو افهمهم مع هذه الحال التى هم عليهــا ، (لتولوا وهم معرضون) فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا ، ولو فهموا لم يعملوا ، فنفى عنهم صحــة القوة العلمية ، وصحة القوة العملية ، وقال : (ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم إلا كالانعام بل هم اضل

سبيلاً) . وقال : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) . وقال : (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وقال عن المنافقين : (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) .

ومن الناس من يقول : لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق ؛ جعلوا صماً بكما عمياً ، أولما أعرضوا عن السمع والبصر والنطق ، صاروا كالصم العمى البكم ، وليس كذلك ؛ بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت ، كما قال الله تعالى : (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) « والقلب » هو الملك ، والأعضاء جنوده ، وإذا صلح صلح سائر الجسد ، وإذا فسد فسد سائر الجسد ، فيبقي يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم ، والمعنى : لا يفقهه ، وإن فقه بعض الفقه لم يفقهفقهاً تاماً ، فان الفقه التام يستلزم تأثيره فى القلب محبة المحبوب ، وبغض المكروه ؛ فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلاً فجاز نفيه . لأن ما لم يتم ينفى ، كقوله للذي أساء فى صلاته : « صل فانك لم تصل » . فنفى الايمان حيث نفي من هذا الباب .

وقد جمع الله بين وصفهم بوجل القلب إذا ذكر ، وبزيادة الايمان إذا سمعوا آياته . قال الضحاك : زادتهم يقيناً . وقال الربيع بن أنس : خشية . وعن ابن عباس تصديقاً . وهكذا قد ذكر الله هذين الأصلين في مواضع، قال تعالى : (الم

يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الامد، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون).

و « الخشوع » يتضمن معنيين : (احدهما) : التواضع والذل . (والثاني) : السكون والطمأنية ، وذلك مستلزم للين القلب المنافى للقسوة ؛ فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته ايضاً، ولهذا كان الخشوع فى الصلاة يتضمن هذا ، وهذا : التواضع ، والسكون . وعن ابن عباس فى قوله : (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) . قال : مخبتون اذلاء . وعن الحسن وقتادة : خائفون . وعن مقاتل : متواضعون . وعن علي : الخشوع فى القلب ، وان تلين للمرء المسلم كنفك ، ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً : وقال مجاهد : غض البصر وخفض الجناح ، وكان الرجل من العلماء إذ قام إلى الصلاة يهاب الرحمن ان يشد بصره ، او ان يحدث نفسه بشيء من امر الدنيا .

وعن عمرو بن دينار : ليس الخشوع الركوع والسجود ؛ ولكنه السكون وحب حسن الهيئة فى الصلاة . وعن ابن سيرين وغيره : كان النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه يرفعون ابصارهم في الصلاة إلى السماء ، وينظرون يميناً وشمالاً حتى نزلت هذه : (قد افلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) الآية . فجعلوا بعد ذلك ابصارهم حيث يسجدون ، وما رؤي احد منهم بعد ذلك ينظر إلا إلى الارض . وعن عطاء : هو ان لا تعبث بشيء من جسدك وانت فى الصلاة ، وابصر النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : « لو خشع

قلب هذا لخشعت جوارحه . ولفظ « الخشوع » ـ ان شاء الله يبسط ـ في موضع آخر .

و « خشوع الجسد » تبع لخشوع القلب ، اذا لم يكن الرجل مرائياً يظهر ما ليس فى قلبه كما روى : « تعوذوا بالله من خشوع النفاق » وهو ان يري الجسد خاشعاً والقلب خالياً لاهياً . فهو سبحانه استبطأ المؤمنين بقوله: (الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) فدعاهم الي خشوع القلب لذكره وما نزل من كتابه . ونهاهم ان يكونوا كالذين طال عليهم الامد فقست قلوبهم ، وهؤلاء هم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً .

وكذلك قال في الآية الاخرى : (الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) . والذين يخشون ربهم ؛ هم الذين اذا ذكر الله تعالي وجلت قلوبهم .

فان قيل : فخشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب . قيل : نعم لكن الناس فيه على قسمين : «مقتصد» «وسابق» فالسابقون يختصون بالمستحبات والمقتصدون الابرار: هم عموم المؤمنين المستحقين للجنة ، ومن لم يكن من هؤلاء ، ولا هؤلاء ؛ فهو ظالم لنفسه . وفى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع ؛ وقلب لا يخشع . ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع » .

وقد ذم الله « قسوة القلوب » المنافية للخشوع فى غير موضع، فقال تعالى: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) . قال الزجاج: قست فى اللغة : غلظت ويبست وعسيت . فقسوة القلب، ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه . والقاسي والعاسي : الشديد الصلابة . وقال ابن قتيبة : قست وعست وعتت . أى يبست . وقوة القلب المحمودة غير قسوته المذمومة ، فانه ينبغى ان يكون قوياً من غير عنف ، ولينا من غير ضعف . وفى الأثر: «القلوب آنية الله فى أرضه ، فأحبها الى الله أصلبها وأرقها وأصفاها » . وهذا كاليد فانها قوية لينة ، بخلاف ما يقسو من العقب فانه يابس لا لين فيه ، وان كان فيه قوة . وهو سبحانه ذكر وجل القلب من ذكره ، ثم ذكر زيادة الايمان عند تلاوة كتابه علماً وعملاً .

ثم لا بد من التوكل على الله فيما لا يقدر عليه ، ومن طاعته فيما يقدر عليه ،واصل ذلك « الصلاة » و « الزكاة » . فمن قام بهذه الخمس كما امر ، لزم ان يأتي بسائر الواجبات .

بل « الصلاة نفسها » إذا فعلها كما امر ، فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر ؛ كما روي عن ابن مسعود ، وابن عباس : ان في الصلاة منتهى ومزدجراً عن معاصي الله ، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً ». وقوله : « لم يزدد إلا بعداً » ، اذا كان ما ترك من الواجب منها اعظم مما فعله ، ابعده ترك الواجب الأكثر من الله اكثر مما قربه فعل الواجب الأقل، وهذا

كما فى « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرني شيطان ، قام فنقر اربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلا » . وقد قال تعالى : (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا) .

وفى السنن عن عمار ، عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها الا نصفها،الا ثلثها،حتى قال : إلا عشرها» وعن ابن عباس قال : ليس لك من صلاتك الا ما عقلت منها . وهذا وان لم يؤمر باعادة الصلاة عند اكثر العلماء ، لكن يؤمر بأن يأتى من التطوعات بما يجبر نقص فرضه . ومعلوم ان من حافظ على الصلوات بخشوعها الباطن ، واعمالها الظاهرة ، وكان يخشى الله الخشية التى امره بها ؛ فانه يأتي بالواجبات ؛ ولا يأتي كبيرة . ومن اتى الكبائر — مثل الزنا ، او السرقة ، او شرب الخمر ؛ وغير ذلك — فلا بد ان يذهب ما فى قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور ؛ وان بقى اصل التصديق فى قلبه . وهذا من « الايمان » الذى ينزع منه عند فعل الكبيرة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » .

فان « المتقين » كما وصفهم الله بقوله : (ان الذين اتقوا إذ مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فاذا طاف بقلوبهم طائف من الشيطان

تذكروا ، فيبصرون . قال سعيد بن جبير : هو الرجل يغضب الغضبة ، فيذكر الله ؛ فيكظم الغيظ . وقال ليث عن مجاهد : هو الرجل يهم بالذنب ، فيذكر الله ، فيدعه . والشهوة والغضب مبدأ السيئات ، فاذا ابصر رجع ثم قال : (وإخوانهم يمدونهم فى الغي ثم لا يقصرون) . اي : واخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي ، ثم لا يقصرون . قال ابن عباس : لا الانس تقصر عن السيئات . ولا الشياطين تمسك عنهم . فاذا لم يبصر بقي قلبه فى غي والشيطان يمده فى غيه . وإن كان التصديق فى قلبه لم يكذب . فذلك النور والابصار . وتلك الخشية والخوف ، يخرج من قلبه . وهذا : كما ان الانسان يغمض عينيه فلا يرى شيئاً ، وان لم يكن أعمى ؛ فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق . وان لم يكن أعمى كعمى الكافر .

وهكذا جاء فى الآثار : قال احمد بن حنبل فى كتاب (الايمان) :حدثنا يحي ، عن اشعث ، عن الحسن ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ينزع منه الايمان ؛ فان تاب اعيد اليه » . وقال : حدثنا يحيى ، عن عوف قال : قال الحسن : « يجانبه الايمان ما دام كذلك ، فان راجع راجعه الايمان » . وقال احمد : حدثنا معاوية عن أبي اسحاق ، عن الأوزاعي؛ قال : وقد قلت للزهري حين ذكر هذا الحديث ـــ « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » فانهم يقولون : فان لم يكن مؤمناً فما هو ؟ قال : فأنكر ذلك . وكره مسألتي عنه .

وقال احمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان عن ابراهيم بن

مهاجر ، عن مجاهد عن ابن عباس انه قال لغلمانه : من اراد منكم الباءة زوجناه لا يزني منكم زان الا نزع الله منه نور الايمان ، فان شاء ان يرده رده ، وان شاء ان يمنعه منعه . وقال ابو داود السجستاني : حدثنا عبد الوهاب بن نجدة حدثنا بقية بن الوليد ، حدثنا صفوان بن عمرو ، عن عبد الله بن ربيعة الحضرمي انه اخبره عن ابي هريرة انه كان يقول : « إنما الايمان كثوب احدكم يلبسه مرة ويقلعه اخرى » وكذلك رواه باسناده عن عمر ، وروي عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً . وفي حديث عن ابي هريرة مرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم : « اذا زنى الزاني خرج منه الايمان فكان كالظلة ، فاذا انقطع رجع إليه الايمان » . وهذا (ان شاء الله) يبسط في موضع آخر .

فصل

وقد جاءت احاديث تنازع الناس فى صحتها ، مثل قوله : « لا صلاة إلا بوضوء ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » فأما الأول : فهو كقوله : « لا صلاة الا بطهور » وهذا متفق عليه بين المسلمين ؛ فان الطهور واجب فى الصلاة ؛ فانما نفى الصلاة لانتفاء واجب فيها ، وأما ذكر اسم الله تعالى على الوضوء ؛ ففي وجوبه نزاع معروف ، واكثر العلماء لا يوجبونه ، وهو مذهب مالك ، وأبي حنيفة ، والشافعي وهو احدى الروايتين عن احمد ، اختارها الخرقي وابو محمد وغيرهما . والثاني : يجب وهو قول طائفة من اهل العلم ، وهو الرواية الأخرى عن احمد ، اختارها ابو بكر عبد العزيز ، والقاضي ابو يعلى وأصحابه . وكذلك قوله : « لا صلاة لجار المسجد الا فى المسجد » رواه الدارقطنى ، فمن الناس من يضعفه مرفوعاً ويقول : هو من كلام علي رضي الله عنه ، ومنهم من يثبته كعبد الحق .

وكذلك قوله : « لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل » قد رواه أهل السنن ، وقيل : ان رفعه لم يصح ، وانما يصح موقوفا على ابن عمر او حفصة ، فليس لأحد أن يثبت لفظاً عن الرسول مع انه أريد به نفي الكمال المستحب

فان صحت هذه الالفاظ دلت قطعاً على وجوب هذه الأمور ؛ فان لم تصح فلا ينقض بها أصل مستقر من الكتاب والسنة ، وليس لأحد أن يحمل كلام الله ورسوله على وفق مذهبه ، ان لم يتبين من كلام الله ورسوله ما يدل على مراد الله ورسوله ؛ والا فأقوال العلماء تابعة لقول الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ليس قول الله ورسوله تابعاً لأقوالهم .

فاذا كان فى وجوب شيء نزاع بين العلماء ، ولفظ الشارع قد اطرد فى معنى ؛ لم يجز ان ينقض الاصل المعروف من كلام الله ورسوله بقول فيه نزاع بين العلماء . ولكن من الناس من لا يعرف مذاهب أهل العلم ، وقد نشأ على قول لا يعرف غيره فيظنه إجماعاً كمن يظن انه اذا ترك الانسان الجماعة وصلى وحده برئت ذمته اجماعاً ؛ وليس الأمر كذلك ؛ بل للعلماء قولان معروفان فى إجزاء هذه الصلاة ، وفى مذهب احمد فيها قولان ؛ فطائفة من قدماء اصحابه - حكاه عنهم القاضى ابو يعلى فى شرح المذهب ، ومن متأخريهم كأبن عقيل وغيره - يقولون : من صلى المكتوبة وحده من غير عذر يسوغ له ذلك فهو كمن صلى الظهر يوم الجمعة ، فان أمكنه ان يؤديها فى جماعة بعد ذلك فعليه ذلك ، والا باء بإثمه كما يبوء تارك الجمعة بإثمه ، والتوبة معروضة . وهذا قول غير واحد من اهل العلم ، واكثر الآثار المروية عن السلف من الصحابة والتابعين تدل على هذا .

وقد احتجوا بما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم ، انه قال : « من سمع النداء

ثم لم يجب من غير عذر ؛ فلا صلاة له » واجابوا عن حديث التفضيل بأنه فى المعذور الذي تباح له الصلاة وحده ، كما ثبت عنه انه قال : « صلاة الرجل قاعداً على النصف من صلاة القائم ، وصلاة المضطجع على النصف من صلاة القاعد » والمراد به المعذور ، كما فى الحديث انه خرج وقد اصابهم وعك وهم يصلون قعوداً ، فقال ذلك .

ولم يجوز احد من السلف صلاة التطوع مضطجعاً من غير عذر ، ولا يعرف ان احداً من السلف فعل ذلك ، وجوازه وجه فى مذهب الشافعي ، واحمد ، ولا يعرف لصاحبه سلف صدق ، مع ان هذه المسألة مما تعم بها البلوى ؛ فلو كان يجوز لكل مسلم ان يصلي التطوع على جنبه ، وهو صحيح لا مرض به ، كما يجوز ان يصلى التطوع قاعداً وعلى الراحلة ؛ لكان هذا مما قد بينه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته ، وكان الصحابة تعلم ذلك ثم مع قوة الداعي الى الخير لا بد ان يفعل ذلك بعضهم ، فلما لم يفعله احد منهم ، دل على أنه لم يكن مشروعاً عندهم ، وهذا مبسوط فى موضعه .

والمقصود هنا انه ينبغي للمسلم ان يقدر قدر كلام الله ورسوله ؛ بل ليس لأحد ان يحمل كلام احد من الناس الا على ما عرف انه أراده ، لا على ما يحتمله ذلك اللفظ فى كلام كل احد ، فان كثيراً من الناس يتأول النصوص المخالفة لقوله ؛ يسلك مسلك من يجعل « التأويل » كأنه ذكر ما يحتمله اللفظ ، وقصده به دفع ذلك المحتج عليه بذلك النص وهذا خطأ ؛ بل جميع ما قاله الله ورسوله

يجب الايمان به ، فليس لنا ان نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ، وليس الاعتناء بمراده في احد النصين دون الآخر بأولى من العكس ، فاذا كان النص الذي وافقه يعتقد انه اتبع فيه مراد الرسول ؛ فكذلك النص الآخر الذي تأوله ، فيكون أصل مقصوده معرفة ما اراده الرسول بكلامه ؛ وهذا هو المقصود بكل مايجوز من تفسير وتأويل عند من يكون اصطلاحه تغاير معناها . واما من يجعلهما بمعنى واحد ، كما هو الغالب على اصطلاح المفسرين ؛ فالتأويل عندهم هو التفسير . واما « التأويل » في كلام الله ورسوله ؛ فله معنى ثالث غير معناه في اصطلاح المفسرين ، وغير معناه في اصطلاح متأخري الفقهاء والأصوليين ؛ كما بسط في موضعه .

والمقصود هنا ان كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى اسماء الأمور الواجبة كاسم الايمان ، والاسلام والدين ، والصلاة والصيام ، والطهارة والحج وغير ذلك ؛ فانما يكون لترك واجب من ذلك المسمى ، ومن هذا قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) فلما نفى الايمان حتى توجد هذه الغاية ، دل على ان هذه الغاية فرض على الناس ؛ فمن تركها كان من اهل الوعيد ، لم يكن قد اتى بالايمان الواجب الذي وعد اهله بدخول الجنة بلا عذاب ، فان الله انما وعد بذلك من فعل ما امر به ، واما من فعل بعض الواجبات وترك بعضها ؛ فهو معرض للوعيد .

ومعلوم باتفاق المسلمين انه يجب « تحكيم الرسول » في كل ما شجر بين

الناس في امر دينهم ودنياهم في اصول دينهم وفروعه ، وعليهم كلهم اذا حكم بشيء ان لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما حكم ويسلموا تسليماً . قال تعالى : (ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد امروا ان يكفروا به ، ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالاً بعيداً . واذا قيل لهم : تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول ؛ رايت المنافقين يصدون عنك صدوداً) . وقوله : (الى ما انزل الله) وقد انزل الله الكتاب والحكمة وهي السنة ، قال تعالى : (واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به) . وقال تعالى : (وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً) . والدعاء الى ما انزل يستلزم الدعاء الى الرسول ، والدعاء الى الرسول يستلزم الدعاء الى ما انزله الله ، وهذا مثل طاعة الله والرسول ؛ فانهما متلازمان ، فمن يطع الرسول فقد اطاع الله ، ومن اطاع الله فقد اطاع الرسول .

وكذلك قوله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين) . فانهما متلازمان ؛ فكل من شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين ، وكل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى . فان كان يظن انه متبع سبيل المؤمنين وهو مخطىء ؛ فهو بمنزلة من ظن انه متبع للرسول وهو مخطىء .

وهذه « الآية » تدل على ان اجماع المؤمنين حجة من جهة ان مخالفتهم

مستلزمة لمخالفة الرسول ، وان كل ما اجمعوا عليه فلا بد ان يكون فيه نص عن الرسول ؛ فكل مسألة يقطع فيها بالاجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين ؛ فانها مما بين الله فيه الهدى ، ومخالف مثل هذا الاجماع يكفر ، كما يكفر مخالف النص البين . واما إذا كان يظن الاجماع ولا يقطع به ، فهنا قد لا يقطع ايضاً بأنها مما تبين فيه الهدى من جهة الرسول ، ومخالف مثل هذا الاجماع قد لا يكفر ؛ بل قد يكون ظن الاجماع خطأ . والصواب في خلاف هذا القول ، وهذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به من مخالفة الاجماع وما لا يكفر .

و « الاجماع » هل هو قطعي الدلالة او ظني الدلالة ؟ . فان من الناس من يطلق الاثبات بهذا او هذا ، ومنهم من يطلق النفي لهذا ولهذا . والصواب التفصيل بين ما يقطع به من الاجماع ، ويعلم يقيناً انه ليس فيه منازع من المؤمنين اصلاً ؛ فهذا يجب القطع بأنه حق ؛ وهذا لا بد ان يكون مما بين فيه الرسول الهدى ؛ كما قد بسط هذا في موضع آخر .

ومن جهة انه إذا وصف الواجب بصفات متلازمة ؛ دل على ان كل صفة من تلك الصفات متى ظهرت وجب اتباعها ، وهذا مثل (الصراط المستقيم) الذي امرنا الله بسؤال هدايته ؛ فانه قد وصف بأنه الاسلام ، ووصف بأنه اتباع القرآن ، ووصف بأنه طاعة الله ورسوله ، ووصف بأنه طريق العبودية ؛ ومعلوم ان كل اسم من هذه الأسماء يجب اتباع مسماه ، ومسماها كلها واحد وان تنوعت صفاته ؛ فأي صفة ظهرت وجب اتباع مدلولها ، فانه مدلول الأخرى . وكذلك اسماء الله تعالى ، واسماء كتابه ، واسماء رسوله ، هي مثل اسماء دينه .

وكذلك قوله تعالى . (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) قيل : حبل الله هو دين الاسلام ؛ وقيل : القرآن ، وقيل : عهده ، وقيل : طاعته وامره ، وقيل جماعة المسلمين ؛ وكل هذا حق .

وكذلك اذا قلنا : الكتاب ، والسنة والاجماع ، فمدلول الثلاثة واحد ، فان كل ما فى الكتاب فالرسول موافق له ، والأمة مجمعة عليه من حيث الجملة ، فليس فى المؤمنين إلا من يوجب اتباع الكتاب ، وكذلك كل ما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم فالقرآن يأمر باتباعه فيه ، والمؤمنون مجمعون على ذلك . وكذلك كل ما أجمع عليه المسلمون ؛ فانه لا يكون الا حقاً موافقا لما فى الكتاب والسنة ؛ لكن المسلمون يتلقون دينهم كله عن الرسول وأما الرسول فينزل عليه وحي القرآن ، ووحي آخر هو الحكمة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه » .

وقال حسان بن عطية : كان جبريل ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن . فليس كل ما جاءت به السنة يجب ان يكون مفسراً في القرآن ؛ بخلاف ما يقوله اهل الاجماع ؛ فانه لا بد ان يدل عليه الكتاب والسنة ، فان الرسول هو الواسطة بينهم وبين الله فى امره ونهيه ، وتحليله وتحريمه ؛ والمقصود ذكر الايمان .

ومن هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر » . وقوله : « آية الايمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار » . فان من علم ما قامت به الأنصار من نصر الله ورسوله من أول

الأمر ، وكان محباً لله ولرسوله ؛ احبهم قطعاً ، فيكون حبه لهم علامة الايمان الذي فى قلبه ، ومن ابغضهم لم يكن فى قلبه الايمان الذي اوجبه الله عليه .

وكذلك من لم يكن فى قلبه بغض ما يبغضه الله ورسوله من المنكر الذي حرمه الله ورسوله من الكفر والفسوق والعصيان ؛ لم يكن فى قلبه الايمان الذي اوجبه الله عليه ، فان لم يكن مبغضاً لشيء من المحرمات اصلاً ؛ لم يكن معه ايمان اصلاً، كما سنبينه ان شاء الله تعالى. وكذلك من لا يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه ؛ لم يكن معه ما اوجبه الله عليه من الايمان ، فحيث نفى الله الايمان عن شخص ؛ فلا يكون الا لنقص ما يجب عليه من الايمان ، ويكون من المعرضين للوعيد ، ليس من المستحقين للوعد المطلق .

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « من غشنا فليس منا ، ومن حمل علينا السلاح فليس منا » كله من هذا الباب ، لا يقوله الا لمن ترك ما اوجب الله عليه ، او فعل ما حرمه الله ورسوله ؛ فيكون قد ترك من الايمان المفروض عليه ما ينفي عنه الاسم لأجله ، فلا يكون من المؤمنين المستحقين للوعد ، السالمين من الوعيد .

وكذلك قوله تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسول واطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما اولئك بالمؤمنين ، واذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين ، افى قلوبهم مرض ام ارتابوا ام يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله؟! بل اولئك هم الظالمون

إنما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا : سمعنا واطعنا واولئك هم المفلحون) .

فهذا حكم اسم الايمان إذا أطلق فى كلام الله ورسوله ؛ فانه يتناول فعل الواجبات ، وترك المحرمات ، ومن نفى الله ورسوله عنه الايمـان ؛ فلابد ان يكون قد ترك واجباً او فعل محرماً ، فلا يدخل فى الاسم الذي يستحق اهله الوعد دون الوعيد ؛ بل يكون من اهل الوعيد .

وكذلك قوله تعالى : (حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ؛ اولئك هم الراشدون) .

قال محمد بن نصر المروزي : لما كانت المعاصي بعضها كفر ، وبعضها ليس بكفر فرق بينها فجعلها ثلاثة انواع : نوع منها كفر ، ونوع منها فسوق وليس بكفر ، ونوع عصيان وليس بكفر ولا فسوق ، واخبر انه كرهها كلهـا الى المؤمنين . ولما كانت الطاعات كلها داخلة فى الايمان ، وليس فيها شيء خارج عنه لم يفرق بينها فيقول : حبب اليكم الايمان والفرائض وسائر الطاعات ؛ بل اجمل ذلك فقال : (حبب اليكم الايمان) . فدخل فى ذلك جميع الطاعات؛ لأنه قد حبب الى المؤمنين الصـلاة والزكاة ، وسائر الطاعات حب تدين ، لأن الله اخبر : انه حبب ذلك اليهم ، وزينه فى قلوبهم ، لقوله : (حبب اليكم الايمان) ويكرهون جميع المعاصي ؛ الكفر منها والفسوق ، وسائر المعاصي كراهة تدين لأن الله اخبر: انه كره ذلك اليهم . ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم

« من سرته حسنته ، وساءته سيئته ؛ فهو مؤمن » لأن الله حبب الى المؤمنين الحسنات وكره اليهم السيئات .

« قلت » : وتكريهه جميع المعاصي اليهم ، يستلزم حب جميع الطاعات ؛ لأن ترك الطاعات معصية ، ولأنه لا يترك المعاصى كلها ان لم يتلبس بضدها ، فيكون محباً لضدها وهو الطاعة ؛ إذ القلب لا بد له من ارادة ، فاذا كان يكره الشر كله ؛ فلابد ان يريد الخير . والمباح بالنية الحسنة يكون خيراً ، وبالنية السيئة يكون شراً . ولا يكون فعل اختياري الا بارادة ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « احب الأسماء الى الله : عبد الله وعبد الرحمن ، واصدق الاسماء : حارث وهمام واقبحها : حرب ومرة » .

وقوله اصدق الأسماء : حارث وهمام ؛ لأن كل انسان همام حارث ، والحارث الكاسب العامل . والهمام الكثير الهم — وهو مبدأ الارادة — وهو حيوان ، وكل حيوان حساس متحرك بالارادة ، فاذا فعل شيئاً من المباحات ؛ فلابد له من غاية ينتهي اليها قصده . وكل مقصود اما ان يقصد لنفسه ، واما ان يقصد لغيره .فان كان منتهى مقصوده ومراده عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو إلهه الذي يعبده لا يعبد شيئاً سواه ، وهو احب اليه من كل ما سواه ؛ فان ارادته تنتهي الى ارادته وجه الله ، فيثاب على مباحاته التى يقصد الاستعانة بها على الطاعة ، كما فى « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « نفقة الرجل على اهله يحتسبها صدقة » . وفي « الصحيحين » عنه انه قال لسعد بن ابي وقاص لما

مرض بمكة وعاده ـ « انك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا ازددت بهـا درجة ورفعة ، حتى اللقمة ترفعها الى في امرأتك » . وقال معاذ بن جبل لأبي موسى : « اني احتسب نومتي كما احتسب قومـتي . وفي الاثر : نوم العالم تسبيـح .

وان كان اصل مقصوده عبادة غير الله ؛ لم تـكن الطيبات مباحة له ، فان الله أباحها للمؤمنين من عباده ؛ بل الـكفار واهـل الجرائم والذنوب واهل الشهوات ، يحاسبون يوم القيامة على النعم التى تنعموا بها فلم يذكروه ولم يعبدوه بها ، ويقال لهم : (اذهبتم طيباتـكم في حياتـكم الدنيا واستمتعتم بهـا ؛ فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستـكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبمـا كنتم تفسقون) . وقال تعالى : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) . اي عن شـكره ، والـكافر لم يشكر على النعيم الذي انعم الله عليه به فيعاقبه ، على ذلك ؛ والله انما اباحها للمؤمنين، وامرهم معها بالشـكر، كما قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله) .

وفى « صحيـح مسلم » عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال: « ان الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » . وفي « سنن ابن ماجه » وغيره : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » .

وكذلك قال للرسل : (يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال تعالى : (احلت لـكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليـكم غير محلي الصيد وانتم

حرم) وقال الخليل : (وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) قال الله تعالى : (ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير) . فالخليل انما دعا بالطيبات المؤمنين خاصة ، والله انما اباح بهيمة الانعام لمن حرم ما حرمه الله من الصيد وهو محرم ، والمؤمنون أمرهم ان يأكلوا من الطيبات ويشكروه .

ولهذا ميز سبحانه وتعالى بين خطاب الناس مطلقاً ، وخطاب المؤمنين فقال : (يا ايها الناس كلوا مما فى الارض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله مالا تعلمون وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ؛ او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) . فانما اذن للناس ان يأكلوا مما فى الأرض بشرطين : ان يكون طيباً ، وان يكون حلالاً . ثم قال : (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم إياه تعبدون . انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله) .

فأذن للمؤمنين فى الأكل من الطيبات ولم يشترط الحل ، واخبر انه لم يحرم عليهم إلا ما ذكره ؛ فما سواه لم يكن محرماً على المؤمنين ، ومع هذا فلم يكن احله بخطابه ؛ بل كان عفواً ، كما في الحديث عن سلمان موقوفاً ومرفوعاً : «الحلال ما احله الله فى كتابه ، والحرام ما حرمه الله فى كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفى عنه » .

وفى حديث ابي ثعلبة عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها وسكت عن اشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها» .

وكذلك قوله تعالى : (قل لا اجد فيما اوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا ان يكون ميتة) . نفى التحريم عن غير المذكور ، فيكون الباقى مسكوتاً عن تحريمه عفواً ، والتحليل انما يكون بخطاب ؛ ولهذا قال فى سورة المائدة التى أنزلت بعد هذا : (يسألونك ماذا احل لهم؟ قل : أحل لكم الطيبات ، وماعلمتم من الجوارح مكلبين) . الى قوله : (اليوم احل لكم الطيبات ، وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم) . ففي ذلك اليوم احل لهم الطيبات، وقبل هذا لم يكن محرماً عليهم الا ما استثناه .

وقد حرم النبي صلى الله عليه وسلم كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير ، ولم يكن هذا نسخاً للكتاب ؛ لأن الكتاب لم يحل ذلك ، ولكن سكت عن تحريمه ، فكان تحريمه ابتداء شرع ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المروي من طرق من حديث ابى رافع ، وابى ثعلبة ، وابي هريرة ، وغيرهم : « لا ألفين احدكم متكئاً على اريكته ، يأتيه الأمر من امري مما امرت به ، او نهيت عنه ، فيقول : بيننا وبينكم هذا القرآن ؛ فما وجدنا فيه من حلال احللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وانى اوتيت الكتاب ومثله معه » . وفي لفظ : « الا وانه مثل القرآن او اكثر . الا واني

حرمت كل ذي ناب من السباع» . فبين انه انزل عليه وحي آخر وهو الحكمة غير الكتاب . وان الله حرم عليه فى هذا الوحي ما اخبر بتحريمه ولم يكن ذلك نسخاً للكتاب ؛ فان الكتاب لم يحل هذه قط . انما احل الطيبات ، وهذه ليست من الطيبات ، وقال : (ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم). فلم تدخل هذه الآية فى العموم : لكنه لم يكن حرمها ؛ فكانت معفواً عن تحريمها ؛ لا مأذونا فى اكلها .

واما « الكفار » فلم يأذن الله لهم فى اكل شيء ، ولا احل لهم شيئاً ، ولا عفا لهم عن شيء يأكلونه ؛ بل قال : (ياايها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً) . فشرط فيما يأكلونه ان يكون حلالا ؛ وهو المأذون فيه من جهة الله ورسوله . والله لم يأذن فى الأكل الا للمؤمن به ؛ فلم يأذن لهم فى اكل شيء الا اذا آمنوا . ولهذا لم تكن اموالهم مملوكة لهم ملكا شرعياً ؛ لأن الملك الشرعي هو القدرة على التصرف الذي اباحه الشارع صلى الله عليه وسلم والشارع لم يبح لهم تصرفاً في الأموال ، الا بشرط الايمان ؛ فكانت اموالهم على الاباحة. فاذا قهر طائفة منهم طائفة قهراً يستحلونه فى دينهم ، واخذوها منهم ؛ صار هؤلاء فيها كما كان اولئك .

والمسلمون اذا استولوا عليها . فغنموها ، ملكوها شرعاً ، لأن الله اباح لهم الغنائم ، ولم يبحها لغيرهم . ويجوز لهم ان يعاملوا الكفار فيما اخذه بعضهم من بعض بالقهر الذي يستحلونه في دينهم ، ويجوز ان يشتري من بعضهم ما

سباه من غيره ؛ لأن هذا بمنزلة استيلائه على المباحات . ولهذا سمى الله ما عاد من اموالهم إلى المسلمين «فيئاً» ؛ لأن الله افاءه الى مستحقه ، اي : رده الى المؤمنين به الذين يعبدونه ، ويستعينون برزقه على عبادته ؛ فانه انما خلق الخلق ليعبدوه ، وانما خلق الرزق لهم ليستعينوا به على عبادته . ولفظ «الفيء» قد يتناول «الغنيمة» كقول النبي صلى الله عليه وسلم فى غنائم حنين : «ليس لى مما افاء الله عليكم الا الخمس ، والخمس مردود عليكم» . لكنه لما قال تعالى : (وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) : صار لفظ «الفيء» اذا اطلق فى عرف الفقهاء ؛ فهو ما اخذ من مال الكفار بغير ايجاف خيل ولا ركاب ، والايجاف نوع من التحريك .

واما اذا فعل المؤمن ما ابيح له قاصداً للعدول عن الحرام الى الحلال لحاجته اليه ؛ فانه يثاب على ذلك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : «وفي بضع احدكم صدقة . قالوا يارسول الله يأتي احدنا شهوته ، ويكون له فيها اجر؟ قال: ارايتم لو وضعها فى الحرام كان عليه وزر ، فكذلك اذا وضعها فى الحلال كان له اجر» . وهذا كقوله فى حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «ان الله يحب ان يؤخذ برخصه ، كما يكره ان تؤتى معصيته» رواه احمد ، وابن خزيمة فى «صحيحه» وغيرهما .

فأخبر ان الله يحب إتيان رخصه ، كما يكره فعل معصيته . وبعض الفقهاء يرويه : «كما يحب ان تؤتي عزائمه» . وليس هذا لفظ الحديث ؛ وذلك لأن الرخص إنما أباحها الله لحاجة العباد اليها ، والمؤمنون يستعينون بها على عبادته؛

فهو يحب الأخذ بهـا ، لأن الـكريم يحب قبول احسانه وفضله ؛ كما قال فى حديث : «القصر صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته» . ولأنه بهـا تتم عبادته وطاعته . وما لا يحتاج اليه الانسان من قول وعمل ، بل يفعله عبثاً ؛ فهذا عليه لا له ، كما فى الحديث : كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا امراً بمعروف ، او نهياً عن منكر او ذكراً لله» .

وفى « الصحيحين» عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً او ليصمت » . فأمر المؤمن بأحـد امرين : اما قول الخير او الصمات . ولهـذا كان قول الخير خيراً من السكوت عنـه ، والسكوت عن الشر خيراً من قوله ؛ ولهذا قال الله تعالى : (ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) .

وقد اختلف «اهل التفسير» هل يكتب جميع اقواله ؟ فقال مجاهدوغيره: يكتبان كل شيء حتى أنينه فى مرضه . وقال عكرمة لا يكتبان الا ما يؤجر عليه او يؤزر . والقرآن يدل على انهما يكتبان الجميع ؛ فانه قال : (ما يلفظمن قول) نكرة فى الشرط مؤكدة بحرف «من» ؛ فهذا يعم كل قوله . وايضاً فكونه يؤجر على قول معين او يؤزر ؛ يحتاج الى ان يعرف الـكاتب ما امر به وما نهى عنه؛ فلا بد فى اثبات معرفة الـكاتب به الى نقل . وايضـاً فهو مأمور ، اما بقول الخير ، واما بالصمات . فاذا عدل عما امر به من الصمات الى فضول القول الذي ليس بخير ؛ كان هذا عليه ، فانه يكون مكروهاً ، والمـكروه ينقصه ؛ ولهذا قال

النبي صلى الله عليه وسلم : «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه» . فاذا خاض فيما لا يعنيه ؛ نقص من حسن إسلامه فكان هذا عليه . إذ ليس من شرط ما هو عليه ، ان يكونه مستحقاً لعذاب جهنم وغضب الله ، بل نقص قدره ودرجته عليه .

ولهذا قال تعالى : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) . فما يعمل احد إلا عليه أوله ، فان كان مما أمر به ، كان له . والا كان عليه ولو انه ينقص قدره . والنفس طبعها الحركة لا تسكن قط ؛ لكن قد عفا الله عما حدث به المؤمنون أنفسهم ما لم يتكلموا به او يعملوا به ؛ فاذا عملوا به دخل فى الأمر والنهي . فاذا كان الله قد كره إلى المؤمنين جميع المعاصي وهو قد حبب اليهم الايمان الذي يقتضي جميع الطاعات ، اذا لم يعارضه ضد باتفاق الناس ؛ فان المرجئة لا تنازع فى ان الايمان الذي فى القلب يدعو الى فعل الطاعة ويقتضي ذلك ، والطاعة من ثمراته ونتائجه ، لكنها تنازع ، هل يستلزم الطاعة ؟ فانه وان كان يدعو الى الطاعة ؛ فله معارض من النفس والشيطان ، فاذا كان قد كره الى الى المؤمنين المعارض ، كان المقتضي للطاعة سالماً عن هذا المعارض .

وايضاً فاذا كرهوا جميع السيئات لم يبق الا حسنات او مباحات، والمباحات لم تبح الا لأهل الايمان الذين يستعينون بها على الطاعات ، والا فالله لم يبح قط لاحد شيئاً ان يستعين به على كفر ، ولا فسوق ، ولا عصيان ؛ ولهذا لعن النبي صلى الله عليه وسلم عاصر الخمر ومعتصرها ، كما لعن شاربها . والعاصر

يعصر عنباً يصير عصيراً يمكن ان ينتفع به في المباح ،لكن لما علم ان قصد العاصر ان يجعلها خمراً ؛ لم يكن له ان يعينه بما جنسه مباح على معصية الله ، بل لعنه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ، لأن الله لم يبح اعانة العاصي على معصيته ، ولا اباح له ما يستعين به في المعصية . فلا تكون مباحات لهم الا اذا استعانوا بها على الطاعات . فيلزم من انتفاء السيئات انهم لا يفعلون الا الحسنات ؛ ولهذا كان من ترك المعاصي كلها ، فلا بد ان يشتغل بطاعة الله . وفى الحديث الصحيح: «كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها او موبقها » . فالمؤمن لا بد ان يحب الحسنات . ولا بد ان يبغض السيئات ولا بد ان يسره فعل الحسنة ويسوءه فعل السيئة ، ومتى قدر ان فى بعض الأمور ليس كذلك كان ناقص الايمان ،

والمؤمن قد تصدر منه السيئة فيتوب منها ، او يأتي بحسنات تمحوها ، او يبتلى ببلاء يكفرها عنه ولكن لا بد ان يكون كارها لها ؛ فان الله اخبر انه حبب الى المؤمنين الايمان ، وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان ، فمن لم يكره الثلاثة لم يكن منهم . ولكن «محمد بن نصر» يقول : الفاسق يكرهها تديناً . فيقال : ان اريد بذلك انه يعتقد ان دينه حرمها ، وهو يحب دينه ، وهذه من جملته ؛ فهو يكرهها . وان كان يحب دينه مجملاً ، وليس فى قلبه كراهة لها ؛ كان قد عدم من الايمان بقدر ذلك ، كما فى الحديث الصحيح : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان» .

وفى الحديث الآخر الذي في الصحيح ايضاً ـ « صحيح مسلم » ـ « فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان مثقال حبة من خردل » .

فعلم ان القلب إذا لم يكن فيه كراهة ما يكرهه الله ؛ لم يكن فيه من الايمان ، الذي يستحق به الثواب . وقوله : «من الايمان» اي : من هذا الايمان ، وهو الايمان المطلق . اى : ليس وراء هذه الثلاث ما هو من الايمان ، ولا قدر حبة خردل . والمعنى : هذا آخر حدود الايمان ، ما بقى بعد هذا من الايمان شيء ؛ ليس مراده انه من لم يفعل ذلك لم يبق معه من الايمان شيء ؛ بل لفظ الحديث إنما يدل على المعنى الأول .

فصـــــل

ومن هذا الباب لفظ « الـكفر » و « النفاق » فالـكفر إذا ذكر مفرداً في وعيد الآخرة ، دخل فيه المنافقون ، كقوله : (ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين) . وقوله : (ومن يكفر بالله وملائـكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؛ فقد ضل ضـلالا بعيداً) . وقوله : (لا يصلاها إلا الاشقى الذي كذب وتولى) وقوله : (كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتـكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فـكذبنا وقلنـا ما نزل الله من شيء ، إن انتم إلا فى ضلال كبير) وقوله : (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها الم يأتـكم رسل منـكم يتلون عليـكم آيات ربكم وينذرونـكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ولـكن حقت كلمة العذاب على الـكافرين ، قيل : ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتـكبرين) . وقوله : (ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب بالحق لما جاءه ، اليس فى جهنم مثوى للـكافرين ؟) . وقوله : (ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنـكا ، ونحشره يوم القيامة اعمى ، قال : رب لم حشرتني اعمى وقـد كنت بصيراً ؟ قال : كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزي من اسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة اشد وابقى) وقوله :

(إن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها اولئك هم شر البرية) . وامثال هذه النصوص كثير فى القرآن .

فهذه كلها يدخل فيها « المنافقون » الذين هم فى الباطن كفار ليس معهم من الايمان شيء ، كما يدخل فيها « الكفار » المظهرون للكفر ؛ بل المنافقون فى الدرك الاسفل من النار ، كما اخبر الله بذلك فى كتابه .

ثم قد يقرن « الكفر بالنفاق » فى مواضع ؛ ففي اول البقرة ذكر اربع آيات فى صفة المؤمنين ، وآيتين فى صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية فى صفة المنافقين ، فقال تعالى : (ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً) وقال : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً) إلى قوله : (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير) . وقال : (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) . فى سوتين ، وقال : (الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا) . الآية .

وكذلك لفظ « المشركين » قد يقرن بأهل الكتاب فقط ، وقد يقرن بالملل الخمس ؛ كما فى قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ؛ ان الله على كل شيء شهيد) .

و (الأول) كقوله : (لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين

منفكين حتى تأتيهم البينة) . وقوله : (إن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها ؛ اولئك هم شر البرية). وقوله تعالى : (وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم ، فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ) . وليس احد بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلا من الذين اوتوا الكتاب او الاميين ، وكل امة لم تكن من الذين اوتوا الكتاب فهم من الاميين ؛ كالأميين من العرب ومن الخزر والصقالبة والهند والسودان وغيرهم من الامم الذين لا كتاب لهم فهؤلاء كلهم اميون ، والرسول مبعوث اليهم كما بعث الى الأميين من العرب .

وقوله : (وقل للذين اوتوا الكتاب) ـ وهو انما يخاطب الموجودين فى زمانه بعد النسخ والتبديل ـ يدل على ان من دان بدين اليهود والنصارى ، فهو من الذين اوتوا الكتاب ، لا يختص هذا اللفظ بمن كانوا متمسكين به قبل النسخ والتبديل ، ولا فرق بين اولادهم واولاد غيرهم ؛ فان اولادهم اذا كانوا بعد النسخ والتبديل ممن اوتوا الكتاب ، فكذلك غيرهم اذا كانوا كلهم كفاراً ، وقد جعلهم الذين اوتوا الكتاب بقوله : (وقل للذين اوتوا الكتاب) وهو لا يخاطب بذلك الا من بلغته رسالته ؛ لا من مات ؛ فدل ذلك على ان قوله : (وطعام الذين اوتوا الكتاب) يتناول هؤلاء كلهم ، كما هو مذهب الجمهور من السلف والخلف ، وهو مذهب مالك ، وابي حنيفة ، وهو المنصوص عن احمد فى عامة اجوبته ، لم يختلف كلامه الا في نصارى بني تغلب ، وآخر الروايتين عنه : انهم تباح نساؤهم وذبائحهم ؛ كما هو قول جمهور الصحابة .

وقوله فى « الرواية الأخرى » : لا تباح ؛ متابعة لعلى بن ابى طالب رضي الله عنه ، لم يكن لأجل النسب ؛ بل لكونهم لم يدخلوا فى دين اهل الكتاب إلا فيما يشتهونه من شرب الخمر ونحوه ، ولكن بعض التابعين ظن ان ذلك لأجل النسب ، كما نقل عن عطاء ، وقال به الشافعي ومن وافقه من اصحاب احمد ، وفرعوا على ذلك فروعا ، كمن كان احد ابويه كتابياً والآخر ليس بكتابى ونحو ذلك ، حتى لا يوجد فى طائفة من كتب اصحاب احمد الا هذا القول؛وهو خطأ على مذهبه ، مخالف لنصوصه ، لم يعلق الحكم بالنسب في مثل هذا البتة كما قد بسط فى موضعه .

ولفظ « المشركين » يذكر مفرداً فى مثل قوله : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) وهل يتناول اهل الكتاب ؟ فيه « قولان » مشهوران للسلف والخلف . والذين قالوا : بأنها تعم ؛ منهم من قال : هي محكمة ، كابن عمر والجمهور الذين يبيحون نكاح الكتابيات ؛ كما ذكره الله فى آية المائدة ، وهي متأخرة عن هذه . ومنهم من يقول : نسخ منها تحريم نكاح الكتابيات . ومنهم من يقول : بل هو مخصوص لم يرد باللفظ العام ، وقد أنزل الله تعالى بعد صلح الحديبية قوله : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) . وهذا قد يقال : إنما نهي عن التمسك بالعصمة من كان متزوجاً كافرة ، ولم يكونوا حينئذ متزوجين إلا بمشركة وثنية ؛ فلم يدخل في ذلك الكتابيات .

فصـــــل

وكذلك لفظ « الصالح » و « الشهيد » و « الصديق » : يذكر مفرداً ؛ فيتناول النبيين ، قال تعـالى فى حق الخليل : (وآتيناه اجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين) . وقال : (وآتيناه في الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصالحين) . وقال الخليل : (رب هب لي حكما والحقني بالصالحين) . وقال يوسف: (توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) . وقال سليمان : (وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح المتفق على صحته لما كانوا يقولون في آخر صلاتهم : السلام على الله قبل عباده ، السلام على فلان فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم « ان الله هو السلام ، فاذا قعد احدكم فى الصلاة ؛ فليقل : التحيات لله ، والصلوات ، والطيبات ، السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته ، السـلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فاذا قالها اصابت كل عبد صالح لله فى السماء والأرض » .. الحديث .

وقد يذكر « الصالح مع غيره » كقوله تعالى : (فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشهداء والصالحين) . قال الزجاج وغيره : الصالح : القائم بحقوق الله وحقوق عباده . ولفظ « الصالح » خلاف الفاسد ؛

فاذا أطلق فهو الذي اصلح جميع امره ، فلم يكن فيه شيء من الفساد ، فاستوت سريرته وعلانيته ، واقواله واعماله على ما يرضي ربه ؛ وهذا يتناول النبيين ومن دونهم . ولفظ « الصديق » قد جعل هنا معطوفاً على النبيين ؛ وقد وصف به النبيين ، في مثل قوله : (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) — (واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبياً) .

وكذلك « الشهيد » قد جعل هنا قرين الصديق والصالح ، وقد قال : (وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق) . ولما قيدت الشهادة على الناس وصفت به الأمة كلها في قوله : (وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً) . فهذه شهادة مقيدة بالشهادة على الناس ، كالشهادة المذكورة في قوله : (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء) . وقوله (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) . وليست هذه الشهادة المطلقة في الآيتين بل ذلك كقوله : (ويتخذ منكم شهداء) .

فصـــــل

وكذلك لفظ « المعصية » و « الفسوق » و « الكفر »: فاذا اطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق ، كقوله : (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبداً) . وقال تعالى : (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيـد) . فأطلق معصيتهم للرسل بأنهم عصوا هوداً معصية تكذيب لجنس الرسل ، فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال : (فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء) . ومعصية من كذب وتولى ، قال تعالى : (لا يصلاها الا الأشقى ، الذي كذب وتولى) اي كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر ، وإنما على الخلق ان يصدقوا الرسل فيما اخبروا ويطيعوهم فيما امروا . وكذلك قال في فرعون : (فكذب وعصى) . وقال عن جنس الكافر : (فلا صدق ولاصلى ولكن كذب وتولى) . فالتكذيب للخبر ، والتولي عن الأمر . وإنما الايمان تصديق الرسل فيما اخبروا ، وطاعتهم فيما امروا ، ومنه قوله : (كما ارسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول) .

ولفظ « التولي » بمعنى التولي عن الطاعة مذكور في مواضع من القرآن ،

كقوله : (ستدعون إلى قوم اولي بأس شـــديد تقاتلونهم او يسلمون ، فان تطيعوا يؤتـكم الله أجراً حسناً ، وان تتولوا كماتوليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً) وذمه فى غير موضع من القرآن من تولى ؛ دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضي وجوب الطاعة ، وذم المتولي عن الطاعة ؛ كما علق الذم بمطلق المعصية في مثل قوله : (فعصى فرعون الرسول) . وقد قيــل : ان « التأبيد » لم يذكر فى القرآن إلا فى وعيد الـكفار ؛ ولهذا قال : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنــه ، واعد له عذاباً عظيماً) .

وقال فيمن يجور فى المواريث : (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) . فهنا قيد المعصية بتعدي حدوده ، فلم يذكرها مطلقة ؛ وقال : (وعصى آدم ربه فغوى) . فهي معصية خاصة ؛ وقال تعالى : (حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما اراكم ماتحبون) فأخبر عن معصية واقعة معينة ، وهي معصية الرماة للنبي صلى الله عليه وسلم ؛حيث امرهم بلزوم ثغــرهم ، وان رأوا المسلمين قد انتصروا ، فعصى من عصى منهم هذا الأمر ، وجعل اميرهم يأمرهم لما رأوا الـكفار منهزمين ، واقبل من اقبل منهم على المغانم . وكذلك قوله : (وكره اليكم الـكفر والفسوق والعصيان) ؛ جعل ذلك ثلاث مراتب . وقد قال : (ولا يعصينك في معروف) . فقيد المعصية ولهذا فسرت بالنياحة قاله ابن عباس :

وروى ذلك مرفوعا . وكذلك قال زيد بن اسلم لا يدعن ويلاً ولا يخدشن

وجهاً ولاينشرن شعراً ، ولايشققن ثوباً . وقد قال بعضهم : هو جميع ما يأمرهم به الرسول من شرائع الاسلام وأدلته كما قاله ابوسليمان الدمشقي ولفظ الآية عام انهن لا يعصينه فى معروف . ومعصيته لا تكون إلا فى معروف ؛ فانه لا يأمر بمنكر ، لكن هذا كما قيل : فيه دلالة على ان طاعة أولي الأمر، انما تلزم فى المعروف كما ثبت فى «الصحيح» عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «انما الطاعة فى المعروف» ونظير هذا قوله:(استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) وهو لا يدعو إلا إلى ذلك . والتقييد هنا لامفهوم له ؛ فانه لايقع دعاء لغير ذلك . ولا أمر بغيرمعروف وهذا كقوله تعالى : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن اردن تحصناً) . فانهن اذا لم يردن تحصناً ؛ امتنع الاكراه . ولكن فى هذا بيان الوصف المناسب للحكم ، ومنه قوله تعالى : (ومن يدع مع الله الهاً آخر لا برهان له به ؛ فانما حسابه عند ربه ؛ انه لا يفلح الكافرون) . وقوله : (ويقتلون النبيين بغير الحق) .

فالتقييد فى جميع هذا للبيان والايضاح ، لا لاخراج فى وصف آخر ؛ ولهذا يقول من يقول من النحاة : الصفات فى المعارف للتوضيح لا للتخصيص ، وفى النكرات للتخصيص يعنى فى المعارف التى لا تحتاج الى تخصيص ، كقوله : (سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى) . وقوله : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل) . وقوله : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) . والصفات فى النكرات اذا تميزت تكون للتوضيح ايضاً ، ومع هذا فقد عطف المعصية على الكفر والفسوق فى قوله : (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) . ومعلوم ان الفاسق عاص ايضاً .

فصــــــل

ومن هذا الباب « ظلم النفس » : فانه اذا اطلق تناول جميـع الذنوب ، فانهـا ظلم العبد نفسه ، قال تعالى : (ذلك من انباء القرى نقصه عليك ، منهـا قائم وحصيد ، وما ظلمناهم ولـكن ظلموا انفسهم ، فمـا اغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لمـا جاء امر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب) . وقال تعالى : (وإذ قال موسى لقومه : يا قوم انـكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئـكم) . وقال في قتل النفس : (رب انى ظلمت نفسي فاغفر لي) . وقالت بلقيس : (رب انى ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين) . وقال آدم عليه السلام : (ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنـكونن من الخاسرين) . ثم قد يقرن ببعض الذنوب ، كقوله تعالى : (والذين اذا فعلوا فاحشـة او ظلموا انفسهم) . وقوله : (ومن يعمل سوءاً او يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله ؛ يجد الله غفوراً رحيماً) .

واما لفظ « الظلم المطلق » . فيدخل فيه الـكفر وسائر الذنوب ، قال تعالى : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبـدون من دون الله

فاهدوهم الى صراط الجحيم ؛ وقفوهم انهم مسؤولون) . قال عمر بن الخطاب : ونظراؤهم . وهـذا ثابت عن عمر ، وروى ذلك عنه مرفوعاً . وكذلك قال ابن عباس : واشباههم . وكذلك قال قتادة والكلبي : كل من عمل بمثل عملهم ؛ فأهل الخمر مع اهل الخمر ، واهل الزنا مع اهل الزنا . وعن الضحاك ومقاتل : قرناؤهم من الشياطين ؛ كل كافر معه شيطانه في سلسلة ، وهذا كقوله : (واذا النفوس زوجت) . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنـه : الفاجر مع الفاجر ، والصالح مع الصالح . قال ابن عباس : وذلك حين يكون الناس ازواجاً ثلاثة . وقال الحسن وقتادة : ألحق كل امريء بشيعته ؛ اليهودي مع اليهود ، والنصراني مع النصارى . وقال الربيع بن خيثم : يحشر المرء مع صاحب عمله ، وهذا كما ثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، قال : « المرء مع من احب » . وقال : « الأرواح جنود مجندة ؛ فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . وقال : « المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل » .

وزوج الشيء نظيره ، وسمي الصنف زوجاً ؛ لتشـابه افراده ، كقوله : (وأنبتنا فيها من كل زوج كريم) . وقال : (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) . قال غير واحـد من المفسرين : صنفين ونوعين مختلفين : السماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ؛ والبر والبحر ، والسهل والجبل والشتاء والصيف ، والجن والانس ؛ والكفر والايمـان ، والسعادة والشقاوة والحق والباطل ، والذكر والأنثى ، والنور والظلمة والحلو والمر ، وأشباه ذلك

(لعلكم تذكرون) فتعلمون ان خالق الأزواج واحـد . وليس المراد انه يحشر معهم زوجاتهم مطلقاً ؛ فان المرأة الصالحة قد يكون زوجها فاجراً ؛ بل كافراً ، كامرأة فرعون . وكذلك الرجل الصالح ، قد تكون امرأته فاجرة ، بل كافرة ، كامراة نوح ولوط . لكن اذا كانت المرأة على دين زوجها ؛ دخلت فى عموم الأزواج ، ولهذا قال الحسن البصري : وازواجهم المشركات .

فلا ريب ان هذه الآية تناولت الكفار ، كما دل عليه سياق الآية . وقد تقدم كلام المفسرين : انه يدخل فيهـا الزناة مع الزناة ، واهل الخمر مع اهل الخمـر . وكذلك الأثر المروي : « إذا كان يوم القيـامة قيـل : أين الظلمة واعوانهم ؟ ـ او قال : واشباههم ـ فيجمعون فى توابيت من نار ثم يقذف بهم فى النار » . وقد قال غير واحد من السلف : اعوان الظلمة من اعانهم ، ولو انهم لاق لهم دواة او برى لهم قلماً ، ومنهم من كان يقول : بل من يغسل ثيابهم من اعوانهم . واعوانهم : هم من ازواجهم المذكورين فى الآية ؛ فان المعين على البر والتقوى من اهل ذلك ، والمعين على الاثم والعدوان من اهل ذلك . قال تعالى : (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) والشافع الذي يعين غيره ، فيصير معه شـفعا بعد ان كان وتراً ؛ ولهذا فسرت «الشفاعة الحسنة» باعانة المؤمنين على الجهاد ، و«الشفاعة السيئة » باعانة الكفار على قتـال المؤمنين ، كما ذكر ذلك ابن جرير ، وابو سليمان .

وفسرت « الشفاعة الحسنة » بشفاعة الانسان للانسان ليجتلب له نفعاً ،

او يخلصه من بلاء ، كما قال الحسن ومجاهد ، وقتادة وابن زيد ؛ فالشفاعة الحسنة إعانة على خير يحبه الله ورسوله ؛ من نفع من يستحق النفع ودفع الضر عمن يستحق دفع الضرر عنه . و « الشفاعة السيئة » إعانته على ما يكرهه الله ورسوله ، كالشفاعة التى فيها ظلم الانسان ، او منع الاحسان الذي يستحقه . وفسرت الشفاعة الحسنة بالدعاء للمؤمنين ، والسيئة بالدعاء عليهم ، وفسرت الشفاعة الحسنة بالاصلاح بين اثنين ، وكل هذا صحيح . فالشافع زوج المشفوع له إذ المشفوع عنده من الخلق إما ان يعينه على بر وتقوى ، واما ان يعينه على اثم وعدوان . وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا اتاه طالب حاجة قال لأصحابه : « اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » .

وتمام الكلام يبين ان الآية — وان تناولت الظالم الذي ظلم بكفره — فهي ايضاً متناولة مادون ذلك ، وان قيل فيها : (وما كانوا يعبدون) فقد ثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش » . وثبت عنه فى « الصحيح » انه قال : « ما من صاحب كنز الا جعل له كنزه يوم القيامة شجاعاً اقرع يأخذ بلهزمته انا مالك ، انا كنزك » . وفي لفظ : « الا مثل له يوم القيامة شجاعاً اقرع يفر منه وهو يتبعه ، حتى يطوقه في عنقه » ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) . وفي حديث آخر : « مثل له يوم القيامة شجاعاً اقرع يتبع صاحبه حيثما ذهب ، وهو يفر منه : هذا مالك الذي كنت تبخل به ،

فاذا رأى انه لابد له منه ، ادخل يده فى فيه ، فيقضمها كما يقضم الفحل » . وفي رواية : « فلا يزال يتبعه فيلقمه يده فيقضمها ، ثم يلقمه سائر جسده » . وقد قال تعالى في الآية الأخرى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون)

وقد ثبت فى « الصحيح » وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما من صاحب كنز لا يؤدى زكاته الا احمي عليها في نار جهنم ، فيجعل صفائح فيكوى بها جبينه وجنباه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار » . وفى حديث أبي ذر : « بشر الكانزين برضف يحمى عليها فى نار جهنم ، فتوضع على حلمة ثدي احدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ، ويوضع على نغض كتفيه ، حتى يخرج من حلمة ثدييه ، يتزلزل وتكوي الجباه والجنوب والظهور حتى يلتقي الحر فى اجوافهم» . وهذا كما فى القرآن ، ويدل على انه بعد دخول النار ، فيكون هذا لمن دخل النار ممن فعل به ذلك أولاً في الموقف . فهذا الظالم لما منع الزكاة يحشر مع اشباهه وماله الذى صار عبداً له من دون الله ، فيعذب به ، وإن لم يكن هذا من اهل الشرك الأكبر الذين يخلدون فى النار . ولهذا قال في آخر الحديث : «ثم يرى سبيله اما الى الجنة ، واما الى النار» . فهذا بعد تعذيبه خمسين الف سنة مما تعدون ، ثم يدخل الجنة .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الشرك فى هذه الأمة اخفى من دبيب

النمل » قال ابن عباس واصحابه : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق . وكذلك قال أهل السنة كأحمد بن حنبل وغيره ، كما سنذكره ــ إن شاء الله ــ . وقد قال الله تعالى : (اتخــذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما امروا إلا ليعبدوا الهاً واحداً لا إله الا هو سبحانه عما يشركون) . وفي حديث عدي بن حاتم ــ وهو حديث حسن طويل رواه احمد والترمذي وغيرهما ــ وكان قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية ، قال : فقلت له انا لسنا نعبدهم ؛ قال : « أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟! » قال : فقلت : بلى . قال : « فتلك عبادتهم » . وكذلك قال ابو البختري : اما انهم لم يصلوا لهم ، ولو امروهم ان يعبدوهم من دون الله ما اطاعوهم ، ولكن امروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله ؛ فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية .

وقال الربيع بن أنس : قلت لأبي العالية : كيف كانت تلك الربوبية في بني اسرائيل ؟ قال : كانت الربوبية انهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه فقالوا : لن نسبق احبارنا بشيء ؛ فما امرونا به ائتمرنا ، وما نهونا عنه انتهينا ؛ لقولهم : فاستنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ان عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال ، لا انهم صلوا لهم ، وصاموا لهم ، ودعوهم من دون الله فهذه عبادة للرجال ، وتلك عبادة للأموال ، وقد بينها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر الله أن ذلك شرك بقوله : (لا إله الا هو سبحانه عما يشركون) . فهذا من الظلم الذي

يدخل فى قوله : (احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله) . فان هؤلاء والذين امروهم بهذا هم جميعاً معذبون ، وقال:(انكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون) . وانما يخرج من هذا من عُبد مع كراهته لأن يعبد ويطاع فى معصية الله . فهم الذين سبقت لهم الحسنى ، كالمسيح والعزير وغيرهما ، فأولئك (مبعدون) .

واما من رضي بأن يعبد ويطاع فى معصية الله ، فهو مستحق للوعيد ، ولو لم يأمر بذلك ، فكيف إذا امر ؟! وكذلك من امر غيره بأن يعبد غير الله ، وهذا من « ازواجهم » فان « ازواجهم » قد يكونون رؤساء لهم ، وقد يكونون اتباعاً ، وهم ازواج واشباه لتشابههم في الدين ، وسياق الآية يدل على ذلك ، فانه سبحانه قال : (احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ، فاهدوهم الى صراط الجحيم) . قال ابن عباس : دلوهم . وقال الضحاك مثله . وقال ابن كيسان : قدموهم . والمعنى : قودوهم كما يقود الهادى لمن يهديه، ولهذا تسمى الأعناق الهوادي ، لأنها تقود سائر البدن ، وتسمى اوائل الوحش الهوادي .

(وقفوهم انهم مسؤولون ما لكم لا تناصرون) . اى : كما كنتم تتناصرون في الدنيا على الباطل . (بل هم اليوم مستسلمون ، واقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا : انكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ، فحق علينا قول ربنا انا لذائقون ، فأغويناكم

إنا كنا غاوين ، فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين انهم كانوا اذا قيل لهم : لا اله الا الله يستكبرون . ويقـولون : أإنا لتـاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) .

وقال تعالى : (قال : ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلـكم من الجن والأنس في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى اذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفـاً من النار ، قال : لـكل ضعف ولـكن لا تعلمـون ؛ وقالت أولاهم لأخـراهم : فما كان لـكم علينا من فضـل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) . وقال تعالى : (وإذ يتحاجون فى النـار فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنـا لـكم تبعاً فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النـار ، قال الذين استكبروا : إنا كل فيها ان الله قد حكم بين العبـاد) . وقال تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين اسـتكبروا : لولا انتم لـكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : انحن صـددناكم عن الهدى بعـد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا ان نكفر بالله ونجعل له انداداً ، وأسروا النـدامة لما راوا العـذاب ، وجعلنا الأغـلال فى اعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) .

وقوله فى سياق الآية : (إنهم كانوا اذا قيل لهم : لا إله الا الله ، يستكبرون)

ولا ريب انها تتناول « الشركين » : الاصغر والأكبر ، وتتناول ايضاً من استكبر عما امره الله به من طاعته ؛ فان ذلك من تحقيق قول لا إله الا الله ؛ فان الاله هو المستحق للعبادة ، فكل ما يعبد به الله فهو من تمام تأله العباد له فمن استكبر عن بعض عبادته سامعاً مطيعاً فى ذلك لغيره ؛ لم يحقق قول: لا إله الا الله فى هذا المقام .

وهؤلاء الذين اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا ــ حيث اطاعوهم فى تحليل ما حرم الله وتحريم ما احل الله ، يكونون على وجهين :

(احدها) : ان يعلموا انهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل ، فيعتقدون تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما احل الله اتباعاً لرؤسائهم ، مع علمهم انهم خالفوا دين الرسل ، ؛ فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً ـ وان لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم ـ فكان من اتبع غيره فى خلاف الدين مع علمه انه خلاف الدين ، واعتقد ما قاله ذلك ، دون ما قاله الله ورسوله ؛ مشركاً مثل هؤلاء .

و(الثانى) : ان يكون اعتقادهم وايمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً ، لكنهم اطاعوهم في معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التى يعتقد انها معاص ؛ فهؤلاء لهم حكم امثالهم من اهل الذنوب ، كما ثبت فى « الصحيح » عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « انما الطاعة في المعروف » وقال : « على المسلم السمع والطاعة فيما احب او كره ما لم يؤمر بمعصية » .

وقال : « لا طاعة لمخلوق فى معصيــة الخالق » . وقال : « من امركم بمعصيــة الله فلا تطيعوه » .

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام ان كان مجتهداً قصده اتباع الرسول لكن خفي عليه الحق فى نفس الأمر ، وقد اتقى الله ما استطاع ؛ فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه ، بل يثيبه على اجتهاده الذي اطاع به ربه . ولكن من علم ان هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه ، وعــدل عن قول الرسول ، فهــذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله ، لا سيما ان اتبع فى ذلك هواه ، ونصره باللسان واليد ، مع علمــه بأنه مخالف للرسول ؛ فهذا شرك يستحق صــاحبه العقوبة عليه .

ولهذا اتفق العلماء على انه اذا عرف الحق لا يجوز له تقليد احد فى خلافه ، وانما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاســتدلال ، وان كان عاجــزاً عن اظهار الحق الذي يعلمه ؛ فهذا يكون كمن عرف ان دين الاســلام حق وهو بين النصارى ، فاذا فعل ما يقدر عليه من الحق ؛ لا يؤاخذ بما عجز عنه ، وهؤلاء كالنجاشي وغيره . وقد انزل الله في هؤلاء آيات من كتابه كقوله تعالى . (وان من اهــل الـكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل اليـكم وما انزل اليهم) . وقوله : (ومن قوم موسى امة يهــدون بالحق وبه يعــدلون) . وقوله : (واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) .

واما ان كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل ، وقد فعل

ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد فى التقليد ؛ فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ ، كما فى القبلة. وأما إن قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم ان معه الحق ؛ فهذا من اهل الجاهلية. وإن كان متبوعه مصيباً ؛ لم يكن عمله صالحاً. وإن كان متبوعه مخطئاً ؛ كان آثماً ، كمن قال فى القرآن برأيه؛ فان اصاب فقد اخطأ ، وإن اخطأ فليتبوأ مقعده من النار. وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد ، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، فان ذلك لما احب المال حباً منعه عن عبادة الله وطاعته ، صار عبداً له. وكذلك هؤلاء ؛ فيكون فيه شرك اصغر ، ولهم من الوعيد بحسب ذلك. وفى الحديث : «إن يسير الرياء شرك». وهذا مبسوط عند النصوص التى فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب.

(والمقصود هنا) ان الظلم المطلق يتناول الكفر ، ولا يختص بالكفر ؛بل يتناول ما دونه ايضاً ، وكل بحسبه كلفظ «الذنب» «والخطيئة» «والمعصية». فان هذا يتناول الكفر والفسوق والعصيان ، كما في «الصحيحين» عن عبدالله بن مسعود قال : قلت يارسول الله اي الذنب اعظم ؟ قال : «ان تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت : ثم اي ؟ قال : «ثم ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك». قلت : ثم اي ؟ قال : «ثم ان تزاني بحليلة جارك» ، فأنزل الله تعالى : (والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ،

الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ؛ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فانه يتوب الى الله متاباً) .

فهذا الوعيد بتمامه على الثلاثة ، ولكل عمل قسط منه ؛ فلو اشرك ولم يقتل ولم يزن ؛ كان عذابه دون ذلك. ولو زني وقتل ولم يشرك؛ كان له من هذا العذاب نصيب ، كما فى قوله : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذاباً عظيماً) . ولم يذكر : (ابداً) . وقد قيل : ان لفظ «التأبيد» لم يجيء الا مع الكفر ، وقال الله تعالى : (ويوم يعض الظالم على يديه يقول: ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً . ياويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً ، لقد اضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا) . فلا ريب ان هذا يتناول الكافر الذي لم يؤمن بالرسول . وسبب نزول الآية كان فى ذلك ، فان «الظلم المطلق» يتناول ذلك ويتناول ما دونه بحسبه .

فمن خالَّ مخلوقاً فى خلاف امر الله ورسوله ؛ كان لهمن هذا الوعيد نصيب، كما قال تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين) . وقال تعالى : (اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) . قال الفضيل بن عياض : حدثنا الليث عن مجاهد : هي المودات التى كانت بينهم لغير الله . فان «المخالة» تحاب وتواد ؛ ولهذا قال : «المرء على دين خليله ، فان المتحابين يحب احدهما ما يحب الآخر بحسب الحب ، فاذا اتبع احدهما صاحبه على محبته ما يبغضه الله ورسوله ؛ نقص من دينهما بحسب ذلك الى ان ينتهي

الى الشرك الأكبر ، قال تعالي : (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حباً لله) .

والذين قدموا محبة المال الذي كنزوه ، والمخلوق الذي اتبعوه ، على محبة الله ورسوله ، كان فيهم من الظلم والشرك بحسب ذلك ، فلهذا ألزمهم محبوبهم ، كما فى الحديث ، يقول الله تعالي: «أليس عدلا منى ان اولي كل رجل منكم ما كان يتولاه فى الدنيا» . وقد ثبت فى «الصحيح» يقول : « ليذهب كل قوم الى ما كانوا يعبدون ؛ فمن كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، ويمثل للنصارى المسيح ، ولليهود عزير . فيتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها » كما سيأتي هذا الحديث ـــ ان شاء الله ـــ فهؤلاء «اهل الشرك الأكبر» .

واما «عبيد المال» الذين كنزوه ، وعبيد الرجال الذين اطاعوهم فى معاصى الله فأولئك يعذبون عذاباً دون عذاب اولئك المشركين ؛ اما فى عرصات القيامة، وإما فى جهنم ، ومن احب شيئاً دون الله عذب به . وقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولاشفاعة ، والكافرون هم الظالمون) . «فالكفر المطلق» هو الظلم المطلق ؛ ولهذا لا شفيع لأهله يوم القيامة كما نفى الشفاعة فى هذه الآية ، وفى قوله : (وانذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) . وقال : (فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود

ابليس اجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفي ضـلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ، وما اضلنا إلا المجرمون ، فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ، فلو ان لنا كرة فنكون من المؤمنين) .

وقوله : (اذ نسـويكم) لم يريدوا به أنهم جعلوهم مسـاوين لله من كل وجه ؛ فان هذا لم يقله احد من بنى آدم ، ولا نقل عن قوم قط من الـكفار أنهم قالوا : ان هذا العالم له خالقان متماثلان ، حتى المجوس القائلين « بالأصلين : النور والظلمة» متفقون على ان « النور » خير يستحق ان يعبد ويحمـد ، وان «الظلمة» شريرة تستحق ان تذم وتلعن ، واختلفوا هل الظلمة محدثة او قديمة ؟ على قولين ، وبكل حال لم يجعلوها مثل النور من كل وجه .

وكذلك « مشركوا العرب » كانوا متفقين على ان اربابهم لم تشارك الله فى خلق السموات والأرض ؛ بل كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والارض وما بينهما ، كما أخبر الله عنهم بذلك فى غير آية كقوله تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسـخر الشمس والقمر ليقـولن الله : فأنى يؤفـكون . الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ان الله بكل شيء عليم . ولئن سـألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن : الله ، قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون) . وقال تعالى : (ولئن سـألتهم من خلق السـموات والأرض ليقولن : خلقهن العزيز العليم ، الذي جعل لـكم الأرض مهداً ، وجعل لـكم فيها سبلاً لعلـكم تهتـدون ،

والذي نزل من السماء ماء بقـدر ، فأنشرنا به بلدة ميتـاً كذلك تخرجون ، والذي خلق الأزواج كلهـا وجعل لـكم من الفلك والانعـام ما تركبون لتسـتووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربـكم اذا استويتم عليه . وتقـولوا سبحان الذي سـخر لنـا هـذا وما كنا له مقـرنين ، وانا الى ربنـا لمنقلبون) .

وهذه الصفات من كلام الله تعالى ؛ ليست من تمام جوابهم . وقال تعالى : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سـيقولون لله) الأيات . وقال تعالى (قل ارأيتـكم ان اتاكم عذاب الله او أتتـكم الساعة اغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؛ بل إياه تدعون فيـكشف ما تدعون اليه ان شاء وتنسون ما تشركون) . وكذلك قوله : (آلله خير أما يشركون ؟ . امن خلق السموات والأرض وانزل لـكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجـة ما كان لـكم ان تنبتوا شجرها أ إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ! ام من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها انهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أ إله مـع الله ؟!!). اي : أإله مع الله فعل هذا ؟ وهذا استفهام إنـكار ، وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا إله آخر مع الله .

ومن قال من المفسرين إن المراد: هل مع الله إله آخر؟ فقد غلط؛ فانهم كانوا يجعلون مع الله آلهة اخرى، كما قال تعالى : (أئنكم لتشهدون ان مع الله آلهة اخرى

قل لا اشهد) . وقال تعالى: (فما اغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء) . وقال تعالى عنهم : (اجعل الآلهة الهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب) .

وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله فى خلق السموات والأرض ، ولا خلق شيء ؛ بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط ، كما قال تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله) . وقال عن صاحب يس : (وما لي لا اعبد الذي فطرني واليه ترجعون ، أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون) . وقال تعالى : (وانذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ، ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع) . وقال تعالى : (الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة ايام ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع افلا تتذكرون) . وقال : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له) فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى ان يكون لغيره ملك او قسط من الملك ، او يكون عوناً لله ولم يبق الا الشفاعة ؛ فبين انها لا تنفع الا لمن اذن له الرب ، كما قال تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) .وقال تعالى عن الملائكة : (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) . وقال : (وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى) .

فهذه « الشفاعة » التى يظنها المشركون ؛ هي منتفية يوم القيامة كما نفاها

القرآن . واما ما اخبر به النبي صلى الله عليه وسلم انه يكون . فأخبر : « انه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة اولاً . فاذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه؛ يقال له : اي محمد ! ارفع راسك ، وقل تسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع . فيقول : اي رب امتي ! فيحد له حداً فيدخلهم الجنة » . وكذلك فى الثانية وكذلك فى الثالثة ، وقال له ابو هريرة : من اسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : « من قال : لا اله الا الله خالصاً من قلبه » . فتلك « الشفاعة » هي لأهل الأخلاص باذن الله ، ليست لمن اشرك بالله ، ولا تكون إلا باذن الله . وحقيقته ان الله هو الذي يتفضل على اهل الاخلاص والتوحيد ، فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي اذن له ان يشفع ليكرمه بذلك ، وينال به المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون صلى الله عليه وسلم ، كما كان فى الدنيا يستسقي لهم ويدعو لهم ، وتلك شفاعة منه لهم فكان الله يجيب دعاءه وشفاعته .

واذا كان كذلك « فالظلم ثلاثة انواع » : فالظلم الذي هو شرك لا شفاعة فيه . وظلم الناس بعضهم بعضاً لابد فيه من إعطاء المظلوم حقه ؛ لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها ، ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم ، كما قد يغفر لظالم نفسه بالشفاعة . فالظالم المطلق ماله من شفيع مطاع ، واما الموحد فلم يكن ظالماً مطلقاً ، بل هو موحد مع ظلمه لنفسه . وهذا انما نفعه فى الحقيقة اخلاصه لله ، فبه صار من اهل الشفاعة .

ومقصود القرآن بنفي الشفاعة نفي الشرك ، وهو : ان احداً لا يعبد الا الله

ولا يدعو غيره ، ولايسأل غيره ، ولايتوكل على غيره لا في شفاعة ، ولا غيرها ؛ فليس له ان يتوكل على احد في ان يرزقه ، وان كان الله يأتيه برزقه بأسباب.

كذلك ليس له ان يتوكل على غير الله في ان يغفر له ويرحمه في الآخرة ، وان كان الله يغفر له ويرحمه بأسباب من شفاعة وغيرها ، فالشفاعة التى نفاها القرآن مطلقاً ؛ ما كان فيها شرك وتلك منتفية مطلقاً ؛ ولهذا اثبت الشفاعة باذنه في مواضع ، وتلك قد بين الرسول صلى الله عليه وسلم انها لا تكون الا لأهل التوحيد والاخلاص ، فهي من التوحيد ومستحقها اهل التوحيد.

واما « الظلم المقيد » فقد يختص بظلم الانسان نفسه ، وظلم الناس بعضهم بعضاً ، كقول آدم عليه السلام وحواء : (ربنا ظلمنا انفسنا) . وقول موسى : (رب انى ظلمت نفسي) . وقوله تعالى : (والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) . لكن قول آدم وموسى إخبار عن واقع لا عموم فيه ، وذلك قد عرف ولله الحمد انه ليس كفراً .

وا ما قوله : (والذين إذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم) فهو نكرة فى سياق الشرط ، يعم كل ما فيه ظلم الانسان نفسه ؛ وهو اذا اشرك ثم تاب ، تاب الله عليه . وقد تقدم ان ظلم الانسان لنفسه يدخل فيه كل ذنب كبير او صغير مع الاطلاق ، وقال تعالى (ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ؛ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات) . فهذا ظلم لنفسه مقرون بغيره ؛ فلا يدخل فيه الشرك الأكبر . وفى « الصحيحين » عن ابن مسعود انه لما انزلت هذه الآية : (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) شق ذلك على اصحاب النبي

صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « انما هو الشرك ؛ ألم تسمعوا الى قول العبد الصالح : (ان الشرك لظلم عظيم) » .

والذين شق ذلك عليهم ظنوا : ان الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه ، وانه لا يكون الأمن والاهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه ؛ فشق ذلك عليهم ، فبين النبي صلى الله عليه وسلم لهم ما دلهم على ان الشرك ظلم في كتاب الله تعالى . وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس ايمانه بهذا الظلم ؛ ومن لم يلبس ايمانه به كان من اهل الأمن والاهتداء . كما كان من اهل الاصطفاء فى قوله : ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا .. إلى قوله : جنات عدن يدخلونها) . وهذا لا ينفي ان يؤاخذ احدهم بظلم نفسه اذا لم يتب ، كما قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) . وقال تعالى : (من يعمل سوءاً يجز به) .

وقد سأل ابو بكر النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : يا رسول الله ! وأينا لم يعمل سوءاً ؟ فقال : « يا ابا بكر ! ألست تنصب ، الست تحزن ، الست تصيبك اللأواء ؟ فذلك ما تجزون به » فبين ان المؤمن الذي اذا تاب دخل الجنة ، قد يجزى بسيئاته فى الدنيا بالمصائب التى تصيبه ، كما في « الصحيحين » عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح ، تقومها تارة وتميلها اخرى ، ومثل المنافق كمثل شجرة الارز لا تزال ثابتة

على اصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة » . وفى « الصحيحين» عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكها ؛ إلا كفر الله بها من خطاياه » ، وفي حديث سعد بن ابي وقاص ، قلت : يارسول الله ! اي الناس اشد بلاء ؟ قال: «الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الامثل فالامثل ؛ يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان فى دينه صلابة ، زيد فى بلائه ، وان كان في دينه رقة ؛ خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الارض وليس عليه خطيئة » رواه احمد والترمذي وغيرها . وقال : « المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه ، كما تحط الشجرة اليابسة ورقها » والاحاديث فى هذا الباب كثيرة .

فمن سلم من اجناس الظلم الثلاثة ؛ كان له الأمن التام ، والاهتداء التام . ومن لم يسلم من ظلمه نفسه ؛ كان له الامن والاهتداء مطلقاً ، بمعنى انه لا بد ان يدخل الجنة كما وعد بذلك فى الآية الأخرى ، وقد هداه الى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه الى الجنة ، ويحصل له من نقص الامن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه . وليس مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « انما هو الشرك » ان من لم يشرك الشرك الأكبر ، يكون له الأمن التام ، والاهتداء التام ، فان احاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين ان اهل الكبائر معرضون للخوف ، لم يحصل لهم الامن التام ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين الى الصراط المستقيم ، صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم ؛ بل معهم اصل الاهتداء الى

هذا الصراط ، ومعهم اصل نعمةالله عليهم ، ولا بد لهم من دخول الجنة . وقول النبي صلى الله عليه وسلم« انما هو الشرك » ان اراد به الشرك الاكبر ، فمقصوده ان من لم يكن من اهله ، فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة وهو مهتد الى ذلك . وان كان مراده جنس الشرك ؛ فيقال : ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب ؛ هو شرك اصغر ، وحبه ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله شرك اصغر ، ونحو ذلك . فهذا صاحبه قدفاته من الامن والاهتداء بحسبه ، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب فى هذا الظلم بهذا الاعتبار .

فصـــــل

ومن هذا الباب لفظ «الصلاح»، و«الفساد»: فاذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير وكذلك الفساد يتناول جميع الشر، كما تقدم فى اسم الصالح، وكذلك اسم المصلح والمفسد. قال تعالى في قصة موسى: (أتريد ان تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس، ان تريد إلا ان تكون جباراً فى الارض، وما تريد ان تكون من المصلحين)، (وقال موسى لأخيه هارون: اخلفنى فى قومي واصلح ولاتتبع سبيل المفسدين) وقال تعالى: (واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالوا: انما نحن مصلحون، ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون).

والضمير عائد على المنافقين فى قوله: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) وهذا مطلق يتناول من كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ومن سيكون بعدهم؛ ولهذا قال سلمان الفارسي: انه عني بهذه الآية قوماً لم يكونوا خلقوا حين نزولها، وكذا قال السدي عن اشياخه: الفساد الكفر والمعاصي. وعن مجاهد: ترك امتثال الأوامر واجتناب النواهي. والقولان معناها واحد. وعن ابن عباس: الكفر. وهذا معنى قول من قال: النفاق الذي صافوا به الكفار واطلعوهم على اسرار المؤمنين. وعن ابي العالية ومقاتل: العمل بالمعاصي. وهذا أيضاً عام كالأولين.

وقولهم : (انما نحن مصلحون) فسر بانكار ما اقروا به ، اي : إنا انما نفعل ما أمرنا به الرسول . وفسر : بأن الذي نفعله صلاح ، ونقصد به الصلاح وكلا القولين يروى عن ابن عباس ، وكلاهما حق ، فانهم يقولون هذا وهذا ، يقولون الأول لمن لم يطلع على بواطنهم ، ويقولون الثاني لأنفسهم ولمن اطلع على بواطنهم . لكن الثانى يتناول الاول ؛ فان من جملة افعالهم اسرار خلاف ما يظهرون ، وهم يرون هذا صلاحا قال مجاهد : ارادوا أن مصافاة الكفار صلاح لافساد . وعن السدي : إن فعلنا هذا هو الصلاح ، وتصديق محمدفساد وقيل : ارادوا ان هذا صلاح فى الدنيا ، فان الدولة ان كانت للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقد أمنوا بمتابعته ، وان كانت للكفار ؛ فقد امنوهم بمصافاتهم .

ولأجل القولين قيل فى قوله : (ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) اي لا يشعرون ان مافعلوه فساد لا صلاح . وقيل : لا يشعرون ان الله يطلع نبيه على فسادهم . والقول الاول يتناول الثاني ؛ فهو المراد ، كما يدل عليه لفظ الآية . وقال تعالى (ان ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) وقال (قال موسى : ما جئتم به السحر ، ان الله سيبطله ، ان الله لا يصلح عمل المفسدين) وقول يوسف (توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) .

وقد يقرن احدهما بما هو اخص منه ، كقوله : (واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لايحب الفساد) قيل: بالكفر، وقيل: بالظلم ؛ وكلاهما صحيح وقال تعالى : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون

علواً فى الأرض ولا فساداً) وقد تقدم قوله تعالى : (ان فرعون علا فى الارض وجعل اهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح ابناءهم ويستحي نساءهم ؛ انه كان من المفسدين) . وقال تعالى : (من اجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس او فساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعاً) وقتل النفس الاول من جملة الفساد ، لكن الحق فى القتل لولي المقتول ، وفى الردة والمحاربة والزنا ؛ الحق فيها لعموم الناس ؛ ولهذا يقال : هو حق لله ، ولهذا لا يعفى عن هذا ، كما يعفى عن الاول لان فساده عام ، قال تعالى (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا ، او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف) الآية . قيل : سبب نزول هذه الآية العرنيون الذين ارتدوا وقتلوا وأخذوا المال . وقيل : سببه ناس معاهدون نقضوا العهد وحاربوا . وقيل : المشركون ؛ فقد قرن بالمرتدين المحاربين وناقضي العهد المحاربين وبالمشركين المحاربين . وجمهور السلف والخلف على أنها تتناول قطاع الطريق من المسلمين ، والآية تتناول ذلك كله ؛ ولهذا كان من تاب قبل القدرة عليه من جميع هؤلاء ، فانه يسقط عنه حق الله تعالى .

وكذلك قرن « الصلاح والاصلاح بالايمان » فى مواضع كثيرة ، كقوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . (فمن آمن واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . ومعلوم ان الايمان افضل الاصلاح ، وافضل العمل الصالح ، كما جاء فى الحديث الصحيح انه قيل : يارسول الله ! اي الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله » . وقال تعالى : (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل

صالحاً ثم اهتــدى) . وقال : (إلا من تاب وآمن وعمل صالحــاً فأولئك يدخلون الجنة) . وقال : (الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ؛ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) . وقال فى القذف : (الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ؛ فان الله غفور رحيم) . وقال في السارق : (فمن تاب من بعد ظلمه واصلح ؛ فان الله يتوب عليــه) . وقال : (واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ، فان تابا واصلحا فأعرضوا عنهما) . ولهذا شرط الفقهاء فى احد قوليهم في قبول شهادة القاذف ان يصلح ، وقدروا ذلك بسنة ، كما فعل عمر بصبيــغ بن عسل لما اجله سنة ، وبذلك اخذ احمد فى توبة الداعي إلى البدعة انه يؤجل سنة ، كما أجل عمر صبيــغ بن عسل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فصـــــل

فان قيل : ما ذكر من تنوع دلالة اللفظ بالاطلاق والتقييد فى كلام الله ورسوله ، وكلام كل احد ؛ بين ظاهر لا يمكن دفعه ؛ لكن نقول : دلالة لفظ الايمان على الأعمال مجاز ؛ فقوله صلى الله عليه وسلم :« الايمان بضع وستون او بضع وسبعون شعبة ؛ اعلاها قول لا إله الا الله ، وادناها إماطة الأذى عن الطريق » مجاز . وقوله : « الايمان : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله »... إلى آخره ؛ حقيقة . وهذا عمدة المرجئة ، والجهمية ، والكرامية ، وكل من لم يدخل الأعمال فى اسم الايمان .

ونحن نجيب بجوابين : « احدهما » : كلام عام فى لفظ (الحقيقة، والمجاز) . «والثانى» : ما يختص بهذا الموضع . فبتقدير ان يكون احدهما مجازاً ؛ ما هو الحقيقة من ذلك من المجاز ؟ هل الحقيقة هو المطلق ، او المقيد ، او كلاهما حقيقة حتى يعرف ان لفظ الايمان اذا اطلق على ماذا يحمل ؟ .

فيقال اولاً : تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها الى « حقيقة ، ومجاز » ، وتقسيم دلالتها او المعانى المدلول عليها ، إن استعمل لفظ الحقيقة والمجاز فى المدلول او فى الدلالة ؛ فان هذا كله قد يقع فى كلام المتأخرين . ولكن المشهور

ان الحقيقة والمجاز من عوارض الألفاظ ، وبكل حال فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة . لم يتكلم به احد من الصحابة ولا التابعين لهم باحسان ، ولا احد من الأئمة المشهورين في العلم ، كمالك والثوري والأوزاعي وابى حنيفة والشافعي بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو ، كالخليل وسيبويه وابى عمرو بن العلاء ونحوهم .

واول من عرف انه تكلم بلفظ «المجاز» ابو عبيدة معمر بن المثني فى كتابه . ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة . وانما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية ؛ ولهذا قال من قال من الأصوليين ــ كأبي الحسين البصري وامثاله ــ انها تعرف الحقيقة من المجاز بطرق منها : نص اهل اللغة على ذلك بأن يقولوا : هذا حقيقة ، وهذا مجاز ، فقد تكلم بلا علم ، فانه ظن ان اهل اللغة قالوا هذا ، ولم يقل ذلك احد من اهل اللغة ، ولا من سلف الأمة وعلمائها ، وانما هذا اصطلاح حادث ، والغالب انه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين ، فانه لم يوجد هذا فى كلام احد من اهل الفقه والأصول والتفسير والحديث ونحوهم من السلف .

وهذا الشافعي هو اول من جرد الكلام فى « اصول الفقه » لم يقسم هذا التقسيم » ، ولا تكلم بلفظ «الحقيقة والمجاز» . وكذلك محمد بن الحسن له فى المسائل المبنية على العربية كلام معروف فى « الجامع الكبير » وغيره ؛ ولم يتكلم بلفظ الحقيقة والمجاز . وكذلك سائر الأئمة لم يوجد

لفظ المجاز فى كلام احد منهم إلا فى كلام احمد بن حنبـــل ؛ فانه قال فى كتـــاب الرد على الجهمية فى قوله :(إنا ، ونحن) ونحو ذلك فى القرآن : هذا من مجـاز اللغة ، يقول الرجل : إنا سنعطيك . انا سنفعل ؛ فذكر ان هذا مجاز اللغة .

وبهذا احتج على مذهبه من أصحابه من قال : ان فى «القرآن» مجازاً ، كالقاضي ابى يعلى ، وابن عقيل ، وابى الخطاب وغيرهم . وآخرون من اصحـــابه منعوا ان يكون فى القرآن مجاز ، كأبي الحسن الخرزى . وابى عبـدالله بن حامد . وابي الفضل التميمي بن ابي الحسن التميمي ، وكذلك منع ان يكون فى القرآن مجاز ، محمد بن خويز منداد ، وغـــيره من المالـكية ، ومنع منه داود بن على ، وابنـــه ابو بكر ، ومنذر بن سعيد البلوطي وصنف فيه مصنفاً .

وحكى بعض الناس عن احمد فى ذلك روايتين . واما ســائر الأئمة فلم يقل احد منهم ، ولا من قدماء اصحاب احمد : إن فى القرآن مجـازاً ، لا مالك ولا الشافعي ولا ابو حنيفة ، فان تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز . إنمـا اشـتهر فى المائة الرابعة ، وظهرت اوائله فى المائة الثالثة ، وما علمته موجوداً فى المائة الثانية ، اللهم إلا ان يكون فى اواخرها ، والذين انـكروا ان يكون احمد وغيره نطقـــوا بهذا التقسيم . قالوا : إن معنى قول احمد : من مجاز اللغـة . اى : ممـا يجوز فى اللغة ان يقول الواحد العظيم الذي له اعوان : نحن فعلنا كذا ونفعـل كذا ، ونحو ذلك . قالوا : ولم يرد احمد بذلك ان اللفظ استعمل فى غير ماوضع له.

وقد انكر طائفة ان يكون في اللغة مجاز ، لا فى القرآن ولا غـيره ، كأبي

اسحاق الاسفرائيني . وقال المنازعون له : النزاع معه لفظي ، فانه إذا سلم ان في اللغة لفظاً مستعملاً في غير ما وضع له لا يدل على معناه الا بقرينة ؛ فهذا هو المجاز وإن لم يسمه مجازاً . فيقول من ينصره : إن الذين قسموا اللفظ : حقيقة ، ومجازاً قالوا : «الحقيقة» هو اللفظ المستعمل فيما وضع له . «والمجاز» هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له كلفظ الأسد والحمار ، إذا اريد بهما البهيمة،او اريد بهما الشجاع والبليد . وهذا التقسيم والتحديد يستلزم ان يكون اللفظ قد وضع اولا لمعنى ، ثم بعد ذلك قد يستعمل فى موضوعه ، وقد يستعمل فى غير موضوعه ؛ ولهذا كان المشهور عند اهل التقسيم ان كل مجاز فلا بد لهمن حقيقة وليس لكل حقيقة مجاز ؟ فاعترض عليهم بعض متأخريهم وقال : اللفظ الموضوع قبل الاستعمال لا حقيقة ولا مجاز ، فاذا استعمل فى غير موضوعه ، فهو مجاز لا حقيقة له .

وهذا كله انما يصح لو علم ان الالفاظ العربية وضعت اولا لمعان ، ثم بعد ذلك استعملت فيها ؛ فيكون لها وضع متقدم على الأستعمال . وهذا انما صح على قول من يجعل اللغات اصطلاحية ، فيدعي ان قوما من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على ان يسموا هذا بكذا ، وهذا بكذا ، ويجعل هذا عاماً في جميع اللغات . وهذا القول لا نعرف احداً من المسلمين قاله قبل ابى هاشم بن الجبائي؛ فانه وأبا الحسن الاشعري كلاهما قرأ على ابي على الجبائي ، لكن الاشعري رجع عن مذهب المعتزلة ، وخالفهم فى القدر والوعيد ، وفى الاسماء والاحكام ، وفى

صفات الله تعالى ، وبين من تناقضهم وفساد قولهم ما هو معروف عنه .فتنازع الاشعري وأبو هاشم فى مبدأ اللغات ؛ فقال ابو هاشم : هي اصطلاحية ، وقال الاشعري : هي توقيفية . ثم خاض الناس بعدهما فى هذه المسألة ؛ فقال آخرون : بعضها توقيفي ، وبعضها اصطلاحي ، وقال فريق رابع بالوقف .

والمقصود هنا انه لا يمكن احداً ان ينقل عن العرب ، بل ولا عن أمة من الأمم انه اجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الأسماء الموجودة في اللغة ، ثم استعملوها بعد الوضع ، وانما المعروف المنقول بالتواتر استعمال هذه الألفاظ فيما عنوه بها من المعاني ، فان ادعى مدع انه يعلم وضعاً يتقدم ذلك ، فهو مبطل ، فان هذا لم ينقله احد من الناس . ولا يقال : نحن نعلم ذلك بالدليل ؛ فانه إن لم يكن اصطلاح متقدم ، لم يمكن الاستعمال .

قيل : ليس الأمر كذلك ؛ بل نحن نجد ان الله يلهم الحيوان من الأصوات ما به يعرف بعضها مراد بعض ، وقد سمي ذلك منطقاً وقولاً فى قول سليمان : (علمنا منطق الطير) . وفي قوله : (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) وفي قوله : (يا جبال أوبي معه والطير) . وكذلك الآدميون ؛ فالمولود إذا ظهر منه التمييز ، سمع ابويه او من يربيه ينطق باللفظ ، ويشير الى المعنى ، فصار يفهم ان ذلك اللفظ يستعمل فى ذلك المعنى ، اى : اراد المتكلم به ذلك المعنى ، ثم هذا يسمع لفظاً بعد لفظ حتى يعرف لغة القوم الذين نشأ بينهم من غير ان يكونوا قد اصطلحوا معه على وضع متقدم ؛ بل ولا اوقفوه على معاني الأسماء ،

وان كان احياناً قد يسأل عن مسمى بعض الأشياء فيوقف عليها ، كما يترجم للرجل اللغة التى لا يعرفها فيوقف على معاني الفاظها ، وان باشر اهلها مدة علم ذلك بدون توقيف من احدهم .

نعم قد يضع الناس الاسم لما يحدث مما لم يكن من قبلهم يعرفه فيسميه ، كما يولد لأحدهم ولد فيسميه اسماً إما منقولاً واما مرتجلاً ، وقد يكون المسمى واحداً لم يصطلح مع غيره ، وقد يستوون فيما يسمونه . وكذلك قد يحدث للرجل آلة من صناعة ، او يصنف كتابا ، او يبنى مدينة ونحو ذلك ؛ فيسمي ذلك باسم لأنه ليس من الأجناس المعروفة حتى يكون له اسم في اللغة العامة . وقد قال الله تعالى : (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان) . و (قالوا أنطقنا الله الذي انطق كل شيء) . وقال : (الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى) . فهو سبحانه يلهم الانسان المنطق ، كما يلهم غيره .

وهو سبحانه اذا كان قد علم آدم الاسماء كلها ، وعرض المسميات على الملائكة ، كما اخبر بذلك فى كتابه فنحن نعلم انه لم يعلم آدم جميع اللغات التى يتكلم بها جميع الناس الى يوم القيامة ، وان تلك اللغات اتصلت الى اولاده ، فلا يتكلمون الا بها فان دعوى هذا كذب ظاهر ، فان آدم عليه السلام انما ينقل عنه بنوه ، وقد اغرق الله عام الطوفان جميع ذريته إلا من في السفينة ، واهل السفينة انقطعت ذريتهم إلا أولاد نوح ، ولم يكونوا يتكلمون بجميع ما تكلمت به الأمم بعدهم . فان «اللغة الواحدة» كالفارسية ، والعربية ، والرومية والتركية ، فيها من الاختلاف والأنواع ما لا يحصيه إلا الله ، والعرب انفسهم

لكل قوم لغات لا يفهمها غيرهم ، فكيف يتصور ان ينقل هذا جميعه عن اولئك الذين كانوا في السفينة ، واولئك جميعهم لم يكن لهم نسل ، وانما النسل لنوح وجميع الناس من اولاده وهم ثلاثة : سام وحام ويافث ، كما قال الله تعالى : (وجعلنا ذريته هم الباقين) . فلم يجعل باقياً الا ذريته ، وكما روى ذاك عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن اولاده ثلاثة » . رواه احمد وغيره .

ومعلوم ان الثلاثة لا يمكن ان ينطقوا بهذا كله ، ويمتنع نقل ذلك عنهم ؛ فان الذين يعرفون هذه اللغة لا يعرفون هذه ، واذا كان الناقل ثلاثة ؛ فهم قد علموا أولادهم ، واولادهم علموا اولادهم ، ولو كان كذلك لاتصلت . ونحن نجد بنى الأب الواحد يتكلم كل قبيلة منهم بلغة لا تعرفها الأخرى والاب واحد لا يقال : انه علم أحد ابنيه لغة وابنة الآخر لغة ؛ فان الاب قد لا يكون له إلا ابنان ، واللغات فى اولاده اضعاف ذلك .

والذي اجرى الله عليه عادة بنى آدم انهم انما يعلمون اولادهم لغتهم التى يخاطبونهم بها او يخاطبهم بها غيرهم ، فأما لغات لم يخلق الله من يتكلم بها فلا يعلمونها اولادهم . وايضاً فانه يوجد بنو آدم يتكلمون بألفاظ ما سمعوها قط من غيرهم . والعلماء من المفسرين وغيرهم لهم فى الاسماء التى علمها الله آدم قولان معروفان عن السلف .

(احدها) : انه انما علمه اسماء من يعقل ، واحتجوا بقوله : (ثم عرضهم على الملائكة) . قالوا : وهذا الضمير لا يكون إلا لمن يعقل ، وما لا يعقل ، يقال

فيها : عرضها . ولهذا قال ابو العالية : علمه اسماء الملائكة ، لانه لم يكن حينئذ من يعقل الا الملائكة ؛ ولا كان ابليس قد انفصل عن الملائكة ، ولا كان له ذرية . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : علمه اسماء ذريته ، وهذا يناسب الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ان ادم سأل ربه ان يريه صور الانبياء من ذريته ؛ فرآهم فرأى فيهم من يبص ، فقال : يا رب من هذا ؟ قال : ابنك داود » . فيكون قد اراه صور ذريته ؛ او بعضهم واسماءهم ، وهذه اسماء اعلام لا أجناس .

(والثاني) : ان الله علمه أسماء كل شيء ، وهذا هو قول الأكثرين ، كابن عباس واصحابه ؛ قال ابن عباس : علمه حتى الفسوة والفسية والقصعة والقصية أراد اسماء الاعراض والاعيان مكبرها ومصغرها . والدليل على ذلك ماثبت فى « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال فى حديث الشفاعة : « إن الناس يقولون : يا آدم انت ابو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه وعلمك اسماء كل شيء » . وأيضاً قوله : « الاسماء كلها » لفظ عام مؤكد ؛ فلا يجوز تخصيصه بالدعوى . وقوله : (ثم عرضهم على الملائكة) ؛ لأنه اجتمع من يعقل ومن لا يعقل ، فغلب من يعقل . كما قال : (فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على اربع) . قال عكرمة : علمه اسماء الأجناس دون انواعها ، كقولك : إنسان وجن وملك وطائر . وقال مقاتل ، وابن السائب ، وابن قتيبة : علمه اسماء ما خلق في الأرض من الدواب والهوام والطير .

ومما يدل على ان هذه اللغات ليست متلقاة عن آدم ؛ ان اكثر اللغات ناقصة عن اللغة العربية ، ليس عندهم اسماء خاصة للأولاد والبيوت والاصوات وغير ذلك مما يضاف إلى الحيوان ؛ بل إنما يستعملون فى ذلك الاضافة . فلو كان آدم عليه السلام علمه الجميع لعلمها متناسبة ، وأيضاً فكل امة ليس لها كتاب ليس فى لغتها ايام الأسبوع ، وانما يوجد فى لغتها اسم اليوم والشهر والسنة ؛ لأن ذلك عرف بالحس والعقل ؛ فوضعت له الأمم الأسماء ؛ لأن التعبير يتبع التصور واما الاسبوع فلم يعرف إلا بالسمع ، لم يعرف ان الله خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام ثم استوى على العرش إلا بأخبار الانبياء الذين شرع لهم ان يجتمعوا فى الاسبوع يوماً يعبدون الله فيه ويحفظون به الاسبوع الاول الذي بدأ الله فيه خلق هذا العالم ؛ ففي لغة العرب والعبرانيين ومن تلقى عنهم ايام الاسبوع ؛ بخلاف الترك ونحوهم ؛ فانه ليس فى لغتهم ايام الاسبوع ، لأنهم لم يعرفوا ذلك ، فلم يعبروا عنه .

فعلم ان الله ألهم النوع الانسانى ان يعبر عما يريده ويتصوره بلفظه ، وان اول من علم ذلك ابوهم آدم ، وهم علموا كما علم وان اختلفت اللغات . وقد أوحى الله الى موسى بالعبرانية ، والى محمد بالعربية ؛ والجميع كلام الله ، وقد بين الله بذلك ما أراد من خلقه وامره ، وإن كانت هذه اللغة ليست الاخرى ، مع ان العبرانية من اقرب اللغات إلى العربية ، حتى إنها اقرب اليها من لغة بعض العجم إلى بعض .

فبالجملة نحن ليس غرضنا إقامة الدليل على عدم ذلك ؛ بل يكفينا ان يقال :

هذا غير معلوم وجوده ، بل الالهـام كاف فى النطق باللغات من غير مواضعة متقدمة ؛ وإذا سمى هذا توقيفاً ؛ فليسم توقيفاً ، وحينئذ فمن ادعى وضعاً متقدماً على استعمال جميع الاجناس ؛ فقد قال ما لا علم له به . وإنمـا المعلوم بلا ريب هو الاستعمال . ثم هؤلاء يقولون : تتميز الحقيقة من المجاز بالاكتفاء باللفظ ، فاذا دل اللفظ بمجرده فهـو حقيقة ، وإذا لم يدل الا مع القرينة ؛ فهو مجاز ، وهذا امر متعلق باستعمال اللفظ في المعنى لا بوضع متقدم .

ثم يقال (ثانياً) : هذا التقسيم لا حقيقة له ؛ وليس لمن فرق بينهما حد صحيح يميز به بين هذا وهذا ، فعلم ان هذا التقسيم باطل ، وهو تقسيم من لم يتصور ما يقول ، بل يتكلم بلا عـلم ؛ فهم مبتدعة فى الشرع ، مخالفون للعقل وذلك انهم قالوا : « الحقيقة » : اللفظ المستعمل فيما وضع له . و « المجاز » : هو المستعمل فى غير ما وضع له ؛ فاحتاجوا إلى اثبات الوضع السابق على الاستعمال وهذا يتعذر . ثم يقسمون الحقيقة إلى لغـوية ، وعرفية ، واكثرهم يقسمها إلى ثلاث : لغوية ، وشرعية ، وعرفية .

«فالحقيقة العرفية» : هي ما صار اللفظ دالاً فيها على المعنى بالعرف لا باللغة ، وذلك المعنى يكون تارة اعم من اللغوي ، وتارة اخص ، وتاره يكون مبايناً له لكن بينهما علاقة استعمل لأجلها . فالاول : مثل لفظ « الرقبة » و « الرأس » ونحوها ، كان يستعمل فى العضو المخصوص ، ثم صار يستعمل فى جميع البدن . والثاني مثل لفظ « الدابة » ونحـوها ، كان يستعمل فى كل ما دب ، ثم صار

يستعمل فى عرف بعض النــاس فى ذوات الاربع ، وفى عرف بعض الناس فى الفرس ، وفى عرف بعضهم فى الحمار . والثالث مثل لفظ « الغائط » و « الظعينة» و « الراوية » و « المزادة » : فان الغائط فى اللغــة هو المــكان المنخفض من الارض ، فلما كانوا ينتابونه لقضاء حوائجهم سموا ما يخرج من الانسان باسم محله والظعينة اسم الدابة ، ثم سموا المرأة التى تركبها باسمها ، ونظائر ذلك .

و « المقصود » ان هذه الحقيقة العرفية لم تصر حقيقة لجماعة تواطئوا على نقلها ولــكن تــكلم بها بعض الناس واراد بها ذلك المعنى العرفي ، ثم شاع الاستعمال فصارت حقيقة عرفية بهذا الاستعمال ، ولهذا زاد من زاد منهم فى حد الحقيقة فى اللغة التى بها التخاطب ، ثم هم يعلمون ، ويقولون : إنه قد يغلب الاستعمال على بعض الالفاظ ، فيصير المعنى العرفي اشهر فيه ، ولا يدل عند الاطلاق إلا عليه فتصير الحقيقة العرفية ناسخة للحقيقة اللغوية . واللفظ مستعمل فى هذا الاستعمال الحادث للعرفي ، وهو حقيقة من غير ان يكون لمــا استعمل فيه ذلك تقدم وضع فعلم ان تفسير الحقيقة بهذا لا يصح .

وان قالوا : نعني بما وضع له ما استعملت فيه أولاً ؛ فيقال : من اين يعــلم ان هذه الألفاظ التى كانت العرب تتخاطب بها عند نزول القرآن وقبله ، لم تستعمل قبل ذلك فى معنى شيء آخر . واذا لم يعلموا هذا النفى ؛ فلا يعلم انهــا حقيقة ، وهذا خلاف ما اتفقوا عليه . وأيضاً فيلزم من هذا ان لا يقطع بشيء من الالفاظ انه حقيقة ، وهذا لا يقوله عاقل .

ثم هؤلاء الذين يقولون هذا ، نجد احدهم يأتي الى ألفاظ لم يعلم انها استعملت الا مقيدة ، فينطق بها مجردة عن جميع القيود ، ثم يدعي ان ذلك هو حقيقتها من غير ان يعلم انها نطق بها مجردة ، ولا وضعت مجردة ، مثل ان يقول حقيقة العين هو العضو المبصر ، ثم سميت به عين الشمس ، والعين النابعة، وعين الذهب؛للمشابهة. لكن اكثرهم يقولون :انهذا من باب المشترك،لا من باب الحقيقة والمجاز؛فيمثل بغيره ،مثل لفظ الرأس. يقولون : هو حقيقةفي راس الانسان. ثم قالوا : راس الدرب لاوله ، ورأس العين لمنبعها، ورأس القوم لسيدهم وراس الامر لاوله ، وراس الشهر ، وراس الحول ، وامثال ذلك على طريق المجاز . وهم لا يجدون قط ان لفظ الراس استعمل مجرداً ؛ بل يجدون انه استعمل بالقيود فى راس الأنسان . كقوله تعالى : (وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين) ونحوه ، وهذا القيد يمنع ان تدخل فيه تلك المعانى .

فاذا قيل : راس العين ، وراس الدرب ، وراس الناس ، وراس الامر ؛ فهذا المقيد غير ذاك المقيد الدال ، ومجموع اللفظ الدال هنا غير مجموع اللفظ الدال هناك ؛ لكن اشتركا فى بعض اللفظ كاشتراك كل الأسماء المعرفة فى لام التعريف ، ولو قدر ان الناطق باللغة نطق بلفظ رأس الانسان اولا ، لأن الانسان يتصور رأسه قبل غيره ، والتعبير اولا هو عما يتصور اولا ، فالنطق بهذا المضاف اولا ، لا يمنع ان ينطق به مضافا إلى غيره ثانياً ، ولا يكون هذا من المجاز كما فى سائر المضافات ، فاذا قيل: ابن آدم اولا ؛ لم يكن قولنا : ابن

الفرس ، وابن الحمار مجازاً ، وكذلك اذا قيل : بنت الانسان ؛ لم يكن قولنا : بنت الفرس مجازاً . وكذلك اذا قيل : رأس الانسان اولا لم يكن قولنا : رأس الفرس مجازاً ، وكذلك فى سائر المضافات إذا قيل : يده او رجله .

فاذا قيل : هو حقيقة فيما اضيف الى الحيوان ؛ قيل : ليس جعل هذا هو الحقيقة بأولى من ان يجعل ما اضيف الى الانسان راس ، ثم قد يضاف الى مالا يتصوره ، أكثر الناس من الحيوانات الصغار التى لم تخطر ببال عامة الناطقين باللغة . فاذا قيل : انه حقيقة فى هذا ، فلماذا لا يكون حقيقة فى راس الجبل والطريق والعين ؟! وكذلك سائر ما يضاف الى الانسان من اعضائه ، واولاده ، ومساكنه ؛ يضاف مثله الى غيره ويضاف ذلك الى الجمادات ؛ فيقال : راس الجبل وراس العين ، وخطم الجبل اى انفه وفم الوادي ، وبطن الوادي ،وظهر الجبل ، وبطن الأرض وظهرها ، ويستعمل مع الالف وهو لفظ الظاهر والباطن فى امور كثيرة ، والمعنى فى الجميع ان الظاهر لما ظهر فتبين ، والباطن لما بطن فخفى . وسمى ظهر الانسان ظهراً لظهوره وبطن الانسان بطناً لبطونه. فاذا قيل : ان هذا حقيقة ، وذاك مجاز ؛ لم يكن هذا اولى من العكس .

و«أيضاً» من الأسماء ما تكلم به اهل اللغة مفرداً ، كلفظ « الانسان » ونحوه ، ثم قد يستعمل مقيداً بالاضافة كقولهم : انسان العين ، وابرة الذراع ، ونحو ذلك ، وبتقدير ان يكون فى اللغة حقيقة ومجاز ؛ فقد ادعى بعضهم ان هذا من المجاز ؛ وهو غلط ، فان المجاز : هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له اولا وهنا لم يستعمل اللفظ ؛ بل ركب مع لفظ آخر ، فصار وضعاً آخر بالاضافة .

فلو استعمل مضافاً فى معنى ، ثم استعمل بتلك الاضافة فى غيره كان مجازاً ، بل اذا كان بعلبك وحضرموت ونحوها ممـا يركب تركيب مزج بعد ان كان الاصل فيه الاضافة ؛ لا يقـال : إنه مجاز . فما لم ينطق به إلا مضـافاً اولى ان لا يكون مجازاً .

واما من فرق بين الحقيقة والمجاز ؛ بأن الحقيقة ما يفيد المعنى مجـرداً عن القرائن ، والمجاز مالا يفيد ذلك المعني الا مع قرينه ، او قال : «الحقيقة» :ما يفيده اللفظ المطلق.و«المجاز» : ما لا يفيد الا مع التقييد . او قال : «الحقيقة» هي المعنى الذي يسبق الى الذهن عند الاطلاق . «والمجاز» مالا يسبق الى الذهن . او قال : «المجاز» ما صح نفيه ، و«الحقيقة» ما لا يصح نفيها ، فانه يقال : ما تعني بالتجريد عن القرائن ، والاقتران بالقرائن ؟

ان عنى بذلك القرائن اللفظية ، مثل كون الاسم يستعمل مقروناً بالاضافة ، او لام التعريف ، ويقيد بكونه فاعلاً ومفعولا ومبتدأ وخبراً ؛ فلا يوجد قسط فى الـكلام المؤلف اسم الا مقيداً . وكذلك الفعل ، ان عنى بتقييـده انه لا بد له من فاعل وقد يقيد بالمفعول به وظرفى الزمان والمكان ، والمفعول له ومعه ، والحال فالفعل لا يستعمل قط الا مقيدا ، واما الحرف فأبلغ ، فان الحرف أتى به لمعنى فى غيره . ففي الجملة لا يوجد قط فى كلام تام اسم ولا فعـل ولا حرف الا مقيداً بقيود تزيل عنه الاطلاق . فان كانت القرينة مما يمنع الاطلاق عن كل

قيد ، فليس فى الـكلام الذي يتكلم به جميع الناس لفظ مطلق عن كل قيـد ، سواء كانت الجملة اسمية او فعلية ،

ولهذا كان لفظ « الـكلام » و« الـكلمة » فى لغة العرب ، بل وفى لغـة غيرهم ، لا تستعمل إلا فى المقيد . وهو الجمـلة التامة اسمية كانت او فعليـة او ندائية ، إن قيل انها قسم ثالث .

فأما مجرد الاسم او الفعـل او الحرف الذي جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل فهذا لا يسمى فى كلام العرب قط كلمة ، وانمـا تسمية هذا كلمة ، اصطلاح نحوي كما سموا بعض الألفاظ فعلاً ، وقسموه الى فعل ماض ومضارع وامر ، والعرب لم تسم قط اللفظ فعلاً ؛ بل النحاة اصطلحوا على هذا ، فسموا اللفظ باسم مدلوله ، فاللفظ الدال على حدوث فعل في زمن ماض سموه فعلاً ماضياً ، وكذلك سائرها .

وكذلك حيث وجد فى الـكتاب والسنة ، بل وفى كلام العرب نظمه ونثره لفظ كلمة ؛ فانمـا يراد به المفيد التى تسميها النحاة جملة تامة ، كقوله تعالى : (وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولداً ؛ ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من افواههم إن يقولون إلا كذباً) . وقوله تعالى : (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا) . وقوله تعالى : (تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم) . وقوله : (وجعلهـا كلمة باقية فى عقبه) . وقوله : (وألزمهم كلمةُ التقوى وكانوا احق بهـا وأهلها) . وقول النبي صلى الله عليه وسلم : «اصدق كلمة قالهـا الشاعر كلمة لبيد :

✡ ألا كل شيء ما خلا الله باطل ✡ »

وقوله « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتــان الى الرحمن: سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم» . وقوله . «إن الرجل ليتكلم بالـكلمة من رضوان الله ما يظن ان تبلغ به ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة وإن الرجل ليتكلم بالـكلمة من سـخط الله ما يظن ان تبلغ به ما بلغت ، يكتب الله بها سخطه الى يوم القيامة» . وقوله : « لقد قلت بعـدك اربع كلمـات لو وزنت بمـا قلته منذ اليوم لوزنتهن : سـبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله مداد كلماته » .

واذا كان كل اسم او فعل أو حــرف يوجد في الـكلام ، فانه مقيد لا مطلق ، لم يجز ان يقابل للفظ الحقيقة ما دل مع الاطلاق والتجرد عن كل قرينة تقارنه .

فان قيل :اريد بعض القرائن دون بعض ، قيل له : اذ كر الفصل بين القرينة التى يكون معها حقيقة ، والقرينة التى يكون معها مجاز ولن تجد الى ذلك سبيلاً تقدر به على تقسيم صحيـح معقول . ومما يدل على ذلك ان النـاس اختلفوا فى « العام » إذا خص هل يكون استعماله فيما بقي حقيقة او مجازاً ؟ وكذلك لفظ « الامر» اذا اريد به النـدب ، هل يكون حقيقـة او مجازاً ؟ وفى ذلك قولان لاكثر الطوائف : لاصحاب احمد قولان ، ولاصحـاب الشافعي قولان ، ولاصحاب مالك قولان .

ومن الناس من ظن ان هذا الخلاف يطرد في التخصيص المتصل ، كالصفة

والشرط والغاية والبدل ، وجعل يحكي فى ذلك اقوال من يفصل كما يوجد في كلام طائفة من المصنفين في اصول الفقه ، وهذا مما لم يعرف ان احداً قاله فجعل اللفظ العام المقيد فى الصفات والغايات والشروط مجازاً بل لما اطلق بعض المصنفين ان اللفظ العام اذا خص يصير مجازاً ؛ ظن هذا الناقل انه عنى التخصيص المتصل وأولئك لم يكن فى اصطلاحهم عام مخصوص إلا اذا خص بمنفصل . واما المتصل ؛ فلا يسمون اللفظ عاماً مخصوصاً البتة فانه لم يدل إلا متصلاً والاتصال منعه العموم، وهذا اصطلاح كثير من الاصوليين وهو الصواب . لايقال لما قيد بالشرط والصفة ونحوهما : انه داخل فيما خص من العموم ، ولا فى العام المخصوص ؛ لكن يقيد فيقال : تخصيص متصل ، وهذا المقيد لا يدخل فى التخصيص المطلق .

وبالجملة فيقال : اذا كان هذا مجازاً ؛ فيكون تقييد الفعل المطلق بالمفعول به وبظرف الزمان والمكان مجازاً : وكذلك بالحال ، وكذلك كل ما قيد بقيد ، فيلزم ان يكون الكلام كله مجازاً ، فأين الحقيقة ؟

فان قيل : يفرق بين القرائن المتصلة والمنفصلة ، فما كان مع القرينة المتصلة فهو حقيقة ، وما كان مع المنفصلة كان مجازاً ؛ قيل : تعنى بالمتصل ما كان فى اللفظ ، او ما كان موجوداً حين الخطاب ؟ فان عنيت الأول ؛ لزم ان يكون ماعلم من حال المتكلم او المستمع اولاً قرينة منفصلة . فما استعمل بلام التعريف لما يعرفانه ، كما يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو عند المسلمين رسول الله أو قال الصديق ، وهو عندهم ابو بكر ، واذا قال الرجل لصاحبه : اذهب الى

الأمير او القاضي او الوالي يريد ما يعرفانه انه يكون مجازاً . وكذلك الضمير يعود الى معلوم غير مذكور . كقوله : (إنا أنزلنـــاه) ، وقوله : (حتى توارت بالحجاب) وامثال ذلك ، ان يكون هذا مجازاً ؛ وهذا لا يقوله احد .

و « ايضاً » فاذا قال لشجاع : هذا الاســد فعل اليوم كذا ، ولبليد : هذا الحمار قال اليوم كذا ، او لعالم او جواد : هذا البحر جري منه اليوم كذا ؛ ان يكون حقيقة ، لان قوله هذا قرينة لفظية ، فلا يبقى قط مجازاً .

وان قال : المتصل اعم من ذلك ، وهو ما كان موجوداً حين الخطاب . قيل له : فهذا اشد عليك من الأول ؛ فان كل متكلم بالمجاز لا بد ان يقترن به حال الخطاب ما يبين مراده ، وإلا لم يجز التكلم به .

فان قيل : أنا اجوز تأخير البيـان عن مورد الخطاب الى وقت الحاجة . قيل : اكثر الناس لايجوزون ان يتكلم بلفظ يدل على معنى وهو لا يريد ذلك المعنى الا اذا بين ، وانما يجوزون تأخير بيان ما لم يدل اللفظ عليه ، كالمجملات . ثم نقول : اذا جوزت تأخير البيان ، فالبيان قد يحصل بجملة تامة ، وبأفعال من الرسول وبغير ذلك . ولا يكون البيـان المتـأخر الا مستقلاً بنفسه ، لا يكون مما يجب اقترانه بغيره . فان جعلت هذا مجازاً ؛ لزم ان يكون مايحتاج فى العمل الى بيان مجازاً ، كقوله : (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) .

ثم يقال : هب ان هذا جائز عقلاً ، لكن ليس واقعاً فى الشريعة اصلاً ، وجميع ما يذكر من ذلك باطل ، كما قد بسط فى موضـعه فان الذين قالوا :

الظاهر الذي لم يرد به ما يدل عليه ظاهره قد يؤخر بيانه ، احتجوا بقوله : (ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة) . وادعوا أنها كانت معينة ، واخر بيان التعيين . وهذا خلاف ما استفاض عن السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان من أنهم أمروا ببقرة مطلقة فلو أخذوا بقرة من البقر فذبحوها ، أجزأ عنهم ، ولكن شددوا فشدد الله عليهم . والآية نكرة فى سياق الاثبات ، فهي مطلقة . والقرآن يدل سياقه على ان الله ذمهم على السؤال بما هي ، ولو كان المأمور به معيناً ، لما كانوا ملومين . ثم ان مثل هذا لم يقع قط فى أمر الله ورسوله ان يأمر عباده بشيء معين ، ويبهمه عليهم مرة بعد مرة ، ولا يذكره بصفات تختص به ابتداء .

واحتجوا بأن الله أخر بيان لفظ الصلاة والزكاة والحج ، وان هذه الالفاظ لها معان فى اللغة بخلاف الشرع ؛ وهذا غلط ، فان الله انما أمرهم بالصلاة بعد ان عرفوا المأمور به ، وكذلك الصيام ، وكذلك الحج ، ولم يؤخر الله قط بيان شيء من هذه المأمورات ، ولبسط هذه المسألة موضع آخر .

واما قول من يقول : ان الحقيقة ما يسبق الى الذهن عند الاطلاق ؛ فمن افسد الأقوال ، فانه يقال : اذا كان اللفظ لم ينطق به الا مقيداً ؛ فانه يسبق الى الذهن فى كل موضع منه ما دل عليه ذلك الموضع . واما اذا اطلق ؛ فهو لا يستعمل فى الكلام مطلقاً قط ، فلم يبق له حال اطلاق محض حتى يقال : ان الذهن يسبق اليه ام لا .

و « ايضاً » فأي ذهن ؟ ! فان العربي الذي يفهم كلام العرب ؛ يسبق الى

ذهنه من اللفظ ما لا يسبق الى ذهن النبطي الذي صار يستعمل الألفاظ فى غير معانيها ، ومن هنا غلط كثير من الناس ؛ فانهم قد تعودوا ما اعتادوه ، اما من خطاب عامتهم ، واما من خطاب علمائهم باستعمال اللفظ فى معنى ، فاذا سمعوه فى القرآن والحديث ظنوا انه مستعمل فى ذلك المعنى ، فيحملون كلام الله ورسوله على لغتهم النبطية ، وعادتهم الحادثة . وهذا مما دخل به الغلط على طوائف ، بل الواجب ان تعرف اللغة والعادة والعرف الذى نزل فى القرآن والسنة ، وما كان الصحابة يفهمون من الرسول عند سماع تلك الالفاظ ؛ فبتلك اللغة والعادة والعرف خاطبهم الله ورسوله . لا بما حدث بعد ذلك .

وايضاً ، فقد بينا فى غير هذا الموضع ان الله ورسوله لم يدع شيئاً من القرآن والحديث الا بين معناه للمخاطبين ، ولم يحوجهم الى شيء آخر ، كما قد بسطنا القول فيه فى غير هذا الموضع . فقد تبين ان ما يدعيه هؤلاء من اللفظ المطلق من جميع القيود ؛ لا يوجد الا مقدراً فى الاذهان ، لا موجوداً فى الكلام المستعمل . كما ان ما يدعيه المنطقيون من المعنى المطلق من جميع القيود لا يوجد إلا مقدراً فى الذهن ، لا يوجد فى الخارج شيء موجود خارج عن كل قيد . ولهذا كان ما يدعونه من تقسيم العلم الى تصور وتصديق ، وان التصور هو تصور المعنى الساذج الخالي عن كل قيد لا يوجد . وكذلك ما يدعونه من البسائط التى تتركب منها الأنواع ، وانها امور مطلقة عن كل قيد ، لا توجد . وما يدعونه من ان واجب الوجود هو وجود مطلق عن كل امر ثبوتي ؛ لا يوجد .

فهذه الصفات المطلقات عن جميع القيود ينبغي معرفتها لمن ينظر فى هذه العلوم . فانه بسبب ظن وجودها ضل طوائف فى العقليات والسمعيات ، بل اذا قال العلماء : مطلق ومقيد ، انما يعنون به مطلقاً عن ذلك القيد ، ومقيد بذلك القيد . كما يقولون : الرقبة مطلقة فى آية كفارة اليمين ومقيدة فى اية القتل . أي مطلقة عن قيد الايمان ، والا فقد قيل : (فتحرير رقبة) . فقيدت بأنها رقبة واحدة ، وانها موجودة ، وانها تقبل التحرير . والذين يقولون بالمطلق المحض يقولون هو الذي لا يتصف بوحدة ولا كثرة ، ولا وجود ولا عدم ، ولا غير ذلك ؛ بل هو الحقيقة من حيث هي هي ، كما يذكره الرازي تلقياً له عن ابن سينا وامثاله من المتفلسفة . وقد بسطنا الكلام فى هذا الاطلاق والتقيد ، والكليات والجزئيات فى مواضع غير هذا ، وبينا من غلط هؤلاء فى ذلك ما ليس هذا موضعه .

وانما المقصود هنا « الاطلاق اللفظي » وهو ان يتكلم باللفظ مطلقاً عن كل قيد ، وهذا لا وجود له ، وحينئذ فلا يتكلم احد الا بكلام مؤلف مقيد مرتبط بعضه ببعض ، فتكون تلك قيود ممتنعة الاطلاق . فتبين انه ليس لمن فرق بين الحقيقة والمجاز فرق معقول يمكن به التمييز بين نوعين ؛ فعلم ان هذا التقسيم باطل وحينئذ فكل لفظ موجود فى كتاب الله ورسوله فانه مقيد بما يبين معناه ، فليس فى شيء من ذلك مجاز ، بل كله حقيقة .

ولهذا لما ادعى كثير من المتأخرين ان فى القرآن مجازاً وذكروا ما يشهد

لهم ؛ رد عليهم المنازعون جميع ما ذكروه . فمن اشهر ما ذكروه قوله تعالى : (جداراً يريد ان ينقض) . قالوا : والجدار ليس بحيوان ، والارادة إنما تكون للحيوان ؛ فاستعمالها فى ميل الجدار مجاز . فقيل لهم : لفظ الارادة قد استعمل فى الميل الذي يكون معه شعوروهو ميل الحي، وفى الميل الذي لاشعور فيه ، وهو ميل الجماد ، وهو من مشهور اللغة ؛ يقال هذا السقف يريد ان يقع وهذه الارض تريد ان تحرث ، وهذا الزرع يريد ان يسقى ؛ وهذا الثمر يريد ان يقطف ، وهذا الثوب يريد ان يغسل ، وامثال ذلك .

واللفظ اذا استعمل فى معنيين فصاعداً ؛ فاما ان يجعل حقيقة فى احدهما مجازاً فى الآخر ، او حقيقة فيما يختص به كل منهما ، فيكون مشتركا اشترا كا لفظياً ، او حقيقة فى القدر المشترك بينهما . وهي الاسماء المتواطئة . وهي الاسماء العامة كلها . وعلى الاول يلزم المجاز. وعلى الثانى يلزم الاشتراك ؛ وكلاهماخلاف الاصل ، فوجب ان يجعل من المتواطئة . وبهذا يعرف عموم الاسماء العامة كلها وإلا فلو قال قائل : هو في ميل الجماد حقيقة ، وفي ميل الحيوان مجاز ؛ لم يكن بين الدعويين فرق الا كثرة الاستعمال في ميل الحيوان ؛ لكنْ يستعمل مقيداً بما يبين انه اريد به ميل الحيوان ، وهنا استعمل مقيداً بما يبين انه اريد به ميل الجماد .

والقدر المشترك بين مسميات الأسماء المتواطئة امر كلي عام لا يوجد كلياً عاماً الا في الذهن ، وهو مورد التقسيم بين الأنواع ، لكن ذلك المعنى العام

الـكلي كان اهل اللغة لا يحتاجون الى التعبير عنـه ؛ لأنهم انمـا يحتاجون الى ما يوجد في الخارج ، والى ما يوجد فى القلوب فى العـادة . وما لا يكون فى الخارج الا مضافاً الى غيره ؛ لا يوجد في الذهن مجرداً ، بخلاف لفظ الانسان والفرس ، فانه لمـا كان يوجـد في الخارج غـير مضاف ، تعودت الأذهان تصور مسمى الانسان ، ومسمى الفرس بخلاف تصور مسمى الارادة ومسمى العـلم ومسمى القدرة ومسمى الوجود المطلق العام ؛ فان هذا لا يوجد له فى اللغة لفظ مطلق يدل عليه ، بل لا يوجد لفظ الارادة الا مقيـداً بالمريد ولا لفظ العلم الا مقيداً بالعـالم ، ولا لفظ القدرة الا مقيداً بالقـادر . بل وهكذا سائر الأعراض لمـا لم توجد الا في محالها مقيدة بها ، لم يكن لها فى اللغة لفظ الا كذلك .

فلا يوجد فى اللغة لفظ السواد والبيـاض ، والطول والقصر الا مقيداً بالأسود والابيض والطويل والقصير ونحو ذلك ، لا مجرداً عن كل قيد ؛ وانمـا يوجد مجرداً في كلام المصنفين فى اللغة ؛ لأنهم فهموا من كلام اهـل اللغة ما يريدون به من القدر المشترك ، ومنه قوله تعالى : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) . فان من الناس من يقول : الذوق حقيقة فى الذوق بالفم ، واللباس بما يلبس على البدن ، وانمـا استعير هذا وهذا وليس كذلك ؛ بل قال الخليل : الذوق فى لغة العرب هو وجود طعم الشيء ، والاسـتعمال يدل على ذلك . قال تعالى: (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الاكبر) . وقال : (ذق انك انت العزيز الـكريم) . وقال : (فذاقت وبال أمرها) . وقال : (فذوقوا

العذاب بما كنتم تـكفرون) ــ (فذوقوا عذابي ونذر) ــ (لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى) ــ (لا يذوقون فيهـا برداً ولا شراباً الا حميماً وغساقاً) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ذاق طعم الايمان من رضي بالله رباً ، وبالاسـلام ديناً وبمحمد رسولاً » . وفى بعض الادعية : « أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك » .

فلفظ « الذوق » يستعمل فى كل ما يحس به ويجد ألمه او لذته ، فدعوى المدعي اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم منه ، لكن ذاك مقيد فيقال : ذقت الطعام وذقت هذا الشراب ؛ فيكون معه من القيود ما يدل على انه ذوق بالفم واذا كان الذوق مستعملاً فيما يحسه الانسان بباطنه، اوبظاهره ؛ حتى الماء الحميم يقال : ذاقه فالشراب إذا كان بارداً أوحاراً يقال : ذقت حره وبرده .

واما لفظ « اللباس » : فهو مستعمل فى كل ما يغشى الانسان ويلتبس به ، قال تعالى : (وجعلنا الليل لباساً) . وقال : (ولباس التقوى ذلك خير) . وقال : (هن لباس لـكم وانتم لباس لهن) . ومنه يقال : لبس الحق بالباطل اذا خلطه به حتى غشيه فـلم يتميز . فالجوع الذي يشمل ألمه جميـع الجائع : نفسه وبدنه ، وكذلك الخوف الذي يلبس البدن . فلو قيل : فأذاقها الله الجوع والخوف ؛ لم يدل ذلك على انه شامل لجميـع اجزاء الجائع ، بخلاف ما اذا قيل : لباس الجوع والخوف . ولو قال فألبسهم لم يكن فيـه ما يدل على انهم ذاقوا ما يؤلمهم الا بالعقل من حيث انه يعرف ان الجائع الخائف يألم . بخلاف لفظ ذوق الجوع والخوف ؛ فان هذا اللفظ يدل على الاحساس بالمؤلم ، واذا اضيف الى الملذ : دل

على الاحساس به ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « ذاق طعم الايمان من رضي بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً » .

فان قيـل : فلم لم يصف نعيم الجنة بالذوق ؟ قيل : لان الذوق يدل على جنس الاحساس ويقال : ذاق الطعام لمن وجد طعمه وان لم يأكله . واهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيه على الذوق ؛ بل اسـتعمل لفظ الذوق فى النفي كما قال عن اهل النار : (لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً) ؛ اي لا يحصل لهم من ذلك ولا ذوق . وقال عن اهل الجنة : (لا يذوقون فيهـا الموت الا الموتة الاولى) .

وكذلك ما ادعوا انه مجاز فى القرآن كلفظ « المكر » و « الاسـتهزاء » و « السخرية » المضـاف الى الله ، وزعموا انه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز ، وليس كذلك بل مسميات هذه الاسماء اذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلماً له ، وأما اذا فعلت بمن فعلها بالمجنى عليه عقوبة له بمثل فعله كانت عدلاً ؛ كما قال تعالى : (كذلك كدنا ليوسف) . فـكاد له كما كادت اخوته لما قال له ابوه : (لا تقصص رؤياك على اخوتك فيـكيدوا لك كيداً) . وقال تعالى : (انهم يكيدون كيـداً وا كيد كيداً) . وقال تعالى : (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) . وقال تعالى : (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم) . ولهذا كان الاستهزاء بهم فعلاً يستحق هذا الاسم ، كما

روي عن ابن عباس : انه يفتح لهم باب من الجنة وهم فى النار فيسرعون اليه فيغلق ، ثم يفتح لهم باب آخر فيسرعون اليه فيغلق ، فيضحك منهم المؤمنون . قال تعالى : (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) .

وعن الحسن البصري : إذا كان يوم القيامة ؛ خمدت النار لهم كما تخمد الاهالة من القدر ، فيمشون فيخسف بهم . وعن مقاتل : اذا ضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، فيبقون فى الظلمة فيقال لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً . وقال بعضهم : استهزاؤه : استدراجه لهم . وقيل : ايقاع استهزائهم ورد خداعهم ومكرهم عليهم . وقيل : إنه يظهر لهم فى الدنيا خلاف ما ابطن فى الآخرة . وقيل هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه ؛ وهذا كله حق وهو استهزاء بهم حقيقة .

ومن الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز فى القرآن : (واسأل القرية) .قالوا المراد به اهلها ، فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه ، فقيل لهم : لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب ؛ وامثال هذه الامور التى فيها الحال والمحال كلاهما داخل فى الاسم . ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان ، وتارة على المحل وهو المكان وكذلك في النهر يقال : حفرت النهر ، وهو المحل . وجرى النهر ، وهو الماء ووضعت الميزاب ، وهو المحل ، وجرى الميزاب ، وهو الماء ، وكذلك القرية قال تعالى : (ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة) . وقوله : (وكم من قرية

اهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً او هم قائلون ، فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا الا ان قالوا إنا كنا ظالمين) . وقال فى آية اخرى : (افأمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون) . فجعل القرى هم السكان . وقال: (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التى اخرجتك اهلكناهم فلا ناصر لهم) . وهم السكان . وكذلك قوله تعالى : (وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً) . وقال تعالى : (او كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها) . فهذا المكان لا السكان ، لكن لابد ان يلحظ انه كان مسكوناً ؛ فلا يسمى قرية إلا إذا كان قد عمر للسكنى، مأخوذ من القرى وهو الجمع، ومنه قولهم :قريت الماء فى الحوض إذا جمعته فيه .

ونظير ذلك لفظ «الانسان » يتناول الجسد والروح ، ثم الاحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما ؛ فكذلك القرية إذا عذب اهلها خربت ، واذا خربت كان عذاباً لأهلها ؛ فما يصيب احدها من الشر ، ينال الآخر ؛ كما ينال البدن والروح ما يصيب احدهما . فقوله : (واسأل القرية) . مثل قوله (قرية كانت آمنة مطمئنة) . فاللفظ هنا يراد به السكان من غير إضمار ولا حذف ، فهذا بتقدير ان يكون فى اللغة مجاز ، فلا مجاز فى القرآن . بل وتقسيم اللغة الى حقيقه ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف . والخلف فيه على قولين وليس النزاع فيه لفظياً ؛ بل يقال : نفس هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا ، ولهذا كان كل ما يذكرونه من الفروق تبين انها فروق باطلة ، وكلما ذكر بعضهم فرقاً ابطله الثاني ، كما يدعى المنطقيون ان الصفات القائمة بالموصوفات

تنقسم اللازمة لها الى داخل فى ما هيتها الثابتة فى الخارج ، والى خارج عنها لازم للماهية ، ولازم خارج للوجود. وذكروا ثلاثة فروق كلها باطلة لأن هذا التقسيم باطل لا حقيقة له ، بل ما يجعلونه داخلاً يمكن جعله خارجا ، وبالعكس كما قد بسط فى موضعه .

وقولهم : اللفظ إن دل بلا قرينة فهو حقيقة ، وان لم يدل الا معها فهو مجاز ؛ قد تبين بطلانه ، وانه ليس فى الالفاظ الدالة ما يدل مجرداً عن جميع القرائن ، ولا فيها ما يحتاج إلى جميع القرائن. واشهر امثلة المجاز لفظ «الاسد» و « الحمار » و « البحر » ونحو ذلك مما يقولون : انه استعير للشجاع والبليد والجواد . وهذه لا تستعمل الا مؤلفة مركبة مقيدة بقيود لفظية ، كما تستعمل الحقيقة ، كقول ابي بكر الصديق عن ابى قتادة لما طلب غيره سلب القتيل : لاها الله اذاً يعمد الى اسد من اسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه . فقوله : يعمد الى اسد من اسد الله يقاتل عن الله ورسوله ؛ وصف له بالقوة للجهاد فى سبيله ، وقد عينه تعييناً ازال اللبس . وكذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « ان خالداً سيف من سيوف الله سله الله على المشركين » وامثال ذلك .

وان قال القائل : القرائن اللفظية موضوعة ، ودلالتها على المعنى حقيقة ، لكن القرائن الحالية مجاز ؛ قيل : اللفظ لا يستعمل قط الا مقيداً بقيود لفظية موضوعة ؛ والحال حال المتكلم والمستمع ، لابد من اعتباره فى جميع الكلام

فانه اذا عرف المتكلم ، فهم من معنى كلامه ما لا يفهم اذا لم يعرف ، لأنه بذلك يعرف عادته فى خطابه ، واللفظ انما يدل اذا عرف لغة المتكلم التى بها يتكلم وهي عادته وعرفه التى يعتادها فى خطابه ، ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية ارادية اختيارية ، فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى ؛ فاذا اعتاد ان يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته ، ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها : عرف عادته في خطابه ، وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره .

ولهذا ينبغي ان يقصد اذا ذكر لفظ من القرآن والحديث ، ان يذكر نظائر ذلك اللفظ ؛ ماذا عنى بها الله ورسوله ، فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث وسنة الله ورسوله التى يخاطب بها عباده ، وهي العادة المعروفة من كلامه ، ثم اذا كان لذلك نظائر في كلام غيره ، وكانت النظائر كثيرة ؛ عرف ان تلك العادة واللغة مشتركة عامة ، لا يختص بها هو — صلى الله عليه وسلم — بل هي لغة قومه ، ولا يجوز ان يحمل كلامه على عادات حدثت بعده فى الخطاب لم تكن معروفة فى خطابه وخطاب اصحابه . كما يفعله كثير من الناس ، وقد لا يعرفون انتفاء ذلك فى زمانه . ولهذا كان استعمال القياس فى اللغة ، وان جاز فى الأستعمال فانه لا يجوز فى الاستدلال ، فانه قد يجوز للانسان ان يستعمل هو اللفظ فى نظير المعنى الذي استعملوه فيه مع بيان ذلك على ما فيه من النزاع ؛ لكن لا يجوز ان يعمد الى ألفاظ قد عرف استعمالها فى معان فيحملها على غير تلك المعانى ، ويقول : انهم أرادوا تلك بالقياس على تلك ؛ بل هذا تبديل وتحريف

فاذا قال: « الجار أحق بسقبه » فالجار هو الجار ليس هو الشريك ؛ فان هذا لا يعرف فى لغتهم ؛ لكن ليس فى اللفظ ما يقتضي انه يستحق الشفعة ؛ لكن يدل على ان البيع له أولى .

واما «الخمر» فقد ثبت بالنصوص الكثيرة والنقول الصحيحة انها كانت أسماً لكل مسكر ، لم يسم النبيذ خمراً بالقياس . وكذلك «النباش» كانوا يسمونه سارقا ، كما قالت عائشة : سارق موتانا كسارق احيانا . واللائط عندهم كان أغلظ من الزانى بالمرأة .

ولا بد فى تفسير القرآن والحديث من ان يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ ، وكيف يفهم كلامه ، فمعرفة العربية التى خوطبنا بها مما يعين على ان نفقه مراد الله ورسوله بكلامه ، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني ؛ فان عامة ضلال اهل البدع كان بهذا السبب ؛ فانهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون انه دال عليه ، ولا يكون الامر كذلك ، ويجعلون هذه الدلالة حقيقة ، وهذه مجازاً ، كما أخطأ المرجئة فى اسم «الايمان» جعلوا لفظ «الايمان» حقيقة فى مجرد التصديق ، وتناوله للأعمال مجازاً .

فيقال : ان لم يصح التقسيم إلى حقيقة ومجاز ، فلا حاجة الى هذا ، وان صح ، فهذا لا ينفعكم . بل هو عليكم لا لكم ؛ لأن الحقيقة هي اللفظ الذي يدل باطلاقه بلا قرينة ، والمجاز إنما يدل بقرينة . وقد تبين ان لفظ الايمان حيث اطلق فى الكتاب والسنة ، دخلت فيه الأعمال ، وانما يدعي خروجها منه

عند التقييد ؛ وهذا يدل على ان الحقيقة قوله . «الايمـان بضع وسبعون شعبة».

واما حديث جبريل ، فان كان اراد بالايمـان ما ذكر مع الاسـلام . فهو كذلك . وهذا هو المعنى الذي اراد النبي صلى الله عليه وسلم قطعاً . كما انه لمـا ذكر الاحسان اراد الاحسان مع الايمـان والاسلام ؛ لم يرد ان الاحسان مجرد عن ايمان واسلام .

ولو قدر انه اريد بلفظ « الايمان » مجرد التصـديق ؛ فلم يقع ذلك الا مع قرينة ، فيلزم ان يكون مجازاً ، وهذا معلوم بالضرورة لا يمكننا المنازعة فيه بعد تدبر القرآن والحديث ، بخلاف كون لفظ «الايمـان» فى اللغة مرادفاً للتصديق ، ودعوى ان الشارع لم يغيره ولم ينقله ؛ بل اراد به ما كان يريده اهل اللغـة بلا تخصيص ولا تقييد ؛ فان هاتين المقدمتين لا يمكن الجزم بواحـدة منهما ، فلا يعارض اليقين ، كيف وقد عرف فساد كل واحدة من المقـدمتين ، وانهـا من افسد الـكلام .

و« ايضاً » فليس لفظ الايمان فى دلالته على الأعمـال المأمور بها بدون لفظ الصلاة والصيام والزكاة والحج ؛ فى دلالته على الصلاة الشرعية ، والصـيام الشرعي ؛ والحج الشرعي ؛ سواء قيل : ان الشارع نقله ؛ او اراد الحـكم دون الاسم ؛ او اراد الاسم وتصرف فيـه تصرف اهل العرف ؛ او خاطب بالاسم مقيداً لا مطلقاً .

فان قيل : الصلاة والحج ونحوهما لو ترك بعضها بطلت ، بخلاف الايمان ،

فانه لا يبطل عند الصحابة واهل السنة والجماعة بمجرد الذنب ؛ قيل : ان اريد بالبطلان انه لا تبرأ الذمة منها كلها ؛ فكذلك الايمان الواجب اذا ترك منه شيئاً لم تبرأ الذمة منه كله . وان اريد به وجوب الاعادة فهذا ليس على الاطلاق. فان فى الحج واجبات اذا تركها لم يعد ، بل تجبر بدم ، وكذلك فى الصلاة عند اكثر العلماء اذا تركها سهواً او مطلقاً وجبت الاعادة ، فانما تجب اذا امكنت الاعادة ، والا فما تعذرت اعادته يبقى مطالباً به كالجمعة ونحوها .

وان أريد بذلك انه لا يثاب على ما فعله ، فليس كذلك ، بل قد بين النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث المسيء فى صلاته انه اذا لم يتمها يثاب على ما فعل ، ولا يكون بمنزلة من لم يصل . وفى عدة أحاديث ان الفرائض تكمل يوم القيامة من النوافل ؛ فاذا كانت الفرائض مجبورة بثواب النوافل دل على انه يعتدله بما فعل منها ؛ فكذلك الايمان إذا ترك منه شيئاً كان عليه فعله ؛ إن كان محرماً تاب منه ، وان كان واجباً فعله ؛ فاذا لم يفعله لم تبرأ ذمته منه ، وأثيب على مافعله كسائر العبادات ، وقد دلت النصوص على انه يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من الايمان .

وقد عدلت « المرجئة » فى هذا الأصل عن بيان الكتاب والسنة واقوال الصحابة والتابعين لهم باحسان ، واعتمدوا على رأيهم ، وعلى ما تأولوه بفهمهم اللغة ، وهذه طريقة اهل البدع ؛ ولهذا كان الامام احمد يقول : اكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس .

ولهذا تجد المعتزلة والمرجئة والرافضة وغـيرهم من اهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم، وما تأولوه من اللغة ؛ ولهـذا تجدهم لا يعتمدون على احاديث النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ؛ فلايعتمدون لا على السنة، ولا على اجماع السلف وآثارهم ؛ وانما يعتمدون على العقل واللغة، وتجدهم لا يعتمـدون على كتب التفسير المأثورة والحـديث ؛ وآثار السلف وانمـا يعتمدون على كتب الأدب وكتب الـكلام التي وضعتها رؤوسهم، وهذه طريقة الملاحدة ايضاً ؛ إنما ياخذون ما فى كتب الفلسفة ، وكتب الأدب واللغة، واما كتب القرآن والحديث والآثار ؛ فلا يلتقون اليها . هؤلاء يعرضون عن نصوص الانبياء إذ هي عندهم لا تفيد العـلم ، واولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه ، وقد ذكرنا كلام احمد وغيره فى إنـكار هذا وجعله طريقة اهل البدع .

واذا تدبرت حججهم وجدت دعاوى لا يقوم عليها دليل . والقاضي ابو بكر الباقلاني نصر قول جهم فى « مسألة الايمان » متابعـة لأبي الحسن الأشعري ، وكذلك اكثر اصحابه . فأما ابو العباس القلانسي، وابو علي الثقفي، وابو عبد الله ابن مجاهـد ـــ شيخ القاضى ابي بكر وصاحب ابي الحسن ـــ فانهم نصروا مذهب السلف . وابن كلاب ـــ نفسه ـــ والحسين بن الفضل البجلى ونحوهما كانوا يقولون : هو التصديق والقول جميعاً موافقة لمن قاله من فقهاء الـكوفيين، كحماد بن ابي سليمان، ومن اتبعه مثل ابى حنيفة وغيره .

فصـــــل

وأبو الحسن الأشعري نصر قول جهم فى « الايمان » مع انه نصر المشهور عن اهل السنة من انه يستثنى فى الايمان ، فيقول : انا مؤمن ان شاء الله ؛ لأنه نصر مذهب اهل السنة فى انه لا يكفر احد من اهل القبـلة ولا يخلدون فى النار ، وتقبل فيهم الشفاعة ونحو ذلك . وهو دئماً ينصر – فى المسائل التي فيها النزاع بين اهل الحديث وغيرهم – قول اهل الحديث ، لـكنه لم يكن خبيراً بمآخذهم ، فينصره على ما يراه هو من الاصول التي تلقاها عن غيرهم ؛ فيقع فى ذلك من التناقض ما ينـكره هؤلاء وهؤلاء ، كما فعل فى مسألة الايمان ، ونصر فيها قول جهم مع نصره للاستثناء ؛ ولهذا خالفه كثير من اصحابه فى الاستثناء كما سنذكر مأخذه في ذلك ، واتبعه اكثر اصحابه على نصر قول جهم فى ذلك . ومن لم يقف الا على كتب الـكلام ، ولم يعرف ما قاله السلف وأئمـة السنة فى هذا الباب ؛ فيظن ان ما ذكروه هو قول اهل السنة ؛ وهو قول لم يقله احد من ائمة السنة ، بل قد كفر احمد بن حنبل ووكيع وغيرهما من قال بقول جهم فى الايمان الذي نصره ابو الحسن . وهو عندهم شر من قول المرجئة ؛ ولهذا صار من يعظم الشافعي من الزيدية والمعتزلة ونحوهم ، يطعن فى كثير ممن ينتسب اليه

يقولون : الشافعي لم يكن فيلسوفاً ولا مرجئاً ، وهؤلاء فلاسفة اشعرية مرجئة ، وغرضهم ذم الارجاء ، ونحن نذكر عمدتهم لكونه مشهوراً عند كثير من المتأخرين المنتسبين الى السنة .

قال القاضى ابو بكر فى « التمهيد » : فان قالوا : فخبرونا ما الايمان عندكم ؟ قيل : الايمان هو التصديق بالله وهو العلم ، والصديق يوجد بالقلب ، فان قال : فما الدليل على ما قلتم ؟ قيل : اجماع اهل اللغة قاطبة على ان الايمان قبل نزول القرآن وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم هو التصديق ، لا يعرفون فى اللغة ايماناً غير ذلك ويدل على ذلك قوله تعالى : (وما انت بمؤمن لنا) أي بمصدق لنا . ومنه قولهم : فلان يؤمن بالشفاعة ، وفلان لايؤمن بعذاب القبر ، اي : لايصدق بذلك . فوجب ان الايمان فى الشريعة هو الايمان المعروف فى اللغة ؛ لأن الله ما غير اللسان العربي ولا قلبه ، ولو فعل ذلك لتواترت الأخبار بفعله ، وتوفرت دواعى الأمة على نقله ، ولغلب إظهاره على كتمانه ، وفى علمنا بأنه لم يفعل ذلك بل اقرار اسماء الاشياء والتخاطب بأسره على ما كان ، دليل على ان الايمان فى الشريعة هو الايمان اللغوي ، ومما يبين ذلك قوله تعالى : (وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه) وقوله : (إنا جعلناه قرآنا عربياً) . فأخبر انه انزل القرآن بلغة العرب ، وسمي الاسماء بمسمياتهم ، ولاوجه للعدول بهذه الآيات عن ظواهرها بغير حجة لا سيما مع القول بالعموم ، وحصول التوقيف على ان القرآن نزل بلغتهم ؛ فدل على ما قلناه من ان الايمان ما وصفناه دون ما سواه من سائر الطاعات من النوافل والمفروضات ، هذا لفظه .

وهذا عمدة من نصر قول الجهمية فى « مسألة الايمـان » وللجمهور من اهل السنة وغيرهم عن هذا اجوبة .

(احدها) : قول من ينازعه فى ان الايمان فى اللغـة مرادف للتصديق ، ويقول هو بمعنى الاقرار وغيره .

و (الثاني) : قول من يقول : وان كان فى اللغة هو التصديق ؛ فالتصديق يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، كما قال النبي صلى الله عليه وسـلم : « والفرج يصدق ذلك او يكذبه » .

و (الثالث) : ان يقال : ليس هو مطلق التصديق ، بل هو تصديق خاص مقيد بقيود اتصل اللفظ بهـا ، وليس هذا نقلاً للفظ ولا تغييراً له ، فان الله لم يأمرنا بايمان مطلق ، بل بايمان خاص وصفه وبينه .

و (الرابع) : ان يقال : وان كان هو التصديق ؛ فالتصـديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من اعمال القلب والجوارح ، فان هذه لوازم الأيمان التام ، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم ، ونقول : ان هذه اللوازم تدخل فى مسمى اللفظ تارة وتخرج عنه اخرى .

(الخامس) : قول من يقول : ان اللفظ باق على معناه في اللغة ، ولـكن الشارع زاد فيه احكاماً .

(السادس) : قول من يقول : ان الشـارع استعمله في معناه المجازي ؛ فهو حقيقة شرعية ، مجاز لغوي .

(السابع) : قول من يقول : إنه منقول ·

فهذه سبعة اقوال : (الأول) : قول من ينازع فى ان معناه فى اللغة التصديق ويقول : ليس هو التصديق ؛ بل بمعنى الاقرار وغيره .

« قوله » : اجماع اهل اللغة قاطبة على ان الايمان قبل نزول القرآن هو التصديق . فيقال له : من نقل هذا الاجماع ؟ ومن اين يعلم هذا الاجماع ؟ وفي أي كتاب ذكر هذا الاجماع ؟ .

(الثاني) ان يقال : اتعني بأهل اللغة نقلتها ، كأبى عمرو ، والاصمعي ، والخليل ، ونحوهم ؛ او المتكلمين بها ؟ فان عنيت الأول ؛ فهؤلاء لا ينقلون كل ما كان قبل الاسلام باسناد ، وانما ينقلون ما سمعوه من العرب فى زمانهم ، وما سمعوه فى دواوين الشعر وكلام العرب وغير ذلك بالاسناد ، ولا نعلم فيما نقلوه لفظ الايمان فضلاً عن ان يكونوا أجمعوا عليه . وان عنيت المتكلمين بهذا اللفظ قبل الاسلام ؛ فهؤلاء لم نشهدهم ، ولا نقل لنا احد عنهم ذلك ،

(الثالث) : انه لا يعرف عن هؤلاء جميعهم انهم قالوا : الايمان فى اللغة هو التصديق ؛ بل ولا عن بعضهم ، وان قدر انه قاله واحد او اثنان ؛ فليس هذا اجماعا .

(الرابع) : ان يقال : هؤلاء لا ينقلون عن العرب انهم قالوا : معنى هذا اللفظ كذا وكذا ؛ وانما ينقلون الكلام المسموع من العرب ، وانه يفهم منه كذا وكذا ،وحينئذ فلو قدر انهم نقلوا كلاماً عن العرب يفهم منه ان الايمان هو

التصديق ؛ لم يكن ذلك أبلغ من نقــل المسلمين كافة للقرآن عن النبى صلى الله عليه وسلم . وإذا كان مع ذلك قد يظن بعضهم انه اريد به معنى ولم يرده ؛ فظن هؤلاء ذلك فيما ينقلونه عن العرب اولى .

(الخامس) : انه لو قدر انهم قالوا هذا ؛ فهم آحاد لا يثبت بنقلهم التواتر و « التواتر » من شرطه استواء الطرفين والواسطة ، واين التواتر الموجود عن العرب قاطبة قبل نزول القــرآن ؟ انهم كانوا لا يعرفون للايمـان معنى غير التصديق .

فان قيل : هذا يقدح فى العلم باللغة قبل نزول القرآن ؛ قيل : فليـكن. ونحن لا حاجة بنا مع بيان الرسول لمـا بعثه الله به من القرآن ان نعرف اللغة قبــل نزول القرآن ، والقرآن نزل بلغة قريش ، والذين خوطبوا به كانوا عرباً ، وقد فهموا ما اريد به وهم الصحابة، ثم الصحابة بلغوا لفظ القرآن ومعناه الى التابعين حتى انتهى الينا ، فلم يبق بنا حاجة الى ان تتواتر عندنا تلك اللغة من غير طريق تواتر القرآن لـكن لمـا تواتر القرآن لفظاً ومعنى ، وعرفنا انه نزل بلغتهم ؛ عرفنا انه كان فى لغتهم لفظ السماء والأرض ، والليل والنهــار ، والشمس والقمر ، ونحو ذلك على ما هو معناها فى القرآن . وإلا فلو كلفنا نقلاً متواتراً لآحاد هذه الألفاظ من غير القرآن ؛ لتعذر علينا ذلك فى جميع الألفاظ ، لا سيما إذا كان المطلوب ان جميع العرب كانت تريد باللفظ هذا المعنى ، فان هذا يتعذر العلم به والعــلم بمعاني القرآن ليس موقوفاً على شيء من ذلك ؛ بل الصحابة بلغوا معاني

القرآن ، كما بلغوا لفظه . ولو قدرنا ان قوماً سمعوا كلاماً اعجمياً ، وترجموه لنا بلغتهم ؛ لم نحتج الى معرفة اللغة التى خوطبوا بها اولاً .

(السادس) . انه لم يذكر شاهداً من كلام العــرب على ما ادعاه عليهم ؛ وإنمــا استدل من غير القرآن بقول الناس : فلان يؤمن بالشفاعة ، وفلان يؤمن بالجنة والنار ، وفلان يؤمن بعذاب القبر ، وفلان لا يؤمن بذلك ؛ ومعــلوم ان هذا ليس من الفاظ العرب قبل نزول القرآن ؛ بل هو مما تــكلم الناس به بعــد عصر الصحابة ، لمــا صار من الناس اهل البدع يكذبون بالشفاعة وعذاب القبر ومرادهم بذلك هو مرادهم بقوله : فلان يؤمن بالجنـــة والنار ، وفلان لا يؤمن بذلك . والقائل لذلك وان كان تصديق القلب داخلاً فى مراده ؛ فليس مراده ذلك وحــده ؛ بل مراده التصديق بالقلب واللسان ، فان مجرد تصديق القلب بدون اللسان لا يعلم حتى يخبر به عنه .

(السابع) : ان يقال : من قال ذلك ؛ فليس مراده التصديق بمــا يرجى ويخاف بدون خوف ولا رجاء ؛ بل يصدق بعذاب القــبر ويخافه ، ويصدق بالشفاعة ويرجوها . وإلا فلو صدق بأنه يعذب فى قبره ، ولم يكن فى قلبه خوف من ذلك اصلاً ، لم يسموه مؤمناً به ، كما انهم لا يسمون مؤمناً بالجنة والنار إلا من رجا الجنة وخاف النار ، دون المعرض عن ذلك بالــكلية مع علمه بأنه حق . كما لا يسمون إبليس مؤمناً بالله ، وان كان مصــدقا بوجوده وربوبيته ، ولا يسمون فرعون مؤمناً ، وان كان عالماً بأن الله بعث موسى ، وانه هو الذي انزل

الآيات ، وقد استيقنت بها انفسهم مع جحدهم لها بألسنتهم . ولا يسمون اليهود مؤمنين بالقرآن والرسول ، وان كانوا يعرفون أنه حق ، كما يعرفون ابناءهم . فلا يوجد قط فى كلام العرب ان من علم وجود شيء مما يخاف ويرجى ، ويجب حبه وتعظيمه ؛ وهو مع ذلك لا يحبه ولا يعظمه ، ولا يخافه ولا يرجوه . بل يجحد به ويكذب به بلسانه ، انهم يقولون : هو مؤمن ، بل ولو عرفه بقلبه وكذب به بلسانه ، لم يقولوا : هو مصدق به . ولو صدق به مع العمل بخلاف مقتضاه ، لم يقولوا هو مؤمن به . فلا يوجد فى كلام العرب شاهد واحد يدل على ما ادعوه .

وقوله : (وما أنت بمؤمن لنا) قد تكلمنا عليها فى غير هذا الموضع فان هذا استدلال بالقرآن ، وليس فى الآية ما يدل على ان المصدق مرادف للمؤمن ، فان صحة هذا المعنى بأحد اللفظين لا يدل على انه مرادف للآخر ، كما بسطناه في موضعه .

(الوجه الثامن) : قوله : لا يعرفون في اللغة إيماناً غير ذلك . من أين له هذا النفي الذي لا تمكن الاحاطة به ؟ بل هو قول بلا علم .

(التاسع) : قول من يقول : اصل الايمان مأخوذ من الأمن ، كما ستأتى أقوالهم ان شاء الله . وقد نقلوا في اللغة الايمان بغير هذا المعنى . كما قاله الشيخ ابو البيان في قول[1] .

(١) بياض بالأصل .

(الوجه العاشر) : انه لو فرض ان الايمان فى اللغة التصديق ؛ فمعلوم ان الايمان ليس هو التصديق بكل شيء ، بل بشيء مخصوص ، وهو ما اخبر به الرسول ، صلى الله عليه وسلم ؛ وحينئذ فيكون الايمان فى كلام الشارع اخص من الايمان فى اللغة . ومعلوم ان الخاص ينضم إليه قيود لا توجد فى جميع العام كالحيوان إذا اخذ بعض انواعه وهو الانسان كان فيه المعنى العام ومعنى اختص به ، وذلك المجموع ليس هو المعنى العام . فالتصديق الذي هو الايمان ؛ أدنى أحواله ان يكون نوعاً من التصديق العام ، فلا يكون مطابقاً له فى العموم والخصوص من غير تغيير اللسان ولا قلبه ؛ بل يكون الايمان فى كلام الشارع مؤلفاً من العام والخاص كالانسان الموصوف بأنه حيوان وانه ناطق .

(الوجه الحادي عشر) : ان القرآن ليس فيه ذكر ايمان مطلق غير مفسر ؛ بل لفظ الايمان فيه إما مقيد ، واما مطلق مفسر . «فالمقيد» كقوله ، (يؤمنون بالغيب) وقوله : (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) و« المطلق المفسر » كقوله تعالى : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الآية . وقوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله ، اولئك هم الصادقون) ونحو ذلك . وقوله : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً) . وامثال هذه الآيات . وكل ايمان مطلق فى القرآن فقد يبين فيه انه لا يكون الرجل مؤمنا الا بالعمل مع التصديق ؛ فقد بين في

القرآن ان الايمان لا بد فيه من عمل مع التصديق ، كما ذكر مثل ذلك فى اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج .

فان قيل : تلك الأسماء باقية ، ولكن ضم الى المسمي اعمالا فى الحكم لا فى الاسم ، كما يقوله القاضي ابو يعلى وغيره . قيل : ان كان هذا صحيحاً قيل مثله فى الايمان . وقد اورد هذا السؤال لبعضهم ، ثم لم يجب عنه بجواب صحيح ، بل زعم ان القرآن لم يذكر فيه ذلك . وليس كذلك ، بل القرآن والسنة مملوءان بما يدل على ان الرجل لا يثبت له حكم الايمان الا بالعمل مع التصديق. وهذا فى القرآن اكثر بكثير من معنى الصلاة والزكاة ؛ فان تلك انما فسرتها السنة، «والايمان» بين معناه الكتاب والسنة ، واجماع السلف .

(الثاني عشر) : انه اذا قيل : ان الشارع خاطب الناس بلغة العرب ؛ فانما خاطبهم بلغتهم المعروفة ، وقد جرى عرفهم ان الاسم يكون مطلقاً وعاماً ، ثم يدخل فيه قيد اخص من معناه ، كما يقولون : ذهب الى القاضي والوالي والأمير، يريدون شخصاً معيناً يعرفونه دلت عليه اللام مع معرفتهم به . وهذا الاسم فى اللغة اسم جنس لا يدل على خصوص شخص ، وامثال ذلك . فكذلك الايمان والصلاة والزكاة ، انما خاطبهم بهذه الأسماء بلام التعريف ، وقد عرفهم قبل ذلك ان المراد الايمان الذي صفته كذا وكذا . والدعاء الذي صفته كذا وكذا . فبتقدير ان يكون فى لغتهم التصديق . فانه قد يبين اني لا اكتفي بتصديق القلب واللسان ، فضلاً عن تصديق القلب وحده ، بل لا بد ان يعمل بموجب ذلك التصديق ، كما فى قوله تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم

لم يرتابوا) (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) وفى قوله صلى الله عليه وسلم « لا تؤمنون حتى تكونوا كذا » . وفي قوله تعالى : (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) . وفي قوله : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء). ومثل هذا كثير فى الكتاب والسنة ، كقوله عليه السلام : « لا يزنى الزاني حين يزني وهو مؤمن » . وقوله : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » . وأمثال ذلك .

فقد بين لهم ان التصديق الذي لا يكون الرجل مؤمناً الا به ، هو ان يكون تصديقاً على هذا الوجه . وهذا بين فى القرآن والسنة من غير تغيير للغة ولا نقل لها .

(الثالث عشر) : ان يقال : بل نقل وغير . قوله : لوفعل لتواتر . قيل : نعم . وقد تواتر انه اراد بالصلاة والزكاة والصيام والحج معانيها المعروفة . وأراد بالايمان ما بينه بكتابه وسنة رسوله من ان العبد لا يكون مؤمنا الا به ، كقوله: (انما المؤمنون) وهذا متواتر فى «القرآن والسنن» ومتواتر أيضا انه لم يكن يحكم لأحد بحكم الايمان الا ان يؤدي الفرائض . ومتواتر عنه انه اخبر انه: من مات مؤمناً دخل الجنة ولم يعذب ، وان الفساق لا يستحقون ذلك ؛ بل هم معرضون للعذاب . فقد تواتر عنه من معانى اسم الايمان واحكامه مالم يتواتر عنه فى غيره ، فأي تواتر أبلغ من هذا ؟! وقد توفرت الدواعى على نقل ذلك واظهاره ، ولله الحمد . ولا يقدر احد ان ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً يناقض هذا . لكن اخبر انه يخرج منها من كان معه شيء من الايمان . ولم يقل :

ان المؤمن يدخلها ، ولا قال ان الفساق مؤمنون . لكن أدخلهم فى مسمى الايمان فى مواضع ، كما ادخل المنافقين فى اسم الايمان فى مواضع مع القيود . واما الاسم المطلق الذي وعد اهله بالجنة ؛ فلم يدخل فيه لا هؤلاء ولا هؤلاء .

(الوجه الرابع عشر) : قوله : ولا وجه للعدول – بالآيات التى تدل على انه عربى – عن ظاهرها ؛ فيقال له : الآيات التى فسرت المؤمن ، وسلبت الايمان عمن لم يعمل ؛ اصرح وابين واكثر من هذه الآيات . ثم إذا دلت على انه عربى ؛ فما ذكر لا يخرجه عن كونه عربياً . ولهذ لما خاطبهم بلفظ الصلاة والحج وغير ذلك ؛ لم يقولوا : هذا ليس بعربى . بل خاطبهم باسم المنافقين ، وقد ذكر اهل اللغة ان هذا الاسم لم يكن يعرف فى الجاهلية ، ولم يقولوا : انه ليس بعربى ؛ لأن المنافق مشتق من نفق اذا خرج ؛ فاذا كان اللفظ مشتقاً من لغتهم وقد تصرف فيه المتكلم به كما جرت عادتهم فى لغتهم ؛ لم يخرج ذلك عن كونه عربياً .

(الوجه الخامس عشر) : انه لو فرض ان هذه الألفاظ ليست عربية ، فليس تخصيص عموم هذه الألفاظ بأعظم من إخراج لفظ الايمان عما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف ، فان النصوص التى تنفي الايمان عمن لا يحب الله ورسوله ، ولا يخاف الله ولا يتقيه ولا يعمل شيئاً من الواجب ، ولا يترك شيئاً من المحرم ؛ كثيرة صريحة . فاذا قدر أنها عارضها آية ؛ كان تخصيص اللفظ القليل العام اولى من رد النصوص الكثيرة الصريحة .

(السادس عشر) : ان هؤلاء واقفة فى الفاظ العموم لا يقولون بعمومها والسلف يقولون : الرسول وقفنا على معانى الايمان وبينه لنا . وعلمنا مراده منه بالاضطرار ، وعلمنا من مراده علماً ضرورياً ان من قيل : انه صدق ، ولم يتكلم بلسانه بالايمان مع قدرته على ذلك ، ولا صلى ولا صام ، ولا احب الله ورسوله ولا خاف الله ؛ بل كان مبغضاً للرسول ، معادياً له يقاتله ؛ ان هذا ليس بمؤمن . كما قد علمنا ان الكفار من المشركين واهل الكتاب الذين كانوا يعلمون انه رسول الله وفعلوا ذلك معه ؛ كانوا عنده كفاراً لا مؤمنين ، فهذا معلوم عندنا بالاضطرار اكثر من علمنا بأن القرآن كله ليس فيه لفظ غير عربي . فلو قدر التعارض ؛ لكان تقديم ذلك العلم الضروري اولى .

فان قالوا : من علم ان الرسول كفره ؛ علم انتفاء التصديق من قلبه .

قيل لهم : هذه مكابرة ، ان ارادوا انهم كانوا شاكين مرتابين . وأما إن عنى التصديق الذي لم يحصل معه عمل ؛ فهو ناقص كالمعدوم : فهذا صحيح . ثم انما يثبت ، اذا ثبت ان الايمان مجرد تصديق القلب وعلمه ، وذلك انما يثبت بعد تسليم هذه المقدمات التى منها هذا ، فلا تثبت الدعوى بالدعوى مع كفر صاحبها . ثم يقال : قد علمنا بالاضطرار ان اليهود وغيرهم كانوا يعرفون ان محمداً رسول الله ؛ وكان يحكم بكفرهم . فقد علمنا من دينه ضرورة انه يكفر الشخص مع ثبوت التصديق بنبوته فى القلب ، اذا لم يعمل بهذا التصديق ، بحيث يحبه ويعظمه ، ويسلم لما جاء به .

ومما يعارضون به ان يقال : هذا الذي ذكرتموه ، ان كان صحيحاً ؛ فهو أدل على قول المرجئة ، بل على قول الكرامية منه على قولكم ، وذلك ان الايمان إذا كان هو التصديق كما ذكرتم ، فالتصديق نوع من انواع الكلام ، فاستعمال لفظ الكلام والقول ونحو ذلك فى المعنى واللفظ ، بل فى اللفظ الدال على المعنى اكثر فى اللغة من استعماله فى المعنى المجرد عن اللفظ ، بل لا يوجد قط إطلاق اسم الكلام ولا انواعه : كالخبر او التصديق والتكذيب والأمر والنهي على مجرد المعنى من غير شيء يقترن به من عبارة ولا إشارة ولا غيرها ؛ وإنما يستعمل مقيداً .

واذا كان الله انما أنزل القرآن بلغة العرب ؛ فهي لا تعرف التصديق والتكذيب وغيرها من الأقوال إلا ما كان معنى ولفظاً ، او لفظاً يدل على معنى ؛ ولهذا لم يجعل الله احداً مصدقاً للرسل بمجرد العلم والتصديق الذي فى قلوبهم حتى يصدقوهم بألسنتهم . ولا يوجد فى كلام العرب ان يقال : فلان صدق فلاناً او كذبه إذا كان يعلم بقلبه انه صادق او كاذب ولم يتكلم بذلك . كما لا يقال : امره او نهاه ، اذا قام بقلبه طلب مجرد عما يقترن به من لفظ او اشارة او نحوها . ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس » . وقال : « إن الله يحدث من امره ما شاء ، وان مما احدث ان لاتكلموا فى الصلاة» اتفق العلماء على انه اذا تكلم فى الصلاة عامداً لغير مصلحتها ؛ بطلت صلاته . واتفقوا كلهم على ان ما يقوم بالقلب من تصديق

بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة ، وانما يبطلها التكلم بذلك . فعلم اتفاق المسلمين على ان هذا ليس بكلام .

وايضاً ففي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان الله تجاوز لأمتي عما حدثت به انفسها مالم تتكلم به او تعمل به » فقد اخبر أن الله عفا عن حديث النفس الا ان تتكلم ؛ ففرق بين حديث النفس وبين الكلام ، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به ، والمراد حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء . فعلم ان هذا هو الكلام في اللغة ؛ لأن الشارع ــ كما قرر ــ إنما خاطبنا بلغة العرب .

وايضاً في « السنن » ان معاذاً قال له : يا رسول الله ! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم او قال على مناخرهم الا حصائد السنتهم » . فبين ان الكلام انما هو ما يكون باللسان . وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

« وفي الصحيحين » عنه انه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » وقد قال الله تعالى : (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذباً) وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « افضل الكلام بعد القرآن اربع كلمات وهن في

القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله الا الله ، والله اكبر » . رواه مسلم .
وقال تعالى : (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ومثل هذا كثير .

وفى الجملة : حيث ذكر الله فى كتابه عن احد من الخلق من الأنبياء ، او اتباعهم او مكذبيهم انهم قالوا ويقولون ، وذلك قولهم وامثال ذلك ؛ فانما يعنى به المعنى مع اللفظ . فهذا اللفظ وما تصرف منه من فعل ماض ومضارع وامر ، ومصدر واسم فاعل من لفظ القول والكلام ونحوهما ؛ انما يعرف فى القرآن والسنة وسائر كلام العرب ، اذا كان لفظاً ومعنى وكذلك انواعه ، كالتصديق والتكذيب والأمر والنهي وغير ذلك . وهذا مما لا يمكن احداً جحده ، فانه اكثر من ان يحصى .

ولم يكن فى مسمى « الكلام » نزاع بين الصحابة والتابعين لهم باحسان وتابعيهم لا من اهل السنة ، ولا من اهل البدعة . بل اول من عرف فى الاسلام انه جعل مسمى الكلام المعنى فقط ، هو عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وهو متأخر ــ فى زمن محنة احمد بن حنبل ــ وقد انكر ذلك عليه علماء السنة ، وعلماء البدعة ، فيمتنع ان يكون الكلام الذي هو اظهر صفات بنى آدم ــ كما قال تعالى : (فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون) . ولفظه لا تحصى وجوهه كثرة ــ لم يعرفه احد من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاء من قال فيه قولاً لم يسبقه اليه احد من المسلمين ، ولا غيرهم .

فان قالوا : فقد قال الله تعالى : (ويقولون فى انفسهم) وقال : (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة) ونحو ذلك .

قيل : ان كان المراد انهم قالوه بألسنتهم سراً ، فلا حجة فيه . وهذا هو الذي ذكره المفسرون . قالوا : كانوا يقولون : سام عليك ، فاذا خرجوا يقولون فى أنفسهم اي يقول بعضهم لبعض : لو كان نبياً عذبنا بقولنا له ما نقول . وان قدر انه اريد بذلك انهم قالوه فى قلوبهم ، فهذا قول مقيد بالنفس ، مثل قوله : « عما حدثت به انفسها » ولهذا قالوا : (لولا يعذبنا الله بما نقول) فأطلقوا لفظ القول هنا ، والمراد به ما قالوه بألسنتهم ، لأنه النجوى والتحية (التى نهوا عنها) كما قال تعالى : (الم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدان ومعصية الرسول ، واذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) . مع ان الأول هو الذي عليه اكثر المفسرين ، وعليه تدل نظائره ؛ فان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله : من ذكرنى في نفسه ذكرته فى نفسي ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه » ، ليس المراد انه لا يتكلم به بلسانه ، بل المراد انه ذكر الله بلسانه .

وكذلك قوله : (واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول) هو الذكر باللسان والذي يقيد بالنفس لفظ الحديث يقال : حديث النفس ، ولم يوجد عنهم انهم قالوا : كلام النفس وقول النفس ؛ كما قالوا : حديث النفس ، ولهذا يعبر بلفظ الحديث عن الأحلام التى ترى فى المنام ، كقول يعقوب عليه السلام : (ويعلمك من تأويل الأحاديث) . وقول يوسف : (علمتني من تأويل الأحاديث) وتلك فى النفس ، لا تكون باللسان ؛ فلفظ الحديث قد

يقيد بمـا في النفس ، بخلاف لفظ الـكلام فانه لم يعـرف انه اريد به ما فى النفس فقط .

واما قوله تعالى : (واسروا قولـكم او اجهروا به انه عليم بذات الصدور) فالمراد به القول الذي تارة يسر به فلا يسمعه الانسان ، وتارة يجهر به فيسمعونه كما يقال : اسر القراءة وجهر بها ، وصلاة السر وصلاة الجهر . ولهـذا لم يقل : قولوه بألسنتـكم او بقلوبكم ، وما فى النفس لا يتصور الجهر به ، وانما يجهر بما فى اللسان ، وقوله : (انه عليم بذات الصدور) من باب التنبيه . يقول : انه يعلم ما فى الصدور فـكيف لا يعلم القول ، كما قال فى الآية الأخرى : (وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) فنبه بذلك على انه يعلم الجهر ، ويدل على ذلك انه قال: (واسروا قولـكم او اجهروا به انه عليم بذات الصدور) فلو اراد بالقول مافى النفس لـكونه ذكر علمه بذات الصدور ، لم يكن قد ذكر علمه بالنوع الآخر وهو الجهر .

وان قيـل : نبه ، قيل : بل نبه على القسمين . وقوله تعـالى : (آيتك ان لا تـكلم الناس ثلاثة ايام إلا رمزاً) قد ذكر هذا فى قوله : (ثلاث ليال سويا) وهناك لم يستثن شيئاً ، والقصة واحدة ، وهـذا يدل على ان الاستثناء منقطع ، والمعنى ، آيتـك ألا تـكلم الناس ، لـكن ترمز لهم رمزاً ، كنظائره في القرآن ، وقوله : (فأوحى اليهم) هو الرمز ، ولو قدر ان الرمز استثناء متصل لـكان قد دخل فى الـكلام المقيد بالاستثناء ، كما فى قوله : (وما كان لبشر ان

يكلمه الله إلا وحياً او من وراء حجاب او يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء) .

ولا يلزم من ذلك ان يدخل فى لفظ الكلام المطلق ؛ فليس فى لغة القوم أصلاً ما يدل على ان ما فى النفس يتناوله لفظ الكلام والقول المطلق ؛ فضلاً عن التصديق والتكذيب ، فعلم ان من لم يصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى فى لغة القوم مؤمناً ، كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم باحسان .

وقول عمر رضي الله عنه : زورت فى نفسي مقالة اردت ان اقولها ، حجة عليهم . قال ابو عبيد : التزوير : اصلاح الكلام وتهيئته ، قال : وقال ابو زيد : المزور من الكلام والمزوق واحد ، وهو المصلح الحسن ، وقال غيره : زورت فى نفسي مقالة ، اي هيأتها لأقولها . فلفظها يدل على انه قدر فى نفسه ما يريد ان يقوله ولم يقله ، فعلم انه لا يكون قولاً إلا اذا قيل باللسان ، وقبل ذلك لم يكن قولاً ، لكن كان مقدراً فى النفس يراد ان يقال ، كما يقدر الانسان فى نفسه انه يحج وانه يصلي ، وانه يسافر ، الى غير ذلك ، فيكون لما يريده من القول والعمل صورة ذهنية مقدرة فى النفس ، ولكن لا يسمى قولاً وعملاً إلا إذا وجد فى الخارج ، كما انه لا يكون حاجا ومصلياً إلا إذا وجدت هذه الأفعال فى الخارج ، ولهذا كان ما يهم به المرء من الأقوال المحرمة والأفعال المحرمة لا تكتب عليه حتى يقوله ، ويفعله ، وما هم به من القول الحسن ، والعمل الحسن انما يكتب له به حسنة واحدة ، فاذا صار قولاً وفعلاً كتب له به عشر

حسنات الى سبعمائة ، وعوقب عليه ــ اذا قال او فعل ــ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الله تجاوز لأمتي عما حدثت به انفسها ما لم تتكلم به او تعمل » .

وأما البيت الذي يحكى عن الأخطل انه قال :

ان الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فمن الناس من انكر ان يكون هذا من شعره . وقالوا : انهم فتشوا دواوينه فلم يجدوه ، وهذا يروي عن محمد بن الخشاب . وقال بعضهم : لفظه : إن البيان لفي الفؤاد .

ولو احتج محتج فى مسألة بحديث اخرجاه فى « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم لقالوا : هذا خبر واحد ، ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول ، وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله باسناد صحيح لا واحد ولا أكثر من واحد ، ولا تلقاه اهل العربية بالقبول ، فكيف يثبت به ادنى شيء من اللغة ، فضلاً عن مسمى الكلام. ثم يقال : مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه الى قول شاعر ، فان هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من اهل اللغة ، وعرفوا معناه في لغتهم ، كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل .

وأيضاً فالناطقون باللغة يحتج باستعمالهم للألفاظ فى معانيها ، لا بما يذكرونه

من الحدود ، فان اهل اللغة الناطقين لا يقول احـد منهم : إن الرأس كذا ، واليد كذا ، والـكلام كذا . واللون كذا ، بل ينطقون بهذه الألفاظ دالة على معانيها ، فتعرف لغتهم من استعمالهم .

فعلم ان الأخطل لم يرد بهذا ان يذكر مسمى « الـكلام » ولا احد من الشعراء يقصد ذلك البتة ؛ وانمـا أراد : إن كان قال ذلك ما فسره به المفسرون للشعر ، أي اصل الـكلام من الفؤاد ، وهو المعنى ؛ فاذا قال الانسان بلسانه ما ليس فى قلبه فلا تثق به ؛ وهـذا كالأقوال التى ذكرها الله عن المنافقين ذكر انهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ؛ ولهذا قال :

لا يعجبنـك من أثـير لفظه حتى يكون مَع الـكلام اصيلا
إن الـكلام لفي الفؤاد وانمـا جعل اللسان على الفؤاد دليلا

نهاه ان يعجب بقوله الظاهر حتى يعلم ما فى قلبه من الأصل ؛ ولهذا قال : حتى يكون مع الـكلام أصيلاً . وقوله : مع الـكلام : دليل على ان اللفظ الظاهر قد سماه كلاماً ، وان لم يعلم قيام معناه بقلب صاحبه ، وهذا حجة عليهم ؛ فقد اشتمل شعره على هذا وهذا ؛ بل قوله : «مع الـكلام» مطلق. وقوله : ان الـكلام لفي الفؤاد . اراد به أصله ومعناه المقصود به ، واللسان دليل على ذلك .

و « بالجملة » فمن احتاج إلى ان يعرف مسمى « الـكلام » في لغـة العرب والفرس، والروم، والترك، وسائر اجناس بني آدم بقول شاعر، فانه من ابعد الناس عن معرفة طرق العلم. ثم هو من المولدين؛ وليس من الشعراء القدماء ، وهو نصراني

كافر مثلث ، واسمه الأخطل ، والخطل فساد فى الـكلام ، وهو نصراني والنصارى قد اخطؤوا في مسمى الـكلام ، فجعلوا المسيح القائم بنفسه هو نفس كلمة الله .

فتبين انه إن كان « الايمان » فى اللغة هو التصديق ، والقرآن إنما أراد به مجرد التصديق الذي هو قول ، ولم يسم العمل تصديقاً ، فليس الصواب إلاقول المرجئة : إنه اللفظ والمعنى . او قول الـكرامية : إنه قول باللسان فقط ، فان تسمية قول اللسان قولاً اشهر فى اللغة من تسمية معنى فى القلب قولاً . كقوله تعالى : (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) وقوله : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) وامثال ذلك ، بخلاف ما فى النفس ، فانه إنما يسمى حديثاً . والـكرامية يقولون : المنافق مؤمن وهو مخلد في النار ، لأنه آمن ظاهراً لا باطناً ، وانما يدخل الجنة من آمن ظاهراً وباطناً .

قالوا : والدليل على شمول الايمان له انه يدخل فى الأحـكام الدينية المعلقة باسم الايمان كقوله تعـالى : (فتحرير رقبة مؤمنة) ويخاطب فى الظاهر بالجمعة ، والطهارة ، وغير ذلك مما خوطب به الذين آمنوا .

وإما من صدق بقلبه ولم يتـكلم بلسانه ، فانه لا يعلق به شيء من احكام الايمان ، لا في الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يدخـل فى خطاب الله لعباده بقوله : (يا أيها الذين آمنوا) فعلم ان قول الـكرامية فى الايمان وإن كان باطلاً مبتدعاً لم يسبقهم اليه احـد ، فقول الجهمية ابطل منه ، واولئك اقرب الى الاستدلال باللغة والقرآن والعقل من الجهمية .

و«الكرامية» توافق المرجئة والجهمية فى ان ايمان الناس كلهم سواء ولا يستثنون فى الايمان ؛ بل يقولون : هو مؤمن حقاً لمن اظهر الايمان ، وإذا كان منافقاً فهو مخلد فى النار عندهم ؛ فانه انما يدخل الجنة من آمن باطناً وظاهراً ، ومن حكي عنهم انهم يقولون : المنافق يدخل الجنة ، فقد كذب عليهم ، بل يقولون : المنافق مؤمن لا ان الايمان هو القول الظاهر ، كما يسميه غيرهم مسلماً اذ الاسلام : هو الاستسلام الظاهر ولا ريب ان قول الجهمية افسد من قولهم من وجوه متعددة شرعاً ولغة وعقلاً .

وإذا قيل : قول الكرامية قول خارج عن إجماع المسلمين ، قيل : وقول جهم فى الايمان قول خارج عن اجماع المسلمين قبله ، بل السلف كفروا من يقول بقول جهم في الايمان . وقد احتج الناس على فساد قول الكرامية بحجج صحيحة ، والحجج من جنسها على فساد قول الجهمية أكثر ، مثل قوله تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) . قالوا : فقد نفى الله الايمان عن المنافقين .

فنقول : هذا حق ، فان المنافق ليس بمؤمن ، وقد ضل من سماه مؤمناً . وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق وهو يجحد الرسول ويعاديه، كاليهود وغيرهم، سماهم الله كفاراً لم يسمهم مؤمنين قط ولا دخلوا فى شيء من احكام الايمان ، بخلاف المنافق فانه يدخل فى احكام الايمان الظاهرة فى الدنيا ؛ بل قد نفى الله الايمان عمن قال بلسانه وقلبه اذا لم يعمل ، كما قال تعالى : (قالت الأعراب آمنا ،

قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) إلى قوله : (انما المؤمنون الذين آمنــوا بالله ورســوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في ســبيل الله اولئك هم الصادقون) فنفى الايمان عمن سوى هؤلاء .

وقال تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسول واطعنا ثم يتــولى فريق منهم من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين). و«التولي»هو التولي عن الطاعة كما قال تعالى: (ستدعون إلى قوم اولي بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون ، فان تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ؛ وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً اليماً) .وقال تعالى: (فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب و تولى) وقد قال تعالى : (لا يصــلاها الا الأشقى الذي كذب وتولى) وكذلك قال موسى وهارون : (انا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذب وتولى) . فعلم ان « التولي » ليس هو التــكذيب ، بل هو التولي عن الطاعة ، فان الناس عليهم ان يصدقوا الرسول فيما اخــبر ويطيعوه فيما امر . وضد التصديق التــكذيب ، وضد الطاعة التولي ، فلهذا قال : (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى) وقد قال تعالى : (ويقــولون آمنا بالله وبالرسول واطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين) فنفى الايمان عمن تولى عن العمل ، وان كان قد أتى بالقول . وقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) وقال : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) .

ففي القرآن والسنة من نفي الايمان عمن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة ، كما نفى فيها الايمان عن المنافق . واما العالم بقلبه مع المعاداة والمخالفة الظاهرة،

فهذا لم يسم قط مؤمناً ؛ وعند الجهمية إذا كان العلم فى قلبه فهــو مؤمن كامل الايمان ، ايمانه كايمان النبيين ، ولو قال وعمل ماذا عسى ان يقول ويعمل ؟ ولا يتصور عندهم أن ينتفي عنه الايمان الا إذ زال ذلك العلم من قلبه .

ثم اكثر المتأخرين الذين نصروا قول جهم يقولون بالاستثناء فى الايمان، ويقولون : «الايمان في الشرع» هو مايوافى به العبد ربه ، وان كان في اللغة اعم من ذلك ، فجعلوا فى «مسألة الاستثناء» مسمى الايمان ما ادعوا انه مسماه فى الشرع ، وعدلوا عن اللغة ، فهلا فعلوا هذا فى الأعمال . ودلالة الشرع على ان الأعمال الواجبة من تمام الايمان لا تحصى كثرة ، بخلاف دلالته على انه لا يسمى ايمانا ؛ الا ما مات الرجل عليه فانه ليس فى الشرع ما يدل على هذا ، وهو قول محدث لم يقله احد من السلف ، لكن هؤلاء ظنوا ان الذين استثنوا فى الايمان من السلف كان هذا مأخذهم ؛ لأن هؤلاء وامثالهم لم يكونوا خبيرين بكلام السلف، بل ينصرون ما يظهر من اقوالهم بما تلقوه عن المتكلمين من الجهمية ونحوهم من اهل البدع ، فيبقى الظاهر قول السلف ، والباطن قول الجهمية الذين هم أفسد الناس مقالة فى الايمان . وسنذكر ــ إن شاء الله ــ أقوال السلف فى «الاستثناء فى الايمان» ولهذا لما صار يظهر لبعض اتباع أبي الحسن فساد قول جهم فى الايمان ، خالفه كثير منهم ، فمنهم من اتبع السلف .

قال أبو القاسم الأنصاري شيخ الشهرستاني في « شرح الارشاد» لأبي المعالي، بعد ان ذكر قول أصحابه قال : وذهب اهل الأثر الى ان الايمان جميع الطاعات ،

فرضها ونفلها ، وعبروا عنه بأنه إتيان ما أمر الله به فرضاً ونفلاً ، والانتهاء عما نهى عنه تحريماً وأدباً . قال : وبهذا كان يقول ابو علي الثقفي من متقدمي أصحابنا، وابو العباس القلانسي .

وقد مال الى هذا المذهب ابو عبدالله بن مجاهد قال : وهذا قول مالك بن انس امام دار الهجرة . ومعظم ائمة السلف رضوان الله عليهم اجمعين .

وكانوا يقولون : الايمان معرفة بالقلب ، واقرار باللسان . وعمل بالأركان.
ومنهم من يقول بقول المرجئة : إنه التصديق بالقلب واللسان .

ومنهم من قال : إذا ترك التصديق باللسان عناداً كان كافراً بالشرع ، وان كان فى قلبه التصديق والعلم . وكذلك قال ابو اسحاق الاسفرائيني .

قال الأنصاري : رأيت في تصانيفه ان المؤمن انما يكون مؤمناً حقاً إذا حقق إيمانه بالأعمال الصالحة ، كما ان العالم انما يكون عالماً حقاً إذا عمل بما علم، واستشهد بقول الله تعالى : (انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) الى قوله : (اولئك هم المؤمنون حقاً) وقال أيضاً ابو اسحاق : حقيقة الايمان في اللغة : التصديق ، ولا يتحقق ذلك الا بالمعرفة والائتمار ، وتقوم الاشارة والانقياد مقام العبارة .

وقال ايضاً ابو اسحاق في كتاب « الأسماء والصفات » : اتفقوا على ان ما يستحق به المكلف اسم الايمان فى الشريعة اوصاف كثيرة ، وعقائد مختلفة، وان

اختلفوا فيها على تفصيل ذكروه ، واختلفوا فى اضافة مالا يدخل فى جملة التصديق اليه لصحة الاسم ، فمنها ترك قتل الرسول ، وترك ابذائه ، وترك تعظيم الأصنام ، فهذا من التروك ، ومن الأفعال نصرة الرسول والذب عنه ، وقالوا : ان جميعه يضاف الى التصديق شرعاً ، وقال آخرون : انه من الكبائر ، لا يخرج المرء بالمخالفة فيه عن الايمان .

قلت : وهذان القولان ليسا قول جهم ؛ لكن من قال ذلك فقد اعترف بأنه ليس مجرد تصديق القلب ، وليس هو شيئاً واحداً ، وقال : ان الشرع تصرف فيه ، وهذا يهدم اصلهم ؛ ولهذا كان حذاق هؤلاء ، كجهم، والصالحي ، وابي الحسن والقاضي ابي بكر ، على انه لا يزول عنه اسم الايمان إلا بزوال العلم من قلبه .

قال ابو المعالي : (باب فى ذكر الأسماء والأحكام) : اعلم ان غرضنا فى هذا الباب يستدعى تقديم ذكر حقيقة الايمان . قال : وهذا مما تباينت فيه مذاهب الاسلاميين ، ثم ذكر قول الخوارج ، والمعتزلة ، والكرامية ، ثم قال : واما مذاهب اصحابنا ، فصار اهل التحقيق من اصحاب الحديث والنظار منهم الى ان الايمان هو التصديق ، وبه قال شيخنا ابو الحسن رحمة الله عليه ، واختلف رأيه فى معنى التصديق ؛ وقال مرة : المعرفة بوجوده وقدمه والهيته . وقال مرة : التصديق : قول فى النفس ، غير انه يتضمن المعرفة ، ولا يصح ان يوجدونها ، وهذا مقتضاه ؛ فان التصديق والتكذيب والصدق والكذب بالأقوال اجدر

فالتصديق اذاً قول فى النفس يعبر عنه باللسان ، فتوصف العبادة بأنها تصديق ، لأنها عبارة عن التصديق : وقال بعض اصحابنا : التصديق لا يتحقق الا بالقول والمعرفة جميعاً ، فاذا اجتمعا كانا تصديقاً واحداً .

ومنهم من اكتفى بترك العناد ؛ فلم يجعل الاقرار احد ركنى الأيمان ، فيقول : الايمان هو التصديق بالقلب ، واوجب ترك العناد بالشرع ، وعلى هذا الأصل يجوز ان يعرف الكافر الله ، وانما يكفر بالعناد لا لأنه ترك ما هو الأهم فى الايمان .

وعلى هذا الأصل يقال : إن اليهود كانوا عالمين بالله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا انهم كفروا عناداً وبغياً وحسداً . قال وعلى قول شيخنا ابي الحسن : كل من حكمنا بكفره فنقول : انه لا يعرف الله أصلاً ولا عرف رسوله ولا دينه . قال ابو القاسم الأنصاري تلميذه : كأن المعنى : لا حكم لايمانه ولا لمعرفته شرعاً .

قلت : وليس الأمر على هذا القول كما قاله الأنصاري هذا ، ولكن على قولهم : المعاند كافر شرعاً ، فيجعل الكفر تارة بانتفاء الايمان الذي في القلب وتارة بالعناد ، ويجعل هذا كافراً فى الشرع ، وان كان معه حقيقة الايمان الذي هو التصديق ، ويلزمه ان يكون كافراً في الشرع ، مع ان معه الايمان الذي هو مثل ايمان الأنبياء والملائكة . والحذاق فى هذا المذهب ؛ كأبى الحسن والقاضي ومن قبلهم من أتباع جهم ، عرفوا ان هذا تناقض يفسد الأصل

فقالوا : لا يكون احـد كافراً الا إذا ذهب ما في قلبــه من التصديق والتزموا ان كل من حكم الشرع بكفره ؛ فانه ليس فى قلبــه شيء من معرفة الله ولا معرفة رسوله ، ولهذا انـكر هذا عليهم جماهير العقلاء ، وقالوا : هذا مكابرة وسفسطة .

وقد احتجوا على قولهم بقوله تعـالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسـوله) الى قوله : (اولئك كتب فى قلوبهم الايمـان) الآية . قالوا : ومفهوم هذا ، ان من لم يعمل بمقتضاه لم يكتب فى قلوبهم الايمان .

قالوا : فان قيل معناه لا يؤمنون ايمـاناً مجزئاً معتداً به ، او يكون المعنى : لا يؤدون حقوق الايمـان ، ولا يعملون بمقتضاه . قلنـا : هذا عام لا يخصص الا بدليل .

فيقال لهم : هذه الآية فيها نفي الايمـان عمن يواد المحادين لله ورسوله ، وفيها ان من لا يواد المحادين لله ورسـوله فان الله كتب فى قلوبهم الايمـان ، وايدهم بروح منه ، وهذا يدل على مذهب السلف انه لا بد فى الايمـان من محبة القلب لله ولرسوله ، ومن بغض من يحاد الله ورسوله ، ثم لم تدل الآية على ان العلم الذي فى قلوبهم بأن محمداً رسول الله يرتفع لا يبقى منه شيء ، والايمـان الذي كتب فى القلب ليس هو مجرد العلم والتصديق ، بل هو تصديق القلب وعمل القلب ، ولهذا قال : (وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها

الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون) فقد وعدهم بالجنة . وقد اتفق الجميع على ان الوعد بالجنة لا يكون الا مع الاتيان بالمأمور به وترك المحظور ؛ فعلم ان هؤلاء الذين كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه ، قد ادوا الواجبات التي بها يستحقون ما وعد الله به الأبرار المتقين ، ودل هذا على ان الفساق لم يدخلوا في هذا الوعد ، ودلت هذه الآية على انه لا يوجد مؤمن يواد الكفار ، ومعلوم ان خلقاً كثيراً من الناس يعرف من نفسه ان التصديق في قلبه لم يكذب الرسول ، وهو مع هذا يواد بعض الكفار ؛ فالسلف يقولون : ترك الواجبات الظاهرة دليل على انتفاء الايمان الواجب من القلب ، لكن قد يكون ذلك بزوال عمل القلب ــ الذي هو حب الله ورسوله وخشية الله ، ونحو ذلك ــ لا يستلزم ان لا يكون في القلب من التصديق شيء ، وعند هؤلاء كل من نفى الشرع ايمانه دل على انه ليس في قلبه شيء من التصديق اصلاً ، وهذا سفسطة عند جماهير العقلاء .

وكذلك حكى ابن فورك عن ابي الحسن الأشعري قال : الايمان هو اعتقاد صدق المخبر فيما يخبر به اعتقاداً هو علم ، ومنه اعتقاد ليس بعلم ؛ والايمان بالله ــ وهو اعتقاد صدقه ــ انما يصح اذا كان عالماً بصدقه في اخباره ، وانما يكون كذلك اذا كان عالماً بأنه يتكلم والعلم بأنه متكلم بعد العلم بأنه حي ؛ والعلم بأنه حي بعد العلم بأنه فاعل ، والعلم بأنه فاعل بعد العلم بالفعل ، وهو كون العالم فعلاً له ، وقال : وكذلك يتضمن العلم بكونه قادراً وله قدرة وعالماً وله

علم ، ومريداً وله ارادة ، وسائر مالا يصح العلم بالله الا بعد العلم به من شرائط الايمان .

قلت : هذا مما اختلف فيه قول الأشعري وهو ان الجهل ببعض الصفات ، هل يكون جهلاً بالموصوف ، ام لا ؟ على قولين ، والصحيح الذي عليه الجمهور وهو آخر قوليه ، انه لا يستلزم الجهل بالموصوف . وجعل اثبات الصفات من الايمان ، مما خالف فيه الأشعري جهماً فان جهماً غال فى نفى الصفات ، بل وفى نفي الأسماء .

قال ابو الحسن : ثم السمع ورد بضم شرائط أخر اليه ، وهو ان لا يقترن به ما يدل على كفر من يأتيـــه فعلاً وتركا ، وهو ان الشرع امره بترك العبادة والسجود للصنم ، فلو أتى به دل على كفره ، وكذلك من قتل نبياً او استخف به ، دل على كفره ، وكذلك لو ترك تعظيم المصحف او الـكعبة دل على كفره . قال : وأحد ما استدللنا به على كفره ما منع الشرع ، ان يقرن بالايمان او أوجب ضمه الى الايمان لو وجد دلنا ذلك على ان التصديق الذي هو الايمان مفقود من قلبه ، وكذلك كل ما كفر به المخالف من طريق التأويل فانما كفرناه به لدلالته على فقدما هو ايمان من قلبه؛ لاستحالة ان يقضي السمع بكفر من معه الايمان والتصديق بقلبه .

فيقال : لا ريب ان الشارع لا يقضي بكفر من معه الايمان بقلبه ، لكن دعوا كم ان الايمان هو التصديق ، وان تجـــرد عن جميع اعمال القلب ، غلط ولهذا قالوا : اعمال التصديق والمعرفة من قلبه ، ألا ترى ان الشريعة حكمت بكفره ؛ والشريعة لا تحكم بكفر المؤمن المصدق ؛ ولهذا نقول : ان كفر ابليس

لعنه الله كان أشد من كفر كل كافر ، وانه لم يعرف الله بصفاته قطعاً ، ولا آمن به ايماناً حقيقياً باطنـاً وان وجد منه القول والعبادة ، وكذلك اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الـكفرة لم يوجد في قلوبهم حقيقة الايمان المعتد به فى حال حكمنا لهم بالـكفر . قال الله تعالى : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم اوليـاء) وقوله : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) الآية فجعل الله هذه الأمور شرطاً فى ثبوت حكم الايمان ، فثبت ان الايمان المعرفة بشرائط لا يكون معتداً به دونها .

فيقال : ان قلتم : انه ضم إلى معرفة القلب شروطاً فى ثبوت الحكم اوالاسم لم يكن هذا قول جهم ؛ بل يكون هذا قول من جعل الايمـان ـ كالصلاة ، والحج هو ـ وإن كان فى اللغة بمعنى القصد والدعاء ، لـكن الشارع ضم اليه اموراً إما في الحـكم واما فى الحـكم والاسم ؛ وهذا القول قد سلم صاحبه ان حكم الايمان المذكور في الـكتاب والسنة لا يثبت بمجرد تصديق القلب ؛ بل لابد من تلك الشرائط ، وعلى هذا فلا يمـكنه جعل الفاسق مؤمناً إلا بدليل يدل على ذلك ، لا بمجرد قوله : انمعه تصديق القلب ، ومن جعل الايمان هو تصديق القلب يقول : كل كافر فى النـار ليس معهم من التصديق بالله شيء ، لا مع ابليس ولا مع غيره . وقد قال الله تعالى : (وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استـكبروا إنا كنا لـكم تبعاً فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استـكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد) وقال تعالى : (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى اذا جاءوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم

يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) . فقد اعترفوا بأن الرسل أتتهم وتلت عليهم آيات ربهم وأنذرتهم لقاء يومهم هذا ؛ فقد عرفوا الله ورسوله واليوم الآخر وهم فى الآخرة كفار .

وقال تعالى : (كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء) فقد كذبوا بوجوده وكذبوا بتنزيله . واما في الآخرة فعرفوا الجميع . وقال تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق ؟ قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وقال تعالى : (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) إلى قوله : (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) إلى آيات أخر كثيرة تدل على ان الكفار فى الآخرة يعرفون ربهم فان كان مجرد المعرفة ايماناً كانوا مؤمنين فى الآخرة .

فان قالوا : الايمان فى الآخرة لا ينفع ، وإنما الثواب على الايمان فى الدنيا .

قيل : هذا صحيح ، لكن اذا لم يكن الايمان إلا مجرد العلم ؛ فهذه الحقيقة لا تختلف ، فان لم يكن العمل من الايمان ، فالعارف فى الآخرة لم يفته شيء من الايمان ، لكن اكثر ما يدعونه انه حين مات لم يكن فى قلبه من التصديق بالرب شيء ، ونصوص القرآن فى غير موضع تدل على ان الكفار كانوا فى الدنيا مصدقين بالرب ، حتى فرعون الذي اظهر التكذيب كان فى باطنه مصدقاً . قال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً) وكما قال موسى لفرعون: (لقد علمت

ما ازل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) ومع هذا لم يكن مؤمناً ؛بل قال موسى : (ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) : قال الله : (قد اجيبت دعوتكما) : ولما قال فرعون :(آمنت أنه لا إله الا الذي آمنت به بنو إسرائيل) . قال الله : (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) . فوصفه بالمعصية ، ولم يصفه بعدم العلم فى الباطن كما قال : (فعصى فرعون الرسول) ، وكما قال عن إبليس : (فسجد الملائكة كلهم اجمعون الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين) فلم يصفه إلاالاباء والاستكبار ومعارضته الأمر، لم يصفه بعدم العلم ، وقد اخبر الله عن الكفار فى غير موضع انهم كانوا معترفين بالصانع فى مثل قوله : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) .

ثم يقال لهم : إذا قلتم هوالتصديق بالقلب، او باللسان ، او بهما ؛فهل هو التصديق المجمل ؟ او لا بد فيه من التفصيل ؟ فلو صدق ان محمداً رسول الله ولم يعرف صفات الحق ، هل يكون مؤمناً ام لا ؟ فأن جعلوه مؤمناً . قيل : فاذا بلغه ذلك فكذب به ، لم يكن مؤمناً باتفاق المسلمين ، فصار بعض الايمانا كمل من بعض ؛ وإن قالوا : لا يكون مؤمناً ، لزمهم ان لا يكون احد مؤمناً حتى يعرف تفصيل كل ما اخبر به الرسول ؛ ومعلوم ان اكثر الأمة لا يعرفون ذلك وعندهم الايمان لا يتفاضل الا بالدوام فقط .

قال ابو المعالي : فان قال القائل : اصلكم يلزمكم ان يكون ايمان المنهمك في فسقه كايمان النبي صلى الله عليه وسلم .

قلنا : الذي يفضل ايمانه على ايمان من عداه باستمرار تصديقه وعصمة الله اياه من مخامرة الشكوك واختلاج الريب ، والتصديق عرض من الأعراض لا يبقى وهو متوال للنبي صلى الله عليه وسلم ثابت لغيره في بعض الأوقات ، وزائل عنه في اوقات الفترات ، فيثبت للنبي صلى الله عليه وسلم اعداد من التصديق ، ولا يثبت لغيره الا بعضها ، فيكون ايمانه لذلك اكثر وافضل ؛ قال : ولو وصف الايمان بالزيادة والنقصان وأريد به ذلك كان مستقيماً .

قلت : فهذا هو الذي يفضل به النبي غيره فى الايمان عندهم ، ومعلوم ان هذا فى غاية الفساد من وجوه كثيرة ، كما قد بسط فى مواضع أخرى .

فصـــــل

قال الذين نصروا مذهب جهم فى الايمـان من المتأخرين ـ كالقاضي ابي بكر وهذا لفظه ـ فان قال قائل : وما الاسـلام عندكم ؟ قيل له : « الاسلام » : الانقياد والاستسلام ؛ فـكل طاعة انقاد العبد بها لربه واستسلم فيها لأمره فهي اسلام ، والايمان : خصلة من خصال الاســلام ؛ وكل ايمان اسلام ، وليس كل اسلام ايماناً ، فان قال : فلم قلتم : ان معنى الاســلام ما وصفتم ؟ قيل : لأجل قوله تعالى : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولـكن قولوا اسلمنا) فنفي عنهم الايمان واثبت لهم الاســلام ، وانمـا اراد بمـا اثبته الانقياد والاستسلام ، ومنه : (القوا اليـكم السلم) وكل من استسلم لشيء فقد اسلم ، وان كان اكثر ما يستعمل ذلك فى المستسلم لله ولنبيه .

« قلت » : وهذا الذي ذكروه مع بطلانه ومخالفته للـكتاب والسنة هو تناقض، فانهم جعلوا الايمان خصلة من خصال الاسلام ، فالطاعات كلها اسلام وليس فيها ايمان الا التصديق، والمرجئة وان قالوا : ان الايمان يتضمن الاسلام فهم يقولون: الايمان هو تصديق القلب واللسان واما الجهمية فيجعلونه تصديق القلب ، فلا تـكون الشهادتان ، ولا الصلاة ، ولا الزكاة ، ولا غيرهن من الايمان ، وقد

تقدم ما بينه الله ورسوله ، من ان الاسلام داخل في الايمان ، فلا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون مسلماً ، كما ان الايمان داخل في الاحسان ، فلا يكون محسناً حتى يكون مؤمناً .

واما التناقض ، فانهم اذا قالوا : الايمان خصلة من خصال الاسلام ، كان من أتى بالايمان إنما اتى بخصلة من خصال الاسلام ، لا بالاسلام الواجب جميعه . فلا يكون مسلماً حتى يأتي بالاسلام كله ، كما لا يكون عندهم مؤمناً ، حتى يأتي بالايمان كله ، والا فمن اتى ببعض الايمان عندهم لا يكون مؤمناً ، ولا فيه شيء من الايمان ، فكذلك يجب ان يقولوا في الاسلام ، وقد قالوا . كل ايمان اسلام ، وليس كل اسلام ايماناً ، وهذا ان ارادوا به ان كل ايمان هو الاسلام الذي امر الله به ، ناقض قولهم : ان الايمان خصلة من خصاله ، فجعلوا الايمان بعضه ولم يجعلوه اياه ، وان قالوا : كل ايمان فهو اسلام ، اى هو طاعة لله ، وهو جزء من الاسلام الواجب ، وهذا مرادهم . قيل لهم : فعلى هذا يكون الاسلام متعدداً بتعدد الطاعات ، وتكون الشهادتان وحدها إسلاما ، والصلاة وحدها اسلاما ، والزكاة إسلاماً ، بل كل درهم تعطيه للفقير إسلاماً ، وكل سجدة اسلاماً ، وكل يوم تصومه اسلاماً ، وكل تسبيحة تسبحها في الصلاة او غيرها اسلاماً .

ثم المسلم إن كان لا يكون مسلماً إلا بفعل كل ما سميتموه اسلاماً ، لزم ان يكون الفساق ليسوا مسلمين مع كونهم مؤمنين ، فجعلتم المؤمنين الكاملي

الايمان عندكم ليسوا مسلمين وهذا شر من قول الـكرامية ، ويلزم ان الفساق من اهل القبلة ليسوا مسلمين ؛ وهذا شر من قول الخوارج والمعتزلة وغيرهم ، بل وان يكون من ترك التطوعات ليس مسلماً ، اذ كانت التطوعات طاعة لله ، ان جعلتم كل طاعة فرضاً او نفلاً اسلاماً .

ثم هذا خلاف ما احتججتم به من قوله للأعراب : (لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) . فأثبت لهم الاسلام دون الايمـان ، وايضاً فاخراجكم الفساق من اسم الاسلام ان اخرجتموهم ، اعظم شناعة من اخراجهم من اسم الايمان ، فوقعتم فى اعظم ما عبتموه على المعتزلة ، فان الـكتاب والسنة تنفي عنهم اسم الأيمـان ، اعظم مما تنفى اسم الاسلام ، واسم الايمان فى الـكتاب والسنة اعظم .

وان قلتم : بل كل من فعل طاعة سمي مسلماً ، لزم ان يكون من فعل طاعة من الطاعات ولم يتكلم بالشهادتين مسلماً ، ومن صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه ان يكون مسلماً عندكم ، لأن الايمـان عندكم اسلام ، فمن اتى به فقد أتى بالاسلام ، فيكون مسلماً عندكم من تكلم بالشهادتين ولا اتى بشيء من الأعمال .

واحتجاجكم بقوله : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) قلتم : نفى عنهم الايمان واثبت لهم الاسلام . فيقال : هذه الآية حجة عليكم لأنه لـما اثبت لهم الاسلام مع انتفاء الأيمان ، دل ذلك على ان الايمان ليس بجزء من الاسلام ، اذ لو كان بعضه لـما كانوا مسـلمين ان لم يأتوا به ، وان قلتم : اردنا بقولنا : اثبت لهم الاسلام اى اسلاماً ما ، فان كل طاعة من الاسـلام

إسلام عندنا ، لزمكم ما تقدم ، من ان يكون صوم يوم اسلاماً ، وصدقة درهم اسلاماً ، وامثال ذلك .

وهم يقولون : كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، قالو : هذا من حيث الاطلاق ، والا فالتفصيل ما ذكرناه من ان الايمان خصلة من خصال الاسلام والدين ، وليس هو جميع الاسلام والدين ، فان الاسلام هو الاستسلام لله بفعل كل طاعة وقعت موافقة للامر . والايمان اعظم خصلة من خصال الاسلام . واسم الاسلام شامل لكل طاعة انقاد بها العبد لله ، من ايمان ، وتصديق ، وفرض سواه ، ونفل ، غير انه لا يصلح التقرب بفعل ما عدا الايمان من الطاعات دون تقديم فعل الايمان . قالوا : والدين مأخوذ من التدين ؛ وهو قريب من الاسلام فى المعنى .

فيقال لهم : اذا كان هذا قولكم : فقولكم : كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً يناقض هذا ؛ فان المسلم هو المطيع لله ، ولا تصح الطاعة من احد الا مع الايمان ، فيمتنع ان يكون احد فعل شيئاً من الاسلام الا وهو مؤمن ، ولو كان ذلك ادنى الطاعات ، فيجب ان يكون كل مسلم مؤمناً ، سواء اريد بالاسلام فعل جميع الطاعات ، او فعل واحدة منها ، وذلك لا يصح كله الا مع الايمان ، وحينئذ فالآية حجة عليكم لا لكم .

ثم قولكم : كل مؤمن مسلم ، ان كنتم تريدون بالايمان تصديق القلب فقط ، فيلزم ان يكون الرجل مسلماً ولو لم يتكلم بالشهادتين ولا اتى بشيء

من الأعمال المأمور بهـا وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من دين الاسلام ، بل عامة اليهود والنصارى يعلمـون ان الرجـل لا يكون مسـلماً حتى يأتي بالشهادتين او ما يقوم مقـامهما ، وقولكم : كل مؤمن مسلم ، لا يريدون انه اتى بالشهادتين ولا بشيء من المبـاني الخمس ، بل اتى بما هو طـاعة وتلك طاعة باطنة ، وليس هذا هو المسلم المعروف في الـكتاب والسـنة ، ولا عند الائمة الأولين والآخرين ، ثم استدللتم بالآية ، والأعراب انمـا اتوا باسـلام ظاهر نطقوا فيه بالشهادتين ، سواء كانوا صادقين او كاذبين ، فأثبت الله لهم الاسلام دون الايمان ، فيظن من لا يعرف حقيقة الأمر ان هذا هو قول السلف الذي دل عليه الـكتاب والسنة من ان كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً ، وبينهما من التبـاين اعظم مما بين قول السلف وقـول المعتزلة في الايمان والاسلام ؛ فان قول المعتزلة فى الايمان والاسـلام اقرب من قول الجهمية بكثير ، ولكن قولهم فى تخليد اهل القبـلة ابعد عن قول السلف من قول الجهمية .

فالمتأخرون الذين نصروا قول جهم فى « مسألة الايمـان » يظهرون قول السلف فى هذا وفى الاستثناء ، وفى انتفاء الايمـان الذي فى القلب حيث نفاه القرآن ونحو ذلك . وذلك كله موافق للسلف فى مجرد اللفظ ، وإلا فقولهم فى غاية المباينة لقول السلف ؛ ليس فى الأقوال أبعد عن السلف منه . وقول المعتزلة والخوارج والـكرامية فى اسم الايمان والاسلام أقرب الى قول السلف من قول

الجهمية ؛ لكن المعتزلة والخوارج يقولون بتخليد العصاة ، وهذا أبعد عن قول السلف من كل قول ، فهم اقرب فى الاسم وابعد فى الحكم ؛ والجهمية وان كانوا فى قولهم : بأن الفساق لا يخلدون اقرب فى الحكم الى السلف ، فقولهم فى مسمى الاسلام والايمان وحقيقتهما ابعد من كل قول عن الكتاب والسنة ، وفيه من مناقضة العقل والشرع واللغة ما لا يوجد مثله لغيرهم .

فصـــــل

ومما يدل من القرآن على ان الايمان المطلق مستلزم للأعمال قوله تعالى : (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) فنفى الايمان عن غير هؤلاء ، فمن كان إذا ذكر بالقرآن لا يفعل ما فرضه الله عليه من السجود لم يكن من المؤمنين ، وسجود الصلوات الخمس فرض باتفاق المسلمين ، واما سجود التلاوة ففيه نزاع ؛ وقد يحتج بهذه الآية من يوجبه ، لكن ليس هذا موضع بسط هـذه المسألة ، فهذه الآية مثل قوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) . وقوله : (انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) وقوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) ومن ذلك قوله تعالى : (عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا بأموالهم وانفسهم والله عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) .

وهذه الآية مثل قوله : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) وقوله : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه

ما اتخذوهم اولياء) بين سبحانه ان الايمان له لوازم وله أضداد موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء اضداده ومن أضـداده موادة من حاد الله ورسوله ، ومن اضداده استئذانه فى ترك الجهاد ، ثم صرح بأن استئذانه انما يصدر من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ودل قوله : (والله عليم بالمتقين) على ان المتقين هم المؤمنون .

ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن » وقوله : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » وقوله : « لا تؤمنوا حتى تحابوا » وقوله : « لا يؤمن احـدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين » وقوله « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه من الخـير ما يحب لنفسه » وقوله « من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا » .

فصـــــــل

واما اذا قيد الايمان فقرن بالاسلام او بالعمل الصالح ، فانه قد يراد به ما فى القلب من الايمان باتفاق الناس ، وهل يراد به أيضاً المعطوف عليه ويكون من باب عطف الخاص على العام ، او لا يكون حين الاقتران داخلاً فى مسماه ؟ بل يكون لا زماً له ، على مذهب اهل السنة ، او لا يكون بعضاً ولا لا زماً ، هذا فيه ثلاثة اقوال للناس ، كما سيأتي ان شاء الله ، وهذا موجود فى عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ، مثال ذلك اسم « المعروف » و « المنكر » إذا أطلق كما فى قوله تعالى : (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) وقوله : (كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) وقوله : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) يدخل فى المعروف كل خير ، وفى المنكر كل شر .

ثم قد يقرن بما هو اخص منه كقوله : (لا خير فى كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس) فغاير بين المعروف وبين الصدقة والاصلاح بين الناس ــ كما غاير بين اسم الايمان والعمل ؛ واسم الايمان والاسلام ــ وكذلك قوله تعالى : (ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر) غاير

بينهما وقد دخلت الفحشاء فى المنكر فى قوله : (وينهون عن المنكر) ثم ذكر مع المنكر اثنين فى قوله : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) جعل البغي هنا مغايراً لهما ، وقد دخل فى المنكر فى ذينك الموضعين .

ومن هذا الباب لفظ « العبادة » فاذا امر بعبادة الله مطلقاً دخل فى عبادته كل ما امر الله به ، فالتوكل عليه مما امر به والاستعانة به مما أمر به ؛ فيدخل ذلك فى مثل قوله : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) وفى قوله : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) . وقوله : (يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم) وقوله : (انا انزلنا إليك الكتاب بالحق فأعبد الله مخلصاً له الدين) (قل الله اعبد مخلصاً له ديني) . وقوله : (افغير الله تأمروني اعبد ايها الجاهلون) .

ثم قد يقرن بها اسم آخر كما فى قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) وقوله : (فاعبده وتوكل عليه) . وقول نوح (اعبدوا الله واتقوه واطيعون) . وكذلك إذا افرد اسم « طاعة الله » دخل فى طاعته كل ما امر به وكانت طاعة الرسول داخلة فى طاعته ، وكذا اسم « التقوى » اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور . قال طلق بن حبيب : التقوى : ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله ، وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما فى قوله : (ان المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) .

وقد يقرن بها اسم آخر كقوله : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقوله : (انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين) وقوله : (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) وقوله : (اتقوا الله وقولوا قولاً سـديداً) . وقوله : (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقوله : (اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وانتم مسلمون) وامثال ذلك .

فقوله : (اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً) مثل قوله : (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وقوله : (آمن الرسول بما انزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين احد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) فعطف قولهم على الايمان ؛ كما عطف القول السديد على التقوى ؛ ومعلوم ان التقوى إذا أطلقت دخل فيها القول السديد ، وكذلك الايمان إذا أطلق دخل فيه السمع والطاعة لله وللرسول ، وكذلك قوله : (آمنوا بالله ورسوله) ، وإذا اطلق الايمان بالله في حق أمة محمد دخل فيه الايمان بالرسول ، وكذلك قوله : (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) وإذا أطلق الايمان بالله دخل فيه الايمان بهذه التوابع ، وكذلك قوله : (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) وقوله : (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم) الآية .

وإذا قيل : (آمنوا بالله ورسـوله النبي الأمي) دخل في الايمان برسوله الايمان بجميع الـكتب والرسل والنبيين ، وكذلك اذا قيل : (آمنوا برسوله يؤتـكم كفلين من رحمته) واذا قيل : (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلـكم مستخلفين فيه) دخل في الايمـان بالله ورسوله الايمـان بذلك كله ، والانفاق يدخل في قوله في الآية الأخرى : (آمنوا بالله ورسوله) كما يدخل القـول السديد في مثل قوله : (ولقد وصينا الذين أوتوا الـكتاب) .

وكذلك لفظ « البر » اذا اطلق تنـاول جميع ما امر الله به كما في قوله : (ان الأبرار لفي نعيم ، وان الفجار لفي جحيم) وقوله : (ولـكن البر من اتقى) وقوله : (ولـكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائـكة والـكتاب والنبيين وآتى المـال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) فالبر إذا اطلق كان مسماه مسمى التقوى ، والتقوى اذا اطلقت كان مسماها مسمى البر ، ثم قد يجمع بينهما كما في قوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى) .

وكذلك لفظ « الاثم » اذا اطلق دخل فيه كل ذنب ، وقد يقرن بالعدوان كما في قوله تعالى : (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) . وكذلك لفظ «الذنوب» إذا اطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم ، كما في قوله : (يا عبادي

الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً). ثم قد يقرن بغيره كما في قوله : (ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في امرنا) وكذلك لفظ « الهدى » اذا اطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعاً فيدخل فيه كل ما امر الله به كما في قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعاً . وكذلك قوله : (هدى للمتقين) . والمراد به انهم يعلمون ما فيه ويعملون به ، ولهذا صاروا مفلحين ، وكذلك قول اهل الجنة : (الحمد لله الذي هدانا لهذا) وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح .

ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما في قوله (واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم) وكما في قوله : (شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه) (الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب) وكذلك قوله تعالى : (هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق) والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام ، واذا اطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا .

ولفظ « الضلال » اذا اطلق تناول من ضل عن الهدى ، سواء كان عمداً او جهلاً ، ولزم ان يكون معذباً كقوله : (انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) وقوله : (ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) وقوله : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) ثم قد يقرن بالغي و الغضب كما في قوله : (ما ضل صاحبكم

وما غوى) . وفى قوله : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) . وقوله : (ان المجرمين فى ضلال وسعر) . وكذلك لفظ « الغي » إذا اطلق تناول كل معصية لله كما فى قوله عن الشيطان : (لأغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين) . وقد يقرن بالضلال كما فى قوله : (ما ضل صاحبكم وما غوى) .

وكذلك اسم « الفقير » إذا اطلق دخل فيه المسكين ، واذا اطلق لفظ « المسكين » تناول الفقير ، واذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر ؛ فالأول كقوله : (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) وقوله : (فكفارته إطعام عشرة مساكين) والثاني كقوله : (انما الصدقات للفقراء والمساكين) .

و « هذه الأسماء » التى تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد ، والاقتران تارة يكونان اذا افرد احدهما اعم من الآخر ، كاسم « الايمان » و « المعروف » مع العمل ومع الصدق ؛ و « كالمنكر » مع الفحشاء ومع البغي ونحو ذلك . وتارة يكونان متساويين فى العموم والخصوص ، كلفظ « الايمان » و « البر » و « التقوى » ولفظ « الفقير » و « المسكين » ؛ فأيهما اطلق تناول ما يتناوله الآخر ؛ وكذلك لفظ « التلاوة » فانها إذا اطلقت فى مثل قوله : (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) تناولت العمل به كما فسره بذلك الصحابة والتابعون مثل ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم قالوا : يتلونه حق تلاوته يتبعونه حق اتباعه فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه . وقيل : هو من التلاوة بمعنى الاتباع كقوله : (والقمر اذا تلاها)

وهذا يدخل فيه من لم يقرأه ، وقيل : بل من تمام قراءته ان يفهم معناه ويعمل به كما قال ابو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً .

وقوله : (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) قد فسر بالقرآن وفسر بالتوراة . وروى محمد بن نصر باسناده الثابت عن ابن عباس : (يتلونه حق تلاوته) قال يتبعونه حق اتباعه . وروى ايضاً عن ابن عباس : يتلونه حق تلاوته ، قال : يحلون حلاله . ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه ؛ وعن قتادة : يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به ، قال : اولئك اصحاب محمد آمنوا بكتاب الله وصدقوا به ، احلوا حلاله وحرموا حرامه وعملوا بما فيه ، ذكر لنا ان ابن مسعود كان يقول ان حق تلاوته : أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، وان نقرأه كما انزل الله ولا نحرفه عن مواضعه ، وعن الحسن : يتلونه حق تلاوته ، قال : يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما اشكل عليهم إلى عالمه ، وعن مجاهد : يتبعونه حق اتباعه وفي رواية : يعملون به حق عمله .

ثم قد يقرن بالتلاوة غيرها ، كقوله : (اتل ما أوحي اليك من الكتاب واقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) . قال احمد بن حنبل وغيره : تلاوة الكتاب : العمل بطاعة الله كلها ، ثم خص الصلاة بالذكر كما في قوله : (والذين يمسكون بالكتاب واقاموا الصلاة) وقوله : (فاعبدني واقم الصلاة

لذكري) . وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله : (اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء) وقوله : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) وقوله : (وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقد يقرن به غيره كقوله : (وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) وقوله : (اتبع ما أوحي اليك من ربك لا إله إلا هو واعرض عن المشركين) وقوله : (واتبع ما اوحي اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) .

وكذلك لفظ « الأبرار » اذا اطلق دخل فيه كل تقي من السابقين والمقتصدين ، واذا قرن بالمقربين كان أخص ، قال تعالى في الأول : (ان الأبرار لفي نعيم ، وان الفجار لفي جحيم) وقال في الثاني : (ان كتاب الأبرار لفي عليين ، وما ادراك ما عليون ، كتاب مرقوم يشهده المقربون) وهذا باب واسع يطول استقصاؤه .

ومن أنفع الأمور في معرفة دلالة الألفاظ مطلقاً وخصوصاً ألفاظ الكتاب والسنة ، وبه تزول شبهات كثيرة كثر فيها نزاع الناس ، من جملتها « مسألة الايمان والاسلام » فان النزاع في مسماها اول اختلاف وقع ، افترقت الأمة لأجله وصاروا مختلفين في الكتاب والسنة ، وكفر بعضهم بعضاً وقاتل بعضهم بعضاً ، كما قد بسطنا هذا في مواضع أخر ، إذ المقصود هنا بيان شرح كلام الله ورسوله على وجه يبين ان الهدى كله مأخوذ من كلام

الله ورسوله باقامة الدلائل الدالة ، لا بذكر الأقوال التى تقبل بلا دليل وترد بلا دليل ، او يكون المقصود بها نصر غير الله والرسول فان الواجب ان يقصد معرفة ما جاء به الرسول واتباعه بالأدلة الدالة على ما بينه الله ورسوله .

ومن هذا الباب اقوال السلف وأئمة السنة فى « تفسير الايمان » فتارة يقولون : هو قول وعمل . وتارة يقولون : هو قول وعمل ونية . وتارة يقولون قول وعمل ونية واتباع السنة . وتارة يقولون : قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، وكل هذا صحيح . فاذا قالوا : قول وعمل فانه يدخل فى القول قول القلب واللسان جميعاً ؛ وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ، ونحو ذلك اذا اطلق .

والناس لهم فى مسمى « الكلام » و « القول » عند الاطلاق اربعة اقوال فالذي عليه السلف والفقهاء والجمهور انه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً كما يتناول لفظ الانسان للروح والبدن جميعاً . وقيل : بل مسماه هو اللفظ ، والمعنى ليس جزء مسماه ، بل هو مدلول مسماه ، وهذا قول كثير من اهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين الى السنة ، وهو قول النحاة لأن صناعتهم متعلقة بالألفاظ . وقيل : بل مسماه هو المعنى وإطلاق الكلام على اللفظ مجاز لأنه دال عليه ، وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه ، وقيل : بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى ، وهو قول بعض المتأخرين من الكلابية ، ولهم قول ثالث يروى عن أبي الحسن انه مجاز فى كلام الله حقيقة فى كلام الآدميين ، لأن حروف الآدميين

تقوم بهم ، فلا يكون الكلام قائماً بغير المتكلم ، بخلاف الكلام القرآني ؛ فانه لا يقوم عنده بالله ، فيمتنع ان يكون كلامه ، ولبسط هذا موضع آخر .

(والمقصود هنا) ان من قال من السلف : الايمان قول وعمل ، اراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ؛ ومن أراد الاعتقاد رأى ان لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر او خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب ، ومن قال : قول وعمل ونية ، قال : القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان ، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك ، ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوباً لله إلا باتباع السنة ، وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل ، إنما ارادوا ما كان مشروعاً من الأقوال والأعمال ، ولكن كان مقصودهم الرد على « المرجئة » الذين جعلوه قولاً فقط ، فقالوا : بل هو قول وعمل ، والذين جعلوه « اربعة اقسام » فسروا مرادهم ، كما سئل سهل بن عبد الله التستري عن الايمان ما هو ؟ فقال : قول وعمل ونية وسنة ، لأن الايمان اذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر ، واذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق ، واذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة .

فصــــل

وعطف الشيء على الشيء فى القرآن .وسـائر الـكلام يقتضى مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشـتراك المعطوف والمعطوف عليه فى الحـكم الذي ذكر لهما ، والمغايرة على مراتب اعلاها ان يكونا متباينين ليس احدهما هو الآخر ولا جزأه ، ولا يعرف لزومه له كقوله (خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة ايام) ونحو ذلك ، وقوله : (وجبريل وميكال) وقوله : (وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وانزل الفرقان) وهـذا هو الغالب . ويليه ان يكون بينهما لزوم كقوله : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتـكتموا الحق) وقوله : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غـير سبيل المؤمنين) وقوله : (ومن يكفر بالله وملائـكته وكتبه ورسله) فان من يكفر بالله فقد كفر بهذا كله ، فالمعطوف لازم للمعطوف عليه ، وفي الآية التي قبلهـا المعطوف عليه لازم ، فانه من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين . وفى الثاني نزاع ، وقوله : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتـكتموا الحق) هما متلازمان ، فان من لبس الحق بالباطل فجعـله ملبوساً به ، خفى من الحق بقدر ما ظهر من الباطل ، فصار ملبوساً ، ومن كتم الحق احتاج ان يقيم موضعه

باطلا فيلبس الحق بالباطل ، ولهذا كان كل من كتم من اهل الكتاب ما انزل الله فلا بد ان يظهر باطلا .

وهكذا « اهل البدع » لا تجد احداً ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل إلا وقع فى بدعة ، ولا تجد صاحب بدعة الا ترك شيئاً من السنة ، كما جاء فى الحديث : « ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها » رواه الامام احمد . وقد قال تعالى : (فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء) فلما تركوا حظاً مما ذكروا به اعتاضوا بغيره فوقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وقال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) اي عن الذكر الذي انزله الرحمن ، وقال تعالى : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن اعرض عن ذكري فانه له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى) وقال : (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون) فأمر باتباع ما انزل ونهى عما يضاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه ، فمن لم يتبع أحدهما اتبع الآخر ، ولهذا قال (ويتبع غير سبيل المؤمنين) قال العلماء : من لم يكن متبعاً سبيلهم كان متبعاً غير سبيلهم ، فاستدلوا بذلك على ان اتباع سبيلهم واجب ، فليس لأحد ان يخرج عما اجمعوا عليه .

وكذلك من لم يفعل المأمور ، فعل بعض المحظور ، ومن فعل المحظور ، لم يفعل جميع المأمور .فلا يمكن الانسان ان يفعل جميع ما امر به مع فعله لبعض

ما حظر، ولا يمكنه ترك كل ماحظر مع تركه لبعض ما امر، فان ترك ماحظر من جملة ما امر به فهو مأمور ، ومن المحظور ترك المأمور ، فكل ما شغله عن الواجب فهو محرم ، وكل مالا يمكن فعل الواجب الا به فعليه فعله ، ولهذا كان لفظ «الأمر» إذا أطلق يتناول النهي ، واذا قيد بالنهى كان النهى نظير ما تقدم ، فاذا قال تعالى عن الملائكة : (لا يعصون الله ما أمرهم) دخل فى ذلك انه إذا نهاهم عن شيء اجتنبوه ، واما قوله : (ويفعلون ما يؤمرون) فقد قيل : لا يتعدون ما أمروا به ، وقيل : يفعلونه فى وقته لا يقدمونه ولا يؤخرونه .

وقد يقال : هو لم يقل : ولا يفعلون إلا ما يؤمرون ، بل هذا دل عليه قوله : (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وقد قيل : لا يعصون ما امرهم به فى الماضي ويفعلون ما يؤمرون فى المستقبل ، وقد يقال : هذه الآية خبر عما سيكون ، ليس ما امروا به هنا ماضيا بل الجميع مستقبل ، فانه قال : (قو انفسكم واهليكم ناراً) وما يتقي به إنما يكون مستقبلاً ، وقد يقال : ترك المأمور تارة يكون لمعصية الآمر وتارة يكون لعجزه ، فاذا كان قادراً مريداً ، لزم وجود المأمور المقدور ، فقوله (لا يعصون) لا يمتنعون عن الطاعة ، وقوله (ويفعلون ما يؤمرون) اى هم قادرون على ذلك لا يعجزون عن شيء منه بل يفعلونه كله فيلزم وجود كل ما امروا به ،وقد يكون فى ضمن ذلك انهم لا يفعلون الا المأمور به كما يقول القائل : انا افعل ما امرت به اى افعله ولا اتعداه الى زيادة ولا نقصان .

وايضاً فقوله : (لا يعصون الله ما امرهم) ان كان نهاهم عن فعل آخر كان ذلك من امره ، وان كان لم ينههم لم يكونوا مذمومين بفعل ما لم ينهوا عنه .

والمقصود ان لفظ « الأمر » إذا أطلق تناول النهى ، ومنه قوله : (اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر) اى اصحاب الأمر ، ومن كان صاحب الأمر كان صاحب النهى ووجبت طاعته فى هذا وهذا ، فالنهى داخل فى الامر ، وقال موسي للخضر : (ستجدني ان شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى احدث لك منه ذكراً) وهذا نهى له عن السؤال حتى يحدث له منه ذكراً ولما خرق السفينة قال له موسى (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً امراً) فسأله قبل احداث الذكر ، وقال فى الغلام (أقتلت نفساً زكية بغير نفس ، لقد جئت شيئاً نكراً) فسأله قبل احداث الذكر ، وقال في الجدار (لو شئت لاتخذت عليه أجراً) وهذا سؤال من جهة المعنى ، فان السؤال والطلب قد يكون بصيغة الشرط كما تقول : لو نزلت عندنا لأكرمناك، وان بت الليلة عندنا أحسنت الينا ، ومنه قول آدم (ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقول نوح (رب اني أعوذ بك ان أسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني اكن من الخاسرين) ومثله كثير ولهذا قال موسى (ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) فدل على انه سأله الثلاث قبل ان يحدث له الذكر ، وهذا معصية لنهيه وقد دخل في قوله (ولا أعصي لك أمراً) فدل على ان عاصي النهى عاص الأمر ، ومنه قوله تعالى

(الاله الخلق والأمر) وقد دخل النهى فى الأمر . ومنه قوله : (فليحذر الذين يخالفون عن امره) وقوله : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم) فان نهيه داخل في ذلك .

وقد تنازع الفقهاء فى قول الرجل لامرأته : اذا عصيت امري فأنت طالق ، اذا نهاها فعصته هل يكون ذلك داخلاً فى امره ؟ على قولين : قيل : لا يدخل لأن حقيقة النهى غير حقيقة الامر ، وقيل : يدخل لأن ذلك يفهم منه فى العرف معصية الأمر والنهى ، وهذا هو الصواب ، لأن ما ذكر في العرف هو حقيقة فى اللغة والشرع ، فان الأمر المطلق من كل متكلم اذا قيل : اطع امر فلان ، او فلان يطيع امر فلان ، او لا يعصي امره ، فانه يدخل فيه النهى ، لأن الناهي آمر بترك المنهي عنه ، فلهذا قال سبحانه : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون) ولم يقل : لا تكتموا الحق فلم ينه عن كل منهما لتلازمهما ، وليست هذه واو الجمع التى يسميها الكوفيون واو الصرف كما قد يظنه بعضهم ، فانه كان يكون المعنى : لا تجمعوا بينهما فيكون احدهما وحده غير منهي عنه .

و « أيضاً » فتلك إنما تجيء إذا ظهر الفرق كقوله : (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وقوله : (أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ، ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص) . ومن عطف الملزوم قوله تعالى : (اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) فانهم إذا اطاعوا

الرسول فقد اطاعوا الله كما قال تعالى : (من يطع الرسول فقـد اطاع الله)
واذا اطاع الله من بلغته رسالة محمد فانه لا بد ان يطيع الرسول ، فانه لا طاعة
لله إلا بطاعته . و « الثالث » عطف بعض الشيء عليه كقوله : (حافظوا على
الصلوات والصلاة الوسطى) وقوله (واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن
نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم) وقوله : (من كان عـدواً لله
وملائـكته ورسله وجـبريل وميكال) وقوله : (واورثـكم ارضهم وديارهم
واموالهم وارضاً لم تطؤوها) و « الرابع » عطف الشيء على الشيء لاختلاف
الصفتين ، كقوله : (سبح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر
فهدى والذي اخرج المرعى) وقوله : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة
ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة
هم يوقنون) وقد جاء في الشعر ما ذكر انه عطف لاختلاف اللفظ فقط كقوله :

وألفى قولها كذباً وميناً .

ومن الناس من يدعي ان مثل هـذا جاء في كتاب الله كما يذكرونه في
قوله : (شرعة ومنهاجا) وهذا غلط ، مثل هذا لا يجيء في القرآن ولا في كلام
فصيح . وغاية ما يذكر الناس اختلاف معنى اللفظ ، كما ادعى بعضهم ان من
هذا قوله :

ألا حبذا هند وارض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد

فزعموا أنهما بمعنى واحد . واستشهدوا بذلك على ما ادعوه من ان الشرعة

هي المنهاج ، فقال المخالفون لهم : النأي اعم من البعد ، فان النأي كلما قل بعده او كثر ؛ كأنه مثل المفارقة . والبعد انما يستعمل فيما كثرت مسافة مفارقته ، وقد قال تعالى : (وهم ينهون عنه وينأون عنه) وهم مذمومون على مجانبته والتنحي عنه سواء كانوا قريبين او بعيدين ، وليس كلهم كان بعيداً عنه ، لا سيما عند من يقول : نزلت فى ابى طالب ، وقد قال النابغة :ـ

والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد .

والمراد به ما يحفر حول الخيمة لينزل فيه الماء ولايدخل الخيمة ، اى صار كالحوض فهو مجانب للخيمة ليس بعيداً منها .

فصـــــل

فاذا تبين هذا ، فلفظ «الايمان» إذا اطلق فى القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ « البر » ، وبلفظ « التقوى » وبلفظ « الدين » كما تقدم ؛ فان النبى صلى الله عليه وسلم بين ان « الايمان بضع وسبعون شعبة ، افضلها قول : لا اله إلا الله ، وادناها إماطة الأذى عن الطريق » فكان كل ما يحبه الله يدخل فى اسم الايمان وكذلك لفظ « البر » يدخل فيه جميع ذلك إذا اطلق ، وكذلك لفظ «التقوى» وكذلك « الدين ، او دين الاسلام » وكذلك روي انهم سألوا عن الايمان فأنزل الله هذه الآية (ليس البر ان تولوا وجوهكم) الآية ، وقد فسر البر بالايمان ، وفسر بالتقوى ، وفسر بالعمل الذي يقرب الى الله والجميع حق ، وقد روى مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم (انه فسر البر بالايمان) .

قال محمد بن نصر : حدثنا اسحاق بن ابراهيم حدثنا عبد الله بن يزيد المقري والملائي قالا : حدثنا المسعودي عن القاسم قال : جاء رجل إلى ابي ذر فسأله عن الايمان فقرأ : (ليس البر ان تولوا وجوهكم) الى آخر الآية ؛ فقال الرجل : ليس عن البر سألتك . فقال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذي سألتنى عنه ، فقرأ عليه الذي قرأت عليك ، فقال له الذي قلت

لي. فلما ابى ان يرضى قال له: إن المؤمن الذي إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها واذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها .

وقال: حدثنا اسحاق حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الكريم الجزري عن مجاهد ان ابا ذر سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرا عليه: (ليس البر ان تولوا وجوهكم) الى آخر الآية، وروى باسناده عن عكرمة قال: سئل الحسن بن علي بن ابي طالب مقبله من الشام عن الايمان فقرا: (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) وروى ابن بطة باسناده عن مبارك بن حسان قال: قلت لسالم الأفطس: رجل اطاع الله فلم يعصه، ورجل عصى الله فلم يطعه، فصار المطيع الى الله فأدخله الجنة، وصار العاصي الى الله فأدخله النار، هل يتفاضلان في الايمان؟ قال: لا. قال فذكرت ذلك لعطاء فقال: سلهم الايمان طيب او خبيث؟ فان الله قال: (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم اولئك هم الخاسرون) فسألتهم فلم يجيبوني، فقال بعضهم: إن الايمان يبطن ليس معه عمل، فذكرت ذلك لعطاء فقال: سبحان الله! أما يقرؤون الآية التي في البقرة: (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) ؟ . قال: ثم وصف الله على هذا الاسم ما لزمه من العمل فقال: (وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل — الى قوله — وأولئك هم المتقون) فقال: سلهم

هل دخل هذا العمل فى هـذا الاسم . وقال: (ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) فألزم الاسم العمل والعمل الاسم .

والمقصود هنا انه لم يثبت المدح إلا على إيمان معه العمل ، لا على إيمان خال عن عمل ، فاذا عرف ان الذم والعقاب واقع فى ترك العمل كان بعد ذلك نزاعهم لا فائدة فيه ، بل يكون نزاعا لفظياً مع انهم مخطئون فى اللفظ ، مخالفون للكتاب والسنة ، وان قالوا : إنه لايضره ترك العمل فهذا كفر صريح ؛ وبعض الناس يحكى هذا عنهم وانهم يقولون : إن الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم ان يعملوها ولا يضرهم تركها ، وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون : لا يدخل النار من اهل التوحيد احد ، لكن ماعلمت معيناً أحكي عنه هذا القول ، وإنما الناس يحكونه فى الكتب ولا يعينون قائله ، وقد يكون قول من لا خلاق له ؛ فان كثيراً من الفساق والمنافقين يقولون : لايضر مع الايمان ذنب او مع التوحيد ، وبعض كلام الرادين على المرجئة وصفهم بهذا .

ويدل على ذلك قوله تعالى فى آخر الآية (اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) . فقوله صـدقوا اي فى قولهم : آمنوا ؛ كقوله : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) الى قوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون) اي هم الصادقون فى قولهم: آمنا بالله ، بخلاف الـكاذبين الذين قال الله فيهم : (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله

والله يعلم إنك لرسوله ؛ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وقال تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا انفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانو يكذبون)، وفى (يكذبون) قراءتان مشهورتان فانهم كذبوا فى قولهم : آمنا بالله واليوم الآخر ، وكذبوا الرسول فى الباطن وان صدقوه فى الظاهر ، وقال تعالى : (الم ؛ احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنونَّ ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) فبين انه لا بد ان يفتن الناس اي يمتحنهم ويبتليهم ويختبرهم . يقال : فتنت الذهب اذا ادخلته النار لتميزه مما اختلط به ، ومنه قول موسى : (إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) أي محنتك واختبارك وابتلاؤك ، كما ابتليت عبادك بالحسنات والسيئات ليتبين الصبار الشكور من غيره ، وابتليتهم بارسال الرسل وإنزال الكتب ليتبين المؤمن من الكافر والصادق من الكاذب والمنافق من المخلص فتجعل ذلك سبباً لضلالة قوم وهدي آخرين .

والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق ، والمنافقين بالكذب لأن الطائفتين قالتا بألسنتهما : آمنا ، فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق ومن قال بلسانه ما ليس فى قلبه فهو كاذب منافق ، قال تعالى : (وما اصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله او ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ اقرب منهم للايمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله اعلم بما يكتمون)

فلما قال فى آية البر : (اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) دل على ان المراد صدقوا فى قولهم : آمنا ، فان هذا هو القول الذي أمروا به وكانوا يقولونه .

ولم يؤمروا أن يلفظوا بألسنتهم ويقولوا : نحن ابرار او بررة ؛ بل اذا قال الرجل : انا بر فهذا مزك لنفسه ، ولهذا كانت زينب بنت جحش اسمها برة فقيل :تزكي نفسها، فسماها النبي صلى الله عليه وسلم زينب ؛ بخلاف انشاء الايمان بقولهم:«آمنا» فان هذا قد فرض عليهم ان يقولوه ، قال تعالى (قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما اوتى موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم) وكذلك فى اول آل عمران (قل آمنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما اوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم) .

وقال تعالى : (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين احد من رسله) فقوله : (لا نفرق) دليل على انهم قالوا : آمنا ولا نفرق، ولهذا قال : (وقالوا سمعنا واطعنا) فجمعوا بين قولهم : آمنا وبين قولهم : سمعنا واطعنا ، وقد قال فى آية البر : (واولئك هم المتقون) فجعل الأبرار هم المتقين عند الاطلاق والتجريد ، وقد ميز بينهما عند الاقتران والتقييد فى قوله : (وتعاونوا على البر والتقوى) ودلت هذه الآية على ان مسمى الايمان ومسمى البر ومسمى التقوى عند الاطلاق واحد ، فالمؤمنون هم المتقون وهم الأبرار .

ولهذا جاء في احاديث الشفاعة الصحيحة : «يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان » ، وفي بعضها : « مثقال ذرة من خير » وهذا مطابق لقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وذلك الذي هو مثقال ذرة من خير هو مثقال ذرة من ايمان ، وهؤلاء المؤمنون الأبرار الأتقياء هم اهل السعادة المطلقة ، وهم اهل الجنة الذين وعدوا بدخولها بلا عذاب ، وهؤلاء الذين قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا » فانه ليس من هؤلاء ؛ بل من اهل الذنوب المعرضين للوعيد اسوة امثالهم .

فصـــــل

وهذا النوع من نمط «اسماء الله، واسماء كتابه، واسماء رسوله، واسماء دينه» قال الله تعالى : (قل ادعوا الله اوادعوا الرحمن اياً ما تدعوا فله الاسماء الحسنى) وقال تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى اسمائه) وقال الله تعالى : (هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم . هو الله الذي لا اله الا هو ؛ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون . هوالله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) فأسماؤه كلها متفقة فى الدلالة على نفسه المقدسة ، ثم كل اسم يدل على معنى من صفاته . ليس هو المعنى الذى دل عليه الاسم الآخر ؛ فالعزيز يدل على نفسه مع عزته ، والخالق يدل على نفسه مع خلقه ، والرحيم يدل على نفسه مع رحمته ، ونفسه تستلزم جميع صفاته ، فصار كل اسم يدل على ذاته والصفة المختصة به بطريق المطابقة ، وعلى احدهما بطريق التضمن ، وعلى الصفة الأخرى بطريق اللزوم .

وهكذا «اسماء كتابه» القرآن، والفرقان، والكتاب والهدى، والبيان، والشفاء

والنور ، ونحو ذلك هي بهذه المنزلة . وكذلك « أسماء رسوله » : محمد ، وأحمد والماحي، والحاشر، والمقفي، ونبي الرحمة ، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، كل اسم يدل على صفة من صفاته الممدوحة غير الصفة الأخرى، وهكذا مايثنى ذكره من القصص فى القرآن كقصة موسى وغيرها ، ليس المقصود بها ان تكون سمرا ؛ بل المقصود بها ان تكون عبراً كما قال تعالى : (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) فالذى وقع ، شيء واحد وله صفات ؛ فيعبر عنه بعبارات متنوعة كل عبارة تدل على صفة من الصفات التى يعتبر بها المعتبرون ، وليس هذا من التكرير فى شيء .

وهكذا « أسماء دينه » الذى أمر الله به ورسوله يسمى إيماناً ، وبراً ، وتقوى ، وخيراً ، وديناً ، وعملاً صالحاً ، وصراطاً مستقيماً ، ونحو ذلك ؛ وهو فى نفسه واحد ، لكن كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة التى يدل عليها الآخر ، وتكون تلك الصفة هي الأصل فى اللفظ والباقى كان تابعاً لها لازماً لها ثم صارت دالة عليه بالتضمن ، فان « الايمان » أصله الايمان الذي فى القلب ، ولا بد فيه من « شيئين » : تصديق بالقلب ، وإقراره ومعرفته . ويقال لهذا : قول القلب . قال « الجنيد بن محمد » : التوحيد : قول القلب . والتوكل : عمل القلب ، فلا بد فيه من قول القلب ، وعمله ؛ ثم قول البدن وعمله ، ولا بد فيه من عمل القلب ، مثل حب الله ورسوله ، وخشية الله، وحب مايحبه الله ورسوله وبغض ما يبغضه الله ورسوله ، وإخلاص العمل لله وحده ، وتوكل القلب على الله وحده ، وغير ذلك من أعمال القلوب التى أوجبها الله ورسوله وجعلها من الايمان .

ثم القلب هو الأصل ، فاذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك الى البدن بالضرورة ، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « الا وان فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، واذا فسدت فسد لها سائر الجسد الا وهي القلب » .

وقال أبو هريرة : القلب ملك والأعضاء جنوده ، فاذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث الملك خبثت جنوده ، وقول أبي هريرة تقريب . وقول النبي صلى الله عليه وسلم أحسن بياناً ، فان الملك وإن كان صالحاً فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس ، فيكون فيهم صلاح مع فساده ، أو فساد مع صلاحه ؛ بخلاف القلب فان الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، واذا فسدت فسد لها سائر الجسد » .

فاذا كان القلب صالحاً بما فيه من الايمان علما وعملاً قلبيا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالايمان المطلق، كما قال أئمة أهل الحديث : قول وعمل ، قول باطن وظاهر ، وعمل باطن وظاهر ، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر ، وإذا فسد فسد ؛ ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلي العابث : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ، فلا بد فى إيمان القلب من حب الله ورسوله وان يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما قال الله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم

كحب الله والذين آمنو اشـد حبا لله) فوصف الذين آمنوا بأنهم اشد حبا لله من المشركين لاندادهم .

وفى الآية « قولان » : قيل : يحبونهم كحب المؤمنين الله ، والذين آمنوا اشد حباً لله منهم لأوثانهم . وقيل : يحبونهم كما يحبون الله ، والذين آمنوا اشد حباً لله منهم ، وهـذا هو الصواب ؛ والأول قول متناقض وهو باطل ، فان المشركين لا يحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين لله، وتستلزم الارادة، والارادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل، فيمتنع ان يكون الانسان محباً لله ورسوله ؛ مريداً لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله ، فاذا لم يتكلم الانسان بالايمان مع قدرته دل على انه ليس فى قلبه الايمـان الواجب الذي فرضه الله عليه .

ومن هنـا يظهر خطأ قول « جهم بن صفوان » ومن اتبعه حيث ظنوا ان الايمان مجرد تصديق القلب وعلمه ، لم يجعلوا اعمال القلب من الايمان ، وظنوا انه قد يكون الانسان مؤمنـاً كامل الايمان بقلبه ، وهو مع هـذا يسب الله ورسوله ويعـادى الله ورسوله ويعادى اوليـاء الله ، ويوالى اعداء الله ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد ، ويهين المصاحف ، ويكرم الكفار غاية الكرامة ، ويهين المؤمنين غاية الاهانة ، قالوا : وهذه كلها معاص لا تنافى الايمان الذي في قلبه ، بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن قالوا : وإنما ثبت له فى الدنيا احكام الكفار ، لأن هذه الأقوال امارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم

بالاقرار والشهود ، وإن كان في الباطن قد يكون بخلاف ما اقر به وبخلاف ما شهد به الشهود ، فاذا أورد عليهم الكتاب والسنة والاجماع على ان الواحد من هؤلاء كافر في نفس الأمر معذب في الآخرة ، قالوا : فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه ، فالكفر عندهم شيء واحد وهو الجهل ، والايمان شيء واحد وهو العلم ، او تكذيب القلب وتصديقه ، فانهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم او هو هو ؟ .

وهذا القول مع انه افسد قول قيل فى « الايمان » فقد ذهب اليه كثير من « اهل الكلام المرجئة » . وقد كفر السلف ــ كوكيع بن الجراح واحمد بن حنبل وابى عبيد وغيرهم ــ من يقول بهذا القول . وقالوا : إبليس كافر بنص القرآن وإنما كفره باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم ، لا لكونه كذب خبراً . وكذلك فرعون وقومه ، قال الله تعالى فيهم : (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا) وقال موسى عليه السلام لفرعون : (لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر) بعد قوله : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لاظنك يا موسى مسحوراً ، قال لقد علمت ما انزل هــؤلاء الا رب السموات والارض بصائر وانى لاظنك يا فرعون مثبوراً) .

فموسى وهو الصادق المصدوق يقول : (لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر). فدل على ان فرعون كان عالما بأن الله انزل الآيات وهو

من اكبر خلق الله عناداً وبغياً لفساد ارادته وقصده لا لعدم علمه . قال تعالى : (ان فرعون علا فى الارض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين) وقال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلوا) . وكذلك اليهود الذين قال الله فيهم : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم) . وكذلك كثير من المشركين الذين قال الله فيهم : (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

فهؤلاء غلطوا في « اصلين » :

(احدهما) : ظنهم ان الايمان مجرد تصديق وعلم فقط ، ليس معه عمل ، وحال ، وحركة ، وارادة ، ومحبة ، وخشية فى القلب ؛ وهذا من اعظم غلط المرجئة مطلقاً ، فان «اعمال القلوب» التى يسميها بعض الصوفية احوالا ومقامات او منازل السائرين الى الله اومقامات العارفين او غير ذلك ، كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله فهو من الايمان الواجب ، وفيها ما احبه ولم يفرضه ، فهو من الايمان المستحب ، فالاول لا بد لكل مؤمن منه ، ومن اقتصر عليه فهو من الابرار اصحاب اليمين ، ومن فعله وفعل الثانى كان من المقربين السابقين ، وذلك مثل حب الله ورسوله ، بل ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما بل ان يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله احب اليه من اهله وماله ، ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين ، ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين ، والتوكل على الله وحده دون المخلوقين ، والانابة اليه

مع خشيته كما قال تعالى : (هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) ومثل الحب فى الله والبغض فى الله والموالاة لله والمعاداة لله .

و (الثاني) : ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد فى النار ، فانما ذاك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق . وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع ، وما أجمع عليه طوائف بنى آدم السليمي الفطرة وجماهير النظار ؛ فان الانسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده اياه ، او لطلب علوه عليه ، أو لهوى النفس ، ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدي عليه ويرد ما يقول بكل طريق ، وهو فى قلبه يعلم أن الحق معه ، وعامة من كذب الرسل علموا ان الحق معهم وانهم صادقون ، لكن إما لحسدهم وإما لارادتهم العلو والرياسة ، وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصداقة اقوام وغير ذلك ، فيرون فى اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة اليهم او حصول امور مكروهة اليهم ، فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من اكفر الناس كابليس وفرعون ، مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق .

ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدح فى صدق الرسل ، انما يعتمدون على مخالفة اهوائهم ، كقولهم لنوح : (انؤمن لك واتبعك الأرذلون) ومعلوم ان اتباع الارذلين له لا يقدح فى صدقه ؛ لكن كرهوا مشاركة اولئك ،

كما طلب المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم ، ابعاد الضعفاء ، كسعد بن ابى وقاص ، وابن مسعود ، وخباب بن الارت ، وعمار بن ياسر ، وبلال ونحوهم ، وكان ذلك بمكة قبل ان يكون فى الصحابة اهل الصفة ، فأنزل الله تبارك وتعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا اهولاء من الله عليهم من بيننا ، اليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ !) .

ومثل قول فرعون : (انؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) وقول فرعون : (الم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين) ومثل قول مشركي العرب : (ان نتبع الهدي معك نتخطف من ارضنا) قال الله تعالى : (او لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبي اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا؟ !) ومثل قول قوم شعيب له : (اصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا او ان نفعل في اموالنا ما نشاء) ومثل قول عامة المشركين : (انا وجدنا آباءنا على امة وإنا على آثارهم مقتدون) .

وهذه الامور وامثالها ليست حججا تقدح فى صدق الرسل ، بل تبين انهـا تخالف إرادتهم واهوائهم وعاداتهم ، فلذلك لم يتبعوهم ، وهؤلاء كلهم كفار ، بل ابو طالب وغيره كانوا يحبون النبي صلى الله عليه وسلم ويحبون علو كلمته ، وليس عندهم حسد له ، وكانوا يعلمون صدقه ، ولكن كانوا يعلمون ان فى

متابعته فراق دين آبائهم وذم قريش لهم ، فما احتملت نفوسهم ترك تلك العادة واحتمال هذا الذم ، فلم يتركوا الايمان لعدم العلم بصدق الايمان به ؛ بل لهوى النفس ، فكيف يقال : إن كل كافر انما كفر لعدم علمه بالله .

ولم يكف الجهمية ان جعلوا كل كافر جاهلا بالحق حتى قالوا : هولا يعرف ان الله موجود حق ، والكفر عندهم ليس هو الجهل بأي حق كان ؛ بل الجهل بهذا الحق المعين . ونحن والناس كلهم يرون خلقا من الكفار يعرفون في الباطن ان دين الاسلام حق ، ويذكرون ما يمنعهم من الايمان ، اما معاداة أهلهم واما مال يحصل لهم من جهتهم يقطعونه عنهم ، واما خوفهم اذا آمنوا ان لا يكون لهم حرمة عند المسلمين كحرمتهم في دينهم ، وامثال ذلك من اغراضهم التي يبينون انها المانعة لهم من الايمان ، مع علمهم بأن دين الاسلام حق ، ودينهم باطل .

وهذا موجود في جميع الأمور التي هي حق ، يوجد من يعرف بقلبه انها حق وهو في الظاهر يجحد ذلك ، ويعادي اهله لظنه ان ذلك يجلب له منفعة ويدفع عنه مضرة . قال تعالى : (ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ، بعضهم اولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين ، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشي ان تصيبنا دائرة ، فعسى الله ان يأتي بالفتح او امر من عنده فيصبحوا على ما اسروا في انفسهم نادمين ، ويقول الذين آمنوا اهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم ؟ حبطت اعمالهم فأصبحوا خاسرين) .

والمفسرون متفقون على انها نزلت بسبب قوم ممن كان يظهر الاسلام وفى قلبه مرض، خاف ان يغلب اهل الاسلام فيوالي الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم للخوف الذي فى قلوبهم؛ لا لاعتقادهم ان محمداً كاذب، واليهود والنصارى صادقون، واشهر النقول فى ذلك ان عبادة بن الصامت قال: يارسول الله ان لى موالي من اليهود واني أبرأ الى الله من ولاية يهود، فقال: عبدالله بن ابي: لكني رجل أخاف الدوائر ولا ابرأ من ولاية يهود فنزلت هذه الآية.

«والمرجئة» الذين قالوا: الايمان تصديق القلب، وقول اللسان، والأعمال ليست منه. كان منهم طائفة من فقهاء الكوفة وعبادها: ولم يكن قولهم مثل قول جهم؛ فعرفوا ان الانسان لا يكون مؤمناً ان لم يتكلم بالايمان مع قدرته عليه. وعرفوا ان ابليس وفرعون وغيرهما كفار مع تصديق قلوبهم، لكنهم اذا لم يدخلوا اعمال القلوب فى الايمان لزمهم قول جهم، وان ادخلوها في الايمان لزمهم دخول اعمال الجوارح ايضا فانها لازمة لها. ولكن هؤلاء لهم حجج شرعية بسببها اشتبه الأمر عليهم، فانهم رأوا ان الله قد فرق فى كتابه بين الايمان والعمل؛ فقال فى غير موضع: (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ورأوا ان الله خاطب الانسان بالايمان قبل وجود الأعمال فقال: (ياايها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق). (ياايها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة).

وقالوا : لو ان رجلاً آمن بالله ورسوله ضحوة ومات قبل ان يجب عليه شيء من الأعمال مات مؤمناً ، وكان من اهل الجنة ، فدل على ان الاعمال ليست من الايمان . وقالوا : نحن نسلم ان الايمان يزيد ، بمعنى انه كان كلما انزل الله آية وجب التصديق بها ، فانضم هذا التصديق إلى التصديق الذي كان قبله ؛ لكن بعد كمال ما انزل الله ما بقى الايمان يتفاضل عندهم ، بل إيمان الناس كلهم سواء ؛ إيمان السابقين الأولين كأبى بكر وعمر ، وايمان افجر الناس كالحجاج وابى مسلم الخراسانى وغيرهما .

والمرجئة المتكلمون منهم والفقهاء منهم يقولون : ان الأعمال قد تسمى ايمانا مجازا ، لأن العمل ثمرة الايمان ومقتضاه ، ولأنها دليل عليه ، ويقولون : قوله : « الايمان بضع وستون او بضع وسبعون شعبة افضلها قول : لا إله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق » : مجاز .

«والمرجئة ثلاثة اصناف» : الذين يقولون : الايمان مجرد ما في القلب ، ثم من هؤلاء من يدخل فيه اعمال القلوب وهم اكثر فرق المرجئة كما قد ذكر ابو الحسن الاشعري اقوالهم فى كتابه ، وذكر فرقا كثيرة يطول ذكرهم ، لكن ذكرنا جمل اقوالهم ، ومنهم من لا يدخلها فى الايمان كجهم ومن اتبعه كالصالحي ، وهذا الذي نصره هو واكثر اصحابه . و«القول الثانى» من يقول : هو مجرد قول اللسان ، وهذا لا يعرف لاحد قبل الكرامية ، «والثالث» تصديق القلب وقول اللسان ، وهذا هو المشهور عن اهل الفقه والعبادة منهم ، وهؤلاء غلطوا من وجوه :

(احدها) : ظنهم ان الايمان الذي فرضه الله على العباد متماثل فى حق العباد، وان الايمان الذي يجب على شخص يجب مثله على كل شخص ، وليس الامر كذلك فان اتباع الانبياء المتقدمين اوجب الله عليهم من الايمان ما لم يوجبه على امة محمد ، واوجب على امة محمد من الايمان ما لم يوجبه على غيرهم ، والايمان الذي كان يجب قبل نزول جميع القرآن ، ليس هو مثل الايمان الذي يجب بعد نزول القرآن ، والايمان الذي يجب على من عرف ما اخبر به الرسول مفصلاً ليس مثل الايمان الذي يجب على من عرف ما اخبر به مجملاً ، فانه لا بد فى الايمان من تصديق الرسول فى كل ما اخبر ، لكن من صدق الرسول ومات عقب ذلك لم يجب عليه من الايمان غير ذلك . وأما من بلغه القرآن والأحاديث وما فيهما من الأخبار والاوامر المفصلة فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر ، وأمر امر مالا يجب على من لم يجب عليه الا الايمان المجمل لموته قبل ان يبلغه شيء آخر .

و«ايضاً» لو قدر انه عاش فلا يجب على كل واحد من العامة ان يعرف كل ما امر به الرسول وكل ما نهى عنه وكل ما اخبر به ، بل انما عليه ان يعرف ما يجب عليه هو وما يحرم عليه ، فمن لا مال له لا يجب عليه ان يعرف امره المفصل فى الزكاة . ومن لا استطاعة له على الحج ليس عليه ان يعرف امره المفصل بالمناسك ، ومن لم يتزوج ليس عليه ان يعرف ما وجب للزوجة ، فصار يجب من الايمان تصديقا وعملاً على اشخاص مالا يجب على آخرين .

وبهذا يظهر الجواب عن قولهم : خوطبوا بالايمان قبل الأعمال . فنقول :

إن قلتم : إنهم خوطبوا به قبـل ان تجب تلك الأعمال ، فقبل وجوبها لم تـكن من الايمـان ، وكانوا مؤمنين الايمـان الواجب عليهم قبل ان يفرض عليهم ما خوطبوا بفرضه ، فلما نزل إن لم يقروا بوجوبه لم يكونوا مؤمنين ، ولهذا قال تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ، ومن كفر فان الله غني عن العالمين) ولهذا لم يجيء ذكر الحج فى اكثر الأحاديث التى فيها ذكر الاسلام والايمان ، كحديث وفد عبد القيس ، وحديث الرجل النجدي الذي يقال له : ضمام بن ثعلبـة وغيرها ، وانما جاء ذكر الحج فى حديث ابن عمر وجبريل ، وذلك لأن الحج آخر مافرض من الخمس ، فـكان قبل فرضه لايدخل فى الايمان والاسلام ، فلما فرض ادخله النبي صلى الله عليه وسلم فى الايمان اذا افرد ، وادخله فى الاسلام اذا قرن بالايمان وإذا أفرد ، وسنذكر ان شاء الله متى فرض الحج .

وكذلك قولهم : من آمن ومات قبـل وجوب العمل عليه مات مؤمناً ، فصحيح لأنه أتى بالايمان الواجب عليه ، والعمل لم يكن وجب عليه بعد ، فهذا مما يجب ان يعرف ، فانه تزول به شبهة حصلت للطائفتين .

فاذا قيل : الأعمال الواجبةمن الايمان . فالايمان الواجب متنوع ليس شيئاً واحداً فى حق جميع الناس . واهل السنة والحديث يقولون : جميع الأعمال الحسنة واجبها ومستحبها من الايمـان ، اي من الايمان الـكامل بالمستحبات . ليست من الايمان الواجب . ويفرق بين الايمان الواجب وبين الايمان الـكامل

بالمستحبات كما يقول الفقهاء : الغسل ينقسم الى مجزيء وكامل . فالمجزيء : ما اتى فيه بالواجبات فقط . والكامل : ما اتى فيه بالمستحبات . ولفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب . وقد يراد به الكمال المستحب .

واما قولهم : ان الله فرق بين الايمان والعمل فى مواضع ، فهذا صحيح . وقد بينا ان الايمان اذا اطلق ادخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها . وقد يقرن به الاعمال ، وذكرنا نظائر لذلك كثيرة . وذلك لأن اصل الايمان هو ما فى القلب . والأعمال الظاهرة لازمة لذلك . لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع اعمال الجوارح ، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الايمان الذي فى القلب ؛ فصار الايمان متناولاً للملزوم واللازم وإن كان اصله ما فى القلب ؛ وحيث عطفت عليه الأعمال ، فانه اريد انه لا يكتفي بايمان القلب بل لا بد معه من الأعمال الصالحة .

ثم للناس فى مثل هذا قولان : منهم من يقول : المعطوف دخل فى المعطوف عليه اولاً ، ثم ذكر باسمه الخاص تخصيصاً له ، لئلا يظن انه لم يدخل فى الأول ، وقالوا : هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام ، كقوله : (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) وقوله : (واذا اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم) وقوله : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم) فخص الايمان بما نزل على محمد بعد قوله : (والذين آمنوا) وهذه نزلت فى الصحابة

وغيرهم من المؤمنين . وقوله : (حافظوا على الصلوات والصـلاة الوسطى) وقوله : (وما أمروا إلا ليعبـدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) والصلاة والزكاة من العبادة ، فقوله : (آمنوا وعملوا الصالحات) كقوله : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) .

فانه قصد « اولاً » ان تكون العبادة لله وحده لا لغيره ، ثم امر بالصلاة والزكاة ليعلم انهما عبادتان واجبتان ، فلا يكتفي بمطلق العبادة الخالصة دونهما ، وكذلك يذكر الايمـان اولاً لأنه الاصل الذي لابد منه . ثم يذكر العمل الصالح فانه ايضاً من تمام الدين لا بد منه ، فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح ، وكذلك قوله : (الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون) .

وقد قيل : إن هؤلاء هم اهل الكتاب الذين آمنوا بما انزل عليه وما انزل على من قبله ، كابن سلام ونحوه ، وان هؤلاء نوع غير النوع المتقدم الذين يؤمنون بالغيب ، وقد قيل : هؤلاء جميع المتقدمين الذين آمنوا بما انزل إليه وما انزل من قبله ، وهؤلاء هم الذين يؤمنون بالغيب وهم صنف واحد ، وانما عطفوا لتغاير الصفتين كقوله : (سبح اسم ربك الأعلى ؛ الذي خلق فسوى ، والذي

قدر فهدى ، والذي اخرج المرعى ؛ فجعله غثاء احوى) ؛ فهو سبحانه واحد وعطف بعض صفاته على بعض ، وكذلك قوله : (والصلاة الوسطى) ، وهي صلاة العصر .

والصفات ؛ إذا كانت معارف كانت للتوضيح وتضمنت المدح او الذم . تقول : هذا الرجل هو الذي فعل كذا ، وهو الذي فعل كذا ، وهو الذي فعل كذا تعدد محاسنه ، ولهذا مع الاتباع قد يعطفونها وينصبون ، او يرفعون ، وهذا القول هو الصواب ، فان المؤمنين بالغيب إن لم يؤمنوا بما انزل اليه وما انزل من قبله لم يكونوا على هدى من ربهم ولا مفلحين ولا متقين ، وكذلك الذين آمنوا بما انزل إليه وما انزل من قبله ان لم يكونوا من الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون ، لم يكونوا على هدى من ربهم ، ولم يكونوا مفلحين ، ولم يكونوا متقين ، فدل على ان الجميع صفة المهتدين المتقين الذين اهتدوا بالكتاب المنزل الى محمد ، فقد عطفت هذه الصفة على تلك مع انها داخلة فيها ، لكن المقصود صفة إيمانهم ، وانهم يؤمنون بجميع ما انزل الله على انبيائه ، لا يفرقون بين احد منهم ؛ وإلا فاذا لم يذكر الا الايمان بالغيب ، فقد يقول : من يؤمن ببعض ويكفر ببعض : نحن نؤمن بالغيب .

ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن ؛ ويقال : إنها اول سورة نزلت بالمدينة ، افتتحها الله بأربع آيات فى صفة المؤمنين ، وآيتين فى صفة الكافرين وبضع عشرة آية فى صفة المنافقين ، فانه من حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم

صار الناس «ثلاثة اصناف» : اما مؤمن ، واما كافر مظهر للكفر ، واما منافق؛ بخلاف ما كانوا وهو بمكة ؛ فانه لم يكن هناك منافق ؛ ولهذا قال احمد بن حنبل وغيره : لم يكن من المهاجرين منافق ، وانما كان النفاق فى قبائل الأنصار ؛ فان مكة كانت للكفار مستولين عليها ، فلا يؤمن ويهاجر الا من هو مؤمن ليس هناك داع يدعو الى النفاق؛ والمدينة آمن بها اهل الشوكة ؛ فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالأنصار ، فمن لم يظهر الايمان آذوه ؛ فاحتاج المنافقون إلى اظهار الايمان ، مع ان قلوبهم لم تؤمن ؛ والله تعالى افتتح البقرة ووسط البقرة وختم البقرة بالايمان بجميع ما جاءت به الأنبياء ؛ فقال فى اولها ما تقدم ، وقال فى وسطها : (قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون ،فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فانما هم فى شقاق) الآية : وقال فى آخرها : (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين احد من رسله وقالوا : سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) والآية الأخرى .

وفى « الصحيحين » عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « الآيتان من آخر سورة البقرة : من قرأ بهما فى ليلة كفتاه » والآية الوسطى قد ثبت فى « الصحيح » انه كان يقرأ بها فى ركعتى الفجر : وبـ « قل يا اهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) الآية ، تارة . وبـ (قل يا أيها الكافرون)

(وقل هو الله احد) تارة . فيقرأ بما فيه ذكر الايمـان والاسلام ، او بما فيه ذكر التوحيد والاخلاص .

فعلى قول هؤلاء يقال : الأعمال الصالحة المعطوفة على الايمان دخلت في الايمان ، وعطف عليه عطف الخاص على العام ؛ اما لذكره خصوصاً بعد عموم واما لكونه إذا عطف كان دليلاً على انه لم يدخل في العام . وقيل : بل الأعمال في الأصل ليست من الايمان ؛ فان اصل الايمان هو ما في القلب ، ولكن هي لازمة له ، فمن لم يفعلها كان ايمانه منتفياً ؛ لأن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة في اسم الايمان إذا اطلق ، كما تقدم في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فاذا عطفت عليه ذكرت ، لئلا يظن الظان ان مجـرد ايمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للايمـان يوجب الوعد ؛ فكان ذكرها تخصيصاً وتنصيصاً ليعـلم ان الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون الا لمن آمن وعمل صالحاً ؛ لا يكون لمن ادعى الايمان ولم يعمل ، وقد بين سبحانه في غير موضع ان الصادق في قوله : آمنت لا بد ان يقوم بالواجب وحصر الايمان في هؤلاء يدل على انتفائه عمن سواهم .

وللجهمية هنا سؤال ذكره ابو الحسن في كتاب « الموجز » وهو ان القرآن نفي الايمان عن غير هؤلاء ، كقوله : (انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ولم يقل : ان هذه الأعمال من الايمان ، قالوا : فنحن نقول : من لم يعمل هذه الأعمال لم يكن مؤمناً ، لأن انتفاءها دليل على انتفاء العلم من قلبه .

والجواب عن هذا من وجوه :

(احدها) : انكم سلمتم ان هذه الأعمال لازمة لايمان القلب ، فاذا انتفت لم يبق فى القلب ايمان ، وهذا هو المطلوب ؛ وبعد هذا فكونها لازمة او جزءاً ، نزاع لفظي .

(الثاني) : ان نصوصاً صرحت بأنها جزء ، كقوله : «الايمان بضع وستون او بضع وسبعون شعبة » .

(الثالث) : انكم ان قلتم بأن من انتفى عنه هذه الأمور فهو كافر خال من كل ايمان ، كان قولكم قول الخوارج ، وانتم فى طرف ، والخوارج فى طرف ؛ فكيف توافقونهم ومن هذه الأمور اقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج ، والجهاد ، والاجابة الى حكم الله ورسوله ؛ وغير ذلك مما لا تكفرون تاركه ، وان كفرتموه كان قولكم قول الخوارج .

(الرابع) : ان قول القائل : ان انتفاء بعض هذه الأعمال يستلزم ان لا يكون فى قلب الانسان شيء من التصديق بأن الرب حق ، قول يعلم فساده بالاضطرار .

(الخامس) : ان هذا اذا ثبت فى هذه ثبت فى سائر الواجبات ، فيرتفع النزاع المعنوي .

فصـــــل

(الوجه الثاني) من غلط « المرجئة » : ظنهم ان ما فى القلب من الايمان ليس الا التصديق فقط ، دون اعمال القلوب ؛ كما تقدم عن جهمية المرجئة .

(الثالث) ظنهم ان الايمـان الذي فى القلب يكون تاماً بدون شيء من الأعمال ، ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الايمان ومقتضاه ، بمنزلة السبب مع المسبب ولا يجعلونها لازمة له ؛ والتحقيق ان ايمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لامحالة ، ويمتنع ان يقوم بالقلب ايمان تام بدون عمل ظاهر ؛ ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقق الارتباط الذي بين البدن والقلب مثل ان يقولوا : رجل فى قلبه من الايمان مثل ما فى قلب ابي بكر وعمر ، وهو لا يسجد لله سجدة ، ولا يصوم رمضان ، ويزني بأمه وأخته ، ويشرب الخمر نهار رمضان ؛ يقولون : هذا مؤمن تام الايمان ، فيبقى سائر المؤمنين ينـكرون ذلك غاية الانـكار .

قال احمد بن حنبل : حدثنا خلف بن حيان ، حدثنا معقل بن عبيد الله العبسي قال : قدم علينا سالم الأفطس بالارجاء ، فنفر منه اصحابنا نفوراً شديداً منهم ميمون بن مهران ، وعبـــد الـكريم بن مالك ، فانه عاهد الله ان

لا يؤويه وإياه سقف بيت الا المسجد ، قال معقل : فحججت فدخلت على عطاء ابن ابى رباح فى نفر من اصحابي وهو يقرأ : (حتىإذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا) قلت : ان لنا حاجة فأخلنا ، ففعل ؛ فأخبرته ان قوماً قبلنا قد احدثوا وتكلموا وقالوا : ان الصلاة والزكاة ليستا من الدين ؛ فقال : اوليس الله تعالى يقول : (وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاءويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) . فالصلاة والزكاة من الدين ، قال : فقلت : إنهم يقولون : ليس في الايمان زيادة .. فقال : اوليس قد قال الله فيما انزل : (ليزدادوا إيماناً مع ايمانهم) هذا الايمان . فقلت : انهم انتحلوك . وبلغني ان ابن ذر دخل عليك فى اصحاب له ، فعرضوا عليك قولهم فقبلته . فقلت هذا الأمر ، فقال : لا والله الذي لا اله الا هو ، مرتين او ثلاثاً ثم قال : قدمت المدينة فجلست إلى نافع فقلت : ياابا عبدالله ! ان لي اليك حاجة ، فقال : سر ام علانية ؟ فقلت : لا بل سر : قال : رب سر لا خير فيه ، فقلت : ليس من ذلك ، فلما صلينا العصر قام واخذ بثوبي ، ثم خرج من الخوخةولم ينتظر القاص، فقال : حاجتك ؟ قال فقلت : اخلنى هذا . فقال : تنح ؛ قال : فذكرت له قولهم . فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : «امرت ان أضربهم بالسيف حتى يقولوا : لا اله الا الله ؛ فاذا قالوا : لا إله الا الله عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » قال : قلت : إنهم يقولون : نحن نقر بأن الصلاة فرض ولا نصلى ؛ وبأن الخمر حرام ونشربها ؛ وان نكاح الأمهات حرام ونحن ننكح . فنثر يده من يدي وقال : من فعل هذا فهو كافر .

قال معقل : فلقيت الزهري فأخبرته بقولهم . فقال : سبحان الله ! وقد اخذ الناس فى هذه الخصومات . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ؛ ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . قال معقل . فلقيت الحكم بن عتبة فقلت له : إن عبد الكريم وميموناً بلغهما انه دخل عليك ناس من المرجئة فعرضوا بقولهم عليك فقبلت قولهم ؛ قال . فقبل ذلك علي ميمون ؛ وعبد الكريم ؟! لقد دخل علي اثنا عشر رجلاً وانا مريض فقالوا : ياابا محمد بلغك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل بأمة سوداء ، او حبشية ، فقال : يارسول الله ! على رقبة مؤمنة ، افترى هذه مؤمنة ؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أتشهدين ان لا اله الا الله ؟»:فقالت : نعم . قال : «وتشهدين ان محمداً رسول الله؟» : قالت : نعم ، قال : «وتشهدين ان الجنة حق والنار حق» قالت : نعم ، قال : «وتشهدين ان الله يبعثك من بعد الموت؟» . قالت: نعم ؛ قال: «فاعتقها فانها مؤمنة» : فخرجوا وهم ينتحلون ذلك .

قال معقل : ثم جلست إلى ميمون بن مهران ، فقلت ياأبا أيوب لو قرأت لنا سورة ففسرتها ، قال : فقرأ : (إذا الشمس كورت) حتى إذا بلغ : (مطاع ثم امين) قال : ذاكم جبريل ، والخيبة لمن يقول : ان ايمانه كايمان جبريل، ورواه حنبل عن احمد ، ورواه ايضاً عن ابن ابي مليكة قال : لقد اتى علي برهة من الدهر وما اراني أدرك قوماً يقول احدهم : « انى مؤمن مستكمل الايمان ، ثم ما رضى حتى قال : ايماني على ايمان جبريل وميكائيل ، وما زال بهم الشيطان

حتى قال احدهم : اني مؤمن وإن نكح أخته وامه وبنته ، والله لقد ادركت كذا وكذا من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ما مات احد منهم إلا وهو يخشى النفاق على نفسه ، وقد ذكر هذا المعنى عنه البخاري فى « صحيحه » قال : ادركت ثلاثين من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه، مامنهم احد يقول : إيمانه كايمــان جبريل .

وروى البغوي عن عبدالله بن محمد عن ابن مجاهد قال : كنت عند عطاء ابن ابى رباح ، فجاء ابنه يعقوب فقال : ياأبتاه إن اصحاباً لي يزعمون ان ايمانهم كايمان جبريل ؛ فقال : يابني ليس إيمان من اطاع الله كايمان من عصي الله .

قلت : قوله عن «المرجئة» : انهم يقولون : ان الصلاة والزكاة ليســتا من الدين ، قد يكون قول بعضهم ، فانهم كلهم يقولون : ليستا من الايمان ، واما من الدين فقد حكي عن بعضهم انه يقول : ليستا من الدين ؛ ولا نفرق بين الايمان والدين ، ومنهم من يقول : بل هما من الدين ويفرق بين اسم الايمان واسم الدين ، وهذا هو المعروف من اقوالهم التى يقولونها عن انفسهم : ولم ار انا فى كتاب احد منهم انه قال : الأعمال ليست من الدين ، بل يقولون ليست من الايمان ، وكذلك حكى ابو عبيد عمن ناظره منهم ، فان أبا عبيد وغيره يحتجون بأن الإعمال من الدين ؛ فذكر قوله : (اليوم أكملت لــكم دينكم) انها نزلت فى حجة الوداع . قال ابو عبيد : فأخبر انه انمــا كمل الدين الآن فى آخــر الاسلام فى حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، وزعم هؤلاء انه كان كاملاً قبل ذلك

بعشرين سنة من اول ما نزل عليه الوحى بمكة حين دعا الناس الى الاقرار ، حتى قال : لقد اضطر بعضهم حين ادخلت عليه هذه الحجة ... الى ان قال : ان الايمان ليس بجميع الدين ، ولكن الدين ثلاثة أجزاء : الايمان جزء ؛ والفرائض جزء ، والنوافل جزء .

قلت : هذا الذي قاله هذا هو مذهب القوم ، قال ابو عبيد : وهذا غير ما نطق به الكتاب ، ألا تسمع الى قوله : (ان الدين عند الله الاسلام) وقال (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) . وقال : (ورضيت لكم الاسلام ديناً) فأخبر ان الاسلام هو الدين برمته ؛ وزعم هؤلاء انه ثلث الدين .

قلت : انما قالوا : ان الايمان ثلث ، ولم يقولوا ان الايمان ثلث الدين لكنهم فرقوا بين مسمى الأيمان ومسمى الدين ، وسنذكر ان شاء الله تعالى الكلام فى مسمى هذا ومسمى هذا ، فقد يحكي عن بعضهم انه يقول ليستا من الدين ولايفرق بين اسم الايمان والدين ومنهم من يقول بل كلاهما من الدين ويفرق بين اسم الايمان واسم الدين ، والشافعي رضي الله عنه كان معظماً لعطاء ابن ابي رباح ، ويقول : ليس فى التابعين اتبع للحديث منه ، وكذلك ابوحنيفة قال . ما رأيت مثل عطاء ، وقد اخذ الشافعى هذه الحجة عن عطاء . فروى ابن ابي حاتم فى مناقب الشافعي : حدثنا ابى ، حدثنا ميمون ، حدثنا ابو عثمان بن الشافعي ، سمعت ابي يقول ليلة للحميدي : ما يحتج عليهم ، يعني

اهل الإرجاء بآية أحتج من قوله : (وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) .

وقال الشافعي رضي الله عنه في كتاب «الأم» في (باب النية في الصلاة): يحتج بأن لا تجزىء صلاة إلا بنية بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «انما الأعمال بالنيات» ثم قال: وكان الاجماع من الصحابة، والتابعين من بعدهم، ومن ادركناهم يقولون: الايمان قول وعمل ونية؛ لايجزىء واحد من الثلاث إلا بالآخر .

وقال حنبل: حدثنا الحميدي قال: واخبرت أن ناساً يقولون: من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموت، ويصلي مستدبر القبلة حتى يموت؛ فهو مؤمن ما لم يكن جاحداً إذا علم أن تركه ذلك فيه إيمانه إذا كان مقراً بالفرائض واستقبال القبلة، فقلت: هذا الكفر الصراح، وخلاف كتاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين. قال الله تعالى: (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) الآية . وقال حنبل: سمعت أباعبد الله احمد بن حنبل يقول: من قال هذا فقد كفر بالله ورد على أمره وعلى الرسول ما جاء به عن الله .

قلت: واما احتجاجهم بقوله للأمة «اعتقها فانها مؤمنة» فهو من حججهم المشهورة، وبه احتج ابن كلاب، وكان يقول: الايمان هو التصديق والقول جميعاً، فكان قوله اقرب من قول جهم وأتباعه، وهذا لا حجة فيه؛ لأن

الايمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام فى الدنيا لا يستلزم الايمان في الباطن الذي يكون صاحبه من اهل السعادة فى الآخرة ، فان المنافقين الذين قالوا : (آمنـا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) هم في الظاهر مؤمنون يصلون مع الناس ، ويصومون ويحجون ويغزون ، والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يحكم النبي صلى الله عليه وسلم في المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر ، لا في مناكحتهم ولا موارثتهم ولا نحو ذلك ؛ بل لما مات عبد الله بن ابي بن سلول — وهو من أشهر الناس بالنفاق — ورثه ابنه عبد الله وهو من خيار المؤمنين ، وكذلك سائر من كان يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون ؛ واذا مات لأحدهم وارث ورثوه مع المسلمين .

وقد تنازع الفقهاء فى المنافق الزنديق الذي يكتم زندقته ، هل يرث ويورث ؟ على قولين ، والصحيح انه يرث ويورث وان علم فى الباطن انه منافق ، كما كان الصحابة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأن الميراث مبناه على الموالاة الظاهرة ، لا على المحبة التى فى القلوب ، فانه لو علق بذلك لم تمكن معرفته ، والحكمة اذا كانت خفية او منتشرة علق الحكم بمظنتها ، وهو ما اظهره من موالاة المسلمين : فقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم » لم يدخل فيه المنافقون وان كانوا فى الآخرة فى الدرك الأسفل من النار ؛ بل كانوا يورثون ويرثون ؛ وكذلك كانوا فى الحقوق والحدود كسائر المسلمين ، وقد اخبر الله عنهم انهم يصلون ويزكون ومع هذا

لم يقبل ذلك منهم فقال : (وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم إلا انهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون) وقال (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلاً) .

وفي « صحيح مسلم » عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » ، وكانوا يخرجون مع النبي صلى الله عليه وسلم في المغازي ، كما خرج ابن ابي في غزوة بني المصطلق وقال فيها : (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل) .

« وفي الصحيحين » عن زيد بن ارقم قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر اصاب الناس فيها شدة ، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فأرسل الى عبد الله بن أبي ؛ فسأله فاجتهد يمينه ما فعل ، وقالوا : كذب زيد يارسول الله فوقع في نفسي مما قالوا شدة ، حتى انزل الله تصديقي في (إذا جاءك المنافقون) فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم ، فلووا رؤوسهم . وفي غزوة تبوك استنفرهم النبي صلى الله عليه وسلم كما استنفر غيرهم ، فخرج بعضهم معه وبعضهم تخلفوا ، وكان في الذين خرجوا معه من هم بقتله في الطريق ، هموا بحل حزام

ناقته ليقع فى واد هناك ، فجاءه الوحي ، فأسر الى حذيفة اسماءهم ، ولذلك يقال : هو صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، كما ثبت ذلك في « الصحيح » ومع هذا ففى الظاهر تجري عليهم احكام اهل الايمان .

وبهذا يظهر الجواب عن شبهات كثيرة تورد فى هذا المقام ؛ فان كثيراً من المتــأخرين ما بقي فى المظهرين للاسلام عندهم الا عدل او فاسق ، واعرضوا عن حكم المنافقين ، والمنافقون ما زالوا ولا يزالون الى يوم القيامة ، والنفاق شعب كثيرة ، وقد كان الصحابة يخافون النفاق على انفسهم .

ففي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث ؛ اذا حدث كذب ، وإذا وعد اخلف وإذا ائتمن خان » وفى لفظ مسلم : « وإن صام وصلى وزعم انه مسلم » .

وفى « الصحيحين » عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال . « اربع من كن فيــه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث كذب ، واذا ائتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم اولاً يصلي عليهم ويستغفر لهم ، حتى نهاه الله عن ذلك فقال : (ولا تصل على احد منهم مات ابداً ولا تقم على قبره) وقال : (استغفر لهم او لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) فلم يكن يصلي عليهم ولا يستغفر لهم ، ولكن دماؤهم واموالهم معصومة

لا يستحل منهم ما يستحله من الكفار الذين لا يظهرون انهم مؤمنون ، بل يظهرون الكفر دون الايمان ، فانه صلى الله عليه وسلم قال : « أُمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله الا الله وانى رسول الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم واموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » ولما قال لأسامة بن زيد : « اقتلته بعد ما قال : لا اله الا الله ؟ » قال : انما قالها تعوذاً . قال : « هلا شققت عن قلبه ؟ » وقال . « انى لم أومر ان انقب عن قلوب الناس ولا اشق بطونهم » وكان اذا استؤذن فى قتل رجل يقول : « اليس يصلي ، اليس يتشهد ؟ » فاذا قيل له : انه منافق . قال : « ذاك » .

فكان حكمه صلى الله عليه وسلم فى دمائهم واموالهم كحكمه فى دماء غيرهم لا يستحل منها شيئاً إلا بأمر ظاهر ، مع انه كان يعلم نفاق كثيرمنهم ؛ وفيهم من لم يكن يعلم نفاقه . قال تعالى : (وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم) وكان من مات منهم صلى عليه المسلمون الذين لايعلمون انه منافق ومن علم انه منافق لم يصل عليه . وكان عمر اذا مات ميت لم يصل عليه حتى يصلى عليه حذيفة ، لأن حذيفة كان قد علم اعيانهم . وقد قال الله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن فان علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار) فأمر بامتحانهن هنا وقال : (الله اعلم بايمانهن) .

والله تعالى لما امر فى الكفارة بعتق رقبة مؤمنة ، لم يكن على الناس ان لا يعتقوا إلا من يعلموا ان الايمان فى قلبه ؛ فان هذا كما لو قيل لهم : اقتلوا إلا من علمتم ان الايمان فى قلبه . وهم لم يؤمروا ان ينقبوا عن قلوب الناس ولا يشقوا بطونهم ؛ فاذا رأوا رجلاً يظهر الايمان جاز لهم عتقه ، وصاحب الجارية لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم هل هي مؤمنة ؟ انما اراد الايمان الظاهر الذي يفرق به بين المسلم والكافر ، وكذلك من عليه نذر لم يلزمه ان يعتق الا من علم ان الايمان فى قلبه ؛ فانه لا يعلم ذلك مطلقاً ؛ بل ولا احد من الخلق يعلم ذلك مطلقاً . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم اعلم الخلق والله يقول له : (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين) . فأولئك إنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحكم فيهم كحكمه فى سائر المؤمنين ؛ ولو حضرت جنازة احدهم صلى عليها ، ولم يكن منهياً عن الصلاة الا على من علم نفاقه ؛ وإلا لزم ان ينقب عن قلوب الناس ويعلم سرائرهم ، وهذا لايقدر عليه بشر .

ولهذا لما كشفهم الله بسورة براءة بقوله: (ومنهم) ، (ومنهم) صار يعرف نفاق ناس منهم لم يكن يعرف نفاقهم قبل ذلك ، فان الله وصفهم بصفات علمها الناس منهم ؛ وما كان الناس يجزمون بأنها مستلزمة لنفاقهم ، وإن كان بعضهم يظن ذلك وبعضهم يعلمه ؛ فلم يكن نفاقهم معلوماً عند الجماعة ، بخلاف حالهم لما نزل القرآن ؛ ولهذا لما نزلت سورة براءة كتموا النفاق وما بقي يمكنهم من إظهاره احياناً ما كان يمكنهم قبل ذلك ، وانزل الله تعالى : (لئن لم ينته

المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينــة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ، ملعونين اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجــد لسنة الله تبديلا) فلما توعدوا بالقتل إذا اظهروا النفاق ، كتموه.

ولهذا تنازع الفقهاء في استتابة الزنديق . فقيل : يستتاب . واستدل من قال ذلك بالمنافقين الذين كان النبي صلى الله عليه وســلم يقبل علانيتهم ويكل امرهم الى الله ؛ فيقال له : هذا كان فى اول الأمر ، وبعد هــذا انزل الله : (ملعونين اينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا) فعلموا أنهم إن أظهروه كما كانوا يظهرونه قتلوا ، فـكتموه .

والزنديق: هو المنافق ، وانما يقتله من يقتله اذا ظهر منه انه يكتم النفاق ، قالوا : ولا تعلم توبته ، لأن غاية ما عنده انه يظهر ما كان يظهر ؛ وقد كان يظهر الايمان وهو منافق ؛ ولو قبلت توبة الزنادقة لم يكن سبيل الى تقتيلهم ، والقرآن قد توعدهم بالتقتيل .

والمقصود ان النبي صلى الله عليه وسلم انمـا اخبر عن تلك الأمة بالايمـان الظاهر الذي علقت به الأحكام الظاهرة ، والا فقد ثبت عنه ان سعداً لما شهد لرجل انه مؤمن قال : «او مسلم» وكان يظهر من الايمان ما تظهره الأمة وزيادة فيجب ان يفرق بين احـكام المؤمنين الظاهرة التى يحكم فيها الناس فى الدنيا ، وبين حكمهم فى الآخـرة بالثواب والعقاب ؛ فالمؤمن المستحق للجنة لا بد ان

يكون مؤمناً فى الباطن باتفاق جميع اهل القبلة ، حتى الكرامية الذين يسمون المنافق مؤمناً ويقولون : الايمان هو الكلمة ، يقولون : انه لا ينفع فى الآخرة إلا الايمان الباطن .

وقد حكى بعضهم عنهم أنهم يجعلون المنافقين من اهل الجنة ، وهو غلط عليهم ؛ إنما نازعوا فى الاسم لا فى الحكم بسبب شبهة المرجئة في ان الايمان لا يتبعض ولا يتفاضل ؛ ولهذا اكثر ما اشترط الفقهاء فى الرقبة التى تجزىء في الكفارة العمل الظاهر ، فتنازعوا هل يجزىء الصغير ؟ على قولين معروفين للسلف هما روايتان عن احمد ؛ فقيل : لا يجزىء عتقه ، لأن الايمان قول وعمل والصغير لم يؤمن بنفسه انما ايمانه تبع لأبويه فى احكام الدنيا ؛ ولم يشترط احد ان يعلم انه مؤمن فى الباطن ؛ وقيل : بل يجزىء عتقه ، لأن العتق من الأحكام الظاهرة وهو تبع لأبويه ؛ فكما انه يرث منهما ويصلي عليه ، ولا يصلى الا على مؤمن ، فانه يعتق .

وكذلك المنافقون الذين لم يظهروا نفاقهم يصلى عليهم إذا ماتوا ، ويدفنون فى مقابر المسلمين من عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، والمقبرة التى كانت للمسلمين فى حياته وحياة خلفائه واصحابه يدفن فيها كل من اظهر الايمان وان كان منافقاً فى الباطن ، ولم يكن للمنافقين مقبرة يتميزون بها عن المسلمين فى شيء من ديار الاسلام . كما تكون لليهود والنصارى مقبرة يتميزون بها ، ومن دفن فى مقابر المسلمين صلى عليه المسلمون ، والصلاة لا تجوز على من علم نفاقه بنص القرآن ، فعلم ان ذلك بناء على الايمان الظاهر ، والله يتولى السرائر ، وقد كان النبي صلى الله عليه

وسلم يصلي عليهم ويستغفر لهم حتى نهي عن ذلك . وعلل ذلك بالكفر ، فكان ذلك دليلاً على ان كل من لم يعلم انه كافر بالباطن جازت الصلاة عليه والاستغفار له وإن كانت فيه بدعة وان كان له ذنوب .

واذا ترك الامام ، أو اهل العلم والدين « الصلاة » على بعض المتظاهرين ببدعة او فجور زجراً عنها ، لم يكن ذلك محرماً للصلاة عليه والاستغفار له ، بل قال النبي صلى الله عليه وسلم فيمن كان يمتنع عن الصلاة عليه وهو الغال وقاتل نفسه والمدين الذي لا وفاء له : « صلوا على صاحبكم » وروي انه كان يستغفر للرجل في الباطن وإن كان في الظاهر يدع ذلك زجراً عن مثل مذهبه ، كما روي فى حديث محلم بن جثامة .

وليس فى الكتاب والسنة المظهرون للاسلام الا قسمان : مؤمن اومنافق ، فالمنافق فى الدرك الأسفل من النار ، والآخر مؤمن ، ثم قد يكون ناقص الايمان فلا يتناوله الاسم المطلق ، وقد يكون تام الايمان ، وهذا يأتي الكلام عليه ان شاء الله فى مسألة الاسلام والايمان ، واسماء الفساق من اهل الملة ؛ لكن المقصود هنا انه لا يجعل احد بمجرد ذنب يذنبه ولا ببدعة ابتدعها ــ ولو دعا الناس اليها ــ كافراً فى الباطن ، الا اذا كان منافقاً . فأما من كان فى قلبه الايمان بالرسول وما جاء به وقد غلط فى بعض ما تأوله من البدع ، فهذا ليس بكافر اصلاً ، والخوارج كانوا من اظهر الناس بدعة وقتالاً للأمة وتكفيراً لها ، ولم يكن فى الصحابة من يكفرهم لا علي بن طالب ولا غيره ، بل حكموا

فيهم بحكمهم فى المسلمين الظالمين المعتدين كما ذكرت الآثار عنهم بذلك فى غير هذا الموضع .

وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقــة ، من كان منهم منافقاً فهو كافر فى الباطن ، ومن لم يكن منافقاً بل كان مؤمناً بالله ورسوله فى الباطن ، لم يكن كافراً فى الباطن ، وان اخطأ في التأويل كائناً ما كان خطؤه ؛ وقد يكون في بعضهم شعبة من شعب النفاق ولا يكون فيــه النفاق الذي يكون صاحبه فى الدرك الأسفل من النار . ومن قال : ان الثنتين وسبعين فرقه كل واحد منهم يكفر كفراً ينقل عن الملة فقد خالف الـكتاب والسنة واجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، بل واجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة ، فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة ، وانما يكفر بعضهم بعضاً ببعض المقالات ، كما قد بسط الـكلام عليهم فى غير هذا الموضع .

وانمـا قال الأئمة بكفر هذا ، لأن هذا فرض مالا يقع ، فيمتنع ان يكون الرجل لا يفعل شيئاً مما أمر به من الصــلاة والزكاة والصيام والحج ، ويفعل ما يقدر عليه من المحرمات ، مثل الصــلاة بلا وضوء والى غير القبلة ، ونـكاح الأمهات ، وهو مع ذلك مؤمن فى الباطن ؛ بل لا يفعل ذلك الا لعدم الايمان الذي فى قلبه ، ولهذا كان اصحاب ابى حنيفــة يكفرون انواعاً ممن يقول كذا وكذا : لمـا فيه من الاستخفاف ، ويجعلونه مرتداً ببعض هذه الأنواع مع النزاع اللفظي الذى بين اصحابه وبين الجمهور فى العمل : هل هو داخل فى اسم الايمان

أم لا ؟ ولهذا فرض متأخروا الفقهاء مسألة يمتنع وقوعهاوهو ان الرجل اذا كان مقراً بوجوب الصلاة فدعي اليها وامتنع واستتيب ثلاثا مع تهديده بالقتل فلم يصل حتى قتل ، هل يموت كافراً او فاسقاً ؟ على قولين :

وهذا الفرض باطل ، فانه يمتنع فى الفطرة ان يكون الرجل يعتقد ان الله فرضها عليه ، وانه يعاقبه على تركها ويصبر على القتل ولا يسجد لله سجدة من غير عذر له في ذلك . هـذا لا يفعله بشر قط ، بل ولا يضرب احد ممن يقر بوجوب الصلاة إلا صلى ، لا ينتهى الأمر به الى القتل ، وسبب ذلك ان القتل ضرر عظيم لا يصبر عليه الانسان إلا لأمر عظيم مثل لزومه لدين يعتقد انه إن فارقه هلك فيصبر عليـه حتى يقتل ، وسواء كان الدين حقاً او باطلاً ، اما مع اعتقاده ان الفعل يجب عليه باطناً وظاهراً فلا يكون فعل الصلاة اصعب عليه من احتمال القتل قط .

ونظير هذا لو قيل : ان رجلاً من اهل السنة قيل له : ترض عن ابى بكر وعمر فامتنع عن ذلك حتى قتل مع محبته لهما واعتقاده فضلهما ، ومع عدم الاعذار المانعة من الترضي عنهما ، فهذا لا يقع قط . وكذلك لو قيل : ان رجلاً يشهدان محمداً رسول الله باطناً وظاهراً وقد طلب منه ذلك ، وليس هناك رهبة ولا رغبة يمتنع لأجلها ، فامتنع منها حتى قتل ، فهذا يمتنع أن يكون فى الباطن يشهد ان محمداً رسول الله ؛ ولهذا كان القول الظاهر من الايمان الذى لا نجاة للعبد الا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين الا الجهمية ــ جهماً ومن وافقه ــ فانه اذا قدر انه معذور لكونه اخرس ، أو لكونه خائفا من قوم ان

اظهر الاسلام آذوه ونحو ذلك ، فهذا يمكن ان لا يتكلم مع ايمان فى قلبه ، كالمكره على كلمة الكفر . قال الله تعالى : (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم ومن اتبعه ، فانه جعل كل من تكلم بالكفر ، من اهل وعيد الكفار ، الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان .

فان قيل : فقد قال تعالى : (ولكن من شرح بالكفر صدراً) قيل: وهذا موافق ، لأولها فانه من كفر من غير اكراه فقد شرح بالكفر صدراً ، والا ناقض اول الآية آخرها ، ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره ، وذلك يكون بلا اكراه ، لم يستثن المكره فقط ، بل كان يجب ان يستثنى المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره ، وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعا فقد شرح بها صدراً وهى كفر ، وقد دل على ذلك قوله تعالى: (يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، قل استهزؤا ان الله مخرج ما تحذرون ، ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ، إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) . فقد اخبر انهم كفروا بعد ايمانهم مع قولهم : إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له ، بل كنا نخوض ونلعب ، وبين ان الاستهزاء بآيات الله كفر ، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام ، ولو كان الايمان فى قلبه منعه ان يتكلم بهذا الكلام .

والقرآن يبين ان ايمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه ، كقوله تعالى: (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين وإذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين) الى قوله : (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا واولئك هم المفلحون) فنفى الايمان عمن تولى عن طاعة الرسول ، واخبر ان المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا واطاعوا ؛ فبين ان هذا من لوازم الايمان .

فصل

فان قيل : فاذا كان الايمان المطلق يتناول جميع ما امر الله به ورسوله فمتى ذهب بعض ذلك بطل الايمان فيلزم تكفير اهل الذنوب كما تقوله الخوارج ، او تخليدهم فى النار وسلبهم اسم الايمان بالكلية كما تقوله المعتزلة ، وكلا هذين القولين شر من قول المرجئة فان المرجئة منهم جماعة من العلماء والعباد المذكورين عند الأمة بخير ، واما الخوارج والمعتزلة فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم .

قيل : أولاً ينبغي ان يعرف ان القول الذي لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه احد من اهل السنة هو القول بتخليد اهل الكبائر فى النار ؛ فان هذا القول من البدع المشهورة ، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم باحسان ؛ وسائر أئمة المسلمين على انه لا يخلد فى النار احد ممن فى قلبه مثقال ذرة من ايمان ، واتفقوا ايضاً على ان نبينا صلى الله عليه وسلم يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من اهل الكبائر من امته . ففي «الصحيحين» عنه انه قال : « لكل نبى دعوة مستجابة واني اختبأت دعوتي شفاعة لامتى يوم القيامة » ، وهذه الأحاديث مذكورة فى مواضعها . وقد نقل بعض الناس عن الصحابة فى ذلك خلافاً ، كما

روى عن ابن عباس ان القاتل لا توبة له ، وهذا غلط على الصحابة : فانه لم يقل احد منهم ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يشفع لأهل الكبائر ولا قال: انهم يخلدون في النار ، ولكن ابن عباس في احدى الروايتين عنه قال : ان القاتل لا توبة له . وعن احمد بن حنبل في قبول توبة القاتل روايتان ايضاً . والنزاع في التوبة غير النزاع في التخليد ، وذلك ان القتل يتعلق به حق آدمي . فلهذا حصل فيه النزاع .

واما قول القائل: ان الايمان اذا ذهب بعضه ذهب كله . فهذا ممنوع . وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الايمان فانهم ظنوا انه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء . ثم قالت «الخوارج والمعتزلة» : هو مجموع ما امر الله به ورسوله . وهو الايمان المطلق كما قاله اهل الحديث ؛ قالوا : فاذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الايمان شيء فيخلد في النار وقالت « المرجئة » على اختلاف فرقهم : لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة شيئاً من الايمان اذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء فيكون شيئاً واحداً يستوي فيه البر والفاجر ، ونصوص الرسول واصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه، كقوله: « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان».

ولهذا كان « اهل السنة والحديث » على انه يتفاضل ، وجمهورهم يقولون: يزيد وينقص ، ومنهم من يقول : يزيد ولا يقول : ينقص ، كما روى عن مالك في احدى الروايتين ، ومنهم من يقول : يتفاضل ، كعبدالله بن المبارك ، وقد

ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة ؛ فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة : عن حماد بن سلمة ، عن ابي جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمي ؛ وهو من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الايمان يزيد وينقص ؛ قيل له : وما زيادته وما نقصانه ؟ قال : اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته ؛ واذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه ؛ وروى اسماعيل بن عياش عن جرير بن عثمان ، عن الحارث بن محمد عن ابي الدرداء قال : الايمان يزيد وينقص .

وقال احمد بن حنبل : حدثنا يزيد ، حدثنا جرير بن عثمان قال : سمعت اشياخنا او بعض اشياخنا ان ابا الدرداء قال : ان من فقه العبد ان يتعاهد ايمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد ان يعلم أيزداد الايمان ام ينقص ؟ وان من فقه الرجل ان يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه . وروى اسماعيل بن عياش ، عن صفوان بن عمرو ، عن عبدالله بن ربيعة الحضرمي ، عن ابى هريرة قال : الايمان يزيد وينقص .

وقال احمد بن حنبل : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا محمد بن طلحة ، عن زبيد ، عن ذر قال ، كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه : هلموا نزدد ايماناً ، فيذكرون الله عز وجل وقال ابو عبيد فى «الغريب» في حديث على : ان الايمان يبدو لمظة فى القلب ، كلما ازداد الايمان ازدادت اللمظة يروي ذلك عن عثمان بن عبدالله عن عمرو بن هند الجملى عن على قال الأصمعي ، اللمظة : مثل النكتة او نحوها .

وقال احمد بن حنبل : حدثنا وكيع ، عن شريك ، عن هلال ، عن عبدالله ابن عكيم قال : سمعت ابن مسعود يقول فى دعائه : اللهم زدنا ايماناً ويقيناً وفقهاً . وروى سفيان الثوري عن جامع بن شداد عن الأسود بن هلال قال : كان معاذ بن جبل يقول لرجل : اجلس بنا نؤمن نذكر الله تعالى، وروى ابو اليمان: حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد ، ان عبدالله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من اصحابه فيقول : قم بنا نؤمن ساعة ، فنحن فى مجلس ذكر . وهذه الزيادة اثبتها الصحابة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن كله .

وصح عن عمار بن ياسر انه قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان الانصاف من نفسه ، والانفاق من الاقتار ؛ وبذل السلام للعالم ، ذكره البخاري فى « صحيحه » ، وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما : تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا ايماناً ، والآثار فى هذا كثيرة ، رواها المصنفون فى هذا الباب عن الصحابة والتابعين فى كتب كثيرة معروفة .

[قال مالك بن دينار : الايمان يبدو فى القلب ضعيفاً ضئيلاً كالبقلة ؛ فان صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ، واماط عنه الدغل وما يضعفه ويوهنه ، اوشك ان ينمو او يزداد ، ويصير له اصل وفروع ، وثمرة وظل إلى ما لا يتناهى حتى يصير امثال الجبال . وان صاحبه اهمله ولم يتعاهده جاءه عنز فنتفتها ، او صبي فذهب بها ، واكثر عليها الدغل فأضعفها اواهلكها او ايبسها ، كذلك الايمان .

وقال خيثمة بن عبد الرحمن: الايمان يسمن في الخصب ، ويهزل في الجدب فخصبه العمل الصالح ، وجدبه الذنوب والمعاصي . وقيل لبعض السلف : يزداد الايمان وينقص ؟ قال نعم يزداد حتى يصير امثال الجبال ، وينقص حتى يصير امثال الهباء .

وفي حديث حذيفة الصحيح : « حتى يقال للرجل : ما اجلده ، ما اظرفه ما اعقله ؛ وما في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان » وفي حديثه الآخر الصحيح « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأي قلب اشربها ، نكتت فيه نكتة سوداء ؛ واي قلب انكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : ابيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر اسود : مرباداً ، كالكوز مجخياً ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما اشرب هواه ؛ وفي حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية ، فانه من اعظم الأدلة على زيادة الايمان ونقصانه لأنه وصفهم بقوة الايمان وزيادته في تلك الخصال التي تدل على قوة ايمانهم ؛ وتوكلهم على الله في امورهم كلها .

وروى ابو نعيم من طريق الليث بن سعد ، عن يزيد بن عبد الله اليزني ، عن ابي رافع انه سمع رجلاً حدثه انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال : اتحب ان اخبرك بصريح الايمان ؟ قال : نعم . قال : اذا اسأت او ظلمت احداً ، عبدك او امتك او احداً من الناس ، حزنت وساءك ذلك .

واذا تصدقت او احسنت استبشرت وسرك ذلك ، ورواه بعضهم عن يزيد ، عمن سمع النبي صلى الله عليه وسلم انه سأله عن زيادة الايمان فى القلب ونقصانه فذكر نحوه ، وقال البزار : حدثنا محمد بن ابى الحسن البصري ، ثنا هانىء بن المتوكل ، ثنا عبد الله بن سليمان ، عن اسحاق عن انس مرفوعاً : ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الايمان ، خلق يعيش به فى الناس ، وورع يحجزه عن معصية الله ، وحلم يرد به جهل الجاهل » .

و « اربع من الشقاء : جمود العين وقساوة القلب ، وطول الامل والحرص على الدنيا » . فالخصال الاولى تدل على زيادة الايمان وقوته ، والاربعة الاخر تدل على ضعفه ونقصانه .

وقال ابو يعلى الموصلي : ثنا عبد الله القواريري ، ويحيى بن سعيد قالا : ثنا يزيد بن زريع ، ويحيى بن سعيد قالا : حدثنا عوف حدثني عقبة بن عبد الله المزنى قال يزيد فى حديثه فى مسجد البصرة : حدثني رجل قد سماه ، ونسي عوف اسمه قال : كنت بالمدينة فى مسجد فيه عمر بن الخطاب . فقال لبعض جلسائه : كيف سمعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى الاسلام ؟ فقال : سمعته يقول : الاسلام بدأ جذعاً ؛ ثم ثنياً ؛ ثم رباعياً ؛ ثم سداسياً ؛ ثم بازلاً . فقال عمر : فما بعد البزول إلا النقصان ، كذا ذكره أبو يعلي فى « مسند عمر » وفي « مسند » هذا الصحابي المبهم ذكره اولى .

قال ابو سليمان : من أحسن في ليله كوفيء في نهاره ، ومن احسن فى نهاره كوفىء فى ليله][1] .

---

(١) ما بين القوسين المربعين من ص ٢٢٥ — ٢٢٧ زيادة من المخطوطة .

والزيادة قد نطق بها القرآن فى عدة آيات ؛ كقوله تعالى : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) وهذه زيادة اذا تليت عليهم الآيات اي وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول ، وهذا امر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد فى قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الايمان مالم يكن ؛ حتى كأنه لم يسمع الآية الا حينئذ ويحصل فى قلبه من الرغبة فى الخير والرهبة من الشر ما لم يكن ؛ فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته ، وهذه زيادة الايمان ، وقال تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقيناً وتوكلا على الله ، وثباتاً على الجهاد وتوحيداً بأن لا يخافوا المخلوق ؛ بل يخافون الخالق وحده ، وقال تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ؛ فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون ؛ واما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم) .

وهذه « الزيادة » ليست مجرد التصديق بأن الله انزلها بل زادتهم إيماناً بحسب مقتضاها ؛ فان كانت امراً بالجهاد او غيره ازدادوا رغبة ، وإن كانت نهياً عن شيء انتهوا عنه فكرهوه ، ولهذا قال : (وهم يستبشرون) والاستبشار غير مجرد التصديق ، وقال تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه) ، والفرح بذلك من زيادة الايمان قال تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) . وقال تعالى : (ويومئذ

يفرح المؤمنون بنصر الله) وقال تعالى : (وما جعلنا اصحاب النار الا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً) . وقال: (هو الذي انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) وهذه نزلت لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه من الحديبية ؛ فجعل السكينة موجبة لزيادة الايمان .

والسكينة طمأنينة فى القلب غير علم القلب وتصديقه ، ولهذا قال يوم حنين : (ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنوداً لم تروها) وقال تعالى : (ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ؛ فأنزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها) ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار ؛ وانما انزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو ، فلما انزل السكينة فى قلوبهم ، مرجعهم من الحديبية ، ليزدادوا إيماناً مع ايمانهم ، دل على ان الايمان المزيد ، حال للقلب وصفة له ، وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه ، واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة، كما يكون بالعلم ، والريب المنافى لليقين يكون ريباً فى العلم ، وريباً فى طمأنينة القلب ، ولهذا جاء فى الدعاء المأثور : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا » .

وفى حديث الصديق الذي رواه احمد والترمذي وغيرهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « سلوا الله العافية واليقين ؛ فما اعطي احد بعد اليقين شيئاً

خيراً من العافية ؛ فسلوهما الله تعالى » ؛ فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب وطمأنينته وتسليمه ، وهذا من تمام الايمان بالقدر خيره وشره ، كما قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال علقمة : ويروى عن ابن مسعود : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم ، وقوله تعالى : (يهد قلبه) هداه لقلبه هو زيادة فى ايمانه ؛ كما قال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى) وقال : (انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) .

ولفظ « الايمان » اكثر ما يذكر فى القرآن مقيداً ؛ فلا يكون ذلك اللفظ متناولا لجميع ما امر الله به ؛ بل يجعل موجباً للوازمه وتمام ما أمر به ، وحينئذ يتناوله الاسم المطلق قال تعالى : (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ؛ فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم اجر كبير ، وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد اخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين ؛ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور) وقال تعالى فى آخر السورة : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ، والله غفور رحيم) .

وقد قال بعض المفسرين فى الآية الأولى : انها خطاب لقريش ؛ وفى الثانية انها خطاب لليهود والنصارى ، وليس كذلك ؛ فان الله لم يقل قط للكفار : (يا ايها الذين آمنوا) ثم قال بعد ذلك : (لئلا يعلم اهل الكتاب ان لايقدرون

على شيء من فضل الله) وهذه السورة مدنية باتفاق ، لم يخاطب بها المشركين بمكة ؛ وقد قال : (وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد اخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين) وهذا لا يخاطب به كافر ؛ وكفار مكة لم يكن اخذ ميثاقهم ، وانما اخذ ميثاق المؤمنين ببيعتهم له ؛ فان كل من كان مسلماً مهاجراً ، كان يبايع النبي صلى الله عليه وسلم ، كما بايعه الأنصار ليلة العقبة وانما دعاهم الى تحقيق الايمان وتكميله ، بأداء ما يجب من تمامه باطناً وظاهراً كما نسأل الله ان يهدينا الصراط المستقيم فى كل صلاة ؛ وان كان قد هدى المؤمنين للاقرار بما جاء به الرسول جملة ، لكن الهداية المفصلة فى جميع مايقولونه ويفعلونه فى جميع امورهم لم تحصل ، وجميع هذه الهداية الخاصة المفصلة هي من الايمان المأمور به . وبذلك يخرجهم الله من الظلمات الى النور .

فصــــــل

وزيادة الايمان الذي أمر الله به ، والذي يكون من عباده المؤمنين يعرف من وجوه :

(احدها) : الاجمال والتفصيل فيما امروا به ، فانه وان وجب على جميع الخلق الايمان بالله ورسوله ، ووجب على كل امة التزام ما يأمر به رسولهم مجملاً . فمعلوم انه لا يجب في اول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله ، ولا يجب على كل عبد من الايمان المفصل مما اخبر به الرسول ، ما يجب على من بلغه غيره ، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها ، لزمه من الايمــان المفصل بذلك ما لا يلزم غيره ، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطناً وظاهراً ، ثم مات قبل ان يعرف شرائع الدين ، مات مؤمناً بما وجب عليه من الايمان ، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع عنه ، مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها ؛ بل ايمان هذا اكمل وجوباً ووقوعا ، فان ما وجب عليه من الايمان اكمل ، وما وقع منه اكمل .

وقوله تعالى : (اليوم اكملت لكم دينكم) اي في التشريع بالأمر والنهي ليس المراد ان كل واحــد من الأمة وجب عليه ما يجب على سائر الأمة ، وانه فعل ذلك ؛ بل في « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم ، انه وصف النساء

بأنهن ناقصات عقل ودين ، وجعل نقصان عقلها ، ان شهادة امرأتين ، شهادة رجل واحد ، ونقصان دينها انها إذا حاضت ، لاتصوم ولا تصلي ، وهذا النقصان ليس هو نقص مما امرت به ؛ فلا تعاقب على هـذا النقصان ، لكن من امر بالصلاة والصوم ففعله كان دينه كاملاً بالنسبة الى هذه الناقصة الدين .

(الوجه الثاني) : الاجمال والتفصيل فيما وقع منهم ، فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقاً فلم يكذبه قط ، لكن اعرض عن معرفة امره ، ونهيه ، وخبره ، وطلب العلم الواجب عليه ؛ فلم يعلم الواجب عليه ، ولم يعماله ؛ بل اتبع هواه ، وآخر طلب علم ما امر به فعمل به ، وآخر طلب علمه ، فعلمه ، وآمن به ولم يعمل به وان اشتركوا في الوجوب ، لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فايمانه اكمل به ؛ فهؤلاء ممن عرف ما يجب عليه والتزمه ، واقر به ، لكنه لم يعمل بذلك كله ، وهذا المقر بما جاء به الرسول ، المعترف بذنبه الخائف من عقوبة ربه على ترك العمل اكمل ايماناً ممن لم يطلب معرفة ما امر به الرسول ولا عمل بذلك ؛ ولا هو خائف ان يعاقب ؛ بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع انه مقر بنبوته باطناً وظاهراً .

فكلما علم القلب ، ما اخبر به الرسول فصدقه ، وما امر به فالتزمه ؛ كان ذلك زيادة في ايمانه على من لم يحصل له ذلك ؛ وان كان معه التزام عام واقرار عام .

وكذلك من عرف اسماء الله ومعانيها ، فآمن بها ؛ كان ايمانه اكمل ممن لم

يعرف تلك الأسماء بل آمن بها ايماناً مجملاً ، او عرف بعضها ؛ وكلما ازداد الانسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته ، كان ايمانه به اكمل .

(الثالث) : ان العلم والتصديق نفسه ، يكون بعضه اقوى من بعض ، واثبت وابعد عن الشك والريب ، وهذا امر يشهده كل احد من نفسه ؛ كما ان الحس الظاهر بالشيء الواحد ، مثل رؤية الناس للهلال ، وان اشتركوا فيها فبعضهم تكون رؤيته اتم من بعض؛ وكذلك سماع الصوت الواحد ، وشم الرائحة الواحدة ، وذوق النوع الواحد من الطعام ، فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل اعظم من ذلك من وجوه متعددة ! والمعاني التى يؤمن بها من معاني اسماء الرب وكلامه ، يتفاضل الناس فى معرفتها ، اعظم من تفاضلهم فى معرفة غيرها .

(الرابع) ان التصديق المستلزم لعمل القلب ، اكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله ؛ فالعلم الذي يعمل به صاحبه ، اكمل من العلم الذي لا يعمل به واذا كان شخصان يعلمان ان الله حق ، ورسوله حق ، والجنة حق ، والنار حق وهذا علمه أوجب له محبة الله ، وخشيته ، والرغبة فى الجنة ، والهرب من النار والآخر علمه لم يوجب ذلك ؛ فعلم الأول اكمل ؛ فان قوة المسبب ، دل على قوة السبب ، وهذه الامور نشأت عن العلم ، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه ؛ والعلم بالمخوف ، يستلزم الهرب منه ؛ فاذا لم يحصل اللازم ، دل على ضعف الملزوم ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس المخبر كالمعاين » فان موسى لما اخبره

ربه ان قومه عبدوا العجل ، لم يلق الألواح . فلما رآهم قد عبدوه القاها؛ وليس ذلك لشك موسى فى خبر الله ، لكن المخبر وإن جزم بصدق المخبر ، فقدلا يتصور المخبر به في نفسه ، كما يتصوره اذا عاينه ؛ بل يكون قلبه مشغولاً عن تصور المخبر به ، وان كان مصدقاً به ؛ ومعلوم انه عند المعاينة ، يحصل له من تصور المخبر به ما لم يكن عند الخبر ، فهذا التصديق اكمل من ذلك التصديق .

(الخامس) : ان أعمال القلوب ، مثل محبة الله ورسوله ، وخشية الله تعالى ورجائه ، ونحو ذلك ، هي كلها من الايمان ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف ؛ وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلاً عظيماً .

(السادس) : ان الأعمال الظاهرة مع الباطنة هي ايضاً من الايمان، والناس يتفاضلون فيها .

(السابع) ذكر الانسان بقلبه ما امره الله به واستحضاره لذلك ، بحيث لا يكون غافلاً عنه ؛ اكمل ممن صدق به وغفل عنه ؛ فان الغفلة تضاد كمال العلم ؛ والتصديق والذكر ، والاستحضار يكمل العلم واليقين ؛ ولهذا قال عمر بن حبيب من الصحابة ، اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته ؛ واذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه وهو كذلك ؛ وكان معاذ بن جبل يقول لأصحابه : اجلسوا بنا ساعة نؤمن ، قال تعالى ، (ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) وقال تعالى : (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) وقال تعالى : (سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقي) ثم كلما تذكر الانسان ما عرفه قبل ذلك ؛ وعمل به،

حصل له معرفة شيء آخر لم يكن عرفه قبل ذلك وعرف من معاني اسماء الله وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك ، كما في الأثر « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ، وهذا امر يجده في نفسه كل مؤمن .

وفي « الصحيح » ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت » . قال تعالى : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً) ، وذلك انها تزيدهم علم مالم يكونوا قبل ذلك علموه ، وتزيدهم عملاً بذلك العلم ، وتزيدهم تذكراً لما كانوا نسوه ، وعملاً بتلك التذكرة ، وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات في الآفاق ، وفي انفسهم . قال تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) ، أي إن القرآن حق ، ثم قال تعالى: (او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد) . فان الله شهيد في القرآن بما اخبر به ؛ فآمن به المؤمن ثم اراهم في الآفاق وفي انفسهم من الآيات ، ما يدل على مثل ما اخبر به في القرآن ، فبينت لهم هذه الآيات ، ان القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك .

وقال تعالى : (افلم ينظروا الي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) ، فالآيات المخلوقة والمتلوة ، فيها تبصرة . وفيها تذكرة : تبصرة من العمى ، وتذكرة من الغفلة ؛ فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف ، ويذكر من عرف ونسى ، والانسان يقرأ السورة مرات ، حتى سورة الفاتحة ، ويظهر له في اثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك ، حتى كأنها تلك الساعة نزلت ؛ فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه

وعمله . وهذا موجود فى كل من قرأ القرآن بتدبر ، بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه . ثم كلما فعل شيئاً مما امر به ، استحضر انه امر به فصدق الأمر ، فحصل له فى تلك الساعة من التصديق فى قلبه ما كان غافلا عنه وان لم يكن مكذباً منكرا .

(الوجه الثامن) : ان الانسان قد يكون مكذباً ومنكراً لأمور لا يعلم ان الرسول اخبر بها ، وامر بها ، ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر . بل قلبه جازم بأنه لا يخبر الا بصدق ولا يأمر الا بحق ، ثم يسمع الآية او الحديث ، او يتدبر ذلك ، او يفسر له معناه ، او يظهر له ذلك بوجه من الوجوه ، فيصدق بما كان مكذباً به ، ويعرف ما كان منكراً ، وهذا تصديق جديد ، وايمان جديد ازداد به ايمانه ، ولم يكن قبل ذلك كافراً بل جاهلاً ؛ وهذا وان اشبه المجمل والمفصل لكون قلبه سليما عن تكذيب وتصديق لشيء من التفاصيل ، وعن معرفة وانكار لشيء من ذلك ، فيأتيه التفصيل بعد الاجمال على قلب ساذج ؛ واما كثير من الناس ، بل من اهل العلوم والعبادات ، فيقوم بقلوبهم من التفصيل امور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول وهم لايعرفون انها تخالف ، فاذا عرفوا رجعوا ، وكل من ابتدع في الدين قولاً اخطأ فيه ، او عمل عملاً اخطأ فيه ، وهو مؤمن بالرسول ، او عرف ما قاله وآمن به ، لم يعدل عنه ؛ هو من هذا الباب وكل مبتدع قصده متابعة الرسول فهو من هذا الباب ؛ فمن علم ما جاء به الرسول ، وعمل به ، اكمل ممن اخطأ ذلك ؛ ومن علم الصواب بعد الخطأ ، وعمل به فهو اكمل ممن لم يكن كذلك .

فصــــــل

وقد أثبت الله فى القرآن إســلاماً بلا إيمـان في قوله تعــالى : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمـان فى قلوبكم ، وان تطيعــوا الله ورســوله لا يلتكم من أعمالـكم شيئاً) . وقــد ثبت فى « الصحيحين » ، عن سعد بن ابى وقاص ، قال : اعطى النبي صلى الله عليه وسلم رهطاً ، وفى رواية قسم قسماً ، وترك فيهم من لم يعطــه ، وهو أعجبهم إلي ، فقلت : يارسول الله ، مالك عن فلان ؟ فوالله انى لأراه مؤمناً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وســلم : « أو مسلماً » . اقولها ثلاثا ، ويرددها على رســول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ، ثم قال : « انى لأعطي الرجل ، وغيره احب إلي منه ، مخافة ان يكبه الله على وجهه فى النار » ، وفى رواية : فضرب بين عنقي وكتفي ، وقال : « أقتال أي سعد ؟! » .

فهذا الاسلام الذي نفى الله عن اهله دخول الايمان فى قلوبهم ، هل هو اســلام يثابون عليــه ؟ ام هو من جنس اســلام المنافقين ؟ فيــه قولان مشهوران للسلف والخلف : احدهما : انه اســلام يثابون عليه ، ويخرجهم من الـكفر والنفاق . وهذا مروي عن الحسن ، وابن سيرين ، وابراهيم النخعي ،

وابي جعفر الباقر ؛ وهو قول حماد بن زيد ، واحمد بن حنبل ، وسهل بن عبد الله التستري ، وابي طالب المكي ، وكثير من اهل الحديث والسنة والحقائق .

قال احمد بن حنبل : حدثنا مؤمل بن اسحق عن عمار بن زيد قال : سمعت هشاماً يقول : كان الحسن ومحمد يقولان : مسلم ، ويهابان : مؤمن . وقال احمد بن حنبل : حدثنا ابو سلمة الخزاعي ، قال : قال مالك ، وشريك ، وابو بكر بن عياش ، وعبدالعزيز بن ابي سلمة ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد : « الايمان » المعرفة والاقرار والعمل ، الا ان حماد بن زيد ، يفرق بين الاسلام والايمان ، يجعل الايمان خاصاً ، والاسلام عاماً .

و (القول الثاني) : ان هذا الاسلام : هو الاستسلام خوف السبي والقتل ، مثل اسلام المنافقين . قالوا : وهؤلاء كفار ، فان الايمان لم يدخل في قلوبهم ومن لم يدخل الايمان في قلبه فهو كافر . وهذا اختيار البخاري ، ومحمد بن نصر المروزي ، والسلف مختلفون في ذلك .

قال محمد بن نصر : حدثنا اسحاق ، انبأنا جرير ، عن مغيرة ، قال : اتيت ابراهيم النخعي ، فقلت : ان رجلاً خاصمني يقال له : سعيد العنبري ، فقال ابراهيم ليس بالعنبري ولكنه زبيدي . قوله : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) فقال : هو الاستسلام ، فقال ابراهيم : لا ، هو الاسلام .

وقال : حدثنا محمد بن يحي ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان عن

مجاهـد : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولـكن قولوا اسلمنا) ، قال : استسلمنا خوف السبي والقتل . ولـكن هذا منقطع ، سفيان لم يدرك مجاهداً . والذين قالوا : ان هذا الاسلام هو كاسلام المنافقين ، لا يثابون عليـه ، قالوا : لأن الله نفى عنهم الايمـان ، ومن نفي عنـه الايمان فهو كافر . وقال هؤلاء : الاسلام هو الايمان ، وكل مسلم مؤمن . وكل مؤمن مسلم ، ومن جعل الفساق مسلمين غير مؤمنين ، لزمه ان لا يجعلهم داخلين فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة) : وفى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة) ، وامثال ذلك فانهم انما دعوا باسم الايمان ، لا باسم الاسلام ، فمن لم يكن مؤمناً لم يدخل فى ذلك .

وجواب هذا ان يقال : الذين قالوا من السلف : إنهم خرجوا من الايمان الى الاسلام ، لم يقولوا : انه لم يبق معهم من الايمان شيء ، بل هذا قول الخوارج، والمعتزلة . واهل السنة الذين قالوا هذا ، يقولون : الفساق يخرجون من النار بالشفاعة . وإن معهم ايمان يخرجون به من النـار . لكن لا يطلق عليهم اسم الايمان ، لأن الايمان المطلق ، هو الذي يستحق صاحبه الثواب ، ودخول الجنة ، وهؤلاء ليسوا من اهله ، وهم يدخلون في الخطاب بالايمان ، لأن الخطاب بذلك هو لمن دخل فى الايمان وان لم يستكمله ، فانه انما خوطب ليفعل تمام الايمان ، فـكيف يكون قد أتمه قبل الخطاب ؟ ! وإلا كنا قـد تبينا ان هذا المأمور من الايمان قبل الخطاب ؛ وانما صار من الايمان بعد ان امروا به ، فالخطاب بـ (يا أيها

الذين آمنوا) ؛ غير قوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم) ونظائرها ، فان الخطاب بـ (يا أيها الذين آمنوا) أولاً : يدخل فيه من اظهر الايمان ، وان كان منافقاً فى الباطن يدخل فيه فى الظاهر ، فكيف لا يدخل فيه من لم يكن منافقاً ، وان لم يكن من المؤمنين حقاً .

وحقيقته ان من لم يكن من المؤمنين حقاً ، يقال فيه : انه مسلم ، ومعه ايمان يمنعه الخلود في النار ، وهذا متفق عليه بين اهل السنة . لكن هل يطلق عليه اسم الايمان ؟ هذا هو الذي تنازعوا فيه ، فقيل : يقال مسلم ، ولا يقال : مؤمن . وقيل : بل يقال : مؤمن .

والتحقيق ان يقال : انه مؤمن ناقص الايمان ، مؤمن بايمانه ، فاسق بكبيرته ولا يعطي اسم الايمان المطلق ؛ فان الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق ؛ واسم الايمان يتناوله فيما امر الله به ورسوله ، لأن ذلك إيجاب عليه وتحريم عليه ، وهو لازم له كما يلزمه غيره ، وانما الكلام فى اسم المدح المطلق ؛ وعلى هذا فالخطاب بالايمان يدخل فيه « ثلاث طوائف » : يدخل فيه المؤمن حقاً ، ويدخل فيه المنافق فى احكامه الظاهرة ، وان كانوا فى الآخرة فى الدرك الأسفل من النار ؛ وهو فى الباطن ينفي عنه الاسلام والايمان ، وفى الظاهر يثبت له الاسلام والايمان الظاهر ؛ ويدخل فيه الذين اسلموا وإن لم تدخل حقيقة الايمان فى قلوبهم ؛ لكن معهم جزء من الايمان والاسلام يثابون عليه .

ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم ، وليس معهم من الكبائر ما يعاقبون عليه كأهل الكبائر ، لكن يعاقبون على ترك المفروضات ، وهؤلاء كالأعراب المذكورين فى الآية وغيرهم ؛ فانهم قالوا : آمنا من غير قيام منهم بما امروا به باطناً وظاهراً . فلا دخلت حقيقة الايمان فى قلوبهم ، ولا جاهدوا فى سبيل الله . وقد كان دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم الى الجهاد وقد يكونون من اهل الكبائر المعرضين للوعيد ؛ كالذين يصلون ويزكون ويجاهدون ، ويأتون الكبائر ؛ وهؤلاء لا يخرجون من الاسلام ؛ بل هم مسلمون ولكن بينهم نزاع لفظي : هل يقال : انهم مؤمنون كما سنذكره إن شاء الله ؟.

وأما «الخوارج» ، «والمعتزلة» فيخرجونهم من اسم الايمان والاسلام ؛ فان الايمان والاسلام عندهم واحد ؛ فاذا خرجوا عندهم من الايمان خرجوا من الاسلام؛ لكن الخوارج تقول: هم كفار ؛ والمعتزلة تقول : لامسلمون ولا كفار ؛ ينزلونهم منزلة بين المنزلتين ؛ والدليل على ان الاسلام المذكور فى الآية هو إسلام يثابون عليه وانهم ليسوا منافقين انه قال : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) ثم قال : (وان تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من اعمالكم شيئاً) ؛ فدل على انهم اذا اطاعوا الله ورسوله مع هذا الاسلام ؛ آجرهم الله على الطاعة . والمنافق عمله حابط فى الآخرة .

وايضاً فانه وصفهم بخلاف صفات المنافقين ، فان المنافقين وصفهم بكفر في قلوبهم ، وانهم يبطنون خلاف ما يظهرون ؛ كما قال تعالى : (ومن الناس

من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ؛ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا انفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) الآيات . وقال : (اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسو الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) فالمنافقون يصفهم فى القرآن بالكذب ؛ وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، وبأ ن فى قلوبهم من الكفر ما يعاقبون عليه ؛ وهؤلاء لم يصفهم بشيء من ذلك ، لكن لما ادعوا الايمان قال للرسول : (قل لم تؤمنوا ؛ ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) .

ونفي الايمان المطلق لا يستلزم ان يكونوا منافقين ، كما فى قوله : (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) ثم قال : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً) ومعلوم أنه ليس من لم يكن كذلك ؛ يكون منافقاً من اهل الدرك الأسفل من النار بل لا يكون قد أتى بالايمان الواجب ، فنفي عنه كما ينفي سائر الأسماء عمن ترك بعض ما يجب عليه فكذلك الأعراب لم يأتوا بالايمان الواجب ؛ فنفى عنهم لذلك وان كانوا مسلمين ، معهم من الايمان ما يثابون عليه .

وهذا حال أكثر الداخلين فى الاسلام ابتداء ؛ بل حال اكثر من لم يعرف

حقائق الايمان ؛ فان الرجل إذا قوتل حتى أسلم كما كان الكفار يقاتلون حتى يسلموا ، او اسلم بعد الأسر او سمع بالاسلام فجاء فأسلم ؛ فانه مسلم ملتزم طاعة الرسول ولم تدخل الى قلبه المعرفة بحقائق الايمان ، فان هذا انما يحصل لمن تيسرت له أسباب ذلك ؛ إما بفهم القرآن وإما بمباشرة اهل الايمان والاقتداء بما يصدر عنهم من الأقوال والأعمال ، وإما بهداية خاصة من الله يهديه بها . والانسان قد يظهر له من محاسن الاسلام ما يدعوه الى الدخول فيه ، وان كان قد ولد عليه وتربى بين اهله فانه يحبه ، فقد ظهر له بعض محاسنه وبعض مساويء الكفار .

وكثير من هؤلاء قد يرتاب إذا سمع الشبه القادحة فيه ولا يجاهد فى سبيل الله ؛ فليس هو داخلاً فى قوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله) وليس هو منافقاً فى الباطن مضمراً للكفر ، فلا هو من المؤمنين حقاً ولا هو من المنافقين ، ولا هو ايضاً من اصحاب الكبائر ، بل يأتي بالطاعات الظاهرة ولا يأتي بحقائق الايمان التى يكون بها من المؤمنين حقاً ؛ فهذا معه إيمان وليس هو من المؤمنين حقاً ويثاب على ما فعل من الطاعات ، ولهذا قال تعالى : (ولكن قولوا أسلمنا) ولهذا قال : (يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم ؛ بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين) يعنى فى قولكم : (آمنا) .

يقول : ان كنتم صادقين ، فالله يمن عليكم أن هداكم للايمان ؛ وهذا

يقتضي انهم قد يكونون صادقين فى قولهم : (آمنا) .ثم صدقهم، إما ان يراد به اتصافهم بأنهم آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ؛ وإما ان يراد به انهم لم يكونوا كالمنافقين ، بل معهم ايمان وان لم يكن لهم ان يدعوا مطلق الايمان ، وهذا اشبه والله اعلم لأن النسوة الممتحنات قال فيهن : (فان علمتموهن مؤمنـات فلا ترجعوهن الى الكفار) ولا يمكن نفي الريب عنهن فى المستقبل ولأن الله انما كذب المنافقين ولم يكذب غيرهم ؛ وهؤلاء لم يكذبهم ولكن قال : (لم تؤمنـوا) كما قال : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيـه ما يحب لنفسه » وقوله : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » و « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » وهؤلاء ليسوا منافقين .

وسـياق الآية يدل على ان الله ذمهم ، لكونهم منوا باسلامهم لجهلهم وجفائهم واظهروا ما في انفسهم مع علم الله به ؛ فان الله تعـالى قال : (قل اتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الارض) فـلو لم يكن فى قلوبهم شيء من الدين لم يكونوا يعلمون الله بدينهم ؛ فان الاسلام الظاهر يعرفه كل احد . ودخلت البـاء فى قوله : (اتعلمون الله بدينكم) لانه ضمن معنى يخبرون ويحـدثون كأنه قال : اتخبرونه وتحدثونه بدينكم وهو يعلم ما فى السموات ومافى الارض. وسـياق الآية يدل على ان الذي اخبروا به الله هو ما ذكره الله عنهم من قولهم : (آمنا) فانهم اخبروا عما فى قلوبهم .

وقد ذكر المفسرون انه لما نزلت هاتان الآيتـان ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلفون انهم مؤمنون صـادقون ، فنزل قوله تعالى : (قل اتعلمون الله بدينـكم) وهذا يدل على انهم كانوا صادقين اولاً فى دخولهم فى الدين ، لانه لم يتجدد لهم بعـد نزول الآية جهاد حتى يدخلوا به فى الآية ، انما هو كلام قالوه وهو سبحانه قال : (ولمـا يدخل الايمان فى قلوبكم) ولفظ : (لمـا) ينفي به ما يقرب حصوله ويحصل غالباً . كقوله : (أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولمـا يعلم الله الذين جاهدوا منكم) وقد قال السدي : نزلت هذه الآية في اعراب مزينة وجهينة واسلم ، واشجع وغفار ، وهم الذين ذكرهم الله فى سورة الفتح وكانوا يقولون : آمنا بالله ليـأمنوا على انفسهم ، فلما استنفروا الى الحديبية تخلفوا ؛ فنزلت فيهم هذه الآية .

وعن مقاتل : كانت منازلهم بين مكة والمدينة ، وكانوا إذا مرت بهم سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : آمنا ، ليأمنوا على دمائهم واموالهم فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحديبية اسـتنفرهم فلم ينفروا معه .

وقال مجاهد : نزلت في أعراب بنى أسد بن خزيمة ، ووصف غيره حالهم . فقال : قدموا المدينة فى سـنة مجدبة ، فأظهروا الاسلام ولم يكونوا مؤمنين وافسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا اسعارهم ، وكانوا يمنون على رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقولون: اتيناك بالأثقال والعيال، فنزلت فيهم هذه الآية، وقد قال قتادة فى قوله : (يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم، بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين) قال : منوا على النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءوا فقالوا : إنا اسلمنا بغير قتال، لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، فقال الله لنبيه : (يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علىّ إسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان).

وقال مقاتل بن حيان : هم اعراب بني اسد بن خزيمة، قالوا : يارسول الله أتيناك بغير قتال، وتركنا العشائر والأموال، وكل قبيلة من العرب قاتلتك حتى دخلوا كرها فى الاسلام؛ فلنا بذلك عليك حق : فأنزل الله تعالى : (يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين) . فله بذلك المن عليكم وفيهم انزل الله : (ولا تبطلوا اعمالكم)، ويقال : من الكبائر التى ختمت بنار، كل موجبة من ركبها ومات عليها لم يتب منها .

وهذا كله يبين انهم لم يكونوا كفاراً فى الباطن؛ ولا كانوا قد دخلوا فيما يجب من الايمان؛ وسورة الحجرات قد ذكرت هذه الأصناف فقال : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون) ولم يصفهم بكفر ولا نفاق؛ لكن هؤلاء يخشى عليهم الكفر والنفاق، ولهذا ارتد بعضهم لأنهم لم يخالط الايمان بشاشة قلوبهم، وقال بعد ذلك (ياايها الذين آمنوا إن جاءكم

فاسق بنبأ فتبينوا) الآية وهذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة ، وكان قد كذب فيما اخبر .

قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى الوليد بن عقبة ، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق ليقبض صدقاتهم ، وقد كانت بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية ، فسار بعض الطريق ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنهم منعوا الصدقة وارادوا قتلى ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث اليهم ، فنزلت هذه الآية . وهذه القصة معروفة من وجوه كثيرة ، ثم قال تعالى في تمامها : (واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) وقال تعالى : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ،فان بغت إحداها على الأخرى) الآية . ثم نهاهم عن ان يسخر بعضهم ببعض ، وعن اللمز والتنابز بالألقاب وقال : (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) وقد قيل : معناه : لا تسميه فاسقاً ولا كافراً بعد إيمانه ، وهذا ضعيف ، بل المراد : بئس الاسم ان تكونوا فساقا بعد ايمانكم ، كما قال تعالى فى الذي كذب : (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) فسماه فاسقاً .

وفي« الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» ، يقول : فاذا سابتم المسلم وسخرتم منه ولمزتموه استحققتم ان تسموا فساقاً ، وقد قال فى آية القذف : (ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً واولئك هم الفاسقون) . يقول : فاذا أتيتم بهذه الأمور التى تستحقون بها ان تسموا

فساقاً كنتم قد استحققتم اسم الفسوق بعد الايمان ، وإلا فهم فى تنابزهم ما كانوا يقولون : فاسق ، كافر ، فان النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وبعضهم يلقب بعضاً .

وقد قال طائفة من المفسرين فى هذه الآية : لا تسميه بعد الاسلام بدينه قبل الاسلام ، كقوله لليهودي إذا أسلم : يايهودي ، وهذا مروي عن ابن عباس وطائفة من التابعين ، كالحسن ، وسعيد بن جبير ، وعطاء الخراساني ، والقرظي ، وقال عكرمة : هو قول الرجل : يا كافر ! يامنافق! وقال عبد الرحمن بن زيد : هو تسمية الرجل بالأعمال ، كقوله : يازاني ياسارق يافاسق وفي تفسير العوفى عن ابن عباس قال : هو تعيير التائب بسيئات كان قد عملها ، ومعلوم ان اسم الكفر ، واليهودية ، والزاني ، والسارق وغير ذلك من السيئات ليست هي اسم الفاسق ، فعلم ان قوله : (بئس الاسم الفسوق) لم يرد به تسمية المسبوب باسم الفاسق ، فان تسميته كافراً اعظم ، بل إن الساب يصير فاسقاً لقوله : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ثم قال : (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) فجعلهم ظالمين إذا لم يتوبوا من ذلك وان كانوا يدخلون فى اسم المؤمنين ، ثم ذكر النهى عن الغيبة ، ثم ذكر النهي عن التفاخر بالأحساب ، وقال : (ان أكرمكم عندالله أتقاكم) . ثم ذكر قول الأعراب : (آمنا) .

فالسورة تنهى عن هذه المعاصي والذنوب التى فيها تعد على الرسول وعلى

المؤمنين، فالأعراب المذكورون فيها من جنس المنافقين . واهل السباب والفسوق والمنادين من وراء الحجرات وامثالهم، ليسوا من المنافقين ، ولهذا قال المفسرون : إنهم الذين استنفروا عام الحديبية، واولئك وان كانوا من اهل الكبائر فلم يكونوا فى الباطن كفاراً منافقين .

قال ابن اسحاق : لما اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم العمرة ــ عمرة الحديبية ــ استنفر من حول المدينة من اهل البوادى والأعراب ليخرجوا معه خوفاً من قومه ان يعرضوا له بحرب او بصد، فتثاقل عنه كثير منهم، فهم الذين عنى الله بقوله : (سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا اموالنا واهلونا فاستغفر لنا) اى ادع الله ان يغفر لنا تخلفنا عنك(يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) اى ما يبالون، استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم ، وهذا حال الفاسق الذي لا يبالي بالذنب، والمنافقون قال فيهم : (واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم أستغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) ولم يقل مثل هذا في هؤلاء الأعراب ، بل الآية دليل على انهم لو صدقوا فى طلب الاستغفار نفعهم استغفار الرسول لهم ثم قال : (ستدعون الى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون ، فان تطيعوا يؤتكم الله اجراً حسناً وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً) فوعدهم الله بالثواب على طاعة الداعى الى الجهاد ، وتوعدهم بالتولي عن طاعته .

وهذا كخطاب امثالهم من اهل الذنوب والكبائر ؛ بخلاف من هو كافر

فى الباطن ، فانه لا يستحق الثواب بمجرد طاعة الامر حتى يؤمن اولاً ، ووعيده ليس على مجرد توليه عن الطاعة فى الجهاد ، فان كفره اعظم من هذا .

فهذا كله يدل على ان هؤلاء من فساق الملة ، فان الفسق يكون تارة بترك الفرائض ، وتارة بفعل المحرمات ، وهؤلاء لما تركوا ما فرض الله عليهم من الجهاد وحصل عندهم نوع من الريب الذي اضعف ايمانهم . لم يكونوا من الصادقين الذين وصفهم ، وان كانوا صادقين فى انهم فى الباطن متدينون بدين الاسلام .

وقول المفسرين : لم يكونوا مؤمنين نفي لما نفاه الله عنهم من الايمان كما نفاه عن الزاني ، والسارق ، والشارب ، وعمن لا يأمن جاره بوائقه ، وعمن لا يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه ؛ وعمن لا يجيب الى حكم الله ورسوله ، وأمثال هؤلاء . وقد يحتج على ذلك بقوله : (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) كما قال : «سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر» فذم من استبدل اسم الفسوق بعد الايمان ؛ فدل على ان الفاسق لا يسمى مؤمناً فدل ذلك على ان هؤلاء الأعراب من جنس اهل الكبائر لا من جنس المنافقين .

واما ما نقل من انهم اسلموا خوف القتل والسبي ؛ فهكذا كان اسلام غير المهاجرين والأنصار ، أسلموا رغبة ورهبة ، كاسلام الطلقاء من قريش بعد ان قهرهم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ واسلام المؤلفة قلوبهم من هؤلاء ومن اهل نجد وليس كل من اسلم لرغبة او رهبة كان من المنافقين الذين هم فى الدرك الأسفل

من النار ؛ بل يدخلون فى الاسلام والطاعة وليس فى قلوبهم تكذيب ومعاداة للرسول ، ولا استنارت قلوبهم بنور الايمان ولا استبصروا فيه ؛ وهؤلاء قد يحسن اسلام احدهم فيصير من المؤمنين كأكثر الطلقاء ، وقد يبقى من فساق الملة ؛ ومنهم من يصير منافقاً مرتاباً اذا قال له منكر ونكير : ما تقول فى هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه ! هاه ! لا ادري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته .

وقد تقدم قول من قال : انهم اسلموا بغير قتال ؛ فهؤلاء كانوا احسن اسلاماً من غيرهم ، وان الله انما ذمهم لكونهم منوا بالاسلام وانزل فيهم (ولا تبطلوا اعمالكم) وانهم من جنس اهل الكبائر .

وأيضاً قوله : (ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم)(ولما) انما ينفي بها ما ينتظر ويكون حصوله مترقباً ، كقوله : (ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وقوله : (ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) فقوله : (ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) يدل على ان دخول الايمان منتظر منهم ؛ فان الذي يدخل فى الاسلام ابتداء لا يكون قد حصل فى قلبه الايمان ، لكنه يحصل فيما بعد كما فى الحديث: « كان الرجل يسلم اول النهار رغبة فى الدنيا فلا يجيء آخر النهار إلا والاسلام احب اليه مما طلعت عليه الشمس » . ولهذا كان عامة الذين اسلموا رغبة ورهبة دخل الايمان فى قلوبهم بعد ذلك ؛ وقوله: (ولكن قولوا أسلمنا)

امر لهم بأن يقولوا ذلك والمنافق لا يؤمن بشيء ، ثم قال : (وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالهم شيئاً) والمنافق لا تنفعه طاعة الله ورسوله حتى يؤمن أولاً .

وهذه الآية مما احتج بها احمد بن حنبل وغيره على انه يستثنى فى الايمان دون الاسلام وان اصحاب الكبائر يخرجون من الايمان الى الاسلام . قال الميموني : سألت احمد بن حنبل عن رأيه في : انا مؤمن ان شاء الله ؟ فقال : أقول : مؤمن ان شاء الله وأقول : مسلم ولا استثنى ، قال : قلت لاحمد : تفرق بين الاسلام والايمان ؟ فقال لي : نعم ، فقلت له : بأي شيء تحتج ؟ قال لي : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) ، وذكر اشياء . وقال الشالنجي : سألت احمد عمن قال : انا مؤمن عند نفسي من طريق الأحكام والمواريث ولا اعلم ما انا عند الله ؟ قال : ليس بمرجيء .

وقال ابو ايوب سليمان بن داود الهاشمي : الاستثناء جائز ، ومن قال : انا مؤمن حقاً ، ولم يقل : عند الله ، ولم يستثن ؛ فذلك عندي جائز وليس بمرجيء وبه قال ابو خيثمة وابن ابي شيبة ؛ وذكر الشالنجي انه سأل احمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهده ، اي يطلب الذنب بجهده ، الا انه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم ؛ هل يكون مصراً من كانت هذه حاله ؟ قال : هو مصر مثل قوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » يخرج من الايمان ، ويقع فى الاسلام ، ومن نحو قوله : « ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا

يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » ومن نحو قول ابن عباس في قوله : (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون) فقلت له : ما هذا الكفر ؟ قال : كفر لا ينقل عن الملة ، مثل الايمان بعضه دون بعض ؛ فكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك امر لا يختلف فيه . وقال ابن ابي شيبة : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » : لا يكون مستكمل الايمان ، يكون ناقصاً من ايمانه .

قال الشالنجي : وسألت احمد عن الايمان والاسلام . فقال : الايمان قول وعمل ؛ والاسلام : اقرار ، قال : وبه قال أبو خيثمة . وقال ابن ابي شيبة : لا يكون اسلام الا بايمان ولا ايمان الا باسلام ؛ واذا كان على المخاطبة فقال : قد قبلت الايمان ، فهو داخل في الاسلام ؛ واذا قال : قد قبلت الاسلام فهو داخل في الايمان . وقال محمد بن نصر المروزي : وحكى غير هؤلاء انه سأل احمد ابن حنبل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » فقال : من أتى هذه الأربعة او مثلهن او فوقهن فهو مسلم ، ولا اسميه مؤمناً ، ومن أتى دون ذلك ، يريد دون الكبائر ، اسميه مؤمناً ناقص الايمان .

قلت : احمد بن حنبل كان يقول تارة بهذا الفرق ، وتارة كان يذكر الاختلاف ويتوقف ، وهو المتأخر عنه ، قال ابو بكر الأثرم في « السنة » سمعت أبا عبد الله يسأل عن الاستثناء في الايمان ما تقول فيه ؟ فقال : اما أنا فلا اعيبه أي من الناس من يعيبه . قال ابو عبد الله : إذا كان يقول : ان الايمان قول

وعمل يزيد وينقص ، فاستثنى مخافة واحتياطاً ، ليس كما يقولون على الشك : انما يستثنى للعمل . قال ابو عبد الله : قال الله تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) أي ان هذا استثناء بغير شك ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في اهل القبور : « وانا ان شاء الله بكم لاحقون » اي لم يكن يشك في هذا ، وقد استثناه وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « وعليها نبعث ان شاء الله » يعني من القبر وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اني لأرجو ان أكون اخشاكم لله » قال : هذا كله تقوية للاستثناء في الايمان .

قلت لأبي عبد الله : وكأنك لاترى بأساً ان لا يستثنى . فقال : إذا كان ممن يقول الايمان قول وعمل ، يزيد وينقص ؛ فهو اسهل عندي ؛ ثم قال ابو عبد الله : إن قوماً تضعف قلوبهم عن الاستثناء ، كالتعجب منهم ، وسمعت أبا عبد الله وقيل له : شبابة اي شيء تقول فيه ؟ : فقال : شبابة كان يدعي الارجاء ، قال : وحكي عن شبابة قول أخبث من هذه الأقاويل ، ما سمعت عن احد بمثله ؛ قال أبو عبد الله : قال شبابة : إذا قال : فقد عمل بلسانه كما يقولون فاذا قال فقد عمل بجارحته ، اي بلسانه حين تكلم به ؛ ثم قال ابو عبد الله : هذا قول خبيث ما سمعت احداً يقول به ولا بلغني ، قيل لأبي عبد الله : كنت كتبت عن شبابة شيئاً ؟ فقال : نعم كنت كتبت عنه قديماً يسيراً قبل ان نعلم انه يقول بهذا ، قلت لأبي عبد الله : كتبت عنه بعد ؟ قال : لا ولا حرف. قيل لأبي عبد الله : يزعمون ان سفيان كان يذهب الى الاستثناء في الايمان . فقال : هذا مذهب سفيان ، المعروف به الاستثناء ، قلت لأبي عبد الله : من يرويه عن

سفيان فقال كل من حكى عن سفيان فى هذا حكاية كان يستثنى، قال وقال وكيع عن سفيان : الناس عندنا مؤمنون في الأحكام والمواريث ؟ ولا ندري ما هم عند الله قلت لأبى عبد الله : فأنت بأي شيء تقول ؟ فقال : نحن نذهب إلى الاستثناء .

قلت لأبى عبد الله : فأما إذا قال : انا مسلم فلا يستثنى ؟ فقال : نعم لا يستثنى إذا قال : انا مسلم : قلت لأبى عبد الله : اقول: هذا مسلم ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وأنا اعلم أنه لا يسلم الناس منه ، فذكر حديث معمر عن الزهري : فنرى أن الاسلام الكلمة والايمان العمل ، قال ابو عبد الله : حدثناه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قيل لأبي عبد الله : فنقول : الايمان يزيد وينقص ؟ فقال : حديث النبى صلى الله عليه وسلم يدل على ذلك ، فذكر قوله « أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال كذا ، أخرجوا من كان فى قلبه مثقال كذا » فهو يدل على ذلك وذكر عند أبي عبد الله عيسى الأحمر ، وقوله في الارجاء فقال : نعم وذلك خبيث القول وقال أبو عبد الله : حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد بن زيد ، سمعت هشاماً يقول : كان الحسن ومحمد يقولان : مسلم . ويهابان : مؤمن .

قلت لأبى عبد الله : رواه غير سويد ؟ قال : ما علمت بذلك ، وسمعت ابا عبد الله يقول : الايمان قول وعمل . قلت لأبى عبد الله : فالحديث الذي يروى « اعتقها فانها مؤمنة » قال : ليس كل احد يقول : إنها مؤمنة يقولون اعتقها . قال : ومالك سمعه من هذا الشيخ هلال بن علي لايقول « فانها مؤمنة»

وقد قال بعضهم بأنها مؤمنه ، فهي حين تقر بذاك فحكمها حكم المؤمنة ، هذا معناه . قلت لأبي عبد الله : تفرق بين الايمان والاسلام ؟ فقال : قد اختلف الناس فيه ، وكان حماد بن زيد ـ زعموا ـ يفرق بين الايمان والاسلام ، قيل له : من المرجئة ؟ قال : الذين يقولون : الايمان قول بلا عمل

قلت: فأحمد بن حنبل لم يرد قط انه سلب جميع الايمان فلم يبق معه منه شيء ، كما تقوله الخوارج والمعتزلة ، فانه قد صرح فى غير موضع : بأن اهل الكبائر معهم ايمان يخرجون به من النار ، واحتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان » وليس هذا قوله ولا قول احد من أئمة اهل السنة ، بل كلهم متفقون على ان الفساق الذين ليسوا منافقين معهم شيء من الايمان يخرجون به من النار هو الفارق بينهم وبين الكفار والمنافقين ، لكن اذا كان معه بعض الايمان لم يلزم ان يدخل فى الاسم المطلق الممدوح ، وصاحب الشرع قد نفى الاسم عن هؤلاء فقال : « لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن » ؛ وقال : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه » وقال : « لايؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » واقسم على ذلك مرات وقال : « المؤمن من امنه الناس على دمائهم واموالهم » .

و «المعتزلة» ينفون عنه اسم الايمان بالكلية ، واسم الاسلام ايضاً ، ويقولون : ليس معه شيء من الايمان والاسلام ، ويقولون : ننزله منزلة بين منزلتين ، فهم يقولون : إنه يخلد فى النار لا يخرج منها بالشفاعة ، وهذا هو الذي انكر عليهم

وإلا لونفوا مطلق الاسم واثبتوا معه شيئاً من الايمـان يخرج به من النار لم يكونوا مبتدعة . وكل اهل السنة متفقون على انه قد سلب كمال الايمان الواجب فزال بعض ايمانه الواجب لكنه من اهل الوعيد ، وانما ينازع فى ذلك من يقول : الايمان لا يتبعض من الجهمية والمرجئة فيقولون : انه كامل الايمان ، فالذي ينفي اطلاق الاسم يقول : الاسم المطلق مقرون بالمدح واستحقاق الثواب ، كقولنا : متق، وبر، وعلى الصراط المستقيم ، فاذا كان الفاسق لاتطلق عليه هذه الاسماء ، فـكذلك اسم الايمان . واما دخوله فى الخطاب ، فلأن المخاطب باسم الايمان كل من معه شيء منه ، لأنه امر لهم ، فمعاصيهم لا تسقط عنهم الأمر .

وأما ما ذكره احمد فى الاسلام ، فاتبع فيه الزهري حيث قال : فـكانوا يرون الاسلام الـكلمة ، والايمان العمل ، فى حديث سعد بن ابى وقاص ، وهذا على وجهين ، فانه قد يراد به الـكلمة بتوابعها من الاعمال الظاهرة ، وهذا هو الاسلام الذي بينه النبى صلى الله عليه وسـلم حيث قال : « الاسلام : ان تشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » وقد يراد به الـكلمة فقط من غـير فعل الواجبات الظاهرة ، وليس هذا هو الذى جعله النبي صلى الله عليه وسلم الاسلام . لكن قد يقال : اسلام الاعراب كان من هذا ، فيقال . الاعراب وغـيرهم كانوا اذا اسلموا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ألزموا بالاعمال الظاهرة : الصـلاة ، والزكاة ، والصيام . والحج ، ولم يكن احد يترك بمجرد الـكلمة ، بل كان من اظهر المعصية يعاقب عليها .

واحمد ان كان اراد فى هذه الرواية ان الاسلام هو الشهادتان فقط ، فكل من قالها فهو مسلم ، فهذه احدى الروايات عنه ، والرواية الاخرى : لا يكون مسلماً حتى يأتى بها ويصلى ، فاذا لم يصل كان كافراً . و « الثالثة » انه كافر بترك الزكاة ايضاً . و « الرابعة » انه يكفر بترك الزكاة اذا قاتل الامام عليها دون ما اذا لم يقاتله ، وعنه انه لو قال : انا أؤديها ولا ادفعها الى الامام ، لم يكن للامام ان يقتله ، وكذلك عنه رواية انه يكفر بترك الصيام والحج ، اذا عزم انه لا يحج ابداً . ومعلوم انه على القول بكفر تارك المبانى يمتنع ان يكون الاسلام مجرد الكلمة ، بل المراد انه اذا اتى بالكلمة دخل فى الاسلام ، وهذا صحيح ، فانه يشهد له بالاسلام ولا يشهد له بالايمان الذى في القلب ، ولا يستثنى فى هذا الاسلام ، لانه أمر مشهور ، لكن الاسلام الذى هو اداء الخمس كما امر به يقبل الاستثناء ، فالاسلام الذى لا يستثنى فيه الشهادتان باللسان فقط فانها لا تزيد ولا تنقص فلا استثناء فيها .

وقد صار الناس فى مسمى الاسلام على « ثلاثة اقوال » : قيل : هو الايمان ، وهما اسمان لمسمى واحد . وقيل : هو الكلمة ، وهذان القولان لهما وجه سنذكره ، لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبى صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والايمان ، ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة ، والايمان بالايمان بالاصول الخمسة ، فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والايمان ان نجيب بغير ما اجاب به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ واما اذا افرد اسم الايمان فانه يتضمن الاسلام ؛ واذا افرد الاسلام ؛ فقد يكون مع الاسلام مؤمناً بلا نزاع ؛ وهذا

هو الواجب ، وهل يكون مسلماً ولا يقال له : مؤمن ؟ قد تقدم الكلام فيه .
وكذلك هل يستلزم الاسلام للايمان ؟ هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه ،
والوعد الذي فى القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب انما هو معلق باسم الايمان
واما اسم الأسلام مجرداً فما علق به فى القرآن دخول الجنة ، لكنه فرضه واخبر
انه دينه الذي لا يقبل من احد سواه .

وبالاسلام بعث الله جميع النبيين قال تعالى : (ومن يبتغ غير الاسلام
ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقال : (إن الدين عند الله
الاسلام) وقال نوح : (ياقوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله
فعلى الله توكلت فأجمعوا امركم وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا
اليّ ولا تنظرون ، فان توليتم فما سألتكم من اجر ان اجري الا على الله وامرت
ان اكون من المسلمين) وقد اخبر انه لم ينج من العذاب الا المؤمنين فقال :
(قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن
آمن وما آمن معه الا قليل) وقال : (واوحي الى نوح انه لن يؤمن من قومك
الا من قد آمن) وقال نوح : (وما انا بطارد الذين آمنوا) .

وكذلك اخبر عن ابراهيم ان دينه الاسلام فقال تعالى : (ومن يرغب عن
ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن
الصالحين ، اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين ، ووصى بها ابراهيم
بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون)

وقال: (ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً) وبمجموع هذين الوصفين علق السعادة فقال : (بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) كما علقه بالإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح فى قوله: (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وهذا يدل على ان الاسلام الذي هو إخلاص الدين لله مع الاحسان وهو العمل الصالح الذي امر الله به هو والايمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان ، فان الوعد على الوصفين وعد واحد وهو الثواب ، وانتفاء العقاب ، فان انتفاء الخوف علة تقتضي انتفاء ما يخافه ؛ ولهذا قال : (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لم يقل : لا يخافون فهم لا خوف عليهم وان كانوا يخافون الله ونفى عنهم ان يحزنوا لأن الحزن انما يكون على ماض ، فهم لا يحزنون بحال لا فى القبر ولا فى عرصات القيامة ، بخلاف الخوف فانه قد يحصل لهم قبل دخول الجنة ولا خوف عليهم فى الباطن كما قال تعالى : (الا إن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

واما « الاسلام المطلق المجرد » فليس فى كتاب الله تعليق دخول الجنة به كما فى كتاب الله تعليق دخول الجنة بالايمان المطلق المجرد ، كقوله : (سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض اعدت للذين آمنوا بالله

ورسـله) وقال : (وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم) . وقد وصف الخليل ومن اتبعه بالايمان كقوله : (فآمن له لوط) ووصفه بذلك فقال : (فأي الفريقين احق بالأمن ان كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم عـلى قومـه) ووصفه بأعلى طبقات الايمان ، وهو افضـل البرية بعد محمد صلى الله عليه وسلم . والخليل انمـا دعا بالرزق للمؤمنين خاصة فقال : (وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) وقال : (واجعلنا مسـلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك) (وقال موسى : يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) بعد قوله : (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأهم ان يفتنهم) وقال : (واوحينا الى موسى واخيه ان تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة واقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) وقد ذكرنا البشرى المطلقة للمسلمين فى قوله : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لـكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) .

وقد وصف الله السحرة بالاسـلام والايمان معاً فقالوا : (آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون) وقالوا : (وما تنقم منـا إلا ان آمنا بآيات ربنا لمـا جاءتنـا) وقالوا : (إنا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا اول المؤمنين) وقالوا : (ربنا افرغ علينـا صبراً وتوفنا مسلمين) . ووصف الله انبيـاء بني اسرائيل بالاسلام فى قوله : (إنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها

النبيون الذين اسلموا للذين هادوا) والأنبياء كلهم مؤمنون . ووصف الحواريين بالايمان والاسلام فقال تعالى : (واذ اوحيت الى الحواريين ان آمنوا بى وبرسولي قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون) و (قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) .

وحقيقة الفرق ان الاسلام دين . و « الدين » مصدر دان يدين ديناً : إذا خضع وذل ، و «دين الاسلام » الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده ؛ فأصله فى القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ماسواه . فمن عبده ، وعبد معه إلهاً آخر ، لم يكن مسلماً ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً . والاسلام هو الاستسلام لله ، وهو الخضوع له ، والعبودية له ، هكذا قال اهل اللغة : اسلم الرجل إذا استسلم ؛ فالاسلام فى الأصل من باب العمل ، عمل القلب والجوارح .

وأما الايمان فأصله تصديق واقرار ومعرفة ، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب ؛ والأصل فيه التصديق، والعمل تابع له ، فلهذا فسر النبى صلى الله عليه وسلم « الايمان » بايمان القلب وبخضوعه ، وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وفسر « الاسلام » باستسلام مخصوص ، هو المبانى الخمس . وهكذا فى سائر كلامه صلى الله عليه وسلم : يفسر الايمان بذلك النوع ويفسر الاسلام بهذا ، وذلك النوع أعلى . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « الاسلام علانية والايمان فى القلب » فان الأعمال الظاهرة يراها الناس ، واما

ما في القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء فهذا باطن ؛ لكن له لوازم قد تدل عليه . واللازم لا يدل إلا اذا كان ملزوماً ، فلهـذا كان من لوازمه ما يفعله المؤمن والمنافق ، فلا يدل[1] .في حديث عبد الله بن عمرو وابي هريرة جميعاً ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من امنه الناس على دمائهم وأموالهم » ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه . وفسر المؤمن بأمر باطن وهو ان يأمنوه على دمائهم واموالهم وهذه الصفة اعلى من تلك ، فان من كان مأموناً سلم الناس منه ؛ وليس كل من سلموا منه يكون مأموناً، فقد يترك اذاهم وهم لا يأمنون اليه ، خوفاً ان يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة ؛ لا لايمان في قلبه .

وفي حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما الاسلام ؟ قال « اطعام الطعام . ولين الـكلام » قال : فما الايمان قال « السماحة والصبر » فاطعام الطعام عمـل ظاهر يفعله الانسان لمقاصـد متعددة ، وكذلك لين الـكلام ، واما السماحة والصبر فخلقان في النفس . قال تعالى : (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) وهذا أعلى من ذاك ، وهو ان يكون صباراً شـكوراً فيه سماحة بالرحمة للانسان وصبر على المـكاره ، وهذا ضد الذي خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا ؛ فان ذاك ليس فيه سماحة عند النعمة ، ولا صبر عند المصيبة .

---

(١) بياض بالأصل .

وتمام الحديث : فأي الاسلام أفضل ؟ قال « من سلم المسلمون من لسانه ويده » قال : يا رسـول الله اى المؤمنين اكمل ايماناً ؟ قال « احسنهم خلقاً » قال : يا رسول الله اي القتل اشرف ؟ قال « من اريق دمه وعقر جواده » قال يا رسـول الله فأي الجهاد افضل ؟ قال « الذين جاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله » قال يا رسول الله فأي الصدقة افضـل ؟ قال « جهد المقل » قال يا رسول الله فأي الصلاة افضل ؟ قال « طول القنوت » قال يا رسول الله فأي الهجرة افضل ؟ قال « من هجر السوء » وهذا محفوظ عن عبيد بن عمير ، تارة يروى مرسلاً ، وتارة يروى مسنداً ، وفى رواية : اى الساعات أفضل ؟ قال « جوف الليل الغـابر » وقوله : « افضل الايمان السماحة والصبر » يروى من وجه آخر عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وهكذا فى سائر الأحاديث انما يفسر الاسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الأعمال الظاهرة كما في الحديث المعروف الذى رواه احمد عن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده إنه قال : والله يا رسـول الله ما أتيتك حتى حلفت عدد اصابعي هذه أن لا آتيك ، فبالذى بعثك بالحق ما بعثك به ؟ قال : الاسلام . قال : وما الاسـلام ؟ قال « ان تسلم قلبك لله وان توجه وجهك الى الله ، وان تصلي الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، اخوان نصيران لا يقبل الله من عبد اشرك بعد اسلامه » وفي رواية قال « ان تقول : اسلمت وجهي لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وكل مسلم على مسلم محـرم » وفى لفظ تقول « اسلمت نفسي لله وخليت وجهي اليه » وروى محمد بن نصر من حديث خالد

ابن معدان عن ابى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان للاسلام صوى ومناراً كمنار الطريق، من ذلك ان تعبد الله ولا تشرك به شيئاً. وان تقيم الصلاة. وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتسلم على بني آدم اذا لقيتهم، فان ردوا عليك، ردت عليك وعليهم الملائكة، وان لم يردوا عليك ردت عليك الملائكة ولعنتهم ان سكت عنهم وتسليمك على اهل بيتك اذا دخلت عليهم، فمن انتقص منهن شيئاً فهو سهم في الاسلام تركه. ومن تركهن فقد نبذ الاسلام وراء ظهره».

وقد قال تعالى: (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) قال مجاهد: وقتادة: نزلت فى المسلمين يأمرهم بالدخول فى شرائع الاسلام كلها، وهذا لا ينافى قول من قال: نزلت فيمن أسلم من اهل الكتاب او فيمن لم يسلم، لأن هؤلاء كلهم مأمورون ايضاً بذلك، والجمهور يقولون: (فى السلم) اى فى الاسلام، وقالت طائفة: هو الطاعة، وكلاهما مأثور عن ابن عباس، وكلاهما حق، فان الاسلام هو الطاعة كما تقدم انه من باب الأعمال. واما قوله: (كافة) فقد قيل: المراد ادخلوا كلكم. وقيل: المراد به ادخلوا فى الاسلام جميعه، وهذا هو الصحيح، فان الانسان لا يؤمر بعمل غيره، وانما يؤمر بما يقدر عليه، وقوله: (ادخلوا) خطاب لهم كلهم فقوله (كافة) إن اريد به مجتمعين لزم ان يترك الانسان الاسلام حتى يسلم غيره فلا يكون الاسلام مأموراً به إلا بشرط موافقة الغير له كالجمعة، وهذا لا يقوله مسلم، وإن اريد بكافة: اى ادخلوا جميعكم، فكل اوامر القرآن كقوله: (آمنوا بالله ورسوله) (واقيموا الصلاة

وآتوا الزكاة) كلهــا من هذا الباب ، وما قيل فيها كافة ، وقوله تعالى : (قاتلوا المشركين كافة) اى قاتلوهم كلهم لا تدعوا مشركاً حتى تقاتلوه ، فانها أنزلت بعد نبذ العهود ، ليس المراد : قاتلوهم مجتمعين او جميعكم ، فان هذا لا يجب ، بل يقاتلون بحسب المصلحة ، والجهــاد فرض على الكفاية ، فاذا كانت فرائض الأعيان لم يؤكد المأمورين فيها بكافة ، فكيف يؤكد بذلك فى فروض الكفاية؟! وانما المقصود تعميم المقاتلين . وقوله : (كما يقاتلونكم كافة) فيه احتمالان .

والمقصود ان الله امر بالدخول فى جميع الاسلام كما دل عليه هذا الحديث ، فــكل ما كان من الاسلام وجب الدخول فيه ، فان كان واجباً على الأعيان لزمه فعله ، وان كان واجباً على الكفاية اعتقد وجوبه ، وعزم عليه إذا تعين، اواخذ بالفضل ففعله ، وإن كان مستحباً اعتقد حسنه واحب فعله ، وفى حديث جرير أن رجلاً قال : يارسول الله صف لي الاسلام . قال : « تشــهد ان لا اله الا الله وتقر بما جاء من عند الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت» قال : أقررت ؛ فى قصة طويلة فيها انه وقع فى أخاقيق جرذان ، وانه قتل وكان جائعاً وملكان يدسان فى شدقه من ثمار الجنة . فقوله :« وتقر بما جاء من عند الله». هو الاقرار بأن محمداً رسول الله فانه هو الذي جاء بذلك .

وفي الحديث الذي يرويه ابو سليمان الداراني : حديث الوفد الذين قالوا: نحن المؤمنون ، قال : «فما علامة ايمانكم ؟ » قالوا : خمس عشرة خصلة : خمس أمرتنــا رسلك ان نعمــل بهن ، وخمس أمرتنــا رسلك ان

نؤمن بهن ، وخمس تخلقنا بهــا فى الجاهلية ونحن عليها فى الاســلام إلا ان تكره منها شيئاً . قال :« فما الخمس التى أمرتكم رسلي ان تعملوا بهــا »؟ قالوا : أن نشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ونقيم الصــلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت .قال :«وما الخمس التى أمرتكم ان تؤمنوا بها؟»قالوا أمرتنا ان نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، قال:«وما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية وثبتم عليهافى الاسلام؟ » قالوا : الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضى بمر القضــاء ، والصدق فى مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «علمــاء حكماء كادوا من صدقهم ان يكونوا انبيــاء» . فقال صلى الله عليه وســلم : «وانا أزيدكم خمساً فتتم لـكم عشرون خصلة :ان كنتم كما تقولون ، فلا تجمعوا مالا تأ كلون ، ولا تبنــوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا فى شيء انتم عنه غدا تزولون وعنه منتقلون ، واتقــوا الله الذي اليه ترجعــون ، وعليه تعرضون ، وارغبــوا فيما عليــه تقدمون وفيه تخلدون» .

فقد فرقوا بين الخمس التى يعمل بهــا فجعلوها الاســلام ؛ والخمس التى يؤمن بهــا فجعلوها الايمان ؛ وجميع الأحاديث المأثورة عن النبي صلى الله عليــه وسلم تدل على مثل هذا .

وفي الحديث الذي رواه احمد من حديث ايوب عن ابي قلابة عن رجــل من اهل الشام عن ابيه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له : «أسلم تسلم» قال.

وما الاسلام قال : «ان تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك» قال : فأي الاسلام أفضل ؟ قال : «الايمان» قال : وما الايمان ؟قال: «ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت»قال: فأي الايمان افضل ؟قال : «الهجرة» قال : وما الهجرة ؟ قال : «ان تهجر السوء» قال : فأي الهجرة افضل ؟ قال : الجهاد قال : وما الجهاد ؟ قال : «ان تجاهد الكفار اذا لقيتهم ولا تغل ولا تجبن» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. «ثم عملان هما افضل الأعمال الا من عمل بمثلهما» قالها ثلاثاً : «حجة مبرورة : او عمرة» وقوله : «هما أفضل الأعمال» أى بعد الجهاد ؛ لقوله .« ثم عملان » . ففي هذا الحديث جعل الايمان خصوصاً فى الاسلام ، والاسلام اعم منه ، كما جعل الهجرة خصوصاً في الايمان والأيمان اعم منه ، وجعل الجهاد خصوصاً من الهجرة والهجرة اعم منه . فالاسلام ان تعبد الله وحده لا شريك له مخلصاً له الدين .

وهذا دين الله الذي لا يقبل من احد ديناً غيره لا من الأولين ولا من الآخرين ، ولا تكون عبادته مع إرسال الرسل الينا إلا بما امرت به رسله ، لا بما يضاد ذلك فان ضد ذلك معصية ، وقد ختم الله الرسل بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا يكون مسلماً إلا من شهد ان لا إله الا الله وان محمداً عبده ورسوله ، وهذه الكلمة بهـا يدخل الانسان في الاسلام . فمن قال : الاسلام الكلمة واراد هذا فقد صدق ، ثم لا بد من التزام ما امر به الرسول من الأعمال الظاهرة ، كالمبانى الخمس ، ومن ترك من ذلك شيئاً نقص إسلامه

بقـــدر ما نقص من ذلك ، كما فى الحديث : من انتقص منهن شيئاً فهو سهم من الاسلام تركه » .

وهذه الأعمال اذا عملها الانسان مخلصاً لله تعالى فانه يثيبه عليها ، ولا يكون ذلك الا مع اقراره بقلبه انه لا اله الا الله وان محمداً رسول الله فيـكون معه من الأيمان هذا الاقرار ، وهذا الاقرار لايستلزم ان يكون صاحبه معه من اليقين مالا يقبل الريب ، ولا أن يكون مجاهداً ولا سائر ما يتميز به المؤمن عن المسلم الذي ليس بمؤمن ، وخلق كثير من المسلمين باطناً وظاهراً معهم هذا الاسلام بلوازمه من الايمان . ولم يصلوا إلى اليقين والجهاد ، فهؤلاء يثابون على إسلامهم وإقرارهم بالرسول مجملا ، وقد لا يعرفون أنه جاء بكتاب ، وقد لا يعرفون أنه جاءه ملك ، ولا أنه أخبر بكذا ، واذا لم يبلغهم أن الرسول أخـبر بذلك لم يكن عليهم الاقرار المفصل به ، لكن لا بد من الاقرار بأنه رسول الله وانه صادق فى كل ما يخبر به عن الله .

ثم الايمان الذى يمتـاز به فيه تفصيل وفيه طمأنينة ويقين ، فهذا متميز بصفته وقدره فى الـكمية والـكيفية ، فان اولئك معهم من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وتفصيل المعاد والقدر ما لا يعرفه هؤلاء .

وأيضاً في قلوبهم من اليقين والثبات ولزوم التصديق لقلوبهم ما ليس مع هؤلاء وأولئك هم المؤمنون حقاً . وكل مؤمن لا بد أن يكون مسلماً ؛ فان الايمان يستلزم الأعمـال ، وليس كل مسلم مؤمناً هذا الايمـان المطلق ، لأن

الاستسلام لله والعمل له لا يتوقف على هذا الايمان الخاص ، وهذا الفرق يجده الانسان من نفسه ويعرفه من غيره فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر أو ولدوا على الاسلام والتزموا شرائعه ، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله ، فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل ، ولكن دخول حقيقة الايمان إلي قلوبهم إنما يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك ، وإلا فكثير من الناس لايصلون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد ، ولو شككوا لشكوا ، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا ، وليسوا كفاراً ولا منافقين ، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال ، وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة . وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم ، فان لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق .

وكذلك اذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من اهل الوعيد ، ولهذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة اسلم عامة اهلها ، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق . فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا على الاسلام ودخلوا الجنة ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين ابتلوا فظهر صدقهم . قال تعالى : (الم ، احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقال تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) وقال : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان اصابه خير اطمأن به ، وان اصابته فتنة انقلب على وجهه

خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) ولهذا ذم الله المنافقين بأنهم دخلوا فى الايمان ثم خرجوا منهبقوله تعالى : (والله يشهد انالمنافقين لكاذبون اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله) ـ الى قوله ـ (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) وقال فى الآية الأخرى (يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة) ـ الي قوله ـ (قل ابالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ، لا تعتذروا قدكفرتم بعد ايمانكم ، ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) فقد امره ان يقول لهم : قدكفرتم بعد ايمانكم .

وقول من يقول عن مثل هذه الآيات : انهم كفروا بعد ايمانهم بلسانهم مع كفرهم اولاً بقلوبهم ، لا يصح ، لأن الايمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر ، فلا يقال : قد كفرتم بعد ايمانكم ، فانهم لم يزالوا كافرين فى نفس الأمر ، وان اريد انكم اظهرتم الكفر بعد اظهاركم الايمان ، فهم لم يظهروا للناس الا لخواصهم ، وهم مع خواصهم ما زالوا هكذا ؛ بل لما نافقوا وحذروا ان تنزل سورة تبينما فى قلوبهم من النفاق ، وتكلموا بالاستهزاء ، صاروا كافرين بعد ايمانهم ، ولا يدل اللفظ على انهم ما زالوا منافقين ، وقد قال تعالى : (يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ، يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا ، وما نقموا الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله ، فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذاباً اليماً فى الدنيا والآخرة) فهنا قال : (وكفروا بعد اسلامهم) .

فهذا الاسلام قد يكون من جنس اسلام الأعراب فيكون قوله : (بعد

ايمانهم) وبعد اسلامهم سواء ، وقد يكونون ما زالوا منافقين . فلم يكن لهم حال كان معهم فيها من الايمان شيء . لكونهم اظهروا الكفر والردة : وهذا دعاهم الى التوبة فقال : (فان يتوبوا يك خير لهم وان يتولوا) بعد التوبة عن التوبة (يعذبهم عذاباً اليما فى الدنيا والآخرة) وهذا انما هو لمن اظهر الكفر ، فيجاهده الرسول باقامة الحد والعقوبة . ولهذا ذكر هذا فى سياق قوله : (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) ولهذا قال فى تمامها : (وما لهم فى الأرض من ولي ولا نصير) .

وهؤلاء الصنف الذين كفروا بعد إسلامهم غير الذين كفروا بعد إيمانهم فان هؤلاء حلفوا بالله ماقالوا ، وقد قالوا كلمة الكفر التى كفروا بها بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا . وهو يدل على أنهم سعوا فى ذلك ، فلم يصلوا إلى مقصودهم : فانه لم يقل : هموا بما لم يفعلوا ، لكن (بما لم ينالوا) فصدر منهم قول وفعل ، قال تعالى : (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) فاعترفوا واعتذروا ؛ ولهذا قيل : (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) فدل على أنهم لم يكونوا عند انفسهم قد اتوا كفراً ، بل ظنوا ان ذلك ليس بكفر . فبين ان الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد ايمانه ، فدل على انه كان عندهم ايمان ضعيف ، ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا انه محرم ، ولكن لم يظنوه كفراً ، وكان كفراً كفروا به ، فانهم لم يعتقدوا جوازه ، وهكذا قال غير واحد من السلف

في صفة المنافقين الذين ضرب لهم المثل في سورة البقرة انهم ابصروا ثم عموا ، وعرفوا ثم انكروا ، وآمنوا ثم كفروا . وكذلك قال قتادة ومجاهد : ضرب المثل لاقبالهم على المؤمنين ؛ وسماعهم ماجاء به الرسول ، وذهاب نورهم ، قال : (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون) الى ما كانوا عليه .

واما قول من قال : المراد بالنور ، ما حصل فى الدنيا من حقن دمائهم واموالهم فاذا ماتوا سلبوا ذلك الضوء كما سلب صاحب النار ضوءه : فلفظ الآية، يدل على خلاف ذلك ، فانه قال : (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون). ويوم القيامة يكونون فى العذاب كما قال تعالى : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم الم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم انفسكم) الآية وقد قال غير واحد من السلف : ان المنافق يعطى يوم القيامة نورا ثم يطفأ ، ولهذا قال تعالى : (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين ايديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا اتمم لنا نورنا واغفر لنا) .

قال المفسرون : اذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ ، سألوا الله ان يتم لهم نورهم ويبلغهم به الجنة .

قال ابن عباس : ليس أحد من المسلمين ، إلا يعطى نوراً يوم القيامة ؛ فأما المنافق فيطفأ نوره ، وأما المؤمن فيشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول : (ربنا اتمم لنا نورنا) ، وهو كما قال : فقد ثبت فى « الصحيحين » من حديث ابى هريرة وابى سعيد — وهو ثابت من وجوه اخر — عن النبي صلى الله عليه وسلم. ورواه مسلم من حديث جابر وهو معروف من حديث ابن مسعود وهو اطولها — ومن حديث ابى موسى فى الحديث الطويل الذي يذكر فيه انه ينادى يوم القيامة :«لتتبع كل امة ما كانت تعبد : فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التى يعرفون ، فيقول أنا ربكم . فيقولون : نعوذ بالله منك ، وهذا مكانتا حتى يأتينا ربنا . فاذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فى صورته التي يعرفون ، فيقول أنا ربكم : فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه » . وفى رواية : « فيكشف عن ساقه » : وفى رواية فيقول : «هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ، فيقولون : نعم . فيكشف عن ساقه ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا اذن له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد نفاقا ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما اراد ان يسجد خر على قفاه . فتبقى ظهورهم مثل صياصي البقر فيرفعون رؤوسهم فاذا نورهم بين ايديهم وبأيمانهم ويطفأ نور المنافقين فيقولون ذرونا نقتبس من نوركم » .

فبين ان المنافقين يحشرون مع المؤمنين فى الظاهر ، كما كانوا معهم فى الدنيا ثم وقت الحقيقة ، هؤلاء يسجدون لربهم ، وأولئك لا يتمكنون من السجود ،

فانهم لم يسجدوا فى الدنيا له ، بل قصدوا الرياء للناس ، والجزاء فى الآخرة هو من جنس العمل فى الدنيا ، فلهذا اعطوا نوراً ثم طفيء ، لأنهم في الدنيا دخلوا في الايمان ، ثم خرجوا منه . ولهـذا ضرب الله لهم المثل بذلك . وهذا المثل ، هو لمن كان فيهم آمن ثم كفر ، وهؤلاء الذين يعطون فى الآخـرة نوراً ثم يطفأ .

ولهذا قال : (فهم لا يرجعون) الى الاسلام فى الباطن وقال قتادة ومقاتل: لايرجعون عن ضلالهم ، وقال السدي : لايرجعون إلى الاسلام ، يعنى فى الباطن ، وإلا فهم يظهرونه ، وهذا المثل إنما يكون في الدنيا، وهذا المثل مضروب لبعضهم وهم الذين آمنوا ثم كفروا. واما الذين لم يزالوا منافقين فضرب لهم المثل الآخر ، وهو قوله : (او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) وهذا اصح القولين. فان المفسرين اختلفوا ، هل المثلان مضروبان لهم كلهم ، او هذا المثل لبعضهم ؟ على « قولين » . و « الثاني » هو الصواب لأنه قال : (او كصيب) وانما يثبت بها احد الأمرين ؛ فدل ذلك على أنهم مثلهم هذا وهذا ، فانهم لا يخرجون عن المثلين بل بعضهم يشبه هذا وبعضهم يشبه هذا ، ولو كانوا كلهم يشبهون المثلين لم يذكر (او) بل يذكر الواو العاطفة .

وقول من قال : (او) ههنـا للتخيير ــ كقولهم : جالس الحسن او ابن سيرين ــ ليس بشيء ، لأن التخيير يكون في الأمر والطلب لا يكون فى الخبر ، وكذلك قول من قال : (او) بمعنى الواو او لتشكيك المخـاطبين ،

او الابهام عليهم ليس بشيء . فان الله يريد بالأمثال البيان والتفهيم ، لا يريد التشكيك والابهام .

والمقصود تفهيم المؤمنين حالهم ويدل على ذلك انه قال فى « المثل الاول » : (صم بكم عمي) وقال فى «الثاني» : (يجعلون اصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم إن الله على كل شيء قدير) فبين فى « المثل الثانى » انهم يسمعون ويبصرون ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ، وفى «الأول» كانوا يبصرون ثم صاروا فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمي . وفى « الثانى » إذا اضاء لهم البرق مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا ، فلهم « حالان » : حال ضياء وحال ظلام ، والأولون بقوا فى الظلمة . فالأول حال من كان فى ضوء فصار فى ظلمة ، والثانى حال من لم يستقر لا فى ضوء ولا فى ظلمة ، بل تختلف عليه الأحوال التى توجب مقامه واسترابته .

يبين هـذا انه سبحانه ضرب للكفار ايضاً مثلين بحرف (او) فقال : (والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، اوكظلمات فى بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) «فالأول»

مثل الكفر الذي يحسب صاحبه انه على حق وهو على باطل ، كمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فانه لا يعلم ولا يعلم انه لا يعلم ؛ فلهذا مثل بسراب بقيعة و « الثاني » مثل الكفر الذي لا يعتقد صاحبه شيئاً ، بل هو في ظلمات بعضها فوق بعض من عظم جهله لم يكن معه اعتقاد انه على حق ؛ بل لم يزل جاهلاً ضالاً في ظلمات متراكمة .

و « ايضاً » فقد يكون المنافق والكافر تارة متصفاً بهذا الوصف وتارة متصفاً بهذا الوصف . فيكون التقسيم في المثلين لتنوع الأشخاص ولتنوع احوالهم ، وبكل حال فليس ما ضرب له هذا المثل هو مماثل لما ضرب له هذا المثل لاختلاف المثلين صورة ومعنى ، ولهذا لم يضرب للايمان إلا مثل واحد ، لأن الحق واحد فضرب مثله بالنور ، واولئك ضرب لهم المثل بضوء لا حقيقة له . كالسراب بالقيعة او بالظلمات المتراكمة ، وكذلك المنافق يضرب له المثل بمن ابصر ثم عمي ، او هو مضطرب يسمع ويبصر ما لا ينتفع به . فتبين أن من المنافقين من كان آمن ثم كفر باطناً ، وهذا مما استفاض به النقل عند اهل العلم بالحديث والتفسير والسير انه كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا ، وكان يجري ذلك لأسباب :

منها أمر القبلة لما حولت ارتد عن الايمان لأجل ذلك طائفة ، وكانت محنة امتحن الله بها الناس . قال تعالى : (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله)

قال : أي اذا حولت ؛ والمعنى ان الكعبة هي القبلة التى كان فى علمنا ان نجعلها قبلتكم ؛ فان الكعبة ومسجدها وحرمها افضل بكثير من بيت المقدس وهي البيت العتيق ، وقبلة ابراهيم وغيره من الانبياء ، ولم يأمر الله قط احداً ان يصلي الى بيت المقدس ، لا موسى ولا عيسى ولا غيرهما ؛ فلم نكن لنجعلها لك قبلة دائمة ، ولكن جعلناها اولاً قبلة لنمتحن بتحويلك عنها الناس فيتبين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، فكان فى شرعها هذه الحكمة .

وكذلك ايضاً لما انهزم المسلمون يوم احد وشج وجه النبي صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته ، ارتد طائفة نافقوا قال تعالى : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ، ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) ، وقال تعالى : (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله او ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله اعلم بما يكتمون) فقوله : (وليعلم الذين نافقوا) ظاهر فيمن احدث نفاقاً وهو يتناول من لم ينافق قبل ، ومن نافق ثم جدد نفاقاً ثانياً . وقوله : (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) يبين انهم لم يكونوا قبل ذلك اقرب منهم بل اما ان يتساويا واما ان يكونوا للايمان اقرب ، وكذلك كان ؛ فان ابن ابيّ لما

انخزل عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد . انخزل معه ثلث الناس قيل : كانوا نحو ثلاثمائة . وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين فى الباطن ، اذ لم يكن لهم داع الى النفاق .

فان ابن ابي كان مظهراً لطاعة النبي صلى الله عليه وسلم والايمان به ؛ وكان كل يوم جمعة يقوم خطيباً في المسجد يأمر باتباع النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن ما في قلبه يظهر الا لقليل من الناس إن ظهر ، وكان معظماً في قومه ؛ كانوا قد عزموا على ان يتوجوه ويجعلوه مثل الملك عليهم ؛ فلما جاءت النبوة بطل ذلك فحمله الحسد على النفاق ، وإلا فلم يكن له قبل ذلك دين يدعو اليه ؛ وانما كان هذا في اليهود ، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم بدينه وقد أظهر الله حسنه ونوره مالت اليه القلوب لا سيما لما نصره الله يوم بدر ، ونصره على يهود بني قينقاع صار معه الدين والدنيا : فكان المقتضي للايمان فى عامة الأنصار قائماً ، وكان كثير منهم يعظم ابن ابي تعظيماً كثيراً ويواليه ، ولم يكن ابن ابي أظهر مخالفة توجب الامتياز ؛ فلما انخزل يوم أحد وقال : يدع رأيي ورأيه ، ويأخذ برأي الصبيان — او كما قال — انخزل معه خلق كثير ، منهم من لم ينافق قبل ذلك .

وفي الجملة : ففي الأخبار عمن نافق بعد ايمانه مايطول ذكره هنا ؛ فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم ايمان ، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل ، فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على هـذا الاسلام الذي يثابون عليه ولم يكونوا من

المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا على الايمـان ، ولا من المنافقين حقاً الذين ارتدوا عن الايمان بالمحنة . وهذا حال كثير من المسلمين فى زماننا أوا كثرهم . إذا ابتلوا بالمحن التى يتضعضع فيها اهل الايمان ينقص ايمانهم كثيراً وينافق اكثرهم او كثير منهم . ومنهم من يظهر الردة إذا كان العـدو غالباً ؛ وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة . وإذا كانت العافية ، او كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين . وهم مؤمنون بالرسول باطناً وظاهراً لـكن ايمـاناً لا يثبت على المحنة .

ولهذا يكثر فى هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم . وهؤلاء من الذين قالوا : (آمنا) فقيـل لهم : (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا : اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) اي الايمان المطلق ، الذي اهله هم المؤمنون حقاً ، فان هذا هو الايمان اذا اطلق في كتاب الله تعالى كما دل عليه الـكتاب والسنة . ولهذا قال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنـوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون) فلم يحصل لهم ريب عند المحن التى تقلقل الايمان فى القلوب ، والريب يكون فى علم القلب وفى عمـل القلب ؛ بخلاف الشك فانه لا يكون إلا فى العلم ، ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علماً وعملاً ؛ والا فاذا كان عالماً بالحق ؛ ولكن المصيبة اوالخوف اورثه جزعا عظيماً ، لم يكن صاحب يقين . قال تعالى : (هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) .

وكثيراً ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ، ثم يتوب الله عليه ؛ وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ، ويدفعه الله عنه . والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان ، وبوساوس الكفر التي يضيق بها صدره . كما قالت الصحابة : يارسول الله ! إن احدنا ليجد في نفسه ما لئن يخر من السماء الى الأرض ، احب اليه من ان يتكلم به . فقال : « ذاك صريح الايمان » وفي رواية : « ما يتعاظم ان يتكلم به » قال : « الحمد لله الذي رد كيده الى الوسوسة » اي حصول هذا الوسواس ، مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب ، هو من صريح الايمان : كالمجاهد الذي جاءه العدو ، فدافعه حتى غلبه ؛ فهذا اعظم الجهاد و « الصريح » الخالص ، كاللبن الصريح . وانما صار صريحاً ، لما كرهوا تلك الوساوس الشيطانية ودفعوها فخلص الايمان فصار صريحاً .

ولا بد لعامة الخلق من هذه الوساوس ؛ فمن الناس من يجيبها فصير كافراً او منافقاً ؛ ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها إلا إذا طلب الدين ، فاما ان يصير مؤمناً واما ان يصير منافقاً ؛ ولهذا يعرض للناس من الوساوس في الصلاة ما لا يعرض لهم إذا لم يصلوا ، لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا اراد الانابة الى ربه والتقرب اليه والاتصال به ؛ فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ، ويعرض لخاصة اهل العلم والدين اكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم ، لأنه لم يسلك شرع الله ومنهاجه ؛ بل هو مقبل على هواه في غفلة عن ذكر ربه . وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة

فانه عدوهم يطلب صدهم عن الله . قال تعالى : (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) ولهذا امر قارىء القــرآن ، ان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به ، تورث القلب الايمان العظيم ، وتزيده يقيناً وطمأنينة وشفاء . وقال تعالى : (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) وقال تعالى : (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) وقال تعالى (هدى للمتقين) وقال تعالى : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) .

وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه ؛ فالشيطان يريد بوساوسه ان يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن ؛ فأمر الله القارىء إذا قرأ القرآن ، ان يستعيذ منه قال تعالى : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) فان المستعيذ بالله مستجير به ، لاجيء اليه ، مستغيث به من الشيطان ؛ فالعائذ بغيره مستجير به ؛ فاذا عاذ العبــد بربه كان مستجيراً به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ؛ ولذلك قال الله تعالى : (ادفع بالتى هي احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها الا الذين صــبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ؛ واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميـع العليم) .

وفى « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: « انى لأعلم كلمة لو

قالها لذهب عنه ما يجد ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فأمر سبحانه بالاسعاذة عند طلب العبد الخير ، لئلا يعوقه الشيطان عنه ؛ وعند ما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند ارادة العبد للحسنات ؛ وعند ما يأمره الشيطان بالسيئات . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لايزال الشيطان يأتى احدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق الله ؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته » فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان ان يوقعه فى شر او يمنعه من خير ؛ كما يفعل العدو مع عدوه .

وكلما كان الانسان اعظم رغبة فى العلم والعبادة ، واقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ، ورغبته وارادته فى ذلك اتم ؛ كان ما يحصل له ان سلمه الله من الشيطان اعظم ؛ وكان ما يفتتن به ان تمكن منه الشيطان أعظم . ولهذا قال الشعبي : كل امة علماؤها شرارها ، إلا المسلمين فان علماءهم خيارهم .

واهل السنة فى الاسلام ؛ كأهل الاسلام فى الملل ؛ وذلك ان كل امة غير المسلمين فهم ضالون ، وانما يضلهم علماؤهم ؛ فعلماؤهم شرارهم ، والمسلمون على هدى وانما يتبين الهدى بعلمائهم ، فعلماؤهم خيارهم ؛ وكذلك اهل السنة ، أئمتهم خيار الأمة ، وأئمة اهل البدع ، اضر على الأمة من اهل الذنوب . ولهذا امر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج ؛ ونهى عن قتال الولاة الظلمة ؛ وأولئك لهم

نهمة في العلم والعبادة ؛ فصار يعرض لهم من الوساوس التى تضلهم — وهم يظنونها هـدى ، فيطيعونها — ما لا يعرض لغيرهم ، ومن سـلم من ذلك منهم كان من أئمـة المتقين مصابيح الهدى ، وينابيع العـلم ؛ كما قال ابن مسعود لأصحابه : كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الحكمة ، سرج الليـل ؛ جدد القلوب ، احلاس البيوت ، خلقان الثياب ؛ تعرفون فى اهل السماء ، وتخفون على اهل الأرض .

فصـــــــل

ومما ينبغي ان يعلم ان الألفاظ الموجودة فى القرآن والحديث ، إذا عرف تفسيرها وما اريد بهـا من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج فى ذلك إلى الاستدلال بأقوال اهل اللغة ولا غيرهم ؛ ولهذا قال الفقهاء: «الاسماء ثلاثة انواع» نوع يعرف حده بالشرع ، كالصلاة والزكاة : ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر : ونوع يعرف حـده بالعرف كلفظ القبض ، ولفظ المعروف فى قوله : (وعاشروهن بالمعروف) ونحو ذلك . وروي عن ابن عباس انه قال : تفسـير القرآن على اربعة اوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر احد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء . وتفسير لا يعلمـه إلا الله ، من ادعى علمه فهو كاذب . فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك ، قد بين الرسول صلى الله عليه وسلم ما يراد بها فى كلام الله ورسوله ، وكذلك لفظ الخمر وغيرها ، ومن هناك يعرف معناها ، فلو اراد احـد ان يفسرها بغير ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل منه ، واما الـكلام فى اشتقاقها ووجه دلالتها ، فذاك من جنس علم البيان . وتعليل الأحكام ، هو زيادة فى العلم ، وبيان حكمة ألفاظ القرآن ؛ لكن معرفة المراد بهـا لا يتوقف على هذا .

واسم الايمـان والاسلام والنفـاق والـكفر ، هي اعظم من هذا كله ؛

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد بين المراد بهذه الألفاظ بياناً لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك ؛ فلهذا يجب الرجوع فى مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله ، فانه شاف كاف ؛ بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة ، بل كل من تأمل ما تقوله الخوارج والمرجئة فى معنى الايمان ، علم بالاضطرار انه مخالف للرسول، ويعلم بالاضطرار ان طاعة الله ورسوله من تمام الايمان وأنه لم يكن يجعل كل من أذنب ذنباً كافراً ، ويعلم انه لو قدر ان قوماً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك ؛ ونقر بألسنتنا بالشهادتين ، إلا انا لا نطيعك فى شيء مما امرت به ونهيت عنه ، فلا نصلى ولا نصوم ولا نحج ، ولا نصدق الحديث ، ولا نؤدي الأمانة ، ولا نفي بالعهد ؛ ولا نصل الرحم ،ولا نفعل شيئاً من الخير الذي أمرت به ، ونشرب الخمر ؛ وننكح ذوات المحارم بالزنا الظاهر ، ونقتل من قدرنا عليه من اصحابك وأمتك ، ونأخذ اموالهم ، بل نقتلك أيضاً ونقاتلك مع اعدائك ؛ هل كان يتوهم عاقل ان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم : انتم مؤمنون كاملوا الايمان ، وانتم من اهل شفاعتي يوم القيامة ، ويرجى لكم ان لا يدخل احد منكم النار ، بل كل مسلم يعلم بالاضطرار انه يقول لهم : أنتم أكفر الناس بما جئت به ، ويضرب رقابهم إن لم يتوبوا من ذلك .

وكذلك كل مسلم يعلم ان شارب الخمر والزانى والقاذف والسارق ، لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يجعلهم مرتدين يجب قتلهم ، بل القرآن والنقل المتواتر عنه ، يبين ان هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الاسلام ،

كما ذكر الله فى القرآن جلد القاذف والزانى ، وقطع السارق ، وهذا متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ولو كانوا مرتدين لقتلهم . فكلا القولين مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم .

واهل البدع إنما دخل عليهم الداخل ، لأنهم أعرضوا عن هذه الطريق ، وصاروا يبنون دين الاسلام على مقدمات يظنون صحتها . إما فى دلالة الالفاظ . واما فى المعانى المعقولة . ولا يتأملون بيان الله ورسوله ، وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله ، فانها تكون ضلالاً ، ولهذا تكلم احمد فى رسالته المعروفة فى الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين ؛ وكذلك ذكر فى رسالته الى ابى عبد الرحمن الجرجانى فى الرد على المرجئة ، وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين ، لا يعدلون عن بيان الرسول إذا وجدوا الى ذلك سبيلاً ؛ ومن عدل عن سبيلهم وقع فى البدع التى مضمونها انه يقول على الله ورسوله ما لا يعلم ، او غير الحق ، وهذا مما حرمه الله ورسوله . وقال تعالى فى الشيطان : (انما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وان تقولوا على الله مالا تعلمون) وقال تعالى : (الم يأخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لا يقولوا على الله الا الحق) وهذا من تفسير القرآن بالراي الذي جاء فيه الحديث : «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» .

مثال ذلك ان «المرجئة» لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله ، اخذوا يتكلمون فى مسمى «الايمان» و« الاسلام » وغيرهما بطرق ابتدعوها ، مثل ان

يقولوا : « الايمان في اللغة » هو التصديق ، والرسول انما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها ، فيكون مراده بالايمان التصديق ؛ ثم قالوا : والتصديق انما يكون بالقلب واللسان ، او بالقلب ، فالأعمال ليست من الايمان ، ثم عمدتهم في ان الايمان هو التصديق قوله : (وما انت بمؤمن لنا) اى بمصدق لنا .

فيقال لهم : «اسم الايمان» قد تكرر ذكره في القرآن والحديث اكثر من ذكر سائر الألفاظ ، وهو اصل الدين ، وبه يخرج الناس من الظلمات الى النور ؛ ويفرق بين السعداء والأشقياء ، ومن يوالي ومن يعادي ، والدين كله تابع لهذا ؛ ، وكل مسلم محتاج إلى معرفة ذلك ؛ افيجوز ان يكون الرسول قد اهمل بيان هذا كله . ووكله إلى هاتين المقدمتين؟ . ومعلوم ان الشاهد الذي استشهدوا به على ان الايمان هو التصديق انه من القرآن . ونقل معنى الايمان متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم اعظم من تواتر لفظ الكلمة ، فان الايمان يحتاج الى معرفة جميع الأمة فينقلونه ، بخلاف كلمة من سورة . فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة ، فلا يجوز ان يجعل بيان اصل الدين مبنياً على مثل هذه المقدمات ، ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم ، وسلكوا السبل ، وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات ، فهذا كلام عام مطلق .

ثم يقال : «هاتان المقدمتان» كلاهما ممنوعة ، فمن الذي قال : ان لفظ الايمان مرادف للفظ التصديق ؟ وهب ان المعنى يصح إذا استعمل في هذا الموضع ، فلم

قلت : انه يوجب الترادف ؟ ولو قلت : ما أنت بمسلم لنـا ، ما انت بمؤمن لنا ، صح المعنى . لكن لم قلت : ان هـذا هو المراد بلفـظ مؤمن ؟ واذا قال الله : (اقيموا الصلاة) . ولو قال القائل : اتموا الصلاة ، ولازموا الصلاة ، التزموا الصلاة ، افعلوا الصلاة ، كان المعنى صحيحاً . لكن لا يدل هذا على معنى : اقيموا. فكون اللفظ يرادف اللفظ ؛ يراد دلالته على ذلك .

ثم يقال : ليس هو مرادفاً له ، وذلك من وجوه :

(احدها): ان يقال للمخبر اذا صدقته: صدقه، ولا يقال: آمنه وآمن به. بل يقال: آمن له. كما قال: (فآمن له لوط) وقال : (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) وقال فرعون: (آمنتم له قبل ان آذن لكم) وقالوا لنوح: (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) وقال تعالى : (قل اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) . (فقالوا : انؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) وقال : (وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون) .

فان قيل : فقد يقال : ما انت بمصدق لنا . قيل : اللام تدخل على مايتعدى بنفسه اذا ضعف عمله، اما بتأخيره اوبكونه اسم فاعل اومصدراً ، او باجتماعهما ، فيقال : فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه ، ثم اذا ذكر باسم الفاعل قيل : هو عابد لربه متق لربه ، خائف لربه ، وكذلك تقول : فلان يرهب الله ثم تقول : هو راهب لربه ، واذا ذكرت الفعل واخرته ، تقويه باللام ، كقوله : (وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) وقد قال : (فاياي فارهبون) فعداه

بنفسه ، وهناك ذكر اللام ، فان هنا قوله : (فاياي)اتم من قوله : فلي . وقوله ، هنا لك (لربهم) اتم من قوله : ربهم ، فان الضمير المنفصل المنصوب ، اكمل من ضمير الجر بالياء ، وهناك اسم ظاهر ، فتقويته باللام اولى واتم من تجريده ؛ ومن هذا قوله : (ان كنتم للرؤيا تعبرون) ويقال : عبرت رؤياه ، وكذلك قوله : (وانهم لنا لغائظون) وانما يقال : غظته ، لا يقال : غظت له ، ومثله كثير ، فيقول القائل : ما انت بمصدق لنا ، ادخل فيه اللام ، لكونه اسم فاعل ، والا فانما يقال : صدقته . لا يقال : صدقت له. ولو ذكروا الفعل ، لقالوا : ما صدقتنا ، وهذا بخلاف لفظ الايمان ، فانه تعدى الى الضمير باللام دائماً ؛ لا يقال : آمنته قط ، وانما يقال : آمنت له كما يقال : اقررت له ، فكان تفسيره بلفظ الاقرار اقرب من تفسيره بلفظ التصديق ، مع ان بينهما فرقاً .

(الثاني) : انه ليس مرادفاً للفظ التصديق فى المعنى ، فان كل مخبر عن مشاهدة او غيب يقال له فى اللغة : صدقت ، كما يقال : كذبت . فمن قال : السماء فوقنا ، قيل له : صدق كما يقال : كذب ، واما لفظ الايمان فلا يستعمل الا فى الخبر عن غائب ، لم يوجد فى الكلام ان من اخبر عن مشاهدة ؛ كقوله : طلعت الشمس ، وغربت ، انه يقال : آمناه ، كما يقال : صدقناه ، ولهذا ؛ المحدثون والشهود ونحوهم ؛ يقال : صدقناهم ؛ وما يقال آمنا لهم ؛ فان الايمان مشتق من الأمن . فانما يستعمل فى خبر يؤتمن عليه المخبر ، كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر ؛ ولهذا لم يوجد قط فى القرآن وغيره لفظ آمن له ، الا فى هذا النوع ؛ والاثنان اذا اشتركا فى معرفة الشيء

يقال : صــدق احدهما صاحبه ولا يقال : آمن له ، لأنه لم يكن غائباً عنه ائتمنه عليه ولهذا قال : (فـآمن له لوط) (انؤمن لبشرين مثلنــا) . (آمنتم له) (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) فيصدقهم فيما اخبروا به . ممـا غاب عنه وهو مأمون عنده على ذلك ، فاللفظ متضمن مع التصديق ومعنى الائتمان والأمانة ؛ كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق ، ولهذا قالوا : (ما انت بمؤمن لنـا) اي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ، ولا تطمئن اليه ولو كنا صادقين ؛ لأنهم لم يكونوا عنــده ممن يؤتمن على ذلك . فلو صدقوا لم يأمن لهم .

(الثالث) : ان لفظ الايمان في اللغة ، لم يقابل بالتــكذيب كلفظ التصديق فانه من المعــلوم فى اللغة ان كل مخبر يقال له : صدقت او كذبت ويقال : صدقناه او كذبناه ، ولا يقال لــكل مخبر : آمنــا له او كذبناه ؛ ولا يقال انت مؤمن له او مكذب له ؛ بل المعروف فى مقابلة الايمان لفظ الـكفر . يقال : هو مؤمن او كافر ، والـكفر لا يختص بالتــكذيب ؛ بل لو قال : انا اعلم انك صادق لكن لا اتبعك ، بل اعاديك وابغضك واخالفك ولا اوافقك ، لـكان كفره اعظم ؛ فلما كان الـكفر المقابل للايمــان ليس هو التــكذيب فقط ، علم ان الايمان ليس هو التصديق فقط ، بل اذا كان الـكفر ، يكون تــكذيباً ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعاً بلا تــكذيب ؛ فلا بد ان يكون الايمــان تصديقاً مع موافقة وموالاة وانقياد لا يكفي مجرد التصديق ؛ فيـكون الاسلام جزء مسمى الايمـان كما كان الامتناع من الانقيـاد مع التصديق جزء مسمى الـكفر ، فيجب ان يكون كل مؤمن مسلماً منقاداً للأمر ، وهذا هو العمل .

فان قيل : فالرسول صلى الله عليه وسلم فسر الأيمان بما يؤمن به .

قيل: فالرسول ذكر ما يؤمن به لم يذكر ما يؤمن له ، وهو نفسه يجب ان يؤمن به ويؤمن له ، فالايمان به من حيث ثبوته غيب عنا اخبرنا به وليس كل غيب آمنا به علينا ان نطيعه ، وأما ما يجب من الايمان له فهو الذي يوجب طاعته ، والرسول يجب الايمان به وله ، فينبغي ان يعرف هذا ، وايضاً فان طاعته طاعة لله ، وطاعة الله من تمام الايمان به .

(الرابع) : أن من الناس من يقول : الايمان اصله في اللغة من الأمن الذي هو ضد الخوف ؛ فآمن اي صار داخلاً في الأمن وأنشدوا ...[1]

واما « المقدمة الثانية » فيقال : إنه اذا فرض انه مرادف للتصديق فقولهم : ان التصديق لا يكون إلا بالقلب او اللسان ؛ عنه جوابان .

« احدهما » : المنع بل الأفعال تسمى تصديقاً كما ثبت في «الصحيح» عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « العينان تزنيان وزناهما النظر ؛ والأذن تزني وزناها السمع ؛ واليد تزني وزناها البطش ؛ والرجل تزنى وزناها المشي والقلب يتمنى ذلك ويشتهي ؛ والفرج يصدق ذلك او يكذبه » . وكذلك قال اهل اللغة وطوائف من السلف والخلف . قال الجوهري : والصدّيق مثال الفسّيق : الدائم التصديق . ويكون الذي يصدق قوله بالعمل . وقال الحسن البصري : ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الاعمال ، وهذا

---

(١) بياض في الأصل .

مشهور عن الحسن يروى عنه من غير وجه ، كما رواه عباس الدوري : حدثنا حجاج : حدثنا ابو عبيدة الناجي عن الحسن قال : ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني ؛ ولكن ما وقر فى القلب وصدقته الاعمال . من قال حسناً وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ، ومن قال حسناً وعمل صالحاً رفعه العمل ، ذلك بأن الله يقول : (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ورواه ابن بطة من الوجهين .

وقوله : ليس الايمان بالتمني — يعني الكلام — وقوله : بالتحلي . يعنى أن يصير حلية ظاهرة له ، فيظهره من غير حقيقة من قلبه ، ومعناه ليس هو ما يظهر من القول ولا من الحلية الظاهرة ، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الاعمال . فالعمل يصدق ان فى القلب إيماناً وإذا لم يكن عمل ، كذب ان فى قلبه ايماناً ، لان ما في القلب مستلزم للعمل الظاهر . وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم .

وقد روى محمد بن نصر المروزي باسناده ، ان عبد الملك بن مروان كتب الى سعيد بن جبير يسأله عن هذه المسائل . فأجابه عنها : سألت عن الايمان ، فالايمان هو التصديق ، ان يصدق العبد بالله وملائكته وما انزل الله من كتاب وما ارسل من رسول ، وباليوم الآخر . وسألت عن التصديق . والتصديق : ان يعمل العبد بما صدق به من القرآن ، وما ضعف عن شيء منه وفرط فيه عرف انه ذنب ، واستغفر الله وتاب منه ولم يصر عليه ، فذلك

هو التصديق . وتسأل عن الدين ، فالدين هو العبـادة ، فانك لن تجد رجلاً من اهل الدين ترك عبـادة اهل دين ، ثم لا يدخل فى دين آخر إلا صار لادين له . وتسأل عن العبادة والعبـادة هي الطاعة ، ذلك انه من اطاع الله فيما امره به وفيما نهاه عنه ، فقد آثر عبـادة الله ، ومن اطاع الشيطان فى دينه وعمله ، فقد عبد الشيطان ، ألا ترى أن الله قال للذين فرطوا : (ألم أعهد اليـكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان) وانما كانت عبادتهم الشيطان انهم اطاعوه فى دينهم .

وقال اسد بن موسى : حدثنا الوليد بن مسلم الأوزاعي ، حدثنا حسان ابن عطية قال : الايمان فى كتاب الله صـار الى العمل . قال الله تعالى : (انمـا المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الآية . ثم صيرهم الى العمل فقال: (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) قال : وسمعت الأوزاعي يقول : قال الله تعالى : (فان تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فاخوانـكم فى الدين) والايمان بالله باللسان ، والتصديق به العمل .

وقال معمر عن الزهري : كنا نقول الاسلام بالاقرار ، والايمان بالعمل والايمان : قول وعمل قرينان ، لا ينفع احـدهما إلا بالآخر ، وما من احد إلا يوزن قوله وعمله ؛ فان كان عمـله اوزن من قوله : صعد الى الله ؛ وان كان كلامه اوزن من عمـله لم يصعد الى الله . ورواه ابو عمرو الطلمنكي باسناده

المعروف . وقال معاوية بن عمرو : عن ابي اسحاق الفزاري عن الأوزاعي قال : لا يستقيم الايمان إلا بالقول ، ولا يستقيم الايمان والقول إلا بالعمل ، ولا يستقيم الايمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة .

وكان من مضى من سلفنا ، لا يفرقون بين الايمان والعمل ؛ العمل من الايمان والايمان من العمل ؛ وانما الايمان اسم يجمع كما يجمع هذه الأديان اسمها ويصدقه العمل . فمن آمن بلسانه ، وعرف بقلبه ، وصدق بعمله ، فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها . ومن قال بلسانه ، ولم يعرف بقلبه ، ولم يصدق بعمله كان في الآخرة من الخاسرين . وهـذا معروف عن غير واحد من السلف والخلف ؛ انهم يجعلون العمل مصدقا للقول ؛ ورووا ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم كما رواه معاذ بن اسد : حدثنا الفضيل بن عياض ، عن ليث بن ابي سليم عن مجاهد : ان أبا ذر سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان . فقال: «الايمان: الاقرار والتصديق بالعمل ؛ ثم تلا (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الى قوله (واولئك هم المتقون) » .

قلت حديث ابي ذر هـذا مروي من غير وجه ؛ فان كان هذا اللفظ هو لفظ الرسول ، فلا كلام ، وان كانوا رووه بالمعنى ، دل على انه من المعروف في لغتهم انه يقال : صـدق قوله بعمله ؛ وكذلك قال شيخ الاسلام الهروي : الايمان تصديق كله .

وكذلك « الجواب الثاني » انه إذا كان اصـله التصديق ، فهو تصديق

مخصوص ، كما ان الصلاة دعاء مخصوص ، والحج قصد مخصوص ، والصيام امساك مخصوص ؛ وهذا التصديق له لوازم صارت لوازمه داخلة فى مسماه عند الاطلاق ؛ فان انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم ، ويبقى النزاع لفظياً : هل الايمان دال على العمل بالتضمن او باللزوم ؟

ومما ينبغي ان يعرف ان اكثر التنازع بين اهل السنة فى هذه المسألة هو نزاع لفظي ، وإلا فالقائلون بأن الايمان قول من الفقهاء ـ كحماد بن ابي سليمان وهو اول من قال ذلك ، ومن اتبعه من اهل الكوفة وغيرهم ـ متفقون مع جميع علماء السنة على ان اصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد ، وان قالوا : ان ايمانهم كامل كايمان جبريل فهم يقولون : ان الايمان بدون العمل المفروض ومع فعل المحرمات يكون صاحبه مستحقاً للذم والعقاب ، كما تقوله الجماعة . ويقولون أيضاً بأن من اهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة والذين ينفون عن الفاسق اسم الايمان من اهل السنة متفقون على انه لا يخلد في النار . فليس بين فقهاء الملة نزاع فى اصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطناً وظاهراً بما جاء به الرسول ، وما تواتر عنه انهم من اهل الوعيد ، وانه يدخل النار منهم من اخبر الله ورسوله بدخوله اليها ، ولا يخلد منهم فيها احد ، ولا يكونون مرتدين مباحي الدماء ، ولكن « الأقوال المنحرفة » قول من يقول بتخليدهم في النار ، كالخوارج ، والمعتزلة . وقول غلاة المرجئة الذين يقولون : ما نعلم ان أحداً منهم يدخل النار ؛ بل نقف فى هذا كله . وحكي عن بعض غلاة المرجئة الجزم بالنفي العام .

ويقال للخوارج : الذي نفى عن السارق والزاني والشارب وغيرهم الايمان : هو لم يجعلهم مرتدين عن الاسـلام ؛ بل عاقب هذا بالجلد وهذا بالقطع ، ولم يقتل احداً إلا الزاني المحصن ، ولم يقتـله قتل المرتد ؛ فان المرتد يقتل بالسيف بعد الاستتابة ، وهذا يرجم بالحجارة بلا استتابة . فدل ذلك على أنه وان نفى عنهم الايمان ، فليسوا عنده مرتدين عن الاسلام مع ظهور ذنوبهم وليسو كالمنافقين الذين كانوا يظهرون الاسلام ويبطنون الـكفر ، فأولئك لم يعاقبهم الا على ذنب ظاهر .

وبسبب الـكلام فى « مسألة الايمـان » تنازع الناس ، هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة ، او انها باقية فى الشرع على ما كانت عليه في اللغة ، لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الأسمـاء ؟ . وهكذا قالوا في اسم «الصلاة » و« الزكاة» و« الصيام » «والحج» إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوي ، لكن زاد فى أحكامها . ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق، وذلك يحصل بالقلب واللسان . وذهبت طائفة ثالثة الى ان الشارع تصرف فيها تصرف اهل العـرف ، فهى بالنسـبة الى اللغة مجاز ، وبالنسـبة الى عرف الشارع حقيقة .

والتحقيق ان الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ، ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة، كما يستعمل نظائرها ، كقوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت) فذكر حجاً خاصاً ، وهو حج البيت ، وكذلك قـوله : (فمن حج البيت او اعتمر) فلم يكن

لفظ الحج متناولاً لكل قصد ، بل لقصد مخصوص دل عليه اللفظ نفسه من غير تغيير اللغة . والشاعر إذا قال :

واشهد من عوف حلولاً كثيرة يحجون سب الزبرقان المزعفرا

كان متكلماً باللغة ، وقد قيد : لفظه : بحج سب الزبرقان المزعفرا . ومعلوم ان ذلك الحج المخصوص دلت عليه الاضافة . فكذلك الحج المخصوص الذي امر الله به دلت عليه الاضافة او التعريف باللام : فاذا قيل : الحج فرض عليك ، كانت لام العهد تبين انه حج البيت وكذلك «الزكاة» هي اسم لما تزكو به النفس؛ وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها ، والاحسان الى الناس من اعظم ما تزكو به النفس ؛ كما قال تعالى : (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به . قال تعالى . (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد أبداً) واصل زكاتها بالتوحيد واخلاص الدين لله ؛ قال تعالى : (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) وهي عند المفسرين التوحيد .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم مقدار الواجب ، وسماها الزكاة المفروضة؛ فصار لفظ الزكاة اذا عرف باللام ينصرف اليها لأجل العهد ، ومن الأسماء ما يكون اهل العرف نقلوه وينسبون ذلك الى الشارع ، مثل لفظ «التيمم» فان الله تعالى قال : (فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه) فلفظ « التيمم» استعمل فى معناه المعروف فى اللغة ، فانه امر بتيمم الصعيد ثم امر بمسح الوجوه والأيدي منه ؛ فصار لفظ التيمم فى عرف الفقهاء يدخل فيه هذا المسح ؛ وليس

هو لغة الشارع ، بل الشارع فرق بين تيمم الصعيـد وبين المسح الذي يكون بعده ، ولفظ «الايمان» امر به مقيداً بالايمان بالله وملائـكته وكتبه ورسـله ، وكذلك لفظ « الاسلام » بالاستسلام لله رب العالمين ؛ وكذلك لفظ« الـكفر » مقيداً ؛ ولكن لفظ « النفـاق » قد قيل : انه لم تـكن العرب تـكلمت به ، لكنه مأخوذ من كلامهم ، فان نفق يشبه خرج ، ومنه نفقت الدابة اذا ماتت ، ومنه نافقاء اليربوع ، والنفق في الأرض قال تعالى : (فان استطعت ان تبتغي نفقـاً فى الأرض) فالمنافق هو الذي خرج من الايمان باطناً بعد دخوله فيه ظـاهراً ؛ وقيد النفاق بأنه نفاق من الايمان . ومن الناس من يسمي من خرج عن طاعة الملك منافقاً عليه ؛ لكن النفاق الذي فى القرآن هو النفاق على الرسول. فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الأسماء كخطاب الناس بغيرها ؛ وهو خطاب مقيـد خاص لا مطلق يحتمل انواعاً .

وقد بين الرسول تلك الخصائص ؛ والأسم دل عليها ؛ فلا يقال : انهـا منقولة ، ولا انه زيد في الحـكم دون الاسم ؛ بل الاسم انما استعمل على وجـه يختص بمراد الشارع ؛ لم يستعمل مطلقاً ، وهو انما قال : (أقيموا الصلاة) بعد ان عرفهم الصلاة المأمور بها ؛ فـكان التعريف منصرفاً الى الصلاة التي يعرفونها؛ لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه . ولهذا كل من قال فى لفظ الصلاة : انه عام للمعنى اللغوي ؛ او انه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك ؛ فأقوالهم ضعيفة ، فان هذا اللفظ انما ورد خبراً او امراً ، فالخبر كقوله :(ارايت الذي ينهى عبداً اذا صلى) وسـورة (اقرأ) من اول ما نزل من القرآن ، وكان

بعض الكفار اما ابو جهل او غيره قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقال : لئن رأيته يصلي لأطأن عنقه . فلما رآه ساجداً راى من الهول ما اوجب نكوصه على عقبيه ؛ فاذا قيل : (ارايت الذي ينهى عبداً اذا صلى) فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا اجمال في اللفظ ولاعموم .

ثم انه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج اقام النبي صلى الله عليه وسلم لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم ، وكان جبرائيل يؤم النبي صلى الله عليه وسلم . والمسلمون يأتمون بالنبي صلى الله عليه وسلم . فاذا قيل لهم : (اقيموا الصلاة) عرفوا انها تلك الصلاة ، وقيل : انه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار ، فكانت ايضاً معروفة ، فلم يخاطبوا باسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم . فلا اجمال في ذلك ، ولايتناول كل مايسمي حجاً ودعاءاً وصوماً ، فان هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقاً ، وذلك لم يرد .

وكذلك « الايمان » و « الاسلام » وقد كان معنى ذلك عندهم من اظهر الأمور . وانما سأل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وهم يسمعون وقال : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » ليبين لهم كمال هذه الاسماء وحقائقها التى ينبغى ان تقصد لئلا يقتصروا على ادنى مسمياتها ، وهذا كما فى الحديث الصحيح انه قال : « ليس المسكين هذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنا يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافاً » فهم كانوا يعرفون المسكين وانه المحتاج ، وكان ذلك

مشهوراً عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال ، فبين النبي صلى الله عليه وسلم ان الذي يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته باعطاء الناس له ، والسؤال له بمنزلة الحرفة . وهو وإن كان مسكيناً يستحق من الزكاة إذا لم يعط من غيرها كفايته . فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكيناً ، وانما المسكين المحتاج الذى لا يسأل ولا يعرف فيعطى . فهذا هو الذى يجب ان يقدم فى العطاء ، فانه مسكين قطعاً ، وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله ، وكذلك قوله : « الاسلام هو الخمس » . يريد ان هذا كله واجب داخل فى الاسلام ، فليس للانسان ان يكتفي بالاقرار بالشهادتين ؛ وكذلك الايمان يجب ان يكون على هذا الوجه المفصل ، لا يكتفي فيه بالايمان المجمل ، ولهذا وصف الاسلام بهذا .

وقد اتفق المسلمون على انه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر ، واما الأعمال الأربعة فاختلفوا فى تكفير تاركها ، ونحن اذا قلنا : اهل السنة متفقون على انه لا يكفر بالذنب ، فانما نريد به المعاصي كالزنا والشرب ، واما هذه المبانى ففي تكفير تاركها نزاع مشهور . وعن احمد : فى ذلك نزاع ، واحدى الروايات عنه : انه يكفر من ترك واحدة منها ، وهو اختيار ابى بكر وطائفة من اصحاب مالك كابن حبيب . وعنه رواية ثانية : لا يكفر الا بترك الصلاة والزكاة فقط ، ورواية ثالثة : لا يكفر الا بترك الصلاة ، والزكاة إذا قاتل الامام عليها ، ورابعة : لا يكفر الا بترك الصلاة . وخامسة : لا يكفر بترك شيء منهن . وهذه اقوال معروفة للسلف . قال الحكم بن عتيبة : من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر ، ومن ترك الزكاة متعمداً فقد كفر . ومن ترك الحج متعمداً فقد كفر . ومن ترك صوم

رمضان متعمداً فقد كفر . وقال سعيد بن جبير : من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر بالله . ومن ترك الزكاة متعمداً فقد كفر بالله . ومن ترك صوم رمضان متعمداً فقد كفر بالله . وقال الضحاك : لا ترفع الصلاة الا بالزكاة . وقال عبد الله بن مسعود : من اقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له . رواهن أسد بن موسى .

وقال عبد الله بن عمرو : من شرب الخمر ممسياً اصبح مشركا ، ومن شربه مصبحاً امسى مشركاً ، فقيل لابراهيم النخعي : كيف ذلك ؟ قال : لأنه يترك الصلاة ، قال ابو عبد الله الأخنس فى كتابه : من شرب المسكر فقد تعرض لترك الصلاة ، ومن ترك الصلاة فقد خرج من الايمان . ومما يوضح ذلك أن جبريل لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الاسلام والايمان والاحسان ، كان في آخر الأمر بعد فرض الحج ، والحج إنما فرض سنة تسع او عشر .

وقد اتفق الناس على أنه لم يفرض قبل ست من الهجرة ، ومعلوم ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأمر الناس بالايمان . ولم يبين لهم معناه الى ذلك الوقت ، بل كانوا يعرفون اصل معناه وهذه المسائل لبسطها موضع آخر .

و (المقصود هنا) ان من نفى عنه الرسول اسم « الايمان » او « الاسلام » فلابد ان يكون قد ترك بعض الواجبات فيه وإن بقى بعضها ، ولهذا كان الصحابة والسلف يقولون : إنه يكون فى العبد ايمان ونفاق . قال ابو داود السجستانى : حدثنا احمد بن حنبل حدثنا وكيع عن الأعمش عن شقيق عن ابى المقدام عن

ابى يحيى قال : سئل حذيفة عن المنافق . قال : الذى يعرف الاسلام ولا يعمل به . وقال ابو داود : حدثنا عثمان بن ابى شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن ابى البخترى عن حذيفة قال : القلوب اربعة : قلب اغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب مصفح ، وذلك قلب المنافق وقلب اجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ؛ وقلب فيه ايمان ونفاق ؛ فمثل الايمان فيه كمثل شجرة يمدها ماء طيب : ومثل النفاق مثل قرحة يمدها قيح ودم ؛ فأيهما غلب عليه غلب . وقد روى مرفوعاً ؛ وهو فى « المسند » مرفوعاً .

وهذا الذي قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى : (هم للكفر يومئذ اقرب منهم للايمان) فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب ، فلما كان يوم أحد غلب نفاقهم فصاروا الى الكفر اقرب . وروى عبد الله بن المبارك عن عوف بن ابى جميلة عن عبد الله بن عمرو بن هند عن علي بن ابي طالب قال : ان الايمان يبدو لمظة بيضاء في القلب . فكلما ازداد العبد إيماناً ازداد القلب بياضا ، حتى إذا استكمل الايمان ابيض القلب كله . وان النفاق يبدو لمظة سوداء فى القلب ، فكلما ازداد العبد نفاقاً ازداد القلب سواداً ، حتى اذا استكمل العبد النفاق اسود القلب ، وايم الله لو شققتم عن قلب المؤمن لوجدتموه أبيض ، ولو شققتم عن عن قلب المنافق والكافر لوجدتموه أسود .

وقال ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل . رواه احمد وغيره وهذا كثير فى كلام السلف ، يبينون ان القلب قد يكون فيه

ايمان ونفاق ، والكتاب والسنة يدلان على ذلك ، فان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر شعب الايمان ، وذكر شعب النفاق وقال : « من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها » وتلك الشعبة قد يكون معها كثير من شعب الايمان ، ولهذا قال : « ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان » فعلم ان من كان معه من الايمان اقل القليل لم يخلد في النار ، وان من كان معه كثير من النفاق ، فهو يعذب في النار على قدر ما معه من ذلك ، ثم يخرج من النار .

وعلى هذا فقوله للأعراب : (لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) نفى حقيقة دخول الايمان في قلوبهم ، وذلك لا يمنع ان يكون معهم شعبة منه ، كما نفاه عن الزاني والسارق ، ومن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ومن لا يأمن جاره بوائقه وغير ذلك كما تقدم ذكره ، فان في القرآن والحديث ممن نفي عنه الايمان لترك بعض الواجبات شيء كثير .

وحينئذ فنقول : من قال من السلف : اسلمنا ، اي استسلمنا خوف السيف ، وقول من قال : هو الاسلام ، الجميع صحيح ، فان هذا انما اراد الدخول في الاسلام والاسلام الظاهر يدخل فيه المنافقون، فيدخل فيه من كان في قلبه ايمان ونفاق ؛ وقد علم انه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان ، بخلاف المنافق المحض الذي قلبه كله اسود ، فهذا هو الذي يكون في الدرك الأسفل من النار ، ولهذا كان الصحابة يخشون النفاق على انفسهم ، ولم يخافوا

التكذيب لله ورسوله . فان المؤمن يعلم من نفسه انه لا يكذب الله ورسوله يقيناً ، وهذا مستند من قال : انا مؤمن حقاً ، فانه اراد بذلك ما يعلمه من من نفسه من التصديق الجازم ولكن ، الايمان ليس مجرد التصديق بل لابد من اعمال قلبية تستلزم اعمالا ظاهرة كما تقدم فحب الله ورسوله من الايمان ، وحب ما امر الله به ، وبغض ما نهى عنه ، هذا من اخص الامور بالايمان ، ولهذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فى عدة احاديث ان : « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » فهذا يحب الحسنة ويفرح بها ، ويبغض السيئة ويسوءه فعلها وان فعلها بشهوة غالبة ، وهذا الحب والبغض من خصائص الايمان .

ومعلوم ان الزانى حين يزنى إنما يزنى لحب نفسه لذلك الفعل ، فلو قام بقلبه خشية الله التى تقهر الشهوة او حب الله الذي يغلبها ؛ لم يزن ، ولهذا قال تعالى عن يوسف عليه السلام: (كذلك لنصرف عنه السوء و الفحشاء انه من عبادنا المخلصين) فمن كان مخلصاً لله حق الاخلاص لم يزن وانما يزنى لخلوه عن ذلك ، وهذا هو الايمان الذي ينزع منه لم ينزع منه نفس التصديق ولهذا قيل : هو مسلم وليس بمؤمن ؛ فان المسلم المستحق للثواب لا بد ان يكون مصدقاً ، والا كان منافقاً ؛ لكن ليس كل من صدق قام بقلبه من الاحوال الايمانية الواجبة مثل كمال محبة الله ورسوله ، ومثل خشية الله والاخلاص له فى الأعمال والتوكل عليه بل يكون الرجل مصدقاً بما جاء به الرسول ، وهو

مع ذلك يرائى بأعماله ، ويكون اهله وماله احب اليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله ، وقد خوطب بهذا المؤمنون فى آخر الأمر فى سورة براءة فقيل لهم : (ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) ومعلوم ان كثيراً من المسلمين او اكثرهم بهذه الصفة .

وقد ثبت انه لا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ؛ وانما المؤمن من لم يرتب ، وجاهد بماله ونفسه فى سبيل الله ، فمن لم تقم بقلبه الأحوال الواجبة فى الايمان ، فهو الذي نفى عنه الرسول الايمان وإن كان معه التصديق ، والتصديق من الايمان ، ولا بد ان يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله ، وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس ايماناً البتة ، بل هو كتصديق فرعون واليهود وابليس ، وهذا هو الذي أنكره السلف على الجهمية . قال الحميدي : سمعت وكيعاً يقول : اهل السنة يقولون : الايمان قول وعمل ، والمرجئة يقولون : الايمان قول . والجهمية يقولون : الايمان المعرفة ، وفي رواية اخرى عنه : وهذا كفر . قال محمد بن عمر الكلابي : سمعت وكيعاً يقول : الجهمية شر من القدرية ، قال : وقال وكيع : المرجئة : الذين يقولون : الاقرار يجزيء عن العمل ؛ ومن قال هذا فقد هلك ؛ ومن قال : النية تجزيء عن العمل ، فهو كفر ، وهو قول جهم ، وكذلك قال احمد بن حنبل .

ولهذا كان القول : ان الايمان قول وعمل عند اهل السنة من شعائر السنة ، وحكى غير واحد الاجماع على ذلك ، وقد ذكرنا عن الشافعي — رضى الله عنه — ما ذكره من الاجماع على ذلك قوله فى «الأم» : وكان الاجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن ادركناهم يقولون : إن الايمان قول وعمل ونية، لا يجزىء واحد من الثلاثة إلا بالآخر ؛ وذكر ابن ابي حاتم — فى « مناقبه » — : سمعت حرملة يقول : اجتمع حفص الفرد ومصلان الأباضى عند الشافعي فى دار الجروي ، فتناظرا معه في الايمان فاحتج مصلان فى الزيادة والنقصان وخالفه حفص الفرد ، فحمي الشافعي وتقلد المسألة على ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، فطحن حفصا الفرد ، وقطعه .

وروى ابو عمرو الطلمنكي باسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمال قال : املى علينا إسحاق بن راهويه ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، لا شك ان ذلك كما وصفنا ، وانما عقلنا هذا بالروايات الصحيحة والآثار العامة المحكمة ؛ وآحاد اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين ، وهلم جراً على ذلك ، وكذلك بعد التابعين من اهل العلم على شيء واحد لا يختلفون فيه ، وكذلك فى عهد الاوزاعي بالشام ، وسفيان الثوري بالعراق ؛ ومالك بن انس بالحجاز ، ومعمر باليمن ، على ما فسرنا وبينا ، ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص .

وقال إسحاق : من ترك الصلاة متعمداً حتى ذهب وقت الظهر إلى المغرب،

والمغرب إلى نصف الليل ، فانه كافر بالله العظيم ، يستتاب ثلاثة ايام ، فان لم يرجع وقال تركها لا يكون كفراً ، ضربت عنقه ــ يعني تاركها . وقال ذلك ــ واما إذا صلى وقال ذلك ، فهذه مسألة اجتهاد ، قال : واتبعهم على ما وصفنا من بعدهم من عصرنا هذا اهل العلم ، إلا من باين الجماعة واتبع الأهواء المختلفة ، فأولئك قوم لا يعبأ الله بهم لما باينوا الجماعة .

قال ابو عبيد القاسم بن سلام الامام ــ وله كتاب مصنف فى الايمان ، قال ــ : هذه تسمية من كان يقول : الايمان قول وعمل يزيد وينقص . من اهل مكة : عبيد بن عمير الليثي ، عطاء بن ابى رباح ، مجاهد بن جبر ، ابن ابى مليكة ؛ عمرو بن دينار ؛ ابن ابى نجيح ، عبيد الله بن عمر ؛ عبد الله بن عمرو ابن عثمان، عبد الملك بن جريج ، نافع بن جبير ؛ داود بن عبد الرحمن العطار ؛ عبد الله بن رجاء . ومن اهل المدينة : محمد بن شهاب الزهري ، ربيعة بن ابى عبد الرحمن ، ابو حازم الأعرج . سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، يحيى بن سعيد الأنصاري ، هشام بن عروة بن الزبير ، عبدالله بن عمر العمري ، مالك بن انس ، محمد بن ابى ذئب ، سليمان بن بلال ، عبد العزيز بن عبد الله ــ يعني الماجشون ــ ، عبد العزيز بن ابي حازم . ومن اهل اليمن : طاووس اليماني ، وهب بن منبه ، معمر بن راشد ، عبد الرزاق بن همام . ومن اهل مصر والشام : مكحول ، الأوزاعي ، سعيد بن عبد العزيز ، الوليد بن مسلم ، يونس بن يزيد الأيلي ، يزيد بن ابي حبيب ، يزيد بن شريح ، سعيد بن ابي ايوب ، الليث بن سعد ، عبد الله بن ابي جعفر ، معاوية بن ابي صالح ، حيوة

ابن شريح ، عبــد الله بن وهب . ومن سكن العواصم وغيرها من الجزيرة : ميمون بن مهران ، يحيى بن عبـد الـكريم ،معقل بن عبيد الله ، عبيد الله بن عمرو الرقي ،عبد الملك بن مالك ،المعافى بن عمران ، محمد بن سلمة الحراني ، ابو اسحاق الفزاري ، مخلد بن الحسين ،علي بن بكار ،يوسف بن اسـباط ، عطاء بن مسلم ،محمد بن كثير ،الهيثم بن جميل . ومن اهل الـكوفة : علقمة ، الأسود بن يزيد ، ابو وائل وسعيد بن جبير ، الربيـع بن خيثم ،عامر الشعبي ، ابراهيم النخعي ، الحـكم بن عتيبة ، طلحة بن مصرف ، منصور بن المعتمر ، سلمة ابن كهيل ، مغيرة الضبي ، عطاء بن السائب ، اسماعيل بن ابي خالد ،ابو حيـان، يحيى بن سـعيد ، سليمان بن مهران الأعمش ، يزيد بن ابي زياد ، سفيان بن سعيد الثوري ، سفيان بن عيينة ، الفضيل بن عيـاض ، ابو المقدام ،ثابت بن العجلان ، ابن شبرمة . ابن ابي ليـلى ،زهير ، شريك بن عبد الله ، الحسن بن صالح ، حفص بن غياث ، ابو بكر بن عياش ، ابو الأحوص ، وكيع بن الجراح ، عبد الله بن نمير ، ابو أسامة ، عبد الله بن ادريس ، زيد بن الحباب ، الحسين ابن علي الجعفي ، محمد بن بشر العبدي ، يحيى بن آدم ومحمـد ويعلي وعمرو بنو عبيد .

ومن اهل البصرة : الحسن بن ابي الحسن ، محمـد بن سيرين ، قتادة ابن دعامة ، بكر بن عبـد الله المزني ، ايوب السختياني ، يونس بن عبيـد ، عبد الله بن عون ، سليمان التيمي ، هشام بن حسان الدستوائي ، شـعبة ابن الحجاج ، حماد بن سلمة ، حماد بن زيد ، ابو الاشهب ، يزيد بن ابراهيم ،

ابو عوانة ، وهيب بن خالد ، عبد الوارث بن سعيد ، معتمر بن سليمان التيمي ، يحيى بن سعيد القطان ، عبد الرحمن بن مهدي ، بشر بن المفضل ، يزيد بن زريع ، المؤمل بن اسماعيل ، خالد بن الحارث ، معاذ بن معاذ ، ابو عبد الرحمن المقري .

ومن اهل واسط : هشيم بن بشير ، خالد بن عبد الله ، علي بن عاصم ، يزيد بن هارون ، صالح بن عمر بن علي بن عاصم .

ومن اهل المشرق : الضحاك بن مزاحم ، ابو جمرة ، نصر بن عمران ، عبد الله بن المبارك ، النضر بن شميل ، جرير بن عبد الحميد الضبي .

قال ابو عبيد : هؤلاء جميعاً يقولون : الايمان قول وعمل يزيد وينقص ؛ وهو قول اهل السنة المعمول به عندنا .

قلت : ذكر من الكوفيين من قال ذلك أكثر مما ذكر من غيرهم ، لأن الارجاء في أهل الكوفة كان اولاً فيهم اكثر ، وكان اول من قاله حماد ابن ابي سليمان ، فاحتاج علماؤها ان يظهروا انكار ذلك ، فكثر منهم من قال ذلك ؛ كما ان التجهم وتعطيل الصفات لما كان ابتداء حدوثه من خراسان ، كثر من علماء خراسان ذلك الوقت من الانكار على الجهمية ما لم يوجد قط لمن لم تكن هذه البدعة فى بلده ولا سمع بها ، كما جاء فى حديث : « إن لله عند كل بدعة يكاد بها الاسلام واهله من يتكلم بعلامات الاسلام ؛ فاغتنموا تلك المجالس ، فان الرحمة تنزل على اهلها » او كما قال .

واذا كان من قول السلف : ان الانسان يكون فيه إيمـان ونفاق ، فـكذلك فى قولهم : انه يكون فيه إيمان وكفر ، ليس هو الـكفر الذي ينقل عن الملة ؛ كماقال ابن عباس واصحابه فى قوله تعـالى : (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الـكافرون) قالوا : كفروا كفراً لا ينقل عن المـلة ، وقد اتبعهم على ذلك احمد بن حنبل وغيره من ائمة السنة .

قال الامام محمد بن نصر المروزي في كتاب « الصلاة » : اختلف الناس فى تفسير حديث جبرائيل هذا ، فقال طائفة من اصحابنا : قول النبي صلى الله عليه وسلم : « الايمان ان تؤمن بالله » وما ذكر معه كلام جامع مختصر له غور وقد وهمت المرجئة فى تفسيره فتأولوه على غير تأويله قلة معرفة منهم بلسان العرب ، وغور كلام النبي صلى الله عليه وسلم الذى قد اعطى جوامع الـكلم وفواتحـه ، واختصر له الحديث اختصاراً . اما قوله : « الايمان ان تؤمن بالله » فان توحده وتصـدق به بالقلب واللسان وتخضع له ولأمره باعطاء العزم للأداء لمـا امر ، مجانبـاً للاستنكاف والاستكبار والمعاندة ، فاذا فعلت ذلك لزمت محابه واجتنبت مساخطه . واما قوله : « وملائـكته » فأن تؤمن بمن سمى الله لك منهم فى كتابه ، وتؤمن بأن لله ملائـكة سواهم ، لا يعرف اسمـاءهم وعددهم إلا الذى خلقهم . وأما قوله : «وكتبه » فأن تؤمن بمـا سمى الله من كتبه فى كتابه من التوراة والانجيل والزبور خاصة ؛ وتؤمن بأن لله سوى ذلك كتباً انزلها على انبيائه لا يعرف اسماءها وعددها إلا الذى انزلهـا ، وتؤمن بالفرقان ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الـكتب .

إيمـانك بغيره من الـكتب إقرارك به بالقلب واللسان ، وإيمانك بالفرقان إقرارك به واتباعك ما فيه .

وأما قوله : « ورسله » فأن تؤمن بما سمى الله في كتابه من رسله ، وتؤمن بأن لله سواهم رسلاً وأنبيـاء لا يعلم اسماءهم إلا الذي ارسلهم ، وتؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل . إيمانك بسائر الرسل إقرارك بهم ، وإيمـانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه دائباً على ما جاء به ، فاذا اتبعت ماجاء به أديت الفرائض وأحللت الحلال وحرمت الحرام ، ووقفت عند الشبهات ، وسارعت في الخيرات ، واما قوله : « واليوم الآخر» فأن تؤمن بالبعث بعد الموت والحسـاب والميزان ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار ، وبكل ماوصف الله به يوم القيامة . وأما قوله : « وتؤمن بالقدر خيره وشره » فأن تؤمن بأن ما أصـابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطـأك لم يـكن ليصيبك ، ولا تقل : لو كان كذا لم يكن كذا ، ولولا كذا وكذا لم يكن كذا وكذا . قال : فهـذا هو الايمـان بالله وملائـكته وكتبه ورسـله واليوم الآخر .

فصـــــل

ومما يسأل عنه انه إذا كان ما اوجبه الله من الأعمال الظاهرة اكثر من هذه الخمس ؛ فلماذا قال : الاسلام هذه الخمس ، وقد اجاب بعض الناس بأن هذه اظهر شعائر الاسلام واعظمها ، وبقيام العبد بها يتم اسلامه ، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده .

و « التحقيق » ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً ، الذي يجب لله عبادة محضة على الأعيان . فيجب على كل من كان قادراً عليه ليعبد الله بها مخلصاً له الدين . وهذه هي الخمس ، وما سوى ذلك فانما يجب بأسباب لمصالح ، فلا يعم وجوبها جميع الناس ؛ بل اما ان يكون فرضاً على الكفاية ، كالجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؛ ومايتبع ذلك من امارة ، وحكم ، وفتيا ؛ وإقراء ، وتحديث ، وغير ذلك . واما ان يجب بسبب حق للآدميين يختص به من وجب له وعليه ، وقد يسقط باسقاطه . وإذا حصلت المصلحة او الابراء ، إما بابرائه واما بحصول المصلحة ، فحقوق العباد مثل قضاء الديون ، ورد الغصوب ، والعواري والودائع ، والانصاف من المظالم من الدماء والأموال والأعراض ؛ إنما هي حقوق الآدميين ، وإذا أبرئوا منها سقطت .

وتجب على شخص دون شخص فى حال دون حال ، لم تجب عبادة محضة لله على كل عبد قادر ؛ ولهذا يشترك فيها المسلمون واليهود والنصارى ، بخلاف الخمسة فانها من خصائص المسلمين .

وكذلك ما يجب من صلة الأرحام ، وحقوق الزوجة ، والأولاد والجيران والشركاء ، والفقراء . وما يجب من اداء الشهادة ، والفتيا ، والقضاء ، والامارة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ؛ كل ذلك يجب بأسباب عارضة على بعض الناس دون بعض لجلب منافع ودفع مضار ، لو حصلت بدون فعل الانسان لم تجب ؛ فما كان مشتركا فهو واجب على الكفاية ، وما كان مختصاً فانما يجب على زيد دون عمرو ، لا يشترك الناس فى وجوب عمل بعينه على كل احد قادر سوى الخمس ؛ فان زوجة زيد واقاربه ليست زوجة عمرو واقاربه فليس الواجب على هذا مثل الواجب على هذا ، بخلاف صوم رمضان ، وحج البيت ، والصلوات الخمس ، والزكاة ؛ فان الزكاة وان كانت حقاً مالياً فانها واجبة لله ؛ والأصناف الثمانية مصارفها ؛ ولهذا وجبت فيها النية ، ولم يجز ان يفعلها الغير عنه بلا اذنه ، ولم تطلب من الكفار . وحقوق العباد لا يشترط لها النية ، ولو اداها غيره عنه بغير إذنه برئت ذمته ، ويطالب بها الكفار ، وما يجب حقاً لله تعالى كالكفارات هو بسبب من العبد ، وفيها شوب العقوبات فان الواجب لله « ثلاثة انواع » : عبادة محضة كالصلوات ، وعقوبات محضة كالحدود ، وما يشبهها كالكفارات . وكذلك كفارات الحج ، وما يجب بالنذر فان ذلك يجب بسبب فعل من العبد ، وهو واجب فى ذمته .

واما « الزكاة » فانها تجب حقاً لله فى ماله . ولهذا يقال : ليس في المال حق سوى الزكاة أي ليس فيه حق يجب بسبب المال سوى الزكاة ، وإلا ففيه واجبات بغير سبب المال ، كما تجب النفقات للأقارب ، والزوجة ، والرقيق والبهائم ، ويجب حمل العاقلة ، ويجب قضاء الديون ، ويجب الاعطاء في النائبة ويجب اطعام الجائع وكسوة العاري فرضاً على الكفاية ؛ الى غير ذلك من الواجبات المالية . لكن بسبب عارض ، والمال شرط وجوبها ، كالاستطاعة فى الحج ، فان البدن سبب الوجوب والاستطاعة شرط ، والمال فى الزكاة هو السبب والوجوب معه ؛ حتى لو لم يكن فى بلده من يستحقها حملها الى بلد اخرى ، وهي حق وجب لله تعالى . ولهذا قال : من قال من الفقهاء : ان التكليف شرط فيها ، فلا تجب على الصغير والمجنون . واما عامة الصحابة والجمهور ، كمالك والشافعي واحمد ، فأوجبوها فى مال الصغير والمجنون ، لأن ما لهما من جنس مال غيرهما ووليهما يقوم مقامهما ، بخلاف بدنهما . فانه انما يتصرف بعقلهما ؛ وعقلهما ناقص . وصار هذا كما يجب العشر في ارضهما مع انه إنما يستحقه الثمانية . وكذلك إيجاب الكفارة فى مالهما . والصلاة والصيام إنما تسقط لعجز العقل عن الايجاب ، لاسيما إذا انضم إلى عجز البدن كالصغير . وهذا المعنى منتف فى المال فان الولي قام مقامهما فى الفهم كما يقوم مقامهما فى جميع ما يجب فى المال ، واما بدنهما فلا يجب عليهما فيه شيء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فصــــــل

قال محمد بن نصر : واستدلوا على ان الايمان هو ما ذكره بالآيات التى تلوناها عند ذكر تسمية الله الصلاة وسائر الطاعات ايماناً ، واستدلوا أيضاً بما قص الله من اباء ابليس حين عصى ربه فى سجدة واحدة امر أن يسجدها لآدم فأباها . فهل جحد ابليس ربه وهو يقول : (رب بما اغويتني) ؟! ويقول : (رب فأنظرنى الى يوم يبعثون) ايماناً منه بالبعث ، وايماناً بنفاذ قدرته فى انظاره اياه الى يوم يبعثون ، وهل جحد احداً من انبيائه او انكر شيئاً من سلطانه وهو يحلف بعزته ؟ وهل كان كفره الا بترك سجدة واحدة امر بها فأباها ؟ قال : واستدلوا أيضاً بما قص الله علينا من نبأ ابني آدم (اذ قربا قرباناً فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر) الى قوله : (فأصبح من الخاسرين) قالوا : وهل جحد ربه ؟ وكيف يجحده وهو يقرب القربان ؟ . قالوا : قال الله تعالى : (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بهـا خروا سجداً وسبحوا بحمـد ربهم وهم لا يستكبرون) ولم يقل : اذا ذكروا بها أقروا بها فقط . وقال : (الذين آتينـاهم الكتاب يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به) يعني يتبعونه حق اتباعه ؟

فان قيل : فهل مع ما ذكرت من سنة ثابتة، تبين ان العمل داخل فى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ؟ قيل : نعم عامة السنن والآثار تنطق بذلك، منها حديث وفد عبد القيس ؛ وذكر حديث شعبة وقرة بن خالد عن ابي جمرة عن ابن عباس كما تقدم، ولفظه « آمركم بالايمان بالله وحده » ثم قال : « هل تدرون ما الايمان بالله وحده ؟ » قالوا : الله ورسوله اعلم قال : « شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وان تعطوا خمس ما غنمتم » وذكر احاديث كثيرة توجب دخول الأعمال فى الايمان مثل قوله فى حديث [1] لما سئل صلى الله عليه وسلم [1]

ثم قال ابو عبد الله محمد بن نصر : اختلف اصحابنا فى تفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » فقالت طائفة منهم : انما اراد النبي صلى الله عليه وسلم ازالة اسم الايمان عنه من غير ان يخرجه من الاسلام . ولا يزيل عنه اسمه ، وفرقوا بين الايمان والاسلام ، وقالوا : اذا زنى فليس بمؤمن وهو مسلم ، واحتجوا لتفريقهم بين الاسلام والايمان . بقوله : (قالت الأعراب آمنا) الآية ، فقالوا : الايمان خاص يثبت الاسم به بالعمل مع التوحيد ، والاسلام عام يثبت الاسم بالتوحيد والخروج من ملل الكفر واحتجوا بحديث سعد بن ابي وقاص، وذكره عن سعد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطى رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً . فقلت : يا رسول الله اعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلانا وهو مؤمن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «او مسلم » أعادها ثلاثاً ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « او مسلم » ثم قال :

(١) بياض بالاصل .

« انى لأعطي رجالاً وامنع آخرين وهم احب الي منهم مخافة ان يكبوا على وجوههم فى النـار » قال الزهري : فنرى ان الاسلام الـكلمة ، والايمان العمل.

قال محمد بن نصر : واحتجوا بانكار عبدالله بن مسعود على من شهد لنفسه بالايمان فقال : انا مؤمن . من غير استثناء ، وكذلك اصحابه من بعده ، وجل علماء الـكوفة على ذلك . واحتجوا بحديث أبي هريرة : « يخرج منه الايمان فان رجع رجع اليه» ، وبما أشبه ذلك من الأخبار ، وبما روى عن الحسن ومحمدبن سيرين انهما كانا يقولان : مسلم ، ويهابان : مؤمن ؛ واحتجوا بقول ابي جعفر الذي حدثناه اسحاق بن ابراهيم ، أنبأنا وهب بن جرير بن حازم ، حدثني ابى، عن فضيل بن بشار ، عن ابي جعفر محمد بن على انه سئل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : «لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن» ، فقال ابو جعفر : هذا الاسلام ودور دارة واسعة ، وهذا الايمـان ودور دارة صغيرة فى وسـط الـكبيرة ، فاذا زنى او سرق خرج من الايمان الى الاسلام ، ولا يخرجه من الاسلام الا الـكفر بالله . واحتجوا بمـا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص» ، حدثنا بذلك يحيى بن يحيى ، حدثنـا ابن لهيعة عن شريح بن هانيء عن عقبة بن عامر الجهني ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «اسلم الناس وآمن عمرو بن العاص».

وذكر عن حماد بن زيد انه كان يفرق بين الايمان والاسـلام ، فجعل

الايمان خاصاً والاسلام عاما . قال : فلنا فى هؤلاء اسوة وبهم قــدوة ، مع ما يثبت ذلك من النظر ، وذلك ان الله جعل اسم المؤمن اسم ثناء وتزكية ومدحة، أوجب عليه الجنة فقال : (وكان بالمؤمنين رحيماً . تحيتهم يوم يلقونه سلام واعد لهم اجراً كريماً) وقال : (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً) وقال : (وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم) وقال : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنــات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) وقال : (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) وقال: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) .

قال : ثم اوجب الله النار على الـكبائر ، فدل بذلك على ان اسم الايمــان زائل عمن اتى كبيرة . قالوا : ولم نجده اوجب الجنــة باسم الاسلام ، فثبت ان اسم الاسلام له ثابت على حاله ، واسم الايمان زائل عنه .

فان قيل لهم فى قولهم هذا : ليس الايمان ضد الـكفر ، قالوا : الـكفر ضد لأصل الايمان ، لأن للايمان أصلاً وفروعاً ، فلا يثبت الـكفر حتى يزول أصل الايمان الذي هو ضد الـكفر ، فان قيــل لهم ؛ فالذين زعمتم ان النبي صلى الله عليه وسلم أزال عنهم اسم الايمان هل فيهم من الأيمــان شيء ؟ قالوا : نعم اصله ثابت ، ولولا ذلك لـكفروا . ألم تسمع الى ابن مسعود انـكر على الذي شهد انه مؤمن ثم قال : لكنا نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، يخبرك انه قد آمن من جهة انه صدق ، وانه لا يستحق اسم المؤمن إذا كان يعلم انه مقصر ،

لأنه لا يستحق هذا الاسم عنده إلا من ادى ما وجب عليه وانتهى عما حرم عليه من الموجبات للنار التى هي الكبائر .

قالوا : فلما ابان الله ان هذا الاسم يستحقه من قد استحق الجنة ، وان الله قد اوجب الجنة عليه . وعلمنا انا قد آمنا وصدقنا ؛ لأنه لا يخرج من التصديق إلا بالتكذيب ؛ ولسنا بشاكين ولا مكذبين ؛ وعلمنا أنا عاصون له مستوجبون للعذاب وهو ضد الثواب الذي حكم الله به للمؤمنين على اسم الايمان ؛ علمنا انا قد آمنا وأمسكنا عن الاسم الذي اثبت الله عليه الحكم فى الجنة وهو من الله اسم ثناء ، وتزكية ، وقد نهانا الله ان نزكي أنفسنا ، وأمرنا بالخوف على انفسنا ، وأوجب لنا العذاب بعصياننا ، فعلمنا أنا لسنا بمستحقين بأن نتسمى مؤمنين إذ اوجب الله على اسم الايمان الثناء والتزكية والرأفة والرحمة والمغفرة والجنة ؛ وأوجب على الكبائر النار ، وهذان حكمان متضادان .

فان قيل : فكيف أمسكتم عن اسم الايمان ان تسموا به وانتم تزعمون ان اصل الايمان فى قلوبكم وهو التصديق بأن الله حق ، وما قاله صدق ؟ قالوا: إن الله ورسوله وجماهير المسلمين سموا الأشياء بما غلب عليها من الأسماء ، فسموا الزاني فاسقاً ، والقاذف فاسقاً وشارب الخمر فاسقاً ، ولم يسموا واحداً من هؤلاء متقياً ولا ورعاً ؛ وقد أجمع المسلمون ان فيه اصل التقوى والورع ، وذلك انه يتقي ان يكفر او يشرك بالله شيئاً . وكذلك يتقي الله ان يترك الغسل من الجنابة او الصلاة ، ويتقي ان يأتي امه ، فهو فى جميع ذلك متق ، وقد اجمع

المسلمون من الموافقين والمخالفين انهم لا يسمونه متقياً ولا ورعاً إذا كان يأتي بالفجور، فلما اجمعوا ان اصل التقى والورع ثابت فيه، وانه قد يزيد فيه فرعاً بعد الأصل كتورعه عن إتيان المحارم، ثم لا يسمونه متقياً ولا ورعاً مع إتيانه بعض الكبائر، بل سموه فاسقاً وفاجراً مع علمهم انه قد اتى ببعض التقى والورع، فمنعهم من ذلك ان اسم التقى اسم ثناء وتزكية، وان الله قد اوجب عليه المغفرة والجنة.

قالوا: فلذلك لا نسميه مؤمناً ونسميه فاسقاً زانياً. وان كان فى قلبه اصل اسم الايمان، لأن الايمان اسم اثنى الله به على المؤمنين وزكاهم به وأوجب عليه الجنة، فمن ثم قلنا: مسلم ولم نقل: مؤمن. قالوا: ولو كان احد من المسلمين الموحدين يستحق ان لا يكون فى قلبه ايمان ولا اسلام لكان أحق الناس بذلك اهل النار الذين دخلوها. فلما وجدنا النبي صلى الله عليه وسلم يخبر ان الله يقول: «اخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان» ثبت ان شر المسلمين فى قلبه ايمان، ولما وجدنا الأمة تحكم عليه بالأحكام التى ألزمها الله للمسلمين ولا يكفرونهم، ولا يشهدون لهم بالجنة: ثبت انهم مسلمون اذ اجمعوا ان يمضوا عليهم احكام المسلمين، وانهم لا يستحقون ان يسموا مؤمنين إذ كان الاسلام يثبت للملة التى يخرج بها الانسان من جميع الملل فتزول عنه اسماء الملل إلا اسم الاسلام وتثبت احكام الاسلام عليه وتزول عنه احكام جميع الملل.

فان قال لهم قائل : لِمَ لَمْ تقولوا : كافر ان شاء الله ، تريدون به كمال الكفر ، كما قلتم : مؤمنون ان شاء الله تريدون به كمال الايمان ؟ قالوا : لأن الكافر منكر للحق ، والمؤمن اصل إيمانه الاقرار ، والانكار لا أول له ولا آخر فتنتظر به الحقائق ، والايمان اصله التصديق ، والاقرار ينتظر به حقائق الأداء لما اقر ، والتحقيق لما صدق ؛ ومثل ذلك كمثل رجلين عليهما حق لرجل ، فسأل احدهما حقه ، فقال : ليس لك عندي حق ، فأنكر وجحد فلم يبق له منزلة يحقق بها ما قال إذا جحد وانكر ، وسأل الآخر حقه فقال : نعم لك علي كذا وكذا ، فليس اقراره بالذي يصل إليه بذلك حقه دون ان يوفيه ؛ فهو منتظر له ان يحقق ما قال بالأداء ويصدق اقراره بالوفاء . ولو أقر ثم لم يؤد اليه حقه كان كمن جحده فى المعنى اذ استويا فى الترك للأداء ، فتحقيق ما قال ان يؤدى اليه حقه ؛ فان ادى جزءاً منه حقق بعض ما قال ووفى ببعض ما اقر به . وكلما ادى جزءاً ازداد تحقيقاً لما اقر به . وعلى المؤمن الأداء أبداً بما اقر به حتى يموت . فمن ثم قلنا : مؤمن ان شاء الله ولم نقل : كافر إن شاء الله .

قال محمد بن نصر : وقالت طائفة أخرى من اصحاب الحديث بمثل مقالة هؤلاء ، إلا انهم سموه مسلماً لخروجه من ملل الكفر ولاقراره بالله ، وبما قال ولم يسموه مؤمناً . وزعموا انهم مع تسميتهم إياه بالاسلام كافر ؛ لا كافر بالله ؛ ولكن كافر من طريق العمل . وقالوا : كفر لا ينقل عن الملة ؛ وقالوا : محال ان يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »

والكفر ضد الايمان ، فلا يزول عنه اسم الايمـان إلا واسم الكفر لازم له لأن الكفرضد الايمان ، إلا ان الكفر كفران : كفر هو جحد بالله وبما قال فذاك ضده الاقرار بالله والتصديق به وبما قال ، وكفر هو عمل فهو ضدالايمان الذي هو عمل ، ألا ترى الى ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «لايؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » قالوا : فاذا لم يؤمن فقد كفر ، ولا يجوز غير ذلك الا أنه كفر من جهة العمل ، إذ لم يؤمن من جهـة العمل ، لأنه لا يضيع ما فرض عليه ويرتكب الكبائر إلا من قلة خوفه وانما يقل خوفه من قلة تعظيمه لله ووعيده ، فقد ترك من الايمـان التعظيم الذي صدر عنه الخوف والورع فأقسم النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يؤمن إذا لم يأمن جاره بوائقه .

ثم قد روى جماعة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » وانه قال : « اذا قال المسلم لأخيه : يا كافر ! فلم يكن كذلك باء بالكفر » . فقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم بقتاله أخاه كافراً وبقوله له : يا كافر ! كافراً ؛ وهـذه الكلمة دون الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر . قالوا : فأما قول من احتج علينا فزعم انا اذا سميناه كافراً لزمنا ان نحكم عليه بحكم الكافرين بالله ، فنستتيبه ونبطل الحدود عنه ؛ لأنه اذا كفر فقد زالت عنه احكام المؤمنين وحدودهم ، وفي ذلك اسقاط الحدود واحكام المؤمنين على كل من اتى كبيرة ، فانا لم نذهب فى ذلك الى حيث ذهبوا ولكنا نقول : للايمان اصل وفرع ، وضد الايمـان الكفر فى كل معنى ، فأصل الأيمـان الاقرار والتصديق، وفرعه اكمال العمل بالقلب والبدن ، فضد الاقرار والتصديق الذي

هو اصل الايمان : الكفر بالله وبما قال ، وترك التصديق به وله ، وضد الايمان الذي هو عمل ، وليس هو اقرار ، كفر ليس بكفر بالله ينقل عن الملة؛ ولكن كفر تضييع العمل ، كما كان العمل ايماناً ، وليس هو الايمان الذي هو اقرار بالله ، فلما كان من ترك الايمان الذي هو اقرار بالله كافراً ، يستتاب ومن ترك الايمان الذي هو عمل مثل الزكاة والحج والصوم ، او ترك الورع عن شرب الخمر والزنا ، قد زال عنه بعض الايمان ، ولا يجب ان يستتاب عندنا ولا عند من خالفنا من اهل السنة واهل البدع ممن قال : ان الايمان تصديق وعمل ، الا الخوارج وحدها ، فكذلك لا يجب بقولنا : كافر من جهة تضييع العمل ان يستتاب ، ولا تزول عنه الحدود ، كما لم يكن بزوال الايمان الذي هو عمل استتابة ، ولا إزالة الحدود والأحكام عنه ، اذ لم يزل اصل الايمان عنه فكذلك لا يجب علينا استتابته وازالة الحدود والأحكام عنه باثباتنا له اسم الكفر من قبل العمل ، اذ لم يأت بأصل الكفر الذي هو جحد بالله او بما قال .

قالوا : ولما كان العلم بالله ايماناً ، والجهل به كفراً ، وكان العمل بالفرائض إيماناً ، والجهل بها قبل نزولها ليس بكفر ، لأن اصحاب رسول صلى الله عليه وسلم قد اقروا بالله اول ما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم إليهم ، ولم يعلموا الفرائض التي افترضت عليهم بعد ذلك ، فلم يكن جهلهم بذلك كفراً ، ثم انزل الله عليهم الفرائض ، فكان إقرارهم بها والقيام بها ايماناً ، وانما يكفر من جحدها لتكذيبه خبر الله ؛ ولو لم يأت خبر من الله ، ما كان بجهلها كافراً

وبعد مجيء الخبر ، من لم يسمع بالخبر من المسلمين ، لم يكن بجهلها كافراً . والجهل بالله في كل حال كفر قبل الخبر وبعد الخبر .

قالوا : فمن ثم قلنا : ان ترك التصديق بالله كفر ؛ وان ترك الفرائض مع تصديق الله انه قد اوجبها كفر ؛ ليس بكفر بالله ، انما هو كفر من جهة ترك الحق كما يقول القائل : كفرتني حقي ونعمتي ، يريد ضيعت حقي وضيعت شكر نعمتي؛ قالوا : ولنا في هذا قدوة بمن روى عنهم من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين . اذ جعلوا للكفر فروعاً دون اصله ، لا ينقل صاحبه عن ملة الاسلام . كما اثبتوا للايمان من جهة العمل فروعا للأصل لا ينقل تركه عن ملة الاسلام ، من ذلك قول ابن عباس في قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . قال محمد بن نصر : حدثنا ابن يحيى ، حدثنا سفيان ابن عيينة عن هشام يعني ابن عروة عن حجير ، عن طاووس عن ابن عباس : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ليس بالكفر الذي يذهبون اليه .

حدثنا محمد بن يحيى ومحمد بن رافع ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال : سئل ابن عباس عن قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال هي به كفر ، قال ابن طاووس : وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله .

حدثنا اسحاق أنبأنا وكيع عن سفيان عن معمر عن ابن طاووس ، عن

أبيه ، عن ابن عباس قال : هو به كفر ، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبه أنبأنا وكيع عن سفيان عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال : قلت لابن عباس : (ومن لم يحكم بما انزل الله) فهو كافر . قال : هو به كفر وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله .

حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا عبد الرزاق عن سفيان عن رجل عن طاووس عن ابن عباس قال : كفر لا ينقل عن الملة .

حدثنا اسحاق انبأنا وكيع عن سفيان عن سعيد المكي عن طاووس قال ليس بكفر ينقل عن الملة .

حدثنا اسحاق انبأنا وكيع عن سفيان عن ابن جريج عن عطاء قال : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

قال محمد بن نصر : قالوا : وقد صدق عطاء ، قد يسمى الكافر ظالماً ويسمى العاصي من المسلمين ظالماً ، فظلم ينقل عن ملة الاسلام ، وظلم لا ينقل . قال الله تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) وقال : (ان الشرك لظلم عظيم) وذكر حديث ابن مسعود المتفق عليه قال: لما نزلت : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بذلك . الم تسمعوا الى قول العبد الصالح : (ان الشرك لظلم عظيم) انما هو الشرك .

حدثنا محمد بن يحيى حدثنا الحجاج بن المنهال عن حماد بن سلمة عن علي ابن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس ان عمر بن الخطاب كان إذ ادخل بيته نشر المصحف فقرأ فيه ، فدخل ذات يوم فقرأ ، فأتى على هـذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) الى آخر الآية ، فانتعل واخذ رداءه ثم اتى الى ابي بن كعب فقال : يا با المنذر اتيت قبل على هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) وقد نرى انا نظلم ونفعل . فقال : يا امير المؤمنين ان هذا ليس بذلك ، يقول الله : (ان الشرك لظلم عظيم) انما ذلك الشرك .

قال محمد بن نصر : وكذلك « الفسق فسقان » : فسق ينقل عن الملة وفسق لا ينقل عن الملة فيسمى الكافر فاسقاً ، والفاسق من المسلمين فاسقاً ، ذكر الله إبليس فقال : (ففسق عن امر ربه) وكان ذلك الفسق منه كفراً ، وقال الله تعالى : (واما الذين فسقوا فمأواهم النار) يريد الكفار ، دل على ذلك قوله : (كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها ، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) وسمي الفاسق من المسلمين فاسقا ولم يخرجه من الاسلام . قال الله تعالى : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً وأولئك هم الفاسقون) وقال تعالى : (فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) فقالت العلماء فى تفسير الفسوق ها هنا : هي المعاصي .

قالوا : فلما كان الظلم ظلمين والفسق فسقين ، كذلك الكفر كفران :

(احدهما) ينقل عن الملة ، و (الآخر) لا ينقل عن الملة ، وكذلك الشرك « شركان » : شرك في التوحيد ينقل عن الملة ، وشرك في العمل لا ينقل عن الملة وهو الرياء قال تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه احداً) يريد بذلك المراءاة بالأعمال الصالحة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الطيرة شرك » .

قال محمد بن نصر : فهذان مذهبان هما في الجملة محكيان عن احمد بن حنبل في موافقيه من اصحاب الحديث ، حكى الشالنجي إسماعيل بن سعيد انه سأل احمد ابن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهده إلا انه لم يترك الصلاة والزكاة والصيام ، هل يكون مصراً من كانت هذه حاله ؟ قال : هو مصر ، مثل قوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » . يخرج من الايمان ويقع في الاسلام ، ومن نحو قوله : «لايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولايسرق حين يسرق وهو مؤمن » ومن نحو قول ابن عباس في قوله : (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون) فقلت له : ما هذا الكفر ؟ فقال : كفر لا ينقل عن الملة ، مثل الايمان بعضه دون بعض ، وكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك امر لا يختلف فيه . وقال ابن ابي شيبة : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن : لا يكون مستكمل الايمان ، يكون ناقصاً من إيمانه قال : وسألت احمد بن حنبل عن « الاسلام ، والايمان » فقال : الايمان قول وعمل ، والاسلام إقرار . قال : وبه قال ابو خيثمة ، وقال ابن ابي شيبة لا يكون الاسلام الا بايمان ، ولا ايمان الا باسلام .

«قلت» : وقد تقدم تمام الكلام بتلازمهما وان كان مسمى احدهما ليس هو مسمى الآخر . وقد حكى غير واحد اجماع اهل السنة والحديث على ان الايمان قول وعمل . قال ابو عمر بن عبد البر فى «التمهيد» : اجمع اهل الفقه والحديث على ان الايمان قول وعمل ، ولا عمل الا بنية ، والايمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . والطاعات كلها عندهم ايمان الاما ذكر عن ابى حنيفة واصحابه فانهم ذهبوا الى ان الطاعة لاتسمى ايماناً قالوا انما الايمان التصديق والاقرار . ومنهم من زاد المعرفة وذكر ما احتجوا به ... الى ان قال :

وأما سائر الفقهاء من أهل الرأى والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر منهم مالك بن انس ، والليث بن سعد ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي والشافعي واحمد بن حنبل ، واسحاق بن راهويه ، وابو عبيد القاسم بن سلام ، وداود ابن على والطبري ومن سلك سبيلهم ؛ فقالوا : الايمان قول وعمل ، قول باللسان وهو الاقرار واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الاخلاص بالنية الصادقة . قالوا : وكل ما يطاع الله عز وجل به من فريضة ونافلة فهو من الايمان ، والايمان يزيد بالطاعات ، وينقص بالمعاصي واهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكملي الايمان من أجل ذنوبهم ، وانما صاروا ناقصي الايمان بارتكابهم الكبائر . ألا ترى الى قول النبي صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ... الحديث يريد مستكمل الايمان ، ولم يرد به نفي جميع الايمان عن فاعل ذلك ، بدليل الاجماع على توريث الزاني والسارق وشارب الخمر إذا صلوا الى القبلة وانتحلوا دعوة الاسلام ، من قراباتهم المؤمنين الذين ليسوا

بتلك الأحوال ، واحتج على ذلك ؛ ثم قال : واكثر اصحاب مالك على أن الايمان والاسلام شيء واحد.

قال : واما قول المعتزلة . فالايمان عندهم جماع الطاعات ، ومن قصر منها عن شيء فهو فاسق : لا مؤمن ولا كافر ، وهؤلاء هم المتحققون بالاعتزال اصحاب المنزلة بين المنزلتين . . . الى ان قال: وعلى ان الايمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وعليه جماعة اهل الآثار : والفقهاء من اهل الفتيا فى الأمصار وروى ابن القاسم عن مالك ان الايمان يزيد وتوقف فى نقصانه. وروى عنه عبد الرزاق ومعن بن عيسى وابن نافع انه يزيد وينقص : وعلى هذا مذهب الجماعة من اهل الحديث ، والحمد لله .

ثم ذكر حجج المرجئة ؛ ثم حجج اهل السنة ، ورد على الخوارج التكفير بالحدود المذكورة للعصاة فى الزنا والسرقة ، ونحو ذلك . وبالموارثة وبحديث عبادة : « من اصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة » وقال : الايمان مراتب بعضها فوق بعض ؛ فليس ناقص الايمان كـكامل الإيمان . قال الله تعالى : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) اي حقاً . ولذلك قال : (هم المؤمنون حقاً) وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن من امنه الناس ؛ والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ـ يعنى حقاً ـ ومن هذا قوله : « اكمل المؤمنين إيماناً » . ومعلوم ان هذا لا يكون اكمل حتى يكون غيره انقص !

وقوله : «اوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله » . وقوله : « لا إيمان لمن لا امانة له » يدل على ان بعض الايمان اوثق وا كمل من بعض وذكر الحديث الذى رواه الترمذى وغيره : « من احب لله وابغض لله » الحديث . وكذلك ذكر ابو عمرو الطلمنكي اجماع اهل السنة على ان الأيمان قول وعمل ونية واصابة السنة . وقال ابو طالب المكي : مباني الاسلام الخمسة : يعنى الشهادتين : والصلوات الخمس ؛ والزكاة وصيام شهر رمضان ؛ والحج . قال واركان الايمان سبعة : يعنى الخمسة المذكورة فى حديث جبرائيل ، والايمان بالقدر ؛ والايمان بالجنة والنار ، وكلاهما قد رويت فى حديث جبريل كما سنذكر ان شاء الله تعالى .

قال : والايمان بأسماء الله تعالى وصفاته ؛ والايمان بكتب الله وانبيائه، والايمان بالملائكة والشياطين ؛ يعنى — والله اعلم — الايمان بالفرق بينهما ؛ فان من الناس من يجعلهما جنساً واحداً ؛ لكن تختلف باختلاف الأعمال ، كما يختلف الانسان البر والفاجر ، والايمان بالجنة والنار ؛ وانهما قد خلقتا قبل آدم . والايمان بالبعث بعد الموت ، والايمان بجميع اقدار الله خيرها وشرها وحلوها ومرها ؛ انها من الله قضاء وقدراً ومشيئة وحكما ، وان ذلك عدل منه وحكمة بالغة ؛ استأثر بعلم غيبها ومعنى حقائقها .

قال : وقد قال قائلون : إن الايمان هو الاسلام ، وهذا قد اذهب التفاوت والمقامات ، وهذا يقرب من مذهب المرجئة : وقال آخرون : ان

الاسلام غير الايمـان وهؤلاء قد ادخلوا التضاد والتغـاير ، وهذا قريب من قول الأباضية ؛ فهذه مسألة مشكلة تحتاج إلى شرح وتفصيل ، فمثل الاسـلام من الايمـان ، كمثل الشهادتين احداهما من الأخرى فى المعنى والحـكم ، فشهادة الرسول غير شهادة الوحدانية ، فهما شيئان فى الأعيان . واحـداهما مرتبطة بالأخرى فى المعنى والحـكم كشيء واحد ، كذلك الايمان والاسلام احدهما مرتبط بالآخر ، فهما كشيء واحد ، لا ايمان لمن لا اسلام له ؛ ولا اسلام لمن لا ايمان له اذ لا يخلو المسلم من ايمان به يصح اسلامه ، ولا يخلو المؤمن من اسـلام به يحقق ايمانه من حيث اشترط الله للأعمال الصالحة الايمان ؛ واشترط للايمـان الأعمال الصالحة فقال في تحقيق ذلك (فمن يعمل من الصـالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه) وقال فى تحقيق الايمان بالعمل : (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) فمن كان ظاهره اعمال الاسلام ولا يرجع الى عقود الايمان بالغيب فهو منافق نفاقاً ينقل عن الملة ومن كان عقده الايمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الايمان وشرائع الاسلام فهو كافر كفراً لا يثبت معه توحيد ؛ ومن كان مؤمناً بالغيب مما اخبرت به الرسـل عن الله عاملاً بما امر الله فهو مؤمن مسلم ؛ ولولا انه كذلك لـكان المؤمن يجوز ان لا يسمى مسلماً ؛ ولجاز ان المسلم لا يسمى مؤمناً بالله .

وقد اجمع اهل القبـلة على ان كل مؤمن مسلم ؛ وكل مسـلم مؤمن بالله وملائكته وكتبه قال : ومثل الايمان فى الأعمال كمثل القلب في الجسم لا ينفك احدهما عن الآخر ؛ لا يكون ذو جسم حي لا قلب له ؛ ولا ذو قلب بغـير

جسم ؛ فهما شيئان منفردان ؛ وهما فى الحكم والمعنى منفصلان ؛ ومثلهما ايضاً مثل حبة لها ظاهر وباطن وهي واحدة . لا يقال : حبتان : لتفاوت صفتهما . فكذلك اعمال الاسلام من الاسلام هو ظاهر الايمان ؛ وهو من اعمال الجوارح . والايمان باطن الاسلام وهو من اعمال القلوب .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الاسلام علانية ؛ والايمان فى القلب»: وفى لفظ : «الايمان سر» فالاسلام اعمال الايمان ؛ والايمان عقود الاسلام : فلا ايمان الا بعمل ؛ ولا عمل الا بعقد . ومثل ذلك مثل العمل الظاهر والباطن : احدهما مرتبط بصاحبه من اعمال القلوب وعمل الجوارح ؛ ومثله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «انما الأعمال بالنيات» اى لا عمل الا بعقد وقصد . لأن « إنما » تحقيق للشيء ونفى لما سواه ؛ فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات ؛ وعمل القلوب من النيات ؛ فمثل العمل من الايمان كمثل الشفتين من اللسان لا يصح الكلام الا بهما ؛ لان الشفتين تجمع الحروف؛ واللسان يظهر الكلام : وفى سقوط احدهما بطلان الكلام ؛ وكذلك فى سقوط العمل ذهاب الايمان ؛ ولذلك حين عدد الله نعمه على الانسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان فى قوله : (الم نجعل له عينين ولساناً وشفتين) بمعنى الم نجعله ناظراً متكلما ؛ فعبر عن الكلام باللسان والشفتين لأنهما مكان له وذكر الشفتين ؛ لان الكلام الذي جرت به النعمة لا يتم الا بهما .

ومثل «الايمان» و« الاسلام » ايضاً كفسطاط قائم فى الأرض له ظاهر

واطناب وله عمود فى باطنه . فالفسطاط مثل الاسلام له اركان من أعمال العلانية والجوارح ، وهي الأطناب التى تمسك ارجاء الفسطاط والعمود الذي فى وسط الفسطاط . مثله كالايمان لا قوام للفسطاط الا به . فقد احتاج الفسطاط اليها ، إذ لا قوام له ولا قوة الا بهما ، كذلك الاسلام في اعمال الجوارح لا قوام له إلا بالايمان ، والايمان من اعمال القلوب لا نفع له الا بالاسلام ، وهو صالح الأعمال .

و « أيضاً » فان الله قد جعل ضد الاسلام والايمان واحداً . فلو لا انهما كشيء واحد فى الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحداً فقال : (كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم) وقال : (أيأمركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون) . فجعل ضدهما الكفر . قال : وعلى مثل هذا اخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان . والاسلام من صنف واحد ؛ فقال فى حديث ابن عمر : « بنى الاسلام على خمس » وقال فى حديث ابن عباس عن وفد عبد القيس أنهم سألوه عن الايمان فذكر هذه الأوصاف ، فدل بذلك على انه لا ايمان باطن الا باسلام ظاهر ولا اسلام ظاهر علانية الا بايمان سر ، وان الايمان والعمل ، قرينان لا ينفع احدهما بدون صاحبه .

قال : فأما تفرقة النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل بين الايمان والاسلام فان ذلك تفصيل اعمال القلوب وعقودها على ما توجب هذه المعانى التى وصفناها أن تكون عقوداً من تفصيل اعمال الجوارح مما يوجب الافعال

الظاهرة التى وصفها أن تكون علانية ، لا أن ذلك يفرق بين الأسلام والايمان فى المعنى باختلاف وتضاد ، ليس فيه دليل أنهما مختلفان فى الحكم ، قال : ويجتمعان فى عبد واحد مسلم مؤمن ، فيكون ما ذكره من عقود القلب وصف قلبه ، وما ذكره من العلانية وصف جسمه .

قال : و « أيضاً » فان الأمة مجتمعة ان العبد لو آمن بجميع ما ذكره من عقود القلب في حديث جبريل من وصف الايمان ولم يعمل بما ذكره من وصف الاسلام انه لا يسمي مؤمناً ، وانه إن عمل بجميع ما وصف به الاسلام ثم لم يعتقد ما وصفه من الايمان انه لا يكون مسلماً ، وقد اخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الأمة لا تجتمع على ضلالة .

قلت : كأنه اراد بذلك إجماع الصحابة ومن اتبعهم ، او انه لا يسمي مؤمناً فى الأحكام ، وانه لا يكون مسلماً إذا انكر بعض هذه الأركان ، او علم ان الرسول اخبر بها ولم يصدقه ، او انه لم ير خلاف اهل الأهواء خلافاً ؛ وإلا فأبو طالب كان عارفاً بأقوالهم ، وهذا — والله اعلم — مراده ، فانه عقد « الفصل الثالث والثلاثين » فى بيان تفصيل الاسلام والايمان ، وشرح عقود معاملة القلب من مذهب اهل الجماعة ، وهذا الذى قاله اجود مما قاله كثير من الناس ، لكن ينازع فى شيئين .

(احدها) : ان المسلم المستحق للثواب لا بد ان يكون معه الايمان الواجب المفصل المذكور فى حديث جبريل .

و (الثـانى) : ان النبى صلى الله عليه وسلم انما يطلق مؤمناً دون مسلم فى مثل قول النبي صلى الله عليه وسـلم : « او مسلم » لكونه ليس من خواص المؤمنين وافاضلهم ، كأنه يقول : لكونه ليس من الســابقين المقربين بل من المقتصدين الأبرار ، فهذان مما تنازع فيهما جمهور العلمـاء ، ويقولون : لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك الرجل « او مسـلم » لكونه لم يكن من خواص المؤمنين وافاضلهم كالسابقين ، المقربين ، فان هذا لو كان كذلك لكان ينفي الايمان المطلق عن الأبرار المقتصدين المتقين الموعودين بالجنة بلا عذاب إذا كانوا من اصحاب اليمين ، ولم يكونوا من السابقين والمقربين ؛ وليس الأمر كذلك ، بل كلٌ من اصحـاب اليمين مع الســابقين المقربين ، كلهم مؤمنون موعودون بالجنة بلا عذاب، وكل من كان كذلك فهو [مؤمن] باتفاق المسلمين من اهل السنة،واهل البدع؛ولو جاز ان ينفى الايمان عن شخص لكون غيره افضل منه إيماناً نفي الايمان عن اكثر اولياء الله المتقين ، بل وعن كثير من الأنبياء ، وهذا فى غاية الفساد ، وهذا من جنس قول من يقول : نفي الاسم لنفي كماله المستحب .

وقد ذكرنا ان مثل هذا لا يوجد في كلام الله ورسوله ؛ بل هذا الحديث خص من قيل فيه مسلم وليس بمؤمن ، فلا بد ان يكون ناقصاً عن درجة الأبرار المقتصدين اهل الجنة ، ويكون إيمانه ناقصاً عن إيمان هؤلاء كلهم ، فلا يكون قد اتى بالايمان الذي امر به هؤلاء كله ، ثم إن كان قادراً على ذلك الايمان وترك الواجب ، كان مستحقاً للذم ، وان قدر أنه لايقدر على ذلك الايمان الذي اتصف به هؤلاء ، كان عاجزاً عن مثل إيمـانهم ، ولا يكون هذا وجب عليه ، فهو وان

دخل الجنة لا يكون كمن قدر انه آمن إيمـاناً مجملاً ومات قبل ان يعلم تفصيل الايمان وقبل ان يتحقق به ويعمل بشيء منه ، فهو يدخل الجنة ، لكن لا يكون مثل اولئك .

لكن قد يقال : الأبرار اهل اليمين هم ايضاً على درجات ، كما فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » وقد قال الله تعالى : (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير اولى الضرر) الآية فدرجة المؤمن القوي فى الجنة اعلى وإن كان كل منهما كمل ما وجب عليه ، وقد يريد ابو طالب وغيره بقولهم : ليس هذا من خواص المؤمنين هذا المعنى : اي ليس ايمانه كايمان من حقق خاصة الايمان سواء كان من الأبرار او من المقربين ، وان لم يكن ترك واجباً لعجزه عنه او لكونه لم يؤمر به ، فلا يكون مذموماً ، ولا يمدح مدح اولئك ، ولا يلزم أن يكون من اولئك المقربين .

فيقال : وهذا ايضاً لا ينفي عنه الايمان . فيقال : هو مسلم لا مؤمن ، كما يقال : ليس بعالم ولا مفت ، ولا من اهل الاجتهـاد ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لو انفق احدكم مثل احد ذهباً ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه » وهذا كثير ، فليس كل ما فضل به الفاضل يكون مقدوراً لمن دونه ، فـكذلك من حقائق الايمان ما لا يقدر عليه كثير من النـاس ، بل ولا أكثرهم ، فهؤلاء يدخلون الجنة ، وان لم يكونوا ممن تحققوا بحقائق الايمان التى فضل الله بها غيرهم ، ولا تركوا واجباً عليهم وان كان واجباً على غيرهم ، ولهذا كان من الايمان

ما هو من المواهب والفضل من الله فانه من جنس العلم . والاسلام الظاهر من جنس العمل ؛ وقد قال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) : وقال : (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) وقال : (هو الذي انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع ايمانهم) .

ومثل هذه السكينة قد لا تكون مقدورة ؛ ولكن الله يجعل ذلك فى قلبه فضلاً منه وجزاء على عمل سابق ، كما قال : (ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً : وإذاً لآتيناهم من لدنا اجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً) كما قال : (اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به) وكما قال : (اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه)ولهذا قيل : من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم؛ وهذا الجنس غير مقدور للعباد ؛ وإن كان ما يقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو ايضاً بفضل الله وإعانته وإقداره لهم ؛ لكن الأمور قسمان : منه ما جنسه مقدور لهم لاعانة الله لهم ، كالقيام والقعود ، ومنه ما جنسه غير مقدور لهم ؛ اذا قيل : إن الله يعطي من اطاعه قوة فى قلبه وبدنه يكون بها قادراً على مالا يقدر عليه غيره فهذا ايضاً حق وهو من جنس هذا المغنى . قال تعالى : (اذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا) وقد قال : (اذا لقيتم فئة فاثبتوا) فأمرهم بالثبات وهذا الثبات يوحي الى الملائكة أنهم يفعلونه بالمؤمنين .

والمقصود أنه قد يكون من الايمان مايؤمر به بعض الناس ويذم على تركه ، ولا يذم عليه بعض الناس ممن لا يقدر عليه . ويفضل الله ذاك بهذا الايمان ، وإن لم يكن المفضول ترك واجباً ، فيقال : وكذلك فى الأعمال الظاهرة يؤمر القادر على الفعل بما لا يؤمر به العاجز عنه ، ويؤمر بعض الناس بما لا يؤمر به غيره ؛ لكن الأعمال الظاهرة قد يعطى الانسان مثل أجر العامل إذا كان يؤمن بها ويريدها جهده ، ولكن بدنه عاجز كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « وهم بالمدينة حبسهم العذر » . وكما قال تعالى : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم ؛ فضل الله المجاهدين باموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) فاستثنى أولى الضرر .

وفى « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل اجور من اتبعه من غير ان ينقص من اجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوز مثل اوزار من اتبعه من غير ان ينقص من أوزارهم شيئاً » . وفي حديث أبى كبشة الأنماري : « هما في الاجر سواء ، وهما فى الوزر سواء » ، رواه الترمذي وصححه ولفظه : « إنما الدنيا لأربعة : رجل آتاه الله علماً ومالاً فهو يتقى فى ذلك المال ربه ، ويصل فيه رحمة ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية ، يقول : لو ان لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته ، فأجرهما سواء ، وعبد

رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقـاً، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو ان لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته، فوزرهما سواء».

ولفظ ابن ماجه: «مثل هذه الامة كمثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلماً فهو يعمل بعلمه فى ماله ينفقه فى حقه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فهو يقول: لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل». قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فهما فى الاجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً، فهو يختبط فى ماله ينفقه فى غير حقه، ورجل لم يؤته علماً ولا مالا وهو يقول: لو كان لى مثل مال هذا عملت مثل الذي يعمل، فهما فى الوزر سواء».

كالشخصين إذا تماثلا فى ايمان القلوب معرفة وتصديقاً وحباً وقوة وحالا ومقاماً، فقد يتماثلان، وإن كان لاحدهما من اعمال البدن ما يعجز عنه بدن الآخر، كما جاء فى الأثر: ان المؤمن قوته فى قلبه وضعفه فى جسمه، والمنافق قوته في جسمه وضعفه في قلبه، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «ليس الشديد ذو الصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» وقد قال: «رأيت كأني انزع على قليب، فأخذها ابن ابى قحافة، فنزع ذنوباً او ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له، فأخذها ابن الخطاب فاستحالت في

يده غرباً . فلم ار عبقرياً يفري فريه حتى صدر الناس بعطن» ، فذكر ان ابا بكر اضعف . وسواء اراد قصر مدته او اراد ضعفه عن مثل قوة عمر ، فلا ريب ان ابا بكر اقوى ايماناً من عمر . وعمر اقوى عملاً منه كما قال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ اسلم عمر : وقوة الايمان اقوى واكمل من قوة العمل ، وصاحب الايمان يكتب له اجر عمل غيره ، وما فعله عمر فى سيرته مكتوب مثله لأبى بكر فانه هو الذي استخلفه .

وفى «المسند» من وجهين عن النبى صلى الله عليه وسلم ان النبى صلى الله عليه وسلم وزن بالأمة فرجح ، ثم وزن ابو بكر بالأمة فرجح ، ثم وزن عمر بالأمة فرجح ، وكان فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وبعد موته يحصل لعمر بسبب ابي بكر من الايمان والعلم مالم يكن عنده ، فهو قد دعاه الى ما فعله من خير واعانه عليه بجهده ، والمعين على الفعل اذا كان يريده ارادة جازمة كان كفاعله ، كما ثبت فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « من جهز غازياً فقد غزا ، ومن خلفه فى اهله بخير فقد غزا » وقال : « من دل على خير فله مثل اجر فاعله » وقال : « من فطر صائماً فله مثل اجره » .

وقد روي الترمذي « من عزى مصاباً فله مثل اجره » وهذا وغيره مما يبين ان الشخصين قد يتماثلان فى الأعمال الظاهرة ، بل يتفاضلان ويكون المفضول فيها افضل عند الله من الآخر ، لأنه افضل فى الايمان الذي فى القلب ، واما اذا تفاضلا فى ايمان القلوب فلا يكون المفضول فيها افضل عند الله البتة ،

وان كان المفضول لم يهبه الله من الايمان ما وهبه للفاضل ، ولا اعطي قلبه من الأسباب التى بها ينال ذلك الايمان الفاضل ما اعطى المفضول . ولهذا فضل الله بعض النبيين على بعض ، وان كان الفاضل اقل عملاً من المفضول . كما فضل الله نبينا صلى الله عليه وسلم — ومدة نبوته بضع وعشرون سنة — على نوح وقد لبث فى قومه الف سنة الا خمسين عاماً . وفضل امة محمد وقد عملوا من صلاة العصر الى المغرب على من عمل من اول النهار الى صلاة الظهر ، وعلى من عمل من صلاة الظهر الى العصر . فأعطى الله امة محمد اجرين ، واعطى كلا من اولئك اجراً اجراً ، لأن الايمان الذي فى قلوبهم كان اكمل وافضل . وكان اولئك اكثر عملاً ؛ وهؤلاء اعظم اجراً ، وهو فضله يؤتيه من يشاء بالأسباب التى تفضل بها عليهم وخصهم بها .

وهكذا سائر من يفضله الله تعالى ، فانه يفضله بالأسباب التى يستحق بها التفضيل بالجزاء ، كما يخص احد الشخصين بقوة ينال بها العلم ، وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والاخلاص ؛ وغير ذلك مما يفضله الله به ، وانما فضله في الجزاء بما فضل به من الايمان . كما قال تعالى : (وقالت طائفة من اهل الكتاب آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم . قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى احد مثل ما اوتيتم او يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله) وقال فى الآية الأخرى : (الله اعلم حيث يجعل رسالته) وقال : (الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس) وقال : (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) .

وقد بين في مواضع اسباب المغفرة واسباب العذاب ، وكذلك يرزق من يشاء بغير حساب ، وقد عرف انه قد يخص من يشاء بأسباب الرزق .

وإذا كان من الايمان ما يعجز عنه كثير من الناس ويختص الله به من يشاء فذلك مما يفضلهم الله به ، وذلك الايمان ينفي عن غيرهم ، لكن لا على وجه الذم بل على وجه التفضيل ، فان الذم انما يكون على ترك مأمور او فعل محظور . لكن على ما ذكره ابو طالب . يقال : فمثل هؤلاء مسلمون لا مؤمنون باعتبار ويقال : إنهم مؤمنون باعتبار آخر ، وعلى هذا ينفي الايمان عمن فاته الكمال المستحب ؛ بل الكمال الذي يفضل به على من فاته ، وإن كان غير مقدور للعباد بل ينفى عنه الكمال الذي وجب على غيره ، وان لم يكن في حقه لا واجباً ولا مستحباً ، لكن هذا لا يعرف فى كلام الشارع ، ولم يعرف في كلامه إلا ان نفي الايمان يقتضي الذم حيث كان ، فلا ينفي الا عمن له ذنب ، فتبين ان قوله : « او مسلم » توقف فى اداء الواجبات الباطنة والظاهرة كما قال جماهير الناس .

ثم طائفة يقولون : قد يكون منافقاً ليس معه شيء من الايمان ، وهم الذين يقولون : الأعراب المذكورون منافقون ليس معهم من الايمان شيء ، وهذا هو القول الذي نصره طائفة ، كمحمد بن نصر ، والأكثرون يقولون : بل هؤلاء لم يكونوا من المنافقين الذين لا يقبل منهم شيء من اعمالهم ، وان كان فيهم شعبة نفاق ؛ بل كان معهم تصديق يقبل معه منهم ما عملوه لله ، ولهذا جعلهم مسلمين ؛ ولهذا قال : (أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين) كما

قالوا مثل ذلك في الزاني والسارق وغيرها ممن نفى عنه الايمان ، مع ان معه التصديق . وهذا أصح الأقوال الثلاثة فيهم .

وأبو طالب جعل من كان مذموماً لترك واجب ، من المؤلفة قلوبهم الذين لم يعطوا شيئاً ، وجعل ذلك الشخص مؤمناً غيره افضل منه . واما الأكثرون فيقولون : إثبات الاسلام لهم دون الايمان كاثباته لذلك الشخص كان مسلماً لا مؤمناً كلاهما مذموم ، لا لمجرد ان غيره افضل منه . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» ولم يسلب عمن دونه الايمان . وقال تعالى : (لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل ، اولئك اعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى) .

فأثبت الايمان للفاضل والمفضول ، وهذا متفق عليه بين المسلمين . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وان اجتهد فأخطأ فله اجر » وقال لسعد بن معاذ لما حكم في بني قريظة : « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة » وكان يقول لمن يرسله في جيش او سرية : « إذا حاصرت اهل حصن فسألوك ان تنزلهم على حكم الله ، فلاتنزلهم على حكم الله ، فانك لا تدري ما حكم الله فيهم ؛ ولكن أنزلهم على حكمك وحكم اصحابك » . وهذه الأحاديث الثلاثة في « الصحيح » وفي حديث سليمان عليه السلام : واسألك حكماً يوافق حكمك .

فهذه النصوص وغيرها تدل على ما اتفق عليه الصحابة والتابعون لهم

باحسان ان أحد الشخصين قد يخصه الله باجتهاد يحصل له به من العلم ما يعجز عنه غيره فيكون له أجران . وذلك الآخر عاجز له اجر ولا إثم عليه ؛ وذلك العلم الذي خص به هذا . والعمل به باطناً ، وظاهراً زيادة فى إيمانه ، وهو ايمان يجب عليه . لأنه قادر عليه . وغيره عاجز عنه فلا يجب . فهذا قد فضل بايمان واجب عليه وليس بواجب على من عجز عنه .

وهذا حال جميع الأمة فيما تنازعت فيــه من المسائل الخبرية والعملية إذا خص أحدهما بمعرفة الحق فى نفس الأمر مع اجتهاد الآخر وعجزه ، كلاهما محمود مثاب مؤمن ، وذلك خصه الله من الايمان الذي وجب عليه بما فضله به على هذا ؛ وذلك المخطيء لا يستحق ذماً ولاعقاباً ، وإن كان ذاك لو فعل مافعل ذم وعوقب ، كما خص الله أمة نبينا بشريعة فضلها به ، ولو تركنا مما أمرنا به فيها شيئاً ، لـكان ذلك سبباً للذم والعقاب ؛ والأنبيــاء قبلنا لا يذمون بترك ذلك لكن محمد صلى الله عليه وسلم فضله الله على الأنبياء وفضل امته على الأمم من غير ذم لأحد من الأنبياء ، ولا لمن اتبعهم من الأمم .

وأيضاً فاذا كان الانسان لا يجب عليه شيء من الايمان إلا ما يقدر عليه وهو إذا فعل ذلك كان مستحقاً لـما وعد الله به من الجنة ، فلو كان مثل هذا يسمى مسلماً ولا يسمى مؤمناً لوجب ان يكون من اهل الوعد بالجنة من يسمى مسلماً لا مؤمناً كالأعراب ، وكالشخص الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « او مسلم » وكسائر من نفي عنه الايمان مع أنه مسـلم ، كالزاني ، والشارب

والسارق ، ومن لا يأمن جاره بوائقه ، ومن لا يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه ؛ وغير هؤلاء ، وليس الأمر كذلك.

فان الله لم يعلق وعد الجنة إلا باسم الايمان ، لم يعلقه باسم الاسلام مع ايجابه الاسلام وإخباره انه دينه الذي ارتضاه ؛ وانه لا يقبل ديناً غيره ، ومع هذا فما قال : إن الجنة اعدت للمسلمين ، ولا قال : وعد الله المسلمين بالجنة ، بل إنما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار) فهو يعلقها باسم الايمان المطلق ، او المقيد بالعمل الصالح ،كقوله : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية ؛ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار) وقوله : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل) وقوله : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقوله : (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله) وقوله : (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً) وقوله : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ابداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً) وفي الآية الأخرى : (ومن اصدق من الله قيلا) وقال : (واما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم والله لا يحب الظالمين) وقال : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) وقال : (فمن آمن واصلح

فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون)وقال: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفساً إلا وسعها اولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) والآيات فى هذا المعنى كثيرة .

فالوعد بالجنة والرحمة فى الآخرة ، وبالسلامة من العذاب ، علق باسم الايمان المطلق ، والمقيد بالعمل الصالح ، ونحو ذلك ؛ وهذا كما تقدم ان المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ، ولم يعلق باسم الاسلام . فلو كان من اتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلماً لا مؤمناً ، لكان من اهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلماً وان لم يسم مؤمناً ، وليس الامر كذلك ، بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان ، وهذا ايضاً مما استدل بهمن قال: إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة ، إذ لو كان الامر كذلك لكان وعد الجنةمعلقاً باسم الأسلام ، كما علق باسم الايمان وكما علق باسم «التقوى»واسم «البر» فى مثل قوله : (ان المتقين فى جنات ونهر) وقوله : (ان الابرار لفي نعيم) وباسم اولياء الله ، كقوله : (الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانو يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) فلما لم يجر اسم الاسلام هذا المجرى ، علم ان مسماه ليس ملازما لمسمى الايمان كما يلازمه اسم البر والتقوى واولياء الله ، وان اسم الاسلام يتناول من هو من اهل الوعيد وإن كان الله يثيبه على طاعته ، مثل ان يكون فى قلبه ايمان ، ونفاق يستحق به العذاب ، فهذا يعاقبه الله ولا يخلده فى النار ؛ لان فى قلبه مثقال ذرة او اكثر من مثقال ذرة من ايمان .

وهكذا سائر اهل الكبائر ايمانهم ناقص ، وإذا كان في قلب احدهم شعبة نفاق عوقب بها اذا لم يعف الله عنه ، ولم يخلد فى النار ، فهؤلاء مسلمون وليسوا مؤمنين ومعهم ايمان . لكن معهم إيضاً ما يخالف الايمان من النفاق ، فلم تكن تسميتهم مؤمنين بأولى من تسميتهم منافقين ، لا سيما ان كانوا للكفر اقرب منهم للايمان ، وهؤلاء يدخلون فى اسم الايمان فى احكام الدنيا . كما يدخل المنافق المحض واولى ؛ لأن هؤلاء معهم ايمان يدخلون به فى خطاب الله بـ (ياأيها الذين آمنوا) ، لان ذلك امر لهم بما ينفعهم ونهي لهم عما يضرهم ، وهم محتاجون الى ذلك ، ثم ان الايمان الذي معهم ان اقتضى شمول لفظ الخطاب لهم فلا كلام ، والا فليسوا بأسوأ حالاً من المنافق المحض ، وذلك المنافق يخاطب بهذه الاعمال وتنفعه فى الدنيا ويحشر بها مع المؤمنين يوم القيامة ، ويتميز بها عن سائر الملل يوم القيامة كما تميز عنهم بها فى الدنيا ، لكن وقت الحقيقة يضرب (بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الاماني . حتى جاء امر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير) وقد قال تعالى : (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين اجراً عظيماً) .

فاذا عمل العبد صالحاً لله : فهذا هو الاسلام الذي هو دين الله ، ويكون

معه من الايمان ما يحشر به مع المؤمنين يوم القيامة ؛ ثم ان كان معه من الذنوب ما يعذب به عذب واخرج من النار ؛ اذا كان فى قلبه مثقال حبة خردل من ايمان وان كان معه نفاق ؛ ولهذا قال تعالى فى هؤلاء : (فأولئك مع المؤمنين، وسوف يؤتى الله المؤمنين اجراً عظيماً) فلم يقل : انهم مؤمنون بمجرد هذا ، اذ لم يذكر الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، بل هم معهم ، وانما ذكر العمل الصالح واخلاصه لله . وقال : (فأولئك مع المؤمنين) فيكون لهم حكمهم .

وقد بين تفاضل المؤمنين فى مواضع أخر . وانه من اتى بالايمان الواجب استحق الثواب . ومن كان فيه شعبة نفاق واتى بالكبائر ، فذاك من اهل الوعيد، وايمانه ينفعه الله به ؛ ويخرجه به من النار ولو انه مثقال حبة خردل لكن لا يستحق به الاسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب . وتمام هذا ان الناس قد يكون فيهم من معه شعبة من شعب الايمان ، وشعبة من شعب الكفر او النفاق ، ويسمى مسلماً ، كما نص عليه احمد .

وتمام هذا ان الانسان قد يكون فيه شعبة من شعب الايمان ، وشعبة من شعب النفاق ؛ وقد يكون مسلما وفيه كفر دون الكفر الذي ينقل عن الاسلام بالكلية ، كما قال الصحابة : ابن عباس وغيره : كفر دون كفر . وهذا قول عامة السلف ، وهو الذي نص عليه احمد وغيره ممن قال فى السارق ، والشارب ، ونحوهم ممن قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : «انه ليس بمؤمن» . انه يقال لهم : مسلمون لا مؤمنون ؛ واستدلوا بالقرآن والسنة على نفي اسم الايمان مع اثبات اسم الاسلام ، وبأن الرجل قد يكون مسلماً ومعه كفر

لا ينقل عن الملة ، بل كفر دون كفر ، كما قال ابن عباس واصحابه فى قوله : (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون) قالوا : كفر لا ينقل عن الملة، وكفر دون كفر ، وفسق دون فسق ، وظلم دون ظلم .

وهذا أيضاً مما استشهد به البخاري فى « صحيحه » فان كتاب « الايمان» الذي افتتح به « الصحيح » قرر مذهب اهل السنة والجماعة ، وضمنه الرد على المرجئة ، فانه كان من القائمين بنصر السنة والجماعة مذهب الصحابة والتابعين لهم باحسان .

وقد اتفق العلماء على ان اسم المسلمين فى الظاهر يجري على المنافقين ، لأنهم استسلموا ظاهراً . واتو بما اتوا به من الأعمال الظاهرة بالصلاة الظاهرة، والزكاة الظاهرة ، والحج الظاهر ، والجهاد الظاهر ، كما كان النبي يجري عليهم أحكام الاسلام الظاهر . واتفقوا على انه من لم يكن معه شيء من الايمان فهو كما قال تعالى : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) ، وفيها قراءتان (درْك ودرَك) قال ابو الحسين ابن فارس : الجنة درجات ، والنار دركات . قال الضحاك : الدرج : إذا كان بعضها فوق بعض . والدرك : إذا كان بعضها اسفل من بعض ، فصار المظهرون للاسلام بعضهم فى أعلى درجة فى الجنة وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قال فى الحديث الصحيح : «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم سلوا الله لي الوسيلة فانها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وارجو ان اكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم

القيامة» وقوله : صلى الله عليه وسلم : « وارجو ان اكون» مثل قـوله : « إني لأرجو ان اكون اخشاكم لله واعلمكم بحدوده » ولا ريب انه اخشى الأمة لله واعلمهم بحدوده .

وكذلك قوله : « اختبأت دعوتي شفاعة لامتي يوم القيامة فهى نائلة ان شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً » . وقوله : « إني لارجو ان تكونوا نصف اهل الجنة » وامثال هذه النصوص ، وكان يستدل به احمد وغيره على الاستثناء فى الايمان كما نذكره فى موضعه .

والمقصود ان خير المؤمنين فى اعلى درجات الجنة ، والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار ، وان كانوا فى الدنيا مسلمين ظاهراً تجري عليهم احكام الاسلام الظاهرة ؛ فمن كان فيه إيمان ونفاق يسمى مسلماً ، اذ ليس هو دون المنافق المحض ، واذا كان نفاقه اغلب لم يستحق اسم الايمان ، بل اسم المنافق احق به ، فان ما فيه بياض وسواد وسواده أكثر من بياضه هو باسم الاسود احق منه باسم الابيض، كما قال تعالى: (هم للكفر يومئذ اقرب منهم للايمان) واما اذا كان ايمانه اغلب ومعه نفاق يستحق به الوعيد ، لم يكن ايضاً من المؤمنين الموعودين بالجنة ، وهذا حجة لما ذكره محمد بن نصر عن احمد ، ولم اره انا فيما بلغني من كلام احمد ولا ذكره الخلال ونحوه . وقال محمد بن نصر : وحكي غير هؤلاء عن احمد انه قال : من اتى هذه الأربعة : الزنا والسرقة وشرب الخمر ، والنهبة التى يرفع الناس فيها ابصارهم اليه ، او مثلهن او فوقهن ، فهو مسلم ولا اسميه

مؤمناً ، ومن اتى دون الكبائر نسميه مؤمناً ناقص الايمان ، فان صاحب هذا القول يقول : لما نفى عنه النبي صلى الله عليه وسلم الايمان ، نفيته عنه كما نفاه عنه الرسول صلى الله عليه وسلم والرسول لم ينفه الا عن صاحب كبيرة ، والا فالمؤمن الذي يفعل الصغيرة هي مكفرة عنه بفعله للحسنات واجتنابه للكبائر ، لكنه ناقص الايمان عمن أجتنب الصغائر ، فما أتى بالايمان الواجب ، ولكن خلطه بسيئآت كفرت عنه بغيرها ، ونقصت بذلك درجته عمن لم يأت بذلك .

وأما الذين نفى عنهم الرسول الايمان ، فننفيه كما نفاه الرسول ، واولئك وان كان معهم التصديق واصل الايمان فقد تركوا منه ما استحقوا لأجله سلب الايمان ، وقد يجتمع فى العبد نفاق وايمان ، وكفر وايمان ، فالايمان المطلق عند هؤلاء ما كان صاحبه مستحقاً للوعد بالجنة .

وطوائف «اهل الأهواء» من الخوارج والمعتزلة ، والجهمية والمرجئة ، كراميهم وغير كراميهم يقولون : إنه لا يجتمع فى العبد إيمان ونفاق ، ومنهم من يدعي الاجماع على ذلك ، وقد ذكر ابو الحسن فى بعض كتبه الاجماع على ذلك ومن هنا غلطوا فيه وخالفوا فيه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم باحسان مع مخالفة صريح المعقول ؛ بل الخوارج والمعتزلة طردوا هذا الأصل الفاسد ، وقالوا : لا يجتمع فى الشخص الواحد طاعة يستحق بها الثواب ، ومعصية يستحق بها العقاب ولا يكون الشخص الواحد محموداً من وجه مذموماً من

وجه ، ولا محبوباً مدعواً له من وجه مسخوطاً ملعوناً من وجه ، ولا يتصور ان الشخص الواحد يدخل الجنة والنار جميعاً عندهم بل من دخل إحداهما لم يدخل الأخرى عندهم . ولهذا انكروا خروج احد من النار او الشفاعة فى احد من اهل النار . وحكى عن غالية المرجئة انهم وافقوهم على هذا الاصل ، لكن هؤلاء قالوا : ان اهل الكبائر يدخلون الجنة ولا يدخلون النار مقابلة لاولئك .

واما اهل السنة والجماعة والصحابة ، والتابعون لهم باحسان ؛ وسائر طوائف المسلمين من اهل الحديث والفقهاء واهل الكلام من مرجئة الفقهاء والكرامية والكلابية والاشعرية ، والشيعة مرجئهم وغير مرجئهم ، فيقولون : ان الشخص الواحد قد يعذبه الله بالنار ثم يدخله الجنة كما نطقت بذلك الاحاديث الصحيحة ، وهذا الشخص الذي له سيئات عذب بها ، وله حسنات دخل بها الجنة ، وله معصية وطاعة باتفاق ، فان هؤلاء الطوائف لم يتنازعوا فى حكمه ؛ لكن تنازعوا فى اسمه . فقالت المرجئة : جهميتهم وغير جهميتهم : هو مؤمن كامل الايمان . واهل السنة والجماعة على انه مؤمن ناقص الايمان ، ولو لا ذلك لما عذب ، كما انه ناقص البر والتقوى باتفاق المسلمين وهل يطلق عليه اسم مؤمن ؟ هذا فيه القولان ، والصحيح التفصيل . فاذا سئل عن احكام الدنيا كعتقه فى الكفارة . قيل : هو مؤمن وكذلك اذا سئل عن دخوله فى خطاب المؤمنين .

واما اذا سئل عن حكمه فى الآخرة . قيل : ليس هذا النوع من المؤمنين

الموعودين بالجنة ، بل معه ايمان يمنعه الخلود فى النار ويدخل به الجنة بعد ان يعذب فى النار ان لم يغفر الله له ذنوبه ، ولهذا قال من قال : هو مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته او مؤمن ناقص الايمان ، والذين لا يسمونه مؤمناً من اهل السنة ومن المعتزلة يقولون : اسم الفسوق ينافى اسم الايمان لقوله : (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) وقوله : (افمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

وعلى هذا الأصل فبعض الناس يكون معه شعبة من شعب الكفر ، ومعه ايمان أيضاً ، وعلى هذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم فى تسمية كثير من الذنوب كفراً ، مع ان صاحبها قد يكون معه اكثر من مثقال ذرة من ايمان فلا يخلد فى النار . كقوله « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ، وقوله : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » وهذا مستفيض عن النبي صلى الله عليه وسلم فى « الصحيح » من غير وجه ، فانه أمر فى حجة الوداع ان ينادى به فى الناس ، فقد سمى من يضرب بعضهم رقاب بعض بلا حق كفاراً ؛ وسمى هذا الفعل كفراً ؛ ومع هذا فقد قال تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) الى قوله : (انما المؤمنون إخوة) فبين أن هؤلاء لم يخرجوا من الايمان بالكلية ، ولكن فيهم ما هو كفر وهي هذه الخصلة . كما قال بعض الصحابة : كفر دون كفر . وكذلك قوله : « من قال لأخيه يا كافر ! فقد باء بها احدهما » فقد سماه أخاه حين القول ؛ وقد أخبر ان أحدهما باء بها ، فلو خرج احدهما عن الاسلام بالكلية لم يكن اخاه ، بل فيه كفر .

وكذلك قوله في الحديث الصحيح : « ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه الا كفر » وفي حديث آخر : « كفر بالله من تبرأ من نسب وان دق » وكان من القرآن الذي نسخ لفظه : « لا ترغبوا عن آبائكم فان كفراً بكم ان ترغبوا عن آبائكم » فان حق الوالدين مقرون بحق الله في مثل قوله : (ان اشكر لي ولوالديك الي المصير) وقوله : (وقضى ربك ان لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احساناً) فالوالد أصله الذي منه خلق ، والولد من كسبه . كما قال : (ما اغنى عنه ماله وما كسب) فالجحد لهما شعبة من شعب الكفر ، فانه جحد لما منه خلقه ربه ، فقد جحد خلق الرب إياه ، وقد كان في لغة من قبلنا يسمى الرب أباً ، فكان فيه كفر بالله من هذا الوجه ، ولكن ليس هذا كمن جحد الخالق بالكلية ، وسنتكلم ان شاء الله على سائر الأحاديث .

والمقصود هنا ذكر « اصل جامع » تنبني عليه معرفة النصوص ، ورد ما تنازع فيه الناس الى الكتاب والسنة ، فان الناس كثر نزاعهم فى مواضع في مسمى الايمان والاسلام لكثرة ذكرهما ، وكثرة كلام الناس فيهما ، والاسم كلما كثر التكلم فيه ، فتكلم به مطلقاً ومقيداً بقيد ، ومقيد بقيد آخر فى موضع آخر . كان هذا سبباً لاشتباه بعض معناه ، ثم كلما كثر سماعه كثر من يشتبه عليه ذلك . ومن اسباب ذلك ان يسمع بعض الناس بعض موارده ولا يسمع بعضه ، ويكون ما سمعه مقيداً بقيد أوجبه اختصاصه بمعنى ، فيظن معناه فى سائر موارده كذلك ؛ فمن اتبع علمه حتى عرف مواقع الاستعمال عامة ، وعلم مأخذ

الشبه اعطى كل ذي حق حقه ، وعلم ان خير الكلام كلام الله ، وانه لا بيان اتم من بيانه ؛ وان ما أجمع عليه المسلمون من دينهم الذي يحتاجون اليه أضعاف اضعاف ما تنازعوا فيه .

فالمسلمون : سنيهم وبدعيهم متفقون على وجوب الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ومتفقون على وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ومتفقون على ان من اطاع الله ورسوله فانه يدخل الجنة ؛ ولا يعذب ، وعلى ان من لم يؤمن بأن محمداً رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه فهو كافر وامثال هذه الأمور التي هي اصول الدين وقواعد الايمان التي انفق عليها المنتسبون الى الاسلام والايمان ، فتنازعهم بعد هذا فى بعض احكام الوعيد او بعض معانى بعض الأسماء أمر خفيف بالنسبة الى ما اتفقوا عليه ، مع ان المخالفين للحق البين من الكتاب والسنة هم عند جمهور الأمة معروفون بالبدعة : مشهود عليهم بالضلالة ؛ ليس لهم في الأمة لسان صدق ولا قبول عام ، كالخوارج والروافض والقدرية ونحوهم ، وانما تنازع اهل العلم والسنة فى امور دقيقة تخفى على اكثر الناس ؛ ولكن يجب رد ما تنازعوا فيه الى الله ورسوله . والرد الى الله ورسوله في « مسأله الاسلام ، والايمان » يوجب ان كلا من الأسمين وان كان مسماه واجباً لا يستحق احد الجنة إلا بأن يكون مؤمناً ، مسلماً . فالحق في ذلك ما بينه النبي فى حديث جبريل ، فجعل الدين واهله « ثلاث طبقات » : اولها : الاسلام ، واوسطها الايمان ، واعلاها الاحسان ، ومن وصل الى العليا

فقد وصل الى التى تليها . فالمحسن مؤمن ، والمؤمن مسلم ؛ واما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمناً .

وهكذا جاء القرآن ، فجعل الأمة على هذه الأصناف الثلاثة . قال تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) فالمسلم الذي لم يقم بواجب الايمان هو الظالم لنفسه ، والمقتصد هو المؤمن المطلق الذي ادى الواجب وترك المحرم ؛ والسابق بالخيرات هو المحسن الذي عبد الله كأنه يراه . وقد ذكر الله سبحانه تقسيم الناس فى المعاد الى هذه الثلاثة فى سورة (الواقعة) و (المطففين) و (هل أتى) وذكر الكفار أيضاً ، واما هنا فجعل التقسيم للمصطفين من عباده .

وقال ابو سليمان الخطابى : ما أكثر ما يغلط الناس فى « هـذه المسألة » فأما الزهري فقال : الاسلام الكلمة ، والايمان العمل ، واحتج بالآية ، وذهب غيره الى ان الاسلام والايمان شيء واحد . فاحتج بقوله : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) قال الخطابي : وقد تكلم رجلان من اهل العلم وصار كل واحد منهما الى قول واحد من هذين ورد الآخر منهما على المتقدم ، وصنف عليه كتاباً يبلغ عدد اوراقه المائتين . قال الخطابي : والصحيح من ذلك ، ان يقيد الكلام فى هذا ، ولا يطلق ؛ وذلك ان المسلم قد يكون مؤمناً فى بعض الأحوال ولا يكون مؤمناً فى بعضها ، والمؤمن

مسلم فى جميع الأحوال ، فكل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، واذا حملت الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات ، واعتدل القــول فيها ، ولم يختلف شيء منها .

«قلت» : الرجلان اللذان اشار إليهما الخطابى، اظن احدهما ـ وهو السابق ـ محمد بن نصر ، فانه الذي علمته بسط الكلام فى ان الاسلام والايمان شيء واحد من اهل السنة والحديث ، وما علمت لغيره قبله بسطاً فى هذا . والآخر الذى رد عليه أظنه ..[1] لكن لم اقف على رده ؛ والذى اختاره الخطابي هو قول من فرق بينهما ، كأبي جعفر ، وحمــاد بن زيد ، وعبد الرحمن بن مهدى ، وهو قول احمد بن حنبل وغيره ؛ ولا علمت احداً من المتقدمين خالف هؤلاء ، فجعل نفس الاسلام نفس الايمان : ولهذا كان عامة اهل السنة على هــذا الذى قاله هؤلاء كما ذكره الخطابى . .

وكذلك ذكر ابو القاسم التيمي الأصبهاني وابنــه محمد شارح « مسلم » وغيرهما ان المختار عند اهل السنة انه لا يطلق على السارق والزاني اسم مؤمن كما دل عليــه النص ، وقد ذكر الخطابي : فى « شرح البخاري » كلاماً يقتضي تلازمهما مع افتراق اسميهما ، وذكره البغوي في « شرح الســنة » فقال : قد جعل النبي صلى الله عليه وســلم الاسلام اسماً لمــا ظهر من الأعمال ، وجعل الايمان اسماً لمــا بطن من الاعتقاد وليس كذلك ، لأن الأعمال ليست من الايمان

---

(١) بياض بالأصل .

او التصديق بالقلب ليس من الاسـلام ، بل ذلك تفصيل الجملة هي كلها شيء واحد وجماعها الدين ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » والتصديق والعمل يتناولهما اسم الاسلام والايمان جميعاً ؛ يدل عليه قوله تعالى : (ان الدين عند الله الاسـلام) وقوله تعالى : (ورضيت لكم الاسلام ديناً) وقوله : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) فبين أن الدين الذى رضيه ويقبله من عباده هو الاسلام ، ولا يكون الدين فى محل الرضى والقبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل .

« قلت » : تفريق النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل وإن اقتضى أن الأعلى هو الاحسان والاحسان يتضمن الايمان ، والايمان يتضمن الاسلام ، فلا يدل على العكس ولو قدرانه دل على التلازم فهو صريح بأن مسمى هذا ليس مسمى هذا ، لكن التحقيق ان الدلالة تختلف بالتجريد والاقتران كما قد بيناه ، ومن فهم هذا انحلت عنه اشكالات كثيرة فى كثير من المواضع حاد عنها طوائف ـــ « مسئلة الايمان » وغيرها ـــ وما ذكره من ان الدين لا يكون فى محل الرضى والقبول إلا بانضمام التصديق الى العمل ، يدل على انه لا بد مع العمل من الايمان ؛ فهـذا يدل على وجوب الايمان مطلقاً ، لكن لا يدل على ان العمل الذى هو الدين ، ليس اسمه إسلاماً ، واذا كان الايمان شرطاً فى قبوله لم يلزم ان يكون ملازماً له ؛ ولو كان ملازماً له لم يلزم ان يكون جزء مسماه .

وقال الشيخ ابو عمرو بن الصلاح : قوله صلى الله عليه وسلم : « الاسلام ان تشهد ان لا اله الا الله » الى آخره ؛ والايمان « ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » الى آخره . قال : هذا بيان لأصل الايمان، وهو التصديق الباطن وبيان لأصل الاسلام ، وهو الاستسلام والانقياد الظاهر ، وحكم الاسلام فى الظاهر يثبت بالشهادتين ، وانما أضاف اليهما الأربع لكونها اظهر شعائر الاسلام ومعظمها ، وبقيامه بها يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بحل قيد انقياده او انحلاله .

ثم ان اسم الايمان يتناول ما فسر به الاسلام فى هذا الحديث ، وسائر الطاعات لكونها ثمرات التصديق الباطن الذى هو اصل الايمان ، مقومات ومتممات وحافظات له ، ولهذا فسر النبى صلى الله عليه وسلم الايمان فى حديث وفد عبد القيس بالشهادتين ، والصلاة والزكاة ، والصوم ، واعطاء الخمس من المغنم ؛ ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة او ترك فريضة ، لأن اسم الشيء الكامل يقع على الكامل منه ، ولا يستعمل فى الناقص ظاهراً إلا بقيد ، ولذلك جاز اطلاق نفيه عنه فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » .

واسم « الاسلام » يتناول ايضاً ما هو « اصل الايمان » وهو التصديق ويتناول « اصل الطاعات » فان ذلك كله استسلام ، قال : فخرج مما ذكرناه وحققناه ان الاسلام والايمان يجتمعان ويفترقان ؛ وان كل مؤمن مسلم ، وليس

كل مسلم مؤمناً ، قال : فهـذا تحقيق واف بالتوفيق بين متفرقات النصوص الواردة فى الايمان والاسلام التى طالما غلط فيها الخائضون ؛ وما حققناه من ذلك موافق لمذاهب جماهير العلماء من اهل الحديث وغيرهم .

فيقال : هذا الذى ذكره رحمه الله فيه من الموافقة لما قد بين من اقوال الأئمة ، وما دل عليه الكتاب والسنة ما يظهر به أن الجمهور يقولون : كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً ، وقوله : ان الحديث ذكر فيه اصل الايمان واصل الاسلام ، قد يورد عليه ان النبي صلى الله عليه وسلم اجاب عن الايمان والاسلام بما هو من جنس الجواب بالحد عن المحدود ؛ فيكون ما ذكره مطابقاً لهما لا لأصلهما فقط ، فالايمان هو الايمان بما ذكره باطناً وظاهراً ؛ لكن ماذكره من الايمان تضمن الاسلام ، كما ان الاحسان تضمن الايمان .

وقول القائل : أصل الاستسلام هو الاسلام الظاهر فالاسلام هو الاستسلام لله والانقياد له ظاهراً وباطناً ، فهذا هو دين الاسلام الذي ارتضاه الله كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، ومن اسلم بظاهره دون باطنه فهو منافق يقبل ظاهره ، فانه لم يؤمر ان يشق عن قلوب الناس . وايضاً فاذا كان الاسلام يتناول التصديق الباطن الذي هو أصل الايمان . فيلزم ان يكون كل مسلم مؤمناً ، وهو خلاف ما نقل عن الجمهور ، ولكن لا بد فى الاسلام من تصديق يحصل به اصل الايمان ، والا لم يثب عليه ؛ فيكون

حينئذ مسلماً مؤمناً .فلا بد ان يتبين المسلم الذي ليس بمؤمن ودخوله في الاسلام، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » وقوله : « الاسلام هو الأركان الخمسة » لا يعني به من أداها بلا إخلاص لله بل مع النفاق ، بل المراد من فعلها كما أمر بها باطناً وظاهراً ، وذكر الخمس انها هي الاسلام لأنها هي العبادات المحضة التي تجب لله تعالى على كل عبد مطيق لها . وما سواها إما واجب على الكفاية لمصلحة إذا حصلت سقط الوجوب ، وإما من حقوق الناس بعضهم على بعض وان كان فيها قربة ونحو ذلك . وتلك تابعة لهذه كما قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » « وافضل الاسلام ان تطعم الطعام وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف» ونحو ذلك : فهذه الخمس هي الأركان والمباني كما في الايمان .

وقول القائل : الطاعات ثمرات التصديق الباطن ، يراد به شيئان : يراد به أنها لوازم له ، فمتى وجد الايمان الباطن وجدت ، وهذا مذهب السلف واهل السنة ، ويراد به ان الايمان الباطن قد يكون سبباً ، وقد يكون الايمان الباطن تاما كاملاً وهي لم توجد ، وهذا قول المرجئة من الجهمية وغيرهم ، وقد ذكرنا فيما تقدم انهم غلطوا فى ثلاثة أوجه :

(احدها) : ظنهم ان الايمان الذي فى القلب يكون تاما بدون العمل الذي فى القلب تصديق بلا عمل للقلب . كمحبة الله وخشيته وخوفه والتوكل عليه والشوق الى لقائه .

و (الثانى) : ظنهم ان الايمان الذي فى القلب يكون تاماً بدون العمل الظاهر ، وهذا يقول به جميع المرجئة .

و (الثالث) : قولهم كل من كفره الشـارع فانما كفره لانتفاء تصديق القلب بالرب تبارك وتعالى ، وكثير من المتأخرين لا يميزون بين مذاهب السلف واقوال المرجئة والجهمية ؛ لاختلاط هـذا بهذا في كلام كثير منهم ممن هو فى باطنه يرى رأي الجهمية والمرجئة فى الايمان ، وهو معظم للسلف واهل الحديث فيظن انه يجمع بينهما ،او يجمع بين كلام امثاله وكلام السلف.

قال ابو عبد الله محمد بن نصر المروزي : وقالت « طائفة ثالثة » وهم الجمهور الاعظم من اهل السنة والجماعة واصحاب الحديث : الايمان الذي دعا الله العباد اليه وافترضه عليهم هو الاسلام الذي جعله ديناً وارتضاه لعباده ودعاهم اليه ، وهو ضد الـكفر الذي سخطه فقال : (ولا يرضى لعباده الـكفر)وقال : (ورضيت لـكم الاسلام ديناً) وقال : (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسـلام) وقال : (افمن شرح الله صدره للاسـلام فهو على نور من ربه؟) فمـدح الله الاسلام بمثل ما مدح به الايمان . وجعله اسم ثناء وتزكية ، فأخبر ان من اسلم فهو على نور من ربه وهدى ، واخبر انه دينه الذي ارتضاه ، وما ارتضاه فقد احبه وامتدحه ، ألا ترى ان انبياء الله ورسله رغبوا فيه اليه وسألوه اياه ، فقال إبراهيم واسماعيل : (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسـلمة لك) وقال يوسف : (توفني مسلماً والحقني بالصالحين) وقال : (ووصى بهـا ابراهيم

بنيه ويعقوب يابني ان الله اصطفى لـكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون) وقال : (وقل للذين اوتوا الـكتاب والاميين االسلمتم؟ فان اسـلموا فقد اهتدوا) وقال فى موضع آخر : (قولوا آمنا بالله وما انزل اليـنا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق) الى قوله (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) فحـكم الله بأن من اسلم فقد اهتدى ، ومن آمن فقد اهتدى ، فسوى بينهما .

قال : وقد ذكرنا تمام الحجة فى ان الاسلام هو الايمان ، وانهما لا يفترقان ، ولا يتباينـان فى موضـع غير هذا ، فـكرهنا إعادته فى هذا الموضع كراهة التطويل والتـكرير ، غير انا سنذكر من الحجة ما لم نذكره فى غير هذا الموضع ، ونبين خطأ تأويلهم ، والحجج التى احتجوا بهـا من الـكتاب والاخبـار على التفرقة بين الاسلام والايمان .

«قلت» : مقصود محمد بن نصر المروزي ــ رحمه الله ــ : ان المسلم الممدوح هو المؤمن الممدوح ؛ وان المذموم ناقص الاسلام والايمان ، وان كل مؤمن فهو مسلم ، وكل مسلم فلا بد ان يكون معه ايمان ، وهذا صحيح ، وهو متفق عليه ، ومقصوده ايضاً ، ان من أطلق عليه الاسلام اطلق عليه الايمان ، وهذا فيه نزاع لفظي ، ومقصوده ان مسمى احدهما هو مسمى الآخر ، وهذا لا يعرف عن احد من السلف . وإن قيل : هما متلازمان . فالمتلازمان لا يجب ان يكون مسمى هذا هو مسمى هذا ، وهو لم ينقل عن احد من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولا أئمة الاسلام المشهورين انه قال : مسمى الأسـلام هو مسمى

الايمان كما نصر : بل ولا عرفت انا احداً قال ذلك من السلف ، ولكن المشهور عن الجماعة من السلف والخلف ان المؤمن المستحق لوعد الله هو المسلم المستحق لوعد الله ، فكل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وهذا متفق على معناه بين السلف والخلف بل وبين فرق الامة كلهم يقولون : إن المؤمن الذي وعد بالجنة لا بد إن يكون مسلما ، والمسلم الذي وعد بالجنة لا بدان يكون مؤمناً ، وكل من يدخل الجنة بلا عذاب من الأولين والآخرين فهو مؤمن مسلم .

ثم ان اهل السنة يقولون : الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة معهم بعض ذلك ، وانما النزاع في إطلاق الاسم ، فالنقول متواترة عن السلف بأن الايمان قول وعمل ، ولم ينقل عنهم شيء من ذلك في الاسلام ، ولكن لما كان الجمهور الأعظم يقولون : ان الاسلام هو الدين كله ، ليس هو الكلمة فقط خلاف ظاهر ما نقل عن الزهري ، فكانوا يقولون : ان الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من الأفعال المأمور بها هي من الاسلام كما هي من الايمان ، ظن انهم يجعلونهما شيئاً واحداً ، وليس كذلك ؛ فانالايمان مستلزم للاسلام باتفاقهم ، وليس اذا كان الاسلام داخلاً فيه يلزم ان يكون هو اياه ؛ واما الاسلامفليس معهدليلعلىانه يستلزمالايمانعندالاطلاق، ولكنهليستلزم الايمان الواجب او كمال الايمان ؟ فيه نزاع ، وليس معه دليل على انه مستلزم للايمان ، ولكن الأنبياء الذين وصفهم الله بالاسلام كلهم كانوا مؤمنين ، وقد وصفهم الله بالايمان ولو لم يذكر ذلك عنهم فنحن نعلم قطعاً ان الأنبياء كلهم مؤمنون .

وكذلك السابقون الأولون كانوا مسلمين مؤمنين .

ولو قدر ان الاسلام يستلزم الايمان الواجب ، فغاية ما يقال : انهما متلازمان ، فكل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وهذا صحيح اذا اريد ان كل مسلم يدخل الجنة معه الايمان الواجب . وهو متفق عليه اذا اريد ان كل مسلم يثاب على عبادته ، فلا بد ان يكون معه اصل الايمان فما من مسلم الا وهو مؤمن ، وان لم يكن هو الايمان الذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم ، عمن لا يحب لاخيه ما يحب لنفسه ، وعمن يفعل الكبائر ، وعن الأعراب وغيرهم ، فاذا قيل : ان الاسلام والايمان التام متلازمان لم يلزم ان يكون احدهما هو الآخر ، كالروح والبدن ، فلا يوجد عندنا روح الا مع البدن ، ولا يوجد بدن حي الا مع الروح . وليس احدهما الآخر ، فالايمان كالروح ، فانه قائم بالروح ومتصل بالبدن ، والاسلام كالبدن ولا يكون البدن حياً الا مع الروح ، بمعنى انهما متلازمان لا ان مسمى احدهما هو مسمى الآخر ؛ واسلام المنافقين كبدن الميت جسد بلا روح ، فما من بدن حي الا وفيه روح ، ولكن الارواح متنوعة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وليس كل من صلى ببدنه يكون قلبه منورا بذكر الله والخشوع وفهم القرآن وان كانت صلاته يثاب عليها ويسقط عنه الفرض فى احكام الدنيا ، فهكذا الاسلام الظاهر بمنزلة الصلاة الظاهرة ، والايمان بمنزلة ما يكون فى القلب حين الصلاة من المعرفة بالله والخشوع وتدبر القرآن ، فكل من خشع قلبه

خشعت جوارحه ، ولا ينعكس ، ولهذا قيل : : اياكم وخشوع النفاق ، وهو ان يكون الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع ، فاذا صلح القلب صلح الجسد كله ، وليس اذا كان الجسد فى عبادة يكون القلب قائماً بحقائقها .

والناس فى «الايمان ، والاسلام» على ثلاث مراتب : ظالم لنفسه ، ومقتصد وسابق بالخيرات . فالمسلم ظاهراً وباطناً إذا كان ظالماً لنفسه ، فلا بد ان يكون معه ايمان ؛ ولكن لم يأت بالواجب ولا ينعكس ، وكذلك فى الآخر . وسيأتى ان شاء الله .

والآيات التى احتج بها محمد بن نصر تدل على وجوب الاسلام وأنه دين الله ، وان الله يحبه ويرضاه ،وانه ليس له دين غيره ، وهذا كله حق ؛ لكن ليس فى هذا ما يدل على انه هو الايمان ؛ بل ولا يدل على ان بمجرد الاسلام يكون الرجل من اهل الجنة ، كما ذكره فى حجة القول الأول ، فان الله وعد المؤمنين بالجنة فى غير آية ، ولم يذكر هذا الوعد باسم الاسلام وحينئذ ، فمدحه وايجابه ومحبة الله له تدل على دخوله فى الايمان ؛ وأنه بعض منه ، وهذا متفق عليه بين أهل السنة كلهم يقولون : كل مؤمن مسلم ، وكل من أتى بالايمان الواجب فقد اتى بالاسلام الواجب لكن النزاع فى العكس ؛ وهذا كما ان الصلاة يحبها الله ويأمر بها ويوجبها ويثنى عليها وعلى اهلها في غير موضع ، ثم لم يدل ذلك على ان مسمى الصلاة مسمى الايمان ، بل الصلاة تدخل فى الايمان ، فكل مؤمن مصل ، ولا يلزم ان يكون كل من صلى وأتى الكبائر مؤمناً .

وجميع ما ذكره من الحجة عن النبي صلى الله عليه وسلم فان فيها التفريق بين مسمى الايمان والاسلام اذا ذكرا جميعاً ، كما في حديث جبريل وغيره وفيها ايضاً ان اسم الايمان اذا أطلق دخل فيه الاسلام . قال ابو عبد الله بن حامد في كتابه المصنف في « اصول الدين »:

قد ذكرنا ان الايمان قول وعمل ، فأما الاسلام فكلام احمد يحتمل روايتين : (إحداهما) انه كالايمان . (والثانية) : انه قول بلا عمل . وهو نصه في رواية إسماعيل بن سعيد ، قال : والصحيح ان المذهب رواية واحدة انه قول وعمل ، ويحتمل قوله : ان الاسلام قول يريد به انه لا يجب فيه ما يجب في الايمان من العمل المشروط فيه لأن الصلاة ليست من شرطه ، إذ النص عنه انه لا يكفر بتركه الصلاة .

قال : وقد قضينا ان الاسلام والايمان اسمان لمعنيين ، وذكرنا اختلاف الفقهاء ، وقد ذكر قبل ذلك ان الاسلام والايمان اسمان لمعنيين مختلفين ، وبه قال مالك ، وشريك ، وحماد بن زيد ، بالتفرقة بين الاسلام والايمان ، قال : وقال أصحاب الشافعي ، واصحاب ابي حنيفة : إنهما اسمان معناهما واحد ، قال : ويفيد هذا ان الايمان قد تنتفي عنه تسميته مع بقاء الاسلام عليه ، وهو باتيان الكبائر التي ذكرت في الخبر ، فيخرج عن تسمية الايمان ، إلا انه مسلم ؛ فاذا تاب من ذلك عاد الى ما كان عليه من الايمان . ولا تنتفي عنه تسمية الايمان بارتكاب الصغائر من الذنوب ، بل الاسم باق عليه ، ثم ذكر ادلة ذلك ، ولكن ما ذكره

فيه ادلة كثيرة على من يقول : الاسـلام مجرد الـكلمة ، فان الأدلة الـكثيرة تدل على ان الأعمال من الاسلام ؛ بل النصوص كلها تدل على ذلك ، فمن قال : ان الأعمال الظاهرة المأمور بها ليست من الاسلام ، فقوله باطـل ، بخلاف التصديق الذي في القلب ، فان هذا ليس فى النصـوص ما يدل على انه من الاسلام ، بل هو من الايمان ، وانما الاسلام الدين ، كما فسره النبي صلى الله عليه وسلم بأن يسلم وجهه وقلبه لله ، فاخلاص الدين لله اسلام ، وهذا غير التصديق ، ذاك من جنس عمل القلب ، وهذا من جنس علم القلب .

واحمد بن حنبـل ، وان كان قد قال فى هـذا الموضع : إن الاسلام هو الـكلمة ، فقـد قال فى موضع آخر : إن الأعمال من الاسلام . وهو اتبع هنا الزهري رحمه الله ، فان كان مراد من قال ذلك ، إنه بالـكلمة يدخل فى الاسلام ولم يأت بتمام الاسلام ، فهـذا قريب . وإن كان مراده انه أتي بجميع الاسلام وان لم يعمل فهذا غلط قطعاً ، بل قد أنـكر احمد هذا الجواب ، وهو قول من قال : يطلق عليه الاسلام وان لم يعمل ، متابعة لحديث جبريل ، فـكان ينبغى ان يذكر قول احمد جميعه .

قال اسماعيل بن سـعيد : سألت احمد عن الاسلام والايمان فقال : « الايمان » قول وعمل ، والاسلام الاقـرار . وقال : وسألت احمد عمن قال في الذي قال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم إذ سأله عن الاسلام ، فاذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ فقال : نعم . فقال قائل : وإن لم يفعل الذي قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم ، فهو مسلم ايضاً ؟ فقال : هذا معاند للحديث .

فقد جعل احمد من جعله مسلماً إذا لم يأت بالخمس معانداً للحديث ، مع قوله: ان الاسلام الاقـرار ، فدل ذلك على ان ذاك اول الدخول في الاسلام ، وانه لا يكون قائماً بالاسلام الواجب حتى يأتي بالخمس ، واطلاق الاسم مشروط بها ، فانه ذم من لم يتبع حديث جبريل . وايضاً فهو في أكثر اجوبتـه يكفر من لم يأت بالصلاة : بل وبغيرها من المباني . والـكافر لا يكون مسلماً باتفاق المسلمين، فعلم انه لم يرد ان الاسلام هو مجرد القول بلا عمـل ؛ وان قدر انه اراد ذلك ، فهذا يكون انه لا يكفر بترك شيء من المباني الأربعة . واكثر الروايات عنـه بخلاف ذلك ، والذين لا يكفرون من ترك هذه المباني يجعلونها من الاسلام ، كالشافعي ومالك ، وابي حنيفة ، وغيرهم ، فـكيف لا يجعلها احمد من الاسلام ؟! وقوله فى دخولها فى الاسلام اقوى من قول غيره . وقد روى عنه انه جعـل حديث سعد معارضاً لحديث عمر ، ورجح حديث سعد .

قال الحسن بن علي : سألت احمد بن حنبل عن الايمان اوكد او الاسلام ؟ قال : جاء حديث عمر هذا ، وحديث سعد احب الي . كأنه فهم ان حـديث عمر يدل على ان الأعمال هي مسمى الاسلام ، فيكون مسماه افضل . وحديث سعد يدل على ان مسمى الايمان افضل ، ولكن حديث عمر لم يذكر الاسـلام الا الأعمال الظاهرة فقط ؛ وهـذه لا تـكون ايماناً الا مع الايمان الذى فى القلب بالله وملائـكته وكتبه ورسله . فيكون حينئذ بعض الايمان ، فيكون مسمى الايمان افضل كما دل عليه حديث سعد ، فلا منافاة بين الحديثين .

واما تفريق احمد بين الاسلام والايمان ، فـكان يقوله تارة ، وتارة يحكي

الخلاف ولا يجـزم به . وكان إذا قرن بينهما « تارة » يقول الاسلام الـكلمة .
« وتارة » لا يقول ذلك وكذلك التـكفير بترك المبـاني ، كان تارة يكفر
بها حتى يغضب ؛ وتارة لا يكفر بها . قال الميموني : قلت : يا أبا عبد الله
تفرق بين الاسلام والايمـان ؟ قال : نعم . قلت بأي شيء تحتج ؟ قال : عامة
الأحاديث تدل على هذا ، ثم قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا
يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » وقال الله تعـالى : (قالت الأعراب
آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) قال : وحماد بن زيد يفرق بين الاسلام
والايمان . قال : وحدثنا ابو سلمة الخزاعي قال : قال مالك وشريك ، وذكر
قولهم وقول حماد بن زيد : فرق بين الاسلام والايمان .

قال احمد : قال لي رجل : لو لم يجئنا فى الايمان إلا هذا لـكان حسناً .
قلت لأبى عبد الله : فتذهب الى ظاهر الـكتاب مع السنن ؟ قال : نعم . قلت :
فاذا كانت المرجئة يقولون : ان الاسلام هو القول . قال : هم يصيرون هذا كله
واحداً ، ويجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئاً واحداً على إيمان جبريل ومستـكمل
الايمان . قلت : فمن ههنا حجتنا عليهم ؟ قال : نعم . فقد ذكر عنه الفرق مطلقاً
واحتجاجه بالنصوص .

وقال صالح بن احمد : سئل ابي عن الاسـلام والأيمان قال : قال ابن ابى
ذئب : الاسلام : القول ، والايمـان : العمل . قيل له : ما تقول انت ؟ قال :
الاسلام غير الايمان ، وذكر حديث سعد ، وقول النبي صلى الله عليه وسـلم .

فهو فى هذا الحديث لم يختر قول من قال : الاسلام : القول ؛ بل اجابَ بأن الاسلام غير الايمان ، كما دل عليه الحديث الصحيح مع القرآن .

وقال حنبل : حدثنا ابو عبد الله بحديث بريدة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر ان يقول قائلهم : « السلام عليكم اهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وانا إن شاء الله بكم لاَ حقون » ... الحديث . قال : وسمعت ابا عبد الله يقول فى هذا الحديث : حجة على من قال : الايمان قول . فمن قال : انا مؤمن [فقد خالف] قوله : من المؤمنين والمسلمين . فبين المؤمن من المسلم ، ورد على من قال : انا مؤمن مستكمل الايمان ، وقوله : « وانا ان شاء الله بكم لا حقون » وهو يعلم انه ميت يشد قول من قال : انا مؤمن ان شاء الله بالاستثناء فى هذا الموضع .

وقال ابو الحارث سألت : اباعبد الله قلت : قوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . قال : قدتأولوه فأما عطاء فقال : يتنحي عنه الايمان . وقال طاووس : إذا فعل ذلك زال عنه الايمان . وروي عن الحسن قال : إن رجع راجعه الايمان . وقد قيل : يخرج من الايمان الى الاسلام ، ولا يخرج من الاسلام . وروى هذه المسألة صالح فان مسائل ابى الحارث يرويها صالح ايضاً . وصالح سأل اباه عن هـذه القصة فقال فيها : هكذا يروى عن ابي جعفر قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » قال : يخرج من الايمان الى الاسلام ، فالايمان مقصور فى الاسلام ،

فاذا زنى خرج من الايمان الى الأسلام . قال الزهري ـ يعني ـ لما روى حديث سعد : « او مسلم » فنرى ان الأسلام الـكلمة والايمان العمل قال احمد : وهو حديث متأول والله اعلم .

فقد ذكر اقوال التابعين ولم يرجح شيئاً ، وذلك والله اعلم لأن جميع ما قالوه حق ، وهو يوافق على ذلك كله ، كما قد ذكر في مواضع اخر انه يخرج من الايمان الى الاسلام ، ونحو ذلك . واحمد وامثاله من السلف لا يريدون بلفظ التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ؛ بل التأويل عندهم مثل التفسير ، وبيان ما يؤول اليه اللفظ ، كقول عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر ان يقول في ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي » يتأول القرآن ، وإلا فما ذكره التابعون لا يخالف ظاهر الحديث بل يوافقه ، وقول احمد يتأوله ، اى يفسر معناه ؛ وإن كان ذلك يوافق ظاهره لئلا يظن مبتدع ان معناه انه صار كافراً لا إيمان معه بحال ؛ كما تقوله الخوارج فان الحديث لا يدل على هذا ؛ والذي نفى عن هؤلاء الايمـان كان يجعلهم مسلمين لا يجعلهم مؤمنين .

قال المروذي : قيل لأبي عبد الله : نقول نحن المؤمنون ؟ فقال : نقول : نحن المسلمون . قلت لأبي عبد الله : نقول : انا مؤمنون . قال : ولكن نقول : انا مسلمون . وهذا لأن من اصله الاستثناء في الايمان ، لأنه لا يعلم انه مؤد لجميع ما امره الله به ، فهو مثل قوله : انا بر ، انا تقى ، انا ولي الله ؛ كما يذكر في

موضعه ؛ وهذا لا يمنع ترك الاستثناء اذا اراد : اني مصدق ، فانه يجزم بما فى قلبه من التصديق ؛ ولا يجزم بأنه ممتثل لكل ما امر به ؛ وكما يجزم بأنه يحب الله رسوله ، فانه يبغض الكفر ، ونحو ذلك مما يعلم انه فى قلبه ؛ وكذلك اذا اراد بأنه مؤمن فى الظاهر ؛ فلا يمنع ان يجزم بما هو معلوم له ؛ وانما يكره ما كرهه سائر العلماء من قول المرجئة اذ يقولون : الايمان شيء متماثل في جميع اهله ، مثل كون كل انسان له رأس ؛ فيقول احدهم : انا مؤمن حقاً وانا مؤمن عند الله ، ونحو ذلك ؛ كما يقول الانسان : لي رأس حقاً ، وانا لي رأس فى علم الله حقاً ؛ فمن جزم به على هذا الوجه ، فقد اخرج الأعمال الباطنة والظاهرة عنه ؛ وهذا منكر من القول وزور عند الصحابة والتابعين ، ومن اتبعهم من سائر المسلمين ؛ وللناس فى « مسألة الاستثناء » كلام يذكر فى موضعه .

و(المقصود هنا)ان هنا قولين متطرفين : قول من يقول : الاسلام مجرد الكلمة ، والأعمال الظاهرة ليست داخلة فى مسمى الاسلام ، وقول من يقول : مسمى الاسلام والايمان واحد ؛ وكلاهما قول ضعيف مخالف لحديث جبريل ، وسائر احاديث النبي صلى الله عليه وسلم . ولهذا لما نصر محمد بن نصر المروزي القول الثانى : لم يكن معه حجة على صحته ؛ ولكن احتج بما يبطل به القول الأول ؛ فاحتج بقوله فى قصة الأعراب : (بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين) قال : فدل ذلك على ان « الاسلام » هو الايمان

فيقال : بل يدل على نقيض ذلك ، لأن القوم لم يقولوا : اسلمنا ؛ بل قالوا : آمنا والله امرهم ان يقولوا : اسلمنا ، ثم ذكر تسميتهم بالاسلام فقال : (بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين) فى قولكم : آمنا ، ولو كان الاسلام هو الايمان لم يحتج ان يقول : (ان كنتم صادقين) فانهم صادقون في قولهم : (أسلمنا) مع انهم لم يقولوا ، ولكن الله قال : (يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم) اي : يمنون عليك ما فعلوه من الاسلام ، فالله تعالى سمي فعلهم إسلاماً ، وليس فى ذلك ما يدل على انهم سموه اسلاماً ؛ وانما قالوا : آمنا ثم اخبر ان المنة تقع بالهداية الى الايمان ؛ فأما الاسلام الذي لا ايمان معه ، فكان الناس يفعلونه خوفاً من السيف ؛ فلا منة لهم بفعله وإذا لم يمن الله عليهم بالايمان كان ذلك كاسلام المنافقين فلا يقبله الله منهم . فأما إذا كانوا صادقين فى قولهم : آمنا ، فالله هو المان عليهم بهذا الايمان وما يدخل فيه من الاسلام ، وهو سبحانه نفى عنهم الايمان أولاً ، وهنا علق منة الله به على صدقهم ، فدل على جواز صدقهم .

وقد قيل : إنهم صاروا صادقين بعد ذلك ، ويقال : المعلق بشرط لا يستلزم وجود ذلك الشرط ، ويقال : لأنه كان معهم إيمان ما . لكن ما هو الايمان الذي وصفه ثانياً ؟ بل معهم شعبة من الايمان .

قال محمد بن نصر : وقال الله تعالى : (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) الآية وقال : (إن الدين عند الله الاسلام) فسمى إقام الصلاة وإيتاء

الزكاة ديناً قيما وسمي الدين إسلاما ، فمن لم يؤد الزكاة فقد ترك من الدين القيم ــ الذي اخبر الله أنه عنده الدين وهو الاسلام ــ بعضا . قال : وقد جاء معينا هذه الطائفة التى فرقت بين الاسلام والايمان على ان الايمان قول وعمل ، وان الصلاة والزكاة من الايمان وقد سماها الله دينا ، واخبر ان الدين عنده الاسلام فقد سمى الله الأسلام بما سمى به الايمان ، وسمى الايمان بما سمى به الاسلام ، وبمثل ذلك جاءت الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم . فمن زعم أن الاسلام هو الاقرار وان العمل ليس منه فقد خالف الكتاب والسنة ؛ ولا فرق بينه وبين المرجئة إذ زعمت ان الايمان اقرار بلا عمل .

فيقال : اما قوله إن الله جعل الصلاة والزكاة من الدين ، والدين عنده هو الاسلام ، فهذا كلام حسن موافق لحديث جبريل ، ورده على من جعل العمل خارجا من الاسلام كلام حسن ، واما قوله : ان الله سمى الايمان بما سمى به الاسلام وسمى الاسلام بما سمى به الايمان فليس كذلك ، فان الله إنما قال : (إن الدين عند الله الاسلام) ولم يقل قط ، إن الدين عند الله الايمان ؛ ولكن هذا الدين من الايمان ، وليس اذا كان منه يكون هو إياه ؛ فإن الايمان أصله معرفة القلب وتصديقه ، وقوله ؛ والعمل تابع لهذا العلم والتصديق ملازم له ولا يكون العبد مؤمنا الا بهما . وأما الاسلام فهو عمل محض مع قول ، والعلم والتصديق ليس جزء مسماه ، لكن يلزمه جنس التصديق فلا يكون عمل الا بعلم لكن لا يستلزم الايمان المفصل الذي بينه الله ورسوله ، كما قال تعالى: (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم

وانفسهم في سبيل الله اولئـك هم الصادقون) وقوله : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهـم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمـانا وعلى ربهم يتوكلون) .

وسائر النصوص التى تنفى الايمان عمن لم يتصف بما ذكره ، فان كثيراً من المسلمين مسلم باطنا وظاهراً ومعه تصديق مجمل ، ولم يتصف بهذا الايمان ، والله تعالى قال : (ومن يبتـغ غير الاسـلام ديناً فلن يقبل منه) وقال : (ورضيت لـكم الاسلام ديناً) ولم يقل : ومن يبتغ غير الاسلام علماً ومعرفة وتصديقاً وايماناً ، ولا قال : رضيت لـكم الاسلام تصديقاً وعلماً ، فان الاسلام من جنس الدين والعمل والطاعة والانقياد والخضوع ؛ فمن ابتغى غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، والايمان طمأنينة ويقين ، اصله علم وتصديق ومعرفة والدين تابع له ، يقال : آمنت بالله واسلمت لله . قال موسى : (يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليـه توكلوا ان كنتم مسلمين) فلو كان مسماها واحداً كان هذا تـكريراً . وكذلك قوله : (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) كما قال : والصادقين والصابرين والخاشعين : فالمؤمن متصف بهذا كله ، لكن هذه الاسماء لا تطابق الايمان في العموم والخصوص ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت واليـك أنبت ، وبك خاصمت واليك حاكمت » كما ثبت في « الصحيحين » انه كان يقول ذلك اذا قام من الليل ، وثبت فى « صحيح مسلم » وغيره انه كان يقول : فى سجوده : « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك اسلمت » وفى الركوع يقول : « لك ركعت ولك

اسلمت وبك آمنت » ولما بين النبي صلى الله عليه وسلم خاصة كل منهما قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من امنه الناس على دمائهم واموالهم » ومعلوم ان السلامة من ظلم الإنسان غير كونه مأموناً على الدم والمال ، فان هذا اعلى ، والمأمون يسلم الناس من ظلمه وليس من سلموا من ظلمه يكون مأموناً عندهم .

قال محمد بن نصر : فمن زعم ان الاسلام هو الاقرار ، وان العمل ليس منه ، فقد خالف الكتاب والسنة . وهذا صحيح ؛ فان النصوص كلها تدل على ان الأعمال من الاسلام . قال : ولا فرق بينه وبين المرجئة اذ زعمت أن الايمان اقرار بلا عمل .

فيقال : بل بينهما فرق ، وذلك ان هؤلاء الذين قالوه من اهل السنة كالزهري ومن وافقه يقولون : الأعمال داخلة فى الايمان ، والاسلام عندهم جزء من الايمان والايمان عندهم أكمل ، وهذا موافق للكتاب والسنة . ويقولون : الناس يتفاضلون فى الايمان وهذا موافق للكتاب والسنة ، والمرجئة يقولون : الايمان بعض الاسلام والاسلام افضل . ويقولون ايمان الناس متساو فايمان الصحابة والفجر الناس سواء ، ويقولون : لا يكون مع احد بعض الايمان دون بعض ، وهذا مخالف للكتاب والسنة .

وقد اجاب احمد عن هذا السؤال كما قاله في احدى روايتيه : ان الاسلام هو الكلمة . قال الزهري : فانه تارة يوافق من قال ذلك ، وتارة لا يوافقه ،

بل يذكر ما دل عليه الكتاب والسنة من ان الأسلام غير الايمان ؛ فلما اجاب بقول الزهري قال له الميموني : قلت ياابا عبدالله ! تفرق بين الأسلام والأيمان ؟ قال : نعم ؛ قلت : بأى شيء تحتج ؟ قال : عامة الأحاديث تدل على هذا ، ثم قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » . وقال تعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) قلت له : فتذهب الى ظاهر الكتاب مع السنن ؟ قال : نعم ، قلت : فاذا كانت المرجئة تقول : ان الاسلام هو القول ، قال :هم يصيرون هذا كله واحداً ويجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئاً واحداً على ايمان جبريل ، ومستكمل الايمان ؛ قلت : فمن ههنا حجتنا عليهم ؟ قال : نعم . فقد اجاب احمد : بأنهم يجعلون الفاسق مؤمناً مستكمل الايمان على ايمان جبريل .

واما قوله : يجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئاً واحداً ، فهذا قول من يقول : الدين والايمان شيء واحد ، فالاسلام هو الدين ، فيجعلون الاسلام والايمان شيئاً وحداً ؛ وهذا القول قول المرجئة فيما يذكره كثير من الأئمة ، كالشافعي وابي عبيد وغيرهما ، ومع هؤلاء يناظرون . فالمعروف من كلام المرجئة : الفرق بين لفظ الدين والايمان ، والفرق بين الاسلام والايمان . ويقولون : الاسلام بعضه ايمان وبعضه اعمال ، والأعمال منها فرض ونفل، ولكن كلام السلف كان فيما يظهر لهم ويصل إليهم من كلام اهل البدع كما تجدهم في الجهمية ؛ إما يحكون عنهم ان الله في كل مكان ، وهذا قول طائفة منهم كالنجارية ، وهو قول عوامهم

وعبادهم ، واما جمهور نظارهم من الجهمية ، والمعتزلة ، والضرارية ، وغيرهم ، فانما يقولون : هو لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو فوق العالم .

وكذلك كلامهم في «القدرية» يحكون عنهم انكار العلم والكتابة ، وهؤلاء هم القدرية الذين قال ابن عمر فيهم : اذا لقيت اولئك فأخبرهم اني بريء منهم وأنهم برءاء مني ، وهم الذين كانوا يقولون : ان الله امر العباد ونهاهم ، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ، ولا من يدخل الجنة ممن يدخل النار حتى فعلوا ذلك ، فعلمه بعد ما فعلوه ! ولهذا قالوا : الأمر انف ، اي : مستأنف ؛ يقال : روض انف اذا كانت وافرة لم ترع قبل ذلك ، يعني انه مستأنف العلم بالسعيد والشقي ، ويبتدأ ذلك من غير ان يكون قد تقدم بذلك علم ولا كتاب : فلا يكون العمل على ما قد قدر فيحتذي به حذو القدر ، بل هو أمر مستأنف مبتدأ ، والواحد من الناس اذا اراد ان يعمل عملاً قدر في نفسه ما يريد عمله ثم عمله كما قدر في نفسه ، وربما اظهر ما قدره في الخارج بصورته ، ويسمى هذا التقدير الذي في النفس خلقاً ، ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ... ـض الناس يخلق ثم لا يفري

يقول : اذا قدرت امراً امضيته وانفذته ، بخلاف غيرك فانه عاجز عن إمضاء ما يقدره ، وقال تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) وهو سبحانه يعلم قبل ان يخلق الأشياء كل ما سيكون ، وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريده ، وعلمه وإرادته قائم بنفسه ، وقد يتكلم به ويخبر به كما في قوله : (لأملأن

جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين) وقال : ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما واجل مسمى) وقال تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وان جندنا لهم الغالبون) وقال تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم) وهو سبحانه كتب مايقدره فيما يكتبه فيه ، كما قال : (ألم تعلم ان الله يعلم مافى السماء والأرض ان ذلك فى كتاب ان ذلك على الله يسير) قال ابن عباس : ان الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه : كن كتاباً ؛ فكان كتاباً ، ثم انزل تصديق ذلك في قوله (ألم تعلم ان الله يعلم ما فى السماء والأرض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير) وقال تعالى : (ما اصاب من مصيبة فى الارض ولا فى انفسكم الا فى كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير) وقال : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون) وقال : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) وقال للملائكة : (إني جاعل في الارض خليفة ، قالوا : اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال اني اعلم مالا تعلمون) فالملائكة قد علمت ما يفعل بنو آدم من الفساد وسفك الدماء ، فكيف لا يعلمه الله ، سواء علموه باعلام الله ـ فيكون هو اعلم بما علمهم اياه ، كما قاله اكثر المفسرين : ـ او قالوه بالقياس على من كان قبلهم ، كما قاله : طائفة منهم ، او بغير ذلك والله اعلم بما سيكون من مخلوقاته الذين لا علم لهم الا ما علمهم وما اوحاه الى انبيائه وغيرهم مما سيكون هو اعلم به منهم ، فانهم لا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء .

وايضاً فانه قال للملائكة : (اني جاعل فى الارض خليفة) قبل ان يأمرهم بالسجود لآدم ، وقبل ان يمتنع ابليس ؛ وقبل ان ينهي آدم عن اكله من الشجرة ، وقبل ان يأكل منها ويكون أكله سبب اهباطه الى الارض ، فقد علم الله سبحانه انه سيستخلفه مع امره له ولابليس بما يعلم انهما يخالفانه فيه، ويكون الخلاف سبب امره لهما بالاهباط الى الارض والاستخلاف فى الارض .

وهذا يبين انه علم ما سيكون منهما من مخالفة الأمر ، فان ابليس امتنع من السجود لآدم وابغضه فصار عدوه ، فوسوس له حتى يأكل من الشجرة فيذنب آدم ايضاً . فانه قد تألى انه ليغوينهم اجمعين ، وقد سأل الانظار الى يوم يبعثون فهو حريص على إغواء آدم وذريته بكل ما امكنه . لكن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه واجتباه ربه وهداه بتوبته ، فصار لبني آدم سبيل الى نجاتهم وسعادتهم مما يوقعهم الشيطان فيه بالاغواء ، وهو التوبة ، قال تعالى : (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) .

وقدر الله قد احاط بهذا كله قبل ان يكون ، وابليس اصر على الذنب ، واحتج بالقدر ، وسأل الانظار ليهلك غيره ، وآدم تاب واناب ، وقال هو وزوجته : (ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فتاب الله عليه فاجتباه وهداه ، وانزله الى الارض ليعمل فيها بطاعته ؛ فيرفع الله بذلك درجته ، ويكون دخوله الجنة بعد هذا اكمل مما كان ، فمن اذنب من اولاد آدم فاقتدى بأبيه آدم فى التوبة كان سعيداً ، واذا تاب وآمن وعمل صالحاً

بدل الله سيئاته حسنات ، وكان بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، كسائر اولياء الله المتقين . ومن اتبع منهم ابليس فأصر على الذنب ، واحتج بالقدر ، واراد ان يغوي غيره كان من الذين قال فيهم : (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين) .

والمقصود هنا ذكر القدر ؛ وقد ثبت فى « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « قدر الله مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة ؛ وكان عرشه على الماء » وفى « صحيح البخاري » عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ، ثم خلق السموات والارض » وفى « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه انه اخبر : ان الله قد علم اهل الجنة من اهل النار ، وما يعمله العباد قبل ان يعملوه .

وفى « الصحيحين » عن عبدالله بن مسعود : « ان الله يبعث ملكا بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح فيه ؛ فيكتب اجله ورزقه وعمله ، وشقي او سعيد» . وهذه الأحاديث تأتي إن شاء الله فى مواضعها . فهذا القدر هو الذي أنكره «القدرية» الذين كانوا فى اواخر زمن الصحابة . وقد روى ان اول من ابتدعه بالعراق رجل من اهل البصرة يقال له : سيسويه من ابناء المجوس ، وتلقاه عنه معبد الجهني ، ويقال : اول ما حدث فى الحجاز لما احترقت الكعبة ، فقال

رجل : احترقت بقدر الله تعالى . فقال آخر : لم يقدر الله هذا . ولم يكن على عهد الخلفاء الراشدين احد ينكر القدر ؛ فلما ابتدع هؤلاء التكذيب بالقدر رده عليهم من بقى من الصحابة ، كعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عباس ، وواثلة بن الأسقع ، وكان اكثره بالبصرة والشام ، وقليل منه بالحجاز ؛ فأكثر كلام السلف فى ذم هؤلاء القدرية : ولهذا قال وكيع بن الجراح : القدرية يقولون : الأمر مستقبل ، وإن الله لم يقدر الكتابة والأعمال ؛ والمرجئة يقولون : القول يجزيء من العمل ؛ والجهمية يقولون : المعرفة تجزيء من القول والعمل . قال وكيع : وهو كله كفر ورواه ابن [1] .

ولكن لما اشتهر الكلام فى القدر ؛ ودخل فيه كثير من اهل النظر والعباد ، صار جمهور القدرية يقرون بتقدم العلم ، وإنما ينكرون عموم المشيئة والخلق . وعن عمرو بن عبيد فى إنكار الكتاب المتقدم روايتان . وقول أولئك كفرهم عليه مالك ، والشافعى ، واحمد وغيرهم . واما هؤلاء فهم مبتدعون ضالون لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك ؛ وفى هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد كتب عنهم العلم . وأخرج البخاري ومسلم لجماعة منهم ، لكن من كان داعية اليه لم يخرجوا له . وهذا مذهب فقهاء اهل الحديث كأحمد وغيره : ان من كان داعية الى بدعة فانه يستحق العقوبة لدفع ضرره عن الناس ، وان كان فى الباطن مجتهداً ، وأقل عقوبته أن يهجر ، فلا يكون له مرتبة فى الدين

---

(١) بياض فى الأصل .

لا يؤخذ عنه العلم ولا يستقضى ، ولا تقبل شهادته ، ونحو ذلك . ومذهب مالك قريب من هـذا ، ولهذا لم يخرج اهل الصحيح لمن كان داعية ، ولكن رووا هم وسائر أهل العلم عن كثير ممن كان يرى في الباطن رأي القدرية ، والمرجئة والخوارج . والشيعة .

وقال احمد : لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا اكثر أهل البصرة . وهذا لأن « مسألة خلق افعال العباد ، وارادة الكائنات » مسألة مشكلة ، وكما ان القـدرية من المعتزلة وغيرهم اخطئوا فيها ،فقد اخطأ فيها كثير ممن رد عليهم او اكثرهم ، فانهم سلكوا فى الرد عليهم مسلك جهم بن صفوان ، واتباعه ، فنفوا حكمة الله فى خلقه وامره ، ونفوا رحمته بعباده ، ونفوا ما جعله من الاسباب خلقاً وامراً ، وجحدوا من الحقائق الموجودة فى مخلوقاته وشرائعه ما صار ذلك سبباً لنفور اكثر العقلاء الذين فهموا قولهم عما يظنونه السنة ، اذ كانوا يزعمون ان قول اهل السنة في القدر هو القول الذي ابتدعه جهم ، وهذا لبسطه موضع آخر .

وانما المقصود هنا ان «السلف» فى ردهم على المرجئة والجهمية والقدرية وغيرهم ، يردون من اقوالهم ما يبلغهم عنهم وما سمعوه من بعضهم . وقد يكون ذلك قول طائفة منهم ، وقد يكون نقلاً مغيراً . فلهذا ردوا على المرجئة الذين يجعلون الدين والايمان واحداً ؛ ويقولون هو القول . وايضاً فلم يكن حدث فى زمنهم من المرجئة من يقول : الايمان هو مجرد القول بلا تصديق ولا معرفة

في القلب . فان هذا انما احدثه ابن كرام ، وهذا هو الذي انفرد به ابن كرام . ولما سائر ما قاله ، فأقــوال قيلت قبله ، ولهذا لم يذكر الاشعري ولا غيره ممن يحكي مقالات الناس عنـه قولا انفرد به الا هذا .

واما سائر اقواله فيحكونهـا عن ناس قبـله ولا يذكرونه . ولم يكن ابن كرام فى زمن احمد بن حنبل ، وغيره من الأئمة ، فلهذا يحكون اجماع النـاس على خلاف هذا القول ؛ كما ذكر ذلك ابو عبدالله احمد بن حنبــل وابو ثور وغيرهما . وكان قول المرجئة قبله : ان الايمان قول باللسان وتصـديق بالقلب ، وقول جهم : انه تصديق القلب ؛ فلما قال ابن كرام : انه مجرد قول اللســان . صارت اقوال المرجئة ثلاثة ، لكن احمد كان اعلم بمقالات الناس من غيره ، فكان يعرف قول الجهمية في الايمان ، واما ابو ثور . فلم يكن يعرفـه ، ولا يعرف الا مرجئة الفقهاء ، فلهــذا حكى الاجماع على خلاف قول الجهمية والـكرامية .

قال ابو ثور فى رده على المرجئــة كما روى ذلك ابو القــاسم الطبري اللالـكائي وغيره : عن ادريس بن عبد الـكريم قال : سأل رجل من اهل خراسان اباثور عن الايمان وما هو ، ايزيد وينقص ؟ وقول هو او قول وعمل؟ او تصديق وعمل ؟ فأجابه ابو ثور بهذا فقال : سألت رحمك الله وعفـا عنـا وعنك عن الايمان ما هو ، يزيد وينقص ؟ وقول هو او قول وعمل او تصديق وعمل ؟ فأخبرك بقول الطوائف واختلافهم .

اعلم يرحمنا الله واياك : ان الايمان تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح ، وذلك انه ليس بين اهل العلم خلاف في رجل لو قال : اشهد ان الله عز وجل واحد ، وان ما جاءت به الرسل حق ، واقر بجميع الشرائع ، ثم قال : ما عقد قلبي على شيء من هذا ؛ ولا اصدق به ؛ انه ليس بمسلم ؛ ولو قال : المسيح هو الله وجحد امر الاسلام ، ثم قال : لم يعقد قلبي على شيء من ذلك انه كافر باظهار ذلك وليس بمؤمن ، فلما لم يكن بالاقرار اذالم يكن معه التصديق مؤمناً ، ولا بالتصديق اذا لم يكن معه الاقرار مؤمناً ، حتى يكون مصدقاً بقلبه مقراً بلسانه . فاذا كان تصديقاً بالقلب واقراراً باللسان ، كان عندهم مؤمناً ، وعند بعضهم لا يكون مؤمناً حتى يكون مع التصديق عمل ، فيكون بهذه الاشياء اذا اجتمعت مؤمناً ، فلما نفوا ان يكون الايمان بشيء واحد ، وقالوا : يكون بشيئين فى قول بعضهم ، وثلاثة اشياء فى قول غيرهم . لم يكن مؤمناً الا بما اجمعوا عليه من هذه الثلاثة الاشياء ؛ وذلك انه اذا جاء بهذه الثلاثة الاشياء . فكلهم يشهد انه مؤمن ؛ فقلنا بما اجمعوا عليه من التصديق بالقلب ، والاقرار باللسان ، والعمل بالجوارح .

فأما الطائفة التي ذهبت الى ان العمل ليس من الايمان ، فيقال لهم : ماذا أراد الله من العباد إذ قال لهم : اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، الاقرار بذلك او الاقرار والعمل ؟ فان قالت : إن الله اراد الاقرار ولم يرد العمل ؛ فقد كفرت . عند اهل العلم . من قال : ان الله لم يرد من العباد ان يصلوا ولا يؤتوا الزكاة ؟ وإن قالت : أراد منهم الاقرار قيل : فاذا كان اراد منهم الأمرين جميعاً

لم زعمتم انه يكون مؤمناً بأحدهما دون الآخر ، وقد ارادهما جميعاً ؟ ارأيتم لو ان رجلاً قال : اعمل جميع ما امر به الله ولا اقر به ، ايكون مؤمناً ؟ فان قالوا : لا . قيل لهم : فان قال : اقر بجميع ما امر الله به ، ولا اعمل به ؛ ايكون مؤمناً ؟ فان قالوا : نعم . قيل ما الفرق ؟ فقد زعمتم ان الله اراد الأمرين جميعاً فان جاز ان يكون بأحدهما مؤمنا اذا ترك الآخر ، جاز ان يكون بالآخر إذا عمل به ولم يقر مؤمناً ، لا فرق بين ذلك . فان احتج فقال : لو ان رجلاً اسلم فأقر بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ايكون مؤمناً بهذا الاقرار قبل ان يجيء وقت عمل ؟ قيل له : انما يطلق له الاسم بتصديقه ان العمل عليه بقوله : ان يعمله في وقته إذا جاء ، وليس عليه في هذا الوقت الاقرار بجميع ما يكون به مؤمناً ؛ ولو قال : اقر ولا اعمل لم يطلق عليه اسم الايمان .

قلت : يعني الامام ابو ثور ــ رحمه الله ــ انه لا يكون مؤمناً إلا اذا التزم بالعمل مع الاقرار ، والا فلو اقر ولم يلتزم العمل لم يكن مؤمناً . وهــذا الاحتجاج الذي ذكره ابو ثور هو دليل على وجوب الأمرين : الاقرار والعمل وهو يدل على ان كلا منهما من الدين ، وانه لا يكون مطيعاً لله ، ولا مستحقا للثواب ولا ممدوحا عند الله ورســوله إلا بالأمرين جميعا ، وهو حجة على من يجعل الأعمال خارجة عن الدين والايمان جميعا . واما من يقول : انها من الدين ويقول : إن الفاسق مؤمن حيث اخذ بعض الدين وهو الايمان عندهم ، وترك بعضه ؛ فهذا يحتج عليه بشيء آخر ، لكن ابو ثور وغيره من علماء السنة عامة احتجاجهم مع هــذا الصنف ، واحمد كان اوسع علما بالأقوال والحجج من

ابي ثور . ولهذا انما حكى الاجماع على خلاف قول الكرامية ؛ ثم انه تورع فى النطق على عادته ، ولم يجزم بنفي الخلاف ؛ لكن قال : لا احسب احداً يقول هذا ، وهذا فى رسالته الى ابى عبد الرحيم الجوزجانى ، ذكرها الخلال فى كتاب « السنة » ــ وهو اجمع كتاب يذكر فيه اقوال احمد فى مسائل الأصول الدينية وان كان له اقوال زائدة على ما فيه ، كما ان كتابه فى العلم اجمع كتاب يذكر فيه اقوال احمد فى الأصول الفقهية .

قال المروذي : رأيت ابا عبد الرحيم الجوزجانى عند ابى عبد الله ، وقد كان ذكره ابو عبد الله فقال : كان ابوه مرجئا ، او قال : صاحب رأي . واما ابو عبد الرحيم فأثنى عليه ، وقد كان كتب الى ابى عبد الله من خراسان يسأله عن الايمان وذكر الرسالة من طريقين عن ابى عبد الرحيم ، وجواب احمد

بسم الله الرحمن الرحيم : احسن الله الينا واليك فى الأمور كلها ، وسلمنا واياك من كل شر برحمته ، اتانى كتابك تذكر ما تذكر من احتجاج من احتج من المرجئة . واعلم رحمك الله ان الخصومة فى الدين ليست من طريق اهل السنة وان تأويل من تأول القرآن بلا سنة تدل على معنى ما اراد الله منه ، او اثر عن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرف ذلك بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، او عن اصحابه ، فهم شاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وشهدوا تنزيله ، وما قصه الله له فى القرآن ، وما عني به ، وما اراد به اخاص هو ام

عام ؟ فأما من تأوله على ظاهره بلا دلالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا احد من الصحابة ، فهذا تأويل اهل البدع ؛ لأن الآية قد تكون خاصة ويكون حكمها حكما عاما ، ويكون ظاهرها على العموم ، وانما قصدت لشيء بعينه . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعبر عن كتاب الله وما اراد ، واصحابه اعلم بذلك منا ، لمشاهدتهم الامر وما اريد بذلك ، فقد تكون الآية خاصة ؛ اى معناها مثل قوله تعالى : (يوصيكم الله فى اولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وظاهرها على العموم ، اي من وقع عليه اسم (ولد) فله ما فرض الله ، فجاءت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا يرث مسلم كافراً .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم — وليس بالثبت — الا انه عن اصحابه انهم لم يورثوا قاتلاً ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعبر عن الكتاب ان الآية انما قصدت للمسلم لا للكافر ، ومن حملها على ظاهرها لزمه ان يورث من وقع عليه اسم الولد كافراً كان اوقاتلاً ، وكذلك احكام الوارث من الابوين وغير ذلك مع آي كثير يطول بها الكتاب ، وانما استعملت الأمة السنة من النبي صلى الله عليه وسلم ومن اصحابه ، الا من دفع ذلك من اهل البدع والخوارج وما يشبههم ، فقد رأيت الى ما خرجوا .

قلت : لفظ المجمل والمطلق والعام كان فى اصطلاح الأئمة ، كالشافعي واحمد ، وابي عبيد واسحاق وغيرهم سواء ، لا يريدون بالمجمل ما لايفهم منه ، كما فسره به بعض المتأخرين وأخطأ في ذلك ، بل المجمل ما لا يكفي وحده فى

العمل به وان كان ظاهره حقاً ، كما فى قوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فهذه الآية ظاهرها ومعناها مفهوم ، ليست مما لا يفهم المراد به ؛ بل نفس ما دلت عليه لا يكفي وحده فى العمل فان المأمور به صدقة تكون مطهرة مزكية لهم . وهذا انما يعرف ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا قال احمد يحذر المتكلم فى الفقه هذين « الأصلين » . المجمل والقياس . وقال : اكثر ما يخطيء الناس من جهة التأويل والقياس ، يريد بذلك أن لا يحكم بما يدل عليه العام والمطلق قبل النظر فيما يخصه ويقيده ؛ ولا يعمل بالقياس قبل النظر فى دلالة النصوص هل تدفعه ، فان اكثر خطأ الناس تمسكهم بما يظنونه من دلالة اللفظ والقياس ؛ فالأمور الظنية لا يعمل بها حتى يبحث عن المعارض بحثاً يطمئن القلب اليه ، وإلا اخطأ من لم يفعل ذلك ، وهذا هو الواقع فى المتمسكين بالظواهر والأقيسة ، ولهذا جعل الاحتجاج بالظواهر مع الاعراض عن تفسير النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه طريق اهل البدع . وله فى ذلك مصنف كبير .

وكذلك التمسك بالأقيسة مع الاعراض عن النصوص والآثار ، طريق اهل البدع . ولهذا كان كل قول ابتدعه هؤلاء قولاً فاسداً ، وانما الصواب من اقوالهم ما وافقوا فيه السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وقوله تعالى : (يوصيكم الله فى اولادكم) سماه عاماً وهو مطلق فى الأحوال ، يعمها على طريق البدل كما يعم قوله : (فتحرير رقبة) جميع الرقاب ، لا يعمها كما يعم لفظ الولد

للأولاد . ومن أخذ بهذا لم يأخذ بما دل عليه ظاهر لفظ القرآن ، بل اخذ بما ظهر له مما سكت عنه القرآن ، فكان الظهور لسكوت القرآن عنه ، لا لدلالة القرآن على انه ظاهر ، فكانوا متمسكين بظاهر من القول لا بظاهر القول ؛ وعمدتهم عدم العلم بالنصوص التى فيها علم بما قيد ، وإلا فكل ما بينه القرآن وأظهره فهو حق ؛ بخلاف ما يظهر للانسان لمعنى آخر غير نفس القرآن يسمى ظاهر القرآن ، كاستدلالات اهل البدع من المرجئة والجهمية والخوارج والشيعة .

قال احمد : واما من زعم ان الايمان الاقرار ، فما يقول فى المعرفة ؟ هل يحتاج الى المعرفة مع الاقرار ؟ وهل يحتاج ان يكون مصدقا بما عرف ؟ فان زعم انه يحتاج الى المعرفة مع الاقرار فقد زعم انه من شيئين ، وان زعم انه يحتاج ان يكون مقراً ومصدقا بما عرف فهو من ثلاثة اشياء ؛ وان جحد وقال : لا يحتاج الى المعرفة والتصديق ، فقد قال قولاً عظيماً ، ولا احسب احداً يدفع المعرفة والتصديق وكذلك العمل مع هذه الأشياء .

قلت احمد وابو ثور وغيرهما من الأئمة كانوا قد عرفوا أصل قول المرجئة ، وهو ان الايمان لا يذهب بعضه ويبقى بعضه ؛ فلا يكون إلا شيئاً واحداً فلا يكون ذا عدد : اثنين او ثلاثة ، فانه اذا كان له عدد ، أمكن ذهاب بعضه وبقاء بعضه ، بل لا يكون إلا شيئاً واحداً ، ولهذا قالت الجهمية : انه شيء واحد فى القلب . وقالت الكرامية : انه شيء واحد على اللسان ، كل ذلك فراراً من

تبعض الايمــان وتعدده ، فلهذا صاروا يناظرونهم بما يدل على انه ليس شيئاً واحداً ، كما قلتم . فأبو ثور احتج بمـا اجتمع عليه « الفقهاء المرجئة » من انه تصديق وعمل ، ولم يكن بلغه قول متـكلميهم وجهميتهم ، او لم يعـد خلافهم خلافاً ، وأحمد ذكر انه لا بد من المعرفة والتصديق مع الاقرار ، وقال : ان من جحد المعرفة والتصديق فقد قال قولاً عظيماً ، فان فساد هذا القول معلوم من دين الاسلام ! ولهذا لم يذهب اليه أحد قبل الـكرامية ، مع ان الـكرامية لا تنـكر وجوب المعرفة والتصديق ؛ ولكن تقول : لا يدخل فى اسم الايمان حذراً من تبعضه وتعدده ، لأنهم رأوا أنه لا يمكن ان يذهب بعضه ويبقى بعضه ، بل ذلك يقتضي ان يجتمع فى القلب ايمــان وكبر ، واعتقدوا الاجماع على نفي ذلك ، كما ذكر هذا الاجماع الأشعري وغيره .

وهــذه الشبهة التى اوقعتهم مع علم كثير منهم وعبادته وحسن اسلامه وايمانه ، ولهذا دخل فى « ارجاء الفقهاء » جماعة هم عنــد الأمة اهل علم ودين . ولهذا لم يكفر احد من السلف احداً من « مرجئة الفقهاء » بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال ؛ لا من بدع العقائد ، فان كثيراً من النزاع فيها لفظي ، لـكن اللفظ المطابق للـكتاب والسنة هو الصواب ، فليس لأحـد ان يقول بخلاف قول الله ورسوله ، لا سيما وقد صار ذلك ذريعة الى بدع اهل الـكلام من اهل الارجاء وغيرهم والى ظهور الفسق ، فصار ذلك الخطأ اليسير فى اللفظ سبباً لخطأ عظيم فى العقائد والأعمال ، فلهذا عظم القول فى ذم « الارجاء » حتى قال ابراهيم النخعى : لفتنتهم ــ يعنى المرجئة ــ اخوف على هذه الأمة من فتنة

الأزارقة . وقال الزهرى : ما ابتدعت فى الاسـلام بدعة اضر على اهله من الارجاء . وقال الأوزاعي : كان يحي بن ابى كثير ، وقتادة يقولان : ليس شيء من الاهواء اخوف عندهم على الأمة من الارجاء . وقال شريك القاضى — وذكر المرجئة فقال — : هم اخبث قوم ، حسبك بالرافضة خبثاً ، ولـكن المرجئة يكذبون على الله . وقال سفيان الثوري : تركت المرجئة الإسلام أرق من ثوب سابرى وقال قتادة : انما حدث الارجاء بعد فتنة فرقة ابن الاشعث .

وسئل ميمون بن مهران عن كلام « المرجئة » فقال : أنا أكبر من ذلك وقال سـعيد بن جبير لذر الهمداني : ألا تستحي من رأي انت اكبر منه ؟ ! وقال ايوب السختياني : انا اكبر من دين المرجئة ، إن اول من تكلم في الارجاء رجل من اهل المدينة من بنى هاشم يقال له : الحسن . وقال زاذان : اتينا الحسن ابن محمد فقلنا : ما هذا الـكتاب الذى وضعت ؟ وكان هو الذي اخرج كتاب المرجئة فقال لي : يا ابا عمر لوددت اني كنت مت قبل ان اخرج هذا الـكتاب او اضع هذا الـكتاب . فان الخطأ فى اسم الايمان ليس كالخطأ فى اسم محدث ؛ ولا كالخطأ في غيره من الاسماء ، اذ كانت احـكام الدنيا والآخرة متعلقة باسم الايمان والاسلام والـكفر والنفاق .

واحمد — رضي الله عنه — فرق بين المعرفة التى فى القلب وبين التصديق الذي فى القلب ، فان تصديق اللسان هو الاقرار ؛ وقد ذكر ثلاثة اشياء ، وهذا يحتمل « شيئين » يحتمل ان يفرق بين تصديق القلب ومعرفته ، وهذا قول

ابن كلاب ، والقلانسي . والاشعري واصحابه يفرقون بين معرفة القلب وبين تصديق القلب ، فان تصديق القلب قوله . وقول القلب عندهم ليس هو العلم ، بل نوعاً آخر ؛ ولهذا قال احمد : هل يحتاج الى المعـرفة مع الاقرار ؟ وهل يحتاج الى ان يكون مصدقاً بما عرف ؟ فان زعم انه يحتاج الى المعرفة مع الاقرار فقد زعم انه من شيئين ، وان زعم انه يحتاج ان يكون مقراً ومصدقاً بما عرف فهو من ثلاثة اشياء ، فان جحد وقال : لا يحتاج الى المعرفة والتصديق . فقد اتى عظيما ولا احسب امرءاً يدفع المعرفة والتصديق .

والذين قالوا : الايمـان هو الاقرار . فالاقرار باللسان يتضمن التصديق باللسان . والمرجئة لم تختلف ان الاقرار باللسان فيـه التصديق ؛ فعلم انه اراد تصديق القلب ومعرفته مع الاقرار باللسان ؛ إلا ان يقال : اراد تصديق القلب واللسان جميعاً مع المعرفة والاقرار ؛ ومراده بالاقرار الالتزام لا التصديق كما قال تعالى : (واذ اخـذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصّدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ؛ قال أأقررتم واخـذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين) فالميثاق المأخوذ على انهم يؤمنون به وينصرونه ، وقد امروا بهذا ، وليس هذا الاقرار تصديقاً، فان الله تعالى لم يخبرهم بخبر ؛ بل اوجب عليهم اذا جاءهم ذلك الرسول ان يؤمنوا به وينصروه . فصدقوا بهـذا الاقرار والتزموه ، فهذا هو اقرارهم . والانسان قد يقر للرسول بمعني انه يلتزم ما يأمر به مع غير معرفة ، ومن غير تصديق له بأنه رسول الله ، لـكن لم يقل احد من المرجئة : ان هذا الاقرار يكون ايماناً .

بل لابد عنـدهم من الاقرار الخبري وهو انه يقر له بأنه رسول الله كما يقر المقر بما يقر به من الحقوق ، ولفظ الاقرار يتناول الالتزام والتصديق ، ولابد منهما ، وقد يراد بالاقرار مجرد التصديق بدون التزام الطاعة ؛ والمرجئة تارة يجعلون هذا هو الايمان وتارة يجعلون الايمان التصديق والالتزام معاً ، هذا هو الاقرار الذي يقوله فقهاء المرجئة : إنه ايمان ، وإلا لو قال : انا اطيعه ولا اصدق انه رسول الله ، او اصدقه ولا التزم طاعته ، لم يكن مسلماً ولا مؤمناً عندهم .

واحمد قال : لابد مع هـذا الاقرار ان يـكون مصدقاً ، وان يكون عارفاً ، وان يـكون مصدقاً بما عرف . وفى رواية اخرى : مصدقاً بما اقر ، وهـذا يقتضي انه لابد من تصديق باطن ، ويحتمل ان يكون لفـظ التصديق عنـده يتضمن القول والعمل جميعـاً ، كما قد ذكرنا شواهده انه يقال : صدق بالقـول والعمل ، فيـكون تصديق القلب عنده يتضمن انه مع معرفة قلبـه انه رسول الله قد خضع له وانقاد ؛ فصدقه بقول قلبـه وعمل قلبه محبة وتعظيماً ، والا فمجرد معرفة قلبـه انه رسول الله مع الاعراض عن الانقياد له ولما جاء به ، اما حسداً وإما كبراً ، وإما لمحبة دينه الذي يخالفه وإما لغير ذلك ، فلا يـكون ايماناً . ولابد فى الايمـان من علم القلب وعمـله فإن اراد احمد بالتصديق انه مع المعرفة به صار القلب مصدقا له ، تابعاً له ، محبـا له معظما له ، فان هذا لا بد منه ، ومن دفع هـذا عن ان يـكون من الايمان ، فهو من جنس من دفع المعرفـة من ان تكون من الايمان ، وهـذا اشبه بأن

يحمل عليه كلام احمد ؛ لأن وجوب انقيـاد القلب مع معرفتـه ظاهر ثابت بدلائل الـكتاب والسنة وإجمـاع الأمة ، بل ذلك معلوم بالاضطرار من دين الاسـلام ، ومن نازع من الجهمية فى ان انقيـاد القلب من الايمان فهو كمن نازع من الـكرامية فى ان معرفة القلب من الايمان ، فـكان حمل كلام احمد على هذا هو المناسب لـكلامه فى هذا المقام .

وايضاً فان الفرق بين معرفة القلب وبين مجرد تصديق القلب الخالى عن الانقياد الذي يجعل قول القلب ؛ امر دقيق ، وا كثر العقلاء ينكرونه وبتقـدير صحته لا يجب على كل احد ان يوجب شيئين لا يتصـور الفرق بينهما . وا كثر الناس لا يتصورون الفرق بين معرفة القلب وتصديقه ، ويقولون : ان ما قاله ابن كلاب ، والأشعري من الفرق ، كلام باطل لا حقيقـة له ، وكثير من اصحابه اعترف بعدم الفرق ، وعمدتهم من الحجة إنما هو خبر الـكاذب ، قالوا : ففي قلبه خبر بخلاف علمه ، فدل على الفرق . فقال لهم الناس : ذلك بتقـدير خـبر وعلم ليس هو علماً حقيقياً ولا خـبراً حقيقياً ، ولما اثبتوه من قول القلب المخالف للعـلم والارادة ، إنما يعود الى تقدير علوم وإرادات لا الى جنس آخر يخالفها .

ولهذا قالوا : ان الا نسان لا يمـكنه ان يقوم بقلبه خبر بخلاف علمه ؛ وانما يمـكنه ان يقول ذلك بلسانه ، واما انه يقوم بقلبه خبر بخلاف ما يعلمه ، فهذا غير ممـكن ، وهذا مما استدلوا به على ان الرب تعالى لا يتصور قيام الـكذب

بذاته ؛ لأنه بكل شيء عليم . ويمتنع قيام معنى يضاد العلم بذات العالم . والخبر النفساني الكاذب يضاد العلم .

فيقال لهم : الخبر النفساني لو كان خلافاً للعلم لجاز وجود العلم مع ضده كما يقولون مثل ذلك في مواضع كثيرة . وهي من اقوى الحجج التي يحتج بها القاضي ابو بكر وموافقوه في مسألة العقل وغيرها ، كالقاضي ابي يعلى ، وابي محمد ابن اللبان ، وابي علي بن شاذان ، وابي الطيب ، وابي الوليد الباجي ، وابي الخطاب ، وابن عقيل وغيرهم ؛ فيقولون : العقل نوع من العلم ، فانه ليس بضد له فان لم يكن نوعا منه كان خلافاً له ، ولو كان خلافاً لجاز وجوده مع ضد العقل وهذه الحجة وان كانت ضعيفة ــ كما ضعفها الجمهور ، وابو المعالي الجويني ممن ضعفها ــ فان ما كان مستلزماً لغيره لم يكن ضداً له ، إذ قد اجتمعا ، وليس هو من نوعه : بل هو خلاف له على هذا الاصطلاح الذي يقسمون فيه كل اثنين الى ان يكونا مثلين ، او خلافين او ضدين ، فالملزوم كالارادة مع العلم او كالعلم مع الحياة ، ونحو ذلك ليس ضداً ولا مثلاً ؛ بل هو خلاف ، ومع هذا فلا يجوز وجوده مع ضد اللازم ، فان ضد اللازم ينافيه ، ووجود الملزوم بدون اللازم محال ، كوجود الارادة بدون العلم ، والعلم بدون الحياة ، فهذان خلافان عندهم ، ولا يجوز وجود احدهما مع ضد الآخر .

كذلك العلم هو مستلزم للعقل ، فكل عالم عاقل ، والعقل شرط في العلم ، فليس مثلاً له ولا ضداً ولا نوعاً منه ، ومع هذا لا يجوز وجوده مع ضد العقل ،

لكن هذه الحجة تقال لهم فى العلم مع كلام النفس الذي هو الخـبر ، فانه ليس ضداً ولا مثلاً ، بل خلافاً ؛ فيجوز وجود العلم مع ضد الخبر الصـادق وهو الـكاذب ، فبطلت تلك الحجة على امتناع الـكذب النفساني من العالم ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا ان الانسان اذا رجع الى نفسه عسر عليه التفريق بين علمه بأن الرسول صادق وبين تصديق قلبه تصديقاً مجرداً عن انقياد وغيره من اعمال القلب بأنه صادق .

ثم احتج «الامام احمد» على ان الأعمال من الايمان بحجج كثيرة فقال وقد سأل وفد عبد القيس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال : «شهادة ان لا إله الا الله وان محمداً رسول الله ، واقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وان تعطوا خمساً من المغنم » فجعل ذلك كله من الايمان . قال : وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الحياء شعبة من الايمان » وقال : « اكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » . وقال : « ان البذاذة من الإيمان » . وقال « الايمان بضع وستون شعبة ، فأدناها اماطة الأذى عن الطريق ، وارفعها قول لا إله إلا الله » مع اشياء كثيرة ، منها : « اخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان » : وما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى صفة المنافق : « ثلاث من كن فيه فهو منافق » مع حجج كثيرة . وما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم فى تارك الصلاة وعن اصحابه من بعده ، ثم ما وصف الله تعالى فى كتابه

من زيادة الايمان فى غير موضع ، مثل قوله : (هو الذي انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) وقال : (ليستيقن الذين اوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايماناً) وقال : (واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) وقال تعالى (فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون) وقال : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون) وقال تعالى : (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وقال تعالى : (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين) وقال : (وما امروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة).

قال احمد : ويلزمه ان يقول : هو مؤمن باقراره ، وان اقر بالزكاة فى الجملة ولم يجد فى كل مائتى درهم خمسة ، انه مؤمن ، فيلزمه ان يقول : اذا اقر ثم شد الزنار فى وسطه وصلى للصليب وأتى الكنائس والبيع وعمل الكبائر كلها إلا انه فى ذلك مقر بالله ؛ فيلزمه ان يكون عنده مؤمنا ، وهذه الأشياء من اشنع ما يلزمهم .

« قلت » : هذا الذي ذكره الامام احمد من احسن ما احتج الناس به عليهم ، جمع فى ذلك جملاً بقول غيره بعضها ، وهذا الالزام لا محيد لهم عنه . ولهذا لما عرف متكلمهم مثل جهم ومن وافقه انه لازم التزموه . وقالوا : لوفعل

[مافعل] من الأفعال الظاهرة لم يكن بذلك كافراً فى الباطن ؛ لـكن يكون دليلاً على الـكفر فى احكام الدنيا ، فاذا احتج عليهم بنصوص تقتضي انه يكون كافراً فى الآخرة . قالوا : فهذه النصوص تدل على انه فى الباطن ليس معه من معرفة الله شيء ، فانها عندهم شيء واحد ، فخالفوا صريح المعقول وصريح الشرع .

وهذا القول مع فساده عقلاً وشرعا ، ومع كونه عند التحقيق لا يثبت إيمانا ؛ فانهم جعلوا الايمــان شيئا واحداً لا حقيقة له ، كما قالت الجهمية ومن وافقهم مثل ذلك في وحـــدة الرب انه ذات بلا صفات . وقالوا بأن القرآن مخلوق وأن الله لا يرى فى الآخرة ، وما يقوله [ابن كلاب] من وحدة الـكلام وغيره من الصفات .

فقولهم فى الرب وصفاته وكلامه والايمان به يرجع الى تعطيل محض ، وهذا قد وقع فيه طوائف كثيرة من المتأخرين المنتسبين الى السنة والفقه والحديث المتبعين للأئمة الأربعــة ، المتعصبين للجهمية والمعتزلة ؛ بل وللمرجئة أيضا ؛ لكن لعدم معرفتهم بالحقائق التى نشأت منها البدع يجمعون بين الضدين ؛ ولـكن من رحمة الله بعباده المسلمين ان الأئمة الذين لهم فى الأمة لسان صدق ، مثل الأئمــة الأربعة وغيرهم كمالك ، والثوري ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، وكالشافعي واحمد ، واسحاق ، وابى عبيد ، وابى حنيفة ، وابى يوسف ، ومحمد ؛ كانوا ينـكرون على اهل الـكلام من الجهمية قولهم فى القرآن والايمان وصفات الرب وكانوا متفقين على ما كان عليه السلف من ان الله يرى فى الآخــرة ، وان

القرآن كلام الله غير مخلوق ، وان الايمان لا بد فيه من تصديق القلب واللسان فلو شتم الله ورسوله كان كافراً باطنا وظاهراً عندهم كلهم ، ومن كان موافقا لقول جهم فى الايمان بسبب انتصار ابى الحسن لقوله فى الايمان ، يبقى تارة يقول بقول السلف والأئمة ، وتارة يقول بقول المتكلمين الموافقين لجهم: حتى فى مسألة سب الله ورسوله رأيت طائفة من الحنبليين ، والشافعيين والمالكيين ، اذا تكلموا بكلام الأئمة قالوا : ان هذا كفر باطنا وظاهراً .

واذا تكلموا بكلام اولئك قالوا : هذا كفر فى الظاهر ، وهو فى الباطن يجوز ان يكون مؤمنا تام الايمان ، فان الايمان عندهم لا يتبعض . ولهذا لما عرف القاضى عياض هـذا من قول بعض اصحابه ، انكره ونصر قول مالك وأهل السنة ، واحسن فى ذلك .

وقد ذكرت بعض ما يتعلق بهذا في كتاب « الصارم المسلول على شاتم الرسول » وكذلك تجدهم فى مسائل الايمان يذكرون اقوال الأئمة ، والسلف ويبحثون بحثا يناسب قول الجهمية ، لأن البحث أخذوه من كتب اهل الكلام الذين نصروا قول جهم فى مسائل الايمان .

والرازي لما صنف « مناقب الشافعي » ذكر قوله فى الايمان . وقول الشافعي قول الصحابة والتابعين ، وقد ذكر الشافعي أنه إجماع من الصحابة والتابعين . ومن لقيه استشكل قول الشافعي جداً لأنه كان قد انعقد فى نفسه شبهة اهل البدع في الايمان : من الخوارج والمعتزلة والجهمية والكرامية

وسائر المرجئة، وهو ان الشيء المركب اذا زال بعض اجزائه لزم زواله كله؛ لكن هو لم يذكر إلا ظاهر شبهتهم. والجواب عما ذكروه هو سهل، فانه يسلم له ان الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت؛ لكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء.

والشافعي مع الصحابة والتابعين وسائر السلف يقولون: إن الذنب يقدح فى كمال الايمان، ولهذا نفى الشارع الايمان عن هؤلاء، فذلك المجموع الذي هو الايمان لم يبق مجموعا مع الذنوب، لكن يقولون بقي بعضه: إما اصله وإما اكثره واما غير ذلك؛ فيعود الكلام الى انه يذهب بعضه ويبقى بعضه.

ولهذا كانت المرجئة تنفر من لفظ النقص أعظم من نفورها من لفظ الزيادة؛ لأنه اذا نقص لزم ذهابه كله عندهم إن كان متبعضاً متعدداً عند من يقول بذلك، وهم الخوارج والمعتزلة. واما الجهمية فهو واحد عندهم لا يقبل التعدد؛ فيثبتون واحداً لا حقيقة له؛ كما قالوا مثل ذلك فى وحدانية الرب ووحدانية صفاته عند من اثبتها منهم.

ومن العجب ان الأصل الذي اوقعهم فى هذا، اعتقادهم أنه لا يجتمع فى الانسان بعض الايمان وبعض الكفر، او ما هو إيمان وما هو كفر، واعتقدوا ان هذا متفق عليه بين المسلمين كما ذكر ذلك ابو الحسن وغيره، فلأجل اعتقادهم هذا الاجماع وقعوا فيما هو مخالف للاجماع الحقيقي، إجماع

السلف الذي ذكره غير واحد من الأئمة ؛ بل وصرح غير واحد منهم بكفر من قال بقول جهم فى الايمان .

ولهذا نظائر متعددة ؛ يقول الانسان قولاً مخالفاً للنص والاجماع القديم حقيقة ويكون معتقداً انه متمسك بالنص والاجماع . وهذا اذا كان مبلغ علمه واجتهاده ؛ فالله يثيبه على ما اطاع الله فيه من اجتهاده ويغفر له ما عجز عن معرفته من الصواب الباطن ، وهم لما توهموا ان الايمان الواجب على جميع الناس نوع واحد ؛ صار بعضهم يظن ان ذلك النوع من حيث هو لا يقبل التفاضل . فقال لي مرة بعضهم : الايمان من حيث هو ايمان لا يقبل الزيادة والنقصان . فقلت له : قولك من حيث هو ؛ كما تقول : الانسان من حيث هو انسان ، والحيوان من حيث هو حيوان ، والوجود من حيث هو وجود ، والسواد من حيث هو سواد وامثال ذلك لا يقبل الزيادة والنقصان والصفات ؛ فتثبت لهذه المسميات وجوداً مطلقاً مجرداً عن جميع القيود والصفات وهذا لا حقيقة له فى الخارج ، وانما هو شيء يقدره الانسان فى ذهنه كما يقدر موجوداً لا قديماً ولا حادثاً ولا قائماً بنفسه ولا بغيره ، ويقدر انساناً لا موجوداً ولا معدوماً ، ويقول : الماهية من حيث هي هي لا توصف بوجود ولا عدم ، والماهية من حيث هي هي شيء يقدره الذهن ، وذلك موجود فى الذهن لا فى الخارج . واما تقدير شيء لا يكون فى الذهن ولا فى الخارج فممتنع ، وهذا التقدير لا يكون إلا فى الذهن كسائر تقدير الأمور الممتنعة ؛ مثل تقدير صدور العالم عن صانعين ونحو ذلك ؛ فان هذه المقدرات فى الذهن .

فهكذا تقدير إيمان لايتصف به مؤمن ؛ بل هو مجرد عن كل قيد . وتقدير إنسان لا يكون موجوداً ولا معدوماً ؛ بل ما ثم ايمانٌ الا مع المؤمنين ، ولا ثم انسانية الا ما اتصف بها الانسان ؛ فكل انسان له انسانية تخصه وكل مؤمن له ايمان يخصه ؛ فانسانية زيد تشبه انسانية عمرو وليست هي هي . واذا اشتركوا فى نوع الانسانية فمعنى ذلك انهما يشتبهان فيما يوجد فى الخارج ويشتركان فى أمر كلي مطلق يكون فى الذهن .

وكذلك اذا قيل : ايمان زيد مثل ايمان عمرو ؛ فايمان كل واحد يخصه . فلو قدر ان الايمان يتماثل لكان لكل مؤمن ايمان يخصه وذلك الايمان مختص معين ليس هو الايمان من حيث هو هو ؛ بل هو ايمان معين ، وذلك الايمان يقبل الزيادة . والذين ينفون التفاضل فى هذه الأمور يتصورون فى انفسهم ايماناً مطلقاً او انساناً مطلقا ، او وجوداً مطلقا مجردا عن جميع الصفات المعينة له ثم يظنون ان هذا هو الايمان الموجود فى الناس ، وذلك لا يقبل التفاضل ولا يقبل فى نفسه التعدد ؛ اذ هو تصور معين قائم فى نفس متصوره .

ولهذا يظن كثير من هؤلاء ان الأمور المشتركة فى شيء واحد هي واحدة بالشخص والعين ؛ حتى انتهى الأمر بطائفة من علمائهم علماً وعبادة الى ان جعلوا الوجود كذلك ؛ فتصوروا ان الموجودات مشتركة فى مسمى الوجود ، وتصوروا هذا فى انفسهم ، فظنوه فى الخارج كما هو فى انفسهم ، ثم ظنوا انه الله ؛ فجعلوا الرب هو هذا الوجود الذي لا يوجد قط إلا فى نفس متصوره ؛ ولا يكون فى الخارج .

وهكذا كثير من الفلاسفة تصوروا أعداداً مجردة وحقائق مجردة ويسمونها المثل الأفلاطونية ، وزماناً مجرداً عن الحركة والتحرك ، وبعداً مجرداً عن الأجسام وصفاتها ثم ظنوا وجود ذلك فى الخارج ، وهؤلاء كلهم اشتبه عليهم ما فى الأذهان بما فى الأعيان ، وهؤلاء قد يجعلون الواحد اثنين والاثنين واحداً ؛ فتارة يجيئون الى الأمور المتعددة المتفاضلة فى الخارج فيجعلونها واحدة أو متماثلة ، وتارة يجيئون الى ما فى الخارج من الحيوان والمكان والزمان فيجعلون الواحد اثنين . والمتفلسفة والجهمية وقعوا فى هذا وهذا ، فجاءوا إلى صفات الرب التى هي أنه عالم وقادر ، فجعلوا هذه الصفة هي عين الأخرى وجعلوا الصفة هي الموصوف .

وهكذا القائلون بأن الايمان شيء واحد وأنه متماثل فى بني آدم ، غلطوا فى كونه واحداً وفى كونه متماثلاً كما غلطوا فى أمثال ذلك من مسائل « التوحيد » و « الصفات » و « القرآن » ونحو ذلك ؛ فكان غلط جهم وأتباعه فى الايمان كغلطهم فى صفات الرب الذي يؤمن به المؤمنون ، وفى كلامه وصفاته سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وكذلك السواد والبياض يقبل الاشتداد والضعف ؛ بل عامة الصفات التى يتصف بها الموصوفون تقبل التفاضل ؛ ولهذا كان العقل يقبل التفاضل ، والايجاب والتحريم يقبل التفاضل ، فيكون إيجاب اقوى من إيجاب ، وتحريم اقوى من تحريم . وكذلك المعرفة التى فى القلوب تقبل التفاضل

على الصحيح عند اهل السنة ، وفى هذا كله نزاع ، فطائفة من المنتسبين إلى السنة تنكر التفاضل فى هذا كله كما يختار ذلك القاضي ابو بكر وابن عقيل ، وغيرهما .

وقد حكي عن احمد فى التفاضل في المعرفة روايتان . وإنكار التفاضل فى هذه الصفات هو من جنس اصل قول المرجئة ، ولكن يقوله من يخالف المرجئة ، وهؤلاء يقولون : التفاضل انما هو في الأعمال ، واما الايمان الذي فى القلوب فلا يتفاضل ، وليس الأمر كما قالوه ، بل جميع ذلك يتفاضل ، وقد يقولون : إن اعمال القلب تتفاضل ؛ بخلاف معارف القلب ، وليس الأمر كذلك ، بل إيمان القلوب يتفاضل من جهة ما وجب على هذا ، ومن جهة ما وجب على هذا ، فلا يستوون فى الوجوب . وامة محمد وإن وجب عليهم جميعهم الايمان بعد استقرار الشرع ، فوجوب الايمان بالشيء المعين موقوف على ان يبلغ العبد ان كان خبراً ، وعلى ان يحتاج الى العمل به ان كان أمراً ، وعلى العلم به ان كان علماً ، والا فلا يجب على كل مسلم أن يعرف كل خبر وكل امر فى الكتاب والسنة ، ويعرف معناه ويعلمه ؛ فان هذا لا يقدر عليه احد .

فالوجوب يتنوع بتنوع الناس فيه ؛ ثم قدرهم فى اداء الواجب متفاوتة ؛ ثم نفس المعرفة تختلف بالاجمال والتفصيل ، والقوة والضعف ، ودوام الحضور ، ومع الغفلة ، فليست المفصلة المستحضرة الثابتة التى يثبت الله صاحبها بالقول

الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، كالجملة التى غفل عنها ، واذا حصل له ما يريبه فيها وذكرها فى قلبه ثم رغب الى الله فى كشف الريب . ثم احوال القلوب واعمالها مثل محبة الله ورسوله ، وخشية الله ، والتوكل عليه ، والصبر على حكمه ، والشكر له والانابة اليه ، واخلاص العمل له مما يتفاضل الناس فيها تفاضلاً لا يعرف قدره الا الله عز وجل ، ومن أنكر تفاضلهم فى هذا فهو اما جاهل لم يتصوره ، واما معاند .

قال الامام احمد : فان زعموا انهم لا يقبلون زيادة الايمان من أجل انهم لا يدرون ما زيادته ، وانها غير محدودة ، فما يقولون في أنبياء الله وكتبه ورسله ؟ هل يقرون بهم فى الجملة ؟ ويزعمون انه من الايمان ؛ فاذا قالوا : نعم ؛ قيل لهم : هل تحدونهم وتعرفون عددهم ؟ أليس انما يصيرون فى ذلك الى الاقرار بهم فى الجملة ثم يكفون عن عددهم ؟ فكذلك زيادة الايمان . وبين احمد ان كونهم لم يعرفوا منتهى زيادته ، لا يمنعهم من الاقرار بها فى الجملة ؛ كما انهم يؤمنون بالأنبياء والكتب وهم لا يعرفون عدد الكتب والرسل .

وهذا الذي ذكره احمد ، وذكره محمد بن نصر ، وغيرهما ، يبين انهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل ، وان حديث ابي ذر في ذلك لم يثبت عندهم .

واما قول من سوى بين الاسلام والايمان وقال : ان الله سمى الايمان بما سمى به الاسلام ؛ وسمى الاسلام بما سمى به الايمان ، فليس كذلك ، فان الله

ورسوله قد فسر الايمان بأنه الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وبين ايضاً ان العمل بما امر به يدخل في الايمان ،ولم يسم الله الايمان بملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت اسلاماً ؛ بل انما سمى الاسلام الاستسلام له بقلبه وقصده واخلاص الدين والعمل بما امر به ، كالصلاة والزكاة خالصاً لوجهه فهذا هو الذي سماه الله اسلاماً وجعله ديناً وقال : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) ولم يدخل فيما خص به الايمان ، وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ؛ بل ولا اعمال القلوب ، مثل حب الله ورسوله ونحو ذلك ، فان هذه جعلها من الايمان ، والمسلم المؤمن يتصف بها ، وليس اذا اتصف بها المسلم المؤمن يلزم ان تكون من الاسلام ، بل هي من الايمان ، والاسلام فرض . والايمان فرض ، والاسلام داخل فيه ؛ فمن أتى بالايمان الذي امر به ، فلا بد ان يكون قد اتى بالاسلام المتناول لجميع الأعمال الواجبة ، ومن أتى بما يسمي اسلاماً لم يلزم ان يكون قد أتى بالايمان الا بدليل منفصل ، كما علم ان من أثنى الله عليه بالاسلام من الأنبياء واتباعهم إلى الحواريين كلهم كانوا مؤمنين كما كانوا مسلمين ، كما قال الحواريون : (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) وقال : (واذ اوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) ولهذا امرنا الله بهذا وبهذا في خطاب واحد ، كما قال : (قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق

فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) وقال فى الآية الأخرى : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

وهذا يقتضي ان كل من دان بغير دين الاسلام فعمله مردود ، وهو خاسر في الآخرة ، فيقتضى وجوب دين الاسلام وبطلان ما سواه ، لا يقتضي ان مسمى الدين هو مسمى الايمان ؛ بل امرنا ان نقول : (آمنا بالله) وامرنا ان نقول (ونحن له مسلمون) ؛ فأمرنا بائنين ؛ فكيف نجعلهما واحداً !؟

واذا جعلوا الاسلام والايمان شيئاً واحداً . فاماان يقولوا :اللفظ مترادف، فيكون هذا تكريراً محضاً ثم مدلول هذا اللفظ عين مدلول هذا اللفظ ، واما ان يقولوا : بل احد اللفظين يدل على صفة غير الصفة الأخرى ، كما في أسماء الله واسماء كتابه ؛ لكن هذا لا يقتضي الأمر بهما جميعاً ، ولكن يقتضي ان يذكر تارة بهذا الوصف ، وتارة بهذا الوصف : فلا يقول قائل قد فرض الله عليك الصلوات الخمس ، والصلاة المكتوبة ، وهذا هو هذا . والعطف بالصفات يكون اذا قصد بيان الصفات لما فيها من المدح او الذم ؛ كقوله : (سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى) لا يقال : صل لربك الأعلى ولربك الذي خلق فسوى .

وقال محمد بن نصر المروزي — رحمه الله — فقد بين الله فى كتابه وسنة رسوله ان الاسلام والايمان لا يفترقان ، فمن صدق بالله فقد آمن به ، ومن آمن بالله فقد خضع له ، وقد اسلم له ؛ ومن صام وصلى وقام بفرائض الله وانتهى عما

نهى الله عنه فقد استكمل الايمان والاسلام المفترض عليه ، ومن ترك من ذلك شيئاً فلن يزول عنه اسم الايمان ولا الاسلام ، الا انه انقص من غيره فى الاسلام والايمان من غير نقصان من الاقرار بأن الله حق ، وما قال حق لاباطل وصدق لا كذب ، ولكن ينقص من الايمان الذي هو تعظيم لله وخضوع للهيبة والجلال والطاعة للمصدق به وهو الله ، فمن ذلك يكون النقصان لا من اقرارهم بأن الله حق ، وما قال صدق .

فيقال : ما ذكره يدل على ان من آتى بالايمان الواجب فقد اتى بالاسلام ؛ وهذا حق ، ولكن ليس فيه ما يدل عن ان من اتى بالاسلام الواجب فقد اتى بالايمان ، فقوله : من آمن بالله فقد خضع له وقد استسلم له حق ؛ لكن اي شيء فى هذا يدل على ان من اسلم لله وخضع له ، فقد آمن به وبملائكته وبكتبه ورسله والبعث بعد الموت ؟ وقوله : إن الله ورسوله قد بين ان الاسلام والايمان لا يفترقان ، إن اراد ان الله اوجبهما جميعاً ونهى عن التفريق بينهما ، فهذا حق ؛ وان اراد ان الله جعل مسمى هذا مسمى هذا ، فنصوص الكتاب والسنة تخالف ذلك ، وما ذكر قط نصاً واحداً يدل على اتفاق المسلمين .

وكذلك قوله : من فعل ما امر به وانتهى عما نهي عنه فقد استكمل الايمان والاسلام ، فهذا صحيح اذا فعل ما امر به باطناً وظاهراً ، ويكون قد استكمل الايمان والاسلام الواجب عليه ، ولايلزم ان يكون إيمانه واسلامه مساوياً للايمان والاسلام الذى فعله اولوا العزم من الرسل ، كالخليل ابراهيم ، ومحمد

خاتم النبيين ، عليهما الصلاة والسلام ، بل كان معه من الايمان والاسلام مالا يقدر عليه غيره ممن ليس كذلك ولم يؤمر به .

وقوله : من ترك من ذلك شيئاً فلن يزول عنه اسم الاسلام والايمان إلا انه انقص من غيره في ذلك . فيقال : ان اريد بذلك انه بقى معه شيء من الاسلام والايمان ، فهذا حق كما دلت عليه النصوص ، خلافاً للخوارج والمعتزلة وان اراد انه يطلق عليه بلا تقييد مؤمن ومسلم فى سياق الثناء والوعد بالجنة ؛ فهذا خلاف الكتاب والسنة ، ولو كان كذلك لدخلوا فى قوله : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار) وامثال ذلك مما وعدو فيه بالجنة بلا عذاب .

وأيضاً : فصاحب الشرع قد نفى عنهم الاسم فى غير موضع ، بل قال : « قتال المؤمن كفر » ، وقال : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » واذا احتج بقوله : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) ونحو ذلك ، قيل : كل هؤلاء انما سموا به مع التقييد بأنهم فعلوا هذه الأمور ليذكر ما يؤمرون به هم وما يؤمر به غيرهم .

وكذلك قوله : لا يكون النقصان من اقرارهم بأن الله حق وما قاله صدق ، فيقال : بل النقصان يكون فى الايمان الذى في القلوب من معرفتهم ومن علمهم فلا تكون معرفتهم وتصديقهم بالله واسمائه وصفاته ، وما قاله من أمر ونهي ، ووعد ووعيد ، كمعرفة غيرهم وتصديقه ؛ لا من جهة الاجمال والتفصيل ، ولا من

جهة القوة والضعف ، ولا من جهة الذكر والغفلة ، وهذه الأمور كلها داخلة في الايمان بالله وبما أرسل به رسوله ، وكيف يكون الايمان بالله واسمائه وصفاته متماثلاً في القلوب ؟! ام كيف يكون الايمان بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وانه غفور رحيم ، عزيز حكيم ، شديد العقاب ؛ ليس هو من الايمان به ؟! فلا يمكن مسلماً ان يقول : إن الايمان بذلك ليس من الايمان به ولا يدعى تماثل الناس فيه .

واما ما ذكره من ان الاسلام ينقص كما ينقص الايمان ، فهذا أيضاً حق كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ؛ فان من نقص من الصلاة والزكاة او الصوم او الحج شيئاً ، فقد نقص من اسلامه بحسب ذلك . ومن قال : ان الاسلام هو الكلمة فقط ، واراد بذلك انه لا يزيد ولا ينقص ، فقوله خطأ . وردالذين جعلوا الأسلام والايمان سواء إنما يتوجه الى هؤلاء ؛ فان قولهم في الاسلام يشبه قول المرجئة في الايمان .

ولهذا صار الناس في الايمان والاسلام على « ثلاثة اقوال » فالمرجئة يقولون : الاسلام افضل ؛ فانه يدخل فيه الايمان . وآخرون يقولون : الايمان والاسلام سواء ، وهم المعتزلة والخوارج ، وطائفة من اهل الحديث والسنة وحكاه محمد بن نصر عن جمهورهم ، وليس كذلك . والقول الثالث ان الايمان اكمل وافضل ، وهذا هو الذي دلعليه الكتاب والسنة في غير موضع ، وهو المأثور عن الصحابة والتابعين لهم باحسان .

ثم هؤلاء منهم من يقول : الاسلام مجرد القول ، والأعمال ليست من الاسلام . والصحيح ان الاسلام هو الأعمال الظاهرة كلها ، واحمد انما منع الاستثناء فيه على قول الزهري : هو الكلمة . هكذا نقل الأثرم ، والميمونى وغيرهما عنه . واما على جوابه الآخر الذي لم يختر فيه قول من قال : الاسلام الكلمة ، فيستثنى فى الاسلام كما يستثنى فى الايمان ، فان الانسان لا يجزم بأنه قد فعل كل ما امر به من الاسلام . واذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » و « بنى الاسلام على خمس » فجزمه بأنه فعل الخمس بلا نقص كما امر كجزمه بايمانه . فقد قال تعالى : (ادخلوا فى السلم كافة) اي الاسلام كافة ، اي فى جميع شرائع الاسلام .

وتعليل احمد وغيره من السلف ما ذكروه فى اسم الايمان يجيء فى اسم الاسلام ، فاذا اريد بالاسلام الكلمة فلا استثناء فيه ، كما نص عليه احمد وغيره واذا اريد به من فعل الواجبات الظاهرة كلها ، فالاستثناء فيه كالاستثناء فى الايمان ، ولما كان كل من اتى بالشهادتين صار مسلماً متميزاً عن اليهود والنصارى تجري عليه احكام الاسلام التى تجري على المسلمين ، كان هذا مما يجزم به بلا استثناء فيه ، فلهذا قال الزهري : الاسلام الكلمة . وعلى ذلك وافقه احمد وغيره ، وحين وافقه لم يرد ان الاسلام الواجب هو الكلمة وحدها ، فان الزهري اجل من ان يخفى عليه ذلك ؛ ولهذا أحمد لم يجب بهذا فى جوابه الثانى خوفاً من ان يظن ان الاسلام ليس هو الا الكلمة ؛ ولهذا لما قال الأثرم

لأحمد : فاذا قال : انا مسلم فلا يستثني ؟ قال نعم : لا يستثنى اذا قال : انا مسلم . فقلت له اقول : هذا مسلم ،وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وانا اعلم انه لا يسلم الناس منه ، فذكر حديث معمر عن الزهري قال : فنرى ان الاسلام الكلمة . والايمان العمل .

فبين احمد ان الاسلام اذا كان هو الكلمة فلا استثناء فيها ، فحيث كان هو المفهوم من لفظ الاسلام فلا استثناء فيه ، ولو اريد بالايمان هذا ، كما يراد ذلك في مثل قوله : (فتحرير رقبة مؤمنة) فانما اريد من اظهر الاسلام ، فان الايمان الذي علقت به احكام الدنيا ، هو الايمان الظاهر وهو الاسلام ، فالمسمى واحد في الأحكام الظاهرة . ولهذا لما ذكر الأثرم لاحمد احتجاج المرجئة بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اعتقها فانها مؤمنة » اجابه بأن المراد حكمها في الدنيا حكم المؤمنة ؛ لم يرد انها مؤمنة عند الله تستحق دخول الجنة بلا نار اذا لقيته بمجرد هذا الاقرار ، وهذا هو المؤمن المطلق في كتاب الله ، وهو الموعود بالجنة بلا نار اذا مات على ايمانه ، ولهذا كان ابن مسعود وغيره من السلف يلزمون من شهد لنفسه بالايمان ان يشهد لها بالجنة ؛ يعنون اذا مات على ذلك ، فانه قد عرف ان الجنة لا يدخلها الا من مات مؤمناً .

فاذا قال الانسان : انا مؤمن قطعاً ، وانا مؤمن عند الله . قيل له : فاقطع بأنك تدخل الجنة بلا عذاب إذا مت على هذا الحال ، فان الله اخبر ان المؤمنين

في الجنة . وأنكر احمد بن حنبل حديث ابن عميرة ان عبدالله رجع عن الاستثناء؛ فان ابن مسعود لما قيل له : إن قوماً يقولون : إنا مؤمنون ، فقال : أفلا سألتوهم أفى الجنة هم ؟ وفي رواية : افلا قالوا : نحن اهل الجنة ، وفى رواية قيل له: إن هذا يزعم انه مؤمن ؛ قال : فاسألوه افى الجنة هو او فى النار ؟ فسألوه فقال: الله اعلم ، فقال له عبدالله : فهلا و كلت الأولى كما وكلت الثانية ؟ من قال : انا مؤمن فهو كافر ، ومن قال : انا عالم فهو جاهل ، ومن قال : هو فى الجنة فهو فى النار . يروي عن عمر بن الخطاب من وجوه مرسلاً من حديث قتادة ونعيم ابن ابي هند وغيرها .

والسؤال الذي تورده المرجئة على ابن مسعود ويقولون : ان يزيد بن عميرة اورده عليه حتى رجع ، جعل هذا ان الانسان يعلم حاله الآن ، وما يدري ماذا يموت عليه ؛ ولهذا السؤال صار طائفة كثيرة يقولون : المؤمن هومن سبق في علم الله أنه يختم له بالايمان ، والكافر من سبق في علم الله انه كافر ، وانه لا اعتبار بما كان قبل ذلك ، وعلى هذا يجعلون الاستثناء ، وهذا احد قولى الناس من اصحاب احمد وغيرهم وهو قول ابي الحسن واصحابه .

ولكن احمد وغيره من السلف لم يكن هذا مقصودهم وانما مقصودهم ان الايمان المطلق يتضمن فعل المأمورات . فقوله : انا مؤمن . كقوله : انا ولي الله وانا مؤمن تقي ، وانا من الابرار ، ونحو ذلك. وابن مسعود رضي الله عنه لم يكن يخفى عليه ان الجنة لا تكون إلا لمن مات مؤمناً ، وان الانسان لا يعلم على ماذا يموت

فان ابن مسعود أجل قدراً من هذا ، وإنما أراد : سلوه هل هو فى الجنة إن مات على هذه الحال ؟ كأنه قال : سلوه أيكون من أهل الجنة على هذه الحال ؟ فلما قال : الله ورسوله أعلم ، قال : أفلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية . يقول : هذا التوقف يدل على أنك لا تشهد لنفسك بفعل الواجبات وترك المحرمات . فانه من شهد لنفسه بذلك شهد لنفسه أنه من أهل الجنة إن مات على ذلك ، ولهذا صار الذين لا يرون الاستثناء لأجل الحال الحاضر ، بل للموافاة ، لا يقطعون بأن الله يقبل توبة تائب ، كما لا يقطعون بأن الله تعالى يعاقب مذنباً ، فانهم لو قطعوا بقبول توبته ، لزمهم أن يقطعوا له الجنة ، وهم لا يقطعون لأحد من أهل القبلة لا بجنة ولا نار ؛ إلا من قطع له النص .

وإذا قيل : الجنة هي لمن أتى بالتوبة النصوح من جميع السيئات . قالوا : ولو مات على هذه التوبة لم يقطع له بالجنة ، وهم لا يستثنون فى الأحوال ، بل يجزمون بأن المؤمن مؤمن تام الايمان ، ولكن عندهم الايمان عند الله هو ما يوافي به ، فمن قطعوا له بأنه مات مؤمناً لا ذنب له قطعوا له بالجنة ، فلهذا لا يقطعون بقبول التوبة لئلا يلزمهم ان يقطعوا بالجنة ، واما أئمة السلف فانما لم يقطعوا بالجنة لأنهم لا يقطعون بأنه فعل المأمور وترك المحظور ، ولا انه اتى بالتوبة النصوح ، وإلا فهم يقطعون بأن من تاب توبة نصوحاً ، قبل الله توبته .

وجماع الأمر ان الاسم الواحد ينفي ويثبت بحسب الأحكام المتعلقة به ، فلا يجب إذا اثبت او نفي فى حكم ان يكون كذلك فى سائر الاحكام ، وهذا فى

كلام العرب وسائر الأمم ، لأن المعنى مفهوم . مثال ذلك المنافقون قد يجعلون من المؤمنين في موضع ؛ وفى موضع آخر يقال : ماهم منهم . قال الله تعالي : (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً . اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رايتهم ينظرون إليك تدور اعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ، اشحة على الخير اولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً) فهنالك جعل هؤلاء المنافقين الخائفين من العدو ، الناكلين عن الجهاد ، الناهين لغيرهم ، الذامين للمؤمنين : منهم . وقال فى آية اخرى (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون) وهؤلاء ذنبهم اخف ، فانهم لم يؤذوا المؤمنين لا بنهى ولا سلق بألسنة حداد ، ولكن حلفوا بالله أنهم من المؤمنين فى الباطن بقلوبهم ، وإلا فقد علم المؤمنون انهم منهم فى الظاهر ، فكذبهم الله وقال : (وما هم منكم) وهناك قال : (قد يعلم الله المعوقين منكم) فالخطاب لمن كان فى الظاهر مسلماً مؤمناً وليس مؤمناً ، بأن منكم من هو بهذه الصفة ، وليس مؤمناً بل احبط الله عمله ، فهو منكم فى الظاهر لا الباطن .

ولهذا لما استؤذن النبى صلى الله عليه وسلم في قتل بعض المنافقين قال : « لا يتحدث الناس ان محمداً يقتل اصحابه » فانهم من اصحابه فى الظاهر عند من لا يعرف حقائق الأمور ، واصحابه الذين هم اصحابه ليس فيهم نفاق

كالذين علموا سنته الناس وبلغوها إليهم وقاتلوا المرتدين بعد موته ، والذين بايعوه تحت الشجرة واهل بدر وغيرهم ، بل الذين كانوا منافقين غمرتهم الناس .

وكذلك الأنساب مثل كون الانسان أباً لآخر او اخاه ، يثبت في بعض الأحكام دون بعض ؛ فانه قد ثبت في « الصحيحين » انه لما اختصم الى النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة بن الأسود ، في ابن وليدة زمعة ، وكان عتبة بن أبي وقاص قد فجر بها في الجاهلية وولدت منه ولداً فقال عتبة لأخيه سعد : إذا قدمت مكة فانظر ابن وليدة زمعة فانه ابني ، فاختصم فيه هو وعبد بن زمعة الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال سعد : يارسول الله ! ابن أخي عتبة ، عهد إليّ اخي عتبة فيه ، اذا قدمت مكة انظر الى ابن وليدة زمعة فانه ابني ، ألا ترى يا رسول الله شبهه بعتبة ؟ فقال عبد : يا رسول الله أخي وابن وليدة ابي ؛ ولد على فراش ابى ، فراى النبي صلى الله عليه وسلم شبهاً بيناً بعتبة فقال : « هو لك ياعبد بن زمعة ، الولد للفراش وللعاهر الحجر ، واحتجبي منه يا سودة ». لما رأى من شبهه البين بعتبة .

فقد جعله النبي صلى الله عليه وسلم ابن زمعة لأنه ولد على فراشه وجعله أخاً لولده بقوله : « فهو لك يا عبد بن زمعة » وقد صارت سودة أخته يرثها وترثه ؛ لأنه ابن ابيها زمعة ولد على فراشه . ومع هذا فأمرها النبي صلى الله

عليه وسلم ان تحتجب منه لما راى من شبهه البين بعتبة ، فانه قام فيه دليلان متعارضان : الفراش والشبه ، والنسب فى الظاهر لصاحب الفراش اقوى ، ولأنها امر ظاهر مباح والفجور امر باطن لا يعلم ويجب ستره لا إظهاره كما قال : « للعاهر الحجر » كما يقال : بفيك الكثلب وبفيك الأثلب ، اي : عليك ان تسكت عن إظهار الفجور فان الله يبغض ذلك ، ولما كان احتجابها منه ممكناً من غير ضرر ، امرها بالاحتجاب لما ظهر من الدلالة على انه ليس اخاها في الباطن.

فتبين ان الاسم الواحد ينفي في حكم ويثبت في حكم . فهو اخ فى الميراث وليس بأخ فى المحرمية . وكذلك ولدا الزنا عند بعض العلماء ، وابن الملاعنة عند الجميع إلا من شذ ؛ ليس بولد فى الميراث ونحوه ، وهو ولد فى تحريم النكاح والمحرمية .

ولفظ النكاح وغيره فى الأمر ، يتناول الكامل ، وهو العقد والوطء ، كما فى قوله : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) وقوله : (حتى تنكح زوجاً غيره) وفى النهي يعم الناقص والكامل ؛ فينهى عن العقد مفرداً وإن لم يكن وطء كقوله : (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) وهذا لأن الآمر مقصوده تحصيل المصلحة ، وتحصيل المصلحة انما يكون بالدخول كما لو قال : اشتر لي طعاماً ؛ فالمقصود ما يحصل إلا بالشراء والقبض ، والناهي مقصوده دفع المفسدة ، فيدخل كل جزء منه ؛ لأن وجوده مفسدة

وكذلك النسب والميراث معلق بالكامل منه ، والتحريم معلق بأدنى سبب حتى الرضاع .

وكذلك كل ما يكون له مبتدأ وكمال ، ينفي تارة باعتبار انتفاء كماله ، ويثبت تارة باعتبار ثبوت مبدئه . فلفظ الرجال يعم الذكور وان كانوا صغاراً في مثل قوله : (وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) ولا يعم الصغار في مثل قوله : (والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها) فان باب الهجرة والجهاد عمل يعمله القادرون عليه ، فلو اقتصر على ذكر المستضعفين من الرجال لظن ان الولدان غير داخلين ، لأنهم ليسوا من اهله وهم ضعفاء ، فذكرهم بالاسم الخاص ليبين عذرهم في ترك الهجرة ووجوب الجهاد . وكذلك الايمان له مبدا وكمال ، وظاهر وباطن ، فاذا علقت به الأحكام الدنيوية من الحقوق والحدود كحقن الدم والمال والمواريث ، والعقوبات الدنيوية ، علقت بظاهره لا يمكن غير ذلك إذ تعليق ذلك بالباطن متعذر ؛ وان قدر احياناً فهو متعسر علماً وقدرة ؛ فلا يعلم ذلك علماً يثبت به في الظاهر ، ولا يمكن عقوبة من يعلم ذلك منه في الباطن .

وبهذين المثلين كان النبي صلى الله عليه وسلم يمتنع من عقوبة المنافقين ؛ فان فيهم من لم يكن يعرفهم كما اخبر الله بذلك ؛ والذين كان يعرفهم لو عاقب بعضهم لغضب له قومه ؛ ولقال الناس : إن محمداً يقتل اصحابه ؛ فكان يحصل بسبب ذلك

نفور عن الاسلام ؛ إذ لم يكن الذنب ظاهراً ، يشترك الناس فى معرفته . ولما هم بعقوبة من يتخلف عن الصلاة ، منعه من فى البيوت من النساء والذرية ، وأما مبدؤه فيتعلق به خطاب الأمر والنهي ، فاذا قال الله : (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم الى الصلاة) ونحو ذلك ، فهو أمر فى الظاهر لكل من أظهره ، وهو خطاب فى الباطن لكل من عرف من نفسه أنه مصدق للرسول ، وان كان عاصياً ، وان كان لم يقم بالواجبات الباطنة والظاهرة ، وذلك أنه ان كان لفظ : (الذين آمنوا) يتناولهم فلا كلام ، وان كان لم يتناولهم فذاك لذنوبهم ، فلا تكون ذنوبهم مانعة من امرهم بالحسنات التى ان فعلوها كانت سبب رحمتهم ، وان تركوها كان امرهم بها ، وعقوبتهم عليها عقوبة على ترك الايمان ، والكافر يجب عليه ايضاً ، لكن لا يصح منه حتى يؤمن ، وكذلك المنافق المحض لا يصح منه فى الباطن حتى يؤمن .

واما من كان معه اول الايمان ، فهذا يصح منه ، لان معه اقراره فى الباطن بوجوب ما اوجبه الرسول ، وتحريم ما حرمه ، وهذا سبب الصحة ، واما كماله فيتعلق به خطاب الوعد بالجنة والنصرة والسلامة من النار ، فان هذا الوعد انما هو لمن فعل المأمور وترك المحظور ، ومن فعل بعضاً وترك بعضاً ، فيثاب على ما فعله ، ويعاقب على ما تركه ، فلا يدخل هذا فى اسم المؤمن المستحق للحمد والثناء ، دون الذم والعقاب ، ومن نفى عنه الرسول الايمان ، فنفي الايمان في هذا الحكم ، لانه ذكر ذلك على سبيل الوعيد ، والوعيد انما يكون بنفي ما يقتضي الثواب ، ويدفع العقاب ، ولهذا ما فى الكتاب والسنة من نفي الايمان

عن اصحاب الذنوب ، فانما هو فى خطاب الوعيد والذم ، لا فى خطاب الامر والنهي ، ولا فى احكام الدنيا .

واسم الاسلام والايمان والاحسان هي اسماء ممدوحة مرغوب فيها لحسن العاقبة لأهلها ، فبين النبي صلى الله عليه وسلم ان العاقبة الحسنة لمن اتصف بها على الوجه الذي بينه ؛ ولهذا كان من نفي عنهم الايمان ؛ او الايمان والاسلام جميعاً ، ولم يجعلهم كفاراً ، انما نفى ذلك فى احكام الآخرة ، وهو الثواب ، لم ينفه فى احكام الدنيا . لكن المعتزلة ظنت انه اذا انتفى الاسم انتفت جميع اجزائه فلم يجعلوا معهم شيئاً من الايمان والاسلام ، فجعلوهم مخلدين فى النار ، وهذا خلاف الكتاب والسنة واجماع السلف ، ولو لم يكن معهم شيء من الايمان والاسلام ، لم يثبت فى حقهم شيء من احكام المؤمنين والمسلمين ، لكن كانوا كالمنافقين . وقد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع التفريق بين المنافق الذي يكذب الرسول فى الباطن ، وبين المؤمن المذنب ، فالمعتزلة سووا بين اهل الذنوب وبين المنافقين في احكام الدنيا والآخرة فى نفي الاسلام والايمان عنهم ، بل قد يثبتونه للمنافق ظاهراً ، وينفونه عن المذنب باطناً وظاهراً .

فان قيل : فاذا كان كل مؤمن مسلماً ، وليس كل مسلم مؤمناً — الايمان الكامل — كما دل عليه حديث جبريل وغيره من الاحاديث مع القرآن ، وكما ذكر ذلك عمن ذكر عنه من السلف ، لان الاسلام الطاعات الظاهرة ، وهو الاستسلام والانقياد ، لأن « الاسلام في الاصل » هو الاستسلام والانقياد ،

وهذا هو الانقياد والطاعة ، والايمان فيه معنى التصديق والطمأنينة . وهذا قدر زائد ، فما تقولون فيمن فعل ما امره الله ، وترك ما نهى الله عنه مخلصاً لله تعالى ظاهراً وباطناً ؟ اليس هذا مسلماً باطناً وظاهراً ، وهو من اهل الجنة ، وإذا كان كذلك فالجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة ، فهذا يجب ان يكون مؤمناً .

قلنا : قد ذكرنا غير مرة ، انه لا بد ان يكون معه الايمان الذى وجب عليه ، إذ لو لم يؤد الواجب لكان معرضاً للوعيد ؛ لكن قد يكون من الايمان ما لا يجب عليه اما لكونه لم يخاطب به ، او لكونه كان عاجزاً عنه ، وهذا اولى ، لأن الايمان الموصوف فى حديث جبريل ، والاسلام ، لم يكونا واجبين فى اول الاسلام ، بل ولا اوجبا على من تقدم قبلنا من الأمم اتباع الأنبياء اهل الجنة ، مع انهم مؤمنون مسلمون ، ومع ان الاسلام دين الله الذي لا يقبل دينا غيره ؛ وهو دين الله فى الأولين والآخرين ، لأن الاسلام عبادة الله وحده لا شريك له بما امر ، فقد تتنوع اوامره فى الشريعة الواحدة ، فضلاً عن الشرائع ، فيصير فى الاسلام بعض الايمان بما يخرج عنه فى وقت آخر ، كالصلاة الى الصخرة ، كان من الاسلام حين كان الله امر به ، ثم خرج من الاسلام لما نهى الله عنه .

ومعلوم ان الخمس المذكورة فى حديث جبريل ، لم تجب فى اول الأمر ، بل الصيام والحج وفرائض الزكاة ، انما وجبت بالمدينة ؛ والصلوات الخمس انما

وجبت ليلة المعراج ؛ وكثير من الاحاديث ليس فيها ذكر الحج لتأخر وجوبه إلى سنة تسع او عشر على اصح القولين ؛ ولما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم كان من اتبعه وآمن بما جاء به ، مؤمناً مسلماً ؛ واذا مات كان من اهل الجنة ، ثم انه بعد هذا زاد « الايمان ، والاسلام » حتى قال تعالى : (اليوم اكملت لكم دينكم) وكذلك الايمان فان هذا الايمان المفصل الذي ذكره فى حديث جبريل ، لم يكن مأموراً به فى اول الأمر لما انزل الله سورة العلق والمدثر ، بل انما جاء هذا في السور المدنية ، كالبقرة ، والنساء واذا كان كذلك لم يلزم ان يكون هذا الأيمان المفصل واجباً على من تقدم قبلنا .

واذا كان كذلك ، فقد يكون الرجل مسلماً يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ، ومعه الايمان الذي فرض عليه ، وهو من اهل الجنة وليس معه هذا الايمان المذكور فى حديث جبريل ، لكن هذا يقال : معه ما امر به من الايمان والاسلام . وقد يكون مسلماً يعبد الله كما أمر ، ولا يعبد غيره ويخافه ويرجوه ؛ ولكن لم يخلص الى قلبه ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، ولا ان يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله احب اليه من جميع اهله وماله ؛ وان يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وان يخاف الله لا يخاف غيره ؛ وان لا يتوكل إلا على الله؛ وهذه كلها من الايمان الواجب ؛ وليست من لوازم الاسلام ؛ فان الاسلام هو الاستسلام وهو يتضمن الخضوع لله وحده ؛ والانقياد له ، والعبودية لله وحده ؛ وهذا قد يتضمن خوفه ورجاءه . واما طمأنينة القلب بمحبته وحده ، وان يكون أحب اليه مما سواها ، وبالتوكل عليه وحده ، وبأن يحب لأخيه المؤمن ما يحب

لنفسه ؛ فهذه من حقائق الايمان التى تختص به ، فمن لم يتصف بها ، لم يكن من المؤمنين حقاً وان كان مسلماً ، وكذلك وجل قلبه إذا ذكر الله ، وكذلك زيادة الايمان إذا تليت عليه آياته .

فان قيل : ففوات هذا الايمان من الذنوب ام لا ؟ قيل : إذا لم يبلغ الانسان الخطاب الموجب لذلك ، لا يكون تركه من الذنوب واما ان بلغه الخطاب الموجب لذلك فلم يعمل به كان تركه من الذنوب إذا كان قادراً على ذلك ، وكثير من الناس او أكثرهم ليس عندهم هذه التفاصيل التى تدخل فى الايمان ، مع أنهم قائمون بالطاعة الواجبة في الاسلام ، واذا وقعت منهم ذنوب تابوا واستغفروا منها ؛ وحقائق الايمان التى في القلوب لا يعرفون وجوبها ؛ بل ولا انها من الايمان بل كثير ممن يعرفها منهم ، يظن انها من النوافل المستحبة ان صدق بوجوبها .

« فالاسلام » يتناول من اظهر الاسلام وليس معه شيء من الايمان ، وهو المنافق المحض ، ويتناول من اظهر الاسلام مع التصديق المجمل فى الباطن ولكن لم يفعل الواجب كله لا من هذا ولا هذا ، وهم الفساق يكون فى احدهم شعبة نفاق ، ويتناول من أتى بالاسلام الواجب وما يلزمه من الايمان ؛ ولم يأت بتمام الايمان الواجب . وهؤلاء ليسوا فساقا تاركون فريضة ظاهرة ، ولا مرتكبون محرماً ظاهراً لكن تركوا من حقائق الايمان الواجبة علماً وعملاً بالقلب يتبعه بعض الجوارح ما كانوا به مذمومين .

وهذا هو «النفاق» الذي كان يخافه السلف على نفوسهم . فان صاحبه قد يكون فيه شعبة نفاق . وبعــد هذا ما ميز الله به المقربين على الأبرار أصحاب اليمين من إيمان وتوابعه ، وذلك قد يكون من باب المســتحبات ، وقد يكون ايضاً مما فضل به المؤمن إيمان واسلام مما وجب عليه ولم يجب على غيره . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان» وفى الحديث الآخر:«ليس وراء ذلك من الايمان مثقال حبة خردل» فان مراده انه لم يبق بعد هذا الانـكار ما يدخل فى الايمان حتى يفعله المؤمن ؛ بل الانــكار بالقلب آخر حدود الايمان، ليس مراده ان من لم ينكر ذلك لم يكن معه من الايمان حبة خردل ؛ ولهذا قال : ليس وراء ذلك » فجعل المؤمنين ثلاث طبقات ، وكل منهم فعل الايمـان الذي يجب عليه ، لــكن الأول لما كان اقدرهم ، كان الذي يجب عليه أكمل مما يجب على الثاني ، وكان ما يجب على الثاني أكمل مما يجب على الآخر، وعلم بذلك ان الناس يتفاضلون فى الايمـان الواجب عليهم بحسب استطاعتهم مع بلوغ الخطــاب اليهم كلهم .

فصـــــل

وأما « الاستثناء فى الايمان » بقول الرجل : انا مؤمن ان شاء الله ، فالناس فيه على «ثلاثة» اقوال : منهم من يوجـبه ، ومنهم من يحرمه ، ومنهم من يجوز الأمرين باعتبارين ؛ وهذا أصح الأقوال . فالذين يحرمونه هم المرجئة والجهميـة ونحوهم ، بمن يجعل الايمان شيئاً واحداً يعلمه الانسان من نفســه ، كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه ؛ فيقول احدهم : انا أعـلم اني مؤمن ، كما أعلم اني تــكلمت بالشهادتين ، وكما أعلم اني قرأت الفاتحة ، وكما اعلم اني احب رسول الله؛ واني ابغض اليهود والنصارى . فقولي : انا مؤمن كقولي : انا مسلم ، وكقولي : تــكلمت بالشهادتين ، وقرأت الفاتحة ، وكقولي : انا ابغض اليهود والنصارى ، ونحو ذلك من الأمور الحاضرة التى انا اعلمها واقطع بهـــا ، وكما انه لا يجوز ان يقال : انا قرأت الفاتحة ان شاء الله ، كذلك لا يقول : انا مؤمن ان شـاءالله ، لـكن اذا كان يشك فى ذلك فيقول : فعلته ان شاء الله ، قالوا : فمن اســتثنى فى ايمـــانه فهو شاك فيه وسموهم الشكاكة .

والذين اوجبوا الاستثناء لهم مأخذان :

(احدهما) ان الايمان هو ما مات عليه الانســان ؛ والانسان انما يكون

عندالله مؤمناً وكافراً ، باعتبار الموافاة وما سبق فى علم الله انه يكون عليه ، وما قبل ذلك لا عبرة به . قالوا : والايمان الذي يتعقبه الكفر ، فيموت صاحبه كافراً ، ليس بايمان ، كالصلاة التى يفسدها صاحبها قبل الكمال ؛ وكالصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب ، وصاحب هذا هو عندالله كافر لعلمه بما يموت عليه ، وكذلك قالوا فى الكفر ، وهذا المأخذ مأخذ كثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم ممن يريد ان ينصر ما اشتهر عن اهل السنة والحديث ، من قولهم : انا مؤمن ان شاءالله ؛ ويريد مع ذلك ان الايمان لا يتفاضل ؛ ولا يشك الانسان فى الموجود منه ، وانما يشك فى المستقبل ، وانضم الى ذلك انهم يقولون : محبة الله ورضاه وسخطه وبغضه قديم . ثم هل ذلك هو الارادة ام صفات اخر ؟ لهم فى ذلك «قولان» .

واكثر قدمائهم يقولون : ان الرضى والسخط والغضب ونحو ذلك صفات ليست هي الارادة ، كما ان السمع والبصر ليس هو العلم ، وكذلك الولاية والعداوة . هذه كلها صفات قديمة ازلية عند ابي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب ومن اتبعه من المتكلمين ، ومن اتباع المذاهب من الحنبلية والشافعية والمالكية وغيرهم .

قالوا : والله يحب فى ازله من كان كافراً اذا علم انه يموت مؤمناً . فالصحابة ما زالوا محبوبين لله وان كانوا قد عبدوا الأصنام مدة من الدهر ، وابليس ما زال الله يبغضه وان كان لم يكفر بعد . وهذا على احد القولين لهم ، فالرضى والسخط

يرجع الى الارادة ، والارادة تطابق العلم . فالمعنى : ما زال الله يريد ان يثيب هؤلاء بعد ايمانهم ، ويعاقب ابليس بعد كفره . وهذا معنى صحيح . فان الله يريد ان يخلق كل ما علم ان سيخلقه . وعلى قول من يثبتها صفات أخر ، يقول : هو ايضاً حبه تابع لمن يريد ان يثيبه . فكل من اراد اثابته فهو يحبه وكل من اراد عقوبته فانه يبغضه ، وهذا تابع للعلم . وهؤلاء عندهم لا يرضى عن احد بعد ان كان ساخطاً عليه ، ولا يفرح بتوبة عبد بعد ان تاب عليه ، بل ما زال يفرح بتوبته . والفرح عندهم اما الارادة واما الرضى . والمعنى ما زال يريد اثابته او يرضى عما يريد اثابته . وكذلك لا يغضب عندهم يوم القيامة دون ما قبله . بل غضبه قديم اما بمعنى الارادة ، واما بمعنى آخر .

فهؤلاء يقولون : اذا علم ان الانسان يموت كافراً ، لم يزل مريداً لعقوبته ، فذاك الايمان الذي كان معه باطل لا فائدة فيه ، بل وجوده كعدمه . فليس هذا بمؤمن اصلاً ، واذا علم انه يموت مؤمناً ، لم يزل مريداً لاثابته ، وذاك الكفر الذي فعله وجوده كعدمه . فلم يكن هذا كافراً عندهم اصلاً . فهؤلاء يستثنون فى الايمان بناء على هذا المأخذ ، وكذلك بعض محققيهم يستثنون فى الكفر ، مثل ابي منصور الماتريدي ، فان ما ذكروه مطرد فيهما . ولكن جماهير الأئمة على انه لا يستثنى فى الكفر ، والاستثناء فيه بدعة لم يعرف عن احد من السلف ، ولكن هو لازم لهم .

والذين فرقوا من هؤلاء قالوا : نستثنى فى الايمان رغبة الى الله فى ان

يثبتنا عليه الى الموت ، والكفر لا يرغب فيه احد . لكن يقال :اذا كان قولك: مؤمن ، كقولك : فى الجنة . فأنت تقول عن الكافر : هو كافر . ولا تقول : هو فى النار ، إلا معلقاً بموته على الكفر ، فدل على انه كافر في الحال قطعاً . وإن جاز ان يصير مؤمناً ، كذلك المؤمن . وسواء أخبر عن نفسه او عن غيره. فلو قيل عن يهودي او نصراني : هذا كافر ، قال : ان شاءالله ؛ اذا لم يعلم انه يموت كافراً ؛ وعند هؤلاء لا يعلم احد أحداً مؤمناً الا اذا علم انه يموت عليه ؛ وهذا القول قاله كثير من اهل الكلام اصحاب ابن كلاب ، ووافقهم على ذلك كثير من اتباع الأئمة ، لكن ليس هذا قول احد من السلف ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا كان احد من السلف الذين يستثنون في الايمان ، يعللون بهذا ، لا أحمد ولا من قبله .

ومأخذ هذا القول ، طرده طائفة ممن كانوا فى الأصل يستثنون فى الايمان اتباعا للسلف ، وكانوا قد اخذوا الاستثناء عن السلف ، وكان اهل الشام شديدين على المرجئة ، وكان محمد بن يوسف الفريابي صاحب الثوري مرابطاً بعسقلان لما كانت معمورة ، وكانت من خيار ثغور المسلمين ، ولهذا كان فيها فضائل لفضيلة الرباط فى سبيل الله ، وكانوا يستثنون في الايمان اتباعاً للسلف ، واستثنوا ايضاً فى الأعمال الصالحة ، كقول الرجل: صليت ان شاءالله ونحو ذلك ، بمعنى القبول ، لما فى ذلك من الآثار عن السلف . ثم صار كثير من هؤلاء بآخرة يستثنون فى كل شيء ، فيقول هذا ثوبي ان شاء الله ، وهذا حبل

ان شاءالله . فاذا قيل لأحدهم : هذا لا شك فيه ؛ قال : نعم لا شك فيه ؛ لكن اذا شاءالله ان يغيره غيره ؛ فيريدون بقولهم ان شاءالله جواز تغييره فى المستقبل، وان كان فى الحال لا شك فيه ؛ كأن الحقيقة عندهم التى لايستثنى فيهاما لم تتبدل ، كما يقوله اولئك فى الايمـان : ان الايمان ما علم الله انه لا يتبدل حتى يموت صاحبه عليه.

لـكن هذا القول . قاله قوم من اهل العلم والدين باجتهاد ونظر ، وهؤلاء الذين يستثنون في كل شيء تلقوا ذلك عن بعض اتباع شيخهم ، وشيخهم الذي ينتسبون اليه يقـال له : ابو عمرو عثمان بن مرزوق ، لم يكن ممن يرى هذا الاستثناء ، بل كان فى الاستثناء على طريقة من كان قبله ؛ ولـكن أحـدث ذلك بعض اصحابه بعده ، وكان شيخهم منتسباً الى الامام احمد ، وهو من اتباع عبد الوهاب بن الشيخ ابى الفرج المقـدسي ، وابو الفرج من تلامذة القاضي ابى يعـلى . وهؤلاء كلهم وان كانوا منتسـبين الى الامام احمد ، فهم يوافقون ابن كلاب على اصله الذي كان احمد ينكره على الـكلابية ، وامر بهجر الحارث المحاسبي من اجله ، كما وافقه على اصله طائفة من اصحاب مالك ، والشـافعي ، وابى حنيفة ، كأبى المعالي الجوينى ، وابى الوليد الباجي ، وابى منصور الماتريدي وغيرهم ، وقول هؤلاء فى مسائل متعددة من مسائل الصفات ، وما يتعلق بهـا ، كمسألة القرآن ، هل هو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته ؟ ام القرآن لازم لذاته ؟ وقولهم فى «الاستثناء» مبنى على ذلك الأصل.

وكذلك بناه الأشعري وأتباعه عليه ؛ لأن هؤلاء كلهم كلابية يقولون : إن الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا يرضى ولا يغضب على أحد بعد إيمانه وكفره ولا يفرح بتوبة التائب بعد توبته . ولهذا وافقوا السلف على ان القرآن كلام الله غير مخلوق ، ثم قالوا : إنه قديم لم يتكلم به بمشيئته وقدرته . ثم اختلفوا بعد هذا فى القديم ، أهو معنى واحد ؟ ام حروف قديمة مع تعاقبها ؟ كما بسطت أقوالهم واقوال غيرهم في مواضع اخر .

وهذه الطائفة المتأخرة تنكر ان يقال : قطعاً في شيء من الأشياء ، مع غلوهم فى الاستثناء ، حتى صار هذا اللفظ منكراً عندهم ، وان قطعوا بالمعنى فيجزمون بأن محمداً رسول الله ، وان الله ربهم ولا يقولون :قطعا . وقد اجتمع بي طائفة منهم ، فأنكرت عليهم ذلك ؛ وامتنعت من فعل مطلوبهم حتى يقولوا : قطعاً ، واحضروا لي كتاباً فيه احاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه نهى ان يقول الرجل : قطعاً وهي احاديث موضوعة مختلقة ، قد افتراها بعض المتأخرين .

والمقصود هنا ان « الاستثناء فى الايمان » لما علل بمثل تلك العلة ، طرد اقوام تلك العلة فى الأشياء التى لا يجوز الاستثناء فيها باجماع المسلمين ، بناء على ان الأشياء الموجودة الآن إذا كانت في علم الله تتبدل احوالها ؛ فيستثنى فى صفاتها الموجودة فى الحال ويقال : هذا صغير إن شاء الله ، لأن الله قد يجعله كبيراً ويقال : هذا مجنون إن شاءالله ، لأن الله قد يجعله عاقلا ويقال للمرتد :

هذا كافر إن شاء الله لامكان ان يتوب . وهؤلاء الذين استثنوا فى الايمان بناء على هذا المأخذ ، ظنوا هذا قول السلف .

وهؤلاء وامثالهم من اهل الكلام ينصرون ما ظهر من دين الاسلام ، كما ينصر ذلك المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين ، فينصرون إثبات الصانع والنبوة والمعاد ونحو ذلك . وينصرون مع ذلك ما ظهر من مذاهب اهل السنة والجماعة ، كما ينصر ذلك الكلابية والكرامية والأشعرية ونحوهم ، ينصرون أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وان الله يرى فى الآخرة وان اهل القبلة لا يكفرون بالذنب ولا يخلدون في النار ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم له شفاعة فى اهل الكبائر وان فتنة القبر حق وعذاب القبر حق ، وحوض نبينا صلى الله عليه وسلم فى الآخرة حق . وامثال ذلك من الأقوال التى شاع انها من اصول اهل السنة والجماعة . كما ينصرون خلافة الخلفاء الأربعة ، وفضيلة ابى بكر وعمر ونحو ذلك .

وكثير من اهل الكلام فى كثير مما ينصره لا يكون عارفاً بحقيقة دين الاسلام فى ذلك ، ولا ما جاءت به السنة . ولا ما كان عليه السلف . فينصر ما ظهر من قولهم ، بغير المآخذ التى كانت مآخذهم فى الحقيقة بل بمآخذ أخر قد تلقوها عن غيرهم من اهل البدع ، فيقع فى كلام هؤلاء من التناقض والاضطراب والخطأ ما ذم به السلف مثل هذا الكلام واهله ، فان كلامهم فى ذم مثل هذا الكلام كثير . والكلام المذموم هو المخالف للكتاب والسنة ، وكل ما خالف

الكتاب والسنة فهو باطل وكذب فهو مخالف للشرع والعقل ، (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) .

فهؤلاء لما اشتهر عندهم عن اهل السنة أنهم يستثنون فى الايمان ، ورأوا ان هذا لا يمكن إلا اذا جعل الايمان هو ما يموت العبد عليه ، وهو ما يوافي به العبد ربه ، ظنوا ان الايمان عند السلف هو هذا ؛ فصاروا يحكون هذا عن السلف ؛ وهذا القول لم يقل به احد من السلف ؛ ولكن هؤلاء حكوه عنهم بحسب ظنهم : لما راوا ان قولهم لا يتوجه إلا على هذا الأصل ، وهم يدعون ان ما نصروه من اصل جهم فى الايمان ، هو قول المحققين والنظار من اصحاب الحديث . ومثل هذا يوجد كثيراً فى مذاهب السلف التى خالفها بعض النظار واظهر حجته فى ذلك ولم يعرف حقيقة قول السلف ؛ فيقول من عرف حجة هؤلاء دون السلف ، او من يعظمهم ، لما يراه من تميزهم عليه : هذا قول المحققين . وقال المحققون . ويكون ذلك من الأقوال الباطلة ، المخالفة للعقل مع الشرع ؛ وهذا كثيراً ما يوجد فى كلام بعض المبتدعين وبعض الملحدين ، ومن آتاه الله علماً وإيماناً ؛ علم انه لا يكون عند المتأخرين من التحقيق ، إلا ما هو دون تحقيق السلف لا فى العلم ولا فى العمل ، ومن كان له خبرة بالنظريات والعقليات ، وبالعمليات ، علم ان مذهب الصحابة دائماً ارجح من قول من بعدهم وانه لا يبتدع احد قولاً في الاسلام إلا كان خطأ ، وكان الصواب قد سبق اليه من قبله .

قال ابو القاسم الأنصاري، فيما حكاه عن ابي اسحاق الاسفرائيني، لما ذكر قول ابي الحسن واصحابه في الايمان، وصحح انه تصديق القلب قال: ومن اصحابنا؛ من قال بالموافاة، وشرط في الايمان الحقيقي ان يوافي ربه به، ويختم عليه. ومنهم من لم يجعل ذلك شرطاً فيه فى الحال.

قال الانصاري: لما ذكر ان معظم ائمة السلف، كانوا يقولون: الايمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح قال: الاكثرون من هؤلاء على القول بالموافاة. ومن قال بالموافاة، فانما يقوله فيمن لم يرد الخبر بأنه من اهل الجنة. واما من ورد الخبر بأنه من اهل الجنة، فانه يقطع على ايمانه، كالعشرة من الصحابة. ثم قال: والذي اختاره المحققون؛ ان الايمان هو التصديق. وقد ذكرنا اختلاف اقوالهم فى الموافاة؛ وان ذلك هل هو شرط فى صحة الايمان وحقيقته فى الحال، وكونه معتداً عند الله به وفى حكمه، فمن قال: ان ذلك شرط فيه، يستثنون في الاطلاق فى الحال؛ لا انهم يشكون فى حقيقة التوحيد والمعرفة؛ لكنهم يقولون: لا يدري اي الايمان الذي نحن موصوفون به فى الحال، هل هو معتد به عند الله؟ على معنى انا ننتفع به فى العاقبة، ونجتني من ثماره.

فاذا قيل لهم: امؤمنون انتم حقاً؟ او تقولون ان شاء الله؟ او تقولون نرجو؟ فيقولون نحن مؤمنون ان شاءالله، يعنون بهذا الاستثناء، تفويض الامر فى العاقبة الى الله سبحانه وتعالى، وانما يكون الايمان ايماناً معتداً به فى حكم

الله . اذا كان ذلك علم الفوز وآية النجاة ، واذا كان صاحبه ـــ والعياذ بالله ـــ في حكم الله من الاشقياء ، يكون ايمانه الذي تحلى به فى الحال عارية . قال : ولا فرق عند الصائرين الى هذا المذهب ، بين ان يقول : أنا مؤمن من اهل الجنة قطعاً ؛ وبين ان يقول انا مؤمن حقاً .

قلت : هذا انما يجيء على قول من يجعل الايمان متناولاً لأداء الواجبات وترك المحرمات ؛ فمن مات على هذا كان من اهل الجنة ، واما على قول الجهمية والمرجئة ، وهو القول الذي نصره هؤلاء الذين نصروا قول جهم ؛ فانه يموت على الايمان قطعاً ، ويكون كامل الايمان عندهم ، وهو مع هذا عندهم من اهل الكبائر الذين يدخلون النار ، فلا يلزم اذا وافى بالايمان ، ان يكون من اهل الجنة . وهذا اللازم لقولهم يدل على فساده ، لأن الله وعـد المؤمنين بالجنة . وكذلك قالوا : لا سيما والله سبحانه وتعالى يقول: (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات) الآية . قال : فهؤلاء ـــ يعني القائلين بالموافاة جعـلوا الثبات على هذا التصديق ، والايمـان الذي وصفناه الى العاقبة والوفاء به فى المـآل شرطاً فى الايمان شرعا ، لا لغة ، ولا عقلاً . قال : وهذا مذهب سلف اصحاب الحديث والأكثرين ؛ قال : وهو اختيار الامام ابي بكر بن فورك ؛ وكان الامام محمد ابن اسحاق بن خزيمة يغلو فيـه ، وكان يقول : من قال : أنا مؤمن حقاً فهو مبتدع .

واما مذهب سلف اصحاب الحديث ، كابن مسعود واصحابه ، والثوري

وابن عيينة ، وأكثر علماء الكوفة ، ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء اهل البصرة . واحمد بن حنبل وغيره من ائمة السنة ، فكانوا يستثنون في الايمان . وهذا متواتر عنهم ، لكن ليس فى هؤلاء من قال : انا استثنى لأجل الموافاة ، وان الايمان ، انما هو اسم لما يوافى به العبد ربه : بل صرح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء انما هو لأن الايمان يتضمن فعل الواجبات . فلا يشهدون لأنفسهم بذلك ، كما لا يشهدون لها بالبر والتقوى : فان ذلك مما لا يعلمونه وهو تزكية لأنفسهم بلا علم : كما سنذكر أقوالهم ان شاء الله فى ذلك .

وأما الموافاة ؛ فما علمت احداً من السلف علل بها الاستثناء ولكن كثيرمن المتأخرين ، يعلل بها من اصحاب الحديث من اصحاب احمد ومالك والشافعي وغيرهم : كما يعلل بها نظارهم كأبي الحسن الأشعري واكثر اصحابه ، لكن ليس هذا قول سلف اصحاب الحديث . ثم قال :

فان قال قائل : اذا قلتم ان الايمان المأمور به فى الشريعة ، هو ماوصفتموه بشرائطه ، وليس ذلك متلقى من اللغة ، فكيف يستقيم قولكم ان الايمان لغوي ؟ قلنا الايمان هو التصديق لغة وشرعا ، غير ان الشرع ضم الى التصديق اوصافا وشرائط : مجموعها يصير مجزياً مقبولاً كما قلنا فى الصلاة والصوم والحج ونحوها ، والصلاة في اللغة : هي الدعاء غير ان الشرع ضم اليها شرائط .

فيقال : هذا يناقض ما ذكروه فى مسمى الايمان ، فانهم لما زعموا أنه فى اللغة التصديق ، والشرع لم يغيره ، أوردوا على أنفسهم .

فان قيل : أليس الصلاة والحج والزكاة معدولة عن اللغة ، مستعملة في غير مذهب اهلها . قلنا : قد اختلف العلماء في ذلك ، والصحيح انها مقررة على استعمال أهل اللغة ، ومبقاة على مقتضياتها ، وليست منقولة ، الا انهـا زيد فيها امور . فلو سلمنا للخصم كون هذه الألفاظ منقولة ، او محمولة على وجه من المجاز بدليل مقطوع به ، فعليه اقامة الدليل على وجود ذلك في الايمان . فانه لا يجب إزالة ظواهر القرآن بسبب إزالة ظاهر منها .

فيقال : أنتم في الايمان جعلتم الشرع زاد فيه وجعلتموه كالصلاة والزكاة مع انه لا يمكن احداً ان يذكر شيئاً من الشرع دليلاً على ان الايمان لا يسمى به ، إلا الموافاة به وبتقدير ذلك ، فمعلوم ان دلالة الشرع على ضم الأعمال اليه اكثر واشهر ، فكيف لم تدخل الأعمـال في مسماه شرعا ؟ وقوله : لا بد من دليل مقطوع به عنه جوابان :

(احدها) : النقض بالموافاة ، فانه لا يقطع فيه .

(الثاني) : لا نسلم ، بل نحن نقطع بأن حب الله ورسوله وخشية الله ونحو ذلك ، داخل في مسمى الايمان في كلام الله ورسوله اعظم مما نقطع ببعض أفعال الصلاة والصوم والحج ، كمسائل النزاع . ثم ابو الحسن ، وابن فورك وغيرهما من القائلين بالموافاة ، هم لا يجعلون الشرع ضم اليه شيئاً ، بل عندهم كل من سلبه الشرع اسم الايمان ، فَقَدْ فُقِدَ من قلبه التصديق .

قال : ومن اصحابنا لم يجعل الموافاة على الايمان شرطاً في كونه إيمـاناً

حقيقياً فى الحـــال ، وان جعـل ذلك شرطاً فى استحقاق الثواب عليه ، وهذا مذهب المعتزلة والـكرامية ، وهو اختيـــار ابي اسحاق الاسفرائيني ، وكلام القاضي يدل عليه ، قال : وهو اختيار شيخنا ابي المعـــالي ، فانه قال : الايمان ثابت فى الحال قطعاً لاشك فيه ، ولكن الايمان الذي هو علم الفوز وآية النجاة ايمان الموافاة . فاعتنى السلف به وقرنوه بالاستثناء ، ولم يقصـــدوا الشك في الايمان الناجز .

قال : ومن صار إلى هـــذا يقول : الايمان صفة يشتق منها اسم المؤمن وهو المعرفة والتصديق ؛ كما ان العالم مشتق من العلم ، فاذا عرفت ذلك من نفسى قطعت به كما قطعت بأنى عالم وعارف ومصدق ، فان ورد فى المستقبل ما يزيله خرج اذ ذاك عن استحقاق هـــذا الوصف . ولا يقال : تبينا انه لم يكن ايماناً مأموراً به ، بل كان ايماناً مجزياً ، فتغير وبطل . وليس كذلك قوله : انا من اهل الجنـــة ، فان ذلك مغيب عنـــه ، وهو مرجو . قال : ومن صار الى القول الاول يتمسك بأشياء . منها ان يقال: الايمان عبادة العمر ، وهو كطاعة واحدة فيتوقف صحة اولها على سلامة آخرها . كما نقـــول فى الصلاة والصيام والحج . قالوا : ولا شك انه لا يسمى فى الحال ولياً ، ولا سعيداً ، ولا مرضياً عند الله . وكذلك الـكافر لا يسمى فى الحال عدوا لله ، ولا شقيا ، إلا على معنى انه تجري عليه احكام الأعداء فى الحال لاظهاره من نفسه علامتهم .

قلت : هذا الذي قالوه ، انه لا شك فيه هو قول ابن كلاب والأشعري

واصحابه . ومن وافقهم من اصحاب احمد ومالك والشافعي وغيرهم . واما اكثر الناس فيقولون : بل هو اذا كان كافراً . فهو عدو لله ، ثم إذا آمن واتقى صار ولياً لله . قال الله تعالى : (يا أيهـا الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم) إلى قوله : (عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم) وكذلك كان . فان هؤلاء اهل مكة الذين كانوا يعادون الله ورسوله قبل الفتح ، آمن اكثرهم ، وصاروا من أولياء الله ورسوله . وابن كلاب واتبـاعه بنوا ذلك على ان الولاية صفة قديمة لذات الله ، وهي الارادة والمحبة والرضا ونحو ذلك . فمعناها ارادة اثابته بعد الموت ؛ وهذا المعنى تابع لعلم الله فمن علم انه يموت مؤمناً ، لم يزل ولياً لله : لأنه لم يزل الله مريداً لادخاله الجنة ، وكذلك العداوة .

وأما الجمهور فيقولون : الولاية والعداوة وان تضمنت محبة الله ورضاه وبغضه وسخطه ، فهو سبحانه يرضى عن الانسان ويحبه ، بعد ان يؤمن ويعمل صالحاً ؛ وانما يسخط عليه ويغضب ، بعد ان يكفر ، كما قال تعالى : (ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه) ؛ فأخبر ان الاعمال اسخطته ؛ وكذلك قال : (فلما آسفونا انتقمنا منهم) ، قال المفسرون : اغضبونا وكذلك قال الله تعالى : (وان تشكروا يرضه لكم) : وفى الحديث الصحيح الذي فى البخاري عن ابى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : يقول الله تعالى : « من عادى لي ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه؛ ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل،حتى احبه ؛ فاذا احببته ،كنت سمعه الذي

يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ؛ ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه » .

فأخبر انه : لا يزال يتقرب اليه بالنوافل حتى يحبه ، ثم قال : فاذا احببته : كنت كذا ، وكذا . وهذا يبين ان حبه لعبده انما يكون بعد ان يأتي بمحابه . والقرآن قد دل على مثل ذلك ، قال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ، فقوله : (يحببكم) ، جواب الامر في قوله : فاتبعوني ، وهو بمنزلة الجزاء مع الشرط ، ولهذا جزم ، وهذا ثواب عملهم ، وهو اتباع الرسول ، فأثابهم على ذلك بأن احبهم ؛ وجزاء الشرط ، وثواب العمل ، ومسبب السبب لا يكون إلا بعده ، لا قبله ، وهذا كقوله تعالى: (ادعوني استجب لكم) وقوله تعالى : (ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) ؛ وقوله تعالى: (اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم) ، ومثل هذا كثير ، وكذلك قوله : (فأتموا إليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين) ، وقوله : (لم تقولون ما لا تفعلون ؛ كبر مقتاً عند الله ان تقولوا مالا تفعلون ، ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) ؛ وكانوا قد سألوه : لو علمنا اي العمل احب الى الله لعملناه .

وقوله : (ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ

تدعون الى الايمان فتكفرون) . فهـذا يدل على ان حبه ومقته ، جزاء لعملهم وانه يحبهم اذا اتقوا وقاتلوا ؛ ولهذا رغبهم في العمل بذلك ؛ كما يرغبهم بسائر ما يعدهم به ؛ وجزاء العمل بعد العمل ، وكذلك قوله : (اذ تدعون الى الايمان فتكفرون) ؛ فانه سبحانه يمقتهم اذ يدعون الى الايمان فيكفرون ؛ ومثل هـذا قوله : (لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم مافي قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) ؛ فقوله : (لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك) ؛ بين أنه رضي عنهم هذا الوقت ، فان حرف (اذ) ظرف لما مضى من الزمان ؛ فعلم انه ذاك الوقت رضي عنهم بسبب ذلك العمل ، وأثابهم عليه ، والمسبب لا يكون قبل سببه ، والموقت بوقت لا يكون قبل وقتـه ؛ واذا كان راضياً عنهم من جهة . فهذا الرضى الخاص الحاصل بالبيعة لم يكن الا حينئذ ، كما ثبت في الصحيح ، انه يقول لأهل الجنة : « يا أهل الجنة هل رضيتم ؛ فيقولون: ياربنا ومالنا لا نرضى وقداعطيتنا ما لم تعط احداً من خلقك، فيقول: الا اعطيكم ماهو افضل من ذلك ، فيقولون : ياربنا واي شيء افضل من ذلك ؛ فيقول : احل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده ابداً » ؛ وهذا يدل على انه في ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان ، الذي لا يتعقبه سخط ابداً ؛ ودل على ان غيره من الرضوان قد يتعقبه سخط .

« وفي الصحيحين » في حديث الشفاعـة يقول : كل من الرسل « ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله » ، وفي « الصحاح » : عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من غير وجه

انه قال : « لله اشد فرحاً بتوبة عبده ، من رجل اضل راحلته بأرض دوية مهلكة ، عليها طعامه وشرابه ، فطلبها فلم يجدها ؛ فاضطجع ينتظر الموت فلما استيقظ ، إذا دابته عليها طعامه وشرابه — وفي رواية — كيف تجدون فرحه بها ؟ قالوا : عظيماً يارسول الله ؛ قال : لله اشد فرحاً بتوبة عبده ، من هـذا براحلته » ، وكذلك ضحكه الى رجلين يقتل احدهما الآخر ، كلاهما يدخل الجنة ؛ وضحكه الى الذي يدخل الجنة آخر الناس ، ويقول أتسخر بي وانت رب العالمين ؛ فيقول : لا ولكني على ما أشاء قادر . وكل هذا في « الصحيح » .

وفي دعاء القنوت : (تولني فيمن توليت) ، والقـديم لا يتصور طلبه ، وقد قال تعالى : (إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) ؛ وقال : (والله ولي المتقين) ؛ فهذا التولي لهم ، جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب عنه ، فـلا يكون متقدماً عليه ، وان كان إنما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقـدرته وفضله واحسانه ؛ لـكن تعلق بكونهم متقين وصالحين ، فدل على ان هذا التولي هو بعـد ذلك مثل كونه مع المتقين والصالحين بنصره وتأييده ؛ ليس ذلك قبل كونهم متقين وصالحين ، وهكذا الرحمة ، قال صلى الله عليه وسلم : (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من فى السماء) ، قال الترمذي حديث صحيح . وكذلك قوله : (وان تشكروا يرضه لـكم) ؛ علق الرضا به تعليق الجزاء بالشرط والمسبب بالسبب ، والجزاء انما يكون بعد الشرط

وكذلك قوله : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) . يدل على انه يشاء ذلك فيما بعد . وكذلك قوله : (انما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) : « فاذا » ظرف لما يستقبل من الزمان . فدل على انه اذا أراد كونه . قال له : كن . فيكون . وكذلك قوله : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) ؛ فبين فيه انه سيرى ذلك في المستقبل اذا عملوه .

والمأخذ الثاني في الاستثناء ، أن الايمان المطلق ، يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله ؛ وترك المحرمات كلها ؛ فاذا قال الرجل : أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه ، بأنه من الأبرار المتقين ، القائمين بفعل جميع ما أمروا به ؛ وترك كل ما نهوا عنه ، فيكون من أولياء الله ؛ وهذا من تزكية الانسان لنفسه ، وشهادته لنفسه بما لا يعلم ، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة ، لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال ، ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة ؛ فشهادته لنفسه بالايمان كشهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحال ؛ وهذا مأخذ عامة السلف ، الذين كانوا يستثنون ، وإن جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر ، كما سنذكره ان شاء الله تعالى .

قال الخلال في « كتاب السنة » : حدثنا سليمان بن الأشعث ، يعني أبا داود السجستاني ، قال : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل ، قال له رجل : قيل لي أمؤمن أنت ؟ قلت نعم ؛ هل علي في ذلك شيء ؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر ؟ فغضب أحمد ، وقال : هذا كلام الارجاء ؛ قال الله تعالى : (وآخرون مرجون

لأمر الله) من هؤلاء ، ثم قال أحمد : أليس الايمان قولاً وعملاً ، قال له الرجل : بلى . قال فجئنا بالقول . قال : نعم قال : فجئنا بالعمل . قال : لا .قال: فكيف تعيب أن يقول : إن شاء الله ويستثني .

قال أبو داود : أخبرني أحمد بن أبي شريح ، أن أحمد بن حنبل ، كتب إليه في هذه المسألة ، أن الايمان قول وعمل ، فجئنا بالقول ولم نجيء بالعمل ، فنحن نستثني في العمل . وذكر الخلال ، هذا الجواب ، من رواية الفضل بن زياد . وقال : زاد الفضل : سمعت أبا عبد الله يقول : كان سليمان بن حرب ، يحمل هذا على التقبل ؛ يقول : نحن نعمل ولا ندري يتقبل منا أم لا ؟

قلت : والقبول متعلق بفعله كما أمر . فكل من اتقى الله في عمله ،ففعله كما أمر ، فقد تقبل منه . لكن هو لا يجزم بالقبول ، لعدم جزمه بكمال الفعل، كما قال تعالى : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) ؛قالت عائشة : يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف ؟ فقال :لايابنت الصديق ، بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لايتقبل منه .

وروى الخلال ، عن أبي طالب قال : سمعت أبا عبد الله يقول : لانجد بداً من الاستثناء ، لأنهم اذا قالوا : مؤمن ، فقد جاء بالقول . فانما الاستثناء بالعمل لا بالقول .

وعن اسحاق بن ابراهيم قال : سمعت أبا عبدالله يقول : أذهب الى حديث

ابن مسعود في الاستثناء في الايمان ، لأن الايمان قول وعمل ، والعمل الفعل ، فقد جئنا بالقول ، ونخشى ان نكون فرطنا في العمل ؛ فيعجبني أن يستثني في الايمان بقول : انا مؤمن ان شاء الله ، قال : وسمعت أبا عبد الله وسئل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم « وانا ان شاء الله بكم لاحقون » الإستثناء ههنا على أي شيء يقع ؟ قال : على البقاع ، لايدري أيدفن في الموضع الذي سلم عليه أم في غيره .

وعن الميموني انه سأل أبا عبد الله عن قوله ورأيه في : مؤمن ان شاء الله. قال : اقول : مؤمن ان شاء الله ، ومؤمن أرجو ، لأنه لايدري كيف البراءة للأعمال على ما افترض عليه ام لا . ومثل هذا كثير في كلام أحمد وأمثاله ، وهذا مطابق لما تقدم من ان المؤمن المطلق هو القائم بالواجبات ، المستحق للجنة اذا مات على ذلك ، وان المفرط بترك المأمور او فعل المحظور لايطلق عليه انه مؤمن ؛ وان المؤمن المطلق هو البر التقي ولي الله ، فاذا قال : انا مؤمن قطعاً ، كان كقوله : انا بر تقي ولي الله قطعاً .

وقد كان احمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال الرجل لغيره : امؤمن انت ؟ ويكرهون الجواب ؛ لأن هذه بدعة احدثها المرجئة ليحتجوا بها لقولهم ؛ فان الرجل يعلم من نفسه انه ليس بكافر ؛ بل يجد قلبه مصدقاً بما جاء به الرسول ، فيقول : انا مؤمن ، فيثبت ان الايمان هو التصديق ، لأنك تجزم بأنك مؤمن ، ولا تجزم ؛ بأنك فعلت كل ما أمرت به ؛ فلما علم السلف

مقصدهم ، صاروا يكرهون الجواب او يفصلون في الجواب وهذا لأن لفظ « الايمان » فيه اطلاق وتقييد . فكانوا يجيبون بالايمان المقيد الذي لا يستلزم أنه شاهد فيه لنفسه بالكمال ، ولهذا كان الصحيح انه يجوز أن يقال : أنا مؤمن بلا استثناء اذا أراد ذلك ، لكن ينبغي ان يقرن كلامه بما يبين انه لم يرد الايمان المطلق الكامل ، ولهذا كان احمد يكره ان يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه .

وقال المروذي : قيل لأبي عبد الله نقول نحن المؤمنون ؟ فقال نقول : نحن المسلمون ، وقال ايضاً قلت لأبي عبد الله نقول إنا مؤمنون ؟ قال : ولكن نقول : إنا مسلمون ؛ ومع هذا فلم ينكر على من ترك الاستثناء اذا لم يكن قصده قصد المرجئة ان الايمان مجرد القول ، بل يكره تركه لما يعلم ان في قلبه ايماناً ، وان كان لا يجزم بكمال ايمانه ؟

قال الخلال : اخبرني احمد بن اصرم المزني ، ان ابا عبد الله قيل له : اذا سألني الرجل فقال : امؤمن انت ؟ قال سؤالك إياي بدعة ، لايشك في ايمانه، او قال لا نشك في ايماننا .

قال المزني : وحفظي ان ابا عبد الله قال : اقول كما قال طاووس : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله .

وقال الخلال : اخبرني حرب بن اسماعيل ، وأبو داود ، قال ابو داود : سمعت احمد : قال : سمعت سفيان — يعني ابن عيينة — يقول : اذا سئل امؤمن انت؟ لم يجبه، ويقول : سؤالك اياي بدعة، ولا اشك في ايماني، وقال: ان قال ان شاء الله ، فليس بكره ، ولايداخل الشك ، فقد اخبرعن احمد انه قال : لانشك في ايماننا ، وان السائل لايشك في ايمان المسؤول ، وهذا ابلغ ، وهو انما يجزم ، بانه مقر مصدق ، بما جاء به الرسول ، لايجزم بانه قائم بالواجبات .

فعلم ان احمد وغيره من السلف ، كانوا يجزمون ولا يشكون في وجود ما في القلب ، من الايمان في هذه الحال ، ويجعلون الاستثناء عائداً الى الايمان المطلق المتضمن فعل المأمور ، ويحتجون ايضاً بجواز الاستثناء فيما لايشك فيه ، وهذا « مأخذ ثان »، وان كنا لانشك فيما في قلوبنا من الايمان ، فالاستثناء فيما يعلم وجوده قد جاءت به السنة ، لما فيه من الحكمة .

وعن محمد بن الحسن بن هارون قال : سألت أبا عبد الله عن الاستثناء فى الايمان فقال : نعم ، الاستثناء على غير معنى شك ، مخافة واحتياطاً للعمل ، وقد استثنى ابن مسعود وغيره ، وهو مذهب الثوري . قال الله تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « اني لأرجو أن أكون أتقاكم لله » . وقال فى الميت : «وعليه تبعث ان شاء الله » فقد بين احمد انه يستثني مخافة واحتياطاً للعمل ، فانه يخاف ان لايكون قد كمل المأموربه ، فيحتاط بالاستثناء وقال على غير معنى شك ؛ يعني من غير

شك مما يعلمه الانسان من نفسه ، والا فهو يشك فى تكميل العمل الذي خاف ان لايكون كمله ؛ فيخاف من نقصه ، ولا يشك فى اصله .

قال الخلال : وأخبرني محمد بن أبي هارون : أن حبيش بن سندي ، حدثهم فى هذه المسألة . قال أبو عبد الله قول النبي صلى الله عليه وسلم حين وقف على المقابر فقال : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » وقد نعيت اليه نفسه ، وعلم أنه صائر الى الموت ، وفى قصة صاحب القبر « وعليه حييت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله » وفى قول النبي صلى الله عليه وسلم « إني اختبأت دعوتي ، وهي نائلة ان شاء الله من لايشرك بالله شيئاً » وفى مسألة الرجل النبي صلى الله عليه وسلم : احدنا يصبح جنباً ، يصوم؟ فقال : « اني أفعل ذلك ثم اصوم » فقال : انك لست مثلنا انت قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال: «والله اني لأرجو انا أكون اخشاكم لله » . وهذا كثير ، وأشباهه على اليقين .

قال : ودخل عليه شيخ فسأله عن الايمان ، فقال له : قول وعمل ، يزيد وينقص . فقال له : اقول : مؤمن ان شاء الله ؟ قال : نعم . فقال له : انهم يقولون لي انك شاك ؛ قال : بئس ماقالوا ، ثم خرج فقال : ردوه فقال : أليس يقولون : الايمان قول وعمل يزيد وينقص ؟ قال : نعم ، قال : هؤلاء يستثنون . قال له : كيف يا أبا عبد الله ؟ قال : قل لهم : زعمتم ان الايمان قول وعمل ، فالقول قد اتيتم به ، والعمل لم تأتوا به ، فهذا الاستثناء لهذا العمل ، قيل له

يستثني فى الايمان ؟ قال : نعم ، اقول : أنا مؤمن ان شاء الله ، استثني على اليقين لا على الشك ؛ ثم قال : قال الله : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين) فقد اخبر الله تعالى انهم داخلون المسجد الحرام .

فقد بين احمد فى كلامه انه يستثني مع تيقنه بما هو الآن موجود فيه ، يقوله بلسانه وقلبه . لايشك فى ذلك ، ويستثني لكون العمل من الايمان ؛ وهو لايتيقن انه اكمله بل يشك فى ذلك ، فنفى الشك وأثبت اليقين ، فيما تيقنه من نفسه ، وأثبت الشك فيما لا يعلم وجوده ، وبين ان الاستثناء مستحب لهذا الثاني الذي لا يعلم هل أتى به ام لا ، وهو جائز ايضاً لما يتيقنه ، فلو استثنى لنفس الموجود فى قلبه جاز ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « والله اني لأرجو أن اكون اخشاكم لله » وهذا امر موجود فى الحال ليس بمستقبل . وهو كونه اخشانا ؛ فانه لايرجو ان يصير اخشانا لله ؛ بل هو يرجو ان يكون حين هذا القول اخشانا لله . كما يرجو المؤمن اذا عمل عملاً ان يكون الله تقبله منه ويخاف ان لا يكون تقبله منه . كما قال تعالى : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ان لا يقبل منه » والقبول هو امر حاضر او ماض وهو يرجوه ويخافه ، وذلك ان ماله عاقبة مستقبلة محمودة او مذمومة ، والانسان يجوز وجوده وعدمه . يقال : انه يرجوه وانه يخافه . فتعلق الرجاء والخوف بالحاضر والماضي لأن عاقبته المطلوبة والمكروهة مستقبلة . فهو يرجو ان يكون الله تقبل عمله فيثيبه عليه فيرحمه فى المستقبل . ويخاف ان لا يكون

تقبله فيحرم ثوابه . كما يخاف ان يكون الله قد سخط عليه في معصيته فيعاقبه عليها .

واذا كان الانسان يسعى فيما يطلبه كتاجر او بريد أرسله في حاجته يقضيها في بعض الاوقات فاذا مضى ذلك الوقت يقول ارجو ان يكون فلان قد قضى ذلك الامر ، وقضاؤه ماض ، لكن ما يحصل لهذا من الفرح والسرور وغير ذلك من مقاصده مستقبل . ويقول الانسان في الوقت الذي جرت عادة الحاج بدخولهم الى مكة : ارجو ان يكونوا دخلوا ، ويقول في سرية بعثت الى الكفار : نرجو ان يكون الله قد نصر المؤمنين وغنمهم ، ويقال في نيل مصر عند وقت ارتفاعه : نرجو ان يكون قد صعد النيل ، كما يقول الحاضر في مصر مثل هذا الوقت : نرجو ان يكون النيل في هذا العام نيلاً مرتفعاً ، ويقال لمن له ارض يحب ان تمطر : اذا مطرت بعض النواحي ارجو ان يكون المطر عاماً ، وارجو ان تكون قد مطرت الارض الفلانية ، وذلك لأن المرجو هو ما يفرح بوجوده ويسره ، فالمكروه ما يتألم بوجوده .

وهذا يتعلق بالعلم ، والعلم بذلك مستقبل ، فاذا علم ان المسلمين انتصروا ، والحاج قد دخلوا ، او المطر قد نزل ، فرح بذلك وحصل به مقاصد آخر له ، واذا كان الأمر بخلاف ذلك ، لم يحصل ذلك المحبوب المطلوب فيقول : ارجو واخاف ، لأن المحبوب والمكروه متعلق بالعلم بذلك وهو مستقبل ، وكذلك المطلوب بالايمان من السعادة والنجاة ، هو امر مستقبل فيستثنى في الحاضر بذلك ، لأن المطلوب به مستقبل ، ثم كل مطلوب مستقبل ، تعلق بمشيئة الله

وان جزم بوجوده ، لأنه لايكون مستقبل الا بمشيئة الله .

فقولنا : يكون هـذا ان شاء الله ، حق ، فانه لايكـون الا ان شاء الله ، والشك واللفظ ليس فيه الا التعليق، وليس من ضرورة التعليق الشك. بل هذا بحسب علم المتكلم، فتارة يكون شاكا. وتارة لايكون شاكا؛ فلما كان الشك يصحبها كثيراً لعدم علم الانسان بالعواقب ، ظن الظان ان الشك داخل فى معناها، وليس كذلك. فقوله : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) لايتصور فيه شك من الله ؛ بل ولا من رسوله المخاطب والمؤمنين ، ولهـذا قال ثعلب : هـذا استثناء من الله وقد علمه، والخلق يستثنون فيما لايعلمون. وقال ابو عبيدة وابن قتيبة إن إن بمعنى إذ ، اي : اذ شاء الله ، ومقصوده بهذا تحقيق الفعل بـ (ان) كما يتحقق مع اذ . والا فاذا ، ظرف توقيت ، و (ان) حرف تعليق .

فان قيل : فالعرب تقول : اذا احمر البسر فأتني ، ولا تقول : ان احمر البسر.

قيل : لأن المقصود هنا توقيت الاتيان بحين احمراره ، فأتوا بالظرف المحقق ، ولفظ : (ان) لايدل على توقيت ، بل هى تعليق محض تقتضي ارتباط الفعل الثاني بالاول ، ونظير مانحن فيه ان يقولوا : البسر يحمر ويطيب ان شاء الله ، وهذا حق ، فهذا نظير ذلك .

فان قيل : فطائفة من الناس فروا من هـذا المعنى وجعلوا الاستثناء لأمر مشكوك فيـه ، فقال الزجاج : (لتدخلن المسجد الحرام) . اي : امركم

الله بــه ، وقيــل : الاستثناء يعود الى الامن والخوف . اي : لتدخلنه آمنين . فأما الدخول فلا شك فيه . وقيل : لتدخلن جميعــكم او بعضــكم ، لأنه علم ان بعضهم يموت . فالاستثناء لأنهــم لم يدخلوا جميعهم . قيــل : كل هذه الاقوال وقع اصحابها فيما فروا منه ؛ مع خروجهم عن مدلول القرآن ، فحرفوه تحريفاً لم ينتفعوا به ، فان قول من قال : اي : امركم الله به ، هو سبحانه قد عــلم ، هل يأمرهم او لا يأمرهم . فعلمه بأنه سيأمرهم بدخوله كعلمه بان سيدخلوا ، فعلقوا الاستثناء بما لم يدل عليه اللفظ ، وعلم الله متعلق بالمظهر والمضمر جميعاً وكذلك امنهم وخوفهم ، هو يعلم انهم يدخلون آمنين او خائفين ، وقد اخبر انهم يدخلون آمنين مع علمه بانهم يدخلون آمنين ، فكلاهما لم يكن فيه شك عند الله : بل ولا عند رسوله . وقول من قال : جميعهم او بعضهم ، يقال : المعلق بالمشيئة دخول من اريد باللفظ ، فان كان اراد الجميــع ، فالجميــع لابد ان يدخلوه ، وان اريد الا كثر ، كان دخولهم هو المعلق بالمشيئة ، وما لم يرد لا يجوز ان يعلق بـ (إن) وإنما علق بـ(إن) ما سيكون؛ وكان هذا وعداً مجزوما به. ولهذا لما قال عمر للنبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية : ألم تكن تحدثنا انا نأتي البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى ، قلت لك : انك تأتيه هــذا العــام ؟ » قال : لا ، قال : « فانك آتيه ومطوف به » .

فان قيل : لم لم يعلق غير هذا من مواعيد القرآن ؟

قيل : لأن هذه الآية نزلت بعد مرجع النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه

من الحديبيه ، وكانوا قد اعتمروا ذلك العام ، واجتهدوا في الدخول ، فصدهم المشركون فرجعوا وبهم من الألم مالا يعلمه الا الله ، فكانوا منتظرين لتحقيق هذا الوعد ذلك العام ، اذ كان النبي صلى الله عليه وسلم وعدهم وعداً مطلقاً .
وقد روي انه رأى في المنام قائلاً يقول : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) فأصبح فحدث الناس برؤياه . وأمرهم بالخروج الى العمرة فلم تحصل لهم العمرة ذلك العام . فنزلت هذه الآية ، واعدة لهم بما وعدهم به الرسول من الأمر الذي كانوا يظنون حصوله ذلك العام .

وكان قوله (ان شاء الله) هنا تحقيقاً لدخوله وأن الله يحقق ذلك لكم ؛ كما يقول الرجل فيما عزم على ان يفعله لا محالة : والله لأفعلن كذا ان شاء الله ، لا يقولها لشك في ارادته وعزمه ، بل تحقيقاً لعزمه وارادته ، فانه يخاف اذا لم يقل : ان شاء الله ، ان ينقض الله عزمه ، ولا يحصل ما طلبه ، كما في « الصحيحين » أن سليمان عليه السلام قال : والله لأطوفن الليلة على مائة امرأة ، كل منهن تأتي بفارس يقاتل في سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل : ان شاء الله ، فلم يقل ، فلم تحمل منهن الا امرأة جاءت بشق رجل . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لو قال : ان شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون » فهو اذا قال : إن شاء الله لم يكن لشك في طلبه وإرادته ، بل لتحقيق الله ذلك له ، اذ الأمور لا تحصل الا بمشيئة الله ، فاذا تألى العبد عليه من غير تعليق بمشيئته ، لم يحصل مراده ، فانه من يتألى على الله يكذبه ، ولهذا يروى : «لا أتممت لمقدر امراً» .

وقيل لبعضهم : بماذا عرفت ربك ؟ قال . بفسخ العزائم ونقض الهمم ، وقد قال تعالى : (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله) فان قوله : لأفعلن ، فيه معني الطلب والخبر ، وطلبه جازم ، وأما كون مطلوبه يقع . فهذا يكون ان شاء الله . وطلبه للفعل يجب ان يكون من الله بحوله وقوته . ففي الطلب عليه ان يطلب من الله ، وفى الخبر لا يخبر الا بما علمه الله : فاذا جزم بلا تعليق ، كان كالتألي على الله ، فيكذبه الله ، فالمسلم فى الامر الذي هو عازم عليه ومريد له وطالب له طلباً لا تردد فيه يقول : ان شاء الله ، لتحقيق مطلوبه، وحصول ما أقسم عليه لكونه لا يكون الا بمشيئة الله ، لا لتردد فى ارادته ، والرب تعالى مريد لانجاز ما وعدهم به ارادة جازمة لا مثنوية فيها ، وما شاء فعل ، فانه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ليس كالعبد الذي يريد مالا يكون ، ويكون مالا يريد .

فقوله سبحانه : (ان شاء الله) تحقيق ان ما وعدتكم به يكون لا محالة بمشيئتى وارادتي ، فان ماشئت كان وما لم أشأ لم يكن ؛ فكان الاستثناء هنا لقصد التحقيق ، لكونهم لم يحصل لهم مطلوبهم الذي وعدوا به ذلك العام ، واما سائر ما وعدوا به فلم يكن كذلك .

ولهذا تنازع الفقهاء فيمن اراد باستثنائه فى اليمين هذا المعنى وهو التحقيق فى استثنائه لا التعليق : هل يكون مستثنياً به ، ام تلزمه الكفارة اذا حنث ؛ بخلاف من ترددت ارادته فانه يكون مستثنياً بلا نزاع ، والصحيح انه

يكون فى الجميع مستثنياً ، لعموم المشيئة ، ولأن الرجل وإن كانت ارادته للمحلوف به جازمة ، فقد علقه بمشيئة الله، فهو يجزم بارادته له ، لا يجزم بحصول مراده ، ولا هو ايضاً مريد له بتقدير ان لا يكون ؛ فان هذا تمني لا ارادة ،فهو انما التزمه اذا شاء الله ، فاذا لم يشأه لم يلتزمه بيمينه ، ولا حلف انه يكون :وان كانت ارادته له جازمة ، فليس كل ما اريد التزم باليمين فلا كفارة عليه .

وقد تبين بما ذكرناه ان قول القائل : (ان شاء الله) يكون مع كمال ارادته فى حصول المطلوب ، وهو يقولها لتحقيق المطلوب ؛ لاستعانته بالله فى ذلك ، لا لشك فى الارادة ، هذا فيما يحلف عليه ويريده ، كقوله تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام) فانه خبر عما اراد الله كونه وهو عالم بأن سيكون ، وقد علقه بقوله : (إن شاء الله) فكذلك ما يخبر به الانسان عن مستقبل امره مما هو جازم بارادته وجازم بوقوعه فيقول فيه : ان شاء الله ، لتحقيق وقوعه ، لا للشك لا فى ارادته ولا فى العلم بوقوعه .

ولهذا يذكر الاستثناء عند كمال الرغبة فى المعلق ، وقوة ارادة الانسان له . فتبقى خواطر الخوف تعارض الرجاء ؛ فيقول : ان شاء الله ، لتجقيق رجائه مع علمه بأن سيكون ؛ كما يسأل الله ويدعوه فى الأمر الذي قد علم انه يكون ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر قد اخبرهم بمصارع المشركين ، ثم هو بعد هذا يدخل الى العريش يستغيث ربه ويقول : « اللهم انجز لي ماوعدتني » ؛ لأن العلم بما يقدره لا ينافى ان يكون قدره بأسباب ، والدعاء من اعظم

اسبابه . كذلك رجاء رحمة الله وخوف عذابه من اعظم الاسباب فى النجاة من عذابه وحصول رحمته .

والاستثناء بالمشيئة يحصل فى الخبر المحض . وفى الخبر الذي معه طلب ؛ فالاول اذا حلف على جملة خبرية لايقصد به حضاً ولا منعاً ، بل تصديقاً او تكذيباً . كقوله : والله ليكونن كذا ان شاء الله ، او لا يكون كذا . والمستثني قد يكون عالماً بأن هذا يكون او لا يكون كما فى قوله : (لتدخلن) فان هذا جواب غير محذوف .

والثاني : ما فيه معنى الطلب ، كقوله : والله لأفعلن كذا ، او لا افعله ان شاء الله ؛ فالصيغة صيغة خبر تضمن الطلب . ولم يقل : والله إني لمريد هذا ولا عازم عليه ، بل قال : والله ليكونن . فاذا لم يكن فقد حنث لوقوع الامر بخلاف ما حلف عليه فحنث ، فاذا قال ان شاء الله فانما حلف عليه بتقدير : ان يشاء الله ، لا مطلقاً .

ولهذا ذهب كثير من الفقهاء الى انه متى لم يوجد المحلوف عليه حنث ، او متى وجد المحلوف عليه انه لا يفعل ، حنث ، سواء كان ناسياً او مخطئاً او جاهلاً ، فانهم لحظوا ان هذا فى معنى الخبر ، فاذا وجد بخلاف مخبره فقد حنث وقال الآخرون : بل هذا مقصوده الحض والمنع ، كالأمر والنهي ، ومتى نهي الانسان عن شيء ففعله ناسياً او مخطئاً لم يكن مخالفاً ، فكذلك هذا .

قال الأولون : فقد يكون فى معنى التصديق والتكذيب ، كقوله : والله ليقعن المطر ، اولا يقع ، وهذا خبر محض ، ليس فيه حض ولا منع ولو حلف على اعتقاده فكان الأمر بخلاف ما حلف عليه ، حنث ، وبهذا يظهر الفرق بين الحلف على الماضي والحلف على المستقبل ، فان اليمين على الماضي غير منعقدة ، فاذا أخطأ فيها لم يلزمه كفارة ، كالغموس ، بخلاف المستقبل . وليس عليه ان يستثني فى المستقبل اذا كان فعله . قال تعالى : (زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا . قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) فأمره ان يقسم على ما سيكون ، وكذلك قوله: (وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم) كما امره ان يقسم على الحاضر فى قوله : (ويستنبئونك احق هو ؟ قل اي وربي إنه لحق) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكما عدلاً واماما مقسطاً » . وقال : « والذي نفسي بيده لاتذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لايدري القاتل فيما قتل ، ولا المقتول فيما قتل » وقال : « اذا هلك كسرى او ليهلك كسرى ، ثم لايكون كسرى بعده ، واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده . والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » ، وكلاهما فى « الصحيح » .

فاقسم صلوات الله وسلامه عليه على المستقبل فى مواضع كثيرة بلا استثناء ، والله سبحانه وتعالى اعلم .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وقال الشيخ العالم العامل

الورع الناسك : شيخ الاسلام ، بقية السلف الكرام « ابو العباس احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الشامي — رحمه الله — :[1]

فصـــــل

تضمن حديث سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن « الاســـلام » ، و « الايمان » ، و « الاحسان » ، وجوابه عن ذلك ، وقوله في آخر الحديث : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

فجعل هذا كله من الدين .

وللناس في « الاسلام » ، و « الايمـان » من الـكلام الـكثير : مختلفين تارة ، ومتفقين أخرى ، ما يحتاج الناس معه الى معرفة الحق في ذلك ؛ وهـذا يكون بان تبين الأصول المعلومة المتفق عليها . ثم بذلك يتوصل الى معرفة الحقيقة المتنازع فيها ؛

فنقول : ما علم الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، وهو من المنقول نقلا متواترا

---

(١) هذا « كتاب الايمان الاوسط » .

عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بل هو من المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام ــ دين النبي صلى الله عليه وسلم ــ ان الناس كانوا على عهده بالمدينة « ثلاثة اصناف » : مؤمن ، وكافر مظهر للكفر ، ومنافق ظاهره الاسلام وهو فى الباطن كافر

ولهذا التقسيم أنزل الله في اول سورة البقرة ذكر الأصناف الثلاثة، فأنزل اربع آيات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفة الكافرين . وبضع عشرة آية في صفة المنافقين .

فقوله تعالى : (هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون) : في صفة المؤمنين .

وقوله : (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) الآيتين : في صفة الكفار الذين يموتون كفاراً .

وقوله : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) . الآيات ، في صفة المنافقين ؛ الى ان ضرب لهم مثلين : احدهما بالنار ، والآخر بالماء ؛ كما ضرب المثل بهذين للمؤمنين في قوله تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها) الآية.

واما قبل الهجرة فلم يكن الناس إلا مؤمن او كافر، لم يكن هناك منافق فان المسلمين كانوا مستضعفين، فكان من آمن آمن باطنا وظاهراً، ومن لم يؤمن فهو كافر. فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة. وصار للمؤمنين بها عز وانصار، ودخل جمهور اهلها فى الاسلام طوعا واختياراً: كان بينهم من اقاربهم ومن غير اقاربهم من اظهر الاسلام موافقة، رهبة او رغبة وهو فى الباطن كافر. وكان رأس هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول، وقد نزل فيه وفى امثاله من المنافقين آيات.

والقرآن يذكر المؤمنين والمنافقين فى غير موضع، كما ذكرهم فى سورة البقرة، وآل عمران، والنساء. والمائدة، وسورة العنكبوت، والأحزاب. وكان هؤلاء فى اهل المدينة والبادية كما قال تعالى: (وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم). وكان فى المنافقين من هو فى الاصل من المشركين، وفيهم من هو فى الأصل من اهل الكتاب.

وسورة الفتح، والقتال، والحديد، والمجادلة، والحشر، والمنافقين. بل عامة السور المدنية: يذكر فيها المنافقين. قال تعالى فى سورة آل عمران: (يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا، وقالوا لاخوانهم – اذا ضربوا فى الأرض او كانوا غزى – لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) الى قوله: (وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم تعالوا

قاتلوا فى سبيل الله او ادفعوا) الايات . وقال فيها ايضاً : (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم) ، الى قوله : (واذا لقوكم قالوا : آمنا . واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل: موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور ان تمسسكم حسنة تسؤهم ، وان تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ان الله بما يعملون محيط) .

وقال تعالى فى سورة النساء : (الم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك ، يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت ــ وقد أمروا أن يكفروا به ــ ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالاً بعيداً. وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) الىقوله : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما) وقال : (فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون ان تهدوا من اضل الله ؟ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهماولياء ؛ حتى يهاجروا فى سبيل الله ، فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ، الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق) الآيات .

وقال : (بشر المنافقين بان لهم عذابا اليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ايبتغون عندهم العزة ؟ فان العزة لله جميعاً) الى قوله :

(ان الله جامع المنافقين والـكافرين فى جهنم جميعاً . الذين يتربصون بـكم ؛ فان كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ؟ وان كان للـكافرين نصيب ، قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعـكم من المؤمنين ؟ ! فالله يحـكم) الى قوله : (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم . واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ، مذبذبين بـين ذلـك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً .) الى قوله : (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النـار ولن تجد لهـم نصـيراً . الا الذين تابوا ، واصلحوا ، واعتصموا بالله ؛ واخلصوا دينهم لله ؛ فأولئك مع المؤمنين . وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما .

وقال تعالى فى سورة المائدة : (يا ايها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الـكفر من الذين قالوا : آمنا بافواههم ، ولم تؤمن قلوبهم . ومن الذين هادوا ؛ سماعون للكذب سمـاعون لقوم آخرين لم يأتوك .) وقال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ؛ بعضهم اولياء بعض . ومن يتولهم منكم ، فانه منهم) الى قوله : (فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون : نخشى ان تصيبنا دائرة ، فعسى الله ان يأتي بالفتح او امر من عنده ، فيصبحوا على ماسروا فى انفسهم نادمـين . ويقول الذين آمنـوا : اهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم ، حبطت اعمالهم فأصبحوا خاسرين) .

وقال تعالى : (واذا جاءوكم قالوا : آمنا ، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به . والله اعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيراً منهم يسارعون فى الاثم والعدوان واكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون) وقال تعالى :(يا اهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل واضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) ، الى قوله : (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم انفسهم . ان سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ؛ ولو كانوا يومنون بالله والنبي وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون) .

واما «سورة براءة» فأكثرها في وصف المنافقين وذمهم ولهذا سميت : الفاضحة ، والمبعثرة ، وهي نزلت عام تبوك . وكانت تبوك سنة تسع من الهجرة ، وكانت غزوة تبوك آخر مغازي النبي صلى الله عليه وسلم ، التى غزاها بنفسه . وتميز فيها من المنافقين من تميز . فذكر الله من صفاتهم ما ذكره فى هذه السورة . وقد قال تعالى فى سورة النور : (ويقولون : آمنا بالله وبالرسول واطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما اولئك بالمؤمنين) الى قوله : (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا ، واولئك هم المفلحون) الآيات .

وقال تعالى فى سورة العنكبوت : (ومن الناس من يقول : آمنا بالله فاذا اوذي فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . ولئن جاء نصر من ربك

ليقولن : انا كنا معكم. اوليس الله باعلم بمـا فى صدور العالمين ؟ ! وليعلمن الله الذين آمنوا ، وليعلمن المنافقين).

وقال تعـالى فى سورة الاحزاب : (يا ايهـا النبي اتق الله ولا تطـع الكافرين والمنافقين ، ان الله كان عليما حكيما .) وذكر فيه شأنهم فى الاحزاب. وذكر من اقوال المنافقـين وجبنهـم وهلعهم ، كما قال تعالى : (واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا) الى قوله (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا . اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد . اشحة على الخير ؛ اولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اعمالهم ؛ وكان ذلـك على الله يسيراً يحسبون الاحزاب لم يذهبـوا، وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون فى الاعراب ، يسألون عن أنبائكم ؛ ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا.)وقال تعالى: (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا. ملعونين، اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا.) الى قوله: (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات).

وقال تعالى فى سورة القتال : (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله اضغانهـم . ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم في لحن القول . والله يعلم اعمالكم) الى مافى السورة من نحو ذلك .

وقال تعالى في سورة الفتـح : (هو الذي انزل السكينـة فى قـلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مـع ايمانهم . ولله جنود السماوات والارض ، وكان الله عليما حكيما . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتهـا الانهـار خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما . ويعذب المنافقين والمنافقات . والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء عليهـم دائرة السوء . وغضب الله عليهم ، ولعنهم وأعد لهـم جهنم وساءت مصيراً)

وقال تعالى في سورة الحديد : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتهـا الانهار ، خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقـول المنافقون والمنافقات للذين آمنو انظرونا نقتبس من نوركم . قيل : ارجعوا وراءكم ، فالتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبلـه العذاب ينادونهم . ألم نكن معكم؟ قالوا بلى ؟ ولكـنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتـكم الاماني حتى جاء امر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم) .

وقال في سـورة المجادلة : (الم تر الى الذين نهوا عـن النجوى ، ثم يعودون لما نهوا عنه ، ويتناجون بالاثم والعدوان ، ومعصية الرسول ، واذا جاءوك حيوك بما لم يحيك بـه الله) . الى قوله : (الم تر الذين تولوا قـوما غضب الله عليهم ماهم منكم ولا منهم ، ويحلفون عـلى الـكذب وهم يعلمون

اعد الله لهم عذابا شديداً : انهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين) . الى آخر السورة . وقوله : (ماهم منكم ولا منهم) كقوله : (مذبذبين بين ذلك لا الى هـؤلاء ولا الى هؤلاء) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مثـل المنافق كمثل الشاة العـائرة بـين الغنمين تعير الى هذه مرة والى هذه مرة » .

وقال تعالى : (الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الـكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم احداً ابداً ، وان قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد انهـم لكاذبون . لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لاينصرون . لأنتـم اشد رهبة فى صدورهم من الله) ، الآية . وقد ذكر فى سورة المنافقين فى قوله : (اذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد انك لرسول الله ، ويعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) الى آخر السورة .

و (المقصود) بيان كثرة ما فى القرآن من ذكر المنافقين واوصافهم . و « المنافقون » هم فى الظاهر مسلمون وقـد كان المنافقون عـلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم : يلتزمون احكام الاسلام الظاهرة لا سيما فى آخر الأمر مالم يلتزمه كثير من المنافقين الذين من بعدهم ؛ لعز الاسلام وظهوره اذ ذاك بالحجة والسيف تحقيقاً لقوله تعالى : (هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق

ليظهره على الدين كله) ولهذا قال حذيفة بن اليمان : — وكان من اعلم الصحابة بصفات المنافقين واعيانهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد اسر اليه عام تبوك اسماء جماعة من المنافقين بأعيانهم ، فلهذا كان يقال : هو صاحب السر الذي لايعلمه غيره . وروى ان عمر بن الخطاب لم يكن يصلى على احد حتى يصلى عليه حذيفة ؛ لئلا يكون من المنافقين الذين نهى عن الصلاة عليهم . قال حذيفة رضي الله عنه — النفاق اليوم اكثر منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى رواية : كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يسرونه ، واليوم يظهرونه . وذكر البخارى فى صحيحه عن ابن ابي مليكة قال : ادركت ثلاثين من اصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه ، وقد اخبر الله عن المنافقين انهم يصلون ويزكون وانه لا يقبل ذلك منهم .

وقال تعالى : (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ؛ يراؤون الناس ، ولا يذكرون الله الا قليلاً) . وقال تعالى : (قل أنفقوا طوعاً او كرها ، لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين. وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ، ولا ينفقون الا وهم كارهون .) وقد كانوا يشهدون مع النبي صلى الله عليه وسلم مغازيه ، كما شهد عبد الله بن ابي ابن سلول وغيره من المنافقين « الغزوة » التى قال فيها عبد الله بن ابي : (لئن رجعنا الى المدينة

ليخرجن الأعز منها الأذل) .وأخبر بذلك زيد بن أرقم النبي صلى الله عليه وسلم، وكذبه قوم، حتى أنزل الله القرآن بتصديقه .

والمقصود ان الناس ينقسمون فى الحقيقة الى : « مؤمن » و « منافق » كافر فى الباطن مع كونه مسلماً فى الظاهر ، والى كافر باطناً وظاهراً .

ولما كثرت الأعاجم فى المسلمين تكلموا بلفظ « الزنديق » وشاعت فى لسان الفقهاء ، وتكلم الناس فى الزنديق : هل تقبل توبته ؟ فى الظاهر : اذا عرف بالزندقة ، ودفع الى ولي الأمر قبل توبته . فمذهب مالك وأحمد فى اشهر الروايتين عنه ، وطائفة من أصحاب الشافعي ، وهو احد القولين فى مذهب أبي حنيفة : ان توبته لاتقبل . والمشهور من مذهب الشافعي : قبولها، كالرواية الاخرى عن أحمد ، وهو القول الآخر فى مذهب أبي حنيفة . ومنهم من فصل .

والمقصود هنا : أن « الزنديق » فى عرف هؤلاء الفقهاء ، هو المنافق الذي كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم . وهو أن يظهر الاسلام ويبطن غيره ، سواء أبطن دينا من الأديان : كدين اليهود والنصارى او غيرهم . او كان معطلاً جاحداً للصانع ، والمعاد ، والأعمال الصالحة .

ومن الناس من يقول : « الزنديق » هو الجاحد المعطل . وهذا يسمى

الزنديق فى اصطلاح كثير من أهل الكلام والعامة ، ونقلة مقالات الناس ؛ ولكن الزنديق الذي تكلم الفقهاء فى حكمه : هو الأول ؛ لأن مقصودهم هو التمييز بين الكافر وغير الكافر ، والمرتد وغير المرتد ، ومن أظهر ذلك او أسره . وهذا الحكم يشترك فيه جميع انواع الكفار والمرتدين ، وان تفاوتت درجاتهم فى الكفر والردة فان الله أخبر بزيادة الكفر كما اخبر بزيادة الايمان، بقوله : (انما النسيء زيادة في الكفر) وتارك الصلاة وغيرها من الأركان ، أو مرتكبي الكبائر ، كما اخبر بزيادة عذاب بعض الكفار على بعض فى الآخرة بقوله : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، زدناهم عذاباً فوق العذاب) .

فهذا « اصل » ينبغي معرفته فانه مهم فى هذا الباب . فان كثيراً ممن تكلم فى « مسائل الايمان والكفر » — لتكفير أهل الأهواء — لم يلحظوا هذا الباب ؛ ولم يميزوا بين الحكم الظاهر والباطن ، مع ان الفرق بين هذا وهذا ثابت بالنصوص المتواترة ، والاجماع المعلوم ؛ بل هو معلوم بالاضطرار من دين الاسلام . ومن تدبر هذا ، علم أن كثيراً من اهل الأهواء والبدع : قد يكون مؤمناً مخطئاً جاهلاً ضالاً عن بعض ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد يكون منافقاً زنديقاً يظهر خلاف ما يبطن .

وهنا « اصل آخر » وهو انه قد جاء فى الكتاب والسنة وصف اقوام بالاسلام دون الايمان . فقال تعالى : (قالت الأعراب : آمنا ، قل : لم تؤمنوا ،

ولكن قولوا اسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئاً ، ان الله غفور رحيم) وقال تعالى في قصة قوم لوط: (فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) وقد ظن طائفة من الناس ان هذه الآية تقتضي ان مسمى الايمان والاسلام واحد . وعارضوا بين الآيتين ؛ وليس كذلك ؛ بل هذه الآية توافق الآية الاولى لأن الله اخبر انه اخرج من كان فيها مؤمناً ، وانه لم يجد إلا اهل بيت من المسلمين .

وذلك لأن امرأة لوط كانت فى اهل البيت الموجودين ، ولم تكن من المخرجين الذين نجوا ؛ بل كانت من الغابرين ، الباقين فى العذاب ، وكانت فى الظاهر مع زوجها على دينه ، وفى الباطن مع قومها على دينهم ، خائنة لزوجها تدل قومها على اضيافه . كما قال الله تعالى فيها : (ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما) . وكانت خيانتهما لهما فى الدين لا فى الفراش . فانه مابغت امرأة نبي قط ؛ إذ «نكاح الكافرة » قد يجوز فى بعض الشرائع ، ويجوز فى شريعتنا نكاح بعض الأنواع وهن الكتابيات واما « نكاح البغي » فهو : دياثة . وقد صان الله النبي عن ان يكون ديوثاً . ولهذا كان الصواب قول من قال من الفقهاء : بتحريم نكاح البغي حتى تتوب .

و (المقصود) ان امرأة لوط لم تكن مؤمنة ، ولم تكن من الناجين المخرجين، فلم تدخل فى قوله : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) وكانت من اهل البيت المسلمين وممن وجد فيه ، ولهذا قال تعالى : (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) . وبهذا تظهر حكمة القرآن حيث ذكر الايمان لما اخبر بالاخراج وذكر الاسلام لما اخبر بالوجود . وايضاً فقد قال تعالى : (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) ففرق بين هذا وهذا . فهذه ثلاثة مواضع فى القرآن .

و « ايضاً » فقد ثبت فى الصحيحين عن سعد بن ابي وقاص قال :«اعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالاً ، ولم يعط رجلاً . فقلت : يا رسول الله ! اعطيت فلاناً ، وتركت فلاناً ، وهو مؤمن . فقال : او مسلم ؟ قال : ثم غلبني ما اجد ، فقلت : يا رسول الله ! اعطيت فلاناً وفلاناً ، وتركت فلاناً وهو مؤمن ! فقال او مسلم ؟ مرتين او ثلاثاً ، وذكر فى تمام الحديث انه يعطى رجالاً، ويدع من هو احب اليه منهم ؛ خشية ان يكبهم الله فى النار على مناخرهم » .

قال الزهرى : فكانوا يرون ان الاسلام الكلمة ، والايمان العمل ، فأجاب سعداً بجوابين ، « أحدهما » : ان هذا الذي شهدت له بالايمان ، قد يكون مسلماً لا مؤمناً . « الثاني » : إن كان مؤمناً ، وهو أفضل من أولئك فأنا قد أعطى من هو أضعف ايماناً ؛ لئلا يحمله الحرمان على الردة ، فيكبه الله فى

النار على وجهه . وهذا من اعطاء المؤلفة قلوبهم .

وحينئذ فهؤلاء الذين اثبت لهم القرآن والسنة الاسلام ؛ دون الايمان هل هم المنافقون الكفار في الباطن ؟ ام يدخل فيهم قوم فيهم بعض الإيمان ؟ هذا مما تنازع فيه اهل العلم على اختلاف اصنافهم.فقالت طائفة من اهل الحديث والكلام وغيرهم : بل هم المنافقون الذين استسلموا،وانقادوا فى الظاهر ولم يدخل الى قلوبهم شيء من الايمان .

واصحاب هذا القول قد يقولون الاسلام المقبول هو الايمان؛ولكن هؤلاء أسلموا ظاهراً لا باطناً فلم يكونوا مسلمين فى الباطن ولم يكونوا مؤمنين.وقالوا:إن الله سبحانه يقول:(ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه). بيانه كل مسلم مؤمن فما ليس من الاسلام ، فليس مقبولا يوجب ان يكون الايمان منه . وهؤلاء يقولون :كل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن ، اذا كان مسلماً في الباطن. واما الكافر المنافق فى الباطن فانه خارج عن المؤمنين المستحقين للثواب باتفاق المسلمين

ولا يسمون بمؤمنين عند احد من سلف الأمة وأئمتها ، ولا عند احد من طوائف المسلمين . إلا عند طائفة من المرجئة ، وهم الكرامية الذين قالوا ان الايمان هو مجرد التصديق فى الظاهر . فاذا فعل ذلك :كان مؤمناً وان كان مكذباً في الباطن ، وسلموا انه معذب مخلد فى الآخرة . فنازعوا في اسمه لا فى

حكمه . ومن الناس من يحكي عنهم انهم جعلوهم من اهل الجنـة ، وهو غلط عليهم . ومع هذا فتسميتهم له مؤمناً : بدعة ابتدعوها مخالفة للـكتاب والسنـة واجماع سلف الأمة ، وهذه البدعة الشنعاء هي التى انفرد بهـا الكرامية ، دون سائر مقالاتهم .

قال الجمهور من السلف والخلف : بل هؤلاء الذين وصفوا بالاسلام دون الأيمان ، قد لايكونون كفاراً فى الباطن بل معهم بعض الاسـلام المقبول . وهؤلاء يقولون : الاسلام اوسع من الايمان فـكل مؤمن مسـلم وليس كل مسلم مؤمناً . ويقولون : فى قول النبي صلى الله عليه وسـلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق ـ حين يسرق ـ وهو مؤمـن ، ولا يشرب الخمر ـ حين يشربها ـ وهو مؤمن » انه يخرج من الايمـان الى الاسلام ، ودوروا للاسلام دارة ودوروا للايمان دارة اصغر منهـا فى جوفهـا وقالوا : إذا زنى خرج من الايمان الى الاسلام ، ولا يخرجه من الاسلام الى الكفر .

ودليل ذلك ان الله تبارك وتعالى قال : (قالت الأعراب : آمنا ، قل : لم تؤمنوا . ولكن قولوا : اسلمنا . ولما يدخل الايمان في قلوبكم . وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالـكم شيئا ، ان الله غفور رحيم ، انمـا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ؛ ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله ،

اولئك هم الصادقون. قل: اتعلمون الله بدينكم؟! والله يعلم ما في السموات ومافي الأرض، والله بكل شيء عليم. يمنون عليك ان اسلموا، قل: لا تمنوا علي اسلامكم. بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان، ان كنتم صادقين).

فقد قال تعالى: (لم تؤمنوا ولكن قولوا: اسلمنا، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم)، وهذا الحرف - اي (لما) - ينفى به ما قرب وجوده، وانتظر وجوده، ولم يوجد بعد. فيقول لمن ينتظر غائباً اي «لما». ويقول قد جاء لمّا يجيء بعد. فلما قالوا: (آمنا) قيل: (لم تؤمنوا) بعد، بل الايمان مرجو منتظر منهم. ثم قال: (وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم) اي: لا ينقصكم من اعمالكم المثبتة (شيئاً)، اي: فى هذه الحال؛ فانه لو ارادوا طاعة الله ورسوله بعد دخول الايمان فى قلوبهم لم يكن فى ذلك فائدة لهم ولا لغيرهم؛ اذ كان من المعلوم ان المؤمنين يثابون على طاعة الله ورسوله وهم كانوا مقرين به. فاذا قيل لهم: المطاع يثاب والمراد به المؤمن الذي يعرف انه مؤمن لم يكن فيه فائدة جديدة.

و «ايضاً» فالخطاب لهؤلاء المخاطبين قد اخبر عنهم لما يدخل فى قلوبهم وقيل لهم: (ان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئاً)؛ فلو لم يكونوا فى هذه الحال مثابين على طاعة الله ورسوله لكان خلاف مدلول الخطاب، فبين ذلك انه وصف المؤمنين الذين اخرج هؤلاء منهم فقال تعالى: (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم

في سبيل الله اولئك هم الصادقون) ، وهذا نعت محقق الايمان ؛ لا نعت من معه مثقال ذرة من ايمان، كما في قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، اولئك هم المؤمنون حقاً) ، وقوله تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، ان الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » . وامثال ذلك .

فدل البيان على ان الايمان المنفي عن هؤلاء الأعراب : هو هذا الايمان الذي نفي عن فساق اهل القبلة الذين لا يخلدون في النار ، بل قد يكون مع احدهم مثقال ذرة من ايمان ، ونفي هذا الايمان لايقتضي ثبوت الكفر الذي يخلد صاحبه في النار .

وبتحقق « هذا المقام » يزول الاشتباه في هذا الموضع ، ويعلم ان في المسلمين قسما ليس هو منافقاً محضاً في الدرك الاسفل من النار ، وليس هو من المؤمنين الذين قيل فيهم : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) . ولا من الذين قيل فيهم : (أولئك هم المؤمنون حقاً) فلاهم منافقون ، ولاهم

من هؤلاء الصادقين المؤمنـين حقاً ، ولا من الذين يدخلون الجنـة بلا عقاب . بل له طاعات ومعاص وحسنات وسيئات ، ومعه من الايمـان مالا يخلد معه فى النـار ، وله من الكبائر مايستوجب دخول النار . وهـذا القسم قد يسميه بعض الناس : الفاسق الملي وهذا ممـا تنازع الناس فى اسمه وحكمه . والخلاف فيهاول خلافظهر فى الاسلام فى مسائل «اصول الدين» .

فنقول : لما قتل امير المؤمنين عثمان بن عفان ، وسـار على بن ابي طالب الى العراق ، وحصل بين الامة من الفتنة والفرقة يوم الجمل ، ثم يوم صفين ، ماهو مشهور : خرجت (الخوارج) المارقون على الطائفتين جميعـاً ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد اخبر بهم وذكر حكمهم ، قال الامام احمد : صح الحديث فى الخوارج من عشرة اوجه ، وهذه العشرة اخرجها مسلم فى صحيحه موافقة لاحمد ، وروى البخاري منهـا عدة اوجه ، وروى احاديثهم اهل السنن والمسانيد من وجوه آخر .

ومن اصح حديثهم حديث علي بن ابي طالب وابي سعيد الخدري ففي الصحيحين عن علي بن ابي طالب انه قـال : اذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثـاً فوالله لأن أخر من السماء الى الارض احب إلي من ان اكذب عليه ، وان حدثتكم فيما بيني وبينـكم ، فان الحرب خدعة ، واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سيخرج قوم فى آخر الزمان .

احداث الاسنان ، سفهاء الاحلام ، يقولون من خير قول البرية ، لايجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . فأينما لقيمتوهم فاقتلوهم فان في قتلهم اجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة » .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد قال : بعث علي بن ابي طالب الى النبي صلى الله علية وسلم من اليمن بذهيبة فى ادم مقروض لم تحصل من ترابها فقال : فقسمها بين اربعة نفر، فقال رجل من اصحابه كنا احق بهذا من هؤلاء قال:فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « الاتأمنوني وانا امين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساءاً » قال : فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ، ناشز الجبهة ، كث اللحية ، محلوق الرأس ، مشمر الازار ، فقال : يارسول الله ! اتق الله ، فقال : « ويلك ! اولست احق اهل الارض ان يتقي الله ؟ ! » قال : ثم ولى الرجل ، فقال خالد بن الوليد ، يارسول الله ! الا اضرب عنقه ؟ فقال : « لا : لعله أن يكون يصلي» قال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ماليس فى قلبه . فقال رسول الله صلى عليه وسلم : « اني لم اومر ان انقب عن قلوب الناس ؛ ولا اشق بطونهم » قال ثم نظر اليه وهو مقف فقال : « انه يخرج من ضئضىء هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لايجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية قال : اظنه قال : لئن ادركتهم لأقتلنهم قتل عاد » . اللفظ لمسلم .

ولمسلم في بعض الطرق عن ابي سعيد « ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر قوماً يكونون في امته يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحليق ثم قال شر الخلق او من شر الخلق يقتلهم ادنى الطائفتين الى الحق » قال ابو سعيد: انتم قتلتموهم يا اهل العراق ، وفي لفظ له : « تقتلهم اقرب الطائفتين الى الحق » وهذا الحديث مع ماثبت في الصحيح عن ابي بكرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للحسن بن علي : « ان ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين » فبين ان كلا الطائفتين كانت مؤمنة وان اصطلاح الطائفتين كما فعله الحسن كان احب الى الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم من اقتتالهما ، وان اقتتالهما وإن لم يكن مأموراً به ، فعلي بن ابي طالب وأصحابه اقرب الى الحق من معاوية واصحابه ، وان قتال الخوارج مما امر به صلى الله عليه وسلم ، ولذلك اتفق على قتالهم الصحابة والأئمة .

وهؤلاء الخوارج لهم اسماء، يقال لهم : « الحرورية » لأنهم خرجوا بمكان يقال له حروراء ، ويقال لهم (اهل النهروان) : لأن علياً قاتلهم هناك ومن اصنافهم « الاباضية » اتباع عبد الله بن اباض ، و « الأزارقة » اتباع نافع بن الأزرق ، و « النجدات » أصحاب نجدة الحروري .

وهم اول من كفر أهل القبلة بالذنوب بل بما يرونه هم من الذنوب واستحلوا دماء اهل القبلة بذلك ، فكانوا كما نعتهم النبي صلى الله عليه وسلم

«يقتلون اهل الاسلام ويدعون اهل الاوثان» وكفروا علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان ومن والاهما ، وقتلوا علي بن أبي طالب مستحلين لقتله ، قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي منهم ، وكان هو وغيره من الخوارج مجتهدين في العبادة ، لكن كانوا جهالاً فارقوا السنة والجماعة ؛ فقال هؤلاء : ما الناس إلا مؤمن او كافر ؛ والمؤمن من فعل جميع الواجبات وترك جميع المحرمات ؛ فمن لم يكن كذلك فهو كافر ؛ مخلد في النار . ثم جعلوا كل من خالف قولهم كذلك ، فقالوا : ان عثمان وعلياً ونحوهما حكموا بغير ما انزل الله ، وظلموا فصاروا كفاراً .

ومذهب هؤلاء باطل بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة ، فان الله سبحانه امر بقطع يد السارق دون قتله ، ولو كان كافراً مرتداً لوجب قتله ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من بدل دينه فاقتلوه » . وقال « لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث : كفر بعد اسلام ، وزنا بعد احصان ، اوقتل نفس يقتل بها » وامر سبحانه ان يجلد الزاني والزانية مائة جلدة ، ولو كانا كافرين لأمر بقتلها ، وامر سبحانه بأن يجلد قاذف المحصنة ثمانين جلدة ، ولو كان كافراً لأمر بقتله ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجلد شارب الخمر ولم يقتله ، بل قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري وغيره : ان رجلاً كان يشرب الخمر وكان اسمه عبد الله حمارا وكان يضحك النبي صلى الله عليه وسلم وكان كلما اتي به اليه جلده فأتى به اليه مرة فلعنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم

« لاتلعنه ، فانه يحب اللهورسوله » فنهى عن لعنه بعينهوشهدله بحب اللهورسوله مع انه قد لعن شارب الخمر عموماً .

وهذا من اجود ما يحتج به علـى ان الامر بقتل الشارب فى « الثالثة » و « الرابعة » منسوخ ؛ لان هذا اتى به ثلاثمرات ٠ وقد اعيى الأئمة الـكبار جواب هذا الحديث ؛ ولكن نسخ الوجوب لا يمنع الجواز ، فيجوز ان يقال : يجوز قتله إذا رأى الامام المصلحة فى ذلك ، فان ما بين الأربعين الى الثمانين ليس حداً مقدراً فى اصح قولي العلمـاء ٠ كما هو مذهب الشافعي واحمد فى إحدى الروايتين ؛ بل الزيادة على الأربعين الى الثمانين ترجـع الى اجتهاد الامام فيفعلها عند المصلحة ، كغيرهـا من انواع التعزير ٠ وكذلك صفة الضرب فانه يجوز جلد الشارب بالجريد والنعال واطراف الثياب بخلاف الزاني والقاذف فيجوز ان يقال : قتله فى الرابعة من هذا الباب .

و « ايضاً » فان الله سبحانه قال : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فاصلحوا بينهما ، فان بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله ٠ فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين اخويكم) . فقد وصفهم بالايمان والأخوة وامرنا بالاصلاح بينهم ٠

فلما شاع فى الامة امر « الخوارج » تكلمت الصحابة فيهم ، ورووا عن

النبي صلى الله عليه وسلم الأحاديث فيهم ، وبينوا ما في القران من الرد عليهم ، وظهرت بدعتهم فى العامة ؛ فجاءت بعدهم « المعتزلة » — الذين اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري وهم : عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء الغزال ، وأتباعهما — فقالوا : اهل الكبائر مخلدون فى النار ، كما قالت الخوارج ، ولا نسميهم لا مؤمنين ولا كفاراً ؛ بل فساق ، ننزلهم منزلة بين منزلتين . وأنكروا شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر من امته ، وأن يخرج من النار بعد ان يدخلها . قالوا : ما الناس إلا رجلان : سعيد لا يعذب ، اوشقي لا ينعم ، والشقي نوعان : كافر ، وفاسق ، ولم يوافقوا الخوارج على تسميتهم كفاراً .

وهؤلاء يرد عليهم بمثل ما ردوا به على الخوارج . فيقال لهم كما انهم قسموا الناس إلى مؤمن لا ذنب له ، وكافر لا حسنة له ، قسمتم الناس إلى مؤمن لاذنب له ، وإلى كافر وفاسق لا حسنة له ، فلو كانت حسنات هذا كلها محبطة وهو مخلد فى النار ، لاستحق المعاداة المحضة بالقتل والأسترقاق ، كما يستحقها المرتد ؛ فان هذا قد اظهر دينه بخلاف المنافق . وقد قال تعالى فى كتابه : (إن الله لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فجعل ما دون ذلك الشرك معلقاً بمشيئته .

ولا يجوز ان يحمل هذا على التائب ؛ فان التائب لا فرق فى حقه بين

الشرك وغيره . كما قال سبحانه فى الآية الأخرى : (قل ياعبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً) فهنا عمم واطلق، لأن المراد به التائب ، وهناك خص وعلق .

وقال تعالى : (ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير. جنات عدن يدخلونها ، يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وقالوا : الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذي احلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) .

فقد قسم سبحانه الامة التى اورثها الكتاب واصطفاها « ثلاثة اصناف»: ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، وهؤلاء الثلاثة ينطبقون على الطبقات الثلاث المذكورة فى حديث جبريل : « الاسلام » و « الايمان »و « الاحسان». كما سنذكره إن شاء الله . ومعلوم ان الظالم لنفسه إن اريد به من اجتنب الكبائر والتائب من جميع الذنوب فذلك مقتصد او سابق، فانه ليس احد من بني آدم يخلو عن ذنب ؛ لكن من تاب كان مقتصداً ، اوسابقاً؛ كذلك من اجتنب الكبائر كفرت عنه السيئات ؛ كما قال تعالى : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) فلا بد ان يكون هناك ظالم لنفسه موعود بالجنة ولو بعد عذاب يطهر من الخطايا ؛ فان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر : ان ما يصيب المؤمن فى الدنيا من المصائب مما يجزى به ، ويكفرعنه خطاياه ، كما فى الصحيحين

عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا غم ، ولا اذى حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه » وفى المسند وغيره انه لما نزلت هذه الآية : (من يعمل سوءاً يجزبه) قال ابو بكر : يارسول الله ! جاءت قاصمة الظهر ، وأينا لم يعمل سوءاً ، فقال: «يا ابا بكر ! ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللأواء ؟ فذلك مما تجزون به».

و « أيضاً » فقد تواترت الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فى انه يخرج اقوام من النار بعد ما دخلوها ، وان النبي صلى الله عليه وسلم يشفع فى اقوام دخلوا النار . وهذه الاحاديث حجة على الطائفتين : « الوعيدية » الذين يقولون : من دخلها من اهل التوحيد لم يخرج منها ، وعلى « المرجئة الواقفة » الذين يقولون : لاندري هل يدخل من اهل التوحيد النار احد ، ام لا ؟ ! كما يقول ذلك طوائف من الشيعة والأشعرية ، كالقاضي ابي بكر وغيره . واما ما يذكر عن « غلاة المرجئة » انهم قالوا : لن يدخل النار من اهل التوحيد احد ، فلا نعرف قائلاً مشهوراً من المنسوبين الى العلم يذكر عنه هذا القول .

و « ايضاً » فان النبي صلى الله عليه وسلم قد شهد لشارب الخمر المجلود مرات بأنه يحب الله ورسوله ، ونهى عن لعنته ، ومعلوم ان من احب الله ورسوله احبه الله ورسوله بقدر ذلك . وايضاً فان الذين قذفوا عائشة ام

المؤمنين كان فيهم مسطح بن اثاثة ، وكان من اهل بدر ، وقد انزل الله فيه لما حلف ابو بكر ان لا يصله : (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ان يؤتوا أولي القربى والمساكين ، والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا . ألا تحبون ان يغفر الله لكم ؟!) . وان قيل : إن مسطحاً وامثاله تابوا لكن الله لم يشرط في الأمر بالعفو عنهم ، والصفح والاحسان اليهم التوبة . وكذلك حاطب بن ابي بلتعة كاتب المشركين باخبار النبي صلى الله عليه سلم فلما اراد عمر قتله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « انه قد شهد بدراً ، وما يدريك ان الله قد اطلع على اهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ » .

وكذلك ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح انه قال : « لا يدخل النار احد بايع تحت الشجرة » وهذه النصوص تقتضي : أن السيئات مغفورة بتلك الحسنات ولم يشترط مع ذلك توبة ؛ والا فلا اختصاص لأولئك بهذا ؛ والحديث يقتضي المغفرة بذلك العمل . وإذا قيل : ان هذا لأن احداً من أولئك لم يكن له إلا صغائر ، لم يكن ذلك من خصائصه ايضاً . وان هذا يستلزم تجويز الكبيرة من هؤلاء المغفور لهم ، و « ايضاً » قد دلت نصوص الكتاب والسنة : على ان عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة اسباب .

« احدها » التوبة ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ، قال تعالى :

(قل ياعبادي : الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم) وقال تعالى : (الم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ، ويأخذ الصدقات وان الله هو التواب الرحيم .) وقال تعالى: (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.) وامثال ذلك

« السبب الثاني » الاستغفار كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « اذا اذنب عبد ذنباً فقال: اي رب ! اذنبت ذنباً فاغفر لي ، فقال : علم عبدي ان له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ به قد غفرت لعبدي ، ثم اذنب ذنباً آخر فقال اي رب ! اذنبت ذنباً آخر . فاغفره لي ، فقال ربه : علم عبدي ان له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي ، فليفعل ما شاء ، قال ذلك : فى الثالثة ، او الرابعة » وفى صحيح مسلم عنه انه قال : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم » .

وقد يقال على هذا الوجه الاستغفار هو مع التوبة كما جاء فى حديث « ما اصر من استغفر وان عاد فى اليوم مائة مرة » وقد يقال : بل الأستغفار بدون التوبة ممكن واقع ، وبسط هذا له موضع آخر ، فان هذا الأستغفار اذا كان مع التوبة مما يحكم به ، عام فى كل تائب ، وان لم يكن مع التوبة فيكون فى حق بعض المستغفرين ، الذين قد يحصل لهم عند الاستغفار من الخشية والانابة ما يمحو الذنوب ، كما فى حديث البطاقة بأن قول : لا إله

إلا الله ثقلت بتلك السيئات؛ لما قالها بنوع من الصدق والاخلاص الذي يمحو السيئات، وكما غفر للبغي بسقي الكلب لما حصل في قلبها اذ ذاك من الايمان، وامثال ذلك كثير.

« السبب الثالث » : الحسنات الماحية كما قال تعالى : (اقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات .) وقال صلى الله عليه وسلم : « الصلوات الخمس ، والجمعة الى الجمعة ، ورمضان الى رمضان ، مكفرات لما بينهن ، اذا اجتنبت الكبائر » وقال : « من صام رمضان ايماناً واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه » وقال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه » وقال من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته امه » وقال : « فتنة الرجل في اهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . » وقال : « من اعتق رقبة مؤمنة ، اعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه » وهذه الاحاديث وامثالها في الصحاح . وقال : « الصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار ، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

وسؤالهم على هذا الوجه ان يقولوا الحسنات إنما تكفر الصغائر فقط فأما الكبائر فلا تغفر إلا بالتوبة كما قد جاء في بعض الأحاديث : « ما اجتنبت الكبائر » فيجاب عن هذا بوجوه .

(احدها) : ان هذا الشرط جاء في الفرائض . كالصلوات الخمس ، والجمعة ، وصيام شهر رمضان ، وذلك ان الله تعالى يقول : (انتجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات ، واما الاعمال الزائدة من التطوعات فلابد ان يكون لها ثواب آخر ، فان الله سبحانه يقول : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

(الثاني) : انه قد جاء التصريح فى كثير من الاحاديث بان المغفرة قد تكون مع الكبائر ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « غفر له وان كان فر من الزحف » وفى السنن « أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صاحب لنا قد اوجب . فقال : اعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار . » وفى الصحيحين فى حديث ابي ذر « وان زنا وان سرق .» .

(الثالث): انقوله لأهل بدر ونحوهم « اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » إن حمل على الصغائر،او على المغفرة مع التوبة لم يكن فرق بينهم وبين غيرهم.فكمالا يجوز حمل الحديث على الكفر ، لما قد علم ان الكفر لا يغفر إلا بالتوبة ، لايجوز حمله على مجرد الصغائر المكفرة باجتناب الكبائر .

(الرابع) : انه قد جاء فى غير حديث « ان اول ما يحاسب عليه العبد من

عمله يوم القيامة الصلاة ، فان أكملها وإلا قيل : انظروا هل له من تطوع ، فان كان له تطوع أكملت به الفريضة ، ثم يصنع بسائر أعماله كذلك » . ومعلوم أن ذلك النقص المكمل لا يكون لترك مستحب : فان ترك المستحب لا يحتاج الى جبران ، ولأنه حينئذ لا فرق بين ذلك المستحب المتروك والمفعول ، فعلم انه يكمل نقص الفرائض من التطوعات . وهذا لا ينافي من ان الله لايقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، مع ان هذا لو كان معارضاً للأول لوجب تقديم الأول لانه أثبت وأشهر ، وهذا غريب رفعه ، وانما المعروف أنه فى وصية أبى بكر لعمر ؛ وقد ذكره احمد فى « رسالته فى الصلاة » .

وذلك لان قبول النافلة يراد به الثواب عليها . ومعلوم انه لا يثاب على النافلة حتى تؤدى الفريضة فانه اذا فعل النافلة مع نقص الفريضة كانت جبراً لها وإكمالاً لها . فلم يكن فيها ثواب نافلة ، ولهذا قال بعض السلف : النافلة لا تكون إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره يحتاج إلى المغفرة . وتأول على هذا قوله : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) وليس إذا فعل نافلة وضيع فريضة تقوم النافلة مقام الفريضة مطلقاً ، بل قد تكون عقوبته على ترك الفريضة أعظم من ثواب النافلة .

فان قيل : العبد إذا نام عن صلاة او نسيها كان عليه ان يصليها إذا ذكرها بالنص والاجماع . فلو كان لها بدل من التطوعات لم يجب القضاء . قيل : هذا خطأ ، فان قيل هذا يقال فى جميع مسقطات العقاب . فيقال : إذا كان العبد

يمكنه رفع العقوبة بالتوبة لم ينه عن الفعل ، ومعلوم ان العبد عليـه أن يفعل المأمور ويترك المحظور ؛ لان الاخلال بذلك سبب للذم والعقاب وان جاز مع اخلاله ان يرتفع العقاب بهذه الاسباب ، كما عليه ان يحتمي من السموم القاتلة وان كان مع تناوله لها يمكن رفع ضررها بأسباب من الادوية . والله عليم حكيم رحيم ـ أمرهم بما يصلحهم ، ونهاهم عما يفسدهم ، ثم اذا وقعوا في أسباب الهلاك لم يؤيسهم من رحمته ، بل جعل لهم أسباباً يتوصلون بها إلى رفع الضرر عنهم ، ولهذا قيل : إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله، ولا يجرئهم على معاصي الله . ولهذا يؤمر العبد بالتوبة كلما أذنب ، قال بعضهم لشيخه : إني اذنب ، قال : تب ، قال : ثم اعود ، قال : تب ، قال : ثم أعود ، قال : تب ، قال : إلى متى ؟ ! قال : إلى ان تحزن الشيطان . وفي المسند عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « إن الله يحب العبد المفتن التواب » .

وايضاً فان من نام عن صلاة ، او نسيها فصلاته إذا استيقظ او ذكرهـا كفارة لها ، تبرأ بها الذمة من المطالبة ويرتفع عنه الذم والعقاب ، ويستوجب بذلك المدح والثواب ، واما ما يفعله من التطوعات ، فلا نعلم القـدر الذي يقوم ثوابه مقام ذلك ، ولو علم فقد لا يمكن فعله مع سائر الواجبات ، ثم إذا قدر انه امر بما يقوم مقام ذلك صار واجباً ، فلا يكون تطوعاً والتطوعات شرعت لمزيد التقرب الى الله كما قال تعالى . في الحديث الصحيح : « ما تقرب الي عبـدي بمثل اداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه »، الحديث

فاذا لم يكن العبد قـد ادى الفرائض كما امر، لم يحصل له مقصود النوافل، ولا يظلمه الله، فان الله لا يظلم مثقال ذرة، بل يقيمها مقام نظيرها من الفرائض كمن عليه ديون لأناس يريد ان يتطوع لهم بأشياء : فان وفاهم وتطوع لهم كان عادلا محسناً . وان وفاهم ولم يتطوع كان عادلاً، وان اعطاهم ما يقوم مقام دينهم وجعل ذلك تطوعا كان غالطا فى جعله ؛ بل يكون من الواجب الذي يستحقونه .

ومن العجب إن « المعتزلة » يفتخرون بأنهم اهل «التوحيد»، و «العدل»! وهم فى توحيدهم نفوا الصفات نفياً يستلزم التعطيل والاشراك. واما «العدل الذي وصف الله به نفسه» فهو ان لا يظلم مثقال ذرة وانه: من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، وهم يجعلون جميع حسنات العبد وايمانه حابطا بذنب واحد من الكبائر، وهذا من الظلم الذي نزه الله نفسه عنه، فكان وصف الرب سبحانه بالعدل الذي وصف به نفسه اولى، من جعل العدل هو التكذيب بقدر الله .

(الخامس) : ان الله لم يجعل شيئاً يحبط جميع الحسنات، إلا الكفر، كما انه لم يجعل شيئاً يحبط جميع السيئات الا التوبة . و « المعتزلة، مع الخوارج» يجعلون الكبائر محبطة لجميع الحسنات حتى الايمان، قال الله تعالى : ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة، واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) فعلق الحبوط بالموت على الكفر، وقد ثبت ان هذا ليس بكافر، والمعلق بشرط يعدم عند عدمه . وقال تعالى

(ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله) وقال تعالى لما ذكر الانبياء : (ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم ، واجتبيناهم ، وهديناهم الى صراط مستقيم ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) وقال : (لئن اشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين) مطابق لقوله تعالى : (ان الله لا يغفر ان يشرك به) . فان الاشراك اذا لم يغفر وانه موجب للخلود فى النار ، لزم من ذلك حبوط حسنات صاحبه ، ولما ذكر سائر الذنوب غير الكفر لم يعلق بها حبوط جميع الاعمال . وقوله : (ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فاحبط اعمالهم) . لان ذلك كفر وقوله تعالى : (لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول ، كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون) لان ذلك قد يتضمن الكفر فيقتضي الحبوط وصاحبه لايدري كراهية ان يحبط او خشية ان يحبط ، فنهاهم عن ذلك لانه يفضي الى الكفر المقتضى للحبوط .

ولا ريب ان المعصية قد تكون سبباً للكفر ، كما قال بعض السلف المعاصى بريد الكفر ؛ فينهى عنها خشية ان تفضي الى الكفر المحبط ؛ كما قال تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة ـــ وهي الكفر ـــ او يصيبهم عذاب اليم) وابليس خالف امر الله فصار كافراً ؛ وغيره اصابه عذاب اليم .

وقد احتجت الخوارج والمعتزلة بقوله تعالى : (إنما يتقبل الله من المتقين)

قالوا : فصاحب الكبيرة ليس من المتقين ، فلا يتقبل الله منه عملاً ، فلا يكون له حسنة ، وأعظم الحسنات الايمان ، فلا يكون معه إيمان فيستحق الخلود في النار ، وقد اجابتهم المرجئة : بأن المراد بالمتقين ، من يتقي الكفر ، فقالوا لهم : اسم المتقين في القرآن يتناول المستحقين للثواب ، كقوله تعالى : (إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر) وأيضاً فابنا آدم حين قربا قربانا لم يكن المقرب المردود قربانه حينئذ كافراً ، وإنما كفر بعد ذلك ؛ إذ لو كان كافراً لم يتقرب ، وأيضاً فما زال السلف يخافون من هذه الآية ، ولو اريد بها من يتقي الكفر لم يخافوا ، وأيضاً فاطلاق لفظ المتقين ، والمراد به من ليس بكافر ، لا اصل له في خطاب الشارع فلا يجوز حمله عليه .

و « الجواب الصحيح » : ان المراد من اتقى الله في ذلك العمل كما قال الفضيل ابن عياض في قوله تعالى : (ليبلوكم ايكم احسن عملاً) قال : اخلصه ، واصوبه ، قيل : يا ابا علي ! ما اخلصه ، واصوبه ، قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص ان يكون لله ، والصواب ان يكون على السنة ، فمن عمل لغير الله ـــ كأهل الرياء ـــ لم يقبل منه ذلك . كما في الحديث الصحيح يقول الله عز وجل : « انا اغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً اشرك معي فيه غيري فأنا بريء منه ، وهو كله للذي اشركه » . وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « لا يقبل الله صلاة بغير طهور ، ولا صدقة من غلول » وقال : « لا يقبل الله صلاة

حائض إلا بخمار » وقال فى الحديث الصحيح : « من عمـل عملاً ليس عليه امرنا فهو رد » اي فهو مردود غير مقبول . فمن اتقى الـكفر وعمل عملاً ليس عليه امر النبي صلى الله عليه وسلم ، لم يقبل منه ، وإن صلى بغير وضوء لم يقبل منه ، لأنه ليس متقياً فى ذلك العمل ، وإن كان متقياً للشرك .

وقد قال تعالى : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهـم راجعون) وفى حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انها قالت : «يارسول الله ! اهو الرجل يزنى ، ويسرق ، ويشرب الخمر ، ويخاف ان يعذب ؟ قـال : لا ، يا ابنة الصديق ! ولـكنه الرجـل يصلى ويصوم ويتصدق ، ويخـاف ان لا يقبل منه » .

وخوف من خاف من السلف ان لا يتقبل منه ، لخوفـه ان لا يـكون آتى بالعمل على وجهه المأمور ؛ وهذا اظهر الوجوه فى استثناء من استثنى منهـم فى الايمان ، وفى اعمال الايمان كقول احدهم : انا مؤمن ـــ إن شاءالله ـــ وصليت ـــ إن شاء الله ـــ لخوف ان لا يكون آتى بالواجب عـلى الوجه المأمور به ، لا على جهة الشك فيا بقلبه من التصديق ؛ لا يجوز ان يراد بالآية : ان الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقى الذنوب كلها ، لأن الـكافر والفاسق حين يريد ان يتوب ليس متقياً ، فان كان قبول العمل مشروطاً بكون الفاعل حين فعله لا ذنب له، امتنـع قبول التوبة . بخلاف ما إذا اشترط التقوى فى العمل ، فان التائب حين يتوب يأتى بالتوبة الواجبة ، وهو حين شروعه فى التوبة منتقل من الشر الى الخير.

لم يخلص من الذنب ، بل هو متق فى حال تخلصه منه .

و « ايضاً » فلو أتى الانسان بأعمال البر وهو مصر على كبيرة ، ثم تاب لوجب ان تسقط سيئاته بالتوبة ، وتقبل منه تلك الحسنات ، وهو حين اتى بها كان فاسقاً .

و « ايضاً » فالكافر إذا أسلم وعليه للناس مظالم من قتل ، وغصب ،وقذف — وكذلك الذمى إذا اسلم — قبل اسلامه مع بقاء مظالم العباد عليه : فلو كان العمل لايقبل الا ممن لا كبيرة عليه لم يصح اسلام الذمي حتى يتوب من الفواحش والمظالم ؛ بل يكون مع اسلامه مخلداً ،وقد كان الناس مسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهم ذنوب معروفة وعليهم تبعات ، فيقبل اسلامهم ، ويتوبون الى الله سبحانه من التبعات . كما ثبت فى الصحيح « ان المغيرة بن شعبة لما اسلم وكان قد رافق قوماً فى الجاهلية فغدر بهم ، واخذ اموالهم وجاء فأسلم، فلما جاء عروة بن مسعود عام الحديبية والمغيرة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم بالسيف ، دفعه المغيرة بالسيف فقال : من هذا ! فقالوا : ابن اختك المغيرة، فقال ياغدر ! ألست اسعى فى غدرتك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اما الاسلام فأقبله ، واما المال فلست منه فى شيء » وقد قال تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . ماعليك من حسابهم من شيء . وما من حسابك عليهم من شيء . فتطردهم فتكون من الظالمين) وقالوا

لنوح : (انؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمي بما كانوا يعملون : ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون) . ولا نعرف احداً من المسلمين جاءه ذمي يسلم فقال له لا يصح اسلامك حتى لا يكون عليك ذنب ، وكذلك سائر اعمال البر من الصلاة والزكاة .

(السبب الرابع) الدافع للعقاب : دعاء المؤمنين للمؤمن مثل صلاتهم على جنازته ، فعن عائشة وأنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « مامن ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة ، كلهم يشفعون إلا شفعوا فيه » . وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « مامن رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئاً ، إلا شفعهم الله فيه » رواهما مسلم . وهذا دعاء له بعد الموت . فلا يجوز أن تحمل المغفرة على المؤمن التقي الذي اجتنب الكبائر ، وكفرت عنه الصغائر وحده ، فان ذلك مغفور له عند المتنازعين . فعلم ان هذا الدعاء من اسباب المغفرة للميت .

(السبب الخامس) : ما يعمل للميت من أعمال البر ؟ كالصدقة ونحوها ، فان هذا ينتفع به بنصوص السنة الصحيحة الصريحة ، واتفاق الأئمة وكذلك العتق ، والحج . بل قد ثبت عنه فى الصحيحين انه قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » وثبت مثل ذلك فى الصحيح من صوم النذر من

وجوه اخرى ، ولا يجوز ان يعارض هذا بقوله : (وان ليس للانسان إلا ماسعى) لوجهين .

(احدها) انه قد ثبت بالنصوص المتواترة وإجماع سلف الامة ان المؤمن ينتفع بما ليس من سعيه ، كدعاء الملائكة ، واستغفارهم له ، كما فى قوله تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به . ويستغفرون للذين آمنوا) الآية . ودعاء النبيين والمؤمنين واستغفارهم كما فى قوله تعالى : (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) وقوله سبحانه : (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) وقوله عز وجل : (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) ، وكدعاء المصلين للميت ، ولمن زاروا قبره – من المؤمنين – .

(الثاني) : ان الآية ليست في ظاهرها إلا انه ليس له إلا سعيه ، وهذا حق فانه لايملك ولا يستحق إلا سعي نفسه ، واما سعي غيره فلا يملكه ولا يستحقه؛ لكن هذا لايمنع ان ينفعه الله ويرحمه به ؛ كما انه دائماً يرحم عباده بأسباب خارجة عن مقدورهم . وهو سبحانه بحكمته ورحمته يرحم العباد بأسباب يفعلها العباد ليثيب أولئك على تلك الاسباب ، فيرحم الجميع كما فى الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : (مامن رجل يدعو لأخيه بدعوة إلا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه قال الملك الموكل به : آمين ولك

بمثل » وكما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الصحيح انه قال : « من صلى على جنازة فله قيراط ؛ ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان ؛ اصغرهما مثل احد » فهو قد يرحم المصلي على الميت بدعائه له ويرحم الميت ايضاً بدعاء هذا الحي له .

(السبب السادس) : شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وغيره فى اهل الذنوب يوم القيامة كما قد تواترت عنه احاديث الشفاعة مثل قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح: « شفاعتى لأهل الكبائر من امتى ».وقوله صلى الله عليه وسلم : « خيرت بين ان يدخل نصف امتى الجنة ؛ وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة لأنها اعم واكثر ؛ اترونها للمتقين ؟ لا . ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين» .

(السبب السابع) : المصائب التى يكفر الله بها الخطايا فى الدنيا كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « مايصيب المؤمن من وصب ؛ ولا نصب ؛ ولا هم ؛ ولا حزن ؛ ولا غم ؛ ولا اذى ـ حتى الشوكة يشاكها ـ إلا كفر الله بها من خطاياه » .

(السبب الثامن) : مايحصل في القبر من الفتنة والضغطة والروعة فان هذا مما يكفر به الخطايا .

(السبب التاسع) . اهوال يوم القيامة وكربها وشدائدها .

(السبب العاشر) : رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد .
فاذا ثبت ان الذم والعقاب قد يدفع عن اهل الذنوب بهذه الاسباب العشرة
كان دعواهم ان عقوبات اهل الكبائر لاتندفع إلا بالتوبة مخالف لذلك .

فصل

« فهذان القولان » : قول الخوارج الذين يكفرون بمطلق الذنوب ،
ويخلدون في النار ؛ وقول من يخلدهم فى النار ويجزم بأن الله لايغفر لهم إلا
بالتوبة ، ويقول ليس معهم من الايمان شيء ، لم يذهب اليها احد
من أئمة الدين أهل الفقه ، والحديث بل هما من الاقوال المشهورة عن
اهل البدع .

وكذلك قول من وقف فى اهل الكبائر من غلاة المرجئة وقال لا اعلم
ان احداً منهم يدخل النار ، هو ايضاً من الأقوال المبتدعة ؛ بل السلف
والأئمة متقون على ماتواترت به النصوص من انه لابد ان يدخل النار قوم من
اهل القبلة ، ثم يخرجون منها . واما من جزم بأنه لايدخل النار احد من

اهل القبلة فهذا لانعرفه قولاً لأحد . وبعـده قول من يقول : ما ثم عذاب اصلا وإنما هو تخويف لاحقيقةله،وهذا من اقوال الملاحدة وا لكفار .

وربما احتج بعضهم بقوله : (ذلك يخوف الله بـه عباده) فيقال لهـذا : التخويف إنما يكون تخويفاً إذا كان هناك مخوف يمكن وقوعه بالمخوف، فان لم يكن هناك ما يمكن وقوعه امتنـع التخويف ، لكن يكون حاصله إيهـام الخائفين بمالا حقيقة له ، كما توهم الصبي الصغير . ومعـلوم ان مثل هـذا لا يحصل بـه تخويف للعقـلاء المميزين . لأنهـم اذا علمـوا انـه ليس هنـاك شيء مخوف زال الخوف ، وهـذا شبيه بما تقول « الملاحدة » المتفلسفةوالقرامطة ونحوهم : من ان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم : خاطبوا الناس باظهار امور من الوعد والوعيد لاحقيقة لها في الباطن ، وانما هي امثال مضروبة لتفهم حال النفس بعد المفارقة، وما اظهروه لهم من الوعـد والوعيد وإن كان لاحقيقة له فانما يعلق لمصلحتهم فى الدنيـا ، إذكان لا يمكن تقويمهم إلا بهذه الطريقة .

و « هذا القول » مع انه معلوم الفساد بالضرورة من دين الرسل ؛ فلو كان الامر كذلك لكان خواص الرسل الاذكياء يعلمون ذلك ، واذا علموه زالت محافظتهم على الامر والنهي ، كما يصيب خواص ملاحدة المتفلسفة والقرامطة: من الاسماعيليـة والنصيرية ونحوهم ، فان البارع منهم فى العـلم

والمعرفة يزول عنه عندهم الأمر والنهي ، وتباح له المحظورات ، وتسقط عنه الواجبات ، فتظهر اضغانهم ، وتنكشف اسرارهم ، ويعرف عموم الناس حقيقة دينهم الباطن ، حتى سموهم باطنيــة ؛ لابطانهم خلاف مايظهرون . فلو كان ـــ والعياذ بالله ـــ دين الرسل كذلك لكان خواصه قد عرفوه ، واظهروا باطنه . وكان عند اهل المعرفــة والتحقيق من جنس دين الباطنيــة . ومن المعلوم بالاضطرار ان الصحابة الذين كانوا اعلم الناس بباطن الرسول وظاهره ، واخبر الناس بمقاصده ومراداته ، كانوا اعظم الأمة لزوماً لطاعة امره ـــ سراً وعلانية ـــ ومحافظة على ذلك إلى الموت ، وكل من كان منهم اليه وبه اخص وبباطنه أعلم ـــ كابي بكر وعمر ـــ كانوا اعظمهم لزوما للطاعة سراً وعلانية ، ومحافظة على أداء الواجب ، واجتناب المحرم ، باطناً وظاهراً . وقد أشبه هؤلاء في بعض الأمور ملاحدة المتصوفة : الذين يجعلون فعل المأمور وترك المحظور واجباً على السالك حتى يصير عارفا محققاً فى زعمهم ؛ وحينئذ يسقط عنه التكليف ، ويتأولون على ذلك قوله تعالى : (واعبـد ربك حتى يأتيك اليقين) زاعمين ان اليقين هو مايدعونه من المعرفة ، واليقين هنـا الموت وما بعده . كما قال تعالى عن اهل النـار : (وكنا نخوض مـع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين) .

قال الحسن البصري ان الله لم يجعل لعباده المؤمنين اجلا دون الموت ،

وتلا هذه الآية . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لما توفى عثمان بن مظعون : « أما عثمان بن مظعون فقد أتاه اليقين من ربه » وهؤلاء قد يشهدون القدر أولا ، وهي الحقيقة الكونيــة ، ويظنون ان غاية العارف ان يشهد القدر ، ويفنى عن هذا الشهود ، وذلــك المشهد لا تميز فيه بــين المأمور والمحظور ، ومحبوبات الله ومكروهاته وأوليائه وأعدائه .

وقد يقول احدهم : العارف شهد أولا الطاعة والمعصية ، ثم شهد طاعة بلا معصية ـــ يريد بذلك طاعة القدر ـــ كقول بعض شيوخهم : أنا كافر برب يعصى ، وقيــل له عن بعض الظــالمين : هــذا ماله حــرام ، فقال : إن كان عصى الامر ، فقــد اطــاع الارادة . ثم ينتقلون « الى المشهــد الثالث » لا طــاعة ولا معصية ، وهو مشهــد اهل الوحدة القائلين بوحدة الوجود ، وهذا غاية الحاد المبتدعة جهمية الصوفية ، كما ان القرمطة آخر الحاد الشيعة ، وكلا الالحادين يتقاربان . وفيهـا من الكفر ماليس فى دين اليهود والنصارى ومشركي العرب ، والله اعلم .

فصـــــل

ثم بعد ذلك تنازع الناس فى اسم المؤمن والايمان نزاعاً كثيرا منه لفظى،

وكثيرمنه معنوي ، فان أئمة الفقهاء لم ينازعوا في شيء مما ذكرناه من الأحكام ، وان كان بعضهم أعلم بالدين وأقوم به من بعض ، ولكن تنازعوا في الأسماء كتنازعهم في الايمان ، هل يزيد وينقص ؟وهل يستثنى فيه ام لا ؟ وهل الأعمال من الايمان ام لا ؟ وهل الفاسق الملي مؤمن كامل الايمان ام لا ؟ والمأثور عن الصحابة ، وأئمة التابعين ، وجمهور السلف ، وهو مذهب أهل الحديث ، وهو المنسوب الى أهل السنة ، ان الايمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وانه يجوز الاستثناء فيه ، كما قال عمير بن حبيب الخطمي وغيره من الصحابة : الايمان يزيد وينقص ، فقيل له : وما زيادته ونقصانه ؟ فقال : إذا ذكرنا الله ، وحمدناه ، وسبحناه ، فتلك زيادته . وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا ، فذلك نقصانه . فهذه الألفاظ المأثورة عن جمهورهم .

وربما قال بعضهم وكثير من المتأخرين :قول وعمل ونية ،وربما قال آخر :قول وعمل ونية واتباع السنة ؛وربما قال :قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ،وعمل بالأركان ، أي بالجوارح . وروى بعضهم هذا مرفوعاً الى النبي صلى الله عليه وسلم في النسخة المنسوبة الى ابي الصلت الهروي عن على بن ابى موسى الرضا ، وذلك من الموضوعات على النبي صلى الله عليه وسلم ، باتفاق أهل العلم بحديثه . وليس بين هذه العبارات اختلاف معنوي ، ولكن القول المطلق ، والعمل المطلق ؛ في كلام السلف يتناول قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح ، فقول اللسان

بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين ، وهذا لايسمى قولاً الا بالتقييد . كقوله تعالى : (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) وكذلك عمـل الجوارح بدون أعمال القلوب ، هي من اعمال المنافقين ؛ التي لا يتقبلهـا الله . فقول السلف : يتضمن القول والعمل الباطن والظاهر؛ لـكن لما كان بعض الناس قـد لا يفهم دخول النية في ذلك ؛ قال بعضهم : ونيـة . ثم بين آخرون : أن مطلق القول والعمل والنية لا يكون مقبولاً الا بموافقة السنة . وهذا حق ايضاً فان اولئـك قالوا قول وعمل ليبينوا اشتماله على الجنس ، ولم يكن مقصودهم ذكر صفـات الأقوال والاعمـال ؛ وكذلك قول من قال : اعتقاد بالقلب ؛ وقول باللسان ، وعمل بالجوارح . جعل القول والعمل اسماً لما يظهر ؛ فاحتـاج ان يضم الى ذلك اعتقاد القلب ، ولابد ان يدخل في قوله : اعتقاد القلب اعمال القلب المقـارنة لتصديقه ، مثـل حب الله ؛ وخشية الله ؛ والتوكل عـلى الله ، ونحو ذلك . فان دخول أعمـال القلب فى الايمـان اولى ، من دخول أعمـال الجوارح باتفاق الطوائف كلها .

وكان بعض الفقهاء من اتباع التابعين لم يوافقوا في اطـلاق النقصان عليه لانهم وجدوا ذكر الزيادة في القرآن ، ولم يجدوا ذكر النقص ، وهذا احدى الروايتين عن مالك ، والرواية الاخرى عنه ؛ وهو المشهور عند أصحابه كقول سائرهم : انه يزيد وينقص ؛ وبعضهم عدل عن لفظ الزيادة والنقصـان الى لفظ التفاضل ، فقال أقول : الايمان يتفاضل ويتفاوت ، ويروى هذا عن ابن المبارك

وكان مقصوده الاعراض عن لفظ وقع فيه النزاع الى معنى لا ريب في ثبوتـه . وأنــكر حماد بن ابى سليمان ومن اتبعه تفاضل الايمان ودخول الاعمـال فيه والاستثناء فيه ؛ وهؤلاء من مرجئة الفقهاء واما ابراهيم النخعى ـــ امام اهـل الـكوفة شيخ حماد بن ابى سليمان ـــ وامثاله ؛ ومن قبله من اصحاب ابن مسعود: كعلقمة ، والاسود ؛ فـكانوا من اشد الناس مخالفة للمرجئة ، وكانوا يستثنون في الايمان ؛ لـكن حماد بن ابى سليمان خالف سلفه ؛ واتبعه من اتبعه ودخل في هذا طوائف من اهل الـكوفة ، ومن بعدهم .

ثم ان « السلف والائمة » اشتد انـكارهم عـلى هؤلاء وتبديعهم وتغليظ القول فيهم ؛ ولم اعـلم احداً منهم نطق بتـكفيرهم ؛ بل هم متفقون على انهـم لا يكفرون فى ذلك ؛ وقد نص احمد وغيره من الائمة : على عدم تكفير هؤلاء المرجئة . ومن نقل عن احمد او غيره من الأئمة تـكفيراً لهؤلاء ؛ او جعل هؤلاء من اهل البدع المتنازع في تكفيرهم ، فقد غلط غلطاً عظيماً ؛ والمحفوظ عن احمد وامثاله من الائمة ؛ إنما هو تكفير الجهمية المشبهة ، وامثال هؤلاء .ولم يكفر احمد « الخوارج » ولا « القدرية » إذا اقروا بالعـلم ؛ وانكروا خلق الافعال ، وعموم المشيئة ؛ لـكن حكي عنه في تكفيرهم روايتان .

وأما « المرجئة » فلا يختلف قوله فى عدم تكفيرهم ؛ مع ان احمد لم يكفر اعيان الجهمية ، ولا كل من قال إنه جهمي كفره ، ولا كل من وافق الجهمية فى

بعض بدعهم ؛ بل صلى خلف الجهمية الذين دعوا الى قولهم ، وامتحنوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة ، لم يكفرهم احمد وامثاله ؛ بل كان يعتقد إيمانهم ، وإمامتهم ؛ ويدعو لهم ؛ ويرى الائتمام بهم فى الصلوات خلفهم ، والحج ، والغزو معهم ، والمنع من الخروج عليهم ما يراه لامثالهم من الأئمة . وينكر ما احدثوا من القول الباطل الذي هو كفر عظيم ، وان لم يعلموا هم انه كفر ؛ وكان ينكره ويجاهدهم على رده بحسب الامكان ؛ فيجمع بين طاعة الله ورسوله فى إظهار السنة والدين ، وانكار بدع الجهمية الملحدين ؛ وبين رعاية حقوق المؤمنين من الأئمة والامة ؛ وإن كانوا جهالا مبتدعين ؛ وظلمة فاسقين .

وهؤلاء المعروفون مثل حماد بن ابى سليمان وابى حنيفة وغيرهما من فقهاء الكوفة كانوا يجعلون قول اللسان ؛ واعتقاد القلب من الايمان ؛ وهو قول ابى محمد بن كلاب وامثاله ، لم يختلف قولهم فى ذلك ، ولا نقل عنهم انهم قالوا الايمان مجرد تصديق القلب .

لكن هذا القول حكوه عن « الجهم بن صفوان » ذكروا انه قال : الايمان مجرد معرفة القلب ، وان لم يقر بلسانه واشتد نكيرهم لذلك حتى اطلق وكيع بن الجراح ، واحمد بن حنبل وغيرهما كفر من قال ذلك ؛ فانه من اقوال الجهمية ؛ وقالوا : ان فرعون وابليس وابا طالب واليهود وامثالهم ؛ عرفوا بقلوبهم وجحدوا بألسنتهم ؛ فقد كانوا مؤمنين . وذكروا قول الله : (وجحدوا

بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً) . وقوله : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم) وقوله : (فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وقالوا : ابليس لم يكذب خبراً، ولم يجحد، فان الله أمره بلارسول، ولكن عصى واستكبر ؛ وكان كافراً من غير تكذيب في الباطن ، وتحقيق هذا مبسوط في غير هذا الموضع .

وحدث بعد هؤلاء قول « الكرامية » : ان الايمان قول اللسان ، دون تصديق القلب ، مع قولهم ان مثل هذا يعذب في الآخرة ويخلد في النار .وقال ابو عبد الله الصالحي : ان الايمان مجرد تصديق القلب ومعرفته ، لكن له لوازم فاذا ذهبت دل ذلك على عدم تصديق القلب ، وان كل قول او عمل ظاهر دل الشرع على انه كفر كان ذلك لأنه دليل على عدم تصديق القلب ومعرفته ،وليس الكفر إلا تلك الخصلة الواحدة ، وليس الايمان إلا مجرد التصديق الذي في القلب والمعرفة ، وهذا أشهر قولي أبي الحسن الأشعري ، وعليه أصحابه كالقاضي أبي بكر وأبي المعالي وأمثالهما ، ولهذا عدهم أهل المقالات من « المرجئة » ، والقول الآخر عنه كقول السلف وأهل الحديث : إن الايمان قول وعمل ، وهو اختيار طائفة من أصحابه ، ومع هذا فهو وجمهور أصحابه على قول أهل الحديث في الاستثناء في الايمان .

والايمان المطلق عنده ما يحصل به الموافاة ، والاستثناء عنده يعود الى ذلك؛

لا إلى الكمال والنقصان والحال . وقد منع أن يطلق القول بأن الايمان مخلوق او غير مخلوق ، وصنف في ذلك مصنفا معروفا عند أهل السنة ، في « كتاب المقالات » . وقال انه يقول بقولهم .

وقد ذهب طائفة من متأخري اصحاب أبي حنيفة — كأبي منصور الماتريدي وأمثاله — إلى نظير هذا القول في الاصل ، وقالوا إن الايمان هو ما في القلب ، وأن القول الظاهر شرط لثبوت أحكام الدنيا؛ لكن هؤلاء يقولون بالاستثناء ونحو ذلك كما عرف من أصلهم وأصل نزاع هذه الفرق في الايمان من الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم ، انهم جعلوا الايمان شيئاً واحداً إذا زال بعضه زال جميعه ، واذا ثبت بعضه ثبت جميعه ، فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من الايمان » .

ثم قالت « الخوارج ، والمعتزلة » الطاعات كلها من الايمان فاذا ذهب بعضها ذهب بعض الايمان ، فذهب سائره فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الايمان. وقالت «المرجئة، والجهمية»: ليس الايمان الا شيئاً واحداً لا يتبعض إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية او تصديق القلب واللسان كقول المرجئة، قالوا : لأنا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جزءاً منه، فاذا ذهبت ذهب بعضه، فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الايمان ، وهو قول المعتزلة والخوارج ، لكن قد يكون له لوازم ودلائل

فيستدل بعدمه على عدمه .

وكان كل من الطائفتين بعد السلف والجماعة وأهل الحديث متناقضين ، حيث قالوا : الايمان قول وعمل ، وقالوا مع ذلك لايزول بزوال بعض الأعمال حتى ان ابن الخطيب وأمثاله جعلوا الشافعي متناقضاً في ذلك ، فان الشافعي كان من أئمة السنة ، وله فى الرد على المرجئة كلام مشهور، وقد ذكر في كتاب الطهارة من « الأم » إجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم على قول أهل السنة . فلما صنف ابن الخطيب تصنيفاً فيه ، وهو يقول فى الايمان بقول جهم والصالحي استشكل قول الشافعي ورآه متناقضاً .

وجماع شبهتهم في ذلك ان الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها ، كالعشرة فانه إذا زال بعضها لم تبق عشرة ؛ وكذلك الاجسام المركبة كالسكنجبين اذا زال أحد جزئيه خرج عن كونه سكنجبينا . قالوا فاذا كان الايمان مركباً من أقوال وأعمال ، ظاهرة وباطنة ، لزم زواله بزوال بعضها . وهذا قول الخوارج والمعتزلة ، قالوا : ولأنه يلزم أن يكون الرجل مؤمناً بما فيه من الايمان ، كافراً بما فيه من الكفر ، فيقوم به كفر وايمان ، وادعوا أن هذا خلاف الاجماع ، ولهذه الشبهة — والله أعلم — امتنع من امتنع من أئمة الفقهاء أن يقول بنقصه ؛ كأنه ظن : اذا قال ذلك يلزم ذهابه كله؛ بخلاف ما اذا زاد .

ثم ان « هذه الشبهة » هي شبهة من منع ان يكون فى الرجل الواحد طاعة ومعصية لأن الطاعة جزء من الايمان والمعصية جزء من الكفر ، فلا يجتمع فيه كفر وإيمان ،وقالوا ما ثم الا مؤمن محض او كافر محض ، ثم نقلوا حكم الواحد من الأشخاص الى الواحد من الأعمال ، فقالوا : لا يكون العمل الواحد محبوباً من وجه مكروها من وجه ، وغلا فيه ابو هاشم فنقله الى الواحد بالنوع فقال : لا يجوز ان يكون جنس السجود او الركوع او غير ذلك من الأعمال بعض أنواعه طاعة ، وبعضها معصية ؛ لأن الحقيقة الواحدة لا توصف بوصفين مختلفين . بل الطاعة والمعصية تتعلق بأعمال القلوب ، وهو قصد الساجد دون عمله الظاهر . واشتد نكير الناس عليه فى هذا القول وذكروا من مخالفته للاجماع وجحده للضروريات شرعا وعقلا ، ما يتبين به فساده .

وهؤلاء منتهى نظرهم ان يروا حقيقة مطلقة مجردة تقوم فى أنفسهم ، فيقولون : الايمان من حيث هو هو ، والسجود من حيث هو هو ، لا يجوز أن يتفاضل ، ولا يجوز أن يختلف وأمثال ذلك ؛ ولو اهتدوا لعلموا أن الأمور الموجودة فى الخارج عن الذهن متميزة بخصائصها ، وان الحقيقة المجردة المطلقة لا تكون إلا فى الذهن ، وأن الناس إذا تكلموا فى التفاضل والاختلاف ، فانما تكلموا فى تفاضل الأمور الموجودة واختلافها ؛ لا فى تفاضل أمر مطلق مجرد فى الذهن لا وجود له فى الخارج ، ومعلوم ان السواد مختلف فبعضه أشد من بعض ، وكذلك البياض وغيره من الألوان . وأما اذا قدرنا السواد المجرد المطلق

الذي يتصوره الذهن فهذا لا يقبل الاختلاف والتفاضل ، لكن هذا هو فى الاذهان لا فى الاعيان .

ومثل هذا الغلط وقع فيه كثير من الخائضين فى اصول الفقه ، حيث أنكروا تفاضل العقل او الايجاب او التحريم ، وانكار التفاضل في ذلك قول القاضي أبي بكر وابن عقيل وأمثالهما ، لكن الجمهور على خلاف ذلك ، وهو قول ابي الحسن التميمي ، وابى محمد البربهاري ، والقاضي ابى يعلى ، وابى الخطاب وغيرهم . وكذلك وقع نظير هذا لاهل المنطق والفلسفة ولمن تابعهم من اهل الكلام ، والاتحاد فى توحيد واجب الوجود ووحدته ، حتى أخرجهم الامر الى ما يستلزم التعطيل المحض كما بيناه فى غير هذا الموضع .

واهل المنطق اليونان مضطربون فى هذا المقام ، يقول احدهم القول،ويقول نقيضه ، كما هو مذكور في موضعه ، ونحن نذكر ما يتعلق بهذا الموضع فنقول — ولا حول ولا قوة الا بالله — الكلام فى « طرفين » .

(احدهما) : ان شعب الايمان هل هي متلازمة فى الانتفاء ؟؟

و (الثانى) : هل هي متلازمة فى الثبوت ؟ ؟

اما « الاول »

فان الحقيقة الجامعة لامور — سواء كانت فى الاعيان او الأعراض — اذا زال بعض تلك الأمور فقد يزول سائرها وقد لا يزول ، ولا يلزم من زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها ، وسواء سميت مركبة او مؤلفة او غيرذلك، لايلزم من زوال بعض الأجزاء زوال سائرها . وما مثلوا به من العشرة والسكنجبين مطابق لذلك ، فان الواحد من العشرة اذا زال لم يلزم زوال التسعة ، بل قد تبقى التسعة ، فاذا زال احد جزئي المركب لا يلزم زوال الجزء الآخر ؛ لكن اكثر ما يقولون زالت الصورة المجتمعة ، وزالت الهيئة الاجتماعية، وزال ذلك الاسم الذي استحقته الهيئة بذلك الاجتماع والتركيب ، كما يزول اسم العشرة والسكنجبين .

فيقال : أما كون ذلك المجتمع المركب مابقي على تركيبه فهذا لاينازع فيه عاقل ، ولا يدعى عاقل ان الايمان ، او الصلاة ، او الحج ، او غير ذلك من العبادات المتناولة لأمور ، إذا زال بعضها بقي ذلك المجتمع المركب كما كان قبل زوال بعضه ، ولا يقول احد: ان الشجرة او الدار إذا زال بعضها بقيت مجتمعة كما كانت ، ولا ان الانسان او غيره من الحيوان إذا زال بعض

أعضائه بقي مجموعا .

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، او يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » فالمجتمعة الخلق بعـد الجدع لاتبقى مجتمعة ، ولكن لا يلزم زوال بقية الاجزاء .

وأما زوال الاسم فيقال لهم هذا: «أولا» بحث لفظي ، إذا قدر ان الايمان له ابعاض وشعب : كما قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى الحديث المتفق عليه : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، اعلاها قول :لاإله إلا الله ، وادناهـا إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان » كما أن الصلاة والحج له اجزاء وشعب ، ولا يلزم من زوال شعبة من شعبه زوال سائر الأجزاء والشعب ؛ كما لا يلزم من زوال بعض اجزاء الحج والصلاة زوال سائر الاجزاء . فدعواهم انه اذا زال بعض المركب زال البعض الآخـر ليس بصواب ، ونحن نسلم لهم أنه مابقي إلا بعضه لا كله ، وان الهيئة الاجتماعية مابقيت كما كانت .

يبقى النزاع هـل يلزم زوال الاسم بزوال بعض الاجزاء ، فيقال لهم : المركبات فى ذلك على وجهين ، منها : ما يكون التركيب شرطاً فى اطلاق الاسم ومنها : ما لا يكون كذلك ، فالاول كاسم العشرة ، وكذلك السكنجبين ، ومنها

مابقي الاسم بعد زوال بعض الاجزاء ؛ وجميع المركبات المتشابهة الاجزاء من هذا الباب ، وكذلك كثير من المختلفة الاجزاء ، فان المكيلات والموزونات تسمى حنطة وهي بعد النقص حنطة، وكذلك التراب والماء ونحو ذلك .

وكذلك لفظ العبادة ، والطاعة ، والخير ، والحسنة ، والاحسان ، والصدقة، والعلم ، ونحو ذلك ، مما يدخل فيه امور كثيرة ، يطلق الاسم عليها قليلها وكثيرها ، وعند زوال بعض الأجزاء وبقاء بعض ، وكذلك لفظ « القرآن » فيقال على جميعه وعلى بعضه ، ولو نزل قرآن اكثر من هذا لسمي قرآنا ، وقد تسمى الكتب القديمة قرآنا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « خفف على داود القرآن » وكذلك لفظ القول والكلام والمنطق ونحو ذلك ، يقع على القليل من ذلك وعلى الكثير .

وكذلك لفظ الذكر والدعاء يقال للقليل والكثير ، وكذلك لفظ الجبل يقال على الجبل وان ذهب منه اجزاء كثيرة .

ولفظ البحر والنهر يقال عليه وان نقصت اجزاؤه . وكذلك المدينة والدار والقرية والمسجد ونحو ذلك يقال على الجملة المجتمعة ، ثم ينقص كثير من اجزائها والاسم باق ، وكذلك اسماء الحيوان والنبات كلفظ الشجرة يقال على جملتها ، فيدخل فيها الاغصان وغيرها ثم يقطع منها ما يقطع والاسم باق وكذلك لفظ الانسان والفرس والحمار يقال على الحيوان المجتمع الخلق ، ثم

يذهب كثير من اعضائه والاسم باق ، وكذلك اسماء بعض الاعلام : كزيد وعمرو يتناول الجملة المجتمعة ، ثم يزول بعض اجزائها والاسم باق . وإذا كانت المركبات على نوعين ، بل غالبها من هذا النوع لم يصح قولهم ، إنه اذا زال جزؤه لزم ان يزول الاسم ، إذا امكن ان يبقى الاسم مع بقاء الجزء الباقى .

ومعلوم ان اسم « الايمان » من هذا الباب ؛ فان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الايمان بضع وسبعون شعبة اعلاها قول لا إله إلا الله وادناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان » ثم من المعلوم انه اذا زالت الاماطة ونحوها لم يزل اسم الايمان .

وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيحين انه قال : « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من ايمان » فأخبر انه يتبعض ويبقى بعضه ، وان ذاك من الايمان ، فعلم ان بعض الايمان يزول ويبقي بعضه ، وهذا ينقض مآخذهم الفاسدة ، ويبين ان اسم الايمان مثل اسم القرآن ، والصلاة ، والحج ، ونحو ذلك ، اما الحج ونحوه ففيه اجزاء ينقص الحج بزوالها عن كماله الواجب ولا يبطل كرمي الجمار ، والمبيت بمنى ، ونحو ذلك ، وفيه اجزاء ينقص بزوالها من كماله المستحب ، كرفع الصوت بالاهلال ، والرمل والاضطباع في الطواف الاول .

وكذلك « الصلاة » فيها أجزاء تنقص بزوالها عن كمال الاستحباب ، وفيها

أجزاء واجبة تنقص بزوالها عن الكمال الواجب مع الصحة ، في مذهب ابى حنيفة وأحمد ومالك ، وفيها ما له أجزاء إذا زالت جبر نقصها بسجود السهو ، وأمور ليست كذلك . فقد رأيت اجزاء الشيء تختلف أحكامها شرعاً وطبعاً ، فاذا قال المعترض: هذا الجزء داخل في الحقيقة ، وهذا خارج من الحقيقة ، قيل له : ماذا تريد بالحقيقة ، فان قال : اريد بذلك ما إذا زال صار صاحبه كافراً ، قيل له : ليس للايمان حقيقة واحدة ، مثل حقيقة مسمى « مسلم » في حق جميع المكلفين فى جميع الأزمان بهذا الاعتبار ، مثل حقيقة السواد والبياض ؛ بل الايمان والكفر يختلف باختلاف المكلف وبلوغ التكليف له ، وبزوال الخطاب الذي به التكليف ونحو ذلك .

وكذلك الايمان والواجب على غيره مطلق ؛ لامثل الايمان الواجب عليه في كل وقت ، فان الله لما بعث محمداً رسولا الى الخلق ، كان الواجب على الخلق تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما امر ، ولم يأمرهم حينئذ بالصلوات الخمس ، ولا صيام شهر رمضان ، ولا حج البيت ، ولا حرم عليهم الخمر والربا ، ونحو ذلك ، ولا كان اكثر القرآن قد نزل ، فمن صدقه حينئذ فيما نزل من القرآن وأقر بما امر به من الشهادتين وتوابع ذلك ، كان ذلك الشخص حينئذ مؤمناً تام الايمان الذي وجب عليه ، وإن كان مثل ذلك الايمان لو اتى به بعد الهجرة لم يقبل منه ، ولو اقتصر عليه كان كافراً .

قال الامام احمد : كان بدء الايمان ناقصاً ، فجعل يزيد حتى كمل ، ولهذا

قال تعالى عام حجة الوداع : (اليوم اكملت لكم دينكم ،واتممت عليكم نعمتى).

و « أيضاً » فبعد نزول القرآن وإكمال الدين اذا بلغ الرجل بعض الدين دون بعض ، كان عليه ان يصدق ما جاء به الرسول جملة ، وما بلغه عنه مفصلاً ، واما مالم يبلغه ولم يمكنه معرفته ، فذاك إنما عليه ان يعرفه مفصلاً اذا بلغه ، و « ايضاً » فالرجل اذا آمن بالرسول ايماناً جازماً ، ومات قبل دخول وقت الصلاة او وجوب شيء من الأعمال ، مات كامل الايمان الذي وجب عليه ، فاذا دخل وقت الصلاة فعليه ان يصلي ، وصار يجب عليه ما لم يجب عليه قبل ذلك. وكذلك القادر على الحج والجهاد يجب عليه ما لم يجب على غيره من التصديق المفصل ، والعمل بذلك .

فصار ما يجب من الايمان يختلف باختلاف حال نزول الوحي من السماء ، وبحال المكلف فى البلاغ وعدمه ، وهذا مما يتنوع به نفس التصديق، ويختلف حاله باختلاف القدرة والعجز وغير ذلك من اسباب الوجوب ، وهذه يختلف بها العمل ايضاً . ومعلوم ان الواجب على كل من هؤلاء لا يماثل الواجب على الآخر . فاذا كان نفس ما وجب من الايمان فى الشريعة الواحدة يختلف ويتفاضل — وان كان بين جميع هذه الأنواع قدر مشترك موجود فى الجميع : كالاقرار بالخالق ، وإخلاص الدين له والاقرار برسله واليوم الآخر على وجه الاجمال — فمن المعلوم ان بعض الناس إذا اتى ببعض ما يجب عليه دون بعض كان قد تبعض ما اتى فيه من الايمان ، كتبعض سائر الواجبات .

يبقى ان يقـال : فالبعض الآخر قد يكون شرطـاً فى ذلك البعض ، وقد لا يكون شرطاً فيه ، فالشرط كمن آمن ببعض الـكتـاب وكفر ببعضه ، او آمن ببعض الرسل وكفر ببعضهم ، كما قال تعـالى : (ان الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلاً . اولئك هم الـكافرون حقـاً ، واعتدنا للـكافرين عذاباً مهيناً) . وقد يـكون البعض المتروك ليس شرطاً فى وجود الآخر ولا قبوله .

وحينئذ فقد يجتمع فى الانسان ايمان ونفاق . وبعض شعب الايمـان وشعبة من شعب الـكفر ؛ كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسـلم انه قال : « اربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث كذب ، واذا ائتمن خان ، واذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسـلم أنه قال : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة نفاق » وقـد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليـه وسلم أنه قال لأبي ذر : « إنك امرؤ فيك جاهلية » وفى الصحيح عنه صلى الله عليـه وسلم قال : « اربع في امتى من امر الجاهلية ، لـن يدعوهن : الفخر بالأحسـاب ، والطعن فى الأنسـاب ، والنيـاحة ، والاستسقاء بالنجوم » .

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « سباب المسلم فسوق ،

وقتاله كفر » وفى صحيح مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اثنتان فى الناس هما بهـم كفر: الطعن فى النسب، والنياحة على الميت » وفى الصحيحين عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا ترغبوا عن آبائكم فان كفرا بكم ان ترغبوا عن آبائكم » وهذا من القرآن الذي نسخت تلاوته: (لا ترغبوا عن آبائكم فان كفرا بكم ان ترغبوا عن آبائكم) . وفى الصحيحين عن ابي ذر سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « ليس من رجل ادعى الى غير ابيه — وهو يعلمه — الا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار، ومن رمي رجلاً بالكفر او قال ياعدو الله وليس كذلك، الا رجع عليه » .

وفى لفظ البخاري « ليس من رجل ادعى لغير ابيه وهو يعلمه، إلا كفر بالله، ومن ادعى قوما ليس منهم، فليتبوأ مقعده من النار » وفى الصحيحين من حديث جرير وابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال فى حجة الوداع: « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » ورواه البخاري من حديث ابن عباس: وفى البخاري عن ابي هريرة « عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: اذا قال الرجل لأخيه: يا كافر! فقد باء بها احدهما » . وفى الصحيحين عن زيد بن خالد قال: « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية فى اثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف، اقبل على الناس فقال: اتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟ قالوا: الله ورسوله اعلم، قال: قال: اصبح من

عبادي مؤمن بي وكافر ،فامامن قال مطرنابفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، واما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب».

وفى صحيح مسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الم تروا إلى ماقال ربكم ؟! قال : ما انعمت على عبادي من نعمة ؛ إلا اصبح فريق منهم بها كافرين ، يقولون : بالكواكب ، وبالكواكب » ونظائر هذا موجودة فى الاحاديث . وقال ابن عباس وغير واحد من السلف ، فى قوله تعالى : (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون .) (فأولئك هم الفاسقون) و (الظالمون) ، كفر دون كفر ؛ وفسق دون فسق ، وظلم دون ظلم . وقد ذكر ذلك احمد والبخاري وغيرهما .

الاصل الثاني

ان شعب الايمان قد تتلازم عند القوة ، ولا تتلازم عند الضعف ، فاذا قوي مافى القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله ، أوجب بغض أعداء الله . كما قال تعالى : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي ، وما انزل اليه ما اتخذوهم أولياء) وقال : (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او إخوانهم أو عشيرتهم ، اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه) . وقد تحصل للرجل موادتهم

لرحم او حاجة فتكون ذنباً ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافراً، كما حصل من حاطب بن ابي بلتعة، لما كاتب المشركين ببعض اخبار النبي صلى الله عليه وسلم، وانزل الله فيه (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء، تلقون اليهم بالمودة) .

وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن ابي فى قصة الافك. فقال: لسعد ابن معاذ: كذبت والله؛ لاتقتله ولاتقدر على قتله؛ قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلا صالحاً، ولكن احتملته الحمية. ولهذه الشبهة سمى عمر حاطباً منافقاً فقال دعني يارسول الله اضرب عنق هذا المنافق فقال « إنه شهد بدراً » فكان عمر متأولاً فى تسميته منافقاً للشبهة التى فعلها .

وكذلك قول اسيد بن حضير لسعد بن عبادة؛ كذبت لعمر الله! لنقتلنه؛ انما انت منافق، تجادل عن المنافقين؛ هو من هذا الباب. وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم: منافق، وان كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين .

ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعاً واحداً، بل فيهم المنافق المحض؛ وفيهم من فيه ايمان ونفاق؛ وفيهم من ايمانه غالب، وفيه شعبة من النفاق. وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الايمان؛ ولما قوي الايمان وظهر الايمان وقوته عام تبوك؛ صاروا يعاتبون من النفاق على مالم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك؛

ومن هذا الباب ، مايروى عن الحسن البصري ونحوه من السلف : انهم سموا الفساق منافقين ؛ فجعل اهـــل المقالات هذا قولاً مخالفاً للجمهور ؛ اذا حكوا تنازع الناس فى الفاسق الملى ، هل هو كافر ؟ او فاسق ليس معـــه ايمـان ؟ او مؤمن كامل الايمان ؟ او مؤمن بما معه من الايمان ، فاسق بما معه من الفسق ؟ او منافق ، والحسن ـــ رحمه الله تعالى ـــ لم يقل ما خرج به عن الجماعة ، لكن سماه منافقاً على الوجه الذي ذكرناه .

والنفاق كالكفر نفاق دون نفاق ، ولهذا كثيراً ما يقال : كفر ينقل عن الملة ، وكفر لا ينقل ، ونفاق أكبر ، ونفاق أصغر ، كما يقال : الشرك شركان أصغر ، وأكبر ؛ وفى صحيح ابي حاتم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسـلم انه قال : «الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل.» فقال ابو بكر : يارسول الله ! كيف ننجوا منه ، وهو اخفى من دبيب النمل ؟ فقال : «الا اعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجله ؟ قل : اللهم إني اعوذ بك ان اشرك بك ، وانا اعلم ، واستغفرك لما لا اعلم » . وفى الترمـذي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : «من حلف بغير الله ، فقد اشرك » قال الترمذي حديث حسن .

وبهذا تبين ان الشارع ينفي اسم الايمان عن الشخص ؛ لانتفـاء كما له الواجب ، وان كان معه بعض اجزائه ، كما قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ؛ ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ؛ ولا يشرب الخمر حـين يشربها وهو مؤمن » ومنه قوله : « من غشنا فليس منا ، ومن حمل علينـا

السلاح فليس منا » . فان صيغة « انا » و « نحن » ونحو ذلك من ضمير المتكلم فى مثل ذلك ، يتناول النبي صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين معه — الايمان المطلق — الذي يستحقون به الثواب . بلا عقاب ، ومن هنا قيل ان الفاسق الملي يجوز ان يقال : هو مؤمن باعتبار ، ويجوز ان يقال : ليس مؤمناً باعتبار .

وبهذا تبين ان الرجل قد يكون مسلما لا مؤمنا ، ولا منافقا مطلقا ، بل يكون معه اصل الايمان دون حقيقته الواجبة . ولهذا انكر احمد وغيره من الأئمة على من فسر قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا » ليس مثلنا ، اوليس من خيارنا وقال هذا تفسير « المرجئة » وقالوا : لو لم يفعل هذه الكبيرة ، كان يكون مثل النبي صلى الله عليه وسلم . وكذلك تفسير الخوارج والمعتزلة ، بأنه يخرج من الايمان بالكلية ، ويستحق الخلود فى النار ؛ تأويل منكر كما تقدم ، فلا هذا ولا هذا .

ومما يبين ذلك انه من المعلوم ان معرفة الشيء المحبوب تقتضي حبه ومعرفة المعظم تقتضي تعظيمه ؛ ومعرفة المخوف تقتضي خوفه فنفس العلم والتصديق بالله وماله من الأسماء الحسنى ، والصفات العلى يوجب محبة القلب له وتعظيمه وخشيته ؛ وذلك يوجب إرادة طاعته وكراهية معصيته . والارادة الجازمة مع القدرة تستلزم وجود المراد ووجود المقدور عليه منه ؛ فالعبد إذا كان مريداً

للصلاة إرادة جازمة مع قدرته عليها ؛ صلى ، فاذا لم يصل مع القدرة دل ذلك على ضعف الارادة .

وبهذا يزول الاشتباه فى « هذا المقام » . فان الناس تنازعوا فى الارادة بلا عمل ؛ هل يحصل بها عقاب ؟ . وكثر النزاع فى ذلك . فمن قال : لا يعاقب احتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم الذي فى الصحيحين « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به انفسها ما لم تتكلم به او تعمل به » وبما فى الصحيحين من حديث ابي هريرة وابن عباس رضي الله عنه « ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا هم العبد بسيئة لم تكتب عليه ، فان عملها كتبت عليه سيئة واحدة ، واذا هم بحسنة كتبت له حسنة كاملة ؛ فان عملها كتبت له عشر حسنات الى سبعمائة ضعف» وفى رواية « فان تركها فاكتبوها له حسنة ؛ فانما تركها من جرائي » .

ومن قال : يعاقب احتج بما فى الصحيح « عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما . فالقاتل والمقتول فى النار ؛ قيل : يارسول الله ! هذا القاتل فما بال المقتول ؛ قال : انه اراد قتل صاحبه » ؛ وبالحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن ابى كبشة الانماري عن النبي صلى الله عليه وسلم : «فى الرجلين الذين اوتى احدهما علما ومالا فهو ينفقه فى طاعة الله ؛ ورجل اوتى علما ولم يؤت مالا ؛ فقال : لو ان لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان قال : فهما فى الاجر سواء ؛ ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه فى معصية الله ؛ ورجل لم يؤته الله علما ولا مالا فقال : لو ان لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان ؛ قال فهما فى الوزر سواء » .

و « الفصل فى ذلك » أن يقال : فرق بين الهم ، والارادة ، « فالهم » قد لايقترن به شيء من الأعمال الظاهرة ، فهذا لاعقوبة فيه بحال ، بل إن تركه لله، كما ترك يوسف همه ، اثيب على ذلك كما أثيب يوسف ، ولهذا قال احمد : الهم همان : هم خطرات ، وهم إصرار ، ولهذا كان الذي دل عليه القرآن أن يوسف لم يكن له فى هذه القضية ذنب أصلاً ، بل صرف الله عنه السوء والفحشاء انه من عباده المخلصين ؛ مع ما حصل من المراودة ، والكذب ، والاستعانة عليه بالنسوة ، وحبسه ، وغير ذلك من الأسباب التى لايكاد بشر يصبر معها عن الفاحشة ، ولكن يوسف اتقى الله وصبر ، فأثابه الله برحمته فى الدنيا . (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) .

وأما «الارادة الجازمة » فلا بد ان يقترن بها مع القدرة ، فعل المقدور ولو بنظرة ، او حركة رأس ، او لفظة ، او خطوة او تحريك بدن ؛ وبهذا يظهر معنى قوله صلى الله عليه وسلم: « إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار » . فان المقتول اراد قتل صاحبه فعمل ما يقدر عليه من القتال ، وعجز عن حصول المراد ، وكذلك الذي قال : لو ان لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان ، فانه اراد فعل ما يقدر عليه وهو الكلام ، ولم يقدر على ذلك، ولهذا كان من دعا الى ضلالة ، كان عليه مثل اوزار من اتبعه ، من غير ان ينقص من اوزارهم شيئاً ، لأنه اراد ضلالهم ففعل ما يقدر عليه من دعائهم ، إذ لايقدر إلا على ذلك .

وإذا تبين هذا فى « الارادة ، والعمل » : فالتصديق الذي فى القلب وعلمه يقتضي عمل القلب ، كما يقتضي الحس الحركة الارادية ، لأن النفس فيها قوتان : قوة الشعور بالملائم والمنافى والاحساس بذلك ، والعمل والتصديق به ، وقوة الحب للملائم ، والبغض للمنافى ، والحركة عن الحس بالخوف والرجاء والموالاة والمعاداة . وادراك الملائم يوجب اللذة ، والفرح والسرور ، وإدراك المنافى ، يوجب الألم والغم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» .

فالقلوب مفطورة على الاقرار بالله تصديقاً به وديناً له ، لكن يعرض لها مايفسدها ، ومعرفة الحق تقتضي محبته ، ومعرفة الباطل تقتضي بغضه ؛ لما فى الفطرة من حب الحق وبغض الباطل ، لكن قد يعرض لها مايفسدها إما من الشبهات التى تصدها عن التصديق بالحق ، واما من الشهوات التى تصدها عن اتباعه ، ولهذا امرنا الله ان نقول فى الصلاة : (إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » ؛ لأن اليهود يعرفون الحق كما يعرفون ابناءهم ، ولا يتبعونه لما فيهم من الكبر والحسد الذي يوجب بغض الحق ومعاداته . والنصارى لهم عبادة ، وفي قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ، لكن بلا علم ، فهم ضلال . هؤلاء لهم معرفة بلا قصد صحيح ، وهؤلاء

لهم قصد فى الخير بلا معرفة له ، وينضم الى ذلك الظن ، واتباع الهوى ؛ فلا يبقى في الحقيقة معرفة نافعة ؛ ولا قصد نافع بل يكون كما قال تعالى عن مشركي اهل الكتاب :(وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير) وقال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس ، لهم قلوب لايفقهون بها، ولهم اعين لايبصرون بها ؛ ولهم آذان لايسمعون بها ؛ اولئك كالأنعام بل هم اضل ؛ اولئك هم الغافلون) .

فالايمان فى القلب لايكون إيماناً بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه من محبة الله ورسوله ونحو ذلك ؛ كما انه لا يكون إيماناً بمجرد ظن وهوى ؛ بل لابد في اصل الايمان من قول القلب ، وعمل القلب ،

وليس لفظ الايمان مرادفا للفظ التصديق ،كما يظنه طائفة من الناس ؛ فان التصديق يستعمل فى كل خبر ، فيقال لمن اخبر بالامور المشهورة مثل : الواحد نصف الاثنين ، والسماء فوق الارض ، مجيباً : صدقت ،وصدقنا بذلك؛ ولا يقال : آمنا لك ، ولا آمنا بهذا ، حتى يكون المخبر بـه من الامور الغائبة ، فيقال للمخبر آمنا له ، وللمخبر به آمنا به ، كما قـال اخوة يوسف : (وما انت بمؤمن لنا) اي بمقر لنا ، ومصدق لنا ، لأنهم اخبروه عن غائب ومنـه قوله تعالى :(انؤمن لك واتبعك الارذلون) وقوله تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) وقوله تعالى : (انؤمن لبشرين مثلنا، وقومهما لنا عابدون) وقوله تعالى : (فان لم تؤمنوا لي فاعتزلون) (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) اي : اقر له .

وذلك ان الايمان يفارق التصديق ، اي : لفظاً ومعنى ؛ فانه ايضاً يقال : صدقته ، فيتعدى بنفسه الى المصدق ، ولا يقال امنته ، الا من الامان الذي هو ضد الاخافة ، بل آمنت له ، واذا ساغ ان يقال : ما انت بمصدق لفلان ، كما يقال : هل انت مصدق له . لأن الفعل المتعدى بنفسه اذا قدم مفعوله عليه ، اوكان العامل اسم فاعل ، ونحوه مما يضعف عن الفعل ، فقد يعدونه باللام تقوية له ، كما يقال : عرفت هذا ، وانا به عارف ، وضربت هذا ، وانا له ضارب ، وسمعت هذا ورأيته ، وأنا له سامع ، وراء ، كذلك يقال صدقته وانا له مصدق ، ولا يقال صدقت له به ، وهذا خلاف آمن ، فانه لا يقال اذا اردت التصديق آمنته كما يقال اقررت له ، ومنه قوله آمنت له كما يقال اقررت له فهذا فرق فى اللفظ .

و « الفرق الثاني » : ماتقدم من ان الايمان لا يستعمل في جميع الاخبار ، بل فى الاخبار عن الأمور الغائبة ، ونحوها مما يدخلها الريب . فاذا اقر بها المستمع قيل آمن ، بخلاف لفظ التصديق ، فانه عام متناول لجميع الاخبار .

واما « المعنى » : فان الايمان مأخوذ من الامن ، الذي هو الطمأنينة ؛ كما ان لفظ الاقرار : مأخوذ من قريقر ، وهو قريب من آمن يأمن ؛ لكن الصادق يطمئن الى خبره ؛ والكاذب بخلاف ذلك كما يقال الصدق طمأنينة والكذب ريبة ؛ فالمؤمن دخل فى الأمن كما ان المقر دخل فى الاقرار ، ولفظ الاقرار يتضمن الالتزام ثم انه يكون على وجهين :

(احدهما) : الاخبار ، وهو من هذا الوجـه كلفظ التصديق ؛ والشهادة ونحوها . وهذا معنى الاقرار الذي يذكره الفقهاء فى كتاب الاقرار .

و (الثاني) : انشاء الالتزام كما فى قوله تعالى : (أأقررتم واخذتم على ذلكم اصرى ؛ قالوا اقررنا ، قال : فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين) . وليس هو هنا بمعنى الخبر المجرد فانه سبحانه قال : (واذ اخذ الله ميثاق النبيين لمـا آتيتكم من كتاب وحكمة ؛ ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ؛ قال أأقررتم واخذتم على ذلكم اصرى) . فهذا الالتزام للايمان والنصر للرسول وكذلك « لفظ الايمان » فيه اخبار وانشاء والتزام ؛ بخلاف لفظ التصديق المجرد فمن اخبر الرجل بخبر لايتضمن طمأنينة الى المخبر ؛ لايقال فيه آمن له بخلاف الخبر الذي يتضمن طمأنينة الى المخبر والمخبر قد يتضمن خبره طاعة المستمع له ، وقد لايتضمن الا مجرد الطمأنينة الى صدقه، فاذا تضمن طاعة المستمع لم يكن مؤمناً للمخبر ؛ الا بالتزام طاعتـه مع تصديقـه ؛ بل قد استعمل لفظ الكفر ــ المقابل للايمـان ــ في نفس الامتنـاع عن الطـاعة والانقياد ؛ فقياس ذلك ان يستعمل لفظ الايمـان كما استعمل لفظ الاقرار فى نفس التزام الطاعـة والانقياد ؛ فان الله امـر ابليس بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الـكافرين .

و « ايضاً » فلفظ التصديق انما يستعمل فى جنس الاخبار ، فان التصديق

اخبار بصدق المخبر ؛ والتكذيب اخبار بكذب المخبر؛فقد يصدق الرجل الكاذب تارة [وقد يكذب الرجل] الصادق اخرى فالتصديق والتكذيب نوعان من الخبر وهما خبر عن الخبر فالحقائق الثابتة فى نفسها التى قد تعلم بدون خبر لايكاد يستعمل فيها لفظ التصديق والتكذيب ان لم يقدر مخبر عنها بخلاف الايمان والاقرار والانكار والجحود ، ونحو ذلك فانه يتناول الحقائق والاخبار عن الحقائق ايضاً .

وايضاً فالذوات التى تحب تارة وتبغض اخرى ، وتوالي تارة وتعادى اخرى وتطاوع تارة وتعصى اخرى ويذل لها تارة ويستكبر عنها اخرى تختص هذه المعاني فيها بلفظ الايمان والكفر ونحو ذلك ؛ واما لفظ التصديق والصدق ونحو ذلك فيتعلق بمتعلقها كالحب والبغض فيقال : حب صادق . وبغض صادق فكما ان الصدق والكذب فى اثبات الحقائق ونفيها متعلق بالخبر النافى والمثبت دون الحقيقة إبتداء . فكذلك في الحب والبغض ونحو ذلك يتعلق بالحب والبغض . دون الحقيقة ابتداء بخلاف لفظ الايمان والكفر فانه يتناول الذوات بلا واسطة إقرار أو انكار أو حب أو بغض أوطمأنينة او نفور .

ويشهد لهذا الدعاءالمأثور المشهور عند استلام الحجر « اللهم ايمانابك ، وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم » فقال ايمانابك،ولم يقل تصديقاً بك ، كما قال تصديقاً بكتابك وقال تعالى عن

مريم : (وصدقت بكلمات ربها وكتبه) فجعل التصديق بالكلمات والكتب ، ومنه الحديث الذي في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « تكفل الله لمن خرج في سبيله لايخرجه الا ايمان بي ، وتصديق بكلماتي » ويروى « ايمان بي وتصديق برسلي » ويروى « لايخرجه الاجهاد في سبيل الله وتصديق كلماته » ففي جميع الألفاظ جعل لفظ التصديق بالكلمات والرسل .

وكذلك قوله في الحديث الذى في الصحيح،ذكر النبي صلى الله عليه وسلم منازل عالية فى الجنة فقيل له : يارسول الله : تلك منازل لايبلغها الآ الانبياء ، فقال : « بلى ! والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » . وما يحصى الآن الاستعمال المعروف فى كلام السلف ، صدقت بالله ، او فلان يصدق بالله ، او صدق بالله ونحو ذلك ، كما جاء فلان يؤمن وآمن بالله وإيماناً بالله وتؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتؤمن بالله وحده ونحو ذلك. فان القرآن والحديث وكلام الخاصة والعامة مملوء من لفظ الايمان بالله وآمن بالله ونؤمن بالله ويا ايها الذين آمنوا ، وما اعلم قيل التصديق بالله ، او صدقوا بالله اويا ايها الذي صدق الله ونحو ذلك ، اللهم الا ان يكون فى ذلك شيء لا يحضرنى الساعة ، وما اظنه .

ولفظ « الايمان » يستعمل فى الخبر ايضاً كما يقال : (كل آمن بالله) : اي أقر له والرسول يؤمن له من جهة انه مخبر ، ويؤمن به من جهة ان رسالته مما اخبر بها ، كما يؤمن بالله وملائكته وكتبه . « فالايمان » متضمن للاقرار بما اخبر

به ، والكفر « تارة » يكون بالنظر الى عدم تصديق الرسول والايمان به،وهو من هذا الباب يشترك فيه كل ما اخبر به. و « تارة » بالنظر الى عدم الاقرار بما اخبر به ، والاصل في ذلك هو الاخبار بالله وبأسمائه ، ولهذا كان جحد مايتعلق بهذا الباب اعظم من جحد غيره. وان كان الرسول أخبر بكليهما ثم مجرد تصديقه في الخبر والعلم بثبوت ما اخبر به ،اذا لم يكن معه طاعة لأمره ، لاباطنا ولا ظاهراً ولا محبة لله ولا تعظيم له لم يكن ذلك ايماناً .

وكفر ابليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن اصله من جهة عدم التصديق والعلم ؛ فان ابليس لم يخبره احد بخبر ، بل امره الله بالسجود لآدم فأبى واستكبر ، وكان من الكافرين ، فكفره بالاباء والاستكبار وما يتبع ذلك ؛ لا لأجل تكذيب . وكذلك فرعون وقومه جحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا وقال له موسى :(لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض) ، فالذي يقال هنا احد امرين :.

اما ان يقال الاستكبار والاباء والحسد ونحو ذلك مما الكفر به مستلزم لعدم العلم ، والتصديق الذي هو الايمان ، وإلا فمن كان علمه وتصديقه تاماً أوجب استسلامه وطاعته مع القدرة كما ان الارادة الجازمة تستلزم وجود المراد مع القدرة ، فعلم ان المراد اذا لم يوجد مع القدرة ، دل على انه مافي القلب همة ولا إرادة ؛ فكذلك اذا لم يوجد موجب التصديق والعلم من حب القلب وانقياده ، دل على ان الحاصل في القلب ليس بتصديق ولا علم ، بل هنا شبهة

وريب ، كما يقول ذلك طوائف من الناس ، وهو اصل قول جهم والصالحي والاشعري فى المشهور عنه واكثر اصحابه كالقاضي ابي بكر ومن اتبعه ، ممن يجعل الاعمال الباطنة والظاهرة من موجبات الايمان لامن نفسه ، ويجعل ماينتفي الايمان بانتفائه من لوازم التصديق لايتصور عنده تصديق باطن مع كفر قط .

أو ان يقال : قد يحصل فى القلب علم بالحق وتصديق به ، ولكن ما فى القلب من الحسد والكبر ونحو ذلك مانع من استسلام القلب وانقياده ومحبته ؛ وليس هذا كالارادة مع العمل ؛ لأن الارادة مع القدرة مستلزمة للمراد ، وليس العلم بالحق والتصديق به مع القدرة على العمل بموجب ذلك العمل ، بل لابد مع ذلك من إرادة الحق والحب له .

فاذا قال القائل : القدرة التامة بدون الارادة الجازمة ، مستلزمة لوجود المراد المقدور موجبة لحصول المقدور لم يكن مصيباً ؛ بل لابد من الارادة . وبهذا يتبين خطأ من قال : إن مجرد علم الله بالمخلوقات موجب لوجودها ، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الفلسفة ؛ كما يغلط الناس من يقول إن مجرد إرادة الممكنات بدون القدرة موجب وجودها، وكما خطؤا من قال: إن مجرد القدرة كافية ، بل لابد من العلم والقدرة والأرادة فى وجود المقدور والمراد ؛ والارادة مستلزمة لتصور المراد ، والعلم به ؛ والعلم والارادة والقدرة ، ونحو ذلك ؛ وان كان قد يقال : انها متلازمة فى الحي ، او أن الحياة مستلزمة لهذه الصفات ، او أن بعض الصفات مشروط بالبعض ، فلا ريب انه ليس كل معلوم مرادا

محبوباً ولا مقدوراً ، ولا كل مقدور مراداً محبوباً ، وإذا كان كذلك لم يـلزم من كون الشيء معلوماً مصدقاً به ان يكون محبوباً معبوداً ، بل لابد من العلم؛ وامر آخر به يكون هذا محباً وهذا محبوباً .

فقول من جعل مجرد العلم والتصديق فى العبد هو الايمـان ، وأنه موجب لأعمال القلب ، فاذا انتفت دل على انتفاء العلم ؛ بمنزلة من يقول : مجرد عـلم الله بنظام العالم موجب لوجوده ؛ بدون وجود إرادة منه ،وهوشبيه بقول المتفلسفة: ان سعادة النفس فى مجرد أن تعلم الحقائق ، ولم يقرنوا ذلك بحب الله تعالى وعبادته التى لا تتم السعادة إلا بها ؛ وهو نظير من يقول : كمال الجسم او النفس فى الحب من غير اقتران الحركة الارادية به ، ومن يقول :اللذة فى مجرد الادراك والشعور. وهذا غلط باتفاق العقلاء ، بل لابد من إدراك الملائم ؛ والملائمة لاتكون إلا بمحبة بـين المدرك والمدرك ، وتلك المحبـة والموافقة والملائمـة ليست نفس إدراكه والشعور به .

وقد قال كثير من الناس من الفلاسفة والأطباء ومن اتبعهم ، ان « اللذة» إدراك الملائم وهذا تقصير منهم ، بل اللذة حال يعقب إدراك الملائم ؛ كالانسان الذي يحب الحلو ويشتهيه فيدركه بالذوق والأكل ؛ فليست اللذة مجرد ذوقه ، بل أمر يجده من نفسه يحصل مع الذوق ، فلابد « اولاً » من امرين ؛و«آخراً» من امرين : لابد « اولاً » : من شعور بالمحبوب ؛ ومحبة له ؛ فمـا لا شعور به لايتصور ان يشتهى ، وما يشعر به وليس في النفس محبة له لايشتهى ، ثم إذا

حصـل إدراكـه بالمحبوب نفسه ، حصـل عقيب ذلك اللذة والفرح مـع ذلك .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الدعاء المأثور : « اللهم إني اسألك لذة النظر الى وجهك ، والشوق الى لقائك ؛ من غير ضراء مضرة ، ولا فتنـة مضلة » وفى الحديث الصحيح « اذا دخل اهل الجنة الجنة : نادى مناد يا اهـل الجنة ! ان لـكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه ، فيقولون : ماهو ؟ الم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ، ويجرنـا من النار ؟ ! قال : فيكشف الحجاب ، فينظرون اليه ؛ فما اعطاهم شيئاً احب اليهم من النظر اليه » رواه مسلم وغيره . فاللذة مقرونة بالنظر اليه ؛ ولا احب اليهـم من النظر اليه ، لما يقترن بذلك من اللذة ؛ لا ان نفس النظر هو اللذة .

وفى « الجملة » فلا بد فى الايمان الذي فى القلب من تصديق بالله ورسوله ، وحب الله ورسوله ، والا فمجرد التصديق مع البغض لله ولرسوله ؛ ومعـاداة الله ورسوله ، ليس ايماناً باتفاق المسلمين ؛ وليس مجرد التصديق والعلم يستلزم الحب ، الا اذا كان القلب سليماً من المعارض ، كالحسد والـكبر ، لأن النفس مفطورة على حب الحق ، وهو الذي يلائمها . ولا شيء احب الى القلوب السليمة من الله ، وهذا هو الحنيفية ملة ابراهيم عليه السلام الذي اتخذه الله خليلاً . وقد قال تعالى : (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم) فليس مجرد

العلم موجبا لحب المعلوم ؛ ان لم يكن فى النفس قوة اخرى تلائم المعلوم ،وهذه القوة موجودة فى النفس .

وكل من القوتين تقوى بالاخرى ، فالعلم يقوي العمل ، والعمل يقوي العلم، فمن عرف الله وقلبه سليم احبه؛ وكلما ازداد لهمعرفةازدادحبه له؛ وكلما ازداد حبه له ازداد ذكره له ، ومعرفته بأسمائه وصفاته ؛ فان قوة الحب توجب كثرة ذكر المحبوب ؛ كما ان البغض يوجب الاعراض عن ذكر المبغض ، فمن عادى الله ورسوله وحاد الله ورسوله كان ذلك مقتضياً لاعراضه عن ذكر الله ورسوله بالخير ؛ وعن ذكر ما يوجب المحبة ، فيضعف علمه به حتى قد ينساه . كما قال تعالى : (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم انفسهم) وقال تعالى : (ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطاً) وقد يحصل مع ذلك تصديق وعلم مع بغض ومعاداة ، لكن تصديق ضعيف ، وعلم ضعيف ؛ ولكن لولا البغض والمعاداة لأوجب ذلك من محبة الله ورسوله ما يصير به مؤمناً .

فمن شرط الايمان وجود العلم التام ، ولهذا كان الصواب ، ان الجهل ببعض اسماء الله وصفاته لا يكون صاحبه كافراً ، اذا كان مقراً بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يبلغه ما يوجب العلم بما جهله على وجه يقتضي كفره اذا لم يعلمه كحديث الذي امر اهله بتحريقه ثم تذريته ؛ بل العلماء بالله يتفاضلون فى العلم به . ولهذا يوصف من لم يعمل بعلمه ، بالجهل وعدم العلم . قال تعالى : (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب)قال ابو العالية:

سألت اصحاب محمد عن هذه الآية ؛ فقالوا لي : كل من عصى الله فهو جاهل ؛ وكل من تاب قبـل الموت فقد تاب من قريب . ومنه قول ابن مسعود : كفى بخشية الله علماً . وكفى بالاغترار بالله جهلاً . وقيل للشعبي : ايها العالم ! فقـال : العالم من يخشى الله ، وقد قال تعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) .

وقال ابو حيان التيمي : « العلماء ثـلاثة » : عالم بالله ؛ وبأمر الله ؛ وعالم بالله ليس عالماً بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله . فالعالم بالله الذي يخشاه . والعالم بأمر الله الذي يعلم حدوده وفرائضه . وقد قال تعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) . وهذا يدل على ان كل من خشي الله فهو عالم . وهـو حق ولا يدل على ان كل عالم يخشاه ؛ لـكن لما كان العلم به موجباً للخشية عند عدم المعارض كان عدمه دليلاً على ضعف الأصل ، اذ لو قوى لدفع المعارض .

وهكذا لفظ « العقل » يراد به الغريزة التى بها يعلم ، ويراد بها انواع من العلم . ويراد به العمل بموجب ذلك العلم ، وكذلك لفظ « الجهل » يعبر به عن عدم العلم ، ويعبر به عن عدم العمل بموجب العلم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اذا كان احدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل فان امرؤ شاتمه او قاتله ، فليقل اني امرؤ صائم » والجهل هنا هو الـكلام الباطل ، بمنزلة الجهل المركب ومنه قول الشاعر :

ألا لا يجهلن احد علينـا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا سميت « الجاهلية » جاهليــة ، وهي متضمنة لــعدم العلم او لعدم العمل به ومنــه قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : « انــك امرؤ فيك جاهلية » لما ساب رجلا وعيره بأمه ، وقد قال تعالى : (اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ، حمية الجاهلية) . فان الغضب والحمية تحمل المرء على فعل مايضره وترك ماينفعه ، وهذا من الجهل الذي هو عمل بخلاف العلم حتى يقدم المرء عــلى فعل مايعلم انه يضره ، وترك ما يعلم انــه ينفعه ؛ لما فى نفسه من البغض والمعاداة لأشخاص وأفعال ، وهو فى هذه الحال ليس عديم العلم والتصديق بالكليــة ، لكنه لما فى نفسه من بغض وحسد غلب موجب ذلك لموجب العلم ، فدل عــلى ضعف العلم لعدم موجبه ومقتضاه ، ولكن ذلك الموجب والنتيجة لاتوجد عنــه وحده ، بل عنه وعما فى النفس من حب ماينفعهــا ، وبغض مايضرهــا ، فاذا حصل لها مرض ففسدت به ، أحبت مايضرهــا ، وأبغضت ماينفعها ، فتصير النفس كالمريض الذي يتناول مايضره لشهوة نفسه له ، مع علمه انه يضره .

« قلت » : هذا معنى ماروي عن النبي صلى الله عليــه وسلم : ان الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الـكامل عند حلول الشهوات» رواه البيهقى مرسلا . وقد قال تعالى ، (واذكر عبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدي والابصار) فوصفهم بالقوة فى العمل والبصيرة فى العــلم ، وأصل القوة قوة القلب الموجبة لمحبــة الخير وبغض الشر ، فان المؤمن قوته فى قلبه ، وضعفه فى جسمه والمنافق قوته فى جسمه وضعفه فى قلبه فالايمــان لابد

فيه من هذين الاصلين : التصديق بالحق والمحبة له . فهذا أصل القول ؛ وهذا أصل العمل .

ثم الحب التام مع القدرة يستلزم حركة البدن بالقول الظاهر ، والعمل الظاهر ضرورة كما تقدم ، فمن جعل مجرد العلم والتصديق موجباً لجميع مايدخل في مسمى الايمان ، وكل ماسمي إيماناً فقد غلط بل لابد من العلم والحب. والعلم شرط فى محبة المحبوب ، كما ان الحياة شرط فى العلم؛ لكن لايلزم من العلم بالشيء والتصديق بثبوته محبته إن لم يكن بين العالم والمعلوم معنى فى المحب أحب لأجله ولهذا كان الانسان يصدق بثبوت أشياء كثيرة ويعلمها وهو يبغضها كما يصدق بوجود الشياطين والكفار ويبغضهم ونفس التصديق بوجود الشيء لا يقتضي محبته : لكن الله سبحانه يستحق لذاته أن يحب ويعبد ، وأن يحب لأجله رسوله، والقلوب فيها معنى يقتضي حبه وطاعته كما فيها معنى يقتضى العلم والتصديق به : فمن صدق به وبرسوله ولم يكن محباً له ولرسوله لم يكن مؤمناً حتى يكون فيه مع ذلك الحب له ولرسوله .

واذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الاقوال الظاهرة ؛ والاعمال الظاهرة فما يظهر على البدن من الاقوال والاعمال هو موجب مافى القلب ولازمه ؛ ودليله ومعلوله كما ان مايقوم بالبدن من الاقوال والاعمال له أيضاً تأثير فيما فى القلب . فكل منهما يؤثر فى الآخر لكن القلب هو الاصل والبدن فرع له والفرع يستمد من أصله والاصل يثبت ويقوى بفرعه . كما فى الشجرة التى يضرب بها المثل لكلمة الايمان . قال

تعالى:(وضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء. تؤتى أكلها كل حين باذن ربها) وهي كلمة التوحيد، والشجرة كلما قوي أصلها وعرق وروي قويت فروعها . وفروعها ايضاً إذا اغتذت بالمطر والريح أثر ذلك فى أصلها .

وكذلك « الايمان » فى القلب و « الاسلام » علانية ولما كانت الاقوال والاعمال الظاهرة لازمة ومستلزمة للأقوال والاعمال الباطنة كان يستدل بها عليها : كما فى قوله تعالى : (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) فأخبر أن من كان مؤمناً بالله واليوم الاخر لايوجدون موادين لأعداء الله ورسوله . بل نفس الايمان ينافى مودتهم .فاذا حصلت الموادة دل ذلك على خلل الايمان وكذلك قوله : (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم اولياء) .

وكذلك قوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون) فأخبر تعالى ان هؤلاء هم الصادقون فى قولهم : آمنا ، ودل ذلك على ان الناس فى قولهم: آمنا صادق وكاذب ، والكاذب فيه نفاق بحسب كذبه . قال تعالى فى المنافقين :

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ـ الى قوله ـ ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون) وفى يكذبون قراتان مشهورتان .

وفى الحديث « اساس النفاق الذي يبني عليه الكذب » وقال تعالى : (اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) وقال تعالى : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما عدوه وبما كانوا يكذبون) وقال : (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) ومثل هذا كثير .

و « بالجملة » فلا يستريب من تدبر ما يقول فى ان الرجل لا يكون مؤمناً بمجرد تصديق فى القلب مع بغضه لله ولرسوله، واستكباره عن عبادته ومعاداته له ولرسوله ، ولهذا كان جماهير المرجئة على ان عمل القلب داخل فى الايمان كما نقله اهل المقالات عنهم ، منهم الاشعري فانه قال فى كتابه فى « المقالات » : اختلف المرجئة فى الايمان ما هو ؟ وهم «اثنتا عشرة فرقة ».

« الفرقة الأولى » منهم : يزعمون ان الايمان بالله هو المعرفة بالله وبرسوله وبجميع ما جاء من عند الله فقط ، وان ما سوى المعرفة من الاقرار باللسان ، والخضوع بالقلب والمحبة لله ولرسوله ، والتعظيم لهما والخوف والعمل بالجوارح فليس بايمان ، وزعموا ان الكفر بالله هو الجهل به وهذا قول يحكى عن الجهم

ابن صفوان ، قال : وزعمت الجهمية ان الانسان اذا اتى بالمعرفة ، ثم جحد بلسانه انه لا يكفر بجحده . وان الايمان لا يتبعض ولا يتفاضل اهله فيه ، وان الايمان والكفر لا يكونان إلا فى القلب دون الجوارح ، قال :

و « الفرقة الثانية » من المرجئة : يزعمون ان الايمان هو المعرفة بالله فقط ، والكفر به هو الجهل به فقط ، فلا ايمان بالله الا المعرفة به ، ولا كفر بالله إلا الجهل به ، وان قول القائل : (ان الله ثالث ثلاثة)ليس بكفر ولكنه لايظهر إلا من كافر ، وذلك ان الله كفر من قال ذلك واجمع المسلمون انه لا يقوله الا كافر وزعموا ان معرفة الله هي المحبة له وهي الخضوع لله . واصحاب هذا القول لا يزعمون ان الايمان بالله ايمان بالرسول ، ويقولون : انه لا يؤمن بالله إلا من آمن بالرسول ، ليس ذلك لأن ذلك مستحيل ، ولكن الرسول قال «من لم يؤمن بى فليس بمؤمن بالله»وزعموا ايضاً ان الصلاة ليست بعبادة لله ، وانه لا عبادة إلا الايمان به ، وهو معرفته والايمان عندهم لا يزيد ولا ينقص ، وهو خصلة واحدة وكذلك الكفر والقائل بهذا القول ابو الحسين الصالحي ، وقد ذكر الأشعري فى كتابه « الموجز » قول الصالحي هذا وغيره ، ثم قال : والذي اختاره فى الأسماء قول الصالحي ، وفى الخصوص والعموم إنى لا اقطع بظاهر الخبر على العموم ، ولا على الخصوص إذكان يحتمل فى اللغة ان يكون خاصاً ، ويحتمل ان يكون عاما . واقف فى ذلك ولا اقطع على عموم ولا على خصوص الا بتوقيف او اجماع . ثم قال فى « المقالات » :

و « الفرقة الثالثة من المرجئة » : يزعمون ان الايمان هو المعرفة بالله

والخضوع له ، وهو ترك الاستكبار عليه والمحبة لله، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال، فهو مؤمن وزعموا ان ابليس كان عارفا بالله غير انه كفر باستكباره على الله، وهذا قول قوم من اصحاب يونس السمري .

و « الفرقة الرابعة » : وهم أصحاب ابى شمرو يونس يزعمون ان الايمان المعرفة بالله والمحبة له والخضوع له بالقلب والاقرار به انه واحد ليس كمثله شيء ما لم تقم عليه حجة الأنبياء ، وان كانت قد قامت عليه حجة الانبياء فالايمان [الاقرار] بهم والتصديق لهم والمعرفة لما جاء من عند الله عنهم داخل فى الايمان ولا يسمون كل خصلة من هذه الخصال ايمانا ولا بعض ايمان، حتى تجتمع هذه الخصال، فاذا اجتمعت سموها ايمانا لاجتماعها، وشبهوا ذلك بالبياض اذا كان فى دابة لم يسموها بلقاء الامع السواد وجعلوا ترك كل خصلة من هذه الخصال كفراً ولم يجعلوا الايمان متبعضا ولا محتملا للزيادة والنقصان .

وذكر عن « الخامسة » اصحاب ابى ثوبان : ان الايمان هو الاقرار بالله وبرسله وما لا يجوز فى العقل الا ان يفعله .

وذكر عن «الفرقة السادسة» : ان الايمان هو المعرفة بالله وبرسله وفرائضه المجمع عليها والخضوع له بجميع ذلك والاقرار باللسان ، وزعموا ان خصال الايمان كل منها طاعة ، وان كل واحدة اذا فعلت دون الاخرى لم تكن طاعة كالمعرفة بلا اقرار ، وان ترك كل خصلة من ذلك معصية؛ وان الانسان لا يكفر

بترك خصلة واحدة ، وان الناس يتفاضلون فى ايمانهم ، ويكون بعضهم اعلم واكثر تصديقاً له من بعض ، وان الايمان يزيد ولا ينقص وهذا قول الحسين ابن محمد النجار واصحابه .

و « الفرقة السابعة » الغيلانية اصحاب غيلان يزعمون : ان الايمان المعرفة بالله الثانية[1] ؛ والمحبة والخضوع والاقرار بما جاء به الرسول وبما جاء من عند الله ؛ وذلك ان المعرفة الاولى عنده اضطرار فلذلك لم يجعلها من الايمان وكل هؤلاء الذين حكينا قولهم : من « الشمرية » و « الجهمية » و « الغيلانية » و « النجارية » ينكرون ان يكون فى الكفار ايمان وان يقال فيهم بعض ايمان اذ كان الايمان لا يتبعض عندهم .

قال : و « الفرقة الثامنة » من المرجئة اصحاب محمد بن شبيب يزعمون : أن الايمان الاقرار بالله والمعرفة بأنه واحد ليس كمثله شيء . والاقرار والمعرفة بأنبيائه وبرسله وبجميع ما جاءت به من عند الله مما نص عليه المسلمون ونقلوه عن النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة والصيام ونحو ذلك لا نزاع بينهم فيه ، والخضوع لله وهو ترك الاستكبار عليه ، وزعموا أن إبليس قد عرف الله وأقر به ، وإنما كان كافراً لأنه استكبر ، ولولا استكباره ما كان كافراً ، وأن الايمان يتبعض ويتفاضل أهله ، وأن الخصلة من الايمان قد تكون طاعة وبعض إيمان ، ويكون صاحبها كافراً بترك بعض الايمان ولا يكون مؤمناً إلا باصابة الكل ، وكل رجل يعلم أن الله واحد ليس كمثله

(١) نسخة « التامة »

شيء ويجحد الأنبياء فهو كافر بجحده الأنبياء وفيه خصلة من الايمـان ، وهي معرفته بالله سبحانه .

« الفرقة التاسعة » : من المرجئـة المنتسبين الى ابي حنيفة وأصحابه يزعمون أن الايمـان المعرفة بالله وبالرسول والاقرار بما جاء من عند الله فى الجملة دون التفسير .

« الفرقة العاشرة » : من المرجئة أصحاب ابي معـاذ التومني يزعمون : أن الايمـان ترك ما عظم من الكبائر وهو اسم لخصال إذا تركها او ترك خصلة منها كان كافراً ، فتلك الخصلة التي يكفر بتركها إيمان ، وكل طاعة إذا تركها التارك لم يجمع المسلمون على تكفيره فتلك الطاعة شريعة من شرائع الايمان تاركهـا إن كانت فريضة يوصف بالفسق ، فيقال له انه يفسق ولا يسمى بالفسق ، ولا يقال فاسق وليست تخرج الكبـائر من الايمـان إذا لم تكن كفرا ، وتارك الفرائض مثل الصلاة والصيام والحج على الجحودبها ، والرد لها ، والأستخفاف بها كافر بالله ، وإنمـا كفر للاستخفاف والرد والجحود ، وإن تركهـا غير مستحل لتركها متشاغلاً مسوفاً يقول : الساعة أصلي ، واذا فرغت من لهوي وعملي فليس بكافر ، وان كان يصلي يوماً ووقتاً من الأوقات . ولـكن نفسقه . وكان ابو معاذ يقول : من قتل نبياً او لطمه كفر ، وليس من اجـل اللطمة كفر ، ولـكن من اجل الاستخفاف والعداوة والبغض له .

والفرقة «الحادية عشر» من المرجئة : أصحاب بشر المريسي ، يقولون : إن الايمان هو التصديق لأن الايمان فى اللغة هو التصديق وما ليس بتصديق فليس بايمان ، ويزعم أن التصديق يكون بالقلب وباللسان جميعاً ، والى هذا القول كان يذهب ابن الراوندي ، وكان ابن الراوندي يزعم ان الكفر هو الجحد ، والانكار والستر والتغطية ، وليس يجوز ان يكون الكفر الا ما كان فى اللغة كفراً ، ولا يجوز ايمان الا ما كان فى اللغة ايماناً ، وكان يزعم ان السجود للشمس ليس بكفر ، ولا السجود لغير الله كفر ، ولكنه علم على الكفر ، لأن الله بين انه لايسجد للشمس الا كافر .

قال و « الفرقة الثانية عشر » من المرجئة : الكرامية أصحاب محمد بن كرام يزعمون ان الايمان هو الاقرار والتصديق باللسان دون القلب ، وانكروا ان تكون معرفة القلب او شيء غير التصديق باللسان ايماناً . فهذه الاقوال التى ذكرها الأشعري عن المرجئة يتضمن أكثرها انه لابد فى الايمان من بعض اعمال القلوب عندهم وانما نازع فى ذلك فرقة يسيرة : كجهم والصالحي .

وقد ذكر ايضاً فى « المقالات » جملة قول اصحاب الحديث واهل السنة . قال : جملة ما عليه اصحاب الحديث واهل السنة : الاقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يردون من ذلك شيئاً ، وان الله إله واحد فرد صمد ، لم يتخذ صاحبة

ولا ولداً ، وان محمداً عبده ورسوله ، وان الجنة حق والنار حق ، وان الساعة آتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من فى القبور ، وان الله على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وان له يدين بلا كيف كما قال : (خلقت بيدي) وكما قال : (بل يداه مبسوطتان) وان له عينين كما قال : (تجري بأعيننا) وان له وجهاً كما قال : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) . وان اسماء الله لا يقال انها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج .

الى ان قال : ويقولون القرآن كلام الله غير مخلوق ، والكلام فى الوقف واللفظ بدعة ، من قال بالوقف او اللفظ فهو مبتدع عندهم ، لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق ، ولا يقال غير مخلوق . الى ان قال : ولا يكفرون احداً من اهل القبلة بذنب يرتكبه : كنحو الزنا والسرقة وما اشبه ذلك من الكبائر ، وهم بما معهم من الايمان مؤمنون وان ارتكبوا الكبائر ، والايمان عندهم : هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره حلوه ومره ، وان ما اخطأهم لم يكن ليصيبهم ، وما اصابهم لم يكن ليخطئهم ، والاسلام هو : ان تشهد ان لا اله الا الله على ماجاء في الحديث ، والأسلام عندهم غير الايمان .

الى ان قال : ويقرون بأن الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق . وذكر كلاماً طويلاً ثم قال فى آخره : وبكل ماذكرناه

من قولهم نقول : واليه نذهب. فهذا قوله في هذا الكتاب وافق فيه اهل السنة واصحاب الحديث بخلاف القول الذي نصره فى الموجز .

والمقصود هنا ان عامة فرق الأمة تدخل ما هو من اعمال القلوب ، حتى عامة فرق المرجئة تقول بذلك ، واما المعتزلة والخوارج واهل السنة واصحاب الحديث فقولهم فى ذلك معروف ، وانما نازع فى ذلك من اتبع جهم بن صفوان من المرجئة وهذا القول شاذ ، كما ان قول الكرامية الذين يقولون هو مجرد قول اللسان شاذ ايضاً .

وهذا ايضاً مما ينبغي الاعتناء به ، فان كثيراً ممن تكلم فى « مسألة الايمان » هل تدخل فيه الأعمال ؟ وهل هو قول وعمل ؟ يظن ان النزاع انما هو فى اعمال الجوارح ، وان المراد بالقول قول اللسان ، وهذا غلط ؛ بل القول المجرد عن اعتقاد الايمان ليس ايماناً باتفاق المسلمين ؛ فليس مجرد التصديق بالباطن هو الايمان عند عامة المسلمين الا من شذ من اتباع جهم والصالحي ، وفى قولهم من السفسطة العقلية والمخالفة فى الاحكام الدينية اعظم مما فى قول ابن كرام الا من شذ من اتباع ابن كرام ، وكذلك تصديق القلب الذي ليس معه حب لله ولا تعظيم بل فيه بغض وعداوة لله ورسله ليس ايماناً باتفاق المسلمين .

وقول ابن كرام فيه مخالفة فى الاسم دون الحكم فانه — وإن سمى المنافقين مؤمنين — يقول إنهم مخلدون فى النار ، فيخالف الجماعة فى الاسم دون الحكم ، واتباع جهم يخالفون فى الاسم والحكم جميعاً .

فصـــــل

إذا عرف ان أصل الايمان فى القلب ، فاسم « الايمان » تارة يطلق على مافي القلب من الأقوال القلبية والأعمال القلبية من التصديق والمحبة والتعظيم ونحو ذلك ، وتكون الأقوال الظاهرة والأعمال لوازمه وموجباته ودلائله . وتارة على ما فى القلب والبدن جعلا لموجب الايمان ومقتضاه داخلاً فى مسماه وبهذا يتبين ان الأعمال الظاهرة تسمى اسلاما، وانها تدخل فى مسمى الايمان تارة ولا تدخل فيه تارة .

وذلك ان الاسم الواحد تختلف دلالته بالافراد والاقتران . فقد يكون عند الافراد فيه عموم لمعنيين ، وعند الاقتران لا يدل الا على أحدهما ، كلفظ الفقير والمسكين ، إذا أفرد احدهما تناول الآخر ، وإذا جمع بينهما كان لكل واحد مسمى يخصه ، وكذلك لفظ المعروف والمنكر إذا أطلقا كما فى قوله تعالى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) دخل فيه الفحشاء والبغي ، وإذا قرن بالمنكر أحدهما كما فى قوله : (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)، اوكلاهما كما في قوله تعالى : (وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي) كان اسم المنكر مختصاً بما خرج من ذلك على قول ، او متناولا للجميع على قول — بناء على

ان الخاص المعطوف على العام هل يمنع شمول العام له ؟ او يكون قد ذكر مرتين. فيه نزاع ـــ والأقوال والأعمال الظاهرة (نتيجة) الأعمال الباطنة ولازمها .

واذا افرد اسم «الايمان» فقد يتناول هذا وهذا ، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلى الله ، وأدناها اماطة الاذى عن الطريق » . وحيئئذ فيكون الاسلام داخلا فى مسمى الايمان وجزءاً منه ، فيقال حينئذ : ان « الايمان » اسم لجميع الطاعات الباطنة والظاهرة . ومنه قوله صلى الله وعليه وسلم لوفد عبد القيس « آمركم بالايمان بالله ، اندرون ما الايمان بالله ؟ شهادة ان لا اله الا الله ؛ وان محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وتؤدوا خمس المغنم » اخرجاه فى الصحيحين .

ففسر الايمان هنا بما فسر به الاسلام لانه اراد بالشهادتين هنا ان يشهد بهما باطنا وظاهراً ، وكان الخطاب لوفد عبد القيس ، وكانوا من خيار الناس وهم اول من صلى الجمعة ببلدهم بعد جمعة اهل المدينة : كما قال ابن عباس : اول جمعة جمعت فى الاسلام بعد جمعة المدينة جمعة بجواثى ـــ قرية من قرى البحرين ـــ وقالوا يارسول الله ! ان بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ، وانا لا نصل اليك إلا فى شهر حرام ، فمرنا بأمر فصل نعمل به وندعو اليه من وراءنا ، وأرادوا بذلك « اهل نجد » من تميم وأسد وغطفان وغيرهم كانوا كفاراً ؛ فهؤلاء كانوا صادقين راغبين فى طلب الدين ، فاذا امرهم النبي صلى الله عليه

وسلم بأقوال واعمال ظاهرة فعلوها باطناً وظاهراً فكانوا بها مؤمنين .

واما اذا قرن الايمان بالاسلام : فان الايمان في القلب والاسلام ظاهر كما في « المسند » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الاسلام علانية والايمان في القلب ، والايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره » ومتى حصل له هذا الايمان ، وجب ضرورة ان يحصل له الاسلام الذي هو الشهادتان ، والصلاة والزكاة والصيام والحج؛ لأن ايمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الاستسلام لله . والانقياد له ، والا فمن الممتنع ان يكون قد حصل له الاقرار والحب والانقياد باطناً ولا يحصل ذلك فى الظاهر ، مع القدرة عليه كما يمتنع وجود الارادة الجازمة مع القدرة بدون وجود المراد .

وبهذا تعرف ان من آمن قلبه ايماناً جازماً امتنع أن لايتكلم بالشهادتين مع القدرة فعدم الشهادتين مع القدرة مستلزم انتفاء الايمان القلبي التام ؛ وبهذا يظهر خطأ جهم ومن اتبعه فى زعمهم ان مجرد ايمان بدون الايمان الظاهر ينفع فى الآخرة ؛ فان هذا ممتنع ، اذ لا يحصل الايمان التام فى القلب الا ويحصل فى الظاهر موجبه بحسب القدرة . فان من الممتنع ان يحب الانسان غيره حباً جازماً وهو قادر على مواصلته ، ولا يحصل منه حركة ظاهرة الى ذلك .

وابو طالب انما كانت محبته للنبي صلى الله عليه وسلم لقرابته منه ، لا لله وانما

نصره وذب عنه لحمية النسب والقرابة ؛ ولهذا لم يتقبل الله ذلك منه ، والا فلو كان ذلك عن ايمان فى القلب لتكلم بالشهادتين ضرورة ، والسبب الذي اوجب نصره للنبي صلى الله عليه وسلم — وهو الحمية — هو الذي اوجب امتناعه من الشهادتين بخلاف أبي بكر الصديق ونحوه قال الله تعالى (وسيجنبها الاتقى . الذي يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى . ولسوف يرضى) ومنشأ الغلط فى هذه المواضع من وجوه .

(احدها) أن العلم والتصديق مستلزم لجميع موجبات الايمان .

(الثاني) : ظن الظان ان مافى القلوب لايتفاضل الناس فيه .

(الثالث) ؛ ظن الظان أن مافي القلب من الايمان المقبول يمكن تخلف القول الظاهر والعمل الظاهر عنه .

(الرابع) : ظن الظان ان ليس فى القلب الا التصديق وأن ليس الظاهر الا عمل الجوارح . والصواب أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر ، وكلاهما مستلزم للباطن . و « المرجئة » اخرجوا العمل الظاهر عن الايمان ؛ فمن قصد منهم اخراج اعمال القلوب ايضاً وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين، ومن قصد اخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لاينفك عنه ، وانتفاء الظاهر دليل انتفاء الباطن ،

فبقى النزاع فى ان العمل الظاهر هـل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن ، او لازم لمسمى الايمان .

و « التحقيق » انـه تارة يدخل فى الاسم وتـارة يكون لازماً للمسمى ـ بحسب افراد الاسم واقترانه ـ فاذا قرن الايمـان بالاسـلام كان مسمى الأسلام خارجا عنه ، كما فى حديث جبريل ، وان كان لازمـاً له ، وكذلك اذا قرن الايمان بالعمل كما فى قوله : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فقـد يقال : اسم الايمـان لم يدخل فيـه العمل وان كان لازما له ؛ وقد يقال : بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العـامّ ؛ وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الايمان وتصديق له ، ولهذا قال طائفة من العلماء ـ كالشيخ أبي اسماعيل الأنصاري ، وغيره ـ : الايمان كله تصديق فالقلب يصدق ماجاءت به الرسل واللسان يصدق مافى القلب ، والعمل يصدق القول ، كما يقال : صدق عمله قوله . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسـلم « العينان تزنيان وزناهما النظر ، والاذنان تزنيان وزناهما السمع ، واليد تزني وزناهـا البطش ، والرجل تزني وزناها المشي ، والقلب يتمنى ويشتهي ، والفرج يصدق ذلـك أو يكذبه » والتصديق يستعمل فى الخبر ، وفى الارادة ، يقال : فلان صادق العزم وصادق المحبة ، وحملوا حملة صادقة .

و « السلف » اشتد نكيرهم على المرجئة لما أخرجوا العمل من الأيمان ، وقالوا إن الايمان يتماثل الناس فيه ، ولا ريب ان قولهم بتساوى ايمان الناس

من الخش الخطأ ، بل لا يتساوى الناس في التصديق ، ولا فى الحب ، ولا في الخشية ، ولا فى العلم ؛ بل يتفاضلون من وجوه كثيرة .

و « ايضا » فاخراجهم العمل يشعرانهم اخرجوا اعمال القلوب ايضاً،وهذا باطل قطعاً ، فان من صدق الرسول وابغضه وعاداه بقلبه وبدنه فهو كافر قطعا بالضرورة ، وان ادخلوا اعمال القلوب في الايمان اخطأوا ايضاً ؛ لامتناع قيام الايمان بالقلب من غير حركة بدن .

وليس المقصود هنا ذكر عمل معين ؛ بل من كان مؤمناً بالله ورسولهبقلبه هل يتصور إذا رأى الرسول واعداءه يقاتلونه ، وهو قادر على ان ينظر اليهم ويحض على نصر الرسول بما لا يضره هل يمكن مثل هـذا فى العادة إلا ان يكون منه حركة ما الى نصر الرسول ؟ فمن المعلوم ان هذا ممتنع ؛ فلهذا كان الجهاد المتعين بحسب الامكان من الايمان ، وكان عدمه دليلا على انتفـاء حقيقـة الايمان ، بل قد ثبت فى الصحيح عنه « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة نفاق » وفى الحـديث دلالة على انه يكون فيه بعض شعب النفاق ، مع ما معه من الايمان ، ومنه قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون) .

و « ايضاً » فقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انـه قال

« من راى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » وفى رواية « وليس وراء ذلك من الايمان مثقال حبة خردل».
فهذا يبين أن القلب إذا لم يكن فيه بغض ما يكرهه الله من المنكرات كان عادما للايمان،والبغض والحب من أعمال القلوب . ومن المعلوم أن إبليس ونحوه يعلمون ان الله عز وجل حرم هذه الامور ولا يبغضونها بل يدعون إلى ما حرم الله ورسوله .

و « أيضا » فهؤلاء القائلون بقول جهم والصالحي قد صرحوا بأن سب الله ورسوله ؛ والتكلم بالتثليث وكل كلمة من كلام الكفر ليس هو كفراً فى الباطن ولكنه دليل فى الظاهر على الكفر ويجوز مع هذا أن يكون هذا الساب الشاتم فى الباطن عارفا بالله موحدا له مؤمنا به فاذا اقيمت عليهم حجة بنص او اجماع ان هذا كافر باطنا وظاهرا . قالوا : هذا يقتضي ان ذلك مستلزم للتكذيب الباطن وأن الايمان يستلزم عدم ذلك ؛ فيقال لهم : معنا امران معلومان .

(أحدهما) : معلوم بالاضطرار من الدين . و (الثاني) ، معلوم بالاضطرار من أنفسنا عند التأمل .

أما « الأول » : فانا نعلم ان من سب الله ورسوله طوعا بغير كره ؛ بل من تكلم بكلمات الكفر طائعاً غير مكره ، ومن استهزأ بالله وآياته ورسوله فهو

كافر باطناً وظاهراً ، وان من قال : ان مثل هذا قد يكون في الباطن مؤمنـاً بالله وانما هو كافر في الظاهر ، فانه قال قولاً معلوم الفساد بالضرورة من الدين. وقد ذكر الله كلمات الكفار في القرآن وحكم بكفرهم واستحقاقهم الوعيد بها ، ولو كانت أقوالهم الكفرية بمنزلة شهادة الشهود عليهم ، او بمنزلة الاقرار الذي يغلط فيه المقر لم يجعلهم الله من اهـل الوعيد بالشهادة التى قد تكون صدقاً ، وقد تكون كذباً ، بل كان ينبغي ان لا يعذبهم الا بشرط صدق الشهادة وهذا كقوله تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) وأمثال ذلك .

وأما « الثـاني » : فالقلب اذا كان معتقداً صدق الرسول ، وانه رسول الله ، وكان محباً لرسول الله معظماً له ، امتنع مع هذا ان يلعنه ويسبه فلايتصور ذلك منه إلا مع نوع من الاستخفاف به وبحرمته ، فعلم بذلك ان مجرد اعتقاد انه صادق لا يكون إيماناً الا مع محبته وتعظيمه بالقلب .

و « ايضـاً » فان الله سبحـانه قال : (الم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) وقال : (ومـن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقـد استمسك بالعروة الوثقى) فتبين ان الطاغوت يؤمن به ويكفر به . ومعلوم ان مجرد التصديق بوجوده وما هو عليه من الصفات يشترك فيه المؤمن والكافر ؛ فان الأصنام والشيطان والسحر يشترك في العلم بحاله المؤمن والكافر. وقد قال الله تعالى فى السحر : (حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون

منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) الى قوله : (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) فهؤلاء الذين اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، يعلمون انه لا خلاق لهم فى الآخرة ومع هذا فيكفرون .

وكذلك المؤمن بالجبت والطاغوت إذا كان عالماً بما يحصل بالسحر من التفريق بين المرء وزوجه ونحو ذلك من الجبت، وكان عالماً بأحوال الشيطان والأصنام وما يحصل بها من الفتنة لم يكن مؤمناً بها مع العلم بأحوالها . ومعلوم انه لم يعتقد احد فيها انها تخلق الأعيان ; وانها تفعل ما تشاء ونحو ذلك من خصائص الربوبية ، ولكن كانوا يعتقدون انه يحصل بعبادتها لهم نوع من المطالب، كما كانت الشياطين تخاطبهم من الأصنام وتخبرهم بأمور . وكما يوجد مثل ذلك فى هذه الأزمان في الأصنام التى يعبدها اهل الهند والصين والترك وغيرهم ، وكان كفرهم بها الخضوع لها والدعاء والعبادة واتخاذها وسيلة ونحو ذلك ، لا مجرد التصديق بما يكون عند ذلك من الآثار ، فان هذا يعلمه العالم من المؤمنين ويصدق بوجوده ، لكنه يعلم ما يترتب على ذلك من الضرر فى الدنيا والآخرة فيبغضه ; والكافر قد يعلم وجود ذلك الضرر لكنه يحمله حب العاجلة على الكفر .

يبين ذلك قوله : (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم .

ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وان الله لا يهدي القوم الكافرين. اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم واولئكهم الغافلون .لاجرم أنهم في الآخرة هم الاخسرون) فقد ذكر تعالى من كفر بالله من بعد ايمانه وذكر وعيده فى الآخرة ، ثم قال (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة). وبين تعالى ان الوعيد استحقوه بهذا. ومعلوم ان باب التصديق والتكذيب والعلم والجهل ليس هو من باب الحب والبغض ، وهؤلاء يقولون إنما استحقوا الوعيد لزوال التصديق والايمان من قلوبهم ، وان كان ذلك قد يكون سببه حب الدنيا على الآخرة ، والله سبحانه وتعالى جعل استحباب الدنيا على الآخرة هو الأصل الموجب للخسران ، واستحباب الدنيا على الآخرة قد يكون مع العلم والتصديق بأن الكفر يضر فى الاخرة ، وبأنه ماله فى الآخرة من خلاق .

و « ايضاً » فانه سبحانه استثنى المكره من الكفار ، ولو كان الكفر لايكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره ؛ لأن الاكراه على ذلك ممتنع فعلم ان التكلم بالكفر كفر لا فى حال الاكراه .

وقوله تعالى : (ولكن من شرح بالكفر صدراً) أي : لاستحبابه الدنيا على الآخرة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » والآية نزلت فى عمار بن ياسر ، وبلال بن رباح ، وأمثالهما من المؤمنين .

المستضعفين لما أكرههم المشركون على سب النبي صلى الله عليه وسلم، ونحو ذلك من كلمات الكفر فمنهم من اجاب بلسانه كعمار، ومنهم من صبر على المحنة كبلال، ولم يكره احد منهم على خلاف مافى قلبه بل أكرهوا على التكلم، فمن تكلم بدون الاكراه، لم يتكلم إلا وصدره منشرح به .

وأيضاً فقد جاء نفر من اليهود الى النبي، فقالوا : نشهد انك لرسول، ولم يكونوا مسلمين بذلك؛ لأنهم قالوا ذلك على سبيل الاخبار عما فى أنفسهم أي نعلم ونجزم أنك رسول الله، قال : «فلم لاتتبعوني»؟ قالوا : نخاف من يهود فعلم أن مجرد العلم والاخبار عنه ليس بايمان حتى يتكلم بالايمان على وجه الانشاء المتضمن للالتزام والانقياد مع تضمن ذلك الاخبار عما فى انفسهم .

فالمنافقون قالوا مخبرين كاذبين، فكانوا كفاراً فى الباطن، وهؤلاء قالوها غير ملتزمين ولا منقادين، فكانوا كفاراً في الظاهر والباطن، وكذلك ابو طالب قد استفاض عنه انه كان يعلم بنبوة محمد وأنشد عنه :

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لكن امتنع من الاقرار بالتوحيد والنبوة حباً لدين سلفه، وكراهة ان يعيره قومه، فلما لم يقترن بعلمه الباطن الحب والانقياد الذي يمنع مايضاد ذلك من حب الباطل وكراهة الحق لم يكن مؤمناً .

واما ابليس وفرعون واليهود ونحوهم فما قام بأنفسهم من الكفر وإرادة العلو والحسد منع من حب الله . وعبادة القلب له الذي لايتم الايمان إلا به وصار فى القلب من كراهية رضوان الله واتباع ما اسخطه ماكان كفراً لاينفع معه العلم .

فصـــــل

والتفاضل فى الايمان بدخول الزيادة والنقص فيه يكون من وجوه متعددة :

(احدها) الأعمال الظاهرة ؛ فان الناس يتفاضلون فيها ، وتزيد وتنقص وهذا مما اتفق الناس على دخول الزيادة فيه والنقصان ، لكن نزاعهم فى دخول ذلك فى مسمى الايمان . فالنفاة يقولون هو من ثمرات الايمان، ومقتضاه فأدخل فيه مجازاً بهذا الاعتبار وهذا معنى زيادة الايمان عندهم ونقصه ، اي زيادة ثمراته ونقصانها ، فيقال قد تقدم ان هذا من لوازم الايمان وموجباته، فانه يمتنع ان يكون ايمان تام فى القلب بلا قول ولا عمل ظاهر ، واما كونه لازماً او جزءاً منه فهذا يختلف بحسب حال استعمال لفظ الايمان مفرداً او مقروناً بلفظ الاسلام ، والعمل كما تقدم .

واما قولهم الزيادة فى العمل الظاهر لا فى موجبه ومقتضيه فهذا غلط ،

فان التفاضل معلول الأشياء . ومقتضاها يقتضى تفاضلها فى انفسها ، وإلا فاذا تماثلت الأسباب الموجبة لزم تماثـل موجبهـا ومقتضاهـا ، فتفاضل الناس فى الأعمال الظاهرة يقتضى تفاضلهم فى موجب ذلـك ، ومقتضيـه ومن هـذا يتبين :

- (الوجه الثاني) : فى زيادة الايمان ونقصه : وهو زيادة اعمـال القلوب ونقصها فانه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن ، ان الناس يتفاضـلون فى حب الله ورسوله وخشية الله والانابة اليه والتوكل عليـه والاخلاص له ، وفى سلامة القلوب من الرياء ، والكبر والعجب ، ونحو ذلك ، والرحمة للخلق والنصح لهم ونحو ذلك من الاخلاق الايمانية ، وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ، من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله ، ومن كان يكره ان يرجع فى الكفر بعد إذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار » وقال تعالى : (قل إن كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم) الى قوله: (احب اليـكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله انى لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده » وقال : « لايؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين » وقال له عمر يارسول الله ! لأنت احب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، قال: لا ياعمر ! حتى اكون احب إليك من نفسك ، قال : فلأنت احب إلي من نفسي ، قال : الآن ياعمر ! » .

وهذه الاحاديث ونحوها فى الصحاح ، وفيها بيان تفاضل الحب والخشية وقد قال تعالى : (والذين آمنوا اشد حباً لله) وهذا امر يجده الانسان فى نفسه فانه قد يكون الشيء الواحد يحبه تارة أكثر مما يحبه تارة ، ويخافه تارة أكثر مما يخافه تارة ، ولهذا كان اهل المعرفة من اعظم الناس قولاً بدخول الزيادة والنقصان فيه ، لما يجدون من ذلك فى انفسهم ، ومن هذا قوله تعالى : (الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم . فزادهم ايماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل) وإنما زادهم طمأنينة وسكوناً .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اكمل المؤمنين إيماناً احسنهم خلقاً » .

(الوجه الثالث) : ان نفس التصديق والعلم فى القلب يتفاضل باعتبار الاجمال والتفصيل ، فليس تصديق من صدق الرسول مجملاً من غير معرفة منه بتفاصيل اخباره ، كمن عرف ما اخبر به عن الله واسمائه وصفاته ، والجنة والنار والأمم وصدته فى ذلك كله ، وليس من التزم طاعته مجملاً ، ومات قبل ان يعرف تفصيل ما امره به كمن عاش حتى عرف ذلك مفصلاً واطاعه فيه .

(الوجه الرابع) : ان نفس العلم والتصديق يتفاضل ويتفاوت كما يتفاضل سائر صفات الحي من القدرة ، والارادة ، والسمع والبصر ، والكلام ، بل سائر الاعراض من الحركة والسواد والبياض ونحو ذلك ؛ فاذا كانت القدرة على الشيء تتفاوت فكذلك الاخبار عنه يتفاوت ، واذا قال القائل العلم بالشيء

الواحد لا يتفاضل كان بمنزلة قوله القدرة على المقدور الواحد لاتفاضل وقوله ورؤية الشيء الواحد لاتتفاضل ومن المعلوم ان الهلال المرئى يتفاضل الناس فى رؤيته ، وكذلك سمع الصوت الواحد يتفاضلون فى إدراكه ، وكذلك الكلمة الواحدة يتكلم بها الشخصان ويتفاضلون فى النطق بها، وكذلك شم الشيء الواحد وذوقه يتفاضل الشخصان فيه .

فما من صفة من صفات الحي وانواع ادراكاته ، وحركاته ، بل وغير صفات الحي ، إلا وهي تقبل التفاضل والتفاوت الى مالا يحصره البشر ، حتى يقال : ليس احد من المخلوقين يعلم شيئاً من الأشياء مثل مايعلمه الله من كل وجه ، بل علم الله بالشيء اكمل من علم غيره به كيف ماقدر الأمر ، وليس تفاضل العلمين من جهة الحدوث والقدم فقط ؛ بل من وجوه اخرى . والانسان يجد فى نفسه ان علمه بمعلومه يتفاضل حاله فيه كما يتفاضل حاله فى سمعه لمسموعه ؛ ورؤيته لمرئيه ، وقدرته على مقدوره ، وحبه لمحبوبه ، وبغضه لبغيضه ، ورضاه بمرضيه ، وسخطه لمسخوطه وإرادته لمراده وكراهيته لمكروهه ومن انكر التفاضل في هذه الحقائق كان مسفسطاً .

(الوجه الخامس) : ان التفاضل يحصل من هذه الأمور من جهة الأسباب المقتضية لها ؛ فمن كان مستند تصديقه ومحبته أدلة توجب اليقين ، وتبين فساد الشبهة العارضة ، لم يكن بمنزلة من كان تصديقه لأسباب دون ذلك، بل من جعل له علوم ضرورية لا يمكنه دفعها عن نفسه لم يكن بمنزلة من تعارضه

الشبه ويريد إزالتها بالنظر والبحث ، ولا يستريب عاقل أن العلم بكثرة الأدلة وقوتها ، وبفساد الشبه المعارضة لذلك ، وبيان بطلان حجة المحتج عليها ليس كالعلم الذي هو الحاصل عن دليل واحد من غير أن يعلم الشبه المعارضة له ؛ فإن الشيء كلما قويت أسبابه وتعددت وانقطعت موانعه واضمحلت كان أوجب لكماله ، وقوته وتمامه .

(الوجه السادس) : أن التفاضل يحصل في هذه الامور من جهة دوام ذلك وثباته وذكره واستحضاره ، كما يحصل البغض من جهة الغفلة عنه والاعراض والعلم والتصديق والحب والتعظيم وغير ذلك ، فما فى القلب هي صفات وأعراض وأحوال تدوم وتحصل بدوام أسبابها وحصول أسبابها . والعلم وان كان في القلب فالغفلة تنافى تحققه . والعالم بالشيء فى حال غفلته عنه دون العالم بالشيء فى ذكره له . قال عمير بن حبيب الخطمي من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : الايمان يزيد وينقص ، قالوا : وما زيادته ونقصه ؟ قال: إذا حمدنا الله وذكرناه وسبحناه فذلك زيادته ، فاذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه .

(الوجه السابع) أن يقال : ليس فيما يقوم بالانسان من جميع الامور أعظم تفاضلاً وتفاوتاً من الايمان ، فكلما تقرر اثباته من الصفات والافعال مع تفاضله ، فالايمان أعظم تفاضلاً من ذلك . مثال ذلك أن الإنسان يعلم من نفسه تفاضل الحب الذي يقوم بقلبه ، سواء كان حباً لولده او لامرأته

او لرياسته او وطنه او صديقه او صورة من الصور او خيله او بستانه او ذهبه او فضته وغير ذلك من أمواله ، فكما ان الحب اوله علاقة لتعلق القلب بالمحبوب، ثم صبابة لانصباب القلب نحوه ، ثم غرام للزومه القلب كما يلزم الغريم غريمه ، ثم يصير عشقاً الى ان يصير تتيماً — والتتيم التعبد وتيم الله عبد الله — فيصير القلب عبداً للمحبوب مطيعاً له لايستطيع الخروج عن امره ، وقد آل الامر بكثير من عشاق الصور الى ماهو معروف عند الناس ، مثل من حمله ذلك على قتل نفسه وقتل معشوقه او الكفر والردة عن الاسلام او افضى به الى الجنون وزوال العقل ، او اوجب خروجه عن المحبوبات العظيمة من الاهل والمال والرياسة او أمراض جسمه واسنانه .

فمن قال الحب لايزيد ولا ينقص كان قوله من اظهر الاقوال فساداً ، ومعلوم ان الناس يتفاضلون فى حب الله أعظم من تفاضلهم فى حب كل محبوب، فهو سبحانه اتخذ ابراهيم خليلاً ، واتخذ محمداً ايضاً خليلاً ، كما استفاض عنه انه قال : « لو كنت متخذاً خليلاً من اهل الارض لاتخذت ابا بكر خليلاً ؛ ولكن صاحبكم خليل الله » يعنى نفسه صلى الله عليه وسلم . وقال : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً » والخلة أخص من مطلق المحبة ، فان الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين يحبون الله ويحبهم الله ، كما قال : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) الآية . وقال تعالى : (والذين آمنوا اشد حباً لله) وقد اخبر الله انه يحب المتقين ، ويحب المقسطين ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ويحب

الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخبر بحبه لغير واحد كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح انه قال للحسن واسامة : « اللهم اني احبهما فأحبهما وأحب من يحبهما » وقال له عمرو بن العاص أي الناس احب إليك ؟ قال : عائشة ، قال فمن الرجال ؟ قال : أبوها ». وقال : « والله إني لأحبكم » .

والناس فى حب الله يتفاوتون ما بين افضل الخلق محمد وابراهيم إلى ادنى الناس درجة ، مثل من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ومابين هذين الحدين من الدرجات لا يحصيه إلا رب الارض والسموات ، فانه ليس فى أجناس المخلوقات ما يتفاضل بعضه على بعض كبنى آدم فان الفرس الواحدة ما تبلغ ان تساوي ألف ألف ، وقد ثبت فى الصحيحين من حديث ابي ذر انه كان جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ مر به رجل من اشراف الناس ، فقال : « يا ابا ذر اتعرف هذا ؟ » قلت : نعم يارسول الله ! هذا حرى إن خطب ان ينكح ، وان قال ان يسمع لقوله ، وإن غاب ان يسأل عنه ، ثم مر برجل من ضعفاء المسلمين ، فقال : « يا ابا ذر ! اتعرف هذا ؟ » قلت : نعم يا رسول الله ! هذا رجل من ضعفاء الناس ، هذا حرى إن خطب ان لا ينكح ، وان قال ان لايسمع لقوله ، وان غاب انلايسأل عنه ، فقال: « يا ابا ذر ! لهذا خير من ملء الارض مثل هذا » .

فقد اخبر الصادق الذي لا يجاوز فيما يقول : ان الواحد من بنى آدم

يكون خيراً من ملء الارض من الآدميين ، وإذا كان الواحد منهم افضل من الملائكة ، والواحد منهم شر من البهائم كان التفاضل الذي فيهم اعظم من تفاضل الملائكة . واصل تفاضلهم إنما هو بمعرفة الله ومحبته ، فعلم ان تفاضلهم فى هذا لا يضبطه الا الله ، وكل ما يعلم من تفاضلهم فى حب الشيء من محبوباتهم فتفاضلهم فى حب الله اعظم .

وهكذا تفاضلهم فى خوف ما يخافونه ، وتفاضلهم فى الذل والخضوع لما يذلون له ويخضعون ، وكذلك تفاضلهم فيما يعرفونه من المعروفات ، ويصدقون به ويقرون به ، فان كانوا يتفاضلون فى معرفة الملائكة وصفاتهم ، والتصديق بهم فتفاضلهم فى معرفة الله وصفاته ، والتصديق به اعظم .

وكذلك إن كانوا يتفاضلون في معرفة روح الانسان وصفاتها والتصديق بها ، او فى معرفة الجن وصفاتهم وفى التصديق بهم ، او فى معرفة ما فى الآخرة من النعيم والعذاب — كما اخبروا به من المأكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات والمسكونات — فتفاضلهم في معرفة الله وصفاته والتصديق به اعظم من تفاضلهم فى معرفة « الروح » التى هي النفس الناطقة . ومعرفة ما في الآخرة من النعيم والعذاب ؛ بل ان كانوا متفاضلين فى معرفة ابدانهم وصفاتها وصحتها ومرضها وما يتبع ذلك فتفاضلهم فى معرفة الله اعظم واعظم ؛ فان كل ما يعلم ويقال يدخل فى معرفة الله ، إذ لا موجود الا وهو خلقه وكل ما فى المخلوقات من الصفات والأسماء والأقدار والافعال فانها شواهد ودلائل على

ما لله سبحانه من الاسماء الحسنى والصفات العلى ، اذ كل كمال فى المخلوقات فمن اثر كماله ، وكل كمال ثبت لمخلوق فالخالق احق به ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق فالخالق احق بتنزيهه عنه ، وهذا على طريق كل طائفة واصطلاحها . فهذا يقول كمال المعلول من كمال علته ، وهذا يقول كمال المصنوع المخلوق من كمال صانعه وخالقه .

وفى الحديث الذي رواه احمد فى المسند ورواه ابن حبان فى صحيحه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما اصاب عبداً هم ولاحزن فقال : اللهم اني عبدك ، ابن امتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، او انزلته فى كتابك ، او علمته احداً من خلقك ، او استأثرت به فى علم الغيب عندك ، ان تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي الا اذهب الله همه وحزنه وابدله مكانه فرحاً » . قالوا : يا رسول الله ! الا نتعلمهن ؟ قال : « بلى ينبغي لمن سمعهن ان يتعلمهن » .

فقد اخبر فى هذا الحديث ان لله اسماء استأثر بها في علم الغيب عنده ، واسماء الله متضمنة لصفاته ليست اسماء اعلام محضة ، بل اسماؤه تعالى : كالعليم والقدير والسميع والبصير والرحيم والحكيم ونحو ذلك كل اسم يدل على ما لم يدل عليه الأسم الآخر من معانى صفاته مع اشتراكها كلها فى الدلالة على ذاته ، واذا كان من اسمائه ما اختص هو بمعرفته ، ومن اسمائه ما خص به

من شاء من عباده ، علم ان تفاضل الناس في معرفته اعظم من تفاضلهم في معرفة كل ما يعرفونه .

وبهذا يتبين لك ان من زعم من اهل الكلام والنظر انهم عرفوا الله حق معرفته ، بحيث لم يبق له صفة الا عرفوها ، وان ما لم يعرفوه ولم يقم لهم دليل على ثبوته كان معدوماً منتف في نفس الامر ، قوم غالطون مخطئون مبتدعون ضالون وحجتهم فى ذلك داحضة ، فان عدم الدليل القطعي والظني على الشيء دليل على انتفائه إلا أن يعلم ان ثبوته مستلزم لذلك الدليل . مثل ان يكون الشيء لو وجد لتوفرت الهمم والدواعي على نقله ، فيكون هذا لازماً لثبوته ، فيستدل بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم ؛ كما يعلم انه لو كان بين الشام والحجاز مدينة عظيمة مثل بغداد ومصر لكان الناس ينقلون خبرها ، فاذا نقل ذلك واحد واثنان وثلاثة علم كذبهم .

وكما يعلم انه لو ادعى النبوة أحد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مثل مسليمة والعنسي وطليحة وسجاح لنقل الناس خبره كما نقلوا أخبار هؤلاء ، ولو عارض القرآن معارض أتى بما يظن الناس انه مثل القرآن ، لنقل كما نقل قرآن مسليمة الكذاب ، وكما نقلوا الفصول والغايات لأبي العلاء المعري وكما نقلوا غير ذلك من اقوال المعارضين لو بخرافات لا يظن عاقل انها مثله ، فكان النقل لما تظهر فيه المشابهة والمماثلة أقوى في العادة والطباع فى ذلك وأرغب ـــ سواء كانوا محبين او مبغضين ـــ هذا امر جبل عليه بنوا آدم .

كما يعلم ان علي بن ابى طالب لو طلب الخلافة على عهد ابى بكر وعمر وعثمان وقاتل عليها لنقل ذلك الناس كما نقلوا ما جرى بعد هؤلاء ؛ كما يعلم ان النبي صلى الله عليه وسلم لو امره ان يصلي بالناس صلاتهم لنقلوا ذلك، كما نقلوا امره لابى بكر وصلاته بالناس ، وكما يعلم انه لو عهد له بالخلافة لنقلوا ذلك كما نقلوا ما دونه ؛ بل كما يعلم انه لم يكن يجتمع هو واصحابه على استماع دف او كف ولا على رقص وزمر ؛ بل كما يعلم انه لم يكن بعد الصلوات يجتمع هو وهم على دعاء ورفع أيد، ونحو ذلك ، إذ لو فعل ذلك لنقلوه ، بل كما يعلم انه لم يصل فى السفر الظهر والعصر والعشاء اربعا ، وانه لو صلى فى السفر اربعا بعض الاوقات لنقل الناس ذلك كما نقلوا جمعه بين الصلاتين بعض الاوقات .

بل كما يعلم انه لم يكن يصلي المكتوبات وحده بل انما كان يصليهن في الجماعة ؛ بل كما يعلم انه لم يكن هو واصحابه يحملون التراب فى السفر للتيمم ، ولا يصلون كل ليلة على من يموت من المسلمين ، ولا ينوون الاعتكاف كلما دخلوا مسجدا للصلاة ؛ بل كما يعلم انه لم يصل على غائب غير النجاشي ؛ بل كما يعلم انه لو كان دائما يقنت فى الفجر او غيرها بقنوت مسنون يجهر به لنقل الناس ذلك ـــ كما نقلوا قنوته العارض الذي دعا فيه لقوم وعلى قوم ، وكان نقلهم لذلك اوكد ـــ وكما يعلم انه لما صلى بعرفة ومزدلفة قصراً وجمعا لو امر احداً خلفه ان يتم صلاته او ان لا يجمع معه لنقل الناس ذلك كما نقلوا ما هو دون ذلك .

وكما يعلم انه لم يأمر الحيض في زمانه المبتدآت بالحيض ان يغتسلن عند انقضاء يوم وليلة ، وانه لم يأمر أصحابه ان يغسلوا ما يصيب ابدانهم وثيابهم من المني ، وانه لم يوقت للناس لفظاً معيناً لا فى نكاح ولا فى بيع ولا إجارة ولا غير ذلك ولما حج حجة الوداع لم يعتمر عقيب الحج ، وانه لما افاض من منى الى مكة يوم النحر ما طاف وسعى اولا ثم طاف ثانياً الى غير ذلك مما يطول ذكره . ومن تتبع كتب الصحيحين ونحوها من الكتب المعتمدة ، ووقف على اقوال الصحابة والتابعين ومن قفا منهاجهم من الأئمة المرضيين — قديما وحديثا — علم صحة ما اوردناه فى هذا الباب .

و (المقصود هنا) ان المدلول اذا كان وجوده مستلزما لوجود دليله كان انتفاء دليله دليلا على انتفائه ، اما اذا امكن وجوده وامكن ان لا نعلم نحن دليل ثبوته لم يكن عدم علمنا بدليل وجوده دليلاً على عدمه ، فأسماء الله وصفاته اذا لم يكن عندنا ما يدلنا عليها لم يكن ذلك مستلزما لانتفائها اذ ليس في الشرع ولا في العقل ما يدل على انا لا بد ان نعلم كل ما هو ثابت له تعالى من الأسماء والصفات ، بل قد قال افضل الخلق واعلمهم بالله فى الحديث الصحيح «لا احصى ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك » وفى الحديث الصحيح حديث الشفاعة « فأخر ساجداً فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا احصيها الآن » .

فاذا كان افضل الخلق لا يحصى ثناء عليه ، ولا يعرف الآن محامده التى يحمده بها عند السجود للشفاعة ؛ فكيف يكون غيره عارفا بجميع محامد الله

والثناء عليه وكل ما له من الأسماء الحسنى ، فانه داخل فى محامده وفيما يثنى عليه به واذا كان كذلك فمن كان بماله من الأسماء والصفات اعلم واعرف كان بالله اعلم واعرف ؛ بل من كان بأسماء النبي صلى الله عليه وسلم وصفاته اعلم ، كان بالنبي صلى الله عليه وسلم اعلم ،فليس من علم انه نبي كمن علم انه رسول ولا من علم انه رسول كمن يعلم انه خاتم الرسل ،ولا من علم انه خاتم الرسل كمن علم انه سيد ولد آدم ،ولا من علم ذلك كمن علم ما خصه الله به من الشفاعة والحوض والمقام المحمود والملة وغير ذلك من فضائله صلى الله عليه وسلم ، وليس كل من جهل شيئا من خصائصه يكون كافراً ، بل كثير من المؤمنين لم يسمع بكثير من فضائله وخصائصه ، فكذلك ليس كل من جهل بعض اسماء الله وصفاته يكون كافراً ، اذ كثير من المؤمنين لم يسمع كثيراً مما وصفه به رسوله ، واخبر به عنه .

فهذه الوجوه ونحوها مما تبين تفاضل الايمان الذي فى القلب ؛ واما تفاضلهم فى الاقوال والاعمال الظاهرة فلا تشتبه على احد والله اعلم .

فصـــــل

اذا تبين هذا وعلم ان الايمان الذي فى القلب من التصديق والحب وغير ذلك يستلزم الامور الظاهرة من الاقوال الظاهرة ، والاعمال الظاهرة ؛ كما ان القصد التام مع القدرة يستلزم وجود المراد ، وانه يمتنع مقام الايمان الواجب فى القلب من غير ظهور موجب ذلك ومقتضاه ، زالت « الشبه العلمية » فى هذه المسألة ، ولم يبق الا « نزاع لفظي » فى ان موجب الايمان الباطن هل هو جزء منه داخل في مسماه فيكون لفظ الايمان دالا عليه بالتضمن والعموم ؟ او هو لازم للايمان ، ومعلول له وثمرة له ، فتكون دلالة الايمان عليه بطريق اللزوم ؟

و « حقيقة الامر » ان اسم الايمان يستعمل تارة هكذا وتارة هكذا ، كما قد تقدم، فاذا قرن اسم الايمان بالاسلام او العمل كان دالا على الباطن فقط . وان افراد اسم الايمان فقد يتناول الباطن والظاهر ، وبهذا تأتلف النصوص . فقوله : « الايمان بضع وسبعون شعبة : اعلاها قول لا إله إلا الله ، وادناها اماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان » . افرد لفظ الايمان فدخل فيه الباطن والظاهر ، وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل : « الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » ذكره مع قوله صلى الله عليه وسلم : « الاسلام ان تشهد الا اله الا الله وأن محمداً رسول

الله.وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاةوتصوم رمضان، وتحج البيت » فلما افرده عن اسم الاسلام ذكر مايخصه الاسم فى ذاك الحديث مجرداً عن الاقتران . وفى هذا الحديث مقرون باسم الاسلام ، وقوله تعالى : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) دخل فيه الباطن فلو أتى بالعمل الظاهر دون الباطن لم يكن ممن اتى بالدين الذي هو عند الله الاسلام .

واما اذا قرن الأسلام بالايمان كما في قوله تعالى : (قالت الاعراب آمنا قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : اسلمنا) وقوله : (فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) وقوله تعالى : (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) فقد يراد بالاسلام الأعمال الظاهرة كما فى حديث انس الذي في المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الاسلام علانية والايمان في القلب » . ومن علم ان دلالة اللفظ تختلف بالافراد والاقتران ، كمافي اسم الفقير والمسكين والمعروف والمنكر والبغي وغير ذلك من الأسماء ، وكما في لغات سائر الأمم ؟ عربها وعجمها ، زاحت عنه الشبهة في هذا الباب والله اعلم .

فان قال قائل : اسم « الايمان » إنما يتناول الأعمال مجازاً ، قيل : « اولاً » ليس هذا بأولى ممن قال : انما تخرج عنه الأعمال مجازاً ، بل هذا اقوى لأن خروج العمل عنه انما هو اذا كان مقروناً باسم الاسلام والعمل، واما دخول العمل فيه فاذا افرد كما في قوله صلى الله عليه وسلم : « الايمان بضع وسبعون شعبة

اعلاها قول لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان » فانما يدل مع الاقتران اولى باسم المجاز مما يدل عند التجريد والاطلاق .

وقيل له « ثانياً » لانزاع فى ان العمل الظاهر هوفرع عن الباطن وموجب له ومقتضاه ؛ لكن هل هو داخل فى مسمى الاسم وجزءمنه ؛اوهو لازم للمسمى كالشرط المفارق ، والموجب التابع ؟ ومن المعلوم ان الأسماء الشرعية والدينية : كاسم « الصلاة » و « الزكاة » و « الحج » ونحو ذلك هي باتفاق الفقهاء اسم لمجموع الصلاة الشرعية والحج الشرعي ، ومن قال ان الاسم إنما يتناول مايتناوله عند الاطلاق فى اللغة . وأنما زاده الشارع إنما هو زيادة فى الحكم وشرط فيه لا داخل فى الاسم ، كما قال ذلك القاضى ابو بكر بن الطيب والقاضي ابو يعلى ، ومن وافقهما ، على ان الشرع زاد احكاماً شرعية جعلها شروطاً فى القصد ، والأعمال والدعاء؛ ليست داخلة في مسمى الحج والصيام ، والصلاة، فقولهم مرجوح عند الفقهاء وجماهير المنسوبين الى العلم ؛ ولهذا كان الجمهور من اصحاب الأئمة الأربعة على خلاف هذا القول .

فاذا قال قائل : ان اسم « الايمان » انما يتناول مجرد ماهو تصديق ، واما كونه تصديقاً بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكون ذلك مستلزماً لحب الله ورسوله ونحو ذلك هو شرط فى الحكم لاداخل فى الاسم ان لم يكن أضعف من ذلك القول فليس دونه فى الضعف ، فكذلك من قال : الأعمال الظاهرة

لوازم للباطن ، لا تدخل فى الاسم عنــد الاطلاق يشبه قوله قول هؤلاء ، والشارع اذا قرن بالايمان العمل فكما يقرن بالحج ماهو من تمامه ، كما اذا قال من حج البيت وطاف وسعى ووقف بعرفـة ورمى الجمار ؛ ومن صلى فقرأ وركع وسجد ، كما قال من صام رمضان ايماناً واحتسابا ، ومعلوم انه لم يكن صوما شرعياً ان لم يكن ايماناً واحتسابا .

وقال : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته امه » ومعلوم ان الرفث الذي هو الجماع يفسد الحج والفسوق ينقص ثوابه ، وكما قال صلى الله عليه وسلم : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا » . فلا يكون مصلياً ان لم يستقبل قبلتنا فى الصلاة ، وكما قال صلى الله عليه وسلم : « خمس صلوات كتبهن الله على العبد فى اليوم والليلة ، من حافظ عليهن كان له عهد عند الله ان يدخله الجنة ، ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عند الله عهد ، ان شاء عــذبه وان شاء غفر له » فذكر المحافظ عليهـا ومعلوم انه لايكون مصلياً لها على الوجه المأمور الا بالمحافظة عليهـا . ولكن بين ان الوعيد مشروط بذلك ، ولهذا لايلزم من عدم المحافظة ان لايصليها بعد الوقت فلا يكون محافظاً عليها . اذ المحافظة تستلزم فعلهـا كما قــال : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) نزلت لمـا اخرت العصر عام الخندق ، قال النبي صلى الله عليه سلم : « ملأ الله اجوافهم وقبورهم ناراً كما شغلونـا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس » .

وبهذا يظهر ان الاحتجاج بذلك على ان تارك الصلاة لايكفر حجة ضعيفة ، لكنه يدل على ان تارك المحافظة لايكفر . فاذا صلاها بعد الوقت لم يكفر ؛ ولهذا جاءت فى « الأمراء » الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها قيل : يارسول الله ! ألا نقاتلهم ؟ قال : « لا ، ما صلوا » وكذلك لما سئل ابن مسعود عن قوله تعالى : (اضاعوا الصلاة) قال هو تأخيرها عن وقتها ، فقيل له : كنا نظن ذلك تركها، فقال : لو تركوها كانوا كفاراً .

والمقصود انه قد يدخل فى « الاسم المطلق » امور كثيرة ، وان كانت قد تخص بالذكر .

وقيل لمن قال : دخول الأعمال الظاهرة فى اسم الايمان مجاز نزاعك لفظي ؛ فانك اذا سلمت ان هذه لوازم الايمان الواجب الذي في القلب وموجباته كان عدم اللازم موجباً لعدم الملزوم ، فيلزم من عدم هذا الظاهر عدم الباطن ، فاذا اعترفت بهذا كان النزاع لفظياً وان قلت : ماهو حقيقة قول جهم وأتباعه من انه يستقر الايمان التام الواجب في القلب مع إظهار ماهو كفر ، وترك جميع الواجبات الظاهرة ، قيل لك : فهذا يناقض قولك ان الظاهر لازم له وموجب له ، بل (قيل): حقيقة قولك ان الظاهر يقارن الباطن تارة ويفارقه اخرى فليس بلازم له ولا موجب ومعلول له ، ولكنه دليل اذا وجد دل على وجود الباطن ، واذ عدم لم يدل عدمه على العدم ، وهذا حقيقة قولك .

وهو ايضاً خطأ عقلاً كما هو خطأ شرعا ، وذلك ان هذا ليس بدليل قاطع اذ هذا يظهر من المنافق فانما يبقى دليــلا فى بعض الامور المتعلقة بدار الدنيـا كدلالة اللفظ على المعنى ، وهذا حقيقة قولك ، فيقال لك : فلا يكون ما يظهر من الأعمال ثمرة للايمان الباطن ولا موجباً له ومن مقتضاه ، وذلك ان المقتضي لهذا الظاهر ان كان هو نفس الايمان الباطن لم يتوقف وجوده على غيره ، فان ما كان معلولا للشيء وموجباً له لا يتوقف على غيره، بل يلزم من وجوده وجوده، فلو كان الظاهر موجب الايمان الباطن لوجب أن لا يتوقف على غيره ، بل اذا وجد الموجب وجد الموجب .

وأما إذا وجد معه تارة وعدم أخرى امـكن ان يكون من موجب ذلك الغير ، وأمكن أن يكون موقوفاً عليهما جميعاً ، فان ذلك الغير إما مستقل بالايمان أو مشارك للايمان ، وأحسن أحواله أن يكون الظاهر موقوفاً عليهما معـاً : على ذلك الغير ، وعلى الايمان ؛ بل قد علم أنه يوجد بدون الايمان ؛ كما فى أعمـال المنافق ، فحينئذ لا يكون العمل الظاهر مستلزماً للايمان ، ولا لازمـاً له ، بل يوجد معه تارة ومع نقيضه تارة ، ولا يكون الايمـان علة له ولا موجبـاً ولا مقتضيـاً ، فيبطل حينئذ أن يكون دليلاً عليـه ، لأن الدليل لابد أن يستلزم المدلول ، وهذا هو الحق فان مجرد التكلم بالشهادتين ليس مستلزماً للايمان النافع عند الله .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : لسعد لما قال : هو مؤمن . قال « أو

مسلم ؟ » وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنـــات مهاجرات فامتحنوهن، الله أعلم بإيمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار) فدل ذلك على أن مجرد إظهار الاسلام لا يكون دليلاً على الايمان فى الباطن ، إذ لو كان كذلك لم تحتج المهاجرات اللاتى جئن مسلمات الى الامتحان ، ودل ذلك على أنه بالامتحان والاختبار يتبين باطن الانسان فيعلم أهو مؤمن أم ليس بمؤمن ؛ كما فى الحديث المرفوع : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان ، فان الله يقول : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله) الآية ».

فاذا قيل : الأعمال الظاهرة تكون من موجب الايمـــان تارة ، وموجب غيره أخرى ؛ كالتكلم بالشهادتين : تارة يكون من موجب ايمان القلب ،وتارة يكون تقية كايمان المنافقين ، قال تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) . ونحن اذا قلنا : هي من ثمرة الايمان اذا كانت صادرة عن ايمان القلب لا عن نفاق ، قيل : فاذا كانت صادرة عن ايمان ، اما أن يكون نفس الايمان موجباً لها ، واما ان تقف على أمر آخر ، فاذا كان نفس الايمان موجباً لها ثبت انها لازمة لايمان القلب معلولة لاتنفك عنه،وهذا هو المطلوب ؛ وان توقفت على أمر آخر كان الايمان جزء السبب جعلهـــا ثمرة للجزء الآخر ومعلولة له ، اذ حقيقة الأمر انها معلولة لهما وثمرة لهما .

فتبين ان الأعمال الظاهرة الصالحة لا تكون ثمرة للايمان الباطن ومعلولة

له ، الا اذا كان موجباً لها ومقتضياً لها ، وحينئذ فالموجب لازم لموجبه والمعلول لازم لعلته ، واذا نقصت الاعمال الظاهرة الواجبة كان ذلك لنقص ما فى القلب من الايمان ، فلا يتصور مع كمال الايمان الواجب الذي فى القلب ان تعـدم الأعمال الظاهرة الواجبة ؛ بل يلزم من وجود هذا كاملاً [وجود هذا كاملاً] كما يلزم من نقص هذا نقص هذا؛اذ تقدير ايمان تام فى القلب بلا ظاهر من قول وعمـل كتقدير موجبٌ تام بلا موجبـه ، وعلة تامة بلا معلولهـا ، وهذا ممتنع .

وبهذا وغيره يتبين فساد قول جهم والصالحي ومن اتبعها فى « الايمان » كالأشعري في اشهر قوليه ، وأكثر أصحابه ، وطائفة من متأخري اصحاب ابى حنيفة : كالماتريدي ونحوه حيث جعلوه مجرد تصديق فى القلب يتساوى فيه العباد ، وانه اما ان يعدم واما ان يوجد لايتبعض ، وانه يمكن وجود الايمان تاماً فى القلب مع وجود التكلم بالكفر والسب لله ورسوله طوعـاً من غير اكراه ، وان ما علم من الأقوال الظاهرة ان صاحبه كافر ؛ فلأن ذلك مستلزم عدم ذلك التصديق الذي في القلب ، فى الأفعال [1] وان الأعمال الصالحة الظاهرة ليست لازمة للايمان الباطن الذي فى القلب ؛ بل يوجد ايمان القلب تامـاً بدونها فان هذا القول فيه خطأ من وجوه :

(احدها) : انهم اخرجوا ما فى القلوب من حب الله وخشيته ونحو ذلك

(١) بياض فى الأصل .

ان يكون من نفس الايمان .

و (ثانيها) جعلوا ماعلم ان صاحبه كافر ــ مثل ابليس وفرعون واليهود وابى طالب ، وغيرهم ــ انه انما كان كافراً ؛ لأن ذلك مستلزم لعدم تصديقه فى الباطن ، وهذا مكابرة للعقل والحس ، وكذلك جعلوا من يبغض الرسول ويحسده كراهة دينه مستلزماً لعدم العلم بأنه صادق ونحو ذلك .

و (ثالثها) : انهم جعلوا ما يوجد من التكلم بالكفر من سب الله ورسوله والتثليث وغير ذلك قد يكون مجامعاً لحقيقة الايمان الذي فى القلب ، ويكون صاحب ذلك مؤمناً عند الله حقيقة . سعيداً في الدار الآخرة ، وهذا يعلم فساده بالاضطرار من دين الاسلام .

و (رابعها) : انهم جعلوا من لا يتكلم بالايمان قط مع قدرته على ذلك ، ولا اطاع الله طاعة ظاهرة مع وجوب ذلك عليه وقدرته ، يكون مؤمناً بالله تام الايمان سعيداً في الدار الآخرة . وهذه الفضائح تختص بها الجهمية دون المرجئة من الفقهاء وغيرهم .

و (خامسها) : وهو يلزمهم ويلزم المرجئة . انهم قالوا : ان العبد قد يكون مؤمناً . تام الايمان ، ايمانه مثل ايمان الأنبياء والصديقين ، ولو لم يعمل خيراً لا صلاة ولا صلة ولا صدق حديث ، ولم يدع كبيرة الا ركبها . فيكون

الرجل عندهم ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، واذا ائتمن خان ، وهو مصر على دوام الكذب والخيانة ونقض العهود لايسجد لله سجدة ، ولا يحسن الى احد حسنة ، ولا يؤدي أمانة ، ولا يدع ما يقدر عليه من كذب وظلم وفاحشة إلا فعلها ، وهو مع ذلك مؤمن تام الايمان ، ايمانه مثل ايمان الأنبياء ، وهذا يلزم كل من لم يقل ان الأعمال الظاهرة من لوازم الايمان الباطن ، فاذا قال : إنها من لوازمه، وأن الايمان الباطن يستلزم عملاً صالحاً ظاهراً كان بعد ذلك قوله : ان تلك الأعمال لازمة لمسمى الايمان ، او جزءاً منه (نزاعاً لفظياً) كما تقدم .

و (سادسها):أنه يلزمهم ان من سجد للصليب والأوثان طوعاً ، وألقى المصحف فى الحش عمداً ، وقتل النفس بغير حق ، وقتل كل من رآه يصلى ، وسفك دم كل من يراه يحج البيت ، وفعل ما فعلته القرامطة بالمسلمين ، يجوز أن يكون مع ذلك مؤمناً ولياً لله ، إيمانه مثل ايمان النبيين والصديقين ؛ لأن الايمان الباطن إما ان يكون منافياً لهذه الأمور ، وإما ان لا يكون منافياً ؛ فان لم يكن منافياً أمكن وجودها معه فلا يكون وجودها إلا مع عدم الايمان الباطن .

وإن كان منافياً للايمان الباطن كان ترك هذه من موجب الايمان.ومقتضاه ولازمه ، فلا يكون مؤمناً فى الباطن الايمان الواجب الا من ترك هذه الأمور فمن لم يتركها دل ذلك على فساد ايمانه الباطن ، واذا كانت الأعمال والتروك

الظاهرة لازمة للايمان الباطن كانت من موجبه ومقتضاه ، وكان من المعلوم انها تقوى بقوته ، وزيد بزيادته ، وتنقص بنقصانه ، فان الشيء المعلول لا يزيد الا بزيادة موجبه ومقتضيه ، ولا ينقص الا بنقصان ذلك ؛ فاذا جعل العمل الظاهر موجب الباطن ومقتضاه لزم ان تكون زيادته لزيادة الباطن فيكون دليلاً على زيادة الايمان الباطن ونقصه لنقص الباطن ، فيكون نقصه دليلاً على نقص الباطن ، وهو المطلوب .

وهذه الأمور كلها اذا تدبرها المؤمن بعقله تبين له ان مذهب السلف هو المذهب الحق ؛ الذي لا عدول عنه ؛ وأن من خالفهم لزمه فساد معلوم بصريح المعقول ، وصحيح المنقول كسائر ما يلزم الأقوال المخالفة لأقوال السلف والأئمة والله أعلم .

وقول جهم ومن وافقه : ان الايمان مجرد العلم والتصديق ، وهو بذلك وحده يستحق الثواب والسعادة ، يشبه قول من قال من الفلاسفة المشائين وأتباعهم : ان سعادة الانسان في مجرد ان يعلم الوجود على ما هو عليه ؛ كما أن قول الجهمية وهؤلاء الفلاسفة في « مسائل الاسماء والصفات » و « مسائل الجبر والقدر » متقاربان ، وكذلك في « مسائل الايمان » وقد بسطنا الكلام على ذلك وبينا بعض ما فيه من الفساد في غير هذا الموضع ، مثل ان العلم هو احد قوتي النفس ، فان النفس لها « قوتان » : قوة العلم والتصديق ، وقوة الارادة والعمل ، كما ان الحيوان له « قوتان » : قوة الحس ، وقوة الحركة بالارادة .

وليس صلاح الانسان فى مجرد أن يعلم الحق ، دون ان لا يحبه ويريده ويتبعه ، كما انه ليس سعادته فى ان يكون عالماً بالله ، مقراً بما يستحقه ، دون ان يكون محباً لله ، عابداً لله ، مطيعاً لله ، بل اشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ؛ فاذاعلم الانسان الحق وابغضه وعاداه ، كان مستحقاً من غضب الله وعقابه مالا يستحقه من ليس كذلك ؛ كما ان من كان قاصداًللحق طالباً له — وهو جاهل بالمطلوب وطريقه — كان فيه من الضلال ، وكان مستحقاً من اللعنة — التى هي البعد عن رحمة الله — مالا يستحقه من ليس مثله ؛ ولهذا امرنا الله ان نقول : (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

و « المغضوب عليهم » علموا الحق فلم يحبوه ولم يتبعوه ، و « الضالون » قصدوا الحق لكن بجهل وضلال به وبطريقه ، فهذا بمنزلة العالم الفاجر ، وهذا بمنزلة العابد الجاهل ، وهذاحال اليهود فانه مغضوب عليهم ، وهذا حال النصارى فانهم ضالون . كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون» .

و « المتفلسفة » أسوأ حالاً من اليهود والنصارى ، فانهم جمعوا بين جهل هؤلاء وضلالهم ، وبين فجور هؤلاء وظلمهم ، فصار فيهم من الجهل والظلم ماليس فى اليهود ولا النصارى حيث جعلوا السعادة فى مجرد ان يعلموا الحقائق حتى يصير الانسان عالما معقولاً مطابقاً للعالم الموجود ، ثم لم ينالوا من معرفة الله

واسمائه وصفاته وملائكته وكتبــه ورسله وخلقه وامره إلا شيئاً نزراً قليلاً ، فــكان جهلهم أعظم من علمهم، وضلالهم اكبر من هداهم، وكانوا مترددين بين الجهل البسيط ، والجهل المركب ؛ فان كلامهم فى الطبيعات والرياضيات لايفيــد كمال النفس وصلاحها ، وانما يحصل ذلك بالعلم الالهي ، وكلامهم فيــه:لحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لاسهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل .

فان كلامهم فى « واجب الوجود » مابين حق قليل ، وباطل فاسد كثير ، وكذلك فى « العقول » و « النفوس » الــتى تزعم اتباعهم من اهل الملل ، انهـا الملائكة التى اخبرت بها الرسل ؛ وليس الأمر كذلك ، بل زعمهم ان هؤلاء هم الملائكة من جنس زعمهم ان«واجب الوجود»هو الوجود المطلق بشرط الاطلاق مع اعترافهم بأن المطلق بشرط الاطـلاق لايكون إلا فى الأذهان ، وكذلـك كلامهم فى العقول والنفوس يعود عنــد التحقيق الى امور مقدرة في الأذهان لاحقيقة لها فى الاعيان ، ثم فيه من الشرك بالله وإثبات رب مبدع لجميــع العالم سواه ــ لكنه معلول له ــ واثبات رب مبدع لــكل ما تحت فلك القمر هو معلول الرب ، فوقه ذلــك الرب معلول لرب فوقــه ، ماهو اقبح من كلام النصارى فى قولهم : ان المسيح بن الله بكثير كثير ، كما بسط فى غــير هــذا الموضع .

وليس لمقدميهم كلام فى « النبوات » ألبتــة ، ومتأخروهم حائرون فيها ، منهم من يكذب بها ؛ كما فعل ابن زكريا الرازى وامثاله مــع قولهم بحدوث العالم .

اثبتوا القدماء الخمسة واخذوا من المذاهب ماهو من شرها وافسدهـا ؛ ومنهم من يصدق بها مع قوله بقدم العالم، كابن سينا ،وامثاله، لكنهم يجعلون النبي بمنزلة ملك عادل، فيجعلون النبوة كلها من جنس ما يحصل لبعض الصالحين من الكشف والتأثير والتخيل، فيجعلون خاصة النبي « ثلاثـة اشياء » : قوة الحدس الصائب، التي يسمونه القوة القدسية، وقوة التأثير فى العـالم، وقوة الحس، التي بهـا يسمع ويبصر المعقولات متخيلة فى نفسه، فكلام الله عندهم هـو مافى نفسه من الأصوات، وملائكته هي مافى انفسهم من الصور والأنوار وهذه الخصال تحصل لغالب اهل الرياضـة والصفا؛ فلهـذا كانت النبوة عندهم مكتسبة .

وصار كل من سلك سبيلهم ــ كالسهروردي المقتول وابن سبعـين المغربي وامثـالهما ــ يطلب النبوة ويطمع ان يقال له قم فانذر، هذا يقول: لا اموت حتى يقال لي : (قم فانذر) وهذا يجاور بمكة ويعمد الى غار حراء، ويطلب ان ينزل عليه فيه الوحي، كما نزل على المزمل والمدثر مثله، وكل منهما ومن امثالهما يسعى بأنواع السيمياء الـتى هي من السحر، ويتوهم ان معجزات الأنبياء كانت من جنس السحر السيمائي .

ومن لم يمكنه طلب النبوة وادعاؤها ــ لعلمه بقول الصادق المصدوق: « لانبي بعدي » او غير ذلك ــ كابن عربي وامثاله طلب ماهو اعلا من النبوة وان خاتم الأولياء اعظم من خاتم الأنبياء، وان الولي يأخـذ عن الله بلا واسطة ،

والنبي يأخذ بواسطة الملك ، وبنى ذلك على اصل متبوعيه الفلاسفة فان عندهم مايتصور في نفس النبي او الولي هي الملائكة : من الأشكال النورانية الخيالية ، « فالملائكة » عندهم ما يتخيله فى نفسه ، و« النبي » عندهم مايتلقى بواسطة هذا التخيل ، و « الولي » يتلقى المعارف العقلية بدون هذا التخيل ، ولا ريب ان من تلقى المعارف بلا تخيل ، كان اكمل ممن تلقاها بتخيل .

فلما اعتقدوا فى النبوة ما يعتقده هؤلاء المتفلسفة صاروا يقولون : ان الولاية أعظم من النبوة ، كما يقول كثير من الفلاسفة : ان الفيلسوف أعظم من النبي ؛ فان هذا قول الفارابي ، ومبشر بن فاتك وغيرهما ، وهؤلاء يقولون النبوة أفضل الأمور عند الجمهور ؛ لا عند الخاصة . ويقولون خاصة النبي جودة التخييل والتخيل ، فجاء هؤلاء الذين اخرجوا الفلسفة فى قالب الولاية ، وعبروا عن المتفلسف بالولي ، وأخذوا معاني الفلاسفة وأبرزوها فى صورة المكاشفة والمخاطبة وقالوا : ان الولي أعظم من النبي ، لأن المعانى المجردة يأخذها عن الله بلا واسطة تخيل لشيء فى نفسه والنبي يأخذها بواسطة ما يتخيل فى نفسه من الصور والاصوات ، ولم يكفهم هذا البهتان ، حتى ادعوا ان جميع الانبياء والرسل يستفيدون العلم بالله من مشكاة خاتم هؤلاء الأولياء الذي هو من أجهل الخلق بالله وأبعدهم عن دين الله والعلم بالله هو عندهم بأنه « الوجود المطلق » الساري فى الكائنات ، فوجود كل موجود هو عين وجود واجب الوجود .

وحقيقة هذا القول قول الدهرية الطبعية الذين ينكرون ان يكون للعالم

مبدع ابدعه ، هو واجب الوجود بنفسه ؛ بل يقولون : العالم نفسه واجب الوجود بنفسه. فحقيقة قول هؤلاء شر من قول الدهرية الالهيين، وهو يعود عند التحقق الى قول الدهرية الطبيعيين، وقد حدثونا: أن ابن عربي تنازع هو والشيخ ابو حفص السهروردي: هل يمكن وقت تجلي الحق لعبد مخاطبة له أم لا؟ فقال الشيخ ابو حفص السهروردي : نعم يمكن ذلك . فقال ابن عربي : لا يمكن ذلك . وان الكلام كان في غيبة كل منهما عن صاحبه ، فقيل لابن عربي : ان السهروردي يقول كذا ، وكذا . فقال : مسكين ! نحن تكلمنا في مشاهدة الذات ، وهو يتكلم في مشاهدة الصفات .

وكان كثير من أهل التصوف والسلوك والطالبين لطريق التحقيق والعرفان — مع انهم يظنون انهم متابعون للرسل ، وانهم متقون للبدع المخالفة له — يقولون هذا الكلام ويعظمونه ويعظمون ابن عربي لقوله مثل هذا، ولا يعلمون ان هذا الكلام بناه على اصله الفاسد في الالحاد ، الذي يجمع بين التعطيل والاتحاد ؛ فان حقيقة الرب عنده وجود مجرد لا اسم له ولا صفة ، ولا يمكن ان يرى في الدنيا ولا في الآخرة، ولا له كلام قائم به ولا علم ولا غير ذلك، ولكن يرى ظاهرا في المخلوقات متجليا في المصنوعات، وهو عنده غير وجود الموجودات وشبهه ، وتارة بظهور الكلي في جزئياته كظهور الجنس في انواعه والنوع في الخاصة ، كما تظهر الحيوانية في كل حيوان ، والانسانية في كل انسان .

وهذا بناه على غلط أسلافه « المنطقيين اليونانيين » حيث ظنوا ان

الموجودات العينية يقارنها جواهر عقلية بحسب ما تحمل لها من الكليات . فيظنون ان فى الانسان المعين انساناً عقلياً وحيواناً عقليا وناطقاً عقلياً وحساساً عقلياً وجسما عقليا ، وذاك هو الماهية التى يعرض لها الوجود ، وتلك الماهية مشتركة بين جميع المعينات وهذا الكلام له وقع عند من لم يفهمه ويتدبره .

فاذا فهم حقيقته تبين له انه بكلام المجانين أشبه منه بكلام العقلاء . وإنما ذلك لمخالفته للحس والعقل، وإنما اتى فيه هؤلاء من حيث انهم تصوروا فى انفسهم معانى « كلية مطلقة » فظنوا انها موجودة في الخارج . فضلا لهم فى هذا عكس ضلالهم في امر الانبياء، شاهدت اموراً خارجة عن انفسهم، فزعم هؤلاء الملاحدة ان تلك كانت فى انفسهم .

وهؤلاء الملاحدة شهدوا في انفسهم اموراً « كلية مطلقة » فظنوا انها في الخارج ، وليست إلا في انفسهم فجعلوا ما في انفسهم فى الخارج وليس فيه وجعلوا ما اخبرت به الانبياء فى انفسهم وانما هو فى الخارج، فلهذا كانوا مكذبين بالغيب الذي أخبرت به الانبياء ، ثم جعلوا وجود الرب الخالق للعالمين البائن عن مخلوقاته أجمعين هو من جنس وجود الانسانية في الاناسي ، والحيوانية فى الحيوان او ما أشبه ذلك ، كوجود الوجود فى الثبوت — عند من يقول المعدوم شيء — فانهم أرادوا ان يجعلوه شيئاً موجوداً في المخلوقات مع مغايرته لها، فضربوا له مثلاً تارة بالكليات ، وتارة بالمادة والصورة ، وتارة بالوجود المغاير للثبوت ، وإذا مثلوه بالمحسوسات مثلوه بالشعاع فى الزجاج ، او بالهواء فى الصوفة،

فضربوا لرب العالمين الأمثال ؛ فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ؛ وهم فى هــذه الأمثال ضالون من وجوه .

(أحدها) : انما مثلوا به من المادة مع الصورة ، والـكليات مع الجزئيات، والوجود مع الثبوت : كل ذلك يرجع عند التحقيق الى شيء واحد لا شيئين ، فجعلوا الواحد اثنين ، كما جعلوا الاثنين واحداً في مثل صفات الله ، يجعــلون العلم هو العالم ، والعلم هو المعلوم ، والعلم هو القدرة ، والعلــم هو الارادة ، وأنواع هذه الامور التى اذا تدبرها العاقل تبين له ان هؤلاء من أجهــل الناس بالامور الالهية ، وأعظم الناس قولاً للباطل ؛ مع ما في نفوسهم ونفوس اتباعهــم من الدعاوي الهــائلة ، الطويلة ، العريضة ، كما يدعى اخوانهــم القرامطة الباطنية ، انهــم أئمة معصومون مثــل الانبياء . وهم من أجهــل الناس وأضلهم وأكفرهم .

(الثانى) : انهم على كل تقدير من هــذه التقديرات يجعــلون وجوده مشروطاً بوجود غــيره ، الذي ليس هو مبدعاً له ؛ فان وجود الـكليات فى الخارج مشروط بالجزئيات ، ووجود المادة مشروط بالصورة ، وكذلك بالعكس، ووجود الأعيان مشروط بثبوتها المستقر فى العدم ؛ فيلزمهم على كل تقدير ان يكون واجب الوجود مشروطاً بمــا ليس هو من مبدعاته ، وما كان وجوده موقوفاً على غــيره الذي ليس هو مصنوعاً له لم يــكن واجب الوجود بنفسه ، وهذا بين .

(الثالث) أن هذا الكلام يعود عند التحقيق الى ان يكون وجود الخالق عين وجود المخلوقات ، وهم يصرحون بذلك ؛ لكن يدعون المغايرة بين الوجود والثبوت ؛ او بين الوجود والماهية ؛ وبين الكل والجزء ، وهو المغايرة بين المطلق والمعين ؛ فلهذا كانوا يقولون : بالحلول . تارة يجعلون الخالق حالاً فى المخلوقات ، وتارة محلاً لها ، واذا حقق الامر عليهم بعدم المغايرة . كان حقيقة قولهم ان الخالق هو نفس المخلوقات فلا خالق ولا مخلوق ، وانما العالم واجب الوجود بنفسه .

(الرابع) : انهم يقرون بما يزعمونه من « التوحيد » عن التعدد فى صفاته الواجبة ؛ وأسمائه ؛ وقيام الحوادث به ، وعن كونه جسماً ؛ او جوهراً ؛ ثم هم عند التحقيق يجعلونه عين الاجسام الكائنة الفاسدة المستقذرة ، ويصفونه بكل نقص كما صرحوا بذلك ، قالوا : الا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات ؟ واخبر بذلك عن نفسه ، وبصفات النقص ؛ وبصفات الذم ، وقالوا : العلى لذاته هو الذي يكون له الكمال ، الذي يستغرق به جميع الامور الوجودية والنسب العدمية ، سواء كانت محمودة عرفاً وعقلاً وشرعاً ؛ أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً ، وليس ذلك الا لمسمى الله خاصة فهو متصف عندهم بكل صفة مذمومة كما هو متصف بكل صفة محمودة ، وقد بسط الكلام على هؤلاء فى غير هذا الموضع . فان امرهم اعظم من ان يبسط هنا .

ولكن (المقصود) التنبيه على تشابه رؤوس الضلال ، حتى اذا فهم المؤمن

قول احدهم ، اعانه على فهم قول الآخر ؛ واحترز منهم وبين ضلالهم لكثرة ما أوقعوا فى الوجود من الضلالات .

فابن عربى بزعمه : انما تجلى الذات عنده شهود مطلق ؛ هو وجود الموجودات ؛ مجرداً مطلقاً ، لا اسم له ولا نعت ، ومعلوم ان من تصور هذا لم يمكن ان يحصل له عنه خطاب ؛ فلهذا زعم ان عند تجلى الذات لا يحصل خطاب. وأما ابو حفص السهروردي فكان اعلم بالسنة ، واتبع للسنة من هذا وخير منه ؛ وقد رأى ان ما جاءت به الأحاديث من ان الله يتجلى لعباده ويخاطبهم حين تجليه لهم فآمن بذلك ؛ لكن ابن عربى فى فلسفته اشهر من هذا فى سنته .

ولهذا كان اتباعهما يعظمون ابن عربى عليه ، مع اقرارهم بأن السهروردي اتبع للسنة ، كما حدثنى الشيخ الملقب بحسام الدين القادم ، السالك طريق ابن حمويه الذي يلقبه اصحابه «سلطان الاقطاب» ؛ وكان عنده من التعظيم لابن عربى ، وابن حمويه ؛ والغلو فيهما امر عظيم ، فبينت له كثيراً مما يشتمل عليه كلامهما من الفساد والالحاد ، والأحاديث المكذوبة على النبي صلى الله عليه وسلم وجرى في ذلك فصول ؛ لما كان عنده من التعظيم مع عدم فهم حقيقة اقوالهما وما تضمنته من الضلالات .

وكان مما حدثنى عن شيخه الطاووسي الذي كان بهمدان عن سعدالدين

ابن حمويه انه قال : محيي الدين ابن عربي بحر لا تكدره الدلاء ؛ لكن نور المتابعة النبوية على وجه الشيخ شهاب الدين السهروردي شيء آخر ، فقلت له : هذا كما يقال : كان هؤلاء اوتوا[من] ملك الكفار ملكا عظيماً. لكن نور الاسلام الذي على شهاب غازي صاحب «ميافا رقين» شيء آخر . فانهم كانوا يعظمون ابن عربي ؛ وذلك لان الشيخ شهاب الدين لم يكن متمكناً من معرفة السنة ومتابعتها ، وتحقيق ما جاءت به الرسل ؛ كتمكن ابن عربي فى طريقه التى سلكها وجمع فيها بين الفلسفة والتصوف .

وهؤلاء انما يقطع دابرهم المباينة بين الخالق والمخلوق ، واثبات تعينه منفصلاً عن المخلوق ترفع اليه الايدي بالدعاء ، واليه كان معراج خاتم الانبياء ، وقد ذكر السهروردي فى عقيدته المشهورة قوله : « بلا اشارة ولا تعيين » وهذه هي التى استطال بها عليه هؤلاء ؛ فانه متى نفيت الاشارة والتعيين لم يبق الا العدم المحض؛ والتعطيل او الالحاد والوحدة والحلول .

وابن سبعين وأمثاله من هؤلاء الملاحدة يقولون هكذا : لا اشارة ولا تعيين ، بل عين ما ترى ذات لا ترى ، وذات لا ترى عين ما ترى ، ويقولون فى اذ كارهم: ليس الا الله ، بدل قول المسلمين : لا اله الا الله ، لأن معتقدهم انه وجود كل موجود ؛ فلا موجود الا هو ؛ والمسلمون يعلمون ان الله خالق كل شيء ، وربه ومليكه ؛ وانه ليس هو المخلوقات ، ولا جزءاً منها ؛ ولا صفة لها ؛ بل هو بائن عنها ، ويقولون انه هو الاله الذي يستحق العبادة دون ما سواه من

الموجودات ، فلا اله الا هو؛ كما قال تعالى : (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) وكما قال تعالى : (قل افغير الله تأمروني اعبد ايها الجاهلون) وقال : (قل : اغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والارض) .

وهؤلاء الملاحدة ماعندهم غير يمكن ان يعبد ، ولا غير يمكن ان يتخذ ولياً ، ولا الهاً؛بل هو العابد والمعبود ؛ والمصلي والمصلى له ؛ كما قال شاعرهم ابن الفارض فى قصيدته « نظم السلوك » :

لها صلواتى بالمقام اقيمها — وأشهد فيها انها لي صلتى

كلانا مصل واحد ساجد الى — حقيقته بالجمع فى كل سجدة

الى قوله :

وما كان لي صلى سواي ولم تكن — صلاتي لغيري في ادا كل ركعة

الي رسولاً كنت مني مرسلاً — وذاتى بآياتى علي استدلت

وقوله :

وما زلت اياها واياي لم تزل — ولا فرق بل ذاتى لذاتى احبت

فهؤلاء « الجهمية » من المتكلمة والصوفية فى قولهم : ان الايمان هو مجرد المعرفة والتصديق ، يقولون : المعروف هو الموجود الموصوف بالسلب والنفي ، كقولهم : لا هو داخل العالم ؛ ولا خارجه ، ولا مباين العالم ولا محايث ، ثم

يعودون فيجعلونه حالاً فى المخلوقات او محلاً لها او هو عينها :او يعطلونه بالكلية؛ فهم في هذا نظير المتفلسفة المشائين : الذين يجعلون كمـال الانسان بالعلم : و « العلم الاعلى » ــ عندهم ــ و « الفلسفة الاولى » ــ عندهم ــ النظر فى الوجود ولواحقه ، ويجعلون واجب الوجود وجوداً مطلقاً بشرط الاطلاق ، لكن أولئك يغيرون العبـارات ويعبرون بالعبـارات الاسلامية القرآنية عن الالحادات الفلسفية واليونانية ، وهـذا كله قد قرر ؛ وبسط القول فيه فى غير هذا الموضع .

فصـــل

اول مافي الحديث سؤاله عن « الاسلام » :فأجابـه بأن «الاسـلامأن تشهد ان لا إله الا الله ، وان محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت » وهذه الخمس هي المذكورة في حديث ابن عمر المتفق عليه « بني الاسلام على خمس : شهادة ان لااله الا الله، وان محمداً رسول الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت من استطاع اليه سبيلا » . وهذا قاله النبي صلى الله عليه وسلم بعد ان فرض الله الحج ، فلهذا ذكر الخمس : واكثر الأحاديث لا يوجد فيها ذكر الحج ، فى حديث وفـد عبد القيس « آمركم بالايمان بالله وحده . اتدرون ماالايمان بالله وحده ؟ شهادة ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله واقام الصـلاة وايتاء الزكاة وصيام رمضان ، وان تعطوا من المغنم الخمس » .

وحديث وفد عبد القيس من اشهر الأحاديث واصحها . وفى بعض طرق البخاري لم يذكر الصيام ،لكن هو مذكور فى كثير من طرقه ، وفى مسلم ، وهوايضامذكورفىحديث ابي سعيد الذيذكر فيه قصةوفد عبد القيس رواه مسلم، فى صحيحه عنه ، واتفقا على حديث ابن عباس وفيه انـه امرهم بايتـاء الخمس من المغنم ؛ والخمس انما فرض فى غزوة بدر وشهر رمضان فرض قبل ذلك .

ووفد عبد القيس من خيار الوفد الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقدومهم علىالنبي صلى الله عليه وسلم كان قبل فرض الحج ، وقد قيل قدموا سنة الوفود : سنة تسع، والصواب انهم قدموا قبل ذلـك ، فانهم قالوا ان بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ــ يعنون اهـل نجد ــ وإنا لانصل اليك إلا فى شهر حرام ، وسنة تسع كانت العرب قد ذلت وتركت الحرب ، وكانوا بين مسلم او معاهد خائف ، لمـا فتح الله مكة ثم هزموا هوازن يوم حنين ، وانما كانوا ينتظرون باسلامهم فتح مكة ، وقـد بعث النبي صلى الله عليه وسلم ابا بكر رضي الله عنه اميراً على الحـج سنة تسع ، واردفه بعلي بن ابي طالب ، رضي الله عنه ؛ لتنفيذ العهود التى كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين العرب ، الا انه اجلهم اربعـة اشهر من حـين حجة ابي بكر ، وكانت في ذي القعدة .

وقد قال تعالى : (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) الآية . وهذه الأربعة التى اجلوها الأربعة الحرم .

ولهذا غزا النبي صل الله عليه وسلم النصارى بأرض الروم، عام تبوك سنة تسع، قبل ارسال ابى بكر اميراً على الموسم، وإنما امكنه غزو النصارى لما اطمأن من جهة مشركي العرب، وعلم انه لاخوف على الاسلام منهم: ولهذا لم يأذن لأحد ممن يصلح للقتال فى التخلف، فلم يتخلف إلا منافق: او الثلاثة الذين تيب عليهم، او معذور، ولهذا لما استخلف عليا على المدينةعام تبوك طعن المنافقون فيه لضعف هذا الاستخلاف، وقالوا: انما خلفه لأنــه يبغضه. فاتبعه علي وهو يبكي، فقال: اتخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال: « اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟! الا انه لانبي بعدي ». وكان قبل ذلـك يستخلف على المدينة من يستخلفه، وفيها رجال من اهل القتال، وذلك لأنه لم يكن حينئذ بأرض العرب لابمـكة ولا بنجـد ونحوها من يقاتل اهل دار الاسلام ـــ مكة والمدينة، وغيرها ـــ ولا يخيفهم: ثم لما رجع من تبوك اقر ابا بكر على الموسم، يقيم الحج والصلاة، ويأمر ان لايحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، واتبعه بعلي لأجل نقض العهود؛ اذ كانت عادة العرب ان لايقبلوا الا من المطاع الكبير، او من رجل من اهل بيته.

و(المقصود): ان هذا يبين ان قدوم وفد عبد القيس كان قبل ذلك. واما «حديث ضمام» فرواه مسلم فى صحيحه عن انس بن مالك: «نهينا ان نسأل رسول الله عن شيء فكان يعجبنا ان يجيء الرجل من اهل البادية. العاقل يسأله ونحن نسمع فجاء رجل من اهل البادية فقال: يامحمد! أتانا رسولك فزعم انك تزعم ان الله ارسلك، قل: صدق،

قال : فمن خلق السماء ؟ قال : الله قال : فمن، خلق الأرض ؟ قال : الله ، قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيهــا ما جعل ؟ قال : الله قال : فبالذي خلق السماء ، وخلق الأرض ، ونصب الجبــال ، آلله ارسلك ؟ ! قال : نعم ، قال وزعم رسولك ان علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا ، قال : صدق قال : فبالذي ارسلك ، آلله امرك بهذا ؟ قال : نعم قال : وزعم رسولك ان علينــا زكاة فى اموالنــا ، قال : صدق ، قال : فبالذي ارسلك آلله امرك بهذا ؟ ؟ ! قال : نعم ، قال : وزعم رسولك ان علينا حج البيت من استطاع اليه سبيلاً قال : صدق ، ثم ولى الرجل ، وقــال : والذي بعثك بالحق لا ازيد عليهن ، ولا انقص منهن فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن صدق ليدخلن الجنة » .

وعن أنس قال : « بينما نحن جلوس مـع النبي صلى الله عليه وســلم فى المسجد اذ دخل رجل على جمل ، فأناخه في المسجد ثم عقله ؛ ثم قال لهــم : أيــكم محمد ؟ ــــ والنبي صلى الله عليه وسلم متكيء بــين ظهرانيهم ــــ فقلنــا : هذا الرجل الأبيض المتكيء ؟ فقال له الرجل : ابن عبد المطلب ؟ فقال له : النبي صلى الله عليه وسلم قد اجبتك فقال الرجل : للنبي صلى الله عليه وسلم انني سائلك فمشدد عليك فى المسألة فلا تجد علي فى نفسك ؛ فقال : سل عما بدالك ؟ فقال : اسألك بربك ورب من قبلك ؟ آلله ارسلك إلى الناس كلهــم ؟ فقال : اللهم نعم ، وذكر انــه سأله عن الصلاة والزكاة ؛ ولم يذكر الصيام والحج ، فقال : الرجل آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائى من قومي ؛ وأنا ضمام

ابن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر » . هـذان الطريقان فى الصحيحين ، لكن البخاري لم يذكر فى الأول الحج ؛ بل ذكر الصيـام ؛ والسياق الاول أتم ؛ والناس يجعلون الحديثين حديثاً واحداً .

ويشبه ـــ والله اعلم ـــ ان يكون البخاري رأى ان ذكر الحج فيه وهما لأن سعد بن ابي بكر ؛ هم من هوازن وهم اصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهوازن كانت معهم وقعة حنين بعد فتح مكة فأسلموا كلهم بعد الوقعة ودفع اليهم النبي صلى الله عليه وسـلم النساء والصبيان بعد ان قسمها عـلى المعسكر ، واستطاب انفسهم فى ذلك ، فلا تكون هذه الزيارة إلا قبل فتح مكة والحج لم يكن فرض اذ ذاك .

وحديث طلحة بن عبيد الله ليس فيه الا الصلاة والزكاة والصيام ، وقـد قيل : انه حديث ضمام ، وهو فى الصحيحين عن طلحة بن عبيد الله قال : « جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم من اهـل نجد ، ثائر الرأس ، نسمع دوي صوته ولا نفقه مايقول حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا هو يسأل عن الاسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خمس صلوات في اليوم والليلة ، قال : هل علي غير ذلـك ؟ قال : لا إلا ان تطوع. قـال : وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة قال : هل علي غـيرها ، قال : لا الا ان تطوع قال ، فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ، ولا انقص منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلح ان صـدق » وليس فى شيء من

طرقه ذكر الحج ، بل فيه ذكر الصلاة والزكاة والصيام ، كما فى حديث وفـد عبد القيس .

وفى الصحيحين ايضا « عن ابي هريرة ان اعرابيا جاء إلى رسول صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ! دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنــة ، فقـال تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ،وتؤدى الزكاة المفروضــة وتصوم رمضان ، قال : والذي نفسي بيده لا أزيد على هــذا شيئا أبداً ، ولا انقص منه ، فلما ولى قال النبي صلى الله عليه وسلم : من سره ان ينظـر الى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » وهذا يحتمل ان يكون ضاما ، وقـد جاء فى بعض الأحاديث ذكر الصلاة والزكاة فقط ، كما في الصحيحين عن ابي ايوب الأنصاري « ان اعرابيا عرض لرسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وهو فى سفر فأخذ بخطام ناقته او بزمامها ، ثم قال : يارسول الله ! او يامحمد ! . اخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني من النار ، قال : فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نظر فى اصحابه ، ثم قال : لقد وفق او لقد هدي ، ثم قال : كيف قلت ؟ قال : فاعاد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة وتصل الرحم ، فلما أدبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان تمسك بما أمر به ، دخل الجنة » هذه الألفاظ فى مسلم .

وقد جاء ذكر الصلاة والصيام فى حديث النعمان بن قوقل رواه مسلم عن جابر بن عبد الله قال : « سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : أرأيت إذا

صليت الصلوات المكتوبات ، وصمت رمضان وأُحللت الحلال وحرمت الحرام ولم ازد على ذلك شيئاً ، أدخل الجنة ؟ قال : نعم ، قال : والله لا ازيد على ذلك شيئا » . وفى لفظ « اتى النبي صلى الله عليه وسلم النعمان بن قوقل. وحديث النعمان هذا قديم: فان النعمان بن قوقل قتل قبل فتح مكة. قتله بعض بني سعد بن العاص ، كما ثبت ذلك فى الصحيح فهذه الاحاديث خرجت جوابا لسؤال سائلين .

اما حديث ابن عمر فانه مبتدأ واحاديث الدعوة والقتال فيها الصلاة والزكاة كما فى الصحيحين ، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله ، وان محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فاذا فعلوا ذلك ، عصموا مني دماءهم واموالهم إلا بحق الاسلام ، وحسابهم على الله » . وقد اخرجاه فى الصحيحين من حديث ابي هريرة رواه مسلم عن جابر « قال : امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله ، فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم إلا بحقها » . فقال ابو بكر : والله ! لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المال .

فكان من فقه ابى بكر انه فهم من ذلك الحديث المختصر ان القتال على الزكاة قتال على حق المال ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم مراده بذلك في اللفظ المبسوط الذي رواه ابن عمر . والقرآن صريح فى موافقة حديث ابن عمر كما قال تعالى : (فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) .

وحديث معــاذ لما بعثه الى اليمن لم يذكر فيه النبي صلى الله عليــه وسلم إلا الصلاة والزكاة .

فلما كان فى بعض الأحاديث ذكــر بعض الأركان دون بعض اشكل ذلك على بعض الناس . فأجاب بعض الناس بأن سبب هذا ان الرواة إختصر بعضهم الحديث الذي رواه ؛ وليس الأمر كذلك ؛ فان هذا طعن فى الرواة ، ونسبة لهم الى الكذب ، إذ هذا الذي ذكره انما يقع فى الحديث الواحد مثل حديث وفد عبد القيس حيث ذكر بعضهم الصيام ، وبعضهم لم يذكره ، وحديث ضمام حيث ذكر بعضهم الخمس ، وبعضهم لم يذكره،وحديث النعمان بن قوقل حيث ذكر بعضهم فيه الصيام وبعضهم لم يذكره ، فبهذا يعلم ان احد الراويين اختصر البعض او غلط فى الزيادة .

فأما الحديثان المنفصلان فليس الأمر فيهما كذلك ، لاسيما والأحاديث قد تواترت بكون الأجوبة كانت مختلفة وفيهما ما بين قطعا ان النبي صلى الله عليه وسلم تـكلم بهذا تارة وبهذا تارة ، والقرآن يصـدق ذلك ، فـان الله علق الأخوة الايمانية فى بعض الآيات بالصلاة والزكاة فقط كما في قوله تعالى : (فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين) كما انه علق ترك القتـال على ذلك في قوله تعالى: (فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وقد تقدم حديث ابن عمر الذي فى الصحيحين موافقا لهذه الآية . و « أيضاً » فان فى حديث وفد عبد القيس ذكر خمس المغنم لأنهم كانوا طائفة ممتنعة يقاتلون

ومثل هذا لا يذكر جواب سؤال سائل بما يجب عليه فى حق نفسه ، ولكن عن هذا « جوابان » :

(احدهما) : ان النبي صلى الله عليه وسلم اجاب بحسب نزول الفرائض ، واول مافرض الله الشهادتين ، ثم الصلاة ، فانه امر بالصلاة فى اول اوقات الوحي ؛ بل قد ثبت فى الصحيح ان اول ما انزل عليه : (إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق — الى قوله — علم الانسان ما لم يعلم) ثم انزل عليه بعد ذلك (يا ايها المدثر ! قم فأنذر) فهذا الخطاب إرسال له إلى الناس والارسال بعد الانباء ؛ فان الخطاب الاول ليس فيه إرسال ، وآخر سورة إقرأ (اسجد واقترب) . فأول السورة امر بالقراءة ، وآخرها امر بالسجود ، والصلاة مؤلفة من اقوال واعمال ، فأفضل اقوالها القراءة ، وافضل اعمالها السجود والقراءة اول اقوالها المقصودة ، وما بعده تبع له .

وقد روى ان الصلاة اول مافرضت كانت ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ثم فرضت الخمس ليلة المعراج ، وكانت ركعتين ركعتين ؛ فلما هاجر أقرت صلاة السفر ؛ وزيد فى صلاة الحضر ، وكانت الصلاة تكمل شيئاً بعد شيء ، فكانوا اولاً يتكلمون فى الصلاة ولم يكن فيها تشهد ، ثم أمروا بالتشهد ؛ وحرم عليهم الكلام ؛ وكذلك لم يكن بمكة لهم اذان ، وانما شرع الأذان بالمدينة بعد الهجرة ؛ وكذلك صلاة الجمعة ، والعيد ؛ والكسوف ؛ والاستسقاء ، وقيام رمضان ، وغير ذلك .. انما شرع بالمدينة بعد الهجرة .

وأمروا بالزكاة ؛ والاحسان فى مكة ايضاً ؛ ولكن فرائض الزكاة ونصبها إنما شرعت بالمدينة .

وأما « صوم شهر رمضان » فهو إنما فرض فى السنة الثانية من الهجرة ، وادرك النبي صلى الله عليه وسلم تسع رمضانات .

وأما « الحج » فقد تنازع الناس فى وجوبه ؛ فقالت طائفة فرض سنة ست من الهجرة عام الحديبية باتفاق الناس ، قالوا : وهذه الآية تدل على وجوب الحج ووجوب العمرة ايضاً لأن الامر بالاتمام يتضمن الامر بابتداء الفعل وإتمامه . وقال الاكثرون : إنما وجب الحج متأخراً ، قيل سنة تسع ؛ وقيل سنة عشر ، وهذا هو الصحيح ؛ فان آية الايجاب إنما هي قوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت) وهذه الآية فى آل عمران فى سياق مخاطبته لأهل الكتاب ، وصدر آل عمران ، وما فيها من مخاطبة اهل الكتاب نزل لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران النصارى ، وناظروه في امر المسيح ؛ وهم اول من ادى الجزية من اهل الكتاب ، وكان ذلك بعد انزال سورة براءة التى شرع فيها الجزية ، وامر فيها بقتال اهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وغزا النبي صلى الله وعليه وسلم غزوة تبوك التى غزا فيها النصارى لما امر الله بذلك فى قوله : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ، من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا

ويذكر تارة ما يجب على السائل ، فمن اجابه بالصلاة والصيام لم يكن عليه زكاة يؤديها ، ومن اجابه بالصلاة والزكاة والصيام : فاما ان يكون قبل فرض الحج ، وهذا هو الواجب فى مثل حديث عبد القيس ونحوه ، وإما ان يكون السائل ممن لا حج عليه .

واما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض ؛ ولهذا ذكر الله تعالى فى كتابه القتال عليهما ؛ لأنهما عبادتان ؛ بخلاف الصوم فانه امر باطن وهو مما ائتمن عليه الناس ، فهو من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد ؛ فان الانسان يمكنه ان لاينوي الصوم وان يأكل سراً كما يمكنه ان يكتم حدثه وجنابتــه ، واما الصلاة والزكاة فأمر ظاهر لايمكن الانسان بين المؤمنين ان يمتنع من ذلك .

وهو صلى الله عليه وسـلم يذكر فى الاسلام الأعمال الظاهرة التى يقاتل عليها الناس ، ويصيرون مسلمين بفعلهــا ؛ فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصيــام ، وان كان الصوم واجباً كما فى آيتى براءة ، فان براءة نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس . وكذلك لما بعث معاذ بن جبل الى اليمن قال له : « انك تأتى قوماً اهل كتاب ؛ فليكن اول ما تدعوهم إليه : شهادة ان لا اله الا الله ، وأنى رسول الله ، فان هم اجابوك لذلك ، فأعلمهم ان الله إفترض عليهـم خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فان هم اطاعوك لذلك ؛ فأعلمهم ان الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فترد على فقرائهـم ؛ فان هم اطاعوك لذلك ،

الجزية عن يد وهم صاغرون) ولهذا لم يذكر وجوب الحج فى عامة الاحاديث وإنما جاء فى الاحاديث المتأخرة .

وقد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد عبد القيس ، وكان قدومهم قبل فتح مكة على الصحيح كما قد بيناه ، وقالوا : يارسول الله ! ان بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر يعنون بذلك اهل نجد : من تميم واسد وغطفان لانهم بين البحرين وبين المدينة ، وعبد القيس هم من ربيعة ليسوا من مضر ، ولما فتحت مكة زال هذا الخوف ، ولما قدم عليه وفد عبد القيس امرهم بالصلاة، والزكاة ؛ وصيام رمضان ؛ وخمس المغنم ؛ ولم يأمرهم بالحج ، وحديث ضمام قد تقدم ان البخارى لم يذكر فيه الحج كما لم يذكره في حديث طلحة وابي هريرة وغيرهما مع قولهم : إن هذه الاحاديث هي من قصة ضمام ، وهذا ممكن ؛ مع ان تاريخ قدوم ضمام هذا ليس متيقناً .

واما قوله : (واتموا الحج والعمرة لله) فليس فى هذه الآية الا الامر باتمام ذلك وذلك يوجب اتمام ذلك على من دخل فيه ، فنزل الامر بذلك لما احرموا بالعمرة عام الحديبية ، ثم احصروا فأمروا بالاتمام ، وبين لهم حكم الاحصار ، ولم يكن حينئذ قد وجب عليهم لا عمرة ولا حج .

(الجواب الثانى) : انه كان يذكر فى كل مقام ما يناسبه ، فيذكر تارة الفرائض الظاهرة ، التى تقاتل على تركها الطائفة الممتنعة كالصلاة والزكاة ،

فاياك وكرائم اموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجـاب »
اخرجاه فى الصحيحين .

ومعاذ ارسله الى اليمن فى آخر الامر ، بعد فرض الصيام ؛ بل بعد فتح مكة ، بل بعد تبوك ، وبعد فرض الحج والجزية ، فان النبي صلى الله عليه وسلم مات ومعاذ باليمن ، وإنما قدم المدينة بعد موته ؛ ولم يذكر فى هـذا الحديث الصيام ، لانه تبع وهو باطن ، ولا ذكر الحج ؛ لأن وجوبه خاص ليس بعام ، وهو لا يجب فى العمر الا مرة .

ولهذا تنازع العلماء فى تكفير من يترك شيئاً من هـذه « الفرائض الاربع » بعد الاقرار بوجوبها ؛ فأما « الشهادتان » إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين ، وهو كافر باطناً وظاهراً عند سلف الامة وأئمتهـا ، وجماهير علمائها ، وذهبت طائفة من المرجئة ، وهم جهمية المرجئـة : كجهم ، والصالحي واتباعهما ، الى انه اذا كان مصدقاً بقلبه كان كافراً فى الظاهر دون الباطن ، وقد تقدم التنبيه على اصل هذا القول ، وهو قول مبتدع فى الاسلام لم يقله احد من الأئمة ، وقد تقدم ان الايمان الباطن يستلزم الاقرار الظاهر ؛ بل وغيره ، وان وجود الايمان الباطن تصديقاً وحباً ، وانقياداً بدون الاقرار الظاهر ممتنـع .

واما « الفرائض الاربع » فاذا جحد وجوب شيء منها بعد بلوغ الحجة

فهو كافر ، وكذلك من جحد تحريم شيء من المحرمات الظاهرة المتواتر تحريمها كالفواحش والظلم والكذب والخمر ونحو ذلك ، واما من لم تقم عليه الحجة مثل ان يكون حديث عهد بالاسلام ، او نشأ ببادية بعيدة ، لم تبلغه فيها شرائع الاسلام ونحو ذلك ، او غلط فظن ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستثنون من تحريم الخمر ، كما غلط فى ذلك الذين استتابهم عمر . وامثال ذلك ، فانهم يستتابون وتقام الحجة عليهم ، فان اصروا كفروا حينئذ ولا يحكم بكفرهم قبل ذلك ؛ كما لم يحكم الصحابة بكفر قدامة بن مظعون . واصحابه لما غلطوا فيما غلطوا فيه من التأويل .

واما مع الاقرار بالوجوب إذا ترك شيئاً من هذه الاركان الأربعة ففي التكفير اقوال للعلماء هي روايات عن احمد :

(احدها) : انه يكفر بترك واحد من الأربعة حتى الحج ، وإن كان فى جواز تأخيره نزاع بين العلماء ، فمتى عزم على تركه بالكلية كفر ، وهذا قول طائفة من السلف ، وهي إحدى الروايات عن احمد اختارها ابو بكر ،

و (الثاني) : انه لا يكفر بترك شيء من ذلك مع الاقرار بالوجوب ، وهذا هو المشهور عند كثير من الفقهاء من أصحاب ابي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وهو احدى الروايات عن احمد اختارها ابن بطة وغيره .

و (الثالث) لايكفر الا بترك الصلاة ، وهي الرواية الثالثة عن احمد ، وقول كثير من السلف،وطائفة من اصحاب مالك ، والشافعي ، وطائفة من اصحاب احمد .

و (الرابع) : يكفر بتركها ، وترك الزكاة فقط .

و (الخامس) : بتركها ، وترك الزكاة اذا قاتل الامام عليها دون ترك الصيام والحج . وهذه المسألة لها طرفان .

(احدها) فى اثبات الكفر الظاهر .

و (الثانى) فى اثبات الكفر الباطن .

فأما « الطرف الثاني » فهو مبنى على مسألة كون الايمان قولاً وعملاً كما تقدم ، ومن الممتنع ان يكون الرجل مؤمناً ايماناً ثابتاً فى قلبه ، بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لايسجد لله سجدة ، ولا يصوم من رمضان ، ولا يؤدي لله زكاة ، ولا يحج الى بيته ، فهذا ممتنع ، ولا يصدر هذا إلا مع نفاق فى القلب وزندقة ، لا مع ايمان صحيح ؛ ولهذا انما يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار ، كقوله : (يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون . خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون) .

وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، من حديث ابي هريرة وابي سعيد وغيرهما ، فى الحديث الطويل ، حديث التجلي « انه اذا تجلى تعالى لعباده يوم القيامة ، سجد له المؤمنون وبقي ظهر من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، مثل الطبق لا يستطيع السجود » فاذا كان هذا حال من سجد رياء فكيف حال من لم يسجد قط ؟ ! وثبت ايضاً فى الصحيح « ان النار تأكل من ابن آدم كل شيء الا موضع السجود ، فان الله حرم على النار ان تأكله » فعلم ان من لم يكن يسجد لله تأكله النار كله ، وكذلك ثبت فى الصحيح « ان النبي صلى الله وسلم يعرف امته يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء » فدل ذلك على ان من لم يكن غراً محجلاً لم يعرفه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يكون من امته .

وقوله تعالى : (كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين) وقوله تعالى : (فما لهم لا يؤمنون ؟ ! واذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون . بل الذين كفروا يكذبون والله اعلم بما يوعون) . وكذلك قوله تعالى : (فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى) . وكذلك قوله تعالى (ما سلككم في سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى اتانا اليقين) فوصفه بترك الصلاة ، كما وصفه بترك التصديق ، ووصفه بالتكذيب والتولي ، و« المتولي » هو العاصي الممتنع من الطاعة . كما قال

تعالى : (ستدعون الى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فان تطيعوا يؤتكم الله اجراً حسناً . وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليما) .

وكذلك وصف اهل سقر بأنهم لم يكونوا من المصلين ، وكذلك قرن التكذيب بالتولي فى قوله : (ارأيت الذي ينهى عبداً اذا صلى ؟ ! ارأيت ان كان على الهدى ؟ ! او امر بالتقوى ، ارأيت إن كذب وتولى ؟ ! الم يعلم بأن الله يرى ؟ ! كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة) .

و« ايضاً » فى القرآن علق الاخوة فى الدين على نفس اقام الصلاة وإيتاء الزكاة، كما علق ذلك على التوبة من الكفر ، فاذا انتفى ذلك انتفت الاخوة ، و « ايضاً » فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » . وفي المسند « من ترك الصلاة متعمداً فقد برئت منه الذمة » .

و « ايضاً » فان شعار المسلمين الصلاة، ولهذا يعبر عنهم بها فيقال : اختلف اهل الصلاة ، واختلف اهل القبلة ، والمصنفون لمقالات المسلمين يقولون : «مقالات الاسلاميين ، واختلاف المصلين» وفي الصحيح « من صلى صلاتنا ؛ واستقبل قبلتنا ؛ وأكل ذبيحتنا ؛ فذلك المسلم له مالنا ؛ وعليه ماعلينا » وامثال هذه النصوص كثيرة فى الكتاب والسنة .

واما الذين لم يكفروا بترك الصلاة ونحوها ؛ فليست لهم حجة الا وهي

متناولة للجاحد كتناولها للتارك ، فما كان جوابهم عن الجاحد كان جوابا لهم عن التارك ؛ مع ان النصوص علقت الكفر بالتولي كما تقدم ؛ وهذا مثل استدلالهم بالعمومات التى يحتج بها المرجئة كقوله « من شهد ان لااله الا الله ، وان محمداً رسول الله وان عيسى عبد الله ورسوله وكلمته القاها الى مريم وروح منه... أدخله الله الجنة » ونحو ذلك من النصوص .

واجود ما اعتمدوا عليه قوله صلى الله عليه وسلم « خمس صلوات كتبهن الله على العباد فى اليوم والليلة . فمن حافظ عليهن كان له عند الله عهد ان يدخله الجنة ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عند الله عهد ، إن شاء عذبه . وإن شاء ادخله الجنة » . قالوا : فقد جعل غير المحافظ تحت المشيئة . والكافر لايكون تحت المشيئة .ولا دلالة فى هذا؛ فان الوعد بالمحافظة عليها، والمحافظة فعلها فى اوقاتها كما امر ، كما قال تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) وعدم المحافظة يكون مع فعلها بعد الوقت ، كما اخر النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العصر يوم الخندق ، فأنزل الله آية الامر بالمحافظة عليها وعلى غيرها من الصلوات .

وقد قال تعالى : (فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً) فقيل لابن مسعود وغيره : ما اضاعتها ؟ فقال : تأخيرها عن وقتها ، فقالوا : ما كنا نظن ذلك إلا تركها ، فقال : لو تركوها لكانوا كفاراً . وكذلك قوله : (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون)

ذمهم مع انهم يصلون ؛ لأنهم سهوا عن حقوقها الواجبة من فعلها في الوقت واتمام افعالها المفروضة ، كما ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر اربعاً لايذكر الله فيها الاقليلاً» فجعل هذه صلاة المنافقين لكونه اخرها عن الوقت ونقرها .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : انه ذكر الامراء بعده الذين يفعلون ما ينكر ؛ وقالوا : يارسول الله ! افلا نقاتلهم ! قال: «لا ما صلوا » وثبت عنه انه قال : « سيكون امراء يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فصلوا الصلاة لوقتها ، ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة » فنهى عن قتالهم ، اذا صلوا وكان فى ذلك دلالة على انهم اذا لم يصلوا قوتلوا ، وبين انهم يؤخرون الصلاة عن وقتها ، وذلك ترك المحافظة عليها لا تركها .

واذا عرف الفرق بين الامرين ، فالنبي صلى الله عليه وسلم ، انما ادخل تحت المشيئة من لم يحافظ عليها ، لا من ترك ، ونفس المحافظة يقتضى انهم صلوا ولم يحافظوا عليها ، ولا يتناول من لم يحافظ ، فانه لو تناول ذلك قتلوا كفاراً مرتدين بلا ريب ، ولا يتصور فى العادة ان رجلاً يكون مؤمناً بقلبه ، مقراً بأن الله اوجب عليه الصلاة، ملتزماً لشريعة النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، يأمره ولي الأمر بالصلاة فيمتنع، حتى يقتل، ويكون مع ذلك مؤمناً فى الباطن قط لايكون إلا كافراً، ولو قال أنا مقر بوجوبها غير اني لا أفعلها

كان هذا القول مع هذه الحال كذبا منه كما لو اخذ يلقي المصحف فى الحش ويقول : اشهد ان مافيه كلام الله ، او جعل يقتل نبياً من الانبياء ، ويقول اشهد انه رسول الله ونحو ذلك من الافعال التى تنافى ايمان القلب ، فاذا قال انا مؤمن بقلبي مع هذه الحال كان كاذبا فيما اظهره من القول .

فهذا الموضع ينبغي تدبره فمن عرف ارتباط الظاهر بالباطن زالت عنه الشبهة فى هذا الباب ، وعلم ان من قال من الفقهاء انه اذا اقر بالوجوب وامتنع عن الفعل لا يقتل ، او يقتل مع اسلامه؛ فانه دخلت عليه الشبهة التى دخلت على المرجئة والجهمية ، والتى دخلت على من جعل الارادة الجازمة مع القدرة التامة لا يكون بها شيء من الفعل ، ولهذا كان الممتنعون من قتل هذا من الفقهاء بنوه على قولهم فى « مسألة الآيمان » ، وان الأعمال ليست من الايمان وقد تقدم ان جنس الاعمال من لوازم ايمان القلب ، وان ايمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع ، سواء جعل الظاهر من لوازم الايمان ، او جزء من الايمان كما تقدم بيانه .

وحينئذ فاذا كان العبد يفعل بعض المأمورات ، ويترك بعضها ، كان معه من الايمان بحسب ما فعله ، والايمان يزيد وينقص ، ويجتمع في العبد إيمان ونفاق . كما ثبت عنه في الصحيح انه قال : « اربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق ، حتى يدعها، إذا حدث كذب ، واذا ائتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

وبهذا تزول الشبهة فى هذا الباب ، فان كثيراً من الناس ؛ بل اكثرهم ،فى كثير من الأمصار لا يكونون محافظين على الصلوات الخمس، ولا هم تاركيها بالجملة بل يصلون أحياناً ، ويدعون احياناً ، فهؤلاء فيهم ايمان ونفاق ، وتجري عليهم احكام الاسلام الظاهرة في المواريث ونحوها من الأحكام ؛ فان هذه الاحكام إذا جرت على المنافق المحض ــ كابن ابي وامثاله من المنافقين ــ فلأن تجري على هؤلاء اولى واحرى .

وبيان « هذا الموضع » مما يزيل الشبهة : فان كثيراً من الفقهاء يظن ان من قيل هو كافر ، فانه يجب ان تجري عليه احكام المرتد ردة ظاهرة ، فلا يرث ولا يورث ، ولا يناكح حتى اجروا هذه الأحكام على من كفروه بالتأويل ، من اهل البدع ، وليس الأمر كذلك ؛ فانه قد ثبت ان الناس كانوا « ثلاثة اصناف » : مؤمن ؛ وكافر مظهر للكفر، ومنافق مظهر للاسلام مبطن للكفر. وكان فى المنافقين من يعلمه الناس بعلامات ودلالات بل من لا يشكون فى نفاقه ومن نزل القرآن ببيان نفاقه ــ كابن ابى وامثاله ــ ومع هذا فلما مات هؤلاء ورثهم ورثتهم المسلمون ، وكان اذا مات لهم ميت آتوهم ميراثه وكانت تعصم دماؤهم ، حتى تقوم السنة الشرعية على احدهم بما يوجب عقوبته .

ولما خرجت الحرورية على علي بن ابى طالب رضي الله عنه ،واعتزلوا جماعة المسلمين قال لهم : إن لكم علينا ان لا نمنعكم المساجد ، ولا نمنعكم نصيبكم من الفيء فلما استحلوا قتل المسلمين واخذ اموالهم قاتلهم بأمر النبى صلى الله عليه

وسلم حيث قال : «يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قرائتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية اينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فان في قتلهم اجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة » .

فكانت الحرورية قد ثبت قتالهم بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ واتفاق اصحابه ولم يكن قتالهم قتال فتنة كالقتال الذي جرى بين فئتين عظيمتين فى المسلمين؛ بل قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذي رواه البخاري انه قال للحسن ابنه: « ان ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » وقال في الحديث الصحيح : « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين فتقتلهم ادنى الطائفتين الى الحق» فدل بهذا على ان ما فعله الحسن من ترك القتال اما واجباً او مستحبا لم يمدحه النبي صلى الله عليه وسلم على ترك واجب او مستحب ودل الحديث الآخر على ان الذين قاتلوا الخوارج وهم علي واصحابه كان اقرب الى الحق من معاوية واصحابه ؛ وان قتال الخوارج امر به النبي صلى الله عليه وسلم ليس قتالهم كالقتال فى الجمل وصفين الذي ليس فيه امر من النبي .

و (المقصود) ان علي بن ابى طالب وغيره من اصحابه لم يحكموا بكفرهم ولا قاتلوهم حتى بدؤوهم بالقتال. والعلماء قد تنازعوا فى تكفير اهل البدع والاهواء وتخليدهم فى النار، وما من الأئمة الا من حكى عنه في ذلك « قولان »

كمالك والشافعي واحمد وغيرهم وصار بعض اتباعهم يحكى هذا النزاع فى جميع اهل البدع ؛ وفى تخليدهم، حتى التزم تخليدهم كل من يعتقد انه مبتدع بعينه، وفى هذا من الخطأ ما لا يحصى ؛ وقابله بعضهم فصار يظن انه لا يطلق كفر احد من اهل الاهواء ؛ وان كانوا قد اتوا من الالحاد واقوال اهل التعطيل والاتحاد .

والتحقيق فى هذا: ان القول قد يكون كفراً كمقالات الجهمية الذين قالوا: إن الله لا يتكلم ، ولا يرى فى الآخرة ؛ ولكن قد يخفى على بعض الناس انه كفر . فيطلق القول بتكفير القائل ؛ كما قال السلف من قال : القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن قال : ان الله لا يرى فى الآخرة فهو كافر ، ولا يكفر الشخص المعين حتى تقوم عليه الحجة كما تقدم ، كمن جحد وجوب الصلاة ؛ والزكاة ، واستحل الخمر ؛ والزنا وتأول . فان ظهور تلك الأحكام بين المسلمين اعظم من ظهور هذه ، فاذا كان المتأول المخطىء فى تلك لا يحكم بكفره ، إلا بعد البيان له واستتابته — كما فعل الصحابة فى الطائفة الذين استحلوا الخمر — ففي غير ذلك اولى وأحرى ، وعلى هذا يخرج الحديث الصحيح . « في الذي قال: اذا انا مت فأحرقوني ، ثم اسحقونى فى اليم ، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه احداً من العالمين » وقد غفر الله لهذا مع ما حصل له من الشك فى قدرة الله وإعادته اذا حرقوه ، وهذه المسائل مبسوطة فى غير هذا الموضع .

فان قيل : فالله قد امر بجهاد الكفار والمنافقين فى آيتين من القرآن فاذا كان المنافق تجري عليه احكام الاسلام في الظاهر ، فكيف يمكن مجاهدته .

قيل ما يستقر فى القلب من إيمان ونفاق ، لابد ان يظهر موجبه فى القول والعمل ، كما قال بعض السلف : ما أسر احد سريرة الا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه ، وقد قال تعالى فى حق المنافقين : (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفهم فى لحن القول) . فاذا اظهر المنافق من ترك الواجبات ، وفعل المحرمات مايستحق عليه العقوبة ، عوقب على الظاهر ، ولا يعاقب على مايعلم من باطنه ، بلا حجة ظاهرة ؛ ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم من المنافقين ، من عرفه الله بهم ، وكانوا يحلفون له وهم كاذبون ؛ وكان يقبل علانيتهم ، ويكل سرائرهم الى الله . واساس النفاق الذي بنى عليه وان المنافق لابد ان تختلف سريرته وعلانيته وظاهره وباطنه ، ولهذا يصفهم الله فى كتابه بالكذب كما يصف المؤمنين بالصدق ؛ قال تعالى : (ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون) . وقال : (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) . وامثال هذا كثير. وقال تعالى : (إنما المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ، اولئك هم الصادقون) وقال : (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ـــ إلى قوله ـــ اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) .

و « بالجملة » فاصل هذه المسائل ان تعلم ان الكفر « نوعان » : كفر ظاهر ،

وكفر نفاق ، فاذا تكلم في احكام الآخرة ،كان حكم المنافق حكم الكفار ، واما فى احكام الدنيا ، فقد تجري على المنافق احكام المسلمين .

وقد تبين ان الدين لابد فيه من قول وعمل ،وانه يمتنع ان يكون الرجل مؤمناً بالله ورسوله بقلبه او بقلبه ولسانه ولم يؤد واجباً ظاهراً ، ولا صلاة ولا زكاة ولا صياما ولا غير ذلك من الواجبات ، لا لأجل ان الله أوجبها ، مثل ان يؤدي الأمانة او يصدق الحديث ، او يعدل فى قسمه وحكمه ، من غير إيمان بالله ورسوله ، لم يخرج بذلك من الكفر ، فان المشركين ، واهل الكتاب يرون وجوب هذه الامور ، فلا يكون الرجل مؤمناً بالله ورسوله مع عدم شيء من الواجبات التى يختص بإيجابها محمد .

ومن قال : بحصول الايمان الواجب بدون فعل شيء من الواجبات ، سواء جعل فعل تلك الواجبات لازما له ؛ او جزءاً منه ، فهذا نزاع لفظي ، كان مخطئاً خطئاً بيناً ، وهذه بدعة الارجاء ، التى اعظم السلف والأئمة الكلام فى أهلها ، وقالوا فيها من المقالات الغليظة ماهو معروف ، والصلاة هي اعظمها وأعمها وأولها وأجلها .

فصــــل

واما « الاحسان» فقوله : « ان تعبـد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » . قد قيـل : ان الأحسان هو الاخلاص ، والتحقيق : ان الاحسان يتناول الاخلاص وغيره ، والاحسان يجمع كمال الاخلاص لله ، ويجمع الاتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى : (بلى من اسـلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال تعالى : (ومن حسن ديناً ممن اسلم وجهـه لله وهو محسن ، واتبـع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلا .) فذكر احسان الدين اولا ، ثم ذكر الاحسان ثانياً ، فاحسان الدين هو ــ والله اعلم ــ الاحسان المسئول عنـه في حديث جبريل فانه سأله عن الاسلام والايمان ؛ ففي[1] .

(١) آخر ما وجد في الاصل

وقال شيخ الاسلام رحمه الله :

فصـــــل

قد ذكرت فيما تقدم من القواعد : ان « الاسلام » الذي هو دين الله الذي انزل به كتبه ؛ وأرسل به رسله؛ وهو ان يسلم العبد لله رب العالمين ؛ فيستسلم لله وحده لاشريك له ويكون سالماً له بحيث يكون متألهاً له غير متأله لما سواه كما بينته افضل الكلام ورأس الاسلام: وهو شهادة ان لا إله إلا الله. وله ضدان: الكبر والشرك ولهذا روى ان نوحا عليه السلام أمر بنيه بـلا إله إلا الله ، وسبحان الله ونهاهم عن الكبر والشرك ، في حديث قد ذكرته في غير هذا الموضع فان المستكبر عن عبادة الله لايعبده فلايكون مستسلماً له والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركا به فلا يكون سالماً له ، بل يكون له فيه شرك .

ولفظ « الاسلام » يتضمن الاستسلام والسلامة التى هي الاخلاص ، وقد علم ان الرسل جميعهم بعثوا بالاسلام العام المتضمن لذلـك كما قال تعالى : (يحكم بها النبيون الذين أسلموا) وقال موسى : (إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقال تعالى : (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند

ربه) وقال الخليل لما قال له ربه : (أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب ـــ ايضاً وصى بهـا بنيه ـــ يابني ! إن الله إصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وانتـم مسلمون) وقال يوسف : (توفني مسلماً) ونظائره كثيرة .

وعلم ان ابراهيم الخليل هو امام الحنفـاء المسلمين ، بعده كما جعله امـة وإماماً ، وجاءت الرسل من ذريته بذلـك ، فابتدعت اليهود والنصارى مـا ابتدعوه مما خرج بهم عن دين الله الذي امروا به وهو الاسلام العام ، ولهـذا امرنا ان نقـول : (إهـدنا الصـراط المستقيـم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » وكل من هاتين الأمتين خرجت عن الاسلام وغلب عليها احد ضديه ، فاليهود يغلب عليهم الكبر ويقل فيهم الشرك ، والنصارى يغلب عليهم الشرك ويقل فيهم الكبر . وقد بين الله ذلك في كتابه فقال فى اليهود : (وإذ أخذنا ميثـاق بني اسرائيل لاتعبدون الا الله) . وهذا هو أصل الاسلام . الى قوله : (وآتينـا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون) .

وهذا اللفظ الذي هو لفظ الاستفهام ؛ هو انكار لذلك عليهم . وذم لهم عليه ، وإنما يذمون على ما فعلوه ، فعلم انهم كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى

أنفسهم استكبروا ، فيقتلون فريقاً من الأنبياء ويكذبون فريقاً ؛ وهـذا حال المستكبر الذي لا يقبل ما لا يهواه ؛ فان النبي صلى الله عليه وسلم قد فسر الكبر في الحديث الصحيح بأنه بطر الحق وغمط الناس ، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود . قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لايدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل : يا رسول الله ! الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً أفمن الكبر ذاك؟ فقال : «لا ! إن الله جميل يحب الجمال ، ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس» وبطر الحق جحده ودفعه ، وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم.

وكذلك ذكر الله « الكبر » فى قوله بعد ان قال : (وكتبنا له في الألواح من كل شيء) الى ان قال : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً) . وهذا حال الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه وهو الغاوي كما قال : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الأرض واتبع هواه) الآية وهذا مثل علماء السوء ، وقد قال لما رجع موسى اليهم : (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الالواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) فالذين يرهبون ربهم ؛ خلاف الذين يتبعون أهواءهم كما قال تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى) .

فأولئك المستكبرون المتبعون أهواءهم مصروفون عن آيات الله لا يعلمون ، ولا يفهمون، لما تركوا العمل بما علموه استكباراً واتباعاً لأهوائهم عوقبوا بان منعوا الفهم والعلم ؛ فان العلم حرب للمتعالى ، كما أن السيل حرب للمكان العالي ، والذين يرهبون ربهم عملوا بما علموه ، فأتاهم الله علماً ورحمة ، اذ من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، ولهذا لما وصف الله النصارى : (بان منهم قسيسين ورهباناً) . والرهبان : من الرهبة (وأنهم لا يستكبرون) كانوا بذلك أقرب مودة الى الذين آمنوا . كما قال : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بان منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون) .

فلما كان فيهم رهبة وعدم كبر كانوا أقرب الى الهدى فقال في حق المسلمين منهم : (وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) . قال ابن عباس : مع محمد وأمته ، وهم الأمة الشهداء ، فان النصارى لهم قصد وعبادة ، وليس لهم علم وشهادة ؛ ولهذا فان كان اليهود شراً منهم ؛ بأنهم اكثر كبراً وأقل رهبة ، وأعظم قسوة ، فان النصارى شر منهم فانهم أعظم ضلالاً واكثر شركاً ، وأبعد عن تحريم ما حرم الله ورسوله .

وقد وصفهم الله بالشرك الذي ابتدعوه ، كما وصف اليهود بالكبر الذي هووه ، فقال تعالى : (اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح

ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون) وقال تعالى : (وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق) الى قوله : (ان اعبدوا الله ربي وربكم) الآية ، وقد ذكر الله قولهم ان الله هو المسيح بن مريم ، وان الله ثالث ثلاثة ، وقولهم : اتخذ الله ولداً ؛ في مواضع من كتابه ، وبين عظيم فريتهم وشتمهم لله ، وقولهم « الاد » الذي : (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هداً) ولهذا يدعوهم في غير موضع الى ان لايعبدوا الا الهاً واحداً ، كقوله : (يا اهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق) الى قوله : (ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه ان يكون له ولد) الى قوله (لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً) وهذا لأن المشركين بمخلوق من البشر او غيرهم ، يصيرون هم مشركون . ويصير الذي اشركوا به من الأنس والجن مستكبراً ، كما قال : (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) فأخبر الله ان عباده لا يستكبرون عن عبادته وإن اشرك بهم المشركون . وكذلك قال تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله الا اله واحد) الى قوله : (ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة) الآية ، وقال تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبد الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله

عليه الجنـــة) فاخبر انه امرهم بالتوحيد ونهـــاهم عن ان يشركوا به ، او بغيره كما فعـلوه .

ولما كان اصل دين اليهود الكبر عاقبهم بالذلة : (فضربت عليهم الذلة اينما ثقفوا) . ولما كان اصل دين النصارى الاشراك لتعديد الطرق الى الله اضلهـم عنه ؛ فعوقب كل من الأمتين على ما اجترمه بنقيض قصده (وما ربك بظـلام للعبيد) . كما جاء فى الحديث : « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر يطؤهم الناس بأرجلهم » . وكما في الحديث عن عمر بن الخطـاب موقوفاً ومرفوعاً : « ما من احد الا فى رأسه حكمة فان تواضع قيل له : انتعش نعشك الله ، وإن رفع رأسه قيل له : انتكس نكسك الله » . وقال سبحانه وتعــالى : (ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) وقال تعالى :(بلى قد جاءتك آياتي فـكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين . ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة . اليس فى جهنم مثوى للمتكبرين وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم) .

ولهذا استوجبوا الغضب والمقت . والنصارى لما دخلوا فى البدع : اضلهم عن سبيل الله ، فضلوا عن سبيل الله واضلوا كثيراً وضلوا عــن سواء السبيل وهم إنما ابتدعوها ليتقربوا بها اليه ويعبدوه ، فأبعدتهم عنه واضلتهم عنه وصاروا يعبدون غيره .

فتدبر هذا والله تعالى يهدينا صراطه المستقيم صراط الذين انعم عليهم غير المغضوب عليهم والضالين .

وقد وصف بعض اليهود بالشرك ، في قوله : (وقالت اليهود عزير بن الله) وفى قوله : (قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) ففي اليهود من عبد الأصنام، وعبد البشر ؛ وذلك ان المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل ، فيكون المستكبر مشركا ، كما ذكر الله عن فرعون وقومه : انهم كانوا مع استكبارهم وجحودهم مشركين ، فقال عن مؤمن آل فرعون : (ويا قوم مالي ادعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار . تدعونني لأكفر بالله واشرك به ماليس لي به علم وانا ادعوكم الى العزيز الغفار . لا جرم انما تدعونني اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا في الآخرة) . وقال : (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) الآية . وقال يوسف الصديق لهم : (ياصاحبي السجن ارباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار . ماتعبدون من دونه الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان . إن الحكم الا لله امر ان لاتعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون) وقد قال تعالى : (وقال الملأ من قوم فرعون اتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الارض ويذرك وآلهتك .قال سنقتل ابناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) .

فان قيل : كيف يكون قوم فرعون مشركين ؟ وقد اخبر الله عن فرعون

انه جحد الخالق فقال : (وما رب العالمين) وقـال : (ما علمت لـكم من إله غيري) وقال : (انا ربكم الأعلى) وقال عن قومه : (فلما جاءتهم آياتنا بينات قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً) والاشراك لا يكون الا من مقر بالله وإلا فالجاحد له لم يشرك به .

قيل : لم يذكر الله جحود الصانـع الا عن فرعون موسى ، واما الذين كانوا فى زمن يوسف فالقرآن يدل على انهم كانوا مقرين بالله ، وهم مشركون به ، ولهذا كان خطاب يوسف للملك وللعزيز ولهم : يتضمن الاقرار بوجود الصانع كقوله : (أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار ؟) (ارجـع الى ربك فاسأله ما بال النسوة) الى قوله (انربي بكيدهن عليم) (والله لا يهدي كيد الخائنين) الى قوله : (إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي ان ربى غفور رحيم) وقد قال مومن آل ــ حم ــ (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعـده رسولاً) فهـذا يقتضي : ان اولئك الذين بعث اليهـم يوسف كانوا يقرون بالله .

ولهذا كان اخوة يوسف يخاطبونه قبل ان يعرفوا انـه يوسف ويظنونه من آل فرعون بخطاب يقتضي الاقرار بالصانع كقولهم : (تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الارض وماكنا سارقين) وقال لهـم : (انتم شر مكاناً والله اعلم بما تصفون) وقال : (معاذ الله ان نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) وقالوا له :

(ياأيها العزيز مسنا واهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين) وذلك ان فرعون الذي كان في زمن يوسف أكرم أبويه وأهل بيته لما قدموا اكراماً عظيما مع علمه بدينهم ، وإستقراء احوال الناس يدل على ذلك .

فان جحود الصانع لم يكن ديناً غالباً على أمة من الأمم قط ، وإنما كان دين الكفار الخارجين عن الرسالة هو الاشراك ، وإنما كان يجحد الصانع بعض الناس وأولئك كان علماؤهم ، من الفلاسفة الصابئة المشركين ، الذين يعظمون الهياكل ، والكواكب والاصنام ، والاخبار المروية من نقل اخبارهم وسيرهم كلها تدل على ذلك ؛ ولكن فرعون موسى : (استخف قومه فأطاعوه) وهو الذي قال لهم ــــ دون الفراعنة المتقدمين ـــ : (ماعلمت لكم من إله غيري) ثم قال لهم بعد ذلك : (انا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والاولى) نكال الكلمة الاولى . ونكال الكلمة الآخيرة ، وكان فرعون فى الباطن عارفاً بوجود الصانع وإنما استكبر كابليس وانكر وجوده ، ولهذا قال له موسى: (لقد علمت ما انزل هؤلاء إلا رب السموات والارض بصائر) فلما انكر الصانع ، وكانت له آلهة يعبدها بقي على عبادتها ولم يصفه الله تعالى بالشرك ، وإنما وصفه بجحود الصانع وعبادة آلهة اخرى . والمنكر للصانع منهم مستكبر كثيراً مايعبد آلهة ؛ ولا يعبد الله قط ؛ فانه يقول : هذا العالم واجب الوجود بنفسه . وبعض اجزائه مؤثر فى بعض، ويقول انما انتفع بعبادة الكواكب والاصنام ، ونحو ذلك ، ولهذا كان باطن قول هؤلاء الاتحادية ، المنتسبة الى الاسلام هو قول فرعون .

وكنت ابين انه مذهبهم ، وأبين انه حقيقة مذهب فرعون حتى حدثني الثقة: عن بعض طواغيتهم انه قال : نحن على قول فرعون ؛ ولهذا يعظمون فرعون في كتبهم تعظيما كثيراً . فانهم لم يجعلوا ثم صانعاً للعالم خلق العالم، ولا اثبتوا رباً مدبرا للمخلوقات ، وإنما جعلوا نفس الطبيعة هي الصانع ، ولهذا جوزوا عبادة كل شيء ، وقالوا من عبده فقد عبد الله ، ولا يتصور عندهم ان يعبد غير الله فما من شيء يعبد إلا وهو الله ، وهذه الكائنات عندهم اجزاؤه، او صفاته ، كأجزاء الانسان او صفاته ، فهؤلاء اذا عبدوا الكائنات فلم يعبدوها لتقربهم الى الله زلفى ؛ لكن لأنها عندهم هي الله او مجلى من مجاليه ، او بعض من ابعاضه او صفة من صفاته او تعين من تعيناته ، وهؤلاء يعبدون مايعبده فرعون وغيره من المشركين ، لكن فرعون لا يقول : هي الله ، ولا تقربنا الى الله ، والمشركون يقولون : هي شفعاؤنا وتقربنا الى الله ، وهؤلاء يقولون هي الله كما تقدم ، وأولئك اكفر من حيث اعترفوا بأنهم عبدوا غير الله او جحدوه؛ وهؤلاء اوسع ضلالا من حيث جوزوا عبادة كل شيء ، وزعموا انه هو الله وان العابد هو المعبود ، وان كانوا انما قصدوا عبادة الله .

واذا كان اولئك كانوا مشركين كما وصفوا بذلك . وفرعون موسى هو الذي جحد الصانع وكان يعبد الآلهة ، ولم يصفه الله بالشرك .

فمعلوم ان المشركين قد يحبون آلهتهم كما يحبون الله او تزيد محبتهم لهم على محبتهم لله ؛ ولهذا : يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم . كما قال تعالى: (ولا تسبوا

الذين يدعون من دين الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) . فقوم فرعون قد يكونون اعرضوا عن الله بالكلية بعد ان كانوا مشركين به واستجابوا لفرعون فى قوله : (انا ربكم الأعلى) و (ماعلمت لكم من إله غيري) . ولهذا لما خاطبهم المؤمن ذكر الأمرين فقال : (تدعونني لأكفر بالله واشرك به ، ماليس لي به علم) فذكر الكفر به الذي قد يتناول جحوده ، وذكر الاشراك به ايضاً ؛ فكان كلامه متناولاً للمقالتين والحالين جميعاً .

فقد تبين : ان المستكبر يصير مشركا ، اما بعبادة آلهة اخرى مع استكباره عن عبادة الله ، لكن تسمية هذا شركا نظير من امتنع مع استكباره عن اخلاص الدين لله كما قال تعالى : (انهم كانوا اذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون : أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) فهؤلاء مستكبرون مشركون ؛ وإنما استكبارهم عن اخلاص الدين لله فالمستكبر الذي لايقر بالله فى الظاهر كفرعون اعظم كفراً منهم ، وابليس الذي يأمر بهذا كله ويحبه ويستكبر عن عبادة ربه وطاعته اعظم كفراً من هؤلاء وان كان عالماً بوجود الله وعظمته كما ان فرعون كان ايضاً عالماً بوجود الله .

واذا كانت البدع والمعاصي شعبة من الكفر وكانت مشتقة من شعبه . كما ان الطاعات كلها شعبة من شعب الايمان ومشتقة منه ، وقد علم ان الذى يعرف الحق ولا يتبعه غاو يشبه اليهود ؛ وان الذي يعبد الله من غير علم وشرع : هو ضال يشبه النصارى ؛ كما كان يقول من يقول من السلف: من فسد من العلماء

ففيه شبه من اليهود ؛ ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى .

فعلى المسلم ان يحذر من هذين الشبهين الفاسدين ؛ من حال قوم فيهم استكبار وقسوة عن العبادة والتأله ؛ وقد أوتى نصيباً من الكتاب وحظاً من العلم ؛ وقوم فيهم عبادة وتأله باشراك بالله وضلال عن سبيل الله ووحيه وشرعه وقد جعل فى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها، وهذا كثير منتشر فى الناس ؛ والشبه تقل تارة وتكثر اخرى ؛ فاما المستكبرون المتألهون لغير الله الذين لايعبدون الله . وانما يعبدون غيره للانتفاع به ؛ فهؤلاء يشبهون فرعون .

وقال رحمه الله تعالى :

فصـــــل

لفظ « الاسلام » يستعمل على وجهين : « متعديا » كقوله : (ومن احسن دنيا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) وقوله : (فقل أسلمت وجهي لله ومــن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟) الآية ، وقوله فى دعاء المنام . « اسلمت نفسي اليك » .

ويستعمل « لازما » كقوله : (إذ قال له ربه : اسلم ، قال : اسلمت لرب العالمين) وقوله : (وله اسلم من في السموات والأرض) وقوله عن بلقيس : (واسلمت مع سليمان لله رب العالمين) . وهو يجمع معنيين :

(احدهما)الانقياد والاستسلام .

و (الثاني) : اخلاص ذلك وافراده . كقوله : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجــلا سلما لرجل) . وعنوانه قول لا إله الا الله . وله معنيـان .

(احدها) : الدين المشترك، وهو عبادة الله وحده لاشريك له الذي بعث به جميع الانبياء ؛ كما دل على اتحاد دينهم نصوص الكتاب والسنة .

و (الثانى) ما اختص به محمد من الدين والشرعة والمنهاج — وهو الشريعة والطريقة والحقيقة — وله مرتبتان :

(احدها) الظاهر من القول والعمل ، وهي المباني الخمس .

و (الثاني) : ان يكون ذلك الظاهر مطابقاً للباطن . فبالتفسير الأول [جاءت] الآيتان فى كتاب الله ، والحديثان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو اعم من الايمان ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا . وبا (التفسير) الثاني يقال : (ان الدين عند الله الاسلام) وقوله : (وذلك دين القيمة) وقوله : آمركم بالايمان بالله ، وفسره بخصال الاسلام .وعلى هذا التفسير فالايمان التام ، والدين والاسلام سواء ، وهو الذي لم يفهم المعتزلة غيره . وقد يراد به معنى ثالث هو كماله وهو قوله : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » فيكون اسلم غيره ، اي جعله سالما منه .

ولفظ الايمان : قيل اصله التصديق — وليس مطابقاً له؛ لابد بل ان يكون تصديقاً عن غيب ، والا فالخبر عن مشهود ليس تصديقه إيمانا ؛ لأنه من الأمن الذي هو الطمأنينة ، وهذا انما يكون في الخبر الذي قد يقع فيه ريب ، والمشهودات لا ريب فيها . الا على هذا — فاما تصديق القلب فقط كما تقول

الجهمية ومن اتبعهم من الأشعرية ، وإما القلب واللسان كما تقوله المرجئـة ، او باللسان كما تقوله الكرامية ، وإما التصـديق بالقلب والقول والعمل ـ فان الجميع يدخل فى مسمى التصديق على مذهب اهل الحديث ، كما فسره شيخ الاسلام وغيره ـ . وقيل : بل هو الأقرار ؛ لان التصديق انما يطابق الخبر فقط ، واما الاقرار فيطابق الخبر والامر كقوله : (اقررتم واخذتم على ذلكم اصري قالوا : اقررنا) ولأن قر ، وآمن : متقاربان. فالايمان دخول فى الامن ، والاقرار دخول فى الاقرار ، وعلى هذا فالكلمة اقرار ، والعمل بها اقرار ايضاً .

ثم هو فى الكتاب بمعنيين : اصل ، وفرع واجب ، فالاصل الذي فى القلب وراء العمل ، فلهذا يفرق بينهما بقوله : (آمنوا وعملوا الصالحات) والذي يجمعهما كما فى قوله : (انما المؤمنون) و (لا يستأذنك الذين لا يؤمنون) . وحديث « الحيا » ، و « وفد عبد القيس » ، وهو مركب من اصل لايتم بدونه ومن واجب ينقص بفواته نقصا يستحق صاحبه العقوبة ، ومن مستحب يفوت بفواته علو الدرجة فالناس فيه ظالم لنفسه ومقتصد وسابق ، كالحج وكالبدن والمسجد وغيرهما من الاعيان ، والاعمال والصفات ، فمن سواء اجزائه ما اذا ذهب نقص عن الاكمل ومنه ما نقص عن الكمال ، وهو ترك الواجبات او فعل المحرمات ، ومنه ما نقص ركنه وهو ترك الاعتقاد والقول: الذي يزعم المرجئة والجهمية انه مسمى فقط ، وبهذا تزول شبهات الفرق. واصله القلب وكماله العمل الظاهر ، بخلاف الاسلام فان اصله الظاهر ، وكماله القلب .

وقال رحمه الله

فصـــــل

معلوم ان اصل « الايمان » هو الايمان بالله ورسوله ، وهو اصل العلم الالهي كما بينته فى اول الجزء ..

فاما « الايمان بالله » فهو فى الجملة قد اقر به جمهور الخلائق ، الا شواذ الفرق من الفلاسفة الدهرية ، والاسماعيلية ونحوهم.او من نافق فيه،من المظهرين للتمسك بالملل ، وانما يقع اختلاف اهل الملل فى اسمائه وصفاته وافعاله واحكامه وعباداته ونحو ذلك.

واما « الايمان بالرسول » فهو المهم ، اذ لا يتم الايمان بالله بدون الايمان به ، ولا تحصل النجاة والسعادة بدونه ، اذ هو الطريق الى الله سبحانه ؛ ولهذا كان ركنا الاسلام : « اشهد ان لا اله الا الله ، واشهد ان محمداً عبده ورسوله» .

ومعلوم ان الايمان هو الاقرار ؛ لا مجرد التصديق . والاقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق ، وعمل القلب الذي هو الانقياد ــ تصديق الرسول

فيما اخبر ، والانقياد له فيما امر ، كما ان الاقرار بالله هو الاعتراف به والعبادة له فالنفاق يقع كثيراً فى حق الرسول ، وهو اكثر ما ذكره الله فى القرآن من نفاق المنافقين في حياته ، والكفر هو عدم الايمان سواء كان معه تكذيب اواستكبار او اباء او اعراض؛فمن لم يحصل فى قلبه التصديق والانقياد فهو كافر.

ثم هنا « نفاقان » : نفاق لأهل العلم والكلام ، ونفاق لاهل العمل والعبادة ــ فأما النفاق المحض الذي لا ريب فى كفر صاحبه ، فان لا يرى وجوب تصديق الرسول فيما اخبر به ، ولا وجوب طاعته فيما امر به ، وان اعتقد مع ذلك ان الرسول عظيم القدر ــ علما وعملا ، وانه يجوز تصديقه وطاعته ؛ لكنه يقول : انه لا يضر اختلاف الملل اذا كان المعبود واحدا ، ويرى انه تحصل النجاة والسعادة بمتابعة الرسول وبغير متابعته ؛ اما بطريق الفلسفة والصبو ، او بطريق التهود والتنصر ، كما هو : قول الصابئة الفلاسفة ، فى هذه المسألة وفى غيرها ، فانهم وان صدقوه وأطاعوه فانهم لا يعتقدون وجوب ذلك على جميع اهل الارض ؛ بحيث يكون التارك لتصديقه وطاعته معذباً ؛ بل يرون ذلك مثل التمسك بمذهب امام او طريقة شيخ او طاعة ملك ؛ وهذا دين التتار ومن دخل معهم .

اما النفاق الذي هو دون هذا ؛ فان يطلب العلم بالله من غير خبره ؛ او العمل لله من غير امره ؛ كما يبتلى بالأول كثير من المتكلمة . وبالثانى كثير من المتصوفة فهم يعتقدون انه يجب تصديقه او تجب طاعته لكنهم فى سلوكهم العلمي

والعملي غير سالكين هذا المسلك بل يسلكون مسلكا آخر: اما من جهة القياس والنظر واما من جهة الذوق والوجد ؛ واما من جهة التقليد ؛ وما جاء عن الرسول اما ان يعرضوا عنه واما ان يردوه الى ماسلكوه ؛ فانظر نفاق هذين الصنفين ! مع اعترافهم باطناً وظاهراً بأن محمداً اكمل الخلق وافضل الخلق وانه رسول وانه اعلم الناس، لكن اذا لم يوجبوا متابعته وسوغوا تركمتابعته كفروا وهذا كثير جداً لكن بسط الكلام فى حكم هؤلاء : له موضع غير هذا .

سئل رحمه الله :-

عن (الايمان بالله ورسوله) هل فوقـه مقـام من المقامات،او حال من الاحوال ام لا ؟ وهل يدخل فيـه جميع المقامات والاحوال المحمودة عنـد الله ورسوله ام لا ؟ وهل تكون صفة الايمان نوراً يوقعه الله في قلب العبد ويعرف العبد عند وقوعه في قلبه الحق من الباطل ام لا؟وهل يكون لأول حصوله سبب من الاسباب ـــ مثل رؤية اهل الخير او مجالستهم وصحبتهم او تعلم عمل من الاعمال اوغير ذلك؟ .

فان كان لأول حصوله سبب ، فما هو ذلك السبب ؟ وما الاسباب ايضـاً التي يقوى بها الايمان ـــ الى ان يكمل، على ترتيبها ؟ هل يبـدأ بالزهد حتى يصححه ؟ ام بالعلم حتى يرسخ فيه ؟ ام بالعبادة حتى يجهد نفسه ؟ ام يجمع بـين ذلك على حسب طاقته ؟ ام كيف يتوصل الى حقيقـة الايمـان الذي مدحه الله ورسوله ؟ بينوا لنا الاسباب وانواعها وشرحهـا ، التي يتوصل بها الى حقيقـة الايمان ، وما وصف صاحبه ـــ رضي اللهعنكم؟ !

فأجاب الحمد لله رب العالمين

اسم «الايمان» يستعمل مطلقاً ، ويستعمل مقيداً ، واذا استعمل مطلقاً ، فجميع مايحبه الله ورسوله من اقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة يدخل فى مسمى الايمان عند عامة السلف والأئمة ، من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، الذين يجعلون الايمان قولا وعملاً ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ويدخلون جميع الطاعات فرضها ونفلها فى مسماه ، وهذا مذهب الجماهير من اهل الحديث والتصوف والكلام والفقة ، من اصحاب مالك والشافعي واحمد وغيرهم .

ويدخل فى ذلك ماقد يسمى مقاماً وحالا ، مثل الصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والرضا والخشية والانابة والاخلاص والتوحيد وغير ذلك .

ومن هذا ماخرج فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم — انه قال : « الايمان بضع وستون — او بضع وسبعون — شعبة ، اعلاها قول لا اله الا الله ، وادناها اماطة الاذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان» .فذكر اعلا شعب الايمان ، وهو قول لا اله الا الله ، فانه لاشيء افضل منها كما فى الموطأ وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « افضل الدعاء دعاء يوم

عرفة ، وافضل ما قلت انا والنبيون من قبلي : لا اله الا الله ، وحده لا شريك له،له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » وفى الترمذي وغيره انه قال : « من مات وهو يعلم ان لا اله الا الله دخل الجنـة » وفى الصحيح عنه انه قال : لعمه عند الموت « ياعم ! قل : لا اله الا الله ، كلمة احاج لك بها عند الله » .

وقد تظاهرت الدلائل على ان احسن الحسنات هو التوحيد ، كما ان اسوأ السيئات هو الشرك ، وهو الذنب الذي لايغفره الله ، كما قال تعـالى : (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وتلك الحسنة التى لابد من سعادة صاحبها كما ثبت فى الصحيح عنه حديث الموجبتين : موجبـة السعادة ، وموجبة الشقاوة ؛ فمن مات يشهد ان لا اله الا الله دخل الجنة ، واما من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار وذكر في الحديث انها أعلا شعب الايمان .

وفى الصحيحين عنـه صلى الله عليه وسلم انه قال لوفـد عبـد القيس : « آمركم بالايمان بالله ، اتدرون ماالايمان بالله ؟ شهادة ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله ، وتقيموا الصلاة ، وتؤتوا الزكاة ، وتؤدوا خمس المغنم» فجعل هذه الاعمال من الايمان ، وقد جعلها من الاسلام فى حديث جبرائيل الصحيح ــ لما أتاه فى صورة اعرابي ــ وسأله عن الايمـان ؛ فقال : « الايمـان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعـد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » وسأله عن الاسلام فقال : « ان تشهد ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله

وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » وفى حديث فى المسند قال : « الاسلام علانية ، والايمان فى القلب ».

فأصل الايمان فى القلب وهو قول القلب وعمله ، وهو اقرار بالتصديق والحب والانقياد ، وما كان فى القلب فلابد ان يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح ، واذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه او ضعفه ؛ ولهذا كانت الاعمال الظاهرة من موجب ايمان القلب ومقتضاه . وهي تصديق لما فى القلب ودليل عليه وشاهد له ، وهي شعبة من مجموع الايمان المطلق وبعض له ؛ لكن مافى القلب هو الاصل لما على الجوارح ، كما قال ابو هريرة — رضي الله عنه — : ان القلب ملك ، والاعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده ، واذا خبث الملك خبثت جنوده ، وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان فى الجسد مضغة ، اذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، الا وهي القلب! ».

ولهذا ظن طوائف من الناس ان الايمان انما هو فى القلب خاصة ، وما على الجوارح ليس داخلا فى مسماه ، ولكن هو من ثمراته ونتائجه الدالة عليه ، حتى ال الامر بغلاتهم — كجهم واتباعه — الى ان قالوا : يمكن ان يصدق بقلبه ، ولا يظهر بلسانه الا كلمة الكفر ، مع قدرته على اظهارها ، فيكون الذي فى القلب ايمانا نافعاً له فى الآخرة ، وقالوا : حيث حكم الشارع بكفر احد بعمل او قول : فلكونه دليلا على انتفاء مافى القلب . وقولهم متناقض ؛ فانه اذا كان ذلك دليلا مستلزماً لانتفاء الايمان الذي فى القلب امتنع ان يكون الايمان ثابتاً فى

القلب، مع الدليل المستلزم لنفيه ، وان لم يكن دليلا لم يجز الاستدلال به على الكفر الباطن.

والله سبحانه في غير موضع يبين ان تحقيق الايمان وتصديقه بما هو من الاعمال الظاهرة والباطنة. كقوله: (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً) وقال: (انما المؤمنون الذين آمنو بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) وقال تعالى: (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) وقال تعالى: (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما).

فاذا قال القائل: هذا يدل على ان الايمان ينتفي عند انتفاء هذه الامور، لايدل على انها من الايمان، قيل هذا إعتراف بأنه ينتفي الايمان الباطن مع عدم مثل هذه الامور الظاهرة، فلا يجوز ان يدعي انه يكون في القلب إيمان ينافي الكفر بدون امور ظاهرة:لاقول ولا عمل وهو المطلوب ــ وذلك تصديق ــ وذلك لأن القلب اذا تحقق مافيه اثر في الظاهر ضرورة، لايمكن انفكاك أحدهما عن الآخر، فالارادة الجازمة للفعل مع القدرة التامة توجب وقوع المقدور، فاذا كان في القلب حب الله ورسوله ثابتاً استلزم موالاة اوليائه

ومعاداة اعدائه (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليـــوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم) (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء) فهذا التلازم امر ضروري .

ومن جهـــة ظن انتفاء التلازم غلط غالطون ؛ كما غلط آخرون فى جواز وجود إرادة جازمة مع القدرة التامة بدون الفعل ، حتى تنازعوا : هل يعاقب على الارادة بلا عمل ؟ وقد بسطنا ذلك فى غير هذا الموضع ، وبينا : ان الهمة التى لم يقترن بها فعل ما يقدر عليه الهام ليست ارادة جازمـــة ، وان الارادة الجازمة لابد أن يوجد معها ما يقدر عليه العبد ، والعفو وقع عمن هم بسيئة ولم يفعلها ؛ لا عن من أراد وفعل المقدور عليه ، وعجز عن حصول مراده ، كالذي اراد قتل صاحبه فقاتله حتى قتل احدهما ؛ فان هذا يعاقب ؛ لأنه أراد وفعـــل المقدور من المراد ، ومن عرف الملازمات الـــتى بين الأمور الباطنة والظاهرة زالت عنه شبهات كثيرة فى مثل هذه المواضع التى كثر اختلاف الناس فيها .

بقي ان يقال : فهل اسم الايمان للأصل فقط ، اوله ولفروعه؟. والتحقيق: ان الاسم المطلق يتناولها ، وقد يخص الاسم وحده بالاسم مع الاقتران ، وقد لايتناول الا الأصل ، اذا لم يخص الا هو ؛ كاسم الشجرة ، فانه يتنـــاول الأصل والفرع اذا وجدت ، ولو قطعت الفروع لـكان اسم الشجرة يتنـــاول الأصل وحده ، وكذلك اسم الحج هو اسم لـكل ما يشرع فيه من ركن ، وواجب ،

ومستحب، وهو حج أيضاً تام بدون المستحبات، وهو حج ناقص بدون الواجبات التي يجبرها دم.

والشارع صلى الله عليه وسلم لا ينفي الايمان عن العبد لترك مستحب لكن لترك واجب، بحيث ترك ما يجب من كماله وتمامه؛ لا بانتفاء ما يستحب في ذلك، ولفظ الكمال والتمام: قد يراد به الكمال الواجب، والكمال المستحب؛ كما يقول بعض الفقهاء: الغسل ينقسم: الى كامل، ومجزيء، فاذا قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا إيمان لمن لا أمانة له» و«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». ونحو ذلك، كان لانتفاء بعض ما يجب فيه؛ لا لانتفاء الكمال المستحب. والايمان يتبعض ويتفاضل الناس فيه: كالحج، والصلاة؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان، ومثقال شعيرة من إيمان».

وأما اذا استعمل اسم الايمان مقيداً: كما في قوله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقوله: (الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت» ونحو ذلك فهنا قد يقال: إنه متناول لذلك، وان عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام، كقوله تعالى: (وملائكته وجبريل وميكال) وقوله: (واذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم).

وقد يقال : ان دلالة الاسم تنوعت بالافراد والاقتران كلفظ الفقير والمسكين ، فان أحدهما اذا افرد تناول الآخر ، واذا جمع بينهما كانا صنفين : كما فى آية الصدقة ، ولا ريب أن فروع الايمان مع أصوله كالمعطوفين ، وهي مع جميعه كالبعض مع الكل ، ومن هذا الموضع نشأ نزاع واشتباه ، هل الاعمال داخلة في الايمان أم لا ؟ لكونها عطفت عليه .

ومن هذا الباب قد يعطف على الايمان بعض شعبه العالية ، او بعض انواعه الرفيعة : كاليقين ، والعلم ، ونحو ذلك ، فيشعر العطف بالمغايرة ، فيقال هذا : ارفع الايمان — اي اليقين والعلم ارفع من المؤمن الذي ليس معه هذا .اليقين والعلم ، كما قال الله تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات). ومعلوم أن الناس يتفاضلون في نفس الايمان والتصديق في قوته وضعفه ، وفى عمومه وخصوصه ، وفى بقائه ودوامه ، وفي موجبه ونقيضه ، وغير ذلك من أموره ، فيخص أحد نوعيه باسم يفضل به على النوع الآخر ، ويبقى اسم الايمان ، في مثل ذلك متناولاً للقسم الآخر ، وكذلك يفعل فى نظائر ذلك ؛ كما يقال : الانسان خير من الحيوان ، والانسان خير من الدواب ، وان كان الانسان يدخل فى الدواب ، فى قوله : (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) .

فاذا عرف هذا ؛ فحيث وجد فى كلام مقبول تفضيل شيء على الايمان ؛ فانما هو تفضيل نوع خاص على عمومه ، أو تفضيل بعض شعبه العالية على غيره ،

واسم الايمان قد يتناول النوعين جميعاً ، وقد يخص أحدهما كما تقدم ، وقد قيل: أكثر اختلاف العقلاء من جهة اسمائه .

فصل

وأما قول القائل : هل تكون صفة الايمان نوراً يوقعه الله فى قلب العبد ، ويعرف العبد عند وقوعه فى قلبه الحق من الباطل ؟ فيقال له : قد قال الله تعالى: (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) قال ابى بن كعب وغيره : مثل نوره فى قلب المؤمن ، الى قوله : (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) وقال تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ، كمن مثله في الظلمات ؟ !) فالايمان الذي يهبه الله لعبده سماه نوراً ، وسمي الوحي النازل من السماء الذي به يحصل الايمان(نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) وقال تعالى : (فالذين امنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه) وأمثال ذلك ، ولا ريب أن المؤمن يفرق بين الحق والباطل ، بل يفرق بين أعظم الحق ، لكن لا يمكن أن يقال : بأن كل من له ايمان يفرق بمجرد ما اعطيه من الايمان بين كل حق وكل باطل .

فصل

وأما قوله : هل يكون لاول حصوله سبب ؟ فلا ريب أنه يحصل بسبب ، مثل استماع القرآن ، ومثل رؤية أهل الايمان ، والنظر في أحوالهم ، ومثل معرفة احوال النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعجزاته ، والنظر فى ذلك ، ومثل النظر فى آيات الله تعالى ، ومثل التفكر فى احوال الانسان نفسه ، ومثل الضروريات التى يحدثها الله للعبد التى تضطره الى الذل لله ، والاستسلام له ، واللجأ اليه وقد يكون هذا سبباً لشيء من الايمان ، وهذا سبباً لشيء آخر ؛ بل كل ما يكون فى العالم من الامور فلابد له من سبب ، وسبب الايمان وشعبه يكون تارة من العبد ، وتارة من غيره ، مثل من يقيض له من يدعوه الى الأيمان، ومن يأمره بالخير ، وينهاه عن الشر ، ويبين له علامات الدين ، وحججه وبراهينه، وما يعتبره وينزل به ويتعظ به ، وغير ذلك من الاسباب .

فصــــل

واما قوله : فالاسباب التى يقوى بها الايمان الى ان يكمل على ترتيبها ؟ هل يبدأ بالزهد ؟ او بالعلم ؟ او بالعبادة ؟ ام يجمع بين ذلك عـلى حسب طاقته ؟ فيقال : له لابد من الايمان الواجب ، والعبادة الواجبة ، والزهد الواجب ، ثم الناس يتفاضلون في الايمان ؛ كتفاضلهم فى شعبه ، وكل انسان يطلب ما يمكنه طلبه ، ويقدم مايقدر على تقديمه من الفاضل .

والناس يتفاضلون فى هذا الباب : فمنهم من يكون العلم ايسر عليه من الزهد ومنهم من يكون الزهد ايسر عليه ، ومنهم من تكون العبادة ايسر عليه منها ، فالمشروع لكل انسان ان يفعل ما يقدر عليه من الخير ، كما قال تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) واذا ازدحمت شعب الايمان قدم ما كان ارضى لله وهو عليه اقدر ، فقد يكون على المفضول اقدر منه على الفاضل ، ويحصل له افضل مما يحصل من الفاضل ، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له ، وهو فى حقه أفضل ، ولا يطلب ما هو افضل مطلقاً ، اذا كان متعذراً فى حقه او متعسراً يفوته ماهو افضل له وأنفع ؛ كمن يقرأ القرآن بالليل فيتدبره وينتفع بتلاوته ، والصلاة تثقل عليه ، ولا ينتفع منها بعمل ،او ينتفع بالذكر اعظم مماينتفع بالقراءة.

فأي عمل كان له أنفع ولله اطوع افضل فى حقه من تكلف عمل لا يأتي به على وجهه ، بل على وجه ناقص ، ويفوته به ماهو انفع له ؛ ومعلوم أن الصلاة اكد من قراءة القرآن ، وقراءة القرآن افضل من الذكر والدعاء ، ومعلوم أيضاً ان الذكر فى فعله الخاص : كالركوع والسجود ، افضل من قراءة القرآن فى ذلك المحل ، وان الذكر والقراءة والدعاء عند طلوع الشمس وغروبها خير من الصلاة .

والزهد هو ضد الرغبة ، وهو كالبغض المخالف للمحبة ، والكراهة المخالفة للارادة ، وكل من الارادة والكراهة له اقسام فى نفسه ، وفى متعلقه ، فالزهد (فيه) انقسام : الى المزهود فيه ، والى نفس الزهد .

اما الأول : فان الزهد [1] ، وأما نفس الزهد الذي هو ضد الرغبة ، وهو الكراهة والبغض لحقيقة المشروع منه ، ان يكون كراهة العبد وبغضه وحبه تابعاً لحب الله وبغضه ورضاه وسخطه ، فيحب ما احبه الله ، ويبغض ما ابغضه الله ، ويرضى ما يرضاه ، ويسخط ما يسخطه الله بحيث لايكون تابعاً هواه ، بل لأمر مولاه ، فان كثيراً من الزهاد فى الحياة الدنيا اعرضوا عن فضولها ، ولم يقبلوا على ما يحبه الله ورسوله ، وليس مثل هذا الزهد يأمر الله به ورسوله ، ولهذا كان فى المشركين زهاد ، وفى اهل الكتاب زهاد ، وفى اهل البدع زهاد .

---

(١) بياض فى الأصل .

ومن الناس من يزهد لطلب الراحة من تعب الدنيا ، ومنهم من يزهد لمسألة اهلها والسلامة من اذاهم ، ومنهم من يزهد فى المال لطلب الراحة ، الى امثال هذه الانواع التى لا يأمر الله بها ولا رسوله ، وانما يأمر الله ورسوله ان يزهد فيما لا يحبه الله ورسوله ، ويرغب فيما يحبه الله ورسوله ،فيكون زهده هو الاعراض عما لا يأمر الله به ورسوله ، امر ايجاب ولا امر استحباب ،سواء كان محرماً أو مكروهاً أو مباحاً مستوى الطرفين فى حق العبد ، ويكون مع ذلك مقبلاً على ما امر الله به ورسوله ، والا فترك المكروه بدون فعل المحبوب ليس بمطلوب ، وإنما المطلوب بالمقصود الأول فعل ما يحبه الله ورسوله ، وترك المكروه متعين كذلك به تزكو النفس ؛ فان الحسنات اذا انتفت عنها السيئات زكت ، فبالزكاة تطيب النفس من الخبائث ، وتعظم في الطاعات ، كما ان الزرع اذا ازيل عنه الدغل زكا وظهر وعظم .

فصل

واما طريق الوصول الى ذلك : فبالاجتهاد في فعل المأمور ، وترك المحظور والاستعانة به على ذلك ، ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، وان اصابك شيء فلا تقل لو اني فعلت لكان كذا وكذا . ولكن قل قدر الله وماشاء فعل ؛ فان لو تفتح عمل

الشيطان » وفى السنن « ان النبي صلى الله عليــه وسلم قضى على رجل فقال المقضي عليه : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبي صلى الله عليـه وسلم :«ان الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس فاذا غلبك امر فقــل : حسبي الله ونعم الوكيل » .

فامر النبي صلى الله عليه وسلم العبد بأن يحرص على ما ينفعـه ، ويستعين بالله على ذلك ، والحرص على ماينفعه هو الاجتهاد فى الخير . وهو العبادة ؛ فان كل ماينفع العبد فهو مأمور بطلبه ، وانما ينهي عن طلب مايضره ـــ وان اعتقد انه ينفعه ـــ كما يطلب المحرمات وهي تضره ، ويطلب المفضول الذي لا ينفعه ، والله تعالى اباح للمؤمنين الطيبات وهي ماينفعهم ، وحرم عليهم الخبائث وهي مـا يضرهم ، والله سبحانه وتعالى اعــلم . وصلى الله عــلى محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال شيخ الاسلام

قدس الله روحه

فصـــــــل

واما الايمان : هل هو مخلوق او غير مخلوق ؟.

فالجواب ان هذه المسألة نشأ النزاع فيها لما ظهرت محنة الجهمية في القرآن هل هو مخلوق او غير مخلوق ؟ وهي محنة الامام احمد وغيره من علماء المسلمين وقد جرت فيها امور يطول وصفها هنا ، لكن لما ظهر القول بان القرآن كلام الله غير مخلوق ، واطفأ الله نار الجهمية المعطلة ، صارت طائفة يقولون ان كلام الله الذي انزله مخلوق ، ويعبرون عن ذلك باللفظ ، فصاروا يقولون الفاظنا بالقرآن مخلوقة ، او تلاوتنا او قراءتنا مخلوقة ، وليس مقصودهم مجرد كلامهم وحركاتهم بل يدخلون في كلامهم نفس كلام الله الذي نقرأ بأصواتنا وحركاتنا ، وعارضهم طائفة اخرى فقالوا : الفاظنا بالقرآن غير مخلوقة ، فرد الامام احمد على الطائفتين وقال : من قال : لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال : غير مخلوق فهو مبتدع .

وتكلم الناس حينئذ فى الايمانفقالت طائفة : الايمان مخلوق وادرجوا فى ذلك ماتكلم الله به من الايمان مثل : قول لا إله إلا الله ، فصار مقتضى قولهم ان نفس هذه الكلمة مخلوقة ، ولم يتكلم الله بها ، فبدع الامام احمد هؤلاء ، وقال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « الايمان بضع وستون شعبة اعلاها قول لا إله إلا الله » أفيكون قول لا إله إلا الله مخلوقا .

ومراده ان من قال: هي مخلوقة مطلقاً ، كان مقتضى قوله ان الله لم يتكلم بهذه الكلمة كما ان من قال : إن الفاظنا وتلاوتنا وقراءتنا للقرآن مخلوقة ، كان مقتضى كلامه ان الله لم يتكلم بالقرآن الذي انزله ، وان القرآن المنزل ليس هو كلام الله ، وان يكون جبريل نزل بمخلوق ليس هو كلام الله ، والمسلمون يقرءون قرآناً مخلوقاً ليس هو كلام الله ، وقد علم بالاضطرار من دين الاسلام ان القرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله تعالى ، وان كان مسموعا من المبلغ عنه ، فان الكلام قد سمع من المتكلم به كما سمعه موسى بلا واسطة ، وهذا سماع مطلق — كما يرى الشيء رؤية مطلقة وقد يسمعه من المبلغ عنه ، فيكون قد سمعه سمعاً مقيداً — كما يرى الشيء في الماء والمرآة رؤية مقيدة لامطلقة او كما قال تعالى : (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) كان معلوماً عند جميع من خوطب بالقرآن انه يسمع سماعا مقيداً من المبلغ ليس المراد به انه يسمع من الله .

ومن هؤلاء من قال : انه يسمع صوت القاريء من الله ثم من هؤلاء من

يقول : ان صوت الرب حل فى العبد ، ومنهم من يقول ظهر فيه — ولم يحل فيه ومنهم من يقول لا اقوال ظهر ولا حل ، ومنهم من قال الصوت المسموع غير مخلوق او قديم، ومنهم من يقول يسمع منه صوتان : مخلوق ، وغير مخلوق .

ومن القائلين بانه مسموع من الله ، من يقول : بانــه يسمع المعنى القديم القائم بذات الرب مع سماع الصوت المحدث ؛ قال هؤلاء يسمع القديم والمحدث كما قال اولئك يسمع صوتين قديماً ومحدثاً ؛ وطائفـة اخرى قالت : لم يسمع النـاس كلام الله ؛ لامن الله ولا من غــيره ؛ قالوا : لأن الكلام لايسمع الا من المتكلم ؛ ثم من هؤلاء من قال : تسمع حكايته ، ومنهم من قـال : تسمع عبارته لاحكايته ؛ ومن القائلين بأنه مخلوق من قـال : يسمع شيئان : الكلام المخلوق ؛ والذي خلقه ؛ والصوت الذي للعبد .

وهذه الاقوال كلها مبتدعة مخترعة ، لم يقل السلف شيئاً منها ؛ وكلها باطلة شرعاوعقلا، ولكن الجأ اصحابهااليها إشتراك في الالفاظ ؛ واشتباه فى المعانى؛ فانه اذا قيل سمعت كلام زيد ، او قيل هذا كلام زيد ، فان هذا يقال : عـلى كلامه الذي تكلم به بلفظه ومعناه ، سواء كان مسموعاً منه او من المبلغ عنه ، مع العلم بالفرق بين الحالين ، وانه اذا سمع منه سمع بصوته ، واذا سمع من غيره سمــع بصوت ذلك المبلغ ، لا بصوت المتكلم ، وان كان اللفظ لفظ المتكلم ، وقد يقال مع القرينة هذا كلام فلان وإن ترجم عنه بلفظ آخر ، كما يحكي الله كلام من يحكي قوله من الأمم باللسان العربي ، وان كانوا انما قالوه بلفظ عبري او سرياني

او قبطي او غير ذلك ، وهذه الأمور مبسوطة فى مواضع آخر .

و (المقصود هنا) انه نشأ بين اهل السنة والحديث النزاع فى «مسألتى : القرآن ، والايمان »بسبب ألفاظ مجملة ، ومعاني متشابهة ، وطائفة من أهل العلم والسنة : كالبخاري صاحب الصحيح ، ومحمد بن نصر المروزي وغيرهما ، قالوا : الايمان مخلوق ؛ وليس مرادهم شيئاً من صفات الله . وإنما مرادهم بذلك افعال العباد ، وقد اتفق أئمة المسلمين على ان افعال العباد مخلوقة ، وقال يحيى بن سعيد القطان : ما زلت اسمع اصحابنا يقولون : افعال العباد مخلوقة .

وصار بعض الناس يظن ان البخاري وهؤلاء خالفوا احمد بن حنبل وغيره من ائمة السنة ، وجرت للبخاري محنة بسبب ذلك ، حتى زعم بعض الكذابين ان البخارى لما مات امر احمد بن حنبل ان لا يصلي عليه ، وهذا كذب ظاهر ، فان اباعبد الله البخاري — رحمه الله ! — مات بعد احمد بن حنبل بنحو خمس عشرة سنة ، فان احمد بن حنبل — رضي الله عنه — توفى سنة احدى واربعين ومائتين ، وتوفى البخاري سنة ست وخمسين ومائتين ، وكان احمد بن حنبل يحب البخاري ويجله ويعظمه ، وأما تعظيم البخاري وامثاله للامام احمد فهو امر مشهور ، ولما صنف البخاري كتابه فى خلق افعال العباد ، وذكر فى آخر الكتاب ابواباً فى هذا المعنى ؛ ذكر ان كلا من الطائفتين القائلين : بان لفظنا بالقرآن مخلوق ، والقائلين بانه غير مخلوق ، ينسبون الى الامام احمد بن حنبل ،

ويدعون أنهم على قوله ، وكلا الطائفتين لم تفهم دقة كلام احمد - رضي الله عنه - .

وطائفة اخرى : كأبي الحسن الأشعري ، والقاضي ابى بكر بن الطيب ، والقاضي ابى يعلى وغيرهم ، ممن يقولون إنهم على اعتقاد احمد بن حنبل ، وائمة اهل السنة والحديث ، قالوا: احمد وغيره كرهوا ان يقال: لفظي بالقرآن ؛ فان اللفظ هو الطرح والنبذ ، وطائفة اخرى كأبي محمد بن حزم وغيره ممن يقول ايضاً : انه متبع لأحمد بن حنبل وغيره من ائمة السنة ، الى غير هؤلاء ممن ينتسب الى السنة ومذهب الحديث يقولون انهم على اعتقاد احمد بن حنبل ونحوه من اهل السنة ، وهم لم يعرفوا حقيقة ما كان يقوله ائمة السنة ؛ كأحمد بن حنبل وأمثاله ، وقد بسطنا اقوال السلف ، والأئمة : احمد بن حنبل وغيره فى غير هذا الموضع .

واما البخاري وامثاله ، فان هؤلاء من اعرف الناس بقول احمد بن حنبل وغيره من ائمة السنة ؛ وقد رأيت طائفة تنتسب الى السنة والحديث : كأبى نصر السجزي وامثاله ، ممن يردون على ابى عبد الله البخاري يقولون : ان احمد ابن حنبل كان يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؛ وذكروا روايات كاذبة لا ريب فيها ؛ والمتواتر عن احمد بن حنبل من رواية بنيه : صالح وعبد الله وحنبل ، والمروذي ؛ وفوزان ، ومن لا يحصي عددهم الا الله ، تبين ان احمد كان ينكر على هؤلاء وهؤلاء وقد صنف ابو بكر المروذي فى ذلك مصنفاً ذكر فيه قول

احمد بن حنبل وغيره من أئمة العلم ؛ وقد ذكر ذلك الخلال ــ فى كتاب «السنة»، وذكر بعضه ابو عبد الله بن بطة فى كتاب « الابانة » وقد ذكر كثير من ذلك ابو عبد الله بن منده فيما صنفه فى « مسألة اللفظ » .

وقال ابو محمد بن قتيبة الدينوري : لم يختلف اهل الحديث فى شيء من اعتقادهم الا فى مسألة اللفظ ؛ ثم ذكر ابن قتيبة : ان اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً ؛ ويراد به نفس الكلام الذي هو فعل العبد وصوته ، وهو مخلوق واما نفس كلام الله الذي يتكلم به العباد فليس مخلوقاً ، وكذلك « مسألة الايمان» لم يقل قط احمد بن حنبل ان الايمان غير مخلوق ؛ ولا قال احمد ولا غيره من السلف ان القرآن قديم ؛ وانما قالوا : القرآن كلام الله ، منزل غير مخلوق ، ولا قال احمد بن حنبل ولا احد من السلف ان شيئاً من صفات العبد وأفعاله غير مخلوقة ، ولا صوته بالقرآن ، ولا لفظه بالقرآن ؛ ولا ايمانه ولا صلاته ولا شيء من ذلك .

لكن المتأخرون انقسموا فى هذا الباب انقساماً كثيراً ؛ فالذين كانوا يقولون لفظنا بالقرآن غير مخلوق ؛ منهم من اطلق القول بان الايمان غير مخلوق، ومنهم من يقول قديم فى هذا وهذا ؛ ومنهم من يفرق بين الأقوال الايمانية والأفعال ، فيقولون : الأقوال غير مخلوقة وقديمة ؛ وأفعال الايمان مخلوقة ؛ ومنهم من يقول فى أفعال الايمان ان المحرم منها مخلوق ، واما الطاعات كالصلاة وغيرها ، فمنهم من يقول : هي غير مخلوقة ؛ ومنهم من يمسك فلا يقول : هي

مخلوقة ولا غير مخلوقة ، ومنهم من يمسك عن الأفعال المحرمة ، ومنهم من يقول : بل أفعال العباد كلها غير مخلوقة او قديمة ؛ ويقول ليس مرادي بالأفعال الحركات ؛ بل مرادي الثواب الذي يجيء يوم القيامة ويحتج هذا بأن القدر غير مخلوق ، والشرع غير مخلوق . ويجعل أفعال العباد هي : القدر، والشرع. ولا يفرق بين القدر والمقدور ، والشرع والمشروع ؛ فان الشرع الذي هو امر الله ونهيه غير مخلوق ، واما الأفعال المأمور بها والمنهى عنها فلا ريب انها مخلوقة؛ وكذلك القدر الذي هو علمه ومشيئته وكلامه غير مخلوق، وأما المقدرات : الآجال ، والأرزاق ، والأعمال فكلها مخلوقة ، وقد بسط الكلام على هذه الأقوال وقائليها فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن الأمام احمد ومن قبله من أئمة السنة ومن اتبعه كلهم بريئون من الأقوال المبتدعة المخالفة للشرع والعقل ، ولم يقل احد منهم ان القرآن قديم ، لا معنى قائم بالذات، ولأنه تكلم به في القديم بحرف وصوت ،ولا تكلم به فى القديم بحرف قديم ؛ لم يقل أحد منهم لا هذا ولا هذا ، وان الذي اتفقوا عليه أن كلام الله منزل غير مخلوق ، والله تعالى لم يزل متكلماً اذا شاء ، وكلامه لا نهاية له . كما قال الله تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي) وهو قديم بمعنى : أنه لم يزل الله متكلماً بمشيئته ؛ لا بمعنى أن الصوت المعين قديم ، كما بسطت الكلام فى غير هذا الموضع على اختلاف أهل الأرض فى كلام الله تعالى :منهم من يجعله فيضاً من العقل الفعال على

النفوس . كقول طائفة من الصابئة والفلاسفة وهو أفسد الأقوال ، ومنهم من يقول هو مخلوق خلقه بائناً عنه : كقول الجهمية والنجارية والمعتزلة ، ومنهم من يقول هو معنى قديم قائم بالذات : كقول ابن كلاب والأشعري ، ومنهم من يقول هو حروف وأصوات : كقول ابن سالم وطائفة ، ومنهم من يقول تكلم بعد أن لم يكن متكلماً : كقول ابن كرام ، وطائفة .

والصواب من هذه الأقوال قول السلف والأئمة ؛ كما قد بسطت ألفاظهم فى غير هذا الموضع . ولما ظهرت المحنة كان أهل السنة يقولون : كلام الله غير مخلوق . وكانت « الجهمية » من المعتزلة وغيرهم . يقولون : إنه مخلوق ، وكان ابو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان له فضيلة ومعرفة رد بها على الجهمية والمعتزلة نفاة الصفات ، وبين أن الله نفسه فوق العرش ؛ وبسط الكلام فى ذلك ، ولم يتخلص من شبهة الجهمية كل التخلص ؛ بل ظن أن الرب لايتصف بالأمور الاختيارية التى تتعلق بقدرته ومشيئته ، فلا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا يحب العبد ويرضى عنه بعد إيمانه وطاعته ، ولا يغضب عليه ويسخط بعد كفره ومعصيته ؛ بل محباً راضياً أو غضبان ساخطاً على من علم أنه يموت مؤمناً أو كافراً . ولا يتكلم بكلام بعد كلام ، وقد قال تعالى : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وقال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقال تعالى : (فلما أسفونا انتقمنا منهم) وقال تعالى : (ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم)

وقال تعالى : (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) وهذا أصل كبير قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع .

وإنما المقصود هنا التنبيه على مآخذ اختلاف المسلمين في مثل « هذه المسائل » وإذا عرف ذلك فالواجب أن نثبت ما اثبته الكتاب والسنة ، وننفي ما نفى الكتاب والسنة . واللفظ المجمل الذي لم يرد في الكتاب والسنة لايطلق في النفي والاثبات حتى يتبين المراد به ، كما اذا قال القائل: الرب متحيز اوغيرمتحيز او هو في جهة او ليس في جهة ، قيل هذه الألفاظ مجملة لم يرد بها الكتاب والسنة لا نفياً ولا اثباتاً ، ولم ينطق أحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان باثباتها ولا نفيها .

فان كان مرادك بقولك انه يحيط به شيء من المخلوقات ؛ وليس هو بقدرته يحمل العرش وحملته ، وليس هو العلى الاعلى الكبير العظيم الذي لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو سبحانه اكبر من كل شيء ، فليس هو متحيزاً بهذا الاعتبار ، وان كان مرادك انه بائن عن مخلوقاته عال عليها فوق سمواته على عرشه ؛ فهو سبحانه بائن من خلقه كما ذكر ذلك ائمة السنة مثل : عبد الله بن المبارك واحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وغيرهم من أعلام الاسلام ، وكما دل على ذلك صحيح المنقول ، وصريح المعقول ، كما هو مبسوط في مواضع أخر .

وكذلك لفظ « الجهة » ان اراد بالجهة امراً موجوداً يحيط بالخالق ، او

يفتقر اليه . فكل موجود سوى الله فهو مخلوق . والله خالق كل شيء وكل ما سواه فهو فقير اليه ، وهو غني عما سواه ، وإن كان مراده ان الله سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه فهذا صحيح . سواء عبر عنه بلفظ الجهة او بغير لفظ الجهة .

وكذلك لفظ « الجبر » إذا قال : هل العبد مجبور او غير مجبور ؟ قيل : إن اراد بالجبر انه ليس له مشيئة ؛ او ليس له قدرة ؛ او ليس له فعل ؛ فهذا باطل ، فان العبد فاعل لأفعاله الاختيارية ، وهو يفعلها بقدرته ومشيئته ، وإن أراد بالجبر انه خالق مشيئته وقدرته وفعله ، فان الله تعالى خالق ذلك كله .

واذا قال : الايمان مخلوق او غير مخلوق ؟ قيل له : ماتريد « بالايمان ؟ أتريد به شيئاً من صفات الله وكلامه ، كقوله (لا اله الاالله)، و « ايمانه » الذي دل عليه اسمه المؤمن ، فهو غير مخلوق ، او تريد شيئاً من افعال العباد وصفاتهم فالعباد كلهم مخلوقون ، وجميع افعالهم وصفاتهم مخلوقه ، ولا يكون للعبد المحدث المخلوق صفة قديمة غير مخلوقة ، ولا يقول هذا من يتصور مايقول ، فاذا حصل الاستفسار والتفصيل ظهر الهدى وبان السبيل ، وقد قيل اكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الاسماء ، وامثالها مما كثر فيه تنازع الناس بالنفي والاثبات ، اذا فصل فيها الخطاب ، ظهر الخطأ من الصواب .

والواجب على الخلق ان ماأثبته الكتاب والسنة أثبتوه ، وما نفاه الكتاب

والسنة نفوه ، وما لم ينطق به الكتاب والسنة لانفي ولا اثبات استفصلوا فيه قول القائل ؛ فمن اثبت ما اثبته الله ورسوله، فقد اصاب، ومن نفى مانفاه الله ورسوله فقد أصاب ، ومن اثبت مانفاه الله او نفى ما اثبته الله فقد لبس دين الحق بالباطل ، فيجب ان يفصل مافى كلامه من حق وباطل ، فيتبع الحق ويترك الباطل ، وكلما خالف الكتاب والسنة فانه مخالف ايضاً لصريح المعقول، فان العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح ، كما ان المنقول عن الأنبياء عليهم السلام لا يخالف بعضه بعضاً ، ولكن كثير من الناس يظن تناقض ذلك ، وهؤلاء من الذين اختلفوا فى الكتاب (وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفي شقاق بعيد) ونسأل الله ان يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى

فصـــــل

« الاستثناء فى الايمان سنة » عند اصحابنـا ، وأكثر أهـل السنة وقالت المرجئة والمعتزلة : لايجوز الاستثناء فيه بل هوشك ؛ و « الاستثناء ان يقول : انا مؤمن ان شاء الله ، او مؤمن ارجو، او آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله ، او ان كنت تريد الايمان الذي يعصم دمي فنعم ، وان كنت تريد (إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فالله اعلم .

ثم هنا « ثلاثة اقوال » ، اما أن يقال : الاستثناء واجب فلا يجوز القطع ، وهذا قول القاضي فى عيون المسائل وغيره،واما ان يقال : هو مستحب ويجوز القطع باعتبار آخر ، واما ان يقال : كلاهما جائز باعتبار ، وانما ذكر ان الاستثناء سنة بمعنى انه جائز رداً على من نهى عنه ،

فاذا قلنا هو واجب فمأخذ القاضي انه لو جاز القطع على أنا مؤمنون لكان ذلك قطعاً على انا فى الجنة ، لأن الله وعد المؤمنين الجنة ، ولا يجوز القطع على الوعد بالجنة ، لأن من شرط ذلـك الموافاة بالايمان ، ولا يعـلم ذلك الا الله ،

وكذلك الايمان انما يحصل بالموافاة ، ولا يعلم ذلك . ولهذا قال ابن مسعود : هلا وكل الاولى كما وكل الآخرة . يريد بذلك ما استدل به من ان رجلاً قال عنده : إني مؤمن ، فقيل لابن مسعود هذا يزعم انه مؤمن ، قال : فسلوه أفي الجنة هو او في النار ؟ فسألوه ، فقال : الله اعلم ، فقال عبد الله : فهلا وكلت الاولى كما وكلت الثانية .

« قلت » : ويستدل ايضاً على وجوب الاستثناء بقول عمر : من قال انه مؤمن فهو كافر ومن زعم انه فى الجنة فهو في النار ، ومن زعم أنه عالم فهو جاهل ولما استدل المنازع بأن الاستثناء إنما يحتاج اليه لمستقبل يشك فى وقوعه ، قال : الجواب ان هنا مستقبل يشك فى وقوعه ، وهو الموافاة بالايمان ؛ والايمان مرتبط بعضه ببعض فهو كالعبادة الواحدة .

« قلت » : فحقيقة هذا القول ان الايمان اسم للعبادة من اول الدخول فيه الى ان يموت عليه فاذا انتقض تبين بطلان أولها كالحدث فى آخر الصلاة والوطء فى آخر الحج ، والأكل فى آخر النهار ؛ وقول مؤمن عند الاطلاق يقتضي فعل الايمان كله كقول مصلى وصائم وحاج ؛ فهذا مأخذ القاضي . وقد ذكر بعدها فى المعتمد « مسألة الموافاة » وهي متصلة بها وهو ان المؤمن الذى علم الله أنه يموت كافراً ؛ وبالعكس ؛ هل يتعلق رضا الله و سخطه ومحبته وبغضه بما هو عليه أو بما يوافى به .

والمسألة متعلقة بالرضا والسخط : هل هو قديم أو محدث ؟

و « المأخذ الثاني » : ان الاسم عند الاطلاق يقتضي الكمال ؛ وهذا غير معلوم للمتكلم كما قال ابو العالية : ادركت ثلاثين من اصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه ، لايقول ان ايماني كايمان جبريل فاخبار الرجل عن نفسه انه كامل الايمان خبر بما لايعلمه ، وهذا معنى قول بن المنزل : ان المرجئة تقول ان حسناتها مقبولة وانا لا اشهد بذلك ، وهذا مأخذ يصلح لوجوب الاستثناء وهذا المأخذ الثانى للقاضي ، فان المنازع احتج بأنه لالم يجز الأستثناء فى الاسلام فكذلك فى الايمان .

قال : والجواب ان الاسلام مجرد الشهادتين،وقد أتى بهما،والأيمان أقوال وأعمال ، لقوله «الايمان بضع وسبعون بابا » وهو لا يتحقق كل ذلك منه .

« المأخذ الثالث » : أن ذلك تزكية للنفس وقد قال الله : (ولا تزكوا أنفسكم) وهذا يصلح للاستحباب ، والا فاخبار الرجل بصفته التى هو عليها جائز وان كانت مدحا وقد يصلح للايجاب ، قال الأثرم فى « السنة » : حدثنا احمد بن حنبل سمعت يحيى بن سعيد يقول : ما ادركت احداً من أصحابنا ولا بلغني الا على الاستثناء قال الأثرم سمعت أباعبد الله يسأل عن الاستثناء فى الايمان ماتقول فيه ؟ قال : أما أنا فلا أعيبه [1] فاستثنى مخافة واحتياطاً ليس كما يقولون على الشك ، إنما يستثنى للعمل ، قال أبو عبد الله : قال الله : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) أي ان هذا الاستثناء لغير شك ، وقد قال النبي

(١) سقط في الاصل مقدار نصف سطر

صلى الله عليه وسلم « وانا ان شاء الله بكم لاحقون» اي لم يكن بشك في هذا وقد استثنى ، وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم « نبعث ان شاء الله » من القبر وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اني والله لأرجو ان اكون اخشاكم لله » قال هذا كله تقوية للاستثناء في الايمان .

قلت لأبي عبد الله : فكأنك لا ترى بأساً ان لا يستثنى ، فقال إذا كان ممن يقول : الايمان قول وعمل يزيد وينقص فهو اسهل عندي ، ثم قال ابو عبد الله ان قوماً تضعف قلوبهم عن الاستثناء ، فتعجب منهم ، وذكر كلاما طويلاً تركته .

فكلام « احمد » يدل على ان الاستثناء لأجل العمل ، وهذا « المأخذ الثاني » وانه لغير شك في الاصل ، وهو يشبه « الثالث » ويقتضي ان يجوز ترك الاستثناء واما جواز اطلاق القول بأني مؤمن فيصح اذا عنى اصل الايمان دون كماله ، والدخول فيه دون تمامه ، كما يقول: أنا حاج وصائم لمن شرع في ذلك ، وكما يطلقه في قوله آمنت بالله ورسله ، وفي قوله : ان كنت تعني كذا وكذا أن جواز اخباره بالفعل يقتضي جواز إخباره بالاسم مع القرينة وعلى هذا يخرج ما روي عن صاحب معاذ بن جبل ، وما روي في حديث الحارث الذي قال « أنا مؤمن حقاً » وفي حديث الوفد الذين قالوا : « نحن المؤمنون » وان كان في الاسنادين نظراً .

سئل

عن معنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: « اذا زنى العبد خرج منه الايمان فكان فوق رأسه كالظلة، فاذا خرج من ذلك العمل عاد اليه الايمان» رواه الترمذي وأبو داود. وهل يكون الزاني في حالة الزنا مؤمناً أو غير مؤمن؟ وهل حمل الحديث على ظاهره أحد من الأئمة أو أجمعوا على تأويله؟ فأجاب:

الحمد لله: الناس في الفاسق من أهل الملة، مثل الزاني والسارق والشارب ونحوهم، « ثلاثة أقسام »: طرفين، ووسط.

(أحد الطرفين): انه ليس بمؤمن بوجه من الوجوه، ولا يدخل في عموم الأحكام المتعلقة باسم الايمان، ثم من هؤلاء من يقول: هو كافر: كاليهودي، والنصراني. وهو قول الخوارج، ومنهم من يقول: ننزله منزلة بين المنزلتين؛ وهي منزلة الفاسق، وليس هو بمؤمن ولا كافر، وهم المعتزلة، وهؤلاء يقولون: ان أهل الكبائر يخلدون في النار، وان أحداً منهم لا يخرج منها؛ وهذا من « مقالات أهل البدع » التي دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة والتابعين لهم باحسان على خلافها، قال الله تعالى: (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما — إلى قوله — انما المؤمنون اخوة فاصلحوا

بين أخويكم).فسماهم مؤمنين ، وجعلهم اخوة مع الاقتتال ، وبغي بعضهم على بعض ، وقال الله تعالى : (فتحرير رقبة مؤمنة) ولو أعتق مذنباً أجزأ عتقه باجماع العلماء .

ولهذا يقول علماء السلف فى المقدمات الاعتقادية : لانكفر احداً من اهل القبلة بذنب ولا نخرجه من الاسلام بعمل ، وقد ثبت الزنا والسرقة وشرب الخمر على أناس في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يحكم فيهم حكم من كفر ولا قطع الموالاة بينهم وبين المسلمين ، بل جلد هذا ، وقطع هذا ، وهو فى ذلك يستغفر لهم ، ويقول : لا تكونوا أعوان الشيطان على أخيكم ، واحكام الأسلام كلها مرتبة على هذا الاصل .

(الطرف الثانى) : قول من يقول : إيمانهم باق كما كان لم ينقص » بناء على ان الايمان هو مجرد التصديق والاعتقاد الجازم ، وهو لم يتغير ، وإنما نقصت شرائع الاسلام ، وهذا قول المرجئة والجهمية ومن سلك سبيلهم ، وهو ايضاً قول مخالف للكتاب والسنة واجماع السابقين والتابعين لهم باحسان . قال الله تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون) وقال : (إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ــ إلى قوله ــ اولئك هم المؤمنون حقاً) . وقال : (فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله) وقال : (ليزدادوا إيمانا مع ايمانهم وقال :(فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، اعلاها قول لا إله إلا الله.وادناها اماطة الاذى عن الطريق » وقال لوفد عبد القيس: « آمركم بالايمـان بالله اتدرون ما الايمـان بالله ؟ شهادة ان لا إله إلا الله ، وان تؤدوا خمس ما غنمتم» . واجمع السلف ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، ومعنى ذلك انه قول القلب ، وعمل القلب ، ثم قول اللسان وعمل الجوارح.

فاماقول القلب فهو التصـديق الجازم باللهومـلائكتهوكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويدخل فيه الايمان بكل ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلـم .

ثم الناس فى هذا على اقسام : منهم من صدق به جملة ولم يعرف التفصيل ومنهم من صدق جملة وتفصيلاً ، ثم منهم من يدوم استحضاره وذكره لهذا التصديق ، ومنهم من يغفل عنه ويذهل ، ومنهم من استبصر فيه بما قذف الله في قلبه من النور والايمان ، ومنهم من جزم به لدليل قد تعترض فيه شبهـة او تقليد جازم وهذا التصديق يتبعه عمل القلب ، وهو حب الله ورسوله ، وتعظيم الله ورسوله ، وتعزير الرسول وتوقيره ، وخشية الله والانابة اليه والاخلاص له والتوكل عليه ، الى غير ذلك من الأحوال ، فهذه الأعمال القلبية كلها مـن الايمان ، وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد ايجاب العلة المعلول.

ويتبع الاعتقاد قول اللسان ، ويتبع عمل القلب الجوارح مـن الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك .

وعند هذا فالقول الوسط الذي هو قول أهل السنة والجماعة انهم لا يسلبون الاسم على الاطلاق، ولا يعطونه على الاطلاق. فنقول: هو مؤمن ناقص الايمان، أو مؤمن عاص، او مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته؛ ويقال: ليس بمؤمن حقا، أو ليس بصادق الايمان.

وكل كلام اطلق في الكتاب والسنة فلا بد ان يقترن به ما يبين المراد منه. والأحكام منها ما يترتب على اصل الايمان فقط، كجواز العتق في الكفارة وكالموالاة والموارثة ونحو ذلك، ومنها ما يترتب على أصله وفرعه: كاستحقاق الحمد والثواب وغفران السيئات ونحو ذلك.

إذا عرفت «هذه القاعدة». فالذي في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن» والزيادة التي رواها ابو داود والترمذي صحيحة، وهي مفسرة للرواية المشهورة.

فقول السائل: هل حمل الحديث على ظاهره احد من الأئمة؟ لفظ مشترك؛ فان عنى بذلك ان ظاهره ان الزاني يصير كافراً، وانه يسلب الايمان بالكلية، فلم يحمل الحديث على هذا أحد من الأئمة، ولا هو ايضاً ظاهر الحديث لأن قوله خرج «منه الايمان فكان فوق رأسه كالظلة» دليل على ان الايمان

لا يفارقه بالكلية ، فان الظلة تظلل صاحبها وهي متعلقة ومرتبطة به نوع ارتباط.

واما ان عنى بظاهره ما هو المفهوم منه ، كما سنفسره ان شاء الله فنعم ؛ فان عامة علماء السلف يقرون هذه الأحاديث ويمرونها كما جاءت ، ويكرهون ان تتأول تأويلات تخرجها عن مقصود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نقل كراهة تأويل أحاديث الوعيد : عن سفيان وأحمد بن حنبل — رضي الله عنهم — وجماعة كثيرة من العلماء ، ونص احمد على ان مثل هذا الحديث لا يتأول تأويلا يخرجه عن ظاهره المقصود به ، وقد تأوله الخطابي وغيره تأويلات مستكرهة ، مثل قولهم لفظه لفظ الخبر، ومعناه النهي : اي ينبغي للمؤمن ان لا يفعل ذلك، وقولهم: المقصود به الوعيد والزجر دون حقيقة النفي، وانما ساغ ذلك لما بين حاله وحال من عدم الايمان من المشابهة والمقاربة،وقولهم: إنما عدم كمال الايمان وتمامه، او شرائعه وثمراته ونحو ذلك،وكل هذه التأويلات لا يخفى حالها على من امعن النظر .

فالحق ان يقال : نفس التصديق المفرق بينه وبين الكافر لم يعدمه، لكن هذا التصديق لو بقي على حاله لكان صاحبه مصدقا بأن الله حرم هذه الكبيرة وانه توعد عليها بالعقوبة العظيمة ، وانه يرى الفاعل ويشاهده ؛ وهو سبحانه وتعالى مع عظمته وجلاله وعلوه وكبريائه يمقت هذا الفاعل ، فلو تصور هذا حق التصور لامتنع صدور الفعل منه ، ومتى فعل هذه الخطيئة فلا بد من احد « ثلاثة اشياء » .

اما اضطراب العقيدة ؛ بأن يعتقد بأن الوعيد ليس ظاهره كباطنه ، وانما مقصوده الزجر كما تقوله : المرجئة . او ان هذا انما يحرم على العامة دون الخاصة كما يقوله الاباحية ، اونحو ذلك من العقائد التي تخرج عن الملة . واما الغفلة والذهول عن التحريم ، وعظمة الرب وشدة بأسه . واما فرط الشهوة بحيث يقهر مقتضى الايمان ، ويمنعه موجبه بحيث يصير الاعتقاد مغموراً مقهوراً ، كالعقل في النائم والسكران، وكالروح في النائم .

ومعلوم ان « الايمان » الذي هو الايمان ليس باقياً كما كان ؛ اذ ليس مستقراً ظاهراً في القلب واسم المؤمن عند الاطلاق انما ينصرف الى من يكون ايمانه باقيا على حاله عاملا عمله وهو يشبه من بعض الوجوه روح النائم ؛ فانه سبحانه : يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ؛ فالنائم ميت من وجه حي من وجه، وكذلك السكران والمغمى عليه عاقل من وجه وليس بعاقل من وجه .

فاذا قال قائل : السكران ليس بعاقل فاذا صحا عاد عقله اليه كان صادقا مع العلم بأنه ليس بمنزلة البهيمة، اذ عقله مستور وعقل البهيمة معدوم؛ بل الغضبان ينتهي به الغضب الى حال يعزب فيها عقله ورأيه وفي الأثر « اذا اراد الله نفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم فاذا أنفذ قضاءه وقدره رد عليهم عقولهم ليعتبروا » فالعقل الذي به يكون التكليف لم يسلب وانما سلب العقل الذي به يكون صلاح الأمور في الدنيا والآخرة .

كذلك الزانى والسارق والشارب والمنتهب لم يعدم الايمان الذي به يستحق ان لا يخلد فى النار، وبه ترجى له الشفاعة والمغفرة، وبه يستحق المناكحة والموارثة لكن عدم الايمان الذي به يستحق النجاة من العذاب ويستحق به تكفير السيئات وقبول الطاعات وكرامة الله ومثوبته ؛ وبه يستحق ان يكون محموداً مرضياً .

وهذا يبين ان الحديث على ظاهره الذي يليق به . والله اعلم .

سئل رحمه الله :

عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » هل هذا الحديث مخصوص بالمؤمنين ، ام بالكفار ؟ فان قلنا مخصوص بالمؤمنين فقولنا ليس بشيء ؛ لأن المؤمنين يدخلون الجنة بالايمان . وإن قلنا مخصوص بالكافرين فما فائدة الحديث ؟

فأجاب : لفظ الحديث في الصحيح : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان » فالكبر المباين للايمان لا يدخل صاحبه الجنة كما في قوله : (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) ومن هذا كبر إبليس ، وكبر فرعون وغيرهما ممن كان كبره منافياً للايمان ، وكذلك كبر اليهود والذين أخبر الله عنهم بقوله : (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم ، وفريقاً تقتلون) .

والكبر كله مباين للايمان الواجب ، فمن في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يفعل ما اوجب الله عليه ويترك ما حرم عليه، بل كبره يوجب له جحد الحق ،واحتقار الخلق ، وهذا هو « الكبر » الذي فسره النبي صلى الله عليه سلم حيث سئل في

تمام الحديث . فقيل : يارسول الله ! الرجل يحب ان يكون ثوبه حسناً ،ونعله حسناً . فمن الكبر ذاك ؟ فقال : « لا إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق، وغمط الناس » وبطر الحق جحده ودفعه ، وغمط الناس ازدراؤهم واحتقارهم ، فمن في قلبه مثقال ذرة من هذا يوجب له ان يجحد الحق الذي يجب عليه ان يقربه ، وان يحتقر الناس ، فيكون ظالماً لهم معتدياً عليهم ، فمن كان مضيعاً للحق الواجب ؛ ظالماً للخلق . لم يكن من اهل الجنة ، ولا مستحقاً لها ؛ بل يكون من اهل الوعيد .

فقوله : « لايدخل الجنة » متضمن لكونه ليس من اهلها ، ولا مستحقاً لها لكن إن تاب ، او كانت له حسنات ماحية لذنبه ، او ابتلاه الله بمصائب كفر بها خطاياه ، ونحو ذلك ، زال ثمرة هذا الكبر المانع له من الجنة ؛ فيدخلها ، اوغفر الله له بفضل رحمته من ذلك الكبر من نفسه ؛ فلا يدخلها ومعه شيء من الكبر، ولهذا قال : من قال فى هذا الحديث وغيره : إن المنفي هو الدخول المطلق الذي لا يكون معه عذاب ؛ لا الدخول المقيد الذي يحصل لمن دخل النار ثم دخل الجنة ؛ فانه إذا اطلق في الحديث فلان فى الجنة ، أو فلان من اهل الجنة، كان المفهوم انه يدخل الجنة ولا يدخل النار .

فاذا تبين هذا كان معناه ان من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ليس هو من أهل الجنة ، ولا يدخلها بلا عذاب ، بل هو مستحق للعذاب لكبره ، كما يستحقها غيره من أهل الكبائر ، ولكن قد يعذب في النار ما شاء الله ، فانه

لا يخلد فى النار احد من أهل التوحيد ، وهذا كقوله : « لايدخل الجنة قاطع رحم » وقوله : « لاتدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا السلام بينكم » وأمثال هذا من احاديث الوعيد ، وعلى هذا فالحديث عام في الكفار وفى المسلمين .

وقول القائل : إن المسلمين يدخلون الجنة بالاسلام ، فيقال له : ليس كل المسلمين يدخلون الجنة بلا عذاب ، بل اهل الوعيد يدخلون النار ، ويمكثون فيها ما شاء الله ، مع كونهم ليسوا كفاراً ، فالرجل الذي معه شيء من الايمان ، وله كبائر قد يدخل النار ، ثم يخرج منها : اما بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم واما بغير ذلك ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : « شفاعتى لأهل الكبائر من امتى » وكما فى الصحيح انه قال : «اخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من ايمان » وهكذا الوعيد فى قاتل النفس والزاني وشارب الخمر وآكل مال اليتيم وشاهد الزور ، وغير هؤلاء من اهل الكبائر ؛ فان هؤلاء — وإن لم يكونوا كفاراً — لكنهم ليسوا من المستحقين للجنة الموعودين بها بلا عقاب .

ومذهب اهل السنة والجماعة : ان فساق اهل الملة ليسوا مخلدين فى النار كما قالت الخوارج والمعتزلة ، وليسوا كاملين فى الدين والايمان والطاعة ؛ بل لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب وبهذا الثواب ؛ وهذا مبسوط فى موضعه والله اعلم .

سئل شيخ الاسلام :

عن «بدعة المرازقة»

فأجاب : ثم ان جماعات ينتسبون الى الشيخ « عثمان بن مرزوق » ويقولون : أشياء مخالفة لما كان عليه ، وهو منتسب الى مذهب أحمد ، وكان من اصحاب الشيخ عبد الوهاب بن ابي الفرج الشيرازي ، وهؤلاء ينتسبون إلى مذهب الشافعي ، ويقولون أقوالاً مخالفة لمذهب الشافعي واحمد ؛ بل ولسائر الأئمة وشيخهم هذا من شيوخ العلم والدين ، له اسوة امثاله ، وإذا قال قولاً قد علم ان قول الشافعي واحمد يخالفه ، وجب تقديم قولهما على قوله مع دلالة الكتاب والسنة على قول الأئمة ؛ فكيف اذا كان القول مخالفاً لقوله ولقول الأئمة، وللكتاب والسنة .

وذلك مثل قولهم : ولا نقول قطعاً ونقول نشهد ان محمداً رسول الله ، ولا نقطع ، ونقول : ان السماء فوقنا ولا نقطع ، ويروون أثراً عن علي وبعضهم يرفعه انه قال : لاتقل قطعاً ، وهذا من الكذب المفترى باتفاق اهل العلم ، ولم يكن شيخهم يقول هذا ، بل هذه بدعة احدثها بعض اصحابه بعد موته ، واذا قيل لواحد منهم: الا تقطع ! قال : ان الله قادر على ان يغير هذه

الفرس ، فيظن انه إذا قال قطعاً انه نفي لقدرة الله على تغيير ذلك ، وهذا جهل فان هذه الفرس فرس قطعاً فى هذه الحال والله قادر على ان يغيرها .

واصل « شبهةهؤلاء » ان السلفكانوا يستثنون فى الايمان فيقول احدهم: انا مؤمن — ان شاء الله — وكانت ثغور الشام : مثل عسقلان ، قد سكنها محمد بن يوسف الفريابى—شيخالبخاري— وهو صاحبالثوري ، وكان شديداً على المرجئة ، وكان يرى « الاستثناء فى الايمان » كشيخه الثوري وغيره من السلف .

والناس لهم في الاستثناء « ثلاثة اقوال » :

منهم من يحرمه كطائفة من الحنفية ، ويقولون من يستثنى فهو شكاك .

ومنهم من يوجبه : كطائفة من اهل الحديث .

ومنهم من يجوزه — او يستحبه — وهذا اعدل الاقوال ، فان الاستثناء له وجه صحيح فمن قال : انا مؤمن ان شاء الله ، وهو يعتقد ان الايمان فعل جميع الواجبات ، ويخاف ان لايكون قائما بها، فقد احسن ولهذا كان الصحابة يخافون النفاق على انفسهم ، قال ابن ابي مليكة : ادركت ثلاثين من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ومن اعتقد ان المؤمن المطلق هو الذي يستحق الجنة ؛ فاستثنى خوفا من سوء الخاتمة فقد اصاب ، وهذا معنى مايروى عن ابن مسعود انه قيل له : عن رجل انت مؤمن؟

فقال : نعم ، فقيل له انت من اهـل الجنـة ، فقال ارجو ، فقال : هلا وكل الأولى كما وكل الثانية ، ومن استثنى خوفا من تزكية نفسه او مدحها ، او تعليق الامور بمشيئة الله فقد احسن ، ومن جزم بما يعلمـه ايضاً فى نفسه من التصديق فهو مصيب .

والمقصود ان اصـل شبهة هؤلاء «الاستثناء فى الايمان» كما عليـه اهل ثغر عسقلان ، وما يقرب منها ، وعامـة هؤلاء جيران عسقلان ، ثم صار كثير منهم يستثنى فى الاعمـال الصالحـة فيقول : صليت ان شاء الله ، وهو يخاف ان لايكون اتى بالصلاة كما امر ، وصنف اهل الثغر فى ذلك مصنفاً ــ وشيخهم ابن مرزوق ــ غايته ان يتبع هؤلاء ولم يكن هو ولا احـد قبله من اهل العـلم يمتنعون ان يقولوا : لما يعلم انه موجود هذا موجود قطعاً ، وقـد نقل بعض الشيوخ انه كان يستثنى في كل شيء وكأنه يستثنى ــ والله اعـلم ــ فى الخبر عن الأمور المستقبلة [لقوله] (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) وقوله « وانا ان شاء الله بكم لاحقون ؟ » .

والواجب موافقة جماعة المسلمين ، فان قول القائـل : قطعاً بذلك ، مثل قوله اشهد بذلك ، واجزم بذلك، واعلم ذلك ؛ فاذا قال : اشهد ولااقطـع ؛ كان جاهلا ؛ والجاهل عليه ان يرجع ؛ ولا يصر عـلى جهله ؛ ولا يخالف ماعليه علماء المسلمين ؛ فانه يكون بذلك مبتدعا جاهلا ضالا .

وكذلك من جهلهم قولهم ان الرافضي لايقبل الله توبته ؛ ويروون عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « سب اصحابي ذنب لايغفر » ويقولون : ان سب الصحابة فيه حق لآدمي فلا يسقط بالتوبة ؛ وهذا باطل لوجهين :

(احدهما) ان الحديث كذب باتفاق اهل العلم بالحديث ، وهو مخالف للقرآن والسنة والاجماع ؛ فان الله يقول في آيتين من كتابه : (ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وبهذا احتج اهل السنة على أهل البدع الذين يقولون : لايغفر لأهل الكبائر إذا لم يتوبوا ، وذلك ان الله قال : (ياعبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً) وهذا لمن تاب ، فكل من تاب تاب الله عليه ؛ ولو كان ذنبه اعظم الذنوب، وقال:(ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فهذا في حق من لمن يتب .

(الثاني) ان الحديث لو كان حقاً فمعناه انه لايغفر لمن لم يتب منه ، فانه لاذنب اعظم من الشرك ، والمشرك اذا تاب غفر الله له شركه باتفاق المسلمين كما قال تعالى : (فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وفي الاخرى (فأخوانكم في الدين) ومعلوم ان الكافر الحربي إذا سب الأنبياء ثم تاب تاب الله عليه بالاجماع ، فانه كان مستحلا لذلك ، وكذلك الرافضي هو يستحل سب الصحابة ، فاذا تبين له انه حرام واستغفر لهم،بدل ما كان منه بدل الله سيئاته بالحسنات . وكان حق الآدمي في ذلك تبعاً لحق الله ؛ لأنه مستحل

لذلك ، ولو قدر انه حق لآدمي لكان بمنزلة من تاب من القذف والغيبة . وهذا في اظهر قولي العلماء لا يشترط في توبته تحلله من المظلوم بل يكفي ان يحسن اليه في المغيب ؛ ليهدم هذا بهذا .

ومن البدع المنكرة تكفير الطائفة غيرها من طوائف المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم ، كما يقولون : هذا زرع البدعي ونحو ذلك ، فان هذا عظيم لوجهين :

(احدهما) ان تلك الطائفة الاخرى قد لايكون فيها من البدعة اعظم مما في الطائفة المكفرة لها؛ بل تكون بدعة المكفرة اغلظ أونحوها ، أو دونها، وهذا حال عامة أهل البدع الذين يكفر بعضهم بعضاً ، فانه إن قدر ان المبتدع يكفر، كفر هؤلاء وهؤلاء ، وان قدر انه لم يكفر لم يكفر هؤلاء ولا هؤلاء ، فكون احدى الطائفتين تكفر الاخرى ولا تكفر طائفتها ، هو من الجهل والظلم ، وهؤلاء من الذين قال الله تعالى فيهم : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) .

(والثاني):انه لو فرض ان إحدى الطائفتين مختصة بالبدعة لم يكن لأهل السنة ان يكفروا كل من قال قولا اخطأ فيه ، فان الله سبحانه قال : (ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا) وثبت في الصحيح ان الله قال : « قد فعلت » وقال تعالى : (ولا جناح عليكم فيما اخطأتم به) وروى عن النبي صلى الله عليه

وسلم انه قال : « ان الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان » وهو حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره .

واجمع الصحابة وسائر ائمة المسلمين على انه ليس كل من قال قولاً أخطأ فيه انه يكفر بذلك ، وان كان قوله مخالفاً للسنة ، فتكفير كل مخطيء خلاف الأجماع ؛ لكن للناس نزاع في مسائل التكفير ، قد بسطت في غير هذا الموضوع .

و (المقصود هنا) انه ليس لكل من الطوائف المنتسبين الى شيخ من الشيوخ ، ولا إمام من الأئمة ان يكفروا من عداهم ؛ بل في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « إذا قال الرجل لأخيه يا كافر ! فقد باء بها احدهما » وقال ايضاً : « المسلم اخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » . وقال: « لاتقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوناً » وقال : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم : كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .

وليس للمنتسبين إلى ابن مرزوق ان يمنعوا من مناكحة المنتسبين إلى العوفي ؛ لاعتقادهم انهم ليسوا اكفاء لهم ، بل اكرم الخلق عند الله اتقاهم ، من أي طائفة كان من هؤلاء وغيرهم ، كما قال تعالى: (يا ايها الناس إنا خلقنا كم من

ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عنـد الله اتقاكم)
وفي الصحيح « ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل : اي الناس اكرم ؟ قال اتقاهم » . وفى السنن عنه انه قال : « لافضل لعربى عـلى عجمي ، ولا لعجمي على عربى ، ولا لأبيض على اسود ، ولا لأسود عـلى ابيض إلا بالتقوى ، الناس من آدم وآدم خلق من تراب » .

آخر المجلد السابع



فهرس المجلد السابع

صفحة الموضوع

٤ – ٤٦١ «كتاب الايمان الكبير»

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
٨٣ ـ ٨٦	تفسير انما نحن مصلحون الا انهم هم وسبب نزول انما جزاء الذين يحاربون الله
٨٧	فصل فان قيل تنوع دلالة اللفظ بالاطلاق والتقييد لا يمكن دفعه لكن نقول دلالة لفظ الايمان على الاعمال مجاز أجيب بجوابين (١) كلام عام فى لفظ الحقيقة والمجاز (٢) ما يختص بهذا الموضع
٨٧ ، ٨٨	تقسيم الالفاظ الى حقيقة ومجاز اصطلاح حادث بعد القرون الثلاثة
٨٨	أول من عرف عنه التكلم بلفظ المجاز لم يعن به ما هو قسيم الحقيقة
٨٨	ليس فى أهل اللغة من قسم الالفاظ الى حقيقة ومجاز
٨٨	أول من جرد الكلام فى أصول الفقه من الأئمة لم يذكر هذا التقسيم من منع هذا التقسيم من العلماء الاكابر وأصحاب الأئمة
٨٩	قول أحمد هذا من مجاز اللغة لا يعنى به أنه استعمل فى غير ما وضع له
٨٩ ، ٩٠	أنكر طائفة أن يكون فى اللغة مجاز لا فى القرآن ولا فى غيره منهم••
٩٠	غلط من قال ان النزاع لفظى بين من أثبت المجاز وبين من نفاه وسلم أن فى اللغة لفظا مستعملا فى غير ما وضع له بقرينته
٩٠ ـ ٩٢	من قال ان اللغات اصطلاحية او توقيفية أو الهامية ، وحجته
٩٢ ـ ٩٥	هل علم الله آدم ومن حمل فى السفينة جميع اللغات التى يتكلم بها الناس الى يوم القيامة ، تفسير وعلم آدم الخ
٩٦ ـ ١٠٩	بطلان تقسيم الكلام الى حقيقة ومجاز والاعتراض على حد كل منهما ومن أمثلة ذلك الرأس وانسان العين وابرة الذراع والكلام والكلمة والحرف والشجاع والاسد والحمار
١٠٠ ـ ١٠٢	ما يسمى كلاما فى الكتاب والسنة وكلام العرب
١٠٤ ، ١٠٥	هل يجوز تأخير البيان عن مورد الخطاب الى وقت الحاجة عقلا أو شرعا
١٠٥	هل أمر بنوا اسرائيل بذبح أى بقرة أم ببقرة معينة
١٠٥	هل للفظ الصلاة والزكاة والحج معانى فى اللغة غير معناها فى الشرع
١٠٦ ـ ١٠٩	بحث فى الاطلاق والتقييد والكليات والجزئيات فى الامور العقلية والسمعية
١٠٩ ـ ١١٢	مما ادعى فيه المجاز فى القرآن والسنة لفظ الذوق والجوع والخوف والمكر والكيد والسخرية
١١٢ ـ ١١٤	من الامثلة المشهورة لمن يثبت المجاز واسأل القرية
١١٥ ، ١١٦	الطريق الى معرفة مقاصد الرسول بكلامه
١١٦	الجار فى لغة الرسول ليس هو الشريك ، الخمر فى لغته

صفحة	الموضوع
١١٦ ــ ١١٨	اخطأ المرجئة فى اسم الايمان حيث جعلوه حقيقة فى مجرد التصديق وتناوله للاعمال مجازا
١١٧	ليس لفظ الايمان مرادفا للفظ التصديق
١١٧	دلالة لفظ الايمان على الاعمال ليست دون دلالة الصلاة ونحوها عليها
١١٧ ، ١١٨	ان قيل الصلاة ونحوها لو ترك بعضها بطلت بخلاف الايمان
١١٨ ، ١١٩	عمدة المرجئة فى الايمان ليست على بيان الكتاب والسنة وأقــوال السلف وتلك طريقة أهل البدع كالمعتزلة والرافضة والملاحدة
١١٩	عمدة هؤلاء على رأيهم وما تأولوه من اللغة وعلى كتب الادب وكتب الكلام
١١٩	قول الباقلانى والقلانسى والثقفى وابن مجاهد وابن كلاب وحماد بن أبى سليمان وأبى حنيفة فى الايمان
١٢٠ ، ١٤٣ ــ ١٥٣	فصل الاشعرى وأكثر أصحابه نصروا قول جهم فــى الايمان مع نصرهم لمذهب أهل السنة فى الاستثناء فيه وغير ذلـك سبب هذا التناقض
١٢٠ ، ١٢١	كفر أحمد ووكيع وغيرهما من قال بقول جهم وهو أن الايمان هــو التصديق فقط
١٢٠ ، ١٢١	سبب طعن بعض الزيدية والمعتزلة على بعض من انتسب الى الشافعى
١٢١ ــ ١٤٣	عمدة من نصر قول الجهمية فى مسألة الايمان ما ذكره أبو بكر فى التمهيد وأجوبة الجمهور من أهل السنة وغيرهم عنها
١٣٢ ــ ١٤٠	ليس حديث النفس كلاما ، معنى الكلام ، ابن كلاب أول من جعل مسمى الكلام هو المعنى فقط ، ما احتج به وما أجيب به
١٤٠ ــ ١٤٢	قول الكرامية فى الايمان وما احتجوا به والرد عليهم
١٤٢	معنى التولى فى القرآن
١٤٣ ــ ١٤٦	خالف الاشعرى بعض أصحابه واتبعوا قول السلف فــى مسألة الايمان
١٤٧ ، ١٤٨	احتج الجهمية ومن تبعهم فى مسألة الايمان بقوله لا تجد قومــا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون الآية ولا حجة فيها
١٤٩ ، ١٥٠	اختلف قول الاشعرى وغيره فى الجهل بصفات الله هل يــكون جهلا بالموصوف
١٥٤ ، ١٥٥	فصل الذين نصروا مذهب جهم جعلوا الايمان خصلة مــن خصال الاسلام ، بطلان هذا القول وبيان تناقضه
١٥٦ ــ ١٥٩	مخالفة هؤلاء لما احتجوا به من قوله قالت الاعراب آمنا الآية
١٦٠ ، ١٦١	فصل ومما يدل من القرآن على أن الايمان المطلق مستلزم للاعمال قوله تعالى ...

صفحة | الموضوع

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
٢٨٨ ، ٢٨٩	أهل البدع أعرضوا عن بيان الرسول وبنوا دين الاسلام على مقدمات يظنون صحتها اما فى دلالة الالفاظ او المعانى العقلية كما صنعت المرجئة فى سمى الايمان والاسلام وغيرهما
٢٨٩ ـ ٢٩٣	عمدة المرجئة فى أن الايمان هو التصديق قوله وما أنت بمؤمن لنا والجواب عنه ، ليس لفظ الايمان مرادفا للفظ التصديق وذلك من وجوه
٢٩٣ ـ ٢٩٧	قولهم لا يكون التصديق الا بالقلب أو اللسان عنه جوابان .
٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧	اكثر التنازع بين أهل السنة فى مسألة الايمان نزاع لفظى لكن صار ذلك ذريعة الى بدع أهل الكلام والى ظهور الفسق واللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب ، ايضاح ذلك
٢٩٨	الاقوال المنحرفة فى هذه المسألة ، مما يحتج به على الخوارج
٢٩٨ ـ ٣٠٢	هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى احكامها لا فى معنى الاسماء كاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج والايمان والنفاق والكفر والاسلام والمسكين
٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ـ ٣٥٥	من نفى عنه الرسول اسم الايمان أو الاسلام فلا بد أن يكون ترك بعض الواجبات ، قد يجتمع فى العبد مع الايمان شعبة من شعب النفاق وقد يعذب بالنار ثم يدخل الجنة
٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١	حد الايمان عند أهل السنة وعند الجهمية والمرجئة
٣٠٨ ، ٣٠٩	حكم من ترك الصلاة متعمدا حتى ذهب وقت الظهر الى المغرب والمغرب الى نصف الليل
٣٠٩ ـ ٣١١	أبو عبيد له مصنف فى الايمان ذكر فيه من قال ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص
٣١٢	قد يجتمع فى الانسان ايمان ونفاق وايمان وكفر لا ينقل عن الملّة
٣١٣	شرح حديث جبريل الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر
٣١٤ ـ ٣١٦	فصل ومما يسأل عنه انه اذا كان ما اوجبه الله من الاعمال الظاهرة أكثر من هذه الخمس فلماذا قال الاسلام هو الخمس الظاهرة
٣١٧ ـ ٣٣٦	فصل قال محمد بن نصر واستدلوا على أن الايمان هو ما ذكر بأن الله سمى الصلاة وسائر الطاعات ايمانا الخ
٣٥١ ، ٣٥٢	اسم المسلمين فى الظاهر يجرى على المنافقين ظاهرا
٣٥٦ ـ ٣٥٨	أصل جامع تنبنى عليه معرفة النصوص ومرد ما تنازع فيه الناس الى الكتاب والسنة

صفحة	الموضوع
٣٦٣ ، ٣٦٤	قول القائل الطاعات ثمرات التصديق الباطن يراد به شيئان
٣٧٥ ، ٣٧٦	والمقصود أن هنا قولين متطرفين قول من يقول الاسلام مجرد الكلمة والاعمال ليست داخلة فى مسمى الاسلام وقول من يقول مسمى الاسلام والايمان واحد
٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٨	الرد على قول محمد بن نصر أن الله سمى الايمان بما سمى به الاسلام وسمى الاسلام بما سمى به الايمان
٣٧٩ ، ٣٨٠	قول المروزى لا فرق بين من زعم أن الاسلام هو الاقرار وأن العمل ليس منه وبين المرجئة اذ زعمت أن الايمان اقرار بلا عمل ، ورده
٣٨٠ ، ٣٨١	مذهب المرجئة التفريق بين لفظ الدين والايمان والفرق بين الاسلام والايمان وقد حكى عنهم بعض السلف عدم التفريق
٣٨١ ، ٣٨٦	كلام السلف كان فيما يظهر لهم ويصل اليهم من كلام أهل البدع كحكايتهم مذهب المرجئة والجهمية والقدرية وغيرهم
٣٨١ ـ ٣٨٥	حقيقة مذهب قدماء القدرية انكار العلم السابق والكتابة السابقة أول من ابتدعه والرد عليهم
٣٨٥ ، ٣٨٦	مذهب متأخريهم انكار عموم مشيئة الله وخلقه حكم القدرية والرواية عنهم مذهب الجبرية أيضا
٣٨٦ ـ ٣٩٠	أقوال المرجئة ثلاثة ، كان أحمد أعلم بمقالات الناس من أبى ثور وغيره ، معنى ما نقل عن أبى ثور
٣٩٠ ـ ٤٠٣	أجمع كتاب يذكر أقوال أحمد فى مسائل أصول الدين وفروعه مما نقل عنه فى الرد على طوائف المرجئة واحتجاجه عليهم ، ايضاح المؤلف لمقاصد أحمد
٣٩١ ـ ٣٩٣	ما يريد الأئمة بلفظ المجمل والمطلق والعام ، تحذير أحمد من المجمل والقياس ومعنى ذلك
٤٠٢	قول الجهمية فى صفات الله وكلامه يرجع الى تعطيل محض ، انكار علماء الاسلام عليهم
٣٩٤ ، ٣٩٥	ذم الأئمة للارجاء
٤٠٣ ـ ٤٠٧	تناقض من نصر قول جهم فى مسائل الايمان وسببه
٤٠٧ ـ ٤٠٩	يرى المرجئة أن التفاضل انما هو فى الاعمال دون الايمان الذى فى القلوب
٤٠٨ ، ٤٠٩	لا يجب على كل مسلم أن يعرف كل خبر وكل أمر فى الكتاب والسنة ومعناه والعمل به
٤٠٩ ـ ٤١٦	بيان غلط من سوى بين الاسلام والايمان وقال ان الله سمى هذا بما سمى به هذا ، الناس فى الايمان والاسلام على أربعة أقوال
٤١٥ ـ ٤١٩	مسالة الاستثناء فى الايمان والصواب فيها مع ذكر الحجج

صفحة — الموضوع

صفحة الموضوع

٤٦١ - ٦٤١ «كتاب الايمان الاوسط»

صفحة	الموضوع
٥٠١	فصل التكفير بمطلق الذنوب والتخليد فى النار لم يذهب اليهما أحد من أئمة الدين وكذلك الوقف فى أهل الكبائر
٥٠٢ ـ ٥٠٤	لا يعرف من جزم بأنه لا يدخل النار أحد من أهل القبلة ، القول بأنه ماثم عذاب أصلا من أقوال الملاحدة والكفار كقول المتفلسفة ان الرسل خاطبوا الناس بالتخييل وقول الباطنية وملاحدة المتصوفة، حججهم والرد عليهم
٥٠٤ ـ ٥٠٧	فصل ثم بعد ذلك تنازع الناس فى اسم المؤمن والايمان نزاعا كثيرا منه لفظى وكثير منه معنوى ، المأثور عن السلف فى تعريف الايمان وزيادته ونقصانه
٥٠٧ ، ٥٠٨	أول من أنكر تفاضل الايمان ودخول الاعمال فيه والاستثناء فيه حماد بن أبى سليمان واتبعه ... تبديع السلف لهؤلاء ، وعدم تكفيرهم
٥٠٧ ، ٥٠٨	المحفوظ عن أحمد تكفير الجهمية والمشبهة ولم يكفر أعيانهم بل صلى خلفهم ودعا لهم وأنكر باطلهم ولم يكفر الخوارج ولا القدرية اذا أقروا بالعلم
٥٠٨ ـ ٥١٠	قول جهم فى الايمان ولوازمه ، الانكار عليه وتكفير من قال به ، قول الكرامية والصالحى والاشعرى وأصحابه وأصحاب أبى حنيفة
٥١٠	أصل نزاع الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم أنهم جعلوه شيئا واحدا اذا زال أو ثبت زال جميعه أو ثبت
٥١٠ ، ٥١١	ثم قالت الخوارج والمعتزلة الطاعات كلها من الايمان فاذا ذهب بعضها ذهب بعض الايمان فذهب سائره ، وقالت المرجئة والجهمية ليس الايمان الا شيئا واحدا لا يتبعض
٥١١ ـ ٥١٣	زعم ابن الخطيب وأمثاله ممن يقول بقول جهم فى الايمان أن الشافعى متناقض شبهتهم ومنتهى نظر من منع أن يكون فى الرجل طاعة ومعصية
٥١٣	غلط من الاصوليين من أنكر تفاضل العقل والايجاب والتحريم
٥١٣ ـ ٥٢٢	مما يتعلق بهذا الموضع الكلام فى شعب الايمان هل هى متلازمة فى الانتفاء وهل هى متلازمة فى الثبوت
٥١٤ ـ ٥٢٢	أما الاول فان الحقيقة الجامعة لامور اذا ازال بعض تلك الامور فقد يزول سائرها وقد لا يزول ولا يلزم من زوال بعض الامور المجتمعة زوال سائرها
٥١٥ ـ ٥١٨	هل يلزم زوال الاسم بزوال بعض الاجزاء كأسم الايمان والصلاة والقرآن والحج
٥١٨ ـ ٥٢٠	اذا قال المعترض هذا الجزء داخل فى الحقيقة وهذا خارج منها ؟

صفحة	الموضوع
٥٢٠ ـ ٥٢٢	وحينئذ فقد يجتمع فى الشخص الواحد ايمان ونفاق وبعض شعب الايمان وشعبة من الكفر
٥٢٢ ـ ٥٥١	الثانى أن شعب الايمان قد تتلازم فى الثبوت عند القوة ولا تتلازم عند الضعف
٥٢٤	النفاق نفاقان أصغر وأكبر كالكفر والشرك
٥٢٤ ، ٥٢٥	الشارع ينفى اسم الايمان عن الشخص لانتفاء كماله الواجب وان كان معه بعض أجزائه فيجوز أن يقال للفاسق مؤمن باعتبار وليس مؤمنا باعتبار وأن الرجل قد يكون مسلما لا مؤمنا ولا منافقا مطلقا
٥٢٥	أنكر أحمد على من فسر قوله « ليس منا » ليس مثلنا أو قال ليس من خيارنا وقال هذا تفسير المرجئة ، وأخطأ من قال يخرج من الايمان بالكلية
٥٢٦ ـ ٥٢٨	هل الارادة بلا عمل يحصل بها عقاب ، حجج ذلك
٥٢٨	تصديق القلب وعلمه يقتضى عمل القلب
٥٢٨ ، ٥٢٩	القلوب مفطورة على الاقرار بالله ومعرفة الحق لكن قد يعرض لها ما يفسدها
٥٢٩ ـ ٥٣٣	ليس لفظ الايمان مرادفا للفظ التصديق ، ما بينهما من الفروق
٥٣٤ ، ٥٣٥	كفر ابليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن أصله عدم التصديق والعلم بل ...
٥٣٥	غلط من قال ان مجرد علم الله بالمخلوقات وأن مجرد ارادة الممكنات بدون القدرة موجب لوجودها ومن قال مجرد القدرة كافية
٥٣٥	ما تستلزم الارادة والحياة من الصفات
٥٣٦ ، ٥٣٧	يذهب الفلاسفة الى أن سعادة النفس فى مجرد أن تعلم الحقائق بدون حب الله وعبادته ، من غلط فى معنى اللذة
٥٣٧ ـ ٥٣٩	لا بد فى الايمان من تصديق الله ورسوله وحب الله ورسوله ، ليس الجهل ببعض أسماء الله وصفاته كفرا
٥٣٩	أقسام العلماء ومعنى قوله انما يخشى الله من عباده العلماء
٥٣٩ ، ٥٤٠	ما يراد بلفظ العقل والجهل والجاهلية
٥٤٣	جماهير المرجئة على أن عمل القلب داخل فى الايمان يشهد لذلك نقل الاشعرى ذلك عنهم فى كتب المقالات
٥٤٣ ـ ٥٥١	المرجئة اثنا عشر فرقة فيما ذكر الاشعرى وغيره وهى ...
٥٥١ ـ ٥٦٢	فصل اذا عرف أن أصل الايمان فى القلب فاسم الايمان تارة يطلق على ما فى القلب من الاقوال والاعمال القلبية وتكون الاقوال والاعمال الظاهرة لوازمه وموجباته ، وتارة على ما فى القلب والبدن فالاعمال الظاهرة تسمى اسلاما ،

صفحة	الموضوع
	وتدخل فى مسمى الايمان تارة ولا تدخل فيه تارة لاختلاف دلالة الاسم بالافراد والاقتران
٥٥٣	اخطأ جهم ومن اتبعه فى أن مجرد ايمان بدون الايمان الظاهر ينفع فى الآخرة
٥٥٣ ، ٥٥٤	نصر أبى طالب للنبى كان حمية جاهلية فلم يتقبل
٥٥٤	منشأ الغلط فى هذه الموضع من وجوه وهى
٥٥٥ ، ٥٥٦	اشتد نكير السلف على المرجئة لما أخرجوا العمل من الايمان وقالوا ان الايمان يتماثل الناس فيه واخرجهم العمل مشعر أنهم أخرجوا أعمال القلوب أيضا
٥٥٧ ـ ٥٦٢	القائلون بمذهب جهم صرحوا بأن سب الله ورسوله وكل كلمة من كلام الكفر ليس كفرا فى الباطن ولكنه دليل فى الظاهر على الكفر ... ، الرد على هؤلاء
٥٦٢ ـ ٥٧٥	فصل والتفاضل فى الايمان بدخول الزيادة والنقص فيه يكون من وجوه
٥٦٢ ـ ٥٦٤	(١) الاعمال الظاهرة (٢) زيادة الاعمال الباطنة
٥٦٤ ٥٦٥	(٣) أن نفس التصديق والعلم فى القلب يتفاضل باعتبار الاجمال والتفضيل (٤) أن نفس العلم والتصديق يتفاضل
٥٦٥	(٥) أن التفاضل فى هذه الامور من جهة الاسباب المقتضية لها
٥٦٦	(٦) أن التفاضل يحصل من جهة دوام ذلك وثباته وذكره واستحضاره
٥٦٦ ـ ٥٦٨	(٧) ليس فيما يقوم بالانسان من جميع الامور أعظم تفاضلا من الايمان
٥٧٠ ـ ٥٧٤	غلط وضلال من زعم أنه عرف الله حق معرفته بحيث أنه لم يبق له صفة الا عرفها وأن ما لم يعرفوه ولم يقم لهم دليل على ثبوته كان معدوما فى نفس الامر وأن من جهل بعض أسمائه وصفاته يكون كافرا
٥٧٥ ـ ٥٩٧	فصل اذا علم أن الايمان الذى فى القلب يستلزم الامور الظاهرة لم يبق الا نزاع لفظى فى أن موجب الايمان الباطن هل هو جزء منه داخل فى مسماه أو لازم للايمان
٥٧٥ ، ٥٧٦	اذا قرن اسم الايمان بالاسلام أو العمل كان دالا على الباطن فقط واذا أفرد اسم الايمان فقد يتناول الباطن والظاهر
٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩	فان قيل اسم الايمان انما يتناول الاعمال مجازا
٥٧٧ ـ ٥٨٠	فان قال قائل ان اسم الايمان انما يتناول مجرد ما هو تصديق الخ
٥٨١	فان قيل الاعمال الظاهرة تكون من موجب الايمان تارة وموجب غيره أخرى الخ

صفحة الموضوع

صفحة	الموضوع
	أنه يجحد الخالق ؟
٦٣٠ ، ٦٣١	الذين كانوا فى زمن يوسف مقرون بالله وانما شركهم فى العبادة
٦٣١ ، ٦٣٢	جحود الصانع لم يكن دينا غالبا على أمة من الامم وانما دينهم الاشراك ، مذهب الاتحادية
٦٣٣	المستكبر عن عبادة الله يكون مشركا ، والمستكبر الذى لا يقر بالله فى الظاهر أعظم كفرا وان كان عالما بوجود الله وعظمته
٦٣٣ ، ٦٣٤	يجب على الانسان ان يحذر من حال من فيهم استكبار وقسوة عن العبادة ومن قوم فيهم عبادة باشراك
٦٣٥ ـ ٦٣٨	« وقال فصل لفظ الاسلام يستعمل على وجهين متعديا ولازماً وهو يجمع معنيين وله معنيان وله مرتبتان » .
٦٣٦ ، ٦٣٧	ليس لفظ الايمان مطابقا للفظ التصديق ، الاقوال فى حد الايمان
٦٣٧	الايمان فى الكتاب بمعنيين أصل وفرع واجب
٦٣٨ ـ ٦٤١	« وقال فصل اصل الايمان هو الايمان بالله ورسوله » .
٦٣٨	جمهور الخلائق يقرون بالله الا ... الايمان بالرسول هو المهم
٦٣٨ ، ٦٣٩	الايمان هو الاقرار ، قول القلب ، عمله ، معنى الايمان بالله ، الكفر
٦٣٩ ، ٦٤	نفاق أهل العلم والكلام ، ونفاق أهل العمل والعبادة ، النفاق المحض وحكم صاحبه ، النفاق الاصغر
٦٤١ ـ ٦٥٥	« سئل عن الايمان بالله ورسوله هل فوقه مقام او حال وهل تدخل فيه جميع المقامات وهل تكون صفة الايمان نورا يوقعه الله في القلب وهل يكون لأول حصوله سبب وما الأسباب التى يقوى بها الايمان » الخ .
٦٤٢ ، ٦٤٣	اسم الايمن يستعمل مطلقا ومقيدا اذا استعمل مطلقا دخل فيه جميع ما يحبه الله ... دليل ذلك ، أفضل الايمان
٦٤٤ ، ٦٤٥	أصل الايمان فى القلب وما كان فى القلب فلا بد أن يظهر موجبه على الجوارح غلط من ظن ان ما على الجوارح ليس داخلا فى مسماه ولكنه من نتائجه الدالة عليه
٦٤٥ ، ٦٤٦	ان قال القائل هذا يدل على أن الايمان ينتفى عند انتفاء هذه الامور لا يدل على انها من الايمان

صفحة	الموضوع
٦٤٦	هل اسم الايمان للاصل فقط أوله ولفروعه وكذلك الحج
٦٤٧	لا ينفى الايمان الا لترك واجب لا لترك مستحب ، لفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب والكمال المستحب
٦٤٧	اذا استعمل لفظ الايمان مقيدا فقد يقال انه متناول لذلك وقد يقال ان دلالة الاسم تنوعت بالافراد والاقتران
٦٤٨	قد يعطف على الايمان بعض شعبه أو أنواعه الرفيعة فيشعر العطف بالمغايرة
٦٤٩	فصل وأما قول القائل هل تكون صفة الايمان نورا يوقعه الله فى القلب
٦٥٠	فصل وأما قوله هل يكون لاول حصوله سبب ، الاسباب التى يحصل بها الايمان
٦٥١	فصل وأما قوله فالاسباب التى يقوى بها الايمان الى أن يكمل هل يبدىء بالزهد أو بالعلم أو بالعبادة او يجمع بين ذلك
٦٥١ ، ٦٥٢	المشروع لكل انسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير ، اذا ازدحمت شعب الايمان قدم ما كان أرضى لله وهو عليه أقدر
٦٥٢ ، ٦٥٣	الزهد ، الزهد فيه انقسام الى المزهود فيه والى نفس الزهد من يذم من الزهاد
٦٥٣ ، ٦٥٤	فصل وأما طريق الوصول الى ذلك فبالاجتهاد فى فعل المأمور وترك المحظور والاستعانة بالله على ذلك ، معنى احرص على ما ينفعك
٦٥٥ ـ ٦٦٦	« وقال فصل واما الايمان هل هو مخلوق او غير مخلوق » .
٦٥٥ ـ ٦٥٨	متى بدأ النزاع فى هذه المسألة وسببه ، وحكمها
٦٥٥ ـ ٦٦٢	مسألة اللفظ بالقرآن وسماع الصوت به وسبب النزاع فى ذلك
٦٥٦ ـ ٦٥٨	سماع الشىء ورؤيته يختلف بالاطلاق والتقييد
٦٥٨ ـ ٦٦٢	النزاع بين أهل السنة والحديث فى مسألتى القرآن والايمان وسببه ، مراد البخارى ومحمد بن نصر بقولهما الايمان مخلوق ، امتحن البخارى مع أنه لم يخالف أحمد فى ذلك
٦٥٩	من الروايات المكذوبة عن احمد أنه قال لفظى بالقرآن غير مخلوق
٦٦١	لا يقال القرآن قديم ، قول السلف لم يزل الله متكلما اذا شاء ، معنى ذلك ، أقوال أهل البدع
٦٦٣ ، ٦٦٤	مسألة الجهة والتحيز والجبر والايمان والاستفصال فيها
٦٦٤ ، ٦٦٥	الواجب على الخلق اثبات ما أثبته الله ونفى ما نفاه والاستفصال فى غير ذلك







